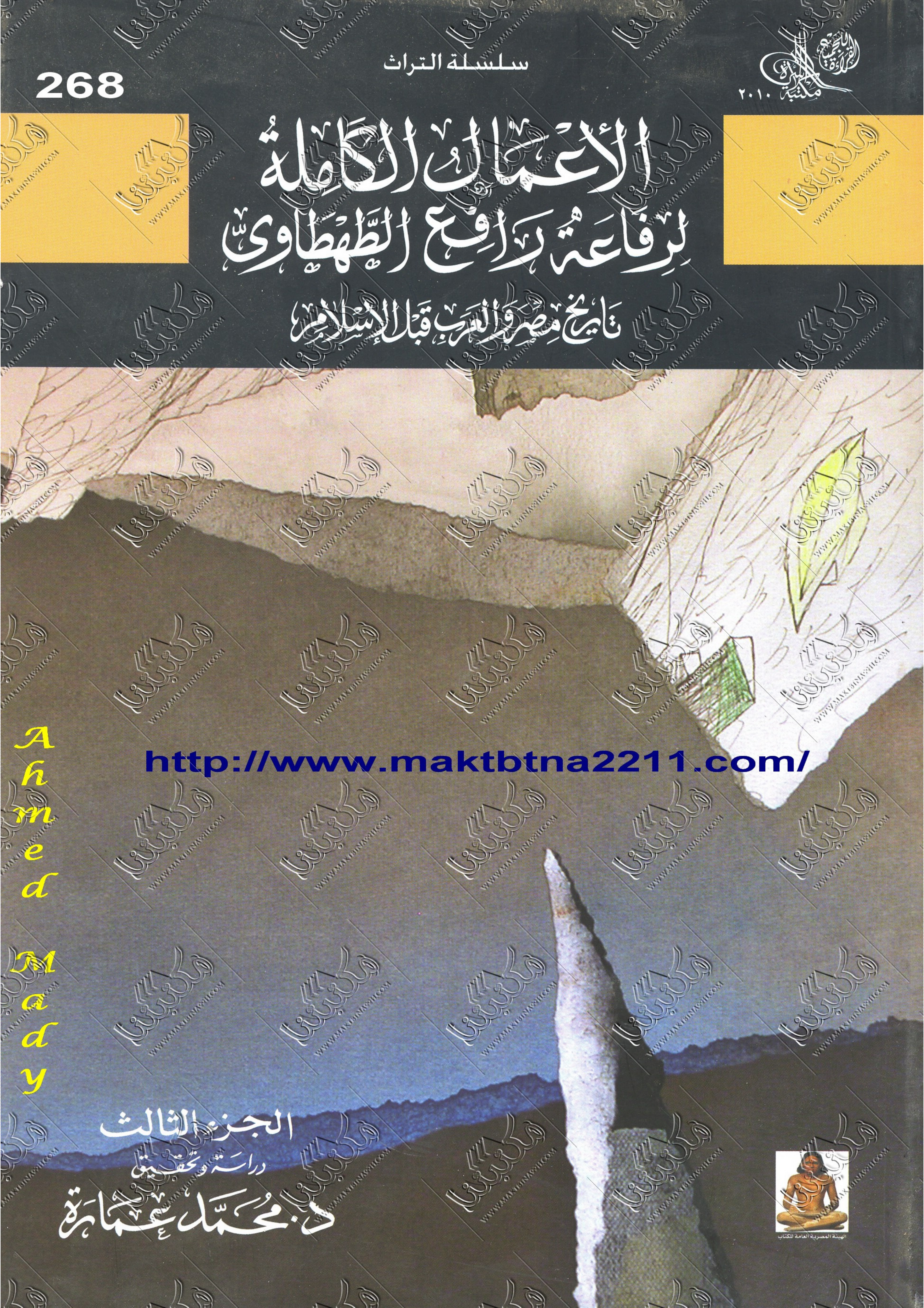

سلسلة التراث
268
مكتبة الأسرة ٢٠١٠
الأعمال الكاملة
لرفاعة رافع الطهطاوي
تاريخ مصر والعرب قبل الإسلام
http://www.maktbtna2211.com/
Ahmed Mady
الجزء الثالث
دراسة وتحقيق
د. محمد عمارة
الهيئة المصرية العامة للكتاب


Sat.
28/7/2012
Riyadh
بمناسبة مرور عشرين عامًا مشروع القراءة للجميع عام
حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني "أرسطو" كان معلمًا للإسكندر المقدوني، وإنه
استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته ولعًا بكل أشكال التعليم والقراءة،
حتى إن الإسكندر لم إلا وفي يده كتاب، لكن حدث إحدى رحلاته
أن عانى قلة الكتب، أمر أحد قادة جيوشه بعض ما
يقرؤه وكان هذه الحكاية قد جاء بمثابة حساب للنفس عما
لا يعاني أحد قلة الكتب وجودًا وثمنًا، فتجلت مكتبة الأسرة، التي بدأت عام
١٩٩٤، هي المصالحة التي تجاوزنا بها تلك المشكلة تحقيقًا للإتاحة
للكتاب، وذلك إصداراتها المتنوعة
والدعم المادي الذي أسعار تلك الإصدارات في
متناول الجميع. وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات
مشروع القراءة للجميع، لكننا أخيرًا أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة
الأسرة طول العام حكمة قديمة ما زال وهي أن
تستطيع القراءة ضعف ما يراه الآخرون.
سوزان مبارك
20 عشرون عامًا
القراءة للجميع
دار الشروق
طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ٢٠١٠/٢٠١١
ISBN # 9789774217127
6 221149 010416
مكتبة الأسرة ٢٠١٠
٢٠ جنيهًا



الأعمال الكاملة
لرفاعة رافع الطهطاوي

الجزء الثالث

تاريخ مصر والعرب قبل الإسلام

دراسة وتحقيق
د. محمد عمارة

مكتبة الأسرة
٢٠١٠

توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى **مهرجان القراءة للجميع** جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية **للقراءة للجميع** طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة، وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى

والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان **القراءة للجميع**؛ أصبحت **مكتبة الأسرة** من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكَّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل **مكتبة الأسرة** هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

مكتبة الأسرة

٢٠١٠



(يضم هذا الجزء من الأعمال الكاملة للطهطاوى ما كتبه كجزء أول فى كتابه المعنون (أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل..)

الفهرست

المقالة الرابعة

فى ملوك الدولة الخامسة والثلاثين وهى دولة الروم العيسوية بمدينة القسطنطينية

(وفيها عدة أبواب)

الخطبـــــة

الحمد لله خالق مصباح الكائنات، وفالق أصباح الموجودات، ونور الأرض والسموات، والعالم بأسرار الماضى والآت، والقائم على كل نفس بما كسبت من المخلوقات. خلق فسوى، وقدر فهدى، وأبدى وأبدع على أحسن الصور جميع المصنوعات. والصلاة والسلام على صاحب الآيات البينات، والمعجزات الباهرات، من فاز من عظَم القدر بالمعنى الأعم بجليل الصفات، وامتاز فى محكم الذكر بالمعنى الأخص بجَميل الهبات، فى قوله تعالى: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ (يوسف: ٣) إن فى ذلك لآيات، وعلى آله الشجاعة والثبات، وأصحابه الذين وثبوا فى تجديد الفتوحات أعظم الوثبات، وأيدوا دين الحق القويم، وهدوا الخلق إلى صراط مستقيم، وهدّوا قوى الزيغ والضلالات، ورفعوا قواعد الإسلام، وردعوا أولى الشبه والجهالات، فلا أمة من الأمم إلا اقتبست من زواهر عقولهم النيرات، ولا ملة من الملل إلا التمست من أزاهر عقولهم المنيرات.

(أما بعد)، فيقول قليل البضاعة، عبده رفاعة، هذه شماريخ[1] حدائق يانعة الأزهار، وتواريخ حقائق ساطعة الأنوار، رافعة الأستار، مفصحة عن جميع من حكم مصر من الدول والملل فى جميع الأعصار، سواء كان من أهل الوطن المنتسبين، أو من الأجانب المتعصبين، المحبين للتوطن بها والراغبين، والمجدين فى

---

(١) الشماريخ، مفردها: شمروخ ـ بضم الشين ـ وهو العذق الذى تنبت فيه وتتعلق ثمار النخل وحبات العنب.

حسن التربية والمهذبين، قبل الإسلام أو بعده، ممن بذل جهده فى التمدين أو لم يبذل فيه جهده، اقتطفتها من الكتب العديدة، واستخرجتها من التواريخ القديمة والجديدة، عربية كانت أو غير عربية، متجنبا فيها الأقاويل غير المرضية، مما يظهر بعرضه على ميزان العقل إنه من محض الخرافات، أو مما تولع به الإخباريون والقصاص من اختراع الأباطيل والخزعبلات، أو مما توهمه أرباب الأوهام الفاسدة من العجائب التَّخَيُّلِيَّة التى بدون فائدة، إذ كثير من كتب السير مشحون بخوارق العادات، ومملوء ببوَارق خيال الاعتقادات، مما ليس بمعجزة ولا كرامة، والجزم به فى مقام التاريخ الأرفع مما يخفض مقامه.

وليعلم الطالب أن السيرا تجمع ما صح وما قد أنكرا

فلهذا اكتفيت بذكر جوامع الكلم فى هذا التاريخ النافع، وبيان ما اشتمل عليه فيما يخص أزمان مصر مما يتعلق بالمدنية والعسكرية من الوقائع، مع الإعراب عن صيغ المبانى والعوامل، ورفع أعلام الفتوحات إلى فواعلها، ونصب معالم الهياكل، والإفصاح عما سلف من إبداع الفنون والصنائع، واختراع وسائل عموم المنافع، ووسائط المصانع، مع ما يضاف إلى ذلك من ملاحظات اقتضاها الحال، أو من إيقاظات تربط ما تأخر بما سبق، وارتضاها المقال، حيث أوجبها الكلام لدفع المنافاة بين العبارات السابقة واللاحقة، أو للجمع بين الأقوال المختلفة لتصحيح التوفيق بينها والمصادفة، فجاد هذا التاريخ بالنسبة لما سواه بشفاء الغليل، لما احتوى عليه من اقتران المدلول بالدليل، فهو فى الظاهر تاريخ أم الدنيا، وعنوان ملوك المملكة العليا، حيث إن مصر كنانة الله فى أرضه، ولها العلائق الأكيدة مع سائر العالم فى طوله وعرضه، ولكن فى الحقيقة ونفس الأمر تاريخها جامع لتاريخ سائر الممالك والملوك، فلهذا سلكت فى تعميمه أحسن السلوك، فقد اشتمل على ذكر الحنفاء والخلفاء والعلماء والحكماء والسلاطين والأساطين والأمراء والوزراء، وجميع ما اقتضاه فن الاستطراد، وأوجبته المناسبة وحكم به الأسلوب الحكيم لبيان المرام والمراد، حتى صار أهلا لأن ينطق بالأثنية الخيرية، ويبسط أكف الدعاء فى البكرة والعشية، لحامى حمى الديار المصرية، ومعيد بهجتها الأصلية.

وكنت أنا الحامى حقيقة وائل كما كان يحمى عن حقائقها أبى

ومنعش نشأتها الأولية، ومجدد نجدة الملة الإسلامية، ومشيد أركان الأحكام النظامية، ألا وهو الملك الجليل، عزيز مصر إسماعيل، أمده الله بطول البقاء، ووفقه لتنجيز مقاصده العلياء، ورزقه مزيد الارتقاء.

ثم لما صادفت تصنيف هذا التاريخ عناية القوة الفاعلية، وساعدت ترصيفه رعاية النخوة الإسماعيلية، ووافق صدور الأمر بطبعه وتمثيله، أثناء العهد من عقد العهد لنجله الأكبر تاج الملك وأكليله، سميته (أنوار توفيق الجليل، فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل) ليكون محبوك الطرفين، متحليا بأسمى الأصل والفرع الأشرفين.

الإهـــــداء

ولما كان من عادة من ألف مثل هذا الكتاب أن لا يتحفه إلا لأمير رفيع الجناب، خبير بمزايا ما اشتمل عليه من الفصول والأبواب، حتى يكون كفوا للوقوف على دقائق مبناه ورقائق معناه، وكان صاحب الدولة نجل العزيز، موصوفا بمحاسن العقل المكتسب والغريز، وله فى فن التاريخ كمال التمييز، وجب علىّ تقديمه إليه، وعرضه عليه، وإهداؤه لحضرته السنية، ليكون أول تاريخ لمصر أحرز هذه المزية.

معروض الإتحاف، ومفروض الاستعطاف، لولى عهد مصر الوثيق، حضرة محمد باشا توفيق

يا أيها الأمير الجليل، وسمير المجد الأثيل، وسرى[1] بنى إسماعيل، وياسمى جده الأعلى، الذى أحيا مصر فكان بها أولى.

من المعلوم لدى دولتك العلية، والمفهوم لفطنتك الألمعية، أن بارىء النسم، وخالق الأخلاق والشيم، ورافع الأقدار والهمم، ومالك رقاب الأمم، قد خص أصلك الكريم، ووالدك البر الرحيم، بالفكرة الوقادة، والفطنة النقادة، وعوده بأن

(١) معناها الأصلى: النهر الصغير.

تكون قضايا أفكاره منتجة، وهدايا أنوار تصوراته منبلجة، وزوايا أسرار تصرفاته قائمة ومنفرجة، وسرايا أنصار مشروعاته فى سبل الظفر منتهجة، ووفقه لإحياء مآثر مصره، وتجديد مفاخر عصره، وقوى قدم سعيه فى تلك المناهج، فتقوى عزمه بما ابتهج به التاج الخديوى من المباهج.

ملك زهت بمكانه أيامه حتى افتخرن به على الأيام

وتفرد فى مصره عن المشارك والمماثل، حيث أتى بما عجز عنه الأوائل، كأنه مصداق قول القائل:

وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

فلما رأى من أثمار غرسه ما يرضيه، وتحقق من أيناع ثمرات أمانيه، وأن مسند هذا الحديث متصل إليه بالعنعنة عن جده وأبيه.

فإن الماء ماء أبى وجدى وبئرى ذو حفرت وذو طويت

استحسن أن يعهد بالعزازة لأكبر بنيه.

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم فى الحادثات إذا دجون نجوم

منها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخريات رجوم

فكنت أيها الأمير الأولى بهذا العز المترفع، والأحرى بإحراز شرف هذا الموضع، وصرت الأبهى الأبهج، والأبهر الأبلج، بل كنت مصداق ما قيل:

فليس على المجد والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك

ولما كان المجد التليد الموهوب، لا يمدح إلا إذا اقترن بالمجد الطريف المكسوب، وكان العزيز مجمع المَجدين، ومنجع السَّعدين، هداك النجدين، وحياك السؤددين، وحلاك من المحاسن ببردين:

أبوك الذى أعطى على الحمد ماله وحاز المعالى واحتوته المكارم

فيصبح فى جمع المكارم والعلا ويدلج فى حاجات من هو نائم

إذ نبه فطنتك من السِّنة، وأمدك بالتربية الحسنة، وأعدك للمعارف المستحسنة، وعدلك بفهم اللغات والألسنة، كما وشحك بأسنى المناقب، ورشحك بأسمى المراتب.

إن الجمـــال معــــادن ومنــاقب أورثـن مجـــدا

فمن ذا الذى يسوم نفائس المعالى من أبناء الملوك كسومك؟ أو من يسود قومه بعلم السلوك كما تسود فى ظل العزيز أعزة قومك؟ كما قيل:

وكل فضيــلة فيهــا سنــاء وجدت العلم من هاتيك أسنى

فلا تعتـــدّ غير العلم ذخـــرا فإن العـلـم كـــنز ليس يفـنى

وهذه العناية التجهيزية، بالرعاية العزيزية، هى التى تقول لك بلسان حالها:

فأقم لنفسك فى انتسابك شاهدا بحديث مجـد للقديم محقق

فمجلس المناظرة شاهد عدل وأفصح مجيب، بما شاهده غير مرة من شواهد حضور عقلك العجيب.

بعكـــاظ يعشــــى الناظــرين إذا هـــم لمحــوا شـــعـــاعـــه

وهـــل يجحـــــد جاحـــد أن كـــل ألف لا تعد بواحـد

......

أدامـــك اللـــه للـبـــرايا لتعمـــر المـلك والدروســا

من رام أن يحـــرز المـــزايـا يفـــوز إن ترضـــه أنيســا

فكأنما العلوم الرياضية تنبع من بحار أفكارك الفيضية، وتصويرها بأنواع الرسوم والأشكال يرفع وهم الواهم ويدفع الإشكال، وأما نطق جنابك باللغات، على اختلاف أوضاعها، وتنوع أنواعها، فمؤذن بغاية الجزالة والفصاحة، ونهاية الحماسة والسماحة، كما أن خطك سبائك الذهب النضار، يروق النواظر ويعجب

النظار، ولك فى علم الجغرافيا والتاريخ حظ وافر، تقتدر أن تنافس فيهما أقرانك من أبناء الملوك وتفاخر، لا سيما وأن تعلم التاريخ أليق بأبناء الأمراء والسلاطين، إذ هو معرفة أحوال الأمم والدول والملوك الماضيين، فتقف الملوك به على أحوال من مضى من الأنبياء والأصفياء وغيرهم من أرباب الرياسات والسياسات، ممن مر زمانهم وانقضى، فيعتبر القارىء لسيرتهم من تلك الأحوال، ويتحصل على ملكة التجارب من معرفة تقلبات الزمان والانتقال، فيحترز عن تجرع غصص ما نقل من المضار، وينتهز التمتع بفرص ما قيل من النافع والمبار، فالتاريخ عمر ثان للناظرين، فمن تعلمه فكأنما زاد فى عمره، وأحسن عاقبة أمره، لا سيما من اشتغل به، مثل ذاتك البهية، من عنفوان الشباب ونضرة الإهاب، فإنه يكتسب فى زمن الشبيبة التجارب ليحفظه إلى أوان الأبان، فيحوز الشاب فى وسائل الرياسة الرسوخ، فكأنه مارسها ولا ممارسة الشيوخ.

فلما آنست أن رأى الجميع قد أجمع على أن جنابك المنيع لا يزال يبذل الجهد فى اتقان هذا الصنيع، ويجول فى حومة التاريخ أتم مجال، ويسبق رجال الدولة، ويحوز قصب السبق فى مضمار هذا النضال، ويصيح باللسان الفصيح فى ميدان الكفاح:

من صد عن نيرانها فأنا ابن قيس لا براح

بادرت باقتطاف أزهار التواريخ المصرية، واجتناء أثمار الآثار القديمة والعصرية، لأتشرف بوسمها باسم جنابك العالى، ورسمها بعنوان كوكب سعدك المتلالى، المتسابق إلى طلب المعالى، فإن تفضلت بقبوله فهذا غاية آمالى. فلا عجب أن صادف المقبول نسيم القبول، أو وافق الراجى فتح أبواب الوصول.

على أن لسان الحال لا شك ينبيك، بأن هذا أثر من مآثر نعماء أبيك، فإهداؤه إلى جنابك، وتقديمه إلى أعتابك، من باب شكر النعمة والامتنان، الواجب فى كل المذاهب والأديان، لا سيما وأن شكر النعمة السالفة، يفيض كما قيل نعمة مستأنفة، بل هو تميمة لتمام النعمة، كما نقل عن بعض أهل الحكمة.

ولكن ما مقدار هذه المجموعة المؤلفة، بالنسبة لما تجدد فى عهد العزيز من التآليف الجليلة المختلفة؟ ومع ذلك فقد أجريت القلم فى حلبة اليراعة، وأخرجت نفسى من أرض الخمول إلى روض البراعة، وأطلقتها من عقال الفهاهة واللُّكنة، إلى أعمال الفكرة والفطنة، فأبرزت ما كان مستترا من الضمائر المستكنة، والفضل فى ذلك للعزيز ذى الفضل والمنة.

بلغ الله عزيز مصر فى حوزك المعالى مناه، كما يحبه منك ويرضاه، وأرفق اجتهاده بالتوفيق سبل السداد والإصابة، وهذا دعاء وافق أوقات الإجابة. آمين.

(تنبيـــه وجيـــه يحتـــاج إليه النبيـــه)

قد قسم العلماء التاريخ إلى: أثرى، وبشرى.

فالأول: ما كان من طريق الشرع كالقصص الواردة فى الكتب السماوية.

والثانى: ما وقف عليه الناس من الوقائع والحوادث الحاصلة فى الأعصر القديمة والجديدة فأرخوه.

وهذا القسم الثانى، الذى هو التاريخ البشرى، ينقسم إلى قسمين: قديم، وحديث، من حيث الأزمان الخالية وما بعدها.

ومن جهة أخرى ينقسم إلى: عمومى، وخصوصى، كتاريخ جميع الأمم، أو تاريخ أمة واحدة، كتاريخ المصريين مثلا.

وأشهر تواريخ قدماء الأمم تاريخ قدماء مصر ثم تاريخ الصوريين، يعنى أهل بلاد السواحل الشامية، فإنهم كانوا فى سالف الأعصار ملوك البحار، وتجارهم أعظم التجار، حتى يقال: إنهم، لغناهم، كثرت عندهم الفضة وأثقلتهم فى أسفارهم فاتخذوها هلوبا للمراكب عوض الرصاص! ثم أهالى أثور[1] وبابل، وهم قدماء العراق والأكراد التى من مدنها بابل ونينوى، ثم أمة الفرس الأولى

---

(١) أشور.

وأذربيجان، ولو أن هاتين المملكتين انضمت إلى ملوك العراق إلا أنهما لهما(*) شهرة عظيمة حتى أن دولة العجم عريقة فى المعرفة والحكمة. ثم أمة الهند، ويقال إنها كانت معمورة بالعلوم والآداب والتجارة والسياسة قبل غيرها من البلاد، لكثرة خيراتها. ويفوق جميع هؤلاء الأمم - ما عدا المصريين - أمة اليونان، التى تاريخها أحسن تواريخ ممالك آسيا فائدة، لشجاعة أهلها، وحريتهم، وعظم شأنهم، وإتقان سياستهم، وإحكام عمائرهم، فلذلك كان له ذكر فى أكثر الأحيان فى هذا التاريخ.

* * *

(*) كان الأولى أن يكون هذا السياق على النحو التالى: (ولو أن هاتين المملكتين انضمتا إلى ملوك العراق إلا أن لهما) (الشروق).

تمهيـــد

لتاريخ مصر، وتوطيد لا غنى عنه للطالب المستفيد

قال بعض العلماء: التاريخ معاد[1] معنوى، لأنه يعيد الأعصار وقد سلفت، وينشر أهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت، وبه يستفيد ملكة التجارب من كان غرّا، ويلقى آدم ومن بعده من الأمم وهلم جرا، فهم لديه وقد ضمتهم بطون القبور، أحياء فى عداد الحضور، ولولا التاريخ لجهلت الأنساب، ونسيت الأحساب، ولم يعلم الإنسان أن أصله من تراب، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها، وعمى على الأواخر حال قدمائها، ولم نحط علما بما تداولته الأرض من حوادث سمائها. ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب من كتب الله المنزلة، فمنها ما أتانا بأخباره المجملة، ومنها ما أتانا بأخباره المفصلة.

وقد ورد أن فى (التوراة) سفرا من أسفارهم يتضمن أحوال الأمم السالفة ومدد أعمارها[2]، وكانت العرب على جهلها بالقلم وخطه، والكتاب وضبطه، تصرف إلى التاريخ جل دواعيها، وتجعل له أوفر حظ من مساعيها، وتستغنى بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتعتاض برقم صدورها عن رقم سطورها، كل ذلك عناية منها بأخبار أوائلها، وأيام فضائلها. وهل الإنسان إلا ما أسسه ذكره وبناه؟ وهل البقاء

---

(١) أى بعث جديد ونشور وعودة للحياة بعد الموت.

(٢) الإشارة إلى (أخبار الأيام) الأول والثانى وانظر كتاب الدكتور فؤاد حسنين عن (التوراة) عرض وتحليل. ص ٤٦ - ٤٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦م.

لصورة لحمه ودمه لولا بقاء معناه؟ فالتاريخ عمود اليقين، والنافى للشك بما فيه من التخصيص والتعيين، به تعرف الحقوق وتحفظ العهود، ويبرز ما فى مقام الغيب إلى مقام الشهود، ومن أرخ فقد حاسب على عمره، ومن كتب وقائع أيامه فقد كتب إلى من بعده بحوادث أمره، ومن قيد ما شاهد فقد أشهد أحوال أهل عصره من لم يكن فى عصره، ومن كتب التاريخ فقد أبدى إلى من بعده أعمارا، وبوأ مسامعهم وأبصارهم ديارا ما كانت لهم ديارا؟!

يا خليلى ذكرانى بسعدى وأسعدانى بذكر سكان ربعى

فاتنى أن أرى الديار بعينى فلعلى أرى الديار بسمعى

* * *

ولا يخفى على ضمائر أولى البصائر، وخواطر أهل الفضل الباهر، أن مصر نازعت قدماء الأمم فى الأقدمية، فسلموا لها أنهم دونها فى مرتبة الأهمية، وإن لم تسبقها أمة فى ميدان التمدنية، ولا فى حومة تقنين القوانين وتشريع أحكام الأحكام المدنية، ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة ولا ملة، ولا أنكرت الاستضاءة بنور نبراسها مملكة عظيمة ولا دولة. فما اختصت به مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تنطفىء، وتشرق شمس بهجتها ثم تختفى، فكأنما نورها شىء ما كان، ولا لمع ضوؤها فى زمن من الأزمان، وأما مصر فأغرب شىء من بقاء شمس سعدها، وارتقاء كوكب مجدها، أنها بقيت سبعين قرنا حافظة لمرتبتها العليا، لها اليد البيضاء والسلطنة المعنوية على سائر ممالك الدنيا، ولها الأرجحية فى النفوذ والتأثير، وفى معيار العلوم فضلها شهير.

فقد كانت فى أيام الفراعنة أم أمم الدنيا، وكانت شوكة سلاحها قوية، وهيبتها فى القلوب متمكنة عليه، وفى أيام الإسكندر، ومن بعده من البطالسة، وأزمان دولة الرومانيين القاهرة العابسة، كانت مصر أيضًا رحيبة الدولة، مهيبة الصولة، لما انتقش فى سجايا قلوب الأمم من علو فخارها، وارتسم فى مرايا الملل من رفعة منارها، فكانت إهابتها بالقوة المعنوية بقدر إهابتها أيام الفراعنة بالقوة الحسية،

أو ليس أن حكماء الإسكندرية وعلماءها وفلاسفتها اشتهروا بالعلوم العقلية، لا سيما علم الأخلاق والعوائد، وكثرت آراؤهم ومذاهبهم، وأخذ عنهم الصادر والوارد، والمتردد والوافد، عموم المنافع والفوائد، فتشعبت منها العلوم فى سائر معالم البلاد، فتغيرت أحوال البلاد تغايير حثيثة، ونشأ عنها صورة حوادث الأزمان الحديثة.

وكذلك فى القرون الوسطى المعلومة، التى افتتاحها فتوح الإسلام لمصر على حالة مفهومة، تجدد فى مصر مالا مزيد عليه من التقدمات والأهمية، مما لا يكاد يوجد فى غيرها من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، إذ كانت قطب رحى ديار الإسلام، ومركز دائرة شريعة خير الأنام، فقد انتصر سلاطينها على ملوك الإفرنج، وغلبوا الجم الغفير، وهزموا الجند الكثير، وظهروا عليهم فى جهاد أهل الصليب، وخلصوا بلاد القدس وغيرها من أيديهم بتوطين النفس فى الحرب على الشدة والتصليب. ولما ظهر ملك فرنسا بجهة دمياط والمنصورة[1]، ظهر عليه جند مصر فرجعت جيوشه مهزومة مقهورة، وفادى بنفائس الأموال نفسه، وعاد إلى بلاده وعادى تخمينه وحدسه.

ومن سوابق هذه المخالطات المشرقية، وعلائق التقدمات الأندلسية، انتشر التمدن من المشرق إلى المغرب، وأعظم الفضل لديار مصر فى انتشار هذا التمدن المرقص المطرب.

وفى ابتداء هذا القرن الذى نحن فيه، لا تخفى حوادثه الشهيرة على التنبيه، فقد تغلب فيه عليها الفرنساوية، ورجوا باستلائهم عليها بلوغ الأمنية، ويأبى الله إلا ما أراده، حيث أعدها لغيرهم وأنجز مراده، فكانت من نصيب صاحب عزيمة ولا عزيمة الإسكندر، ورب شكيمة ولا شكيمة كسرى وقيصر، فمن مثل إنسان عين الكمال وكمال عين الأنساب، جنتمكان محمد الاسم عليّ الشان، فإنه أحيا مصر

(١) الإشارة إلى الحملة الصليبية التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع، وهزيمته عند مدينة «المنصورة» سنة ١٢٥٠م. انظر دراستنا عن هذه المعركة فى كتابنا (معارك العرب ضد الغزاة) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

حياة طيبة، وأبرز فيها إلى عالم الشهادة الأمور المغيبة، وورثها لسلالته من بعده، حتى وصلت إلى حفيده إسماعيل الصادق فى وعده، الواثق بعهده، فاقتفى الفرع أثر أصله فى إحياء ما أماته الحدثان[١]، واعتنى بجمع ما شتته الملوان[٢]، واعتمد فى تنجيز مقاصده على مولاه، وقال: (وما توفيقى إلا بالله) فرفع فى عهده على أودية مصر أعلام العوارف والنعم، ونشر على أنديتها ألوية المعارف والحكم، فمكن من أواوينها أصول الكياسة والرياسة، ودون فى دواوينها قوانين التدبير والسياسة، وقوى عزم الشرائع والأحكام، وأيد ملك مصر بتأسيس قواعد الجند المصرى على أقوى تأسيس وإحكام، وأخذت العلوم والفنون فى الارتقاء إلى درجة الكمال، وتوفرت فيها وسائل تحسين الحال وتنعيم البال، كتنظيم مجالس الملة، وتعظيم حقوق الأهالى وإعزازهم بعد المذلة. وعسى بكثرة غرائب الرغائب، ورغائب الغرائب، أن يأتى مستقبلها بالعجائب، ويزدحم على موردها العذب أرباب المآرب من المشارق والمغارب، وتنفرد بشد الرحال إليها، ووفود فحول الرجال عليها، حتى يقول علماؤها لعلماء غيرها من الممالك، ونساكها لغيرهم من أهل المناسك، ما قاله قدماؤها من الحكماء للحكيم «سولون»[٣] أحد عقلاء اليونان: أنتم يا عصبة الحكماء من اليونان، جميعكم بعد عندنا من الشبان والفتيان، ليس فيكم كهول فى الفضل ولا شيوخ، ولا من له فى ديوان المعارف قدم ثابت ولا رسوخ.

فمن هنا يعلم أن ديار مصر فى سائر الأوقات والحالات لها الأهمية الكبرى، والمدخلية العظمى، فى سائر الحوادث الخارجية وفى جميع المهمات، ولها الامتياز الأوفر الأوفى، قديما وحديثا كما لا يخفى، فكأنها قسم[٤] كامل على حدتها من

---

(١) يغمز الطهطاوى عهدى عباس الأول وسعيد.

(٢) الملوان: الليل والنهار، وواحدها: ملا - بفتح الميم وتنوين اللام المفتوحة.

(٣) مشرِّع ومصلح أثينى شهير عاش حوالى (٦٤٠/ ٦٣٥ - ٥٥٩ ق.م) وتعد إصلاحاته الدستورية الأساس للديمقراطية الأثينية، كما كان لإلغائه استعباد الإنسان عند عجزه عن سداد الدين الذى استدانه بضمانة شخصه تطورا هاما ضد نظام الرق.

(٤) أى قارة من قارات اليابسة.

الأقسام المعمورة، فهى وحدها معتبرة كإفريقية أو آسيا أو أوروبا، منبعا للحوادث المشهورة، بل جميع هذه الجهات الثلاث بمنافعها مغمورة، بل شرعت الآن تنافس إفريقية فى تنمية القطن والمزارع، لتكثير فوائد الصنائع وترويج المنافع. وبالجملة، فهى التى قد فتحت لجميع البلاد المعمورة أبواب الفخار المأثورة، فلا غرو أن اشتركت معهم الآن بهذا المجد الذى انفردت به المدة المديدة، واختصت به فى القرون العديدة، بل لا يزال - إن شاء الله تعالى - الفخار يلازمها، ولا يبرح المجد يسالمها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

تقسيم تاريخ مصر إلى أقسام وضعية بناء على أدوارها الطبيعية

لا بأس بتقسيم تاريخها العمومى من العهد القديم إلى عهدنا هذا إلى قسمين أصليين:

الأول: حالة ما قبل الإسلام.

والثانى: حالة ما بعده.

ويتفرع عن الأول فرعان:

أحدهما: زمن الجاهلية.

وثانيهما: إشهار دين النصرانية بالأوامر الرسمية الصادرة عن طيوديس[1] قيصر الرومانيين.

فحالة ما قبل الإسلام عبارة عن الزمن الذى بقيت مصر فيه عاكفة على عبادة الأوثان والأصنام، أو تمسكت فى آخر أمرها بدين النصرانية، واتبعت شريعة عيسى عليه السلام. وهو كناية عن دورين من الزمن: دور الجاهلية، ودور النصرانية، فالأول هو ما كان التمدن فيه منحصرا فى عبادة الأوثان، والكتابة بالقلم القديم المصرى، والتكلم باللسان المصرى القديم أيضا، والتعلق ببناء الهياكل والمعابد

(١) النطق المعاصر لاسمه هو «ثيودوسيوس». . وسيأتى الحديث عنه فى مكانه من هذا الجزء.

والقصور الدهرية التى بقيت آثارها على حافتى النيل، وافتتاح هذا الدور من افتتاح الحكومة الملوكية بمصر، ومدة هذا الدور خمسة آلاف وثلثمائة وخمس وثمانون سنة شمسية قبل الهجرة، وانتهاؤه قبل الهجرة فى أول سنة مائتين وإحدى وأربعين سنة، فكان فى هذه السنة صدور أوامر القيصر طيودوسيس بالنهى فى مصر عن عبادة الأوثان والتحريج عليها، ووجوب التمسك بدين النصرانية فى سائر أطراف وأكناف الممالك الرومانيين، ومن جملتها افتتاح الدور الثانى من تاريخ نشر تلك الأوامر الرسمية إلى السنة الثامنة عشرة من الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ومدته مائتان وتسع وخمسون سنة كلها شمسية إلا الثمانى عشرة التى من الهجرة، وكانت مصر فى هذا الدور الثانى بتمامه من ملحقات قياصرة الروم بالقسطنطينية.

وأما حالة مصر بعد الإسلام فهى معتبرة دورا ثالثا، وابتداؤه من سنة ثمانى عشرة من الهجرة المحمدية، يعنى من زمن فتوح عمرو بن العاص لمصر، إلى عهدنا هذا، ومدتها ألف ومائتان وخمس وستون سنة هلالية[1].

أقدمية مصر فى التقدم والتمدن

ثم إن مصر فى القديم والحديث لينة الأخلاق، سهلة العريكة، تتكىء من أرائك الطاعات والمناسك على أنعم أريكة، أزلية التمدن، أبدية التدين، ناشطة على العمل، باسطة أكف الرجاء والأمل بخصوبة مزارعها واعتدال قطرها المعين على تحصيل منافعها. كانت أهاليها مثرية ولم تزل غنية، مشغولة عن الفتن والشرور المتولدة فى جمعيات البلاد الأجنبية، وهمة أهلها فى تثمير الأرزاق، وعبادة الملك الخلاق. دأبهم من القديم: التجارة والصناعة والفلاحة، يكثر منهم عدد الطوائف أرباب الصنائع المرغوبة، كالحياكة الجيدة، والصباغة بالألوان المحبوبة، ومن قديم الزمان يحسنون صياغة المعادن السبعة، وصناعة الصينى والزجاج والترصيع

---

(١) تحدد هذه الإشارة تاريخ تأليف الطهطاوى لهذا الكتاب، وهو سنة ١٢٨٣هـ أى سنة ١٨٦٦م.

والتطعيم بالصدف والعاج، ونحو ذلك مما كان لع أعظم رواج، فكانت عندهم الصنائع فى أعلى درجات الكمال، وكانت ثمرات عقولهم ونتائج أذهانهم لا تنشأ إلا عن فحول الرجال. انتقلت آثار صنائعهم إلى البلاد القاصية، وكثرت فيها الرغبات فى الممالك الطائعة والعاصية، حتى اشتهر عند جميع الأنام أن حكماءهم وهرامستهم(١) الذين يقال إنهم تلقنوا العلوم من إدريس عليه السلام وتلقوا عنه أسرار المنافع والشرائع والأحكام.

والسر فى هذا التقدم العجيب، وحسن التمدن الغريب، فى أزمان بعيدة العهد عن ظهور النواميس والشرائع، وتلاوة الكتب السماوية على الآذان والمسامع، هو أن قدماء القبائل والعشائر الأوائل إما أن تكون طبيعة بلادهم تلائم فى المعيشة القنص والصيد، أو رعى الماشية والتنقل من جهة إلى أخرى بلا شرط ولا قيد، فالقبيلة الصيادة أو الراعية يبطىء تقدمها فى التمدن، ولا تصل إلى درجة عالية، لأن مورد كسبها ضعيف، ومصدر احتياجها لطيف، تقنع من العيش بدون الطفيف، فلا تصل إلى التمدن بسرعة، ولا تتجرع منه بجرعة، إلا أن هرعت إلى محله، وطمعت فى بقعة غير البقعة.

وأما الأمة التى طبيعة إقليمها تلائم الفلاحة والزراعة، وتصريف نتائج هذه البضاعة، فإنها تركض فى ميدان التقديم، وتسعى فى مضمار الترتيب والتنظيم، فبقدر حاجتها إلى تحصيل أدوات الفلاحة والزراعة تنبعث عزيمتها إلى البحث عن اختراع الفنون واقتراح الصناعة.

فهكذا كانت ضرورة الديار المصرية، حيث أوجبت خصوبة أرضها أن تكون صنائعها قسرية، إذ الفلاحة تستدعى انتخاب الفصول والأزمان، ومعرفة سير النجوم ومساحة البلدان، وهندسة الآلات والعمارات، وحفظ المحصولات فى المبانى والعمارات، ووقاية الأموال والنفوس فى المدينة الحصينة والبندر المحروس،

---

(١) نسبة إلى «هرمس»، شخصية عالمية أسطورية، نسبوا إليها أول حديث فى الطب، وعندهم أن مصر كانت وطن هذه الشخصية

والتمتع برفاهية الحال، وتنعيم البال، وتحسين العاقبة والمآل، ونقل ما زاد عن احتياجاتها إلى البلاد الأجنبية، وجلب ما ليس عندها من الجهات الخارجية، فاتسعت دائرتها بهذه المثابة، وتفرعت أفنان وسائلها ومقاصدها فى رياضة فنون النجامة[1] والنجابة، وتشبث حواسها بإدراك الحفظ المعنوى والأمنية.

ترتيب مملكة مصر فى القديم وسياستها وأخلاقها وعوائدها

ولما تمكن من عقلها وجوب الرابطة بين الراعى والرعية والرئيس والمرؤوس والسائس والمسوس، وعرفت أن الحكومة الملكية بهذه الصورة لا تقوى اعتماديتها إلا باستشارة رجال المشورة، نشرت لملكها الأعلام والبنود، وأمدته بالأموال والجنود، واتخذته حامى الحمى، وأضافت إلى ديوانه جماعة العلماء والعقلاء والحكماء، وجعلته على هذا الوجه مركز الإنصاف، وإليه المرجع فى الوفاق والخلاف، ولهذا كان أمناء الدين فى أول الحكومة الملوكية، فى الأزمان البعيدة الأقدمية، لكونهم أرباب امتياز وخصوصية، ومعارف حقيقية، واستقامة أمور وعدل جمهورية، يرتبون ديوان الملك وسياسته العمومية والمنزلية، وإذا انتقل الملك إلى دار البقاء، حكموا عليه بأنه كان فى أيامه من أهل السعادة أو الشقاء.

وبيان ذلك أنه كان إذا مات ملكهم مزقوا ثيابهم، وغلقوا فى الهياكل والمعابد أبوابهم، ومنعوا تقريب القربان، وامتنعوا من عمل عيد أو موسم أو مهرجان، واستمروا على هذا الحال بوصف الحزن فى هذا المأتم اثنين وسبعين يوما، إجلالا لمنصبه المكرم، وانتشر مرتين جموع الذكور والإناث فى الشوارع والحارات فى كل يوم للندب وإنشاد المراثى، فكانت هذه المدة مأتما حافلا يحزن فيه الخاص والعام، فإذا انقضت هذه الأيام وضعت جثة الملك محنطة مُصبَّرة فى دهليز المقبرة، ثم بحثوا عن جميع ما صنعه الملك من خير أو شر، وفحصوا بغاية الدقة على الأثر والخبر، بمحضر ألوف من الناس كل يعدد محاسن الملك ومساويه، ويذكر سيرته

(١) الظهور.

حسنا أو رداءة وجميع مساعيه، ويسبر أفعاله المرضية أو غير المرضية، ويحكم فى ذلك برأى جمهور الجمعية، فإن حكمت بدفنه دفن بهذا الاحترام على مقتضى مقامه الملوكى وإلا حرم من هذا الإكرام، وتجرد عما يجب لعظامه من التبجيل والإعظام.

ولم يكن للأهالى المصرية ولا لعامة الرعية تداخل فى حكم الملك إلا فى هذه القضية، ومع أن هذه المداخلة بعد الموت خفيفة هينة، فكانت نتيجتها شريفة بيِّنة، حيث إنه لما حُرم الدفن كثير من الملوك الفراعنة اجتهد خلفاؤهم فى إصلاح العمل، وسلوك سبيل العدل، خوفا من المناقشة بعد الموت والمطاعنة، وهالهم إهانة جثتهم بعد الممات، كما هال أهل الحق خشية سوء الخاتمة والخوف من العرض على رب السموات.

وفيما عدا هذه الحالة كان المصريون يحترمون ملوكهم بقدر الاستطاعة، ويصرفون إليهم كمال الانقياد والطاعة، حتى كادوا أن يعبدوهم كعبادتهم العجل والثور، وينقلوهم من طور البشرية إلى أشرف طور، لأنهم يقولون إن من قدر له فى الأزل منصب الملوكية، ووفق للعدل فى الرعية، وصنع الخير والمعروف مع سائر البرية، فلا عجب إن كان بشرا فى مظهر الألوهية.

وقد كانت ملوكهم تُختار من بين أمناء الدين فى جمعية عمومية أربابها من المبعوثين من كل إقليم برسم متوكلين ونواب للمداولات، وعليهم فى الآراء مدار الاستصواب، فيجتمعون فى البريا[١] التى بين «ميت[٢] رهينة» و«الفيوم»، فكان يتشكل منهم جمعية عموم تعقد فى الحوادث المهمة، والوقائع المدلهمة، كالصلح والحرب، وتجديد التراتيب العمومية، وتغيير الدولة عند خلو الكرسى من الذات الملوكية. ولم يكن من شأن الملوك مباشرة الدعاوى ولا الحكم بأنفسهم فى الوقائع، بل كانت المحاكم محلا للأقضية والأحكام، موظفة مدققة فى إجراء قواعد القوانين

(١) الصحراء.

(٢) على الضفة الغربية للنيل، جنوب شرقى أبو صير، وإلى الشمال الشرقى من سقارة.

والأصول على أتم إتقان وإحكام، فكانت مدينة «منف»[١] و«عين شمس» بالأقاليم البحرية، ومدينة «أبو»[٢] بالأقاليم القبلية، يخرج منها فخام القضاة والحكام، وكل مدينة تعطى عشرة من القضاة لإجراء الأحكام، فيجتمع من الثلاث مدن ثلاثون قاضيا لمجلس القضاء، وكان للثلاثين قاضيا الحق فى نصب قاض منهم رئيسا عليهم، وبعد نصبه يكملون عدة الثلاثين من مدينة القضاة العشرة الذين نقص منهم الواحد، وكانت نفقاتهم على طرف الحكومة، ومرتبات رئيسهم من بيت المال جسيمة، ولا تقام الدعاوى فى مجلس القضاء إلا بالمكاتبة، ولا يسمع التداعى والتخاصم بالمشافهة والمخاطبة مخافة أن تنجذب نفوس القضاة من سماع كلام أحد الخصمين وتستميل قلوبهم فصاحته أو عذوبة ألفاظه، فربما ترتب على ذلك الإغراض فى الأحكام، فكان يكتب المدعى شكواه أولا، ويعين مقدار ما يلتمس اعتياضه فى نظير ما خسره أو ما حصل له من الإساءة، فيعطى للمدعى عليه صورة ما كتبه خصمه ليطلع عليه، فيرد كلام خصمه ويناقض رؤوس جُمله، ثم يجوز أن يعطى جواب المدعى عليه للمدعى عساه أن يجيب عنه، وكذلك يجوز أن يُعطى للمدعى عليه بعد ذلك، فإذا فرغت المناقشات والمحاورات وجب على مجلس القضاة، بعد البحث فى القضية، أن يحكم فيها بما يظهر له، فيكتب الحكم أيضا ويختم الحكم رئيس القضاة على وجه عجيب.

وذلك أن رئيس المجلس له زنجير[٣] من الذهب معلق فى عنقه، فيه صورة من الجوهر، عليها تمثال الحق مصور، فعند افتتاح المذاكرة لابد من تعليق هذه الصورة، فإذا صدر الحكم من المجلس صدق عليه الرئيس بختمه بصورة الحق ووجهها صوب أحد الخصمين الحاضرين بالمجلس حين الختم علامة على أنه ظهر له الحق وأنفذه.

---

(١) تقع أطلالها عند قرية ميت رهينة، بمركز البدرشين، على بعد خمسة وعشرين كيلومترا، تقريبا، من مدينة الجيزة.

(٢) بجزيرة الفنتين المقابلة لأسوان (سونو)، فى النيل.

(٣) الزنجير هنا بمعنى السلسلة.

كيفية الحدود والعقوبات عند المصريين

وكان للمصريين أحكام غريبة تدونت فى كتب شرائعهم، وذلك كعقاب الحانث فى يمينه بقتله، وسر ذلك عندهم أن الحانث ارتكب ذنبين من الكبائر، كونه حلف كاذبا، فقد خان معبوده بالفجور فى حلفه به، وأنه قد غش الناس بيمينه الفاجرة ليصدقوه، فأوقعهم فى تصديق الكذب. ومن أحكامهم أن من رأى فى طريقه من يقتل إنسانًا أو يصول عليه ولم يغثه من القتل أو الصيال، مع قدرته على ذلك، فجزاؤه القتل، فإذا كان لا يقدر على إغاثته بنفسه وإنما يتمكن من طلب إغاثته بغيره وجب عليه أن يطلب إغاثته من القادر عليها، فإذا قصر فى ذلك قتل أيضًا، وكذلك إذا علم أحد بقاتل لآخر وجب عليه التبليغ لمحل الاقتضاء، أى الحكومة، فإن لم يبلغ ذلك للحكومة فجزاؤه القتل لأن وجوده كعدمه. ومنها أن الخائن الذى يبلغ الأعداء أسرار الحكومة ويطلعهم على عوراتها جزاؤه قطع لسانه. وكذلك من يصطنع النقود البرانية أو يزور فى الموازين والمكاييل أو فى الختوم والمكاتيب أو يزور فى الوثائق العمومية والحجج الشرعية جزاؤه قطع يديه.

وأما الأحكام بالنسبة للنساء فمبنية على التشديد، فإن من ثبت عليه أنه اغتصب امرأة حرة غير رقيقة بالزنا فجزاؤه قطع آلة الزنا، لأن هذا الذنب يتضمن ثلاث كبائر:

الأولى: التعدى على المرأة بهتك عرضها.

والثانية: السعى فى إفساد الأخلاق والعوائد فى الجمعية.

والثالثة: ما يترتب على ذلك من اختلاط الأنساب. فإذا زنى بها برضاها فجزاؤه جلده ألف جلدة، وجزاء المرأة قطع أنفها لتشويه وجهها حتى ينقطع ميل الرجال إليها وأربهم منها.

ومن أحكامهم أن الدين المدعى به لا يثبت على المدين إذا حلف على رؤوس

الأشهاد أن ذمته بريئة من ذلك وأن الدائن لا يستحق فى ذمته شيئًا، ومحل ذلك ما لم يُثبت الدائن دينه عليه بسندات قوية .

ومن أحكامهم أيضًا أن الربح عندهم فى أى شىء كان فى البيع والشراء لا يتجاوز رأس المال وإلا عد من الغبن الفاحش، وأن من عليه دين فأملاكه كافلة لذلك الدين وضامنة له، وأما ذات المدين، يعنى شخصه، فليس ضامنا لدينه، وسر ذلك أن ذات المدين مملوكة للحكومة بحيث تطلبها الحكومة للخدمة فى كل وقت وفى كل حال، سواء زمن الصلح أو الحرب، فلا يجوز القبض على أحد من الأهالى ولا حبسه فى الأمور الخصوصية كالدين ونحوه .

ومن الأحكام الغريبة عندهم أنه يجوز للإنسان أن يقترض ويرهن فى نظير دينه جثة والده المدفونة، فيكون قبر أبى المدين تحت يد الدائن إلى قضاء الدين، فإذا لم يقض المدين دينه ومات حرم من دفنه فى مقابر والديه، ويحرم أولاد المدين أيضًا من ذلك ما لم يوفوا ما على والدهم من الدين .

ومن عوائدهم أيضًا أن الولائم التى يصنعها الأغنياء يحضرون بعد الطعام خارجا عن «أودة»[1] الطعام نقشا مرسوما عليه صورة من الخشب جيدة الصناعة على هيئة جثة الميت ينظر إليها جميع الندماء على الشراب والطعام ويُفرّج بعضهم بعضا عليها بالمناوبة، فيقول بعضهم للآخر : انظر إلى هذه الجثة، سنكون مثلها بعد الموت، فاشربوا هنيئا وتمتعوا بدنياكم قليلا !

ومن عوائدهم أيضًا احترام الفتيان الشيوخ، فإذا قابل الفتى شيخا فى طريقه تأخر عنه فى المسير، وإذا قدم شيخ على مجلس فيه فتيان قاموا له إجلالا لشيخوخته، وإذا تقابل المصرى مع إخوانه فى موضع ولزم التسليم على من لقيه انحنى كل للآخر وجثا على ركبتيه وقبّل كل منهما يد صاحبه .

وكانت ملابس المصريين ثيابا من الكتان لها سُجف وفوقها برانس منسوجة من الصوف الأبيض، ولكن لا يلبسون تلك البرانس فى المعابد والهياكل ولا يكفنون بها موتاهم، بل يقتصرون على الثياب، لأن ديانتهم تحرم ذلك .

---

(١) غرفة .

وكانوا يشتغلون بفن الطب ويتقنونه إتقانا جيدًا، لأن الطبيب عندهم لا يتفرغ إلا لفرع واحد من فروع الحكمة، ولا يؤذن له فى العلاج إلا بعلاج مرض واحد من الأمراض، لا عدة أمراض مختلفة، فلهذا كثرت عندهم الأطباء المتقنون فى الفروع الطبية، فكان عندهم أطباء للعيون وأطباء لأوجاع الرأس وأطباء لوجع الأسنان وأطباء للمعدة وأطباء للأمراض الباطنة إلخ.

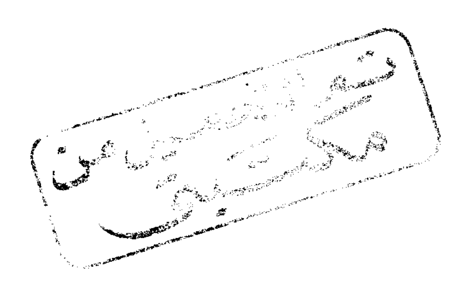
وآثارهم كمبانيهم الجافية دلائل على أن درجة تقدمهم فى المعارف البشرية غير خافية، إذ مثل هذا الأثر الجسيم عنوان على امتياز مصر بالعلوم النافعة فى ذلك الزمن القديم.

وأما امتيازها بعد زمن الفتوح وانفرادها بكمال المعارف فهو فى غاية الوضوح، فكما كانت فى القديم محط رجال العلماء والحكماء، فلا زالت فى الحديث عدد علمائها كعدد نجوم السماء، يرحل إليها طلبة العلم من سائر الأقطار، ويهرع إليها أولو الفضل من جميع الأمصار، لتلقى العلوم العقلية والنقلية، من جهابذة إليهم بالبنان يشار، وأساتذة لهم اليد العليا والسندات العالية فى التفاسير والأحاديث والآثار، ورثوا فى المنقول العلوم النبوية، كما ورثوا فى المعقول العلوم الحكمية، وتمسكوا منها بما سار عليه السادة السُّنِّية، على طبق موافقة السُّنَّة السَّنية، وطرحوا وراءهم ظهريا ما كان منها مشوبا بالضلال، وتباعدوا عن شبه أهل الاعتزال، وعضدوها بالحجج والبرهان، وشيدوها بتمكين دعائم الإسلام والإيمان، محافظة على سلامة العاقبة، وتمسكا بخوف الله والمراقبة، فبهذا لم تخل مصر من آثار جديدة، ومآثر عديدة، وامتيازات فى ميزان الفضائل والدرجة العليا، ولم تزل حائزة لتلقبها بأم النعمة وأم الدنيا، وهل تتجرد عما وصفها به المولى فى القرآن العظيم، حكاية عن يوسف فى قوله: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ (يوسف: ٥٥) فنيلها نوال خير لكل حاضر وباد، وبرّها بر لسائر البلاد

والعباد، أهلها أهل الإيمان، وبها ترعى الذمة لأهل الذمة والاستئمان، دار العمل للمعاش والمعاد، ومدار الأمل فى الإسعاف والإسعاد، عَود عُود شبابها الرطيب مشهود، ورجوع نضرة إهابها القشيب فى هذا العصر معهود، بعناية الهمة المحمدية العلية الزكية، ومن اقتفى أثرها من سلالتها الطيبة، كالإسماعيلية الزاكية النماء، التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء، فقد انهمل الغيث فى عهدها بعد أن كان قطرا، وتوالت عليها شمائل النعم تترى، فلله الحمد على هذه المنة، وهو ولى التوفيق، والهادى إلى أقوم طريق.

المقالة الأولى

فى تخطيط ديار مصر وفيها عدة أبواب.



الباب الأول

فى تحديد مصر وطبيعة أرضها

ديار مصر واقعة فى ا لشمال الشرقى من قسم[1] إفريقية، ومحدودة شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، المسمى ببحر سفيد وببحر الروم، وشرقا بالبحر الأحمر، المسمى بحر القلزم كما يسمى خليج العرب، وجنوبا بلاد النوبة، وغربا بصحارى «برقة».

وهى بين الدرجة الثالثة والعشرين والثلاث والعشرين دقيقة والدرجة الحادية والثلاثين والسبع والثلاثين دقيقة من العرض الشمالى، وبين الدرجة الثانية والعشرين والعشر دقائق والدرجة الثالثة و**الثلاثين** ودقيقتين من الطول الشرقى من باريس.

فهى واد يكتنفه جبلان، شرقى وغربى، ويبدآن من «أسوان» ويتقاربان «بإسنا» حتى يكادا يتماسان، ثم ينفرجان قليلا قليلا حتى إذا وازيا «الفسطاط»، وهى مصر القديمة، كان بينهما مسافة يوم فما دونه، ثم يتباعدان أكثر من ذلك، والنيل ينساب بينهما ويتشعب بأسافل الأرض، يعنى الوجه البحرى، وجميع شعبه تصب فى بحر سفيد، وهناك شعبتان: إحداهما: فرع «رشيد»، والأخرى: فرع «دمياط»، يخرجان من النيل عند بطن البقرة فيتكون بينهما إقليما المنوفية والغربية على شكل

---

(١) أى قارة، وهو تعبير مطرد فى آثار الطهطاوى.

جزيرة مثلثة فى صورة الدال اليونانية، تسمى عند اليونان «دلطة»، باسم حرف الدال المذكور عندهم.

وامتداد مصر من الشمال إلى الجنوب ثمانمائة وثمانون كيلومترا، ومن الغرب إلى الشرق خمسمائة كيلومتر - والكيلومتر ألف متر -.

ومع أن أرض مصر كثيرة الاتساع، لا سيما من الشمال إلى الجنوب، فليست خصوبتها عمومية، إذ كثير من أراضيها مستور بالرمال والجبال اليابسة القحلة، وإن كان فى صحاريها عدة واحات، ولا تكاد أن تقع بها الأمطار، وإنما خصوبتها مقصورة على الوادى المسقى بماء النيل المبارك، فعند فيضان النيل فى ميعاده كل سنة، ومكثه على المزارع عدة أشهر، يكسبها الخصوبة بما يحمله معه من الطين، ومع قطع الجسور ووجود الترع الموصلة مياه النيل إلى السهول، فالفضل لله تعالى على مصر حيث مَنَّ عليها بهذا النيل المبارك الذى تستغنى به عن مراحم الأرض وعواطف السماء، لأنه وحده هو السبب فى خصبها فلا تحتاج كغيرها من أراضى البلاد الأخرى إلى مهيآت الإنبات كالتسميد والتسمين والتسبيخ، وغير ذلك، كما لا تحتاج أيضًا إلى أمطار السماء، بل فيضان نيلها بانضمامه إلى هوائها العجيب التركيب كاف فى تحصيل الإنبات الجيد وإصلاح المزارع.

* * *

الباب الثانى

فى بيان النيل المبارك

هذا النيل السعيد هو أكبر أنهار الدنيا القديمة، وقد ولع المتقدمون والمتأخرون من الدول والملل بكشف منابعه، والوقوف على مخارجه، فكانت معرفته الآن كمعرفته للقدماء فى تلك الأزمان، ولم يتبين لأرباب السياحة المتأخرين إلا أن البحر الأبيض(١) الذى هو النيل الأصلى، بعد مسيره من منبعه الصحيح يصب فيه من شطه الأيمن نهران يمدانه بمائهما: **الأول**: البحر الأزرق، **والثانى**: نهر أتبره(٢)، الذى يلتقى معه بالتباعد جهة الشمال. ومنابع البحر الأزرق هى التى كان ظنها السياحون منابع النيل الحقيقى، وأصح الأقوال أنها تخرج من جبال القمر، وأن مجراها نحو ثمانمائة فرسخ من الجنوب إلى الشمال حتى تصب فى البحر المالح، فعلى هذا هى البحر الأبيض، وهو النيل الحقيقى، ومخرجه ببلاد فى جنوب «دارفور» تسمى دار الأبيض، والجبال الخارج منها هناك تسمى جبال الدره وتغلى، وهى متشعبة من جبال القمر، فنيل مصر خارج من جبال القمر، مستمد فى طريقه مياهه من عدة أنهر، وذلك لأنه يتولد فى جنوب «دارفور» من جبال القمر فى طول أربع وثلاثين درجة وثمان وثلاثين دقيقة من طول باريس شرقيا، وفى عرض سبع درجات وسبع وأربعين دقيقة شماليا، فيجرى فى مبادىء مسيره إلى مسافة يسمى فيها بالبحر الأبيض، متج إهالى الشرق وإلى الشمال الشرقى، ويصب فيه فى أثناء جريانه البحران السابقان،

---

(١) أى النيل الأبيض، والتعبير عنه بالبحر مطرد فى آثار الطهطاوى.

(٢) أى عطبرة.

وهما: البحر الأزرق وبحر أتبره، المسمي نقازه، فبعد اتحاده بهذه الأنهر، ومروره ببلاد «الدونكا» و«الشلك» و«الدونكاوية» ودخوله فى «سنا» و«كردفان» يسمى بالنيل، ويشق الحبشة والنوبة فيسقى الخرطوم والحلفاية وشندى والضامر وبربر وبلاد الشاقية ودنقلة والمحس وسكوت ووادى حلفة، ويدخل إلى مصر متجها غالبًا من الجنوب إلى الشمال حتى ينتهى إلى عرض ثلاثين درجة واثنتى عشرة دقيقة شماليا، فيتفرع من بطن البقرة إلى فرعين أصليين، وهما: فرع دمياط، وفرع رشيد، وهذه الفروع تقل مياهها عند تحاريق النيل، فلا تجده من العمق لبوغاز دمياط إلا نحو ثمانية أقدام، ويكون عمق بوغاز رشيد نحو خمسة أقدام، وأما فى ارتفاع الماء ووفاء النيل فينيف كل منها عن أربعين قدما، بحيث تسير فيه السفن الحربية التى لها أربعة وعشرون مدفعا من البوغاز إلى القاهرة.

وقد صح الآن عن أرباب المعارف الباحثين عن أحوال مصر أن سبب فيضان النيل الدورى كثرة الأمطار السنوية بين المدارين، دون سبب آخر، وأن هذه الأمطار أيضًا هى مصدر زيادة جميع الأنهر الواقعة فى المنطقة المحترقة[1] التى بين مدارى الجدى والسرطان، وأن الأرض متى كانت منخفضة كانت الزيادة الحادثة من الأمطار تكسبها الفيضان فى نهرها، ورى المزارع وسقيها بمائه الأحمر المشوب بالطين الإبليز[*]، والممتزج به كمال الامتزاج، بحيث يرسب هذا الطين على الأراضى الزراعية ويكسبها الطمى قليلا أو كثيرا، وهذا الطين مشتمل على أجزاء دسمة ملائمة للنباتات مصلحة لها، وإلا فأرض مصر سبخة فى حد ذاتها لا تنبت شيئا ولا ينبت منها إلا ما مر عليه ماء النيل وركد فيه هذا الطين.

فقد جرت العادة أن قوة زيادة النيل لا تكون إلا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب، ولا تكون أمطار الجنوب إلا فى أيام الصيف، ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء، وهذا محقق عند من عرف أخبار مصر، وإنما تكون الزيادة تدريجية على قدر ما يهبنا فى النيل من مياه الأمطار، وإيضاح ذلك فى الفروع الآتية.

---

(١) أى شديدة الحرارة.

(*) الإبليز: الطين الذى يخلفه نهر النيل على وجه الأرض بعد ذهابه. (الشروق).

الباب الثالث

فى منافع النيل فى مزارع مصر

من المعلوم أن مصر متوسطة بين برارى آسيا المقفرة وصحارى إفريقية العقيمة وعتاميرها[1] المنفرة، فلولا فضل الله عليها بالنيل الميمون الطلعة لكانت قحلة كالأراضى المجاورة لهذه البقعة، ولولا أنه سبحانه وتعالى سخر لها عادل سلطان النيل المبارك، ونزول جيش مياهه بواديها، وإصلاحه بالإحسان والتدبير جميع أراضيها، وإمداده بالميرة حاضرها وباديها، لافتقرت إلى إمدادها بغيث السماء العميم، وفاتها كون الطين «الإبليز» لها أعظم صديق وحميم، فالنيل لمصر محب ودود، وبه مصر منجبة ولود، وهذا معنى قول أدبائهم فى أزمانهم الأولية، وصدر الفطرة المصرية: ما مثل مصر إلا عروس عانقت النيل، وصارت بوصله مشتبكة، فأولدها الخصب والغنى والبركة، وعانقت الصحارى ريح الإعصار، فعقمت على ممر الأعصار، فلو اختلست الصحراء من مصر وصال النيل فى بعض الأوقات، لحظيت منه مثلها بإنتاج البركات والخيرات. فنظمت هذا المعنى فى قولى:

كلفت بوصل النيل مصر فأنتجت ... من يانـع الأثمـار كل ربيـح

لو واصل النيل الصحارى أنجبت ... لكنهـا ألفت وصال الريـح

والإشارة فى ذلك إلى الصحارى التى تمتد على شواطىء مثلث الغربية

---

(١) أى المعتمة من غبرة فى الهواء.

والمنوفية، الرملية الحصائية، **فإن** هذين الإقليمين حولهما شرقا وغربا سهول ومستويات رمالية أو حصائية، وهى برارى واسعة خالية عن الأنيس والجليس، فاقدة للماء، مجردة عن العشب والكلأ، عرضة لحرارة الشمس المحرقة، ليس بها من الأشجار ما يستظل به، كثيرة الرياح العواصف الجنوبية، فليس فيها غذاء لإنسان ولا حيوان، فهى وحشة المنظر والمخبر.

لكن بتوفيق البارى سبحانه وتعالى، وبعناية حضرة صاحب مصر، رب المآثر والمكارم، وبسيف عزمه الماضى الجازم، وبذله فى الخير والمنافع جهده المعلوم، لابد أن يواصل النيل، بالعمليات الهندسية، تلك الصحارى، كما اتصل بصحارى الفيوم وغير الفيوم، فتتخلى هذه البرية عن الثياب الوحشية، وتتحلى بين البرية بالحلل السندسية، وتصير كوادى النيل الأصلى يانعة الرياض، مترعة الحياض، تنيف عن مزية الخصوبة على المنوفية، وتفضل بغرابة مغاربها على الغربية. وبالجملة فالنيل المبارك، فى الحقيقة، هو روح مصر، وحياة جثمانها، وهو الوصلة العظمى فى التواصل والتعامل بين أطراف بلدانها، بل بينها وبين البلاد الأجنبية بواسطة البحرين المتصلين بها شمالا **وشرقا، اللذين** جعلا لها، سابقا ولاحقا، فى ميزان الدول والحكومات امتيازا **وحقا. فمنفعة** النيل ظاهرة حسا ومعنى، ومنه جميع فوائد مصر تقطف **وتجنى، حتى إن** طينه **الإبليزى نافع** فى الصنائع الضرورية، فالنيل كله منافع، **فى المزارع والصنائع**، مزاياه **لا تحصى** ولا تحصر، ونهاية القول: إنه فى جنات مصر نهر **الكوثر**، وقد مدح المتقدمون عذوبة ماء النيل وملاءمته لصحة الأبدان، ووافقهم المتأخرون، لكن لا على الإطلاق، بل حققوا القول فى هذا الشأن، حيث أفادوا أن ماء النيل خفيف بطبعه، قليل المواد الأجنبية، لذيذ الطعم سائغ للشاربين، كما صح ذلك بالتجاريب المكررة من تحليل أجزائه، حتى قيل، ما معناه: إنه أعلى المشروبات الدوائية، وأنه يفرغ ما فى الجوف وينقى الباطن، فهو فى هذه الحالة ممدوح جدا، وهو فى بحر السنة[1] جيد الأوصاف، وأما زمن الصيف حيث يكاد أن تكون مياهه راكدة فإنه يكون مشحونا بالمواد

---

(١) فى بحر السنة، أى: أثناء السنة.

الأجنبية، فيستحب ترويقه ليسوغ شربه، وكذلك عند زيادة النيل، فإن الماء يأخذ أولا فى التلون بلون الخضرة، ويمكث على ذلك اللون نحو أربعين يوما، فيخلفه لون الحمرة المائل للسمرة، فعند ذلك يحسن الترويق أيضا، والظاهر أن هذه التغيرات حاصلة له من تلقيه لمياه متتابعة متواردة عليه من بحيرات معتادة الزيادة السنوية المتجمعة فيها من سقوط الأمطار على عدة محال مرتفعة من داخل إفريقية بالبلاد السودانية، فإذا صبت فيه مياهها المخضرة بما تحلل فيها من الحشائش والأعشاب أكسبته لون الخضرة، وحين تكاثرها عليه وجلبها للطين الذى فى مجراها تكسبه لون الحمرة العقيقية التى بعد انحسار النيل يعقبها بالغرس الألوان الزمردية.

الباب الرابع

فى شلال مدخل النيل إلى مصر

قبل أن يصل النيل إلى حدود مصر يسقط من خمسة جنادل تسمى بالشلالات، والشلال السادس هو شلال البرية، وهو مدخل مصر من جهة القبلى، فهو آخر الشلالات للمنحدر وأولها للمُقلع، وهذا الشلال عبارة عن صخور متفاصلة من الجبل تكونت[1] منها رؤوس جبلية مضرسة وشعاب حادة مفترقة عن بعضها، على صورة الجزائر الكبيرة، سادة لمجرى النيل من جميع الجهات، فإذا ورد الماء فى مجراه عندها صدته وأوقفته فيفور ويطفو عليها حتى يسلبها أو يجاوزها، فعند دخوله هائجا ترتفع الأمواج المتراكمة مزيدة نحو نصف قدم، فإذا سقطت سمع لها صرير جسيم ودوى عظيم، يحصل ذلك من تكسر الأمواج، ويمكث بعض لحظات، وتمتلىء المنافذ المتخللة من الدوامات والملفات المائية المسماة بالشيمة، وهذا الشلال يجعل سير المراكب عنده صعبا، بل ربما كان خطرا، ولكن توجد بميسرة النيل قطعة أرض مستوية، غير مضرسة، ذات تيار عظيم يجذب المراكب إليها، فهو المسهل للسير، ولولا هذا الشط المستوى لكان العبور من الشلال خطرا جدا. وأيضا فهذا الشط بتمامه يكون مغمورا فى زمن الفيضان بالماء، كالخليج العظيم، فتسير فيه السفن بالسهولة، وفى زمن انخفاض النيل يسهل أيضا صعود المراكب الصغيرة فيه ومقاطعتها للتيار، بجر اللبان[2]، لكن مع القرب الشديد من

---

(١) فى الأصل «تكون».

(٢) اللبان: الحبال تجر بها السفن.

الشط، وأما فى الانحدار والسير إلى البحرى[1] فتنحدر المراكب بغاية السرعة لانجذابها بالتيار.

فهذه حقيقة شلال أسوان، وقد يظهر ببادىء الرأى أن ملوك مصر الذين اجتهدوا فى منفعة وطنهم بقدر الإمكان قد أهملوا فى عدم إزالة هذا الشلال بالكلية، مع أن هذا خلاف ما تقتضيه طباعهم فى حب ما يقتضى العمار، ولكن من دقق النظر وجد أن تركهم ذلك على حالة إنما كان لغرض سياسى، وذلك أنهم أبقوه عمدا ليكون حصنا مانعا لإغارة أمم السودان على هذه الديار، حيث لهم سوابق فى ذلك، فلو انمحت هذه الحصون الطبيعية لدام طمع هؤلاء القبائل الخشنية[2] فى التغلب على بلاد مصر، فهذا الاحتراس أبعد أولئك القبائل عن التفكر فى الهجوم الذى يغلب عليه أنه لا ينجح، وبه انقطعت أطماعهم.

وبعد شلال أسوان تصادف، وأنت سائر إلى الجنوب، بالشلالات الأخرى فى مجرى النيل ببلاد النوبة، كشلال وادى حلفا، وشلال الحنش، وشلال جرف الحمداب جهة قرية أبى حمد، وشلال السليمانية، وغيرها.

(١) أى نحو الشمال، والبحرى، بفتح الباء والحاء هو الاتجاه المقابل للقبلى (الجنوبى).
(٢) غير المتحضرة.

الباب الخامس

فى استكشاف منبع النيل، لا سيما إرسالية عزيز مصر الجليل

فى الأعصر الخالية والقرون البالية تعلقت همة الفراعنة بكشف منبع النيل، كالملك رمسيس، ثم من بعدهم بحث «قمباذبهمن»، ملك العجم، عن ذلك حين تغلب على مصر، وكذلك إسكندر، والبطالسة، وقيصر الروم «نيرون» الطاغية، ثم بحث أيضا عن ذلك خلفاء مصر وسلاطينها وملوكها، ولم يتم لهم حل هذه المسألة المعضلة، وإنما استنبط بطليموس الجغرافى[1] ما وصل إليه علمه من استكشافات زمنه مما يقرب من الحقيقة إلاّ أنه ذكره بوجه مبهم فسرته الاستكشافات الأخيرة الإفرنجية، وأوضحه أخيرا عزم عزيز مصر المرحوم محمد على باشا، حيث تبين من إرساليته الاستكشافية نتائج توضح المبهم من كلام بطليموس، وتفيد حقيقة النيل ومجراه، وسمت منبعه بتطبيق ذلك على استكشافات بعض أرباب السياحة فى هذه الأزمان.

« صورة ما قاله بطليموس، مع بعض ملحوظات »

يستفاد من كلام هذا الفاضل: أن النيل متكون من اختلاط نهرين عظيمين

---

(١) هو كلوديوس بطليموس، نشأ بالإسكندرية فى الربع الثانى من القرن الثانى الميلادى، وتوفى بعد عام ١٦١م، وإلى جانب الجغرافيا كان عالما فى الفلك والرياضة والفيزيقا والتاريخ.

أصليين، وأن مخرجه من جبال القمر، من المياه الذائبة من الثلوج الدائمة بتلك الجبال، وأن كل واحد من هذين النهرين يمر ببحيرة عظيمة فى طريقه، وبعد خروجهما من ذلك يأخذ كل منهما مسيره فى فرش خاص به وواد يجرى فيه، ثم يجتمعان بعد جريهما منفصلين ويتلاقيان ويمتزجان فيصنعان نهرا واحدا، انتهى كلامه.

والواقع أن النيل الحقيقى، وهو الأبيض، عند سيره إلى جهة مصر، يختلط بالنيل الأزرق عند الخرطوم، فى محل يقال له الخرطوم، ويصيران نهرا واحدا، وهو نيل مصر، ثم بعد السير إلى الشمال يختلط به بحر أتبرة، فكل من البحر الأزرق وبحر أتبره داخل فى البحر الأبيض من شطه الأيمن، فليس استكشاف أصح من استكشاف عهد بطليموس، الواقع قبل الهجرة بأزيد من تسعمائة سنة، مع ما بينه وبين الاستكشافات الجديدة الإفرنجية مما ينيف عن ألفى سنة، ويفهم منه بالتطبيق على ما سيأتى، لا سيما من الاستكشافات المصرية واستكشافات بعض الإنجليز، أن النيل الحقيقى هو النيل الأبيض، وليس هو النيل الأزرق المعلوم المنبع، الخارج فى بلاد سفالة فى جبال بالحبشة تسمى جبال حبش أباوى، يعنى جبال أبى المياه التى هى فى عرض الدرجة العاشرة والخمسين دقيقة، ومنبعه فيها عبارة عن نقرة مستديرة قطرها أربعة أعشار متر، منحوتة بيد الحكمة الإلهية فى أرض مسبخة مغطاة بالبوص والخيزران والحشائش والنباتات، خفية عن العيون، فيجرى الماء النابع هناك جهة الغرب، وينعطف إلى الشمال، فيمر فى بحيرة تزانة المسماة بحيرة دمبعة، فيلاقيها فى الجهة الجنوبية منها، وهى بحيرة عظيمة فيها من الجزائر اثنتا عشرة جزيرة. ولسرعة جريان البحر الأزرق يخرج منها بدون أن ينعدم ماؤه فيها، بأيسر انعطاف وازورار، ثم يتجه إلى الجنوب الشرقى، ويرسم عند إقليم قوجم قوسا عظيمة يقابل الجنوب، ثم يستقيم ويتجه جهة الشمال الغربى حتى يصب فى النيل الأبيض عند الخرطوم ويختلط به كليا. وهو فى تلك المجارى العالية جهة الحبشة يسمى نهر أباوى، كما تقدم، وفى طريقه هناك يصب فيه أنهار كثيرة، ميمنة وميسرة، فلا يدخل سنار إلا وهو نهر عظيم مهيب متلاطم الأمواج، فإذا دنا من الخرطوم كان عرضه مائتين وثمانين مترا فأكثر.

فهذا النهر الأزرق الحبشى إنما هو فرع من فروع نيل مصر، اشتبه على المتأخرين من أرباب السياحة الإفرنجية فحكموا بأنه النيل الأصلى، وتمدحوا بأنهم كشفوا منبع النيل، لأن جميع الناس سابقًا كانوا يرون أن النيل هو النهر الأزرق، والآن قد بطل هذا الرأى، وحكم علماء الجغرافية بأن اعتقاده غلط.

وبيان ذلك أن موضوع الاستكشاف المطلوب إنما هو منابع النيل، وهى مسألة مشكلة، والمقصود حلها بالوقوف على حقيقة منبع النيل.

فَيُسأل هنا ويقال: إذا جرى عدة أنهر فى مجار مختلفة وامتزجت كلها وجرت فى واد واحد، وكان قبل الاختلاط لكل منها منبع متميز فما منبع النهر الكبير المصنوع من اجتماعها؟

وجواب ذلك: أن المستحق للمنبع، المسؤول عنه، هو أطولها مجرى، وأبعدها أصلا، فإذا نظرت إلى خريطة إقليم فيها أنهر بهذه المثابة تجد المنبع المرسوم إنما هو لأكبرها مجرى، ومن المعلوم أن الأنهار التى تشق بلاد السودان لم يكن منها مستوفيا للشرط المذكور إلا النهر الأبيض، إذ هو أطولها امتدادا، فهو المستحق لاسم النيل، وهو المطلوب المنبع، فمنبع هذا النهر المتسلطن محجوب عن عقول الجغرافيين، وإنما اقتبسوا بعض أنوار ومعارف من إرسالية عزيز مصر المرحوم محمد على باشا، واهتدوا بها فى استكشافاتهم.

نتيجة إرسالية سليم بك قبودان، ودرنود بك لسفر البحر الأبيض

قد أرسل عزيز مصر المشار إليه فى ظرف أربع سنوات ثلاث إرساليات متوالية لقصد كشف منبع النيل، ولكن الإرسالية الثانية، التى كانت تحت رياسة سليم بك قبودان، ودرنود بك، هى أنفع الجميع، وذلك فى سنة ١٢٥٧[1] فسارت هذه الإرسالية الجغرافية فى النهر الأبيض مسافة خمسمائة فرسخ، من الارتحال من

---

(١) هجرية، وهى توافق سنة ١٨٤١م.

الخرطوم، وفى طريقها لم تجد من الأنهر المهمة التى تصب فى هذا البحر إلا نهرين عظيمين يجتمعان به فى شماله ويخلطان به، أحدهما: نهر سوباط، ويقال له نهر جوجب، يخرج من شرق بلاد ساقا ويرسم حول بلاد كفا انعطافات شبيهة بانعطافات النهر الأزرق، وثانيهما: بحر الغزال، وهو يصب فى بحيرة نو، المسماة بحيرة كوبر، وعرضها ثلاثة آلاف وستمائة متر، ولا يجد النيل فى مجراه بالبعد عن هذه البحيرة شلالات ولا جبالا، بل يجرى النيل فى سهول مستوية مسبخة وخمة لا يكاد يدرك بها انحدار المياه، وإنما فى عرض الدرجة الخامسة يلمح بعض جبال، فترتفع الأرض تدريجا، ويأخذ المجرى فى الضيق، ومع ذلك فعند جزيرة جانكير لا ينقص عرضه عن مائتى متر، وهذه الجزيرة واقعة فى عرض الدرجة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة شماليا، وهى فى الدرجة التاسعة والعشرين من الطول الشرقى من باريس، وعلى القرب من هذه الجزيرة بأجات[1] كيمان من الرمال والصخور كشلالات تمنع سير السفن على النيل منعا كليا.

فلما أرست سفن الإرسالية المصرية على هذه الجهات، ووجدت الموانع للسفر قوية، اقتصرت على أخذ الاستعلامات اللازمة والاستفهامات النافعة فيما يخص منابع النيل مما يعلم من أهالى تلك الجهة.

فكانت نتيجة لذلك: أن النيل يأتى إلى تلك الناحية من الجنوب الشرقى، وأن منبعه يقرب من دائرة الاستواء، على ثلاثين مرحلة فوق جزيرة جانكيز، ومن المعلوم أن مرحلة السودان، يعنى ما يقطعه المسافرون هناك فى يوم خمسة فراسخ أو ستة، حسب المعتاد، فتكون المسافة بين جزيرة جانكيز ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخا، تقريبا، فإذا حسبنا مجرى النيل نقول: إن من منبعه إلى جزيرة جانكيز مائة وخمسين فرسخا، ومن هذه الجزيرة إلى الخرطوم خمسمائة فرسخ، ومن الخرطوم إلى البحر المتوسط خمسمائة وخمسون فرسخا، فجملة مجرى النيل ألف ومائتا فرسخ. ونتيجة هذا القياس تدل على أمرين: الأول: على أن النيل هو

---

(١) أشكال.

أطول أنهار إفريقية مجرى، الثانى: على أن ما ذكره الأقدمون، مثل بطليموس، فى حق النيل صحيح.

وبيان ذلك: أن النيل، على كلام بطليموس، مجمع نهرين عظيمين، وأن مخرجه من جبال القمر، وأن كل واحد من النهرين يشق بحيرة عظيمة، وبعد خروجه منها ينفرد بمجراه فى واديه وفرشه، ثم يجتمعان ويصيران نهرا واحدا. فلا أصح من هذا القول ولا أصدق منه، حيث تقدم صدقه فى النيل الأزرق، الذى هو أحد فرعى النيل.

وأما ما يخص النهر الأبيض فإنه يظهر من استكشاف الإرسالية المصرية، بصميمة أخرى تضاف إليها، كاستكشاف مسيو ربمان الإنجليزى، أحد أحبار الإنجليز المبعوثين إلى إفريقية من طرف الدولة الإنجليزية لنشر ديانتهم بتلك الأقطار السودانية القاصية، فإن هذا الحبر استوطن بالقرب من بلاد تسمى ربابة، على ساحل أفريقية الشرقى، فى الدرجة الرابعة من العرض الجنوبى، فاجتهد فى أن يستكشف تلك البلاد المجهولة الأحوال، ليبلغ مرامه، فخاطر بنفسه، وتوغل فى البر إلى أن وصل بلدة دغاس، فصادفه هناك جبل يسمى «قيلى منجار»[1] ورأسه مغمور بالثلج الدائم، فسأل أهل دغاس عن أحوال هذه الجهة، فأفادوه بعض فوائد، فكتب بها إلى مجامع العلوم فى أوروبا، ومن مضمونها: أنه موجود خلف دغاس إقليم واسع يسمى مونوموىزى، فيه بحيرة عظيمة لم يطلع أحد من أهل السياحة عليها، فالظاهر أن هذه البحيرة هى إحدى البحيرتين اللتين يشقهما النيل بقرب منبعه، على قول بطليموس، ولا يسوغ لنا أن نجزم بذلك، وإنما المحقق عندنا أن هذا الرأى يوافق اتجاه النيل الأغلبى، ويناسب طول مجراه.

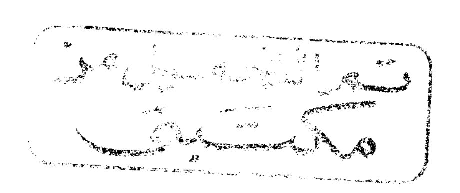
وقد نبهنا على أن النقطة التى وقفت عندها السفن المصرية هى جزيرة جانكيز، وأنها على البعد من منبع النيل بمائة وخمسين فرسخا تقريبا، فإذا فرضنا هذا الخط الذى طوله مائة وخمسون فرسخا، ورسمناه على خريطة إفريقية، كما فعله مسيو

(١) أى جبل كلمنجار.

بكه فى رسم خريطته، وجدنا أن طرفه الجنوبى ينطبق على بلاد مونوموزى، الممتدة من الدرجة الأولى إلى الرابعة فى العرض الشمالى، ومن الدرجة التاسعة والعشرين إلى الرابعة والثلاثين من الطول الشرقى من باريس.

وقد لاحظ مسيو بكة أن لفظ مونوموزى هو اسم مركب من كلمتين كل منهما له معنى، ففى اللغة الصوهلية[1]، القريبة من اللغة المونوموزية، معنى لفظ مونو: ملك أو أمير أو حاكم، وأما الثانية وهى مويزى فهى: علم على البلد، ولكن معناها فى الأصل قمر، ومن هذا قال بطليموس: إن مخرج النيل من جبل القمر، فلعله قيل له فى ذلك الزمن: إن النيل يخرج من جبال مويزى (يعنى جبال قيلو منجارو بقرب مونوموزى) فلما ألف بطليموس كتابه وذكر فيه ذلك ترجم لفظ مويزى بالقمر باللغة اليونانية، مع أن هذه الكلمة علم على البلد، فاشتهر أن مخرج النيل إنما هو من جبال القمر.

فهذا كله يؤيد أن مخرج النيل من جبال مونوموزى، وفى الحقيقة هذه البلاد يصعب وصول أرباب السياحة إليها، فإن طرقها كثيرة المواقع عظيمة الأخطار، لكن لا فخر أعظم ممن يصل إليها من أرباب السياحات، ويكشف منابع النيل المأخوذة الآن بالاجتهادات والتخمينات، حتى تقوم اليقينات مقام الظنيات.



(١) السواحلية.

البابُ السّادس

فى زيادة النيل وذكر المقياس

تبتدىء زيادة النيل من خامس بؤنة، فإذا كانت ليلة ثانى عشر بؤنة يكون عيد ميكائيل عند القبط، وتنزل فى تلك الليلة «النقطة»، ويزيد النيل حينئذ، ويؤخذ قاع النيل لأجل أخذ مقياس القاعة، وينادى عليه بما زاد من الأصابع فى سابع عشر بؤنة، ويقال: أقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع ففى تلك السنة يكون الماء قليلا، وأكثر ما يوجد فى قاع المقياس من الماء اثنا عشر ذراعا وفى تلك السنة يكون الماء عاليا جدا، فابتداء الزيادة فى خامس بؤنة، وظهورها فى ثانى عشرة، فأول دفعة يكون فى زيادة ثانى عشر أبيب، ومنتهى الزيادة إلى الثامن من بابة، ومن هناك يأخذ النيل فى النقصان إلى عشرين فى بابة، فيكون من مبتدأ الزيادة إلى منتهاها ثلاثة أشهر وخمسة وعشرون يوما من بابة، ومدة مكثه بعد انتهاء الزيادة اثنان وعشرون يوما، ثم يأخذ فى النقصان.

ومن العادة القديمة أن ينادى عليه فى السابع والعشرين من بؤنة، ويفتح الخليج الكبير إذا كمل الماء ستة عشر ذراعا، وكانوا يقولون: نعوذ بالله من أصبع من عشرين ذراعا، ثم لما فسدت أحوال الجسور والقناطر كان إذا بلغ الماء أصبعا من عشرين ذراعا لا يعم الأراضى كلها، ثم فى هذا العهد الأخير حيث أصلحت القناطر والجسور وتكاثرت الترع والخلجان كان يكفى فى الرى، لا سيما فى البحيرة، سبعة عشر ذراعا وربع، حيث إنها منخفضة المزارع، ويحتاج الصعيد فى

أكثره أكثر، والأقاليم الوسطى إلى نحو ما فوق العشرين. والزيادة تعلم بالمقياس الموجود فى جزيرة الروضة.

وهذا المقياس عمود من المرمر فى قاعة مربعة الشكل فيها فجوة، يدخل ماء النيل من تلك الفجوة إلى القاعدة، وفى دائرها منزل بدرجات ينزل منه للقياس، وذلك العمود محزوز ثمانية حزوز منفصلة ومنقسمة إلى ستة عشر قسما، كل قسم منها ذراع، وكل ذراع منقسم إلى ست قبضات، كل قبضة أربعة أصابع، وقد أفادت العادة أن النيل الذى لا ينزع عن الذراع الثالث من العمود لابد أن يصعد فوق الذراع السادس عشر أربعة وعشرين أصبعا إلى ثلاثين، يعنى يغطى رأس العمود حتى أنه يحصل الرى الكافى، وهذا يكون سبعة عشر ذراعا كاملة، أو سبعة عشر وربعا من ذراع.

وكما ينادى عليه فى الشوارع بقدر الزيادة مدة زيادته يدعى له فى الخطب على المنابر بإبلاغه المزارع والمنافع.

وبناء المقياس كان فى قديم الزمان فى عدة محال من الأماكن المشهورة، كمدينة منف، وجزيرة أسوان، وغيرها، ثم بنى بعد الإسلام أيضا فى عدة أماكن، ويقال إن أول من بنى مقياس الروضة هو سليمان بن عبد الملك، الأموى، سنة سبع وتسعين من الهجرة[١] ثم تهدم، وجدده الخليفة المأمون العباسى سنة مائة وتسع وتسعين[٢]، كما يدل على ذلك التاريخ المرسوم فى العمود، ثم أصلحه الخليفة المستنصر بالله[٣]، وصنع فوقه قبوتين أقامهما على العمود مستندتين على جدران القاعة، وأصلحه أيضا صاحب مصر محمد على باشا.

---

(١) وتوافق (٧١٥-٧١٦) ميلادية.

(٢) هجرية، وتوافق (٨١٤-٨١٥) ميلادية.

(٣) المستنصر بالله، أبو تميم (١٠٢٦-١٠٩٤م) خليفة فاطمى شهير، حدثت بمصر على عهده المجاعة التى اشتهرت فى التاريخ باسم: الشدة المستنصرية.

الباب السّابع

فى فضل النيل ومزاياه

قال بعض العلماء : لم يُسَم نهر من الأنهار فى القرآن سوى النيل فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ** ﴾ (القصص : ٧) قال : أجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا نيل مصر . وقد اتفق العلماء على أنه أشرف الأنهار فى الأرض ، لأسباب : **منها** : عموم نفعه ، فإنه لا يعلم نهر من الأنهار فى جميع الأرض المعمورة يسقى ما يسقيه النيل ، **ومنها** : الاكتفاء بسقيه ، فإنه يزرع عليه بعد نضوبه ثم لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه ، ولا يعلم ذلك فى نهر سواه ، **ومنها** : أن ماءه أصح المياه وأعدلها وأعذبها ، **ومنها** : مخالفته لجميع أنهار الأرض فى خصال هى منافع فيه ومضار فى غيره ، **ومنها** : إنه يزيد عند نقص سائر المياه وينقص عند زيادتها وذلك عند أوان الحاجة إليه ، **ومنها** : أنه يأتى أرض مصر فى أوان اشتداد القيظ والحر ويبس الهواء وجفاف الأرض فيبل الأرض ويرطب الهواء ويعدل الفصل تعديلا زائدا ، **ومنها** : أن كل نهر من الأنهار العظام وإن كان فيه منافع فلابد أن يتبعها مضار فى أوان طغيانه بإفساد ما يليه ونقص ما يجاوره ، والنيل موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم ، لا يزيد عليه ولا يخرج عن حده ، ذلك تقدير العزيز العليم ، ومنها : أن المعهود فى سائر الأنهار أن تأتى من جهة المشرق إلى المغرب ، وهو يأتى من جهة الجنوب إلى الشمال ، فيكون فعل الشمس فيه دائما ، وأثرها فى إصلاحه متصلا ملازما ، ومنها : أن كل

الأنهار يوقف على حقيقة منبعه وأصله، والنيل لا يوقف له على أصل منبع مع عدم الإبطاء فى ذلك. وليس فى الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينضب على الترتيب والتدريج غيره، وليس فى الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يجبى من خراج غلة زرعه ما يجبى من خراج غلة زرع النيل.

وقد أعطى كثيرا من المحصول من أيام ميناوس أول ملوك مصر إلى أيام أمراء العهد الجديد، ثم كان قد تقهقر حال محصوله، وسبب تقهقره قبل عهد المرحوم محمد على باشا أن عمال الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق على الرجال الموكلين بحفر خلجانه وترعه، وإصلاح جسوره ورم قناطره، وسد ما يلزم سده من ترعه، وقطع الشوك وإزالة الحلفاء، وما أشبه ذلك، وكانوا فى الأزمان السالفة مائة ألف رجل وعشرين ألف رجل مرتبين على اخطاط مصر، سبعين ألفا للأقاليم القبلية، خمسين ألفا للأقاليم البحرية، وكان إذا جبى الخراج من قرى مصر وجمع كان للملك من ذلك الربع خالصا يصنع فيه ما يريد، والربع الثانى لجنده ومن يقوى به فى حربه وجباية خراجه ودفع عدوه، والربع الثالث لمصلحة الأرض وما تحتاج إليه من مد جسورها وحفر خلجانها وترعها وبناء قناطرها والقوة للزارعين على زرعهم وعمارة أرضهم، والربع الرابع يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو جائحة تحل بأهل القرية والذى يدفن فى كل قرية من خراجها هى كنوز فرعون التى يتحدث الناس بها، والآن لم تزل عادة دفن الغلال، فى الرمال جارية عند أغنياء الفلاحين، فهى كنوز الأهالى وثمرات العدالة والكد.

ولما فتح عمرو بن العاص، رضى الله عنه، مصر قال للمقوقس: أنت وليت مصر فبم تكون عمارتها؟ فقال: بخصال: أن تحفر خلجانها، وتسد جسورها وترعها، لا تأخذ خراجها إلا من غلتها، ولا تقبل مطل الأهالى، وتوفى لهم بالشروط، وتدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا، وترفع عن أهل الخراج المعاون والهدايا ليكون قوة لهم، فبذلك تعمر مصر ويرجى خراجها.

والظاهر أن ملوك مصر قديما كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام، قسم لخاصة الملك، وقسم لأرزاق الجند والعسكر، وقسم لمصالح الأرض، وقسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها، فهو الذى يكنز للحاجة إليه، وهذا كله يقتضى أن اجتناء ثمراتها وإحياء مواتها إنما هو بالنيل المبارك، فإن الله سبحانه وتعالى أرسله إليها، وبارك به فيها، وقدر فيه أقواتها.

الباب الثامن

فى بحيـــرات مصـــر

كان فى مصر فى قديم الزمان سبعة فروع للنيل ينصب ماؤها فى بحيرات، وهى: فرع تينة، وفرع تنيس، وفرع ديبة، وفرع دمياط، وفرع البرلس، وفرع رشيد، وفرع أبى قير، فأما فرع تنيس فهو متحد الآن مع فرع المنزلة، وكذلك فرع ديبة، فلنذكر الآن بحيرات مصر التى كانت تصب تلك الفروع فى البعض منها فنقول:

بحيرات مصر عشرة: **الأولى**: بحيرة مريوط، **الثانية**: بحيرة المهدية، وتسمى بحيرة أبى قير، **الثالثة**: بحيرة إدكو، **الرابعة**: بحيرة البرلس، **الخامسة**: بحيرة المنزلة، **السادسة**: بحيرة أبى بلح، **السابعة**: سبخة بردويل، **الثامنة**: بركة التمساح، **التاسعة**: بركة النطرون، **العاشرة**: قارون.

«بحيرة مريوط»

أول ما يقابل الإنسان عند قاعدة مثلث الوجه البحرى، المسمى «الدلطة»، وهو قادم من الغرب هو المسمى بحيرة مريوط، فهى بين المحل الذى يقال له ترعة العرب والإسكندرية، وكانت هذه البحيرة فى سالف الأعصر تخصب ما حولها من الأراضى، وكانت بعد فتوح مصر بالإسلام عذبة الماء، لما يصل إليها من خلجان

---

(١) مزيدة لاستقامة السياق.

النيل، ولكن فى حدود القرن العاشر من الهجرة أهملها (ملوك)[1] دولة المماليك وتركوها بالكلية، فيبست، وإنما يتجدد فيها الماء من الأمطار ويمكث فيها مدة الشتاء وفى سنة ١٢١٦ من الهجرة[1] قطع سفن العثمانية والإنجليز جسر ترعة الإسكندرية من الطرف الغربى من بحيرة المهدية فانتشرت مياه الترعة المالحة التى هى مثل ماء البحر فى الملوحة وأخذت فى الاتساع تدريجا ودخلت فى بحيرة مريوط من عدة مصاب وفجوات[2] فملأتها فى نحو شهرين وستة أيام من الجرى، وكان كسر الجسر من مشورة الإنجليز على العثمانية لقطع الإمداد عن الفرنساوية، فترتب على تلك الاستشارة حدوث نوع من الطوفان أغرق فى طريقه أربعين قرية مع ما حولها من الأراضى والمزارع، فلما جاءت نوبة الحكومة لخديو مصر محمد على سد جميع الطرق والمنافذ بين مريوط والبحر، فمن هذا الوقت صار لا ينزل فى هذه البحيرة غير مياه الأمطار، فإذا غصت بالماء عند الامتلاء ألقته فى ترعة المحمودية، فهى تمتلىء فى فصل الشتاء ويتصاعد ماؤها أبخرة، ولما كان قاع هذه البحيرة قد مكث زمنا طويلا مشوبا بالمياه المالحة ومخالطا لها كان عند وجود المياه فيه يحدث على وجهه طبقة كثيفة ملحية تجعل منظره كمنظر الثلج فإذا تبلور الملح فى هذه البحيرة بهذه المثابة صار استخراجه من هذه الملاّحة.

وقد كان صمم المرحوم محمد على باشا على أن يصلح أرض مريوط، ويجعلها زراعية، فانتقل إلى دار البقاء والدوام قبل تنجيز هذا العزم وبلوغ هذا المرام، ثم لما جاءت نوبة ولده المرحوم محمد سعيد باشا اتخذها نزلا فى بعض الأحيان، ولعله كان قصده أن يجدد بها العمران، إلا أنه لم يعمل من ذلك ما يستدل به على حقيقة القصد.

«بحيرة المهدية»

هذه البحيرة تسمى بحيرة أبى قير، وهى بركة ماء على طريق الإسكندرية

(١) وتوافق سنة ١٨٠١م.

(٢) فى الأصل: فوجات.

الموصلة لرشيد، تنصب فى البحر المالح بين أبو قير وبحيرة إدكو، وماؤها مالح، كانت حفرت جديدا، والبوغاز الذى تتصل به إلى البحر هو تقريبا محل الفرع القديم الأبوقيرى، وعلى طول الأرض الرملية الفاصلة لها من البحر آثار الجسر المستطيل الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف متر، وقد كان هذا الجسر انقطع بشدة مياه البحر المالح سنة ١١٢٨ من الهجرة[1] حيث كان البحر ابتدأ فى إغراق المهدية، ومسطح هذه البحيرة نحو ثلاثين ألف فدان تقريبا.

«بحيـــرة إدكـــو»

هذه البحيرة بين المهدية وبحر رشيد، تستمد ماءها من النيل وقد كانت بليت بالكلية، حيث إن جسور الترع التى كانت تمدها لم يخرج منها مصرف إليها من مدة طويلة فلما انقطع الجسر سنة ١٢١٦[1] وكان فيضان النيل عاليا جدًا حتى ارتفع الماء زيادة عن نصف متر على مساواة البحر ففتح فجوة واسعة بوغازا عرضه نحو مائة وخمسين مترا يصب منها فى البحر، وحيث إن مياه هذه البحيرة تولدت من فيضان النيل فى أول الأمر فقد نضب ماؤها فيما بعد لدخوله فى تخوم الرمال، فخلفتها مياه البحر المالح التى وصلت إليها من ترعة ديروط وصيرتها بحيرة، وترعة ديروط ترعة اتصلت بالبحر فى الجنوب الشرقى من أبى قير، وكانت حدثت أيضا سنة ١٢١٦ فى زمن فيضان النيل لتصريف مياهه التى أغرقت قرى كثيرة، ولكن لم يحصل منها كبير ثمرة فى تصريف المياه المالحة التى بقرب البحر، فهذه المياه الخسيسة بهذه الجهة بقيت على ما هى عليه وتكون منها بحيرة إدكو، التى سميت باسم بندر إدكو الواقع على شاطئها الغربى، ومسطح هذه البحيرة نحو ستين ألف فدان تقريبا.

---

(١) وتوافق سنة ١٨١٦م.

(٢) وتوافق سنة ١٨٠١م.

«بحيـــرة البرلـس»

هذه البحيرة واقعة فى أرض قاعدة مثلث الدلطة، وتمتد من أحد فرعى النيل إلى الآخر، وهى قليلة العمق، يصب فيها عدة ترع، وهى توصل هذه المياه إلى البحر المالح ببوغازها، وطولها نحو خمسة وعشرين فرسخا، ومسطحها نحو مائتى ألف وعشرين ألف فدان.

«بحيـــرة المنـزلة»

تمتد هذه البحيرة من دمياط إلى تبنة، وطولها نحو ٨٤,٠٠٠ متر، وعرضها نحو ٢٢,٠٠٠متر، ومسطحها ٣٦٨,٠٠٠ فدان، وهى متصلة بالبحر بواسطة بوغازين لم يزالا مصرفين للمياه، وهما بوغاز ديبة وبوغاز أم فراج، وهذا الفرع من الفروع القديمة.

وليست مياه بحيرة المنزلة كريهة الطعم ولا مالحة كمياه البحر، بل قد يسوغ شربها مدة فيضان النيل، فإن مياهه تبعث فيها من ترعة مويس ومن البحر الصغير فتعذب وتحلو.

«بحيـــرة أبى بـلح»

هذه البحيرة عبارة عن عدة ألسنة ورؤوس مستنقعة، وأجزاؤها الجنوبية متكونة من بحيرة المنزلة، ومسطحها نحو ١٢,٠٠٠ فدان.

«البحيرة المسماة سبخة بردويل»

هذه البركة لسان قريب من البحر على الشرق من رسوم مدينة تينة القديمة،

وعلى الغرب من رأس قرزروم، وبالقرب من جهة العريش، توازى امتداد ساحل البحر، ومنها جزء يابس وما حكاه القدماء فيما يتعلق بها فى قديم الزمان لم يزل إلى الآن باقى الآثار، فقد حدثوا بأنها رمال غزيرة ومفازة رديئة، وأنه قد اتفق أن شرذمة من العساكر هلكت فيها حيث اعترت بها، وذلك أنها جهلت عمق هذه السبخة التى هى عدة بحيرات تملؤها العواصف بالرمال فتغمر أعماقها، فلما سلكوها مشوا على الرمل فوجدوا الرمل يثبت عليه القدم فى مداخلها وإنما يأخذ فى التخلخل تدريجا، حتى بطول السير تنغمس فيه الأقدام وتزل فيه الأرجل كالأوحال العميقة، فبهذا انغمست أقدام من سبق فى السير من هؤلاء العساكر فاستنجد بأصحابه ليغيثوه من الغرق فحصل لهم ما حصل له من ورطة الرمال، وصارت تنهال عليهم حتى أغرقتهم عن آخرهم، فلا شك أنها حجاب ومهاو ومهالك، فهى محل تسلطن الرياح العاصفة، وكأنما هى بحر رمل.

«بركة التمساح»

هذه البركة تسمى البحيرة المرة، وهى واقعة فى أرض برزخ السويس، ويغلب على الظن أن ماء البحر الأحمر كان جاريا فى محلها فى الأزمان السالفة لوجود الأمارات الدالة على ذلك.

«بحيرات النطرون»

تسمى هذه البرك أيضا وادى النطرون، وهى على غربى قرية الطرانة بمسير ساعتين، فهى واد جزء منه منخفض مشتمل على ست برك تسمى برك النطرون، لوجود الأملاح النطرونية بها، وشطوطها مقطوعة بخلجان صغيرة ترشح فيها المياه فتصنع عيونا، فإذا امتلأت هذه العيون وانساب ماؤها صب فى حيضان تلك البرك، وعلى شطوط هذه البرك تتربى أملاح النطرون.

والغالب على الظن أن فرش هذه البرك أخفض من سطح النيل، بل ومن سطح البحر المالح، فلذلك ذهب أرباب البحث إلى أن هذه البرك تستمد ماءها من رشح النيل الكامن فى خلال الأراضى وسريانه إليها من التخوم فى مسافة عشرة فراسخ من محل انفصال مياه النيل عن واديها، ومن المحقق أن زيادة ماء هذه البرك ونقصه دائمًا على عكس زيادة النيل ونقصه، وذلك لأن الرشح إنما يحصل فى ثلاثة أشهر الشتاء فتزيد فيها مياه البركة شيئا فشيئا إلى منتهى زيادتها.

وبقرب هذه البرك عدة ديور[1] للقبط، ومن جملة بركها بركتان لون مائهما محمر بأجزاء نباتية حيوانية، فحين تصعد المياه منهما فأول ملح يتبلور يكون أحمر اللون، وله رائحة ذكية كرائحة الورد.

«بحيــــرة القــارون»

هذه البركة تسمى أيضا بركة مريس باسم ملك يقال إنه احتفرها، وهى أهم جميع البرك لشهرتها فى الأزمان الخالية بعموم نفعها لبلاد الفيوم خاصة ولعموم الديار المصرية بأسرها. والفيوم واد منخفض مستدير مصنوع من جبل لوبية على مسامتة أراضى الأقاليم الوسطى، ومعنى لفظ فيوم فى اللغة المصرية القديمة أرض بركية مستبحرة، ولم يبق من تلك البركة إلا مخاضاتها الخسيسة الماء، لأنها كانت سابقا نحو ستين فرسخا فى مثلها، وكان يصب فيها ماء النيل من خليج الفيوم المسمى بحر يوسف، الذى تكون على شكل بوغاز بعنفوان الماء وقوته وهجومه على سلسلة جبال لوبية حتى فتحها ودخلها، وكان بحر يوسف الموجود الآن تتشعب منه عدة فروع تسقى أرض الفيوم ومزارعها، فإذا تم الرى صب ما زاد من مائه فى بركة قارون.

وكان تصريف هذه المياه فى البركة المذكورة بقصد خزن مياه النيل فيها لينصرف منها عند الاقتضاء بقدر الحاجة.

---

(١) أى أديره.

واختلف فى محل المصرف من هذه البركة إلى وادى مصر، فقال بعضهم: إن مورد المخزن الذى كان يتلقى المياه مدة ستة أشهر من السنة هو المصدر لما يحتاج إليه من ا لستة أشهر الباقية من السنة، فمحل المصدر والمورد واحد بترتيب وتقدير مختلف، واستظهر بعضهم بما هو الأقرب للاحتمال أن المصرف كان من المحل المسمى الآن بحر بلا ماء، فإن واديه متصل بطرق بركة القارون الغربى ومتجه جهة الشمال فى داخل البرية بمسامتة النيل، وكان سابقا يجرى صوب بركة النطرون بنحو ساعة ونصف وينتهى إلى بحيرة مريوط، وحيث كان قراره محفور إلى الآن فهذا دليل على أنه كان ذيلا لبركة القارون، كله أو بعضه، يعنى أنه كان بركة ثانية تالية الأولى، فهو بركة طبيعية فى الأصل، وإنما دخلها التدبير البشرى والعمل الإنسانى، واتساع هذه البركة من شط إلى آخر ثلاثة فراسخ، وهى الآن عقيمة لا ماء فيها ولا عشب وإنما بها أشجار مستحجرة وحيوانات كذلك.

الباب التاسع

فى ترع مصر وخلجانها

قال العلماء: أن نيل مصر كنز نفيس بين يدى رشيد فاضل أو سفيه جاهل، فالأول يميز قيمته ويعرف قدره ويحسن التصرف فيه من مصلحة ويدبر أمره لينمو المحصول حسب المرغوب والمأمول، والثانى يفوته الحزم والتدبير، ويقنع من الثمرة بالقليل، ويضيع ماء النيل هباء منثورا، بترك الواجب كسلا وتقصيرا، وهل بركة مصر ويمنها إلا من نيلها المبارك الميمون؟ وإلا كانت بدونه برية قحلة لا تكن لأحد ولا تقوم بالشؤون، فخصبها إنما هو بقدر ما يجرى بأراضيها من ماء النيل، وتدبير مياهه الرواتب بذلك كفيل، ومعلوم أن النيل لو ترك ونفسه يقذف فى البحر المالح مقدارا معلوما من مائه، وكمية مقدرة عند وفائه، فما أمكن أن تحجزه أراضى مصر بالتدبير من المياه المارة عليها فإنها تفوز به للإصلاح، وخصبها بقدره قلة أو كثرة، وبهذا نجاح الفلاحة ورباح الفلاح، فالخصب والثروة والفائدة إنما هى على قدر ما يمكن حجزه من المياه التى تضيع فى البحر المالح، فحفظها للحاجة إليها من أبرك المصالح.

فبهذا كانت غبطة مصر إنما هى فى حفر الترع والخلجان، وعمل القناطر والجسور بالإحكام والإتقان، وتدبير مياه النيل مع كمال الاقتصاد، وتوسيع دائرة عمليات الرى والسقى لبلوغ المرام والحصول على المراد، وهذا طريق لتكثير المحصولات وتوسيع الأراضى الصالحة للزراعات، ومن هنا يعظم الغنى واليسار،

وتقدم التمدن وقوة الحكومة واكتساب الفخر والاعتبار، وقد فهم هذا المعنى، أكثر عقلا، ملوك مصر وحكامها، وأجروه قديما وحديثا، كل على قدر همته فى حسن ترتيب العمليات ونظامها، وكان أعظم الجميع غيرة وهمة، وتأدية لمفروض المنصب وواجب الذمة، المرحوم محمد على باشا حيث تأسى بمن سلف، وورّث حسن صنيعه للخلف، وجدد العمليات الجمة، التى أثمرت بعده لسائر الأهالى سعة العيش ووفور النعمة.

ولنذكر الآن الترع والخلجان الأصلية، التى لعمقها واتساعها فى الغالب تسمى بحارا فى الديار المصرية، وهى عشرة:

«بحر مويس»

هذا الفرع العظيم يخرج من فرع دمياط بجوار أتريب وبنها، على البعد من المحروسة[1] بفرسخ، ويجرى إلى الشمال الشرقى من إقليم الشرقية فى سمت الزقازيق وتل بسطا، ويتشعب إلى شعبتين تصبان فى بركة المنزلة، وتسير فيه السفن كالنيل، وطوله أربعون فرسخا فى عرض مائة وخمسين مترا، وفيه انعطافات كثيرة، وشطوطه مسطوحة بمساواة مستوى الأراضى، وقد استظهر بعضهم أن مجرى بحر مويس بفرعيه هو ما كان قديما مجرى فرعى تينة وتنيس.

«البحر الصغير، أى بحر المنزلة»

يخرج من فرع دمياط بجوار المنصورة ثم يمر على مدينة المنزلة ويصب فى بركة المنزلة كبحر مويس.

«بحر شبين الكوم ويسمى بحر القرينين»

هذا البحر يمر بالمنوفية والغربية يستمد ماءه من فرع دمياط عند قرية القرينين ثم

(١) مصر المحروسة، أو المحروسة، بإطلاق، هى العاصمة.

عند شبين الكوم يتكون منه فرع آخر يسمى فرع المليج، ويتصل بترعة التبانية، ويصب مثلها فى بحيرة البرلس، واستظهر بعضهم أن هذا البحر من أول خروجه من فرع دمياط إلى مصبه فى بحيرة البرلس إنما هو مجرى فرع البرلس القديم، ثم إن بحر القرينين المذكور تسير فيه المراكب، وعرضه فى بعض المواضع مائة وخمسون مترا إلى مائتين وهو يمد بمياهه عدة ترع من ترع القرى والمدن بالمنوفية والغربية.

«البحر الصعيدى»

قد سميت بهذا الاسم الترعة الخارجة من فرع رشيد، بجوار دسوق، وتمر بالمندورة، وتصب فى بحيرة البرلس.

«المحمودية»

كانت هذه الترعة سابقا خليجا صغيرا قليل النفع، من صنيع من حكم مصر بعد الفتوح، واشتهرت فى الأزمان الأخيرة بالأشرفية، وفى مدة حكم المماليك تعطلت بالردم، فحفرها المرحوم خديو مصر محمد على باشا بترتيب آخر على أحسن أسلوب، وجعلها عميقة، فكان امتدادها نحو خمسة وعشرين فرسخا، وفمها بالعطف على القرب من فوه، وتسير فيها السفن العظيمة، وكان مدة حفرها سنة وشهرا، فقد اجتمع عليها من العملة أكثر من ثلثمائة ألف نفس، وهذه العملية جديرة بأن تنافس عمليات ملوك مصر الأقدمين أرباب الفخار.

وبواسطة هذه الترعة اتصلت المحروسة بالإسكندرية بغاية من السهولة، وتواترت الأسفار بين المدينتين لما كان فى السابق من الصعوبة فى الوصول إلى الإسكندرية من فرعى رشيد ودمياط، فهى من الهمم الملوكية كسد أبو قير وسد الفرعونية التى سدها المرحوم محمد على لتعطى المياه الكثيرة لفرع رشيد من فرع دمياط، وكانت مشاق سدها عظيمة، وذلك لأن سدها لم يتم إلا بتغيير جزء من

مجرى النيل عن أصله وتحويله عن موضعه فلزم كثرة الأشغال التى لا مزيد عليها، ونتج عنها نتائج جزيلة تكافىء المتاعب والمصاريف، كما سيأتى.

«ترعة الجعفرية»

هذه الترعة هى ترعة طنطا، ومبدؤها من طنطا وفمها من فم ترعة شبين الكوم، وتمر فى جنوب بندر الجعفرية، وبالقرب منها تتصل بترعة كفر الشيخ، على الغرب من دفريّة، طولها خمسون كيلو متر، وعرضها نحو ستة عشر مترا، وعليها أربع قناطر ريَّاحات ذات أبواب لمصارف المياه.

«ترعة البوهية»

تخرج من فرع دمياط على شمال دقدوس، وتتجه من جهة الشمال الغربى إلى السنبلاوين، ومنه تجرى شرقا إلى أن تلتقى ببحر مويس وتجتمع به فى جنوب كفر داود، وطولها أكثر من خمسين كيلو متر، وعرضها نحو ستة عشر مترا، وعليها أربع قناطر ريَّاحات بأبواب للتصرف.

«ترعة البحيرة»

هذه الترعة تسمى الخطاطبة، وفمها فى شمال بنى سلامة على فرع رشيد، تمتد بالاستقامة على شطوط النيل متجهة صوب الرحمانية، وطولها مائة كيلومتر، فى تسعة عشر متر من العرض، وعليها قناطر وأبواب للتصريف.

«بحر يوسف»

يطلق هذا الاسم على الخليج العظيم الخارج من منفلوط على سمت النيل

ومحاذاته إلى دخوله فى الفيوم، ويتشعب منه شعب كثيرة، وقد زعم بعض أرباب الجغرافيا أن هذا البحر إنما هو فرع قديم من فروع النيل كان سابقا يتجه غربا بعد خروجه من الفيوم ويصب فى البحر المالح بواسطة وادى بحر «بلا ماء»، وعرض بحر يوسف مائة متر، وفرشه أوطى من الأرض التى يمر بها فى طريقه، وقد تقدم بعض شيء يتعلق به فى الكلام على بركة قارون.

«ترعة السهاجية»

تخرج من النيل بجوار سهاج من الغرب تتجه منها حتى تصب فى بحر يوسف، وماؤها يكثر عقب فيضان النيل، ولها جسر عظيم يقطع كجبر الخليج عند أوانه باحتفال كاحتفال جبر الخليج نوعا، ومنه ترتوى أراض كثيرة تستمد منه السقى بالراحة[1] أو بعمليات هندسية بقطع أو بسد جسور فرعية وفتح بعض قناطر وسد بعض آخر بتقدير وتدبير معلوم فى أوقاته، وعند انحسار النيل ينضب ماؤه فى أغلب المحال وتبقى منه أماكن مستبحرة متفاصلة فى بعض القرى تسقى منها المزارع الصيفية بآلات كالسواقى والشواديف وتسير فيها القوارب.

ومن ترع مصر المشهورة ترعة الفرعونية، التى تعطلت فى الأزمان الأخيرة، وذلك لأنها كانت تسقط المياه بكثرة فى بحر رشيد، وتنزح بحر دمياط، وتضر بالجهات الزراعية الواقعة عليها، فصدرت أوامر سنية خديوية من المرحوم محمد على باشا بسد هذه الترعة بالكلية، وكان هذا بعيدا عن تصديق العقل بتنجيزه، لاستلزامه تحويل جزء عظيم من النيل عن مجراه، فحصل الاجتهاد العظيم فى تلك العملية، فانسدت الترعة المذكورة على أتم حال وأحسن منوال، وحصل المطلوب من الثمرات والفوائد المرتبة على ذلك. وسيأتى فى ذكر تاريخ مصر الجديد بسط الكلام على تجديدات محمد على وحفيده الخديو الفريد[2].

---

(١) السقى بالراحة، أى بدون توسط أدوات للرى ورفع المياه.

(٢) حفيد محمد على، المشار إليه، هو الخديو إسماعيل، الذى حكم من سنة ١٨٦٣ حتى عزل سنة ١٨٧٩م.

الباب العاشر

فى نباتات مصر وحيواناتها ومعادنها

من المعلوم أن مصر من جنات الأرض ومنتزهاتها، كما قال تعالى حكاية عن فرعون ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (الزخرف: ٥١) وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٥٧ - ٥٨) فكانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره، من الجانبين جميعا، من أسوان إلى رشيد، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وكان الزرع ما بين الجبلين معا من أول مصر إلى آخرها، فيما يبلغه الماء الجارى من النيل بنفسه أو بالتدبير والتقدير، وقال بعضهم فى قوله تعالى: ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٥٠) إن الربوة أرض مصر والماء المعين نيلها، فلا مبالغة فى كون مصر من جنات الأرض ولا فى القول فى أنها أخصب البلاد إنباتا، فإنها فى الحقيقة تنبت فى كل شهر من أشهر السنة نباتات جديدة، وتثمر أثمارا حديثة، وتزهر أزهارا يانعة، كما يعلم ذلك من تنوع قانون زراعاتها الراتبة وبُقولها وخضراواتها وفواكهها وأثمارها وحبوبها المختلف ذلك كله باختلاف الفصول.

ففى الفصول الباردة حيث تموت النباتات والخضراوات تجد بمصر كأن أرواح هذه النباتات التى تجردت عن أشباحها قد حلت فى أبدان نباتات مصر، حيث خضرة رياضها وبساتينها ومروجها ومزارعها تروق الناظر وتسر الخاطر، فتجد أزهار النارنج والليمون ونحوه تذكى رائحة الهواء وتعطرها، وتجد الحيوانات فى

المراعى تزيدها حسنا على حسنها، فلا تكون بلاد مصر حينئذ إلا بستانا مستظرفا، منثورا فيه النخيل من جميع جهاته.

وأما فى الفصول الحارة فتجد أيضا الزروع الصيفية فى أكثر الأماكن مخضرة، والمحصولات على عيدانها محمرة، أو فى بيادرها وأجرانها مختلفة الألوان، والمواشى سارحة فى سائر البقاع مملوءة بها المزارع لا سيما المواشى ذات الألبان، وتجد السماء منصحِّية من غير غيوم ولا سحائب، وفى الغالب يكون اعتدال الأهوية وهبوب النسائم الطيبة فى أغلب الأوقات، وبالجملة فقطرها صالح لتطبيع النباتات الأجنبية وإضافتها للنباتات الأهلية.

ويمكن قسمة زراعتها إلى رتبتين أصيلتين: **الأولى**: زراعة الأراضى المروية بفيضان النيل فيضانا طبيعيا، **والثانية**: زراعة الأرض بتدبير المياه تدبيرا صناعيا، وعلى كلتا الحالتين تزرع الحنطة والشعير والفول والعدس والسلجم والخردل والكتان والأنيسون والقرطم والترمس والبرسيم والحلبة والخس والبطيخ والقاون والشمام والخيار والفقوس والقرع والذرة وقصب السكر والنيلة والقطن والأرز، وجميع الفواكه بأنواعها المختلفة، إلا أن أغلبها جيد جدا وبعضها متوسط الحال، وإنما فى زراعة الأرض بالتدبير الصناعى بالخدمة والسقى، فإنه إذا كان بأرض لا يعلوها ماء النيل عند فيضانه لارتفاعها أو لحجزها عنه بسبب من الأسباب التى تقتضيها فهى تحتاج لأن تبذر فيها النباتات التى تستدعى تجديد السقى مدة مكثها فى الأرض، وتحتاج إلى تعب كثير وخدمة دائمة، وتكون أصالة فى الأراضى التى على شطوط النيل فى الصعيد والفيوم والأقاليم الوسطى والوجه البحرى فى بعض جهات منه، وفى الغالب إنه يزرع فى الصعيد والأقاليم الوسطى على هذه الأرض: الذرة وقصب السكر والنيلة والقطن والبقول والخضراوات، ثم إن أغلب الجهات المصرية لها اختصاص بزراعة ما يوافقها من الأصناف، كالفيوم، مثلا، فإنها تتميز بزراعة الورد لاستخراج ماء الورد الجيد منه، وبزراعة الكرم بكثرة جودته فيها، وفى البحيرة فى المحال المنخفضة فجهة دمياط[1] تتميز بالأرز الجيد الذى لا مثيل

(١) فى التقسيم الإدارى الراهن لمصر تكون دمياط محافظة مستقلة عن محافظة البحيرة.

له، وزراعة الأرز بمصر من مستحدثات الخلف تقليدا لأهل الهند، وقد فاق هذا الصنف بجودته ولذة طعمه من[*] أرز بلاد الدنيا، وإن تميز عليه أرز إيطاليا فإنما ذلك فى اللون فقط، لبياضه ولمعته، وإلا فالأرز المصرى الآن أعلى الجميع، وتزرع الذرة الشامى والبلدى بكثرة فى الشرقية، كما يزرع فيها أيضا قصب السكر والنيلة والقطن، وقد كثر زرع هذا الصنف أيضا فى جميع جهات مصر الصالحة له، وهو دائما لا يزال يزيد زرعه باجتماع الرغبات عليه الآن من كافة أهل الزراعة، ولكن دونه فى ذلك استخراج الحرير بتكثير غرس التوت، ويؤمل بهمة الخديو نموه على تداول الأيام.

وقد تطبع[**] الآن بمصر نباتات أجنبية كانت سابقًا متأصلة كاللوز والبندق والكريز، ولكنها زرعت فى بساتين مخصوصة، ومع أن فيها الأشجار العظيمة الكثيرة الفروع الواسعة الظل الضخمة الجذوع إلا أن أعظم جميع أشجارها نفعا هو شجر النخل، الذى ليس غرسه مختصا بالأراضى التى يسقيها النيل، فترى البستان الواحد قد يكون مشتملا على الألوف من النخيل، ووسق[1] النخلة الواحدة من التمر أقل ما يساوى من الثمن ريالا كل سنة، وفى الفيوم يزرع شجر الزيتون، ويكون جيدا، ويخللون أثماره[2]، وكذلك يزرع فى غير الفيوم، وقد ذكر المؤرخون أن الزيتون انتقل إلى بلاد اليونان من مهاجرى مصر، وهذا أصل تولده بها، وقد كان فى سالف الأزمان لمصر شهرة بزرع الكرم، وكان فرعا مهما بها، وكانت تستخرج منه الأنبذة وتباع فى بلاد الروم والآن ما يزرع منه، لا سيما بفوّة والفيوم، إنما هو لمجرد الأكل، وإن كان ينتبذه بعض أهل الفيوم إلا أن نبيذه غير جيد، مع أن التواريخ القديمة تفيد أن فى سالف الأعصار أجود أنبذة الدنيا نبيذ مصر، فهذا يدل على كثرته والرغبة فيه، ولعل الرغبة انقطعت بتحريمه عند ظهور

(*) «من» هنا زائدة وكان الأولى حذفها (الشروق).

(**) المراد: تزرع. (الشروق).

(١) أى حملها.

(٢) أى يضعونها فى الماء بعد إذابة الملح فيه.

الإسلام. ومع ما فى مصر من الأشجار العظيمة الضخمة فهى قليلة الآجام[١] والغابات، ومحتاجة إلى ذلك، فليس بها إلا بعض أورمانات[٢] من أشجار الصنط لا تكفى لحاجاتها، وإنما شجر النخل لكثرته ينتفعون بجذوعه وجريده للسقوف فى الأرياف، وكذلك شجر الجميز فإنه يتخذ منه القوارب الصغيرة وآلات السواقى وغير ذلك، فبلاد مصر محتاجة إلى البحث عن حطب الوقود وخشب العمارات من البلاد الأجنبية، ولو اهتمت بغرس ما يلزم لنجحت واستغنت عن غيرها.

ومع أن أرض مصر عظيمة المرعى، كثيرة ما يتربى به المواشى، إلا أنها ليست كالبلاد الأخرى ذات مروج صناعية أو طبيعية ورياض مخضرة وكلأ واسع مباح، فبهذا لم تبلغ فيها تربية الماشية حد الكثرة، وذلك لأن المواشى مدة فيضان النيل على الأراضى لا ترعى فى الخلاء، بل تعلف فى المزاود والاصطبلات.

ثم إن من مواشى مصر الخيل[*]، وهى جيدة، لأن المماليك كانوا يعتنون باقتناء الخيل الجيدة الأصائل[٣] ويربونها للركوب، فكثرت وعظمت، ثم فى مدة المرحوم محمد على باشا اعتنى كثيرا بتربيتها، واقتدى به أعيان حكومته، فزادت تحسينا، ولا زالت آخذة فى النمو والكثرة فى حكومة ورثته. وكذلك البقر والجاموس فى جميع بلاد الريف، وتختص البحيرة بصنف الأغنام المغربية. ومن أصول ثروة مصر أيضا الإبل، ومعز الصعيد وأغنامه، والحمام، والدجاج، وجميع الحيوانات الأهلية.

ويقل بهذه البلاد الوحوش بسبب عدم وجود غذائها وغاباتها، فليس بها إلا الضباع والذئاب والثعالب، وهى أيضا لا تبلغ حد الكثرة. وبها الغزلان، لا سيما فى صحارى الصعيد. ومن حيواناتها الحمر الجيدة.

---

(١) مجموعات من الأشجار، وغابات ملتفة الأشجار.

(٢) الأشجار المجتمعة.

(*) فى هذا التعبير جانب المؤلف الصواب لأن «الخيل» ليس من «المواشى».

ـ فالماشية: تعبير ينصرف إلى الإبل والبقر والغنم وأكثر ما يستعمل فى الغنم.

ـ أما الخيل: فهو جماعة الأفراس (لا واحد له من لفظه)، والفرس هو واحد الخيل. (الشروق).

(٣) الأصائل، مفردها: أصل. ولقد وردت فى الأصل، خطأ: الأسائل.

وفى مصر تحسن تربية النحل، فيطلقونه فى النهار ثم يدخل فى الليل إلى خليته من غير أن يقصر فى الرجوع. وكذلك تربية الدجاج فإنها من الأمور المخصوصة بمصر، وتسمى حضانة الفراريج بالذبل ونحوه، ولكن يقل بمصر تربية الفراريج بالحضانة، بل أكثره حضانة صناعية مدبرة، ففى كل بلد موضع لذلك يسمى معمل الفرّوج، وهو ساحة كبيرة مشتملة على أبيات من عشرة أبيات إلى عشرين بيتا، وفى كل بيت ألفا بيضة، ويسمى بيت الترقيد، وأحسن الأوقات المختارة لعمله أمشير وبرمهات وبرمودة، التى فيها يكثر البيض، ويكون غزير الماء، كثير الفقس، صحيح المزاج، والزمان معتدل صالح لذلك. وفى نيل مصر التماسيح بكثرة، وإنما يظهر أنه الآن قل وجودها عن السابق، وكذلك به فرس البحر، وتسمى جاموس البحر، وهى توجد بأسافل الأرض، خصوصا ببحر دمياط، وفى النيل من الأسماك ما لا يحصى كثرة وأصنافا.

وأما معادن مصر فقد ذكر أصحاب التواريخ كثرتها، والآن لا يستخرج إلا النطرون، والملح، والأحجار الجيرية، والرخام، وأحجار الآلة، وأحجار الرحى، والجبس، والصوان، وأحجار البناء، وليس بها الآن استخراج لأحجار نفيسة ولا لمعادن منطرقة، وإنما يكون استخراج الملح فى الغالب على شطوط البحر المالح، والنطرون من وادى بركة النطرون، حيث يوجد فيها بكثرة، وهو يدخل أصالة فى صناعة القزاز والصابون، ويقال إن بها معدن اللازورد واليشم والياقوت وغير ذلك. فهذا هو ما يخص المواليد الثلاثة بالديار المصرية.

الباب الحادى عشر
فيما شوهد من الآثار القديمة بمصر

لم يشاهد فى غير مصر من العجائب مثل ما شوهد فيها من آثار الأقدمين، وهى الأهرام، والمسلات، وعواميد السوارى، والتماثيل، والهياكل، والبرابى، ورسوم المدن القديمة.

فأما الأهرام فقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها، وهى فى الحقيقة كانت كثيرة العدد جدا، وكلها ببر(*) **الجيزة**، وعلى سمت مصر القديمة، ويمتد سمتها فى نحو مسافة يومين، **وبعضها كبار وبعضها** صغار، وبعضها بالطوب والطين وأكثرها بالحجر، وبعضها **مدرج وأكثرها** مخروط **أملس**، وقد كان منها بالجيزة عدد كثير، لكنها صغار، **فهدمت فى زمن** السلطان **صلاح الدين** يوسف بن أيوب[1]، على يدى «قرقوش» أحد **أمرائه**، **وكان** خصيا روميا سامى الهمة، وكان يتولى عمائر مصر، فاستعمل أحجارها فى بناء القناطر وغيرها، ومع ذلك فقد بقى من الأهرام التى هدمت آثار تدل عليها.

وأما الأهرام الموصوفة بالعظم فثلاثة واقعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط، وبينها مسافات يسيرة، وزواياها متقابلة نحو المشرق، واثنان منهما عظيمان جدًا، وفى قدر واحد تقريبًا، شبههما الشعراء بنهدين فى صدر الديار

(*) البر: ماانبسط من سطح الأرض ولم يغطه الماء (الشروق).

(١) عاش ما بين سنة ١١٣٧ و١١٩٣م، وهو من أشهر أبطال العالم فى العصور الوسطى.

المصرية، وهما متقاربان جدا، ومبنيان بالحجارة البيضاء، وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع، لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر المنقط الشديد الصلابة، ولا يؤثر فيه الحديد إلا فى الزمن الطويل، وتجده صغيرا بالقياس إلى الهرمين السابقين، فإذا قربت منه وأفرد بالنظر هالك منظره.

وقد سلكوا فى بناء الأهرام طريقا عجيب الشكل والإتقان، ولذلك صبرت على ممر الزمان، بل على ممرها صبر الزمان! فإنك إذا تأملت فيها حق التأمل وجدت الأذهان الثاقبة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها من القوة إلى الفعل، لما فى غاية إمكانها، حتى كادت تُحَدّث عن قومها، وتنبىء عن حالهم، وتنطق عن علومهم وأنوارهم، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم.

وذلك أن وضعها على شكل مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهى إلى نقطة، ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله فى وسطه، وهو يتساند على نفسه، ويتواقع على ذاته، ويتحامل بعضه على بعض، فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها.

ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع، فإن الريح تنكسر سَورتها عند مصادمتها الزاوية، وليست كذلك عندما تلقى السطح. وارتفاع أكبر الأهرام الثلاثة نحو خمسمائة قدم، ومساحته من أسفله طولا وعرضا نحو خمسمائة قدم.

وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية، طول الحجر منها ما بين عشرة أذرع إلى عشرين ذراعا، وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاث، وعرضه نحو ذلك، والعجب كل العجب فى وضع الحجر على الحجر بهندام ليس فى الإمكان أصح منه، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة ولا خلال شعرة، وبينهما طين مونة لا يدرى ما صنفه ولا ما هو، وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم البربائى الذى لم يعرف لأى أحد من أهل مصر وإنما توصل بعض الإفرنج فى هذا القرن الثالث عشر لحل رموزه نوعا[1].

---

(١) الإشارة إلى العالم الفرنسى «جان فرانسوا شمبليون» (١٧٩٠ - ١٨٣٢م).

وقد تبين أن بانى أكبر أهرام الجيزة «أخيوبس»[١] ملك «منف»، وبانى الهرم الثانى «خفرم»[٢] أخو «أخيوبس» المتقدم، وبانى الثالث «موقرنوس»[٣] الموجود بعدهما، واشتهر أن هؤلاء الملوك كانوا قبل الهجرة فى آخر القرن التاسع عشر، ثم ظهر بالتحقيقات الحديثة أن هؤلاء الملوك كانوا قبل مبعث سيدنا إبراهيم الخليل، فعلى هذا يكون وجودهم فى القرن التاسع والعشرين من الميلاد[٤]، ومنه يعلم تاريخ بناء الأهرام اعتمادا على هذه التحقيقات الجديدة، وأنها من بناء الدولة الرابعة المتوارثة الذى كان الملك «صوفى» هو السادس والعشرين من ملوكها بعد «ميناوس»، وأن «صوفى» هو الذى بنى الهرم الأول، وأخوه «سنصوفى» بنى الهرم الثانى كسلفه، ثم «منقادى» اقتدى بهما وبنى الهرم الثالث الصغير.

وبإزاء الأهرام آثار أبنية جبابرة، ومغاور كثيرة متواترة، كبيرة المقدار، عميقة الأغوار، متداخلة، وقلما ترى منها شيئا إلا وعليها كتابات بالقلم البربائى، وعند هذه بأكثر من غلوة[*] صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم يسميه الناس أبا الهول.

وهو رأس تمثال جثته مدفونة تحت الأرض، ويقتضى تناسب القياس أن تكون جثته بالنسبة إلى رأسه سبعين ذراعا فصاعدا، وأعجب شىء تناسب وجه أبى الهول، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة كما تكون الخلقة متناسبة الصورة، فإن أنف الطفل مثلا مناسب له، وهو حسن به، حتى لو كان ذلك الأنف فى الصغير أنفا لرجل كبير كان مشوها به، وكذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته، وعلى هذا سائر الأعضاء، فكل عضو يكون على مقدار وهيئة بالقياس إلى تلك الصورة وعلى نسبتها، فإن لم توجد المناسبة تشوهت الصورة،

---

(١) هو الملك خوفو بن الملك سنفرو (٢٥٨٤ ق. م).

(٢) هو الملك خفرع، ويسمى أيضا خعفرع (٢٥٥٣ ق. م) وهو أول من أطلق على نفسه ابن رع.

(٣) هو الملك منكاورع (٢٥٢٨ ق. م) ويسميه البعض: مركيز نيوسى، والبعض يسميه: منخريس.

(٤) أى قبل الميلاد.

(*) الغَلْوَةُ: مقدار رمية سهم، وتقدر بثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة. (الشروق).

والعجب من صورة أبى الهول كيف قدر أن يحفظ التناسب فى الأعضاء مع عظمها، وإنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه، إذ هو صورة وهمية.

ومن الآثار العجيبة آثار مدينة عين شمس، لا سيما المسلتان المشهورتان، وتسميان مسلتى فرعون، وصفة المسلة: أن تجد قاعدة مربعة طولها عشرة أذرع فى مثلها عرضا وفى مثلها سمكا قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض، ثم أقيم عليها عمود مربع مخروط ينيف طوله على مائة ذراع، يبتدىء من قاعدة قطرها نحو خمسة أذرع، وينتهى إلى نقطة، والمسلة كلها عليها كتابات بالقلم البربائى، قد بقيت منها الآن مسلة واحدة «بالحصن» بالمطرية، ومثل ذلك أيضا مسلة بالإسكندرية على شاطىء البحر، ومثلها أيضا يوجد فى الصعيد عند مدينة «لقصر» وقد نقل الفرانساوية أخيرا إلى باريس مسلة عظيمة من «لقصر أبى الحجاج».

وأما البرابى فى الصعيد فالحكاية عن عظمها وإتقان صنعتها وإحكام صورها وعجائب ما فيها من الأشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع إحكام البناء وجفاء الآلات والأحجار مما يفوت الحصر، وهى بمكان من الشهرة بحيث تغنى عن الإطالة فى وصفها.

ومن الآثار أيضا عمود السوارى بالإسكندرية، وهو عمود أحمر منقط من الحجر الصوان، عظيم الغلظ، جدا، شاهق الطول، لا يبعد أن يكون طوله سبعين ذراعا، وقطره خمس أذرع، وتحته قاعدة عظيمة تناسبه، وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة، وارتفاعها عليه بهندام تقتضى القوة عند قدماء مصر فى العلم برفع الأثقال ومهارتهم فى الهندسة العملية، وكان عليه قبة هو حاملها والظاهر أنها هى الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده، وأنه دار العلم الذى بناه إسكندر حين بنى مدينته، ويقال إن فى هذه القبة أيضا كانت خزانة الكتب التى يقال إنه حرقها عمرو بن العاص بإذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، مع أن ذلك لم يتحقق بل يقال إنها كانت احترقت قبل الفتح، وهناك آثار أخرى تأتى فى محالها.

وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم فى الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثتهم(*) كانت عظيمة، أو إنهم كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم، وذلك لقصور الأذهان عن مقدار ما يحتاج إليه ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة(**) العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للأعمال، والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الإنسان ومقاديرها ونسب بعضها إلى بعض، إلى غير ذلك مما يتعجب منه غاية العجب. والله خلقكم وما تعلمون.

«تنبيـــــه»

هذه الآثار القديمة تسمى «أنتيكة»، وكان صدر من المرحوم محمد على باشا أوامر سنية فى نحو سنة ١٢٥٢ بحفظها، وإن ما يَحتَفر منها فى مواضعها يحفظ فى مخزن «أنتيكات» بالمحروسة، وإنه لا يسوغ إخراج شىء منها إلى البلاد الأجنبية، لأنها زينة مصر، ولا يجوز تجريد مصر من حليتها التى تجلب إليها المتفرجين من سائر بلاد الدنيا، ثم أنها لم تزل إلى الآن لها مخزن مخصوص فى بولاق، منظم أحسن تنظيم، ولكن لم يزل يأخذ منها الأجانب ما يحصلونه بالشراء من تصاوير وموميات، أى أجزاء محنطة مُصبَّرة، مع أن بقاء تلك الآثار لا زالت الملوك تراعيه وتحافظ عليه وتمنع من العبث فيه والعبث به، ولو بالنسبة للتماثيل والأصنام الموجودة فى تلك «الأنتيكات»، وإن كانوا أعداء لأربابها، وإنما يفعلون ذلك للمصلحة، لتبقى تلك الآثار تاريخا يُتَنبَّه بها على الأحقاب الخالية، ولتكون أيضا شاهدة للكتب المنزلة، فإن القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها، ففى رؤيتها خبر الخبر وتصديق الأثر، ومن فضيلة بقائها أيضا أنها تدل

(*) الأفضل أن يقال: . . وأجسامهم كانت عظيمة. لأن «الجثة» لاتطلق إلا على الجسد الميت. (الشروق).

(**) هذا تصحيف من الراقم، والمراد (مثابرة) بالثاء لا بالصاد أى واظب على الأمر وداوم عليه. (الشروق).

على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم، وتوفر علومهم وصفاء فكرهم، وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته، وكان ذلك في الأزمان السالفة مما يحافظ عليه جدا، ثم تغير الحال، ورأى أهل الأزمنة الأخيرة أن هذه «الأنتيكات» إنما هي آثار هائلة، فراعهم منظرها، وظنوا ظن السوء بمخبرها، واعتقدوا أنها دلائل على مطالب ودفائن، وحسبوا أن كل تمثال عظيم إنما هو حافظ لمال تحت قدميه، فصاروا يُعملون الحيلة في التخريب والتهديم، طمعا في الحصول على كنز خفي فيه مال قديمَ، فبهذا صارت «الأنتيكات» في حالة قبيحة، ولولا الأوامر السنية السابقة لتمادى العوام على ذلك، واشتغلوا باستخراج هذه المطالب المفضية إلى المهالك، فبقاؤها من أبرك المصالِح، فلا تزال تُقتَبس منه معارف يعود نفعها على الجغرافيا على وجه ناجح راجح.

* * *

الباب الثانى عشر
فى ولاة مصر قديما وحديثا

وفيــه حالتــان :

الأولى : حالة ولاة مصر قبل الفتوح بالإسلام، وحكمها بأهلها أو بالأجانب .

الثانيـة : حالة ولاتها بعد الفتوح إلى وقتنا هذا، وحكمها بخلفاء العرب أو بالملوك والسلاطين .

«ولاة مصر قبل الفتوح بالإسلام»

كانت إقامة أوائل ملوك مصر فى قديم الزمان بالصعيد الأعلى، وكانوا ينتخبون من أمناء الدين، يعنى من كهنة الأصنام التى كانوا يعبدونها، كالشمس والقمر والنار وغير ذلك من العناصر، وهذا معنى قول قدماء المؤرخين، من اليونان : إن البركان حكمها كذا سنة، يعنى أن كاهن هيكل النار هو الذى كان حاكما عليها . ومدة حكمها بهذه الكيفية مجهولة الحال، وإنما يقال : إن أول هؤلاء الولاة كان من مدينة فى الصعيد يقال لها طيسة، وتسمى أيضا طينة، كما يقال : إن أول من أسس مدينة طيوة، يعنى لقصر وما حولها، هو الشمس يعنى كاهن الشمس، ثم خرجت العائلات الملوكية من هاتين المدينتين القديمتين، ثم بنيت مدينة منف ومدينة عين شمس وصا الحجر وتنيس وبسطا ومدينة سواس، وانتقل إلى هذه المدن الملك،

وصارت فيه عائلات ملوكية، فبهذا يقال: الدولة الطيوانية أو المنفية أو الشمسية أو الصاوية أو البسطاوية وهكذا.

وقد عد المؤرخون دول مصر قبل الفتوح نحو ثلاثين دولة، يعنى عائلة ملوكية حاكمة بالتوالى، وكانت إذا انقطعت حكومتها ثم عادت إليها تغير اسمها واختلف.

فالدولة الأولى كانت قبل الهجرة بنحو ثلاثة آلاف سنة ومائة واثنتين وعشرين سنة، وهى بعد الحكومة الكهنوتية، وأول ملوكها میناوس، المسمى أيضا مصرايم، ومن هذه الدولة إلى حكومة دولة الملوك الرعاة، المسماة دول العمالقة، ثمان عشرة دولة، وملوكها ثلثمائة وثلاثون ملكا.

وهذه الدول بعضها منفرد بالحكم فى ديار مصر كلها، وبعضهم منفرد بإقليم وغيره حاكم لإقليم آخر، وقاعدة الملك تارة فى الوجه البحرى وتارة فى الوجه القبلى. فأصل الملك میناوس من مدينة طينة، فهو فى الحقيقة أول ملوك مصر بعد الطوفان، وكانت مملكته بإقليم الصعيد، وكان وادى هذا الإقليم فى ذلك الوقت، دون غيره، ليس مغمورا بمياه النيل، لبعده عنه، فكان أول جهاد هذا الملك وفتوحاته ونُصراته إنما هى انتصاره على النيل المبارك، وذلك إنه أصلح تلك الأراضى المستنقعة بالمياه لانخفاضها، وسوّاها، فبادر، كما قيل، بأن أوقف مجرى النيل وحبسه بجسر عظيم جدا عريض بقرب محل مدينة منف، وحوله عن مجراه الأصلى، وتنظيمها، وكذلك تنظيم القوانين والأحكام وغيرها، كالتحسينات فى المطاعم والمشارب والفرش وأمتعة البيوت ومبادىء العمران.

ومن بعد هذا الملك إلى الملك موريس المسمى طوطميس الرابع يذكر المؤرخون عدة ملوك مذكورين فيما سبق عند ذكر الأهرام، لا تُعلَم تفاصيلهم ولا أحوالهم ثابتة، فليس هنا محل ذكرهم، وإنما سبق لنا أن من ملوك الدولة الرابعة من بنى أهرام الجيزة، وشيد مدينة منف، وشرع فى إصلاح رعاياه بتحسين الزراعة وترتيبها وهم الملك صوفى الذى بنى الهرم الأكبر من أهرام الجيزة، وأخوه الملك سنصوفى،

وهو الذى بنى الهرم الثانى، والثالث الملك منقارى، وهو الذى بنى الهرم الثالث، وكلهم من الدولة الرابعة، خلافا لمن جعل بناء هذه الأهرام من الملوك الذين بعد سيزستريس، وأما كون البانى لها هو خيوس وأخوه خفرم وجعله فى الوادى الذى يجرى فيه الآن بين الجبلين، ورفع الأراضى وجعلها قارة ومقرينوس فإن صح كانت هذه الأسماء أيضا أسماء لمن تقدم ذكرهم، أو يكون المراد بالملك سيزستريس ملكا آخر من ملوك مصر، من الدولة الرابعة، فهو غير رمسيس الأكبر الشهير بالغزوات المعهودة.

ثم إن من ميناوس أول ملوك مصر إلى نقطانيبو الثانى آخر ملوكها الأهليين مدة ألفين وخمسمائة سنة، على القول المشهور، وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقيل خمسة آلاف وأربعمائة وأربعين، فتكون دولة الفراعنة بقيت بمصر هذه المدة إلى ما قبل الهجرة بنحو ألف سنة.



المقالة الثانية

فى طبقات ملوك مصر وفيها عدة أبواب.

الباب الأول

فى الطبقة الأولى، وتسمى العليا

مبدؤها من سنة ٥٦٢٦ قبل الهجرة[1] وهى من ميناوس إلى الدولة الحادية عشرة ومدتها نحو ١٩٤٠ .

لا شىء محقق فى التاريخ فيما يتعلق بالدولتين الأولين من هذه الطبقة ، وإنما هناك بعض شىء يتعلق بآخر الدولة الثالثة منها وهو ما يفهم من كتابات المبانى فى وادى مغارة بجزيرة الطوران من ملوك هذه الدولة الثالثة ملكا يقال له سناورون يصورون إنه غزا جزيرة الطور واستولى عليها بالانتصار على عرب بنى عون ، وإنه أول من بنى بوادى مغارة المتقدم المبانى المصرية لاستخراج معادن النحاس الموجودة بجبل الطور .

فيؤخذ من هذا أن ديار مصر كانت من عهد الدولة الثالثة من هذه الطبقة آخذة فى توسيع دائرة المعارف وامتداد الحدود والبحث عما فيه منفعتها ، ولم تك تترك انتهاز الفرصة فى الأزمان الأزلية ، بل هذا يدل أيضا على توفر الأدوات والآلات ووجود المقتضيات وانتفاء الموانع فى تلك المدة ، وإنها كانت من ذلك الحين ذات جمعية تأنسية عمرانية ، بل ذات تدين معلوم مألوف للأهالى ، فقد وجد على أهرام

(١) هكذا بالأصل ، وهو خطأ ، إذ تبدأ الأسرة الأولى سنة ٣٢٠٠ ق . م فإذا أضفنا إليها السنوات الميلادية السابقة على الهجرة - ٦٢٢ سنة - كانت سنة بدء حكمها هى سنة ٣٨٢٢ قبل الهجرة . ويحدد البعض تاريخ بدء حكم هذه الأسرة بسنة ٢١٠٠ ق . م .

سقارة كتابات متحدة التاريخ مع بناء أهرام تدل على ديانة مصر وأنها كانت صابئة[1] من زمان الملك خيوبس، حتى إنه مرسوم على الأهرام اسم الأصنام المصرية من الشمس والقمر وغير ذلك، وهذا كله يدل أيضا على ان ملوكها فى تلك الدول الأولية كانوا ذوى تصرف مطلق، فاعلين مختارين، لهم يد عليا على التصرف فى النفوس والأموال، فلهذا اقتدروا على ابتناء البنايات الضخمة الجسيمة، وغزو الغزوات البعيدة، وما ذاك إلا لثروتهم وبأسهم وسلطنتهم بكمال التصرف على رعاياهم.

وامتازت الدولة الرابعة من هذه الطبقة بكثرة ملوكها وطول مدة حكمها ـ كما سيأتى ذلك فى جدول الدول المصرية ـ وبعض ملوك هذه الدولة اشتهر فى تلك الأزمان القديمة ببعد الصيت بسبب أشغاله وعماراته العجيبة، كالبانين لأهرام الجيزة، وهم الملك خيوبس وأخوه الملك خفرم وخلفهما وهو مقرنيوس، وقد تقدم أن لهم أسماء أخر قريبة من هذه اشتهروا بها.

وأول من نبه على هؤلاء الملوك هردوطس[2]، وقد أيد قوله الوصول فى عصرنا هذا إلى قراءة النقوش البربائية، والحصول على حل رموزها بمعرفة المتأخرين، فقد وجدوا داخل الهرم الكبير اسم لفظة[*] خوفو، فاستنبط منه إنه خيوبس، ووجدوا أيضا بالأهرام اسم خفرة، واستدلوا به على خفرم، ووجدوا اسم منقارة فأخذوا منه مقرنيوس.

ولا يعلم أحد من ملوك الدولة الخامسة باسمه ولا نعته، وإنما يعلم أن بعض ملوكها بنى بجهة سقارة المحل المسمى بمسطبة فرعون وبعض مقابر فى تلك الجهة،

---

(١) ديانة قديمة سابقة على الإسلام، كان مركزها فى حران، شمالى العراق، ولعقائدهم صلات وثيقة بالكواكب والنجوم جعلت عددا من مفكريهم يسهمون إسهاما ملحوظا فى نهضة علوم الفلك فى الحضارة الإسلامية العربية، والصابئة عرب، عاملهم المسلمون معاملة أهل الكتاب.

(٢) هو المؤرخ الشهير هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق. م) ولد فى هاليكارناسوس بآسيا الصغرى. ويطلقون عليه: أبو التاريخ.

(*) حُسن السياق كان يقتضى حذف كلمة (لفظة) الواقعة قبل كلمة (خوفو) تحقيقا للتناسق بين الفقرة كلها حيث إن المؤلف لم يذكرها مرة أخرى قبل الاسمين الآخرين وهما «خفرة» و«منقارة». (الشروق).

كما يعلم أيضا اسم ملك اشتهر بأشغاله وعملياته، ويظهر أنه من ملوك الدولة السادسة، وإنه يسمى بأبى مارى را، وقد استظهر بعضهم إنه هو موريس اليونان صاحب بركة قارون، وخالفه آخرون، كما سيأتى أن معنى موريس بحيرة.

وقد ظهر لبعض علماء الآثار من الاستكشافات الجديدة القريبة إنه عقب انقراض الدولة الخامسة، بموت آخر ملوكها، استولى على كرسى المملكة المصرية دولة أخرى أصلها من مدينة منف، واشتهر من ملوكها - كما قال الحبر مانيطون[1] - اثنان وهما الملكة نيطو كريس والملك أبابوس، فأما الملكة نيطو كريس فقد لقبها مانيطون المذكور فى تاريخه بموردة الخدين، وذكر أنها كانت أشهر نساء[*] عصرها حسنا وجمالا وفضلا وكمالا، ويقال عنها إنه كان لها أخ قتله أعداؤه، فأخذت بثأره من قاتليه، فجذبتهم إلى مقاصير تحت الأرض أعدت لهم فيها وليمة عظيمة، فلما التهوا فى لذات المآكل والمشارب أمرت بأن ينساب عليهم ماء النيل فأغرقهم جميعا.

وأما الملك أبابوس فقد كان ملكا مغازيا، كالملك خيوبس، وكان من جملة من اعتاد الإغارة على مصر من طوائف الزنوج طائفة تسمى «هو هو»، فسعى هذا الملك فى غزوهاوإدخالها تحت الطاعة لمملكة مصر، وكذلك انقادت له قبيلة من قبائل العرب تسمى بنى هروسة، وكان جماعة من المصريين يستخرجون معادن النحاس من جزيرة الطور بعد استيلاء أحد ملوك الدولة الثالثة عليها، كما سبق، فكدر عليهم بعض العرب الموجودين بها فعاقبهم الملك أبابوس بما فعلوه، ويكثر ذكر اسم الملك أبابوس فى الكتابات المنقوشة على الآثار القديمة بالقلم البربائى، فيوجد بآثار أسوان وإسنا وناحية لقصر والصياد بإقليم قنا، وناحية الشيخ سعيد وزاوية الميتين بمديرية المنيا، وفى جهة سقارة، وفى ناحية صان بإقليم الشرقية، ويوجد مصورا فى صخور وادى المغارة بجبل الطور، وفى المحل المسمى بالحمامات

---

(١) هو الكاهن المصرى «مانيتون»، كان كبير كهنة معبد هليوبوليس فى عهدى بطليموس الأول والثانى، ولم يبق من كتابه الذى أرخ فيه لمصر وديانتها إلا نتف وملخصات.

(*) إضافة يقتضيها السياق (الشروق).

الذى تأوى إليه القوافل الذاهبة من قنا إلى القصير، ولفظ أبابوس معناه باللغة المصرية القديمة طويل القامة، فمن هذا نقل الحكويُّون أن هذا الملك كان يبلغ من الطول سبعة أذرع، وحكم مصر مائة سنة. انتهى.

ولعله هو الذى عبر عنه المؤرخون أيضا باسم «بأبى مارى را» فيكون على هذا غير موريس الذى ظن اليونان إنه اسم منشىء بحيرة قارون، وقد ظهر بالاستكشافات الجديدة أن لفظ موريس أصله ميرى، ونقله اليونان إلى لسانهم بزيادة السين، ومعنى ميرى فى لغة المصريين القديمة بحيرة أو بركة، كان يطلق علما بالغلبة على بحيرة الفيوم، فأضاف اليونان إليه لفظ بحيرة أو بركة وقالوا: بحيرة موريس ظنا منهم إنه اسم لصاحب البحيرة، والحال أنه اسم للبحيرة نفسها التى أنشأها الملك أمونها أحد ملوك الدولة الثانية عشرة.

والدور الممتد من آخر الدولة السادسة إلى أول الدولة الحادية عشرة مبهم، بل هو أشكل أزمان تاريخ مصر وملوكها فيما يتعلق بالسنين والوقائع فى مدة نحو ٤٣٦ حتى إن جميع صحف المؤرخين قد خلت من بيان هذا الدور، فلا يقدر أحد أن يهتدى إلى معرفة الدولة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة إذ هى مغلقة الأبواب فلا سبيل إلى الوقوف منها على الصواب، ولعل هذا ناشىء عن فترة فى همم الأمة عن بناء عمارات تدل آثارها عليها أو عن عدم الاهتداء إلى هذه الآثار بسبب كونها سحب عليها الدهر صروفه حتى صارت فى دفائن الأرض مكنوزة غير معروفة.

«تنبيــــه»

قد صح بالتواتر والاستفاضة أن ميناوس، أى مصرايم، هو أول ملوك مصر بعد الطوفان، وأنه أول مؤسس للمملكة المصرية فى تلك الأزمان، وأن مصر من وقته إلى الدولة الرابعة كانت فى حالة الطفولية، قليلة الآثار العمارية، فبظهور الدولة الرابعة سنة ٤٨٥٧ قبل الهجرة[1] أخذت مصر فى التمدن فى عصر الملك خيوبس،

(١) هكذا بالأصل، ولكن كتب التاريخ الفرعونى وموسوعاته تحدد بدء حكم الأسرة الرابعة بسنة ٢٦٨٠ ق.م، وبعضها يحددها بسنة ٢٦١٣ ق.م.

المسمى فى نقوش الآثار باسم الملك خوفو، وله غير ذلك من الأسماء، وقبره فى الهرم الكبير الذى هو أكبر أهرام الديار المصرية، الذى أنشأه هذا الملك فى مسافة ثلاثين سنة بمائة ألف من العَملة يتناوبون العمل فى كل ثلاثة أشهر حتى تم العمل، ولم يزل يظهر إنه فوق طاقة البشر بعد مكث ستين قرنا من الدهر بدون خلل، وكذلك ما بجواره من الأهرام التى عدت من عجائب الدنيا.

والصحيح أن تمدن مصر وصل إليها من بلاد آسيا، من جزيرة العرب، لا من بلاد النوبة والسودان، وأنها فى مدة دول الطبقة الأولى بلغت مصر من التمدن النسبى حظا وافرا، إذ كان فى زمن الجاهلية الأولى بديار مصر قوم أولو علم وحكمة وفضل ونعمة لهم حكومة ملكية وقوانين ضبطية وربطية، وهل تظهر المبانى العجيبة إلا من ملوك رعاياهم لأوامرهم ونواهيهم سَمِّيعة، ولرغباتهم ومطامعهم مائلة كل الميل مجيبة مطيعة.

* * *



الباب الثانى

فى الطبقة الثانية، وتسمى الطبقة الوسطى

وهى من الدولة الحادية عشرة إلى الثامنة عشرة، فى سنة ٣٦٨٦ قبل الهجرة[١]، ومدة هذه الدولة ١٣٦١ (سنة).

قد سبق لنا أن مصر بقيت من بعد الدولة الملوكية السادسة إلى الحادية عشرة قليلة العمائر، عديمة الشعائر، ليس لها ما يدل على تاريخها فى أثناء هذه المدة التى تبلغ نحو أربعمائة وستا وثلاثين سنة، وإنما فى أيام الدولة الحادية عشرة قد نهضت بعض نهوض، وصار لها فى أيام هذه الدولة من المبانى والآثار ما يدل دلالة قوية على أن ملوكها كانوا يسمون الملوك النانطوية، ويقال لهم أيضا الأنطوية، ويقال للدولة دولة أنطو، ودولة أنطور، ولعل هذا كان من أسماء الملوك أو من ألقابهم.

ويستفاد من التاريخ أن هذه الدولة عملت فى مصر أعمالا توجب فخارها ومجدها، ويقال إنها أصلحت فى مصر إصلاحات جديدة، وتنظيمات مفيدة، وحسنت حال الخط والكتابة عن الحال الأول، وغيرت التمسك بالديانة إلى نسق عليه يُعَوّل، وقد وجدوا فى مدينة طيوة[٢] بالصعيد مقابر معدة لملوك هذه الدولة الحادية عشرة.

وأما الدولة الثانية عشرة فهى ابتداء دور جديد، وتاريخ ظاهر، لعظم قدرها،

(١) هكذا بالأصل، ومعروف أن الدولة الوسطى بدأت سنة ٢١٣٤ ق.م.

(٢) كانت طيبة هى عاصمة الدولة الحادية عشرة، واسمها الحالى هو: الأقصر.

وعلو شأنها واعتبارها بقدر ما أحدثته فى مصر من المآثر، لا سيما فى أمر مهم عاد على مصر بالمنفعة الجسيمة، وذلك أن مصر كانت فى الدولات السابقة منقسمة إلى حكومات مختلفة حاكمة فى آن واحد، ففى أيام هذه الدولة اجتمعت وارتبطت برابط وحدة، وصارت مملكة واحدة، فى دار ملك واحد، وهى مدينة طيوة التى كانت تختا[1] لأحد الحكومات، فأول من حكم وحده من ملوكها هو سيزور طاسن الثالث، فإنه كان ذا شوكة عظيمة، وإن كان فى مبدأ أمره يحكم بالاشتراك هو والملك أمونها الثالث فى آن واحد عوضا عن سيزور طاسن الأول وأمونها الأول، إلا أنه كان له السطوة، فقد وجد مكتوبا على الاسطوانة[2] التى أقامها فى مدينة عين شمس إن كان يلقب بصاحب الوجه القبلى والبحرى، ووجد مكتوبا أيضا على مبنى قديم جهة الشلال الثانى فى النوبة إنه كان يلقب بالملك المنصور على أمة القوس والنشاب، ومما يدل على ذلك أنه مصور فى بعض المبانى معه أسارى استعبدهم من آسيا الغربية، وهذا دليل على أنه غزا هذه الجهة، ومن المشهور أيضا إنه أول من بنى أساس مدينة كرنك الصعيد، وأما (من أتى) بعده من الملوك فقد أتمها فقط، وكانت مملكته من أفخر زمانه، فإنه وسع حدود المملكة المصرية إلى ناحية سمنة[3] فى جنوب الشلال الثانى، وتوغل فى بلاد النوبة، وهذا الفاتح مذكور فى تاريخ مانيطون باسم سيزوستريس، ولابد أن هذا الاسم كان من أسمائه فى ذلك الوقت، بل ربما كان تسمى به عدة من الفراعنة فبتقادم الأزمان وبتداول الأيام اشتبه هذا الملك برمسيس الأكبر المعروف بعنوان سيزوستريس، وهذا الأخير إنما هو من ملوك الدولة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، على الخلاف فيه، ولعله سمى سيزوستريس باسم ذلك الملك السالف الذكر رجاء أن يصير مثله، وقد نسب اليونان جميع ما فعله الأول من المآثر الخارجية والداخلية للثانى الأخير مع ضميمة فعاله ومآثره وفتوحاته وعمائره، والسبب فى ذلك مجرد الاشتباه، وتأسى غير اليونان باليونان.

---

(١) التخت هو مقر الملك والحكومة.

(٢) المسلة.

(٣) حصن مصرى، كان يمثل حدود مصر الجنوبية فى ذلك الوقت.

ثم خلف سيزرطاسن الثالث امونها الثالث .

وهذا الملك هو الذى بنى البرية الشهيرة التى هى أعظم العمائر المصرية القديمة وأعجبها، وهذه البرية لم يزل أثرها إلى الآن باقيا فى إقليم الفيوم، ومرسوم عليها اسم هذا الملك .

وقد بقى رونق ملك مصر وبهجتها زمنا طويلا إلى أثناء الدولة الثالثة عشرة، فما يدل على ذلك مشاهدة المبانى العظيمة المختلفة، فإنا نجد ما يدل على أن المملكة المصرية فى أيام أولئك الملوك المعمرين لتلك المبانى كانوا أقوياء وأحرارا، لا أحد يكدر راحتهم، ولا يصدهم عن مشروعهم، فقد وجد أيضا فى جزيرة أرغوفى، داخل النوبة جهة دنقلة، مبان ضخمة جافية بناها ملوك هذه الدولة، فلا يقدر على بنائها من الملوك إلا من كان صاحب قوة وبأس وراحة تامة. ولكن فى أثناء هذه الدولة الثالثة عشرة كانت مملكة مصر - على ما استنبط أخيرا من تماثيل وأحجار مستكشفة بناحية صان[1] والعرابة المدفونة[2]، التى هى آثار مدينة طيسة أو طينة لم تزل باقية فى مدة حكم ملوك الدولة الثالثة عشرة - على حالة تمدنها .

وقد ذكر المؤرخ مانيطون أن عدة ملوكها كانوا ستين ملكا، وأن مدة حكمهم كانت ٤٦٣ سنة. وكذلك يؤخذ من الاستكشافات الجديدة بناحية صان ومن تمثال عظيم صار الاطلاع عليه بجزيرة أرجو بالقرب من دنقلة - هو من آثار الدولة الملوكية الثالثة عشرة - أن المملكة المصرية فى أيام هذه الدولة اتسعت حدودها كما كانت عليه فى مدة الدولة الثانية عشرة .

وكذلك مما ينبغى التنبيه عليه إنه وجد فوق وادى حلفة بالقرب من قرية سمنة صخور عالية وعرة، واقعة على حرف النيل، عليها نقوش بالقلم البربائى، على ارتفاع سبعة أمتار فوق أعلى مقياس النيل هناك على الدرجة العليا من الزيادة، يفهم من ترجمتها أن النيل كان فى عصر الدولة الثانية عشرة والثالة عشرة أقصى

---

(١) هى صان الحجر، وموقعها الآن فى محافظة الشرقية، إلى الشمال الشرقى فى فاقوس، على قرابة مائة وخمسين كيلومترا إلى الشمال الشرقى من القاهرة .

(٢) فى الوجه القبلى، بالقرب من البلينا، وكانت تسمى قديما : ثينة، أو ثنى (طينة) .

زيادته موضع النقش من تلك الصخور، فيستبان من هذا أن النيل المبارك كان قبل هذا العصر بأربعين قرنا من الزمن يبلغ عند الشلال الثانى، زيادة عما يبلغه فى عصرنا هذا من الارتفاع بسبعة أمتار، ولعل سبب ذلك أن ملوك الطبقة الوسطى اعتنوا بالعمليات الجسيمة فى ماء النيل بقصد الامتناع من غائلته، والانتفاع بزيادته، مع التحصن من غارات أعدائهم الذين كانوا يتهجمون عليهم من السودان، فجعلوا هذا الشلال المدبر حصنا طبيعيا ومانعا قويا لا يتمكن معه الزنوج من نزول سفنهم إلى مصر والإغارة عليها، وذلك كما ذكره المؤرخون أن بلاد كوش، وهى البلاد السودانية، كانت فى ذلك الوقت أعداء مصر، وكانت قوة مصر دائما متجهة لمصادمتهم ومقاومتهم ومنع إغارتهم، حتى أنشأت حكومة مصر فيما وراء الشلال الأول، على شطى النيل، قلعتى كمنة وسمنة، فلعلها فيما بعد صنعت الشلال الثانى لكمال الاستحكامات والتحصينات.

وأما الدولة المصرية الرابعة عشرة فمجهولة الحال، لا يعلم المؤرخون فى حقها شيئا. وأما الدولة الخامسة عشرة والدولة السادسة عشرة فأصلها من مدينة طيوة بالصعيد، وكانت هذه المدينة تحت ملكهم، وفى أثناء هذه المدة كانت إغارة الملوك الرعاة على مملكة مصر، وتجديد دولة جديدة بالوجه البحرى بمصر، ويقال إن إغارتهم كانت فى أيام الملك طيماووس، دولتهم تسمى دولة الهقصوص(١)، واشتهروا بالتواريخ باسم الملوك الرعاة، يعنى ملوك العرب، وفى كتب التواريخ الإسلامية يقال لهم العمالقة، ولا يعلم تحديد وقت هجومهم على مصر، ولا مدة حربهم، وإنما المحقق أن دولتهم كانت معاصرة للدولة المصرية الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة، وأن انقراض دولتهم كان مفتاح الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، فإنهم فى أثناء هاتين الدولتين كانوا لا يزالون يغيرون بعض إغارات غير منتجة، وزعم بعضهم أيضا - استظهارا منه - أن دولة الرعاة عاصرت أيضا الدولة الرابعة عشرة والخامسة عشرة، قال مانيطون، المؤرخ: لما غضب الله على مصر أرسل إليها من المشرق أمة خبيثة، إلا أنها ذات شجاعة، فاستولت عليها بدون حرب ولا قتال، واستعبدت رؤساءها وأهاليها، وهدمت معابدها وهياكلها،

(١) أى الهكسوس.

وسلبت الأولاد والحريم، وملّكت عليها مَلكا جديدا من هذه القبيلة الهقصوصية أقام فى مدينة منف، وهو الملك سلاطيس ومن فر ونجا بنفسه من أفخاذ العائلات الملوكية، ذهب إلى الصعيد وإلى ساحل البحر الأحمر، وأما هذه القبيلة فتحصنت بالقلاع والعساكر والجنود على أن تمكنت من الأقاليم البحرية والوسطى، وأزعجوا أهل مصر، ولم يبق للدولة المصرية المتأصلة إلا مُلك الصعيد، وكانت دار ملكهم مدينة طيوة.

وأصل هؤلاء القبائل الرعاة مجهول، فبعضهم يجعلهم من الأمة العبرانية، وبعضهم يقول إنهم تتار وتراكمة أغاروا على بلاد مصر لخصوبتها، وبعضهم يجعلهم صوريين وكنعانيين، والأقرب إلى العقل أنهم من جهة الحجاز وبلاد الشام القريبة من مصر.

وفى مدة هؤلاء الملوك الرعاة - المعدودين من فراعنة مصر أيضا، ولو أنهم أجانب - كان دخول بنى إسرائيل فى مصر للتوطن بها فى أيام ما كان يوسف عليه السلام عزيز مصر، وكان ذلك فى عهد الملك أبو فيس[١]، من ملوك الرعاة، وذلك قبل الهجرة بنحو ألفى وخمسمائة وسبعين سنة[٢].

والظاهر أن المدة التى كانت قاسية على المصريين، وظهر فيها جبر الملوك الرعاة، لم تكن مدة أبو فيس، الذى هو فرعون يوسف، والمسمى عند العرب بالوليد بن الريان، فقد وجد فى هذه الأزمان الحديثة جهة مبانى أواريس، التى هى صان، من الآثار ما يدل على إنه كان يحسن معاملة المصريين ويمازج عوائدهم وأخلاقهم ما أمكن، وإنما ما حصل للمصريين إنما كان قبله وبعده، وبيان ذلك على وجه التفصيل وزيادة الإيضاح: أن الملك طيماوس وهو الذى تغلبت العرب على مصر فى أيامه، ولم يتمكنوا منها إلا بعده، وأن أول ملوك الرعاة كان سلاطيس، وأن آخرهم كان الملك أسيس، وأن جهة تمكنهم وقوتهم العسكرية كانت فى مدينة أواريس، التى هى صان، وأن فى مدتهم لم يستطع عائلات دول مصر أن يعيشوا

(١) من ملوك الدولة الخامسة عشرة، حكم أكثر من أربعين عاما.
(٢) يبدأ تاريخ حكم الأسرة الخامسة عشرة سنة ١٦٧٥ ق. م.

ملوكا فى الأقاليم البحرية، ولا أن يمكثوا تحت الطاعة والانقياد لهم، فتشتتوا بعائلاتهم، وتمزقوا كل ممزق فى جهة صعيد مصر وبلاد الكنوز بالنوبة وعلى سواحل البحر الأحمر، وكان لمصر على هذه السواحل قبائل وملحقات، واختارت الدولة الملوكية أن تجعل دار ملكها فى مدينة طيوة، التى هى دار الفراعنة القديم، فبهذا كان فى الديار المصرية مملكتان متعاصرتان، وهما مملكة الفراعنة المتأصلين فى صعيد مصر، ومملكة الملوك الرعاة المتغلبين فى منف، وكان حكمهم عاما للأقاليم الوسطى والبحرية، فبهذا كانت ملوك الدولة السابعة عشرة المصرية لها فرعان معاصران: فرع أصلى أهلى، وفرع متغلب أجنبى، ومدة حكم ملوكهما تكاد أن تكون متحدة التاريخ مختلفة المؤرخين مدحا وقدحا فلا غرابة فى وقوع الاختلاف فى حكايات وقائعهم، وإنما من المحقق أن الملوك الرعاة كان دأبهم تخريب العمارات العظيمة وتدمير المبانى المصرية الجسيمة، وكانوا لا يبالون بإتلاف العمائر الشهيرة، والظاهر أن إتلافهم امتد واتسع عن دائرة حكمهم بإغاراتهم حتى وصل إلى أسوان، التى هى آخر حدود مصر، فقد دمروا هناك من المبانى ما قدروا على تدميره.

وأول ملوك الرعاة، الذى هو قائدهم، سباطيس لما تولى المملكة بنى فى الوجه البحرى مدينة عسكرية بقرب تنيس، وسماها أواريس[1] - كما سبق - وجعلها معسكرا عظيما حَصَّنه وجمع فيه جنوده، فكان فى أمن من هذه الجهة على مصر بحيث لا يقدر أن يهجم عليها أحد من بلاد آسيا، حيث كانت معادية لمصر فى تلك الأزمان، ورتب أيضا رباطات وحراسا جهة الشرق والشمال، وكان دائما له ملاحظات ومحافظات جهة الوجه القبلى، فكان فى أمن تام من هجوم ملوك مصر المتأصلين المقيمين بالصعيد، بحيث لا يستطيعون أن يتطلبوا حقوقهم بالإغارات، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وأما خلفاء طيماوس، وهم ملوك المصريين المتأصلون، فقد بلغوا مقصدهم فى الحزم والتحفظ على أنفسهم وعلى مملكتهم من هجوم هؤلاء الملوك الرعاة، فكان

---

(١) يرى البعض أن مكانها كان حيث توجد الآن صان الحجر، ويرجح آخرون أن مكانها كان فى «قنتير» فى شرقى الدلتا.

لهم نوع استقلالية، وأما أخصامهم فدولتهم كانت ظاهرية لا حقيقية، وليست عظيمة الشوكة، ولا متمكنة القوة، فناوأهم ملوك الصعيد الوطنيون، وبذلوا جهدهم فى مراعاة خدمهم وحشمهم ليخلصوا فى الخدامة والصداقة، واستجلبوا محبة الأهالى ووجوه أكابر المملكة، لا سيما أن الجميع لهم مصلحة عظيمة فى التحزب مع هذه العائلة القديمة لاسترداد حقوقهم ومزاياهم التى ضاعت بضياع حقوق ملوكهم، واجتمعوا على قلب رجل واحد، وحاولوا غير مرة أن يقاتلوا أخصامهم، فبعد الجهد الجهيد انتهى الحال إلى أن أحد هؤلاء الفراعنة المسمى أموسيس تمكن من تبديد شملهم فى أطراف مصر وأكنافها، وحاصر مدينتهم العسكرية مدة سنين، وضيق عليهم الحصار، ومات قبل أن يظفر بهم ظفرا تاما، فتولى بعده ابنه المسمى أمونوفيس الأول، وأبقى الحصار، وزاد فى التضييق عليهم، فكانوا بحيث لا يمكنهم إلا المصالحة، فصالحهم على أن يخرجوا من مصر آمنين على أنفسهم وأموالهم، فخرجوا منها إلى بلاد أثور، ببلاد آسيا، وسلكوا من جهة العريش، فكانت مدة حكومتهم نحو أربعة قرون، وكان المُخْرِج لهم منها هذا الملك المتقدم الذكر، وكانت جنوده فى هذه الغزوة أربعمائة وثمانينَ ألف مقاتل، ومع ذلك فلم يتمكن من أخذ معسكر عدوه عنوة، فكان هو أول ملوك الدولة الثامنة عشرة.

وذكر بعضهم أن مدة(*) حكم الملوك الرعاة كان يوجد بمدينة صان بالوجه البحرى دولة ملوكية أخرى من ضمن دول الملوك الرعاة حضرت إلى مصر من قبيلة يقال الخيتاس، وهى من القبائل النازلين بجبال أرمنية، كانوا يعبدون صنما يسمى سوتيخ، فجاءت إلى مصر، ولم تكن كباقى العمالقة المتصفين بوصف التدمير والخراب، فإنهم - ولو كان نزولهم على الديار المصرية واستيلائهم عليها بطريق القهر والغلبة - إلا أنهم اكتسبوا من تمدن رعاياهم، واقتدوا بملوك مصر فى تقديم الفنون والصنائع، حتى جاروا رعاياهم فى اتخاذ التماثيل فى مدينة صان، وتعلموا كتب المصريين والخط البربائى واستعملوه، حتى صاروا من المصريين الحقيقيين،

(*) كان الأفضل فى هذا الموضع أن تضاف كلمة «أثناء» أو «خلال» قبل كلمة «مدة» حتى يستقيم السياق (الشروق).

وتلقبوا مثل سلفهم بألقاب الطئطئة والسلطنة، ودولتهم هى الدولة السابعة عشرة العربية المعاصرة للدولة السابعة عشرة التى بطيوة فى الصعيد، فما صدر من المؤرخ مانيطون وغيره من ذكر مثالب دول الملوك الرعاة يحمل على ما عدا هذه الدولة السابعة عشرة. فإن الدولة المصرية فى أيام ملوك هذه الدولة قام سعدها، وعظم مجدها، واستوجبت حسن الثناء عليهم حتى بقى على ممر الدهور، فإن الملك سيزوستريس الأكبر، الذى هو رمسيس الثانى، بعد أن عقد عقد متاركة مع طائفة الخيناس، ببلاد الأرمن، الذين هم أصل الدولة السابعة عشرة، بعد مضى أربعمائة سنة من تاريخ دخولهم الديار المصرية، أجرى بمدينة صان مراسم عيد عام ملوكى، فلما ذكر ملوك الدولة السابعة عشرة وذكر الملك سباطيس، الذى هو أول ملوك هذه الدولة بمصر، عَنونه فى متن العقد بعنوان: سيد قومه، ولقبه بلقبه الذى تلقب به وقت ولايته، ومن المعلوم أيضا أنه فى أثناء الدولة السابعة عشرة العربية امتلأت شواطىء النيل من الجانبين مدة حكمهم بأنواع العمائر والأبنية الجليلة الآثار الدالة على التمدن والرفاهية. وقد علمت فيما سبق أن ملك دولة الملوك الرعاة زال على يد الملك أموسيس، ونقول الآن: إن أكثرهم انتقل إلى برزخ السويس، وارتحلوا إلى بلادهم الأصلية، وبقى بعضهم بالجهات المصرية، فأقطع الملك أموسيس لمن بقى منهم بعض الأراضى التى كانت بيد أسلافهم ليزرعوها ويتعيشوا من ثمراتها.

وبانقراض دولة الرعاة عادت مملكة مصر، التى كان أسسهاميناوس، إلى الملوك الأهليين. وبقايا طائفة الرعاة، الذين تخلفوا بأمر الملك أموسيس، تكونت منهم قبيلة لم تزل ذريتها على جوانب بحيرة المنزلة، يمتازون عن غيرهم بقوة أعضائهم وهيئة وجوههم التى بها نوع استطالة.

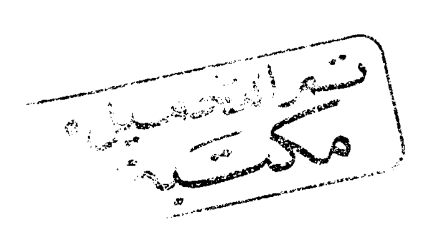
فهذا ما يتعلق بالطبقة الوسطى، التى أعظم مزاياها إنشاء بحيرة قارون، ولها مآثر أخرى كحوادث أيام يوسف عليه السلام، والنواويس الموجودة ببنى حسن القديمة وأسيوط وتماثيل مدينة صان ومسلات المطرية والفيوم فلا مانع أن يكون بين حالة الاختلال تخللت أحوال العظَم وحُسن الحال، حتى جاءت الدولة الثامنة عشرة، وهى التى أول ملوكها أبونو فيس الأول.

الباب الثالث

فى الطبقة الأخيرة

وهى من أول الدولة الثامنة عشرة إلى الحادية والثلاثين، التى مبدؤها ٢٣٢٥، وتنتهى بالدولة الحادية والثلاثين التى هى دولة الفرس المنقرضة سنة ١٩٥٤ قبل الهجرة وفيه فصول.

تنبيه: على مقتضى حساب موسيو شمبليون يقتضى أن ابتدائها سنة ٢٤٤٤، وقد حرر جداوله على تصحيح هذا الحساب، فلذلك جرينا على ما فى كتابه، والفرق هين بالنسبة لتواريخ هذه الأزمان القديمة.



الفصل الأول

فى ملوك الدولة الثامنة عشرة

قد ظهرت هذه الدولة بمظهر لم يكن لسواها، وقد جبرت فى أقرب وقت ما دمرته أمة الهكسوس العملقية، فعمرت تلك الدولة الهياكل الدينية والعمارات المدنية، فامتلأت شواطىء النيل بالعمارة من ساحل البحر المالح بالجهات البحرية إلى جبل البركل بدنقلة من البلاد السودانية، وافتتحت طريق التجارة، وأعانت الزراعة والفنون والصناعة حتى بلغت إلى أوجها(*)، وتمكنت مصر من حسن السياسة والرياسة حتى فاقت على ما سواها من الأمصار، وانفردت بالشوكة والبأس، فاستولت من جهة الجنوب على الأقطار السودانية، واستعملت عليها العمال والنواب، ومن جهة الشمال توغلت جيوش مصر حتى فتحت الجزيرة بين دجلة والفرات، وتركت فى قلاع تلك الجهات وثغورها الجنود للمحافظة، والولاة للملاحظة، كما سيأتى ذلك عند سرد ملوكها الذين أولهم الملك أمونو فيس، وإن كان فى الحقيقة الفخر إنما هو لأبيه الملك أموسيس، فإنه هو الذى أنقذ الديار المصرية من يد العمالقة، وفى أيامه بدت استهلالات المجد والفخار، فإنه بعد أن أجلى العمالقة من بلاد مصر فى المسير وراءهم إلى أن دخل إقليم فلسطين للاستيلاء عليها، ثم جال بجنوده جهة الجنوب واستولى على بلاد النوبة، ومع اشتغاله بالحرب اعتنى بتعمير الهياكل والمعابد التى كان دمرها العمالقة، وأنشأ هياكل ومعابد أخرى، وقد استبان من الاستكشافات الحديثة فخر هذا الملك، لا سيما من

(*) كان الأفضل فى هذا المقام أن تحذف «إلى» فيقال: (حتى بلغت أوجها). (الشروق).

العثور على الحلى الذى وجد داخل تابوت والدة الملك المُصبَّرة، وحفظ بأنتيكة خانة ببولاق، فمن ذلك سلسلة طويلة من الذهب، وقلادة ذهب مثقوبة الفرائد، وتاج عليه تمثالان من الذهب، وسيف مسقط محلى بالذهب، وكان هذا الملك قد أمر بصياغة ذلك لزينة جثة والدته لتدفن معها، فمن أطلع على هذا الحلى النفيس لا يكاد يصدق أن هذه النفائس صاغها هذا الملك عقب خروج مصر من ربقة المتغلبين.

(جدول ملوك الدولة الثامنة عشرة)

ذكر الملوك على الترتيب	اسماء الملوك والقابهم	مدة المملكة	ابتداء التملك	(ابتداء التملك بالتاريخ الميلادى)[1]
١	أمونو فيس الأول (ابن أموسيس)	٣٠ ٧	٢٤٤٤	١٥٧٠ق.م
٢	طوطوميس الأول (ابن أمونو فيس الأول)	١٣ ٠٠	٢٤١٣	١٥٢٥ق.م
٣	طوطوميس الثانى (ابن المذكور)	٢٠ ٧	٢٤٠٠	١٤٩٥ق.م
٤	الملكة أمنسة (أخت المذكور) زوجها الأول يسمى طوطوميس وزوجها الثانى يسمى أمننطة	٢١ ٩	٢٣٧٩	١٤٩٠ق.م
٥	طوطوميس الثالث (ابن الملكة أمنسة)	١٢ ٩	٢٣٥٨	١٤٦٩ق.م
٦	أمونو فيس الثانى (ابن طوطميس الثالث)	٢٥ ١٠	٢٣٤٥	١٤٣٦ق.م
٧	طوطو ميس الرابع (ابن أمونو فيس الثانى)	٩ ٨	٢٢١٩	١٤١١ق..م
٨	أمونو فيس الثالث ويسمى (ممنون) (ابن المذكور).	٣٠ ٥	٢٣٠٩	١٣٩٧ق.م
٩	هوروس (ابن المذكور) طماهوموت (بنت هرووس)	٣٨ ٥	٢٢٧٩	١٣٥١ق.م

(١) ضمنا الجدول تاريخ التملك حسب التاريخ الميلادى، لأن المؤلف كان يكتفى بذكر التاريخ حسب التقويم الهجرى، خصوصا وأن تحديد المؤلف للتواريخ بالهجرى غير متسق مع المعروف والمقرر فى المصادر الأساسية لهذا التاريخ.

جميع مدة هذه الدولة ٢٠٣ (سنة)، وعدها بعضهم ٣٤١، كما سيأتى، ولعله أدخل فيها مدة من تولى قبل هوروس من غير بيت الملك أو جعل مدة حكم كل ملك فيه زيادة تختلف مع هذا بالإدخال والإخراج وباختلاف أقوال المؤرخين.

فقد تبين من هذا أن الدولة الثامنة عشرة أولها الملك أمونو فيس الأول، الذى هو مؤسس الدولة المذكورة المتوارثة، وأن آخرها الملك هوروس، فلنذكر هؤلاء الملوك على حسب ما هو فى الجدول الذى استنبطه موسيو شمبليون من الكتابات البربائية ومن الصحف القديمة التاريخية استنباطا اجتهاديا مبنيا على تعقل الوقائع ومقابلتها ببعضها، فهو بمنزلة اليقين، وليس خارجا عن دائرة المعقولات التاريخية، مع بعض تأشير للاستكشافات الجديدة من ناظر الأنتيكة جناب ماريت بيك الفرنساوى[١] فيما يناسب اقتباسه.

«الملك أمونو فيس الأول[٢]»

هذا الملك أعاد الحكومة المصرية فى مدينة منف، وحكم مصر بتمامها، مع مضافاتها ولواحقها، واشتغل كسلفه بتشييد الهياكل، وإصلاح ما دمره ملوك الدولة الراعية، وعمت عماراته مدينة منف وغيرها من مدائن المملكة، كمدن بلاد النوبة المصرية.

وفى مدته لم تزل مصر تسعى فى توسيع دائرة حدودها شمالا وجنوبا، فآثاره تشهد على أن جنوده دخلت الشام والسودان، وابتداء ملكه فى سنة ٢٤٤٤ قبل الهجرة[٣] وحكم ثلاثين سنة وسبعة أشهر.

---

(١) ماريت، أوجست فرديناند فرانسوا (١٨٢١ - ١٨٨١م) وهو من أشهر علماء المصريات.

(٢) هو أحمس الأول (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م).

(٣) نود من القارىء اعتماد التاريخ الذى حددناه فى الهامش السابق لدقته.

الملك طوطوميس الأول ويسمى طوطوميسيس

(وهو ابن أمونوفيس الأول)

هذا الاسم في لغته بالطاء، ولا مانع في تعريبه أن يكون بالتاء[1]، لأنه مركب من كلمتين إحداهما توت، ومعناها رب، وميس، أو: موسيس، ومعناها ابن، ثم صار علما.

وهو الذى بنى المبانى العظيمة المسماة مدينة أمبو، وله كذلك مبانى أبريم، ومنها الهيكل المنحوت فى الحجر هناك. وقد غزا هذا الملك بلاد السودان، وانتصر عليهم، وكذلك غزا بلاد العراق والأكراد، وكان المستولى عليها إذ ذاك قبائل تسمى الروتونو، كانوا مستولين على حصون واستحكامات كمدينتى نينوى وبابل، ويدل على ذلك ما وجد بنواحى الفرات من الألواح المنقوشة بالقلم البربائى، على أن هذا الملك انتصر على هؤلاء القبائل، ونظير هذه النقوش توجد بالجهات الجنوبية أيضا. وابتداء ملكه فى سنة ٢٤١٢ قبل الهجرة، وحكم ثلاث عشرة سنة، وبعضهم يجعل مدة حكمه إحدى وعشرين سنة.

«الملك طوطوميس الثانى[2]»

اشتغل، كسلفه، ببناء الهياكل والمعابد فى مدائن مصر، ومن مبانيه ما يوجد الآن بإسنا من بناء ظريف بحجر الصوان الأحمر بقيت آثاره الدالة على تمام دخول الولايات السودانية تحت طاعة مصر، ولم يكن له فتوحات غير ذلك، وله كذلك تزويق مبانى مدينة أمبو، التى بطيوة، واسمه مرسوم فى كثير من المبانى المنقوشة، ولقبه عليها هكذا: رب اللطافة، سيد الدنيا، صاحب المعروف. وابتدأ ملكه سنة ٢٤٠٠ وحكم ثلاثين سنة وسبعة شهور.

---

(١) هو تحوتمس الأول (١٥٢٥ - ١٤٩٥ ق. م).

(٢) هو تحوتمس الثانى (١٤٩٥ - ١٤٩٠ ق. م).

الملكــة أمنســة

(ويقال إن اسمها هاتازو[1])

هذه الملكة هى بنت طوطوميس الثانى، الذى مات ولم يعقب وارثا للمملكة، فورثت الملك بعده أخته، وتزوجت بزوجين(*)، أحدهما يسمى طوطوميس، وهو أول زوجيها، والثانى يسمى أمننطة، فكان زوجها الأول ملكا بالتبعية لها وهى ملكة فى الحقيقة، فهى المعدودة فى السلسلة الملوكية. وقد ولدت من زوجها الأول ولدها طوطوميس الثالث، ثم مات زوجها الذى كان يحكم بالتوكيل عنها فتزوجت بعده أمننطة فكان أيضا يحكم المملكة بالتوكيل عنها ثم عن ابنها طوطوميس الثالث مدة قصوره، وبعد أن بلغ رشده كان يشركه فى الحكم والملك بوصف كونه ز وج أمه، ومكث اشتراكه معه عدة سنين من مبدأ ملك طوطوميس الثالث المذكور، وبهذا السبب قال بعض المؤرخين: إنه ساقط من سلسلة هذه الدولة الثامنة عشرة اسم طوطوميس آخر واسم أمننطة، وجواب ذلك: أنهما كانا يحكمان بالتوكيل. وكان ابتداء ملكها سنة ٢٣٧٩ قبل الهجرة، ومدة حكمها بالانفراد والاشتراك إحدى وعشرون سنة وتسعة أشهر بناء على استكشافه[2] إنه لما مات طوطوميس الثانى ولى المملكة من بعده طوطوميس الثالث، وكان طفلا صغيرا، فكفلته أخته هاتازو(**)، وكان لها نفوذ الملكة فى عهد الملك السابق، وكانت مدة سياستها للمملكة بطريق الكفالة من باب الافتيات، حيث تجاوزت مدتها، إذ بلغت سبع عشرة سنة، وإن كانت أيام حكمها مشتملة على الفخار، فإن لها آثارا جليلة من العمارات، فمن جملة آثارها الشهيرة المسلتان بجهة الكرنك، اللتان لم تزل

---

(١) هى حتشبسوت (١٤٩٠-١٤٦٩ ق.م)

(٢) أى استكشاف شمبليون.

(*) يقصد المؤلف: تزوجت مرتين. (الشروق).

(**) كان الأولى فى هذا السياق أن يقال: (فكفلته أمه هاتازو) لأن (هاتازو) هذه هى أخت طوطوميس الثانى، وأم طوطوميس الثالث. (الشروق).

إحداهما قائمة على ساقها إلى الآن، وكان سبب إنشائها لهما تخليد ذكر والدها طوطوميس الأول، وكان رأس كل من المسلتين متوجا بأكليل هرمى الشكل من الذهب المغتنم على الأعداء، وصنعة كل واحد منهما من استخراج حجره من جبل أسوان، إلى أن تم عمله سبعة أشهر، ومن آثار هذه الملكة أيضا الهيكل المعروف بالدير البحرى بمدينة طيوة، مكتوب على جدرانه الغزوات الحاصلة منها بالقلم البربائى، وعليها تصاوير بديعة الصنعة يظهر منها صور غزوة لها فى بلاد العرب انتصرت فيها جنودها، وقد استكشف أخيرا حجران استبان مما عليهما من الرسوم صورة هذه الغزوة أيضا وعليهما تمثال قائد الجيوش المصرية وبين يديه قائد جيوش العدو بهيئة الضراعة أشعث أغبر طويل الشعر مجردا عن السلاح ووراءه زوجته فى حالة التذلل والخضوع وفى جهة أخرى من التماثيل صورة السفن الحربية المصرية فيها أسرى المهزومين وغنائمهم من حيوانات غريبة كالزرائف(*) والقردة والنمورة وغير ذلك من الغرائب، وصورة السفن ضخمة يظهر عليها متانة التركيب، ذات شراع ومجاذيف، وعلى سطحها طوائف البحرية، ووجدت تماثيل أخر عليها أشكال العساكر المصرية راجعة من الغزو كأنها تسرع فى المشى وتدخل مدينة طيوة بدلائل النصرة، مسلحة برماح أو بلط فى الميامن، وفى المياسر قابضة فرع نخلة أخضر، علامة النصرة، وأمامهم آلات الموسيقى الحماسية، كالمزامير والطبول، يدقون النَّوبة الحربية ويضربون الألحان والآلات، وبجانبهم ضباط العساكر حاملين على أكتافهم الأعلام والبيارق الوطنية مكتوب بأعلاها اسم الملكة كفيلة الملك فى هذا العصر صاحبة الأمر والنهى وربة النصر، وهذه الملكة مستحقة فى الواقع ونفس الأمر أن تدرج فى جملة كبار ملوك الدولة المصرية، فإن لها من الآثار المصرية ما يقتضى انتظامها فى سلك ملوك الدولة الثامنة عشرة، من جميل المآثر وجليل المفاخر، مما يخلد ذكرها وقد استبدت بالتصرف الملوكى مدة سبع عشرة سنة حتى بعد أن تقلد أخوها طوطوميس الثالث بالمملكة لم يزل فى يدها الحل والعقد نوعا إلى أن ماتت واستبد أخوها بالملك الذى كانت تولته أغلب مدتها بوصف الافتيات .

(*) كلمة (زرافة) المفردة لا تجمع على (زرائف) كما ورد فى العبارة وإنما تجمع على (زَرَافى) و(زَرَافِىُّ) . (الشروق) .

« الملك طوطميس الثالث[1] »

هو أخو الملكة أمنسة، وجده طوطميس الأول بن آمونوفيس الأول، استبد بعد موت أخيه بسرير الملك، وهو مشهور عند اليونان باسم موريس، وهو الذى حفر بحيرة موريس المسماة بركة قارون، التى تقدم ذكرها فى الكلام على البحيرات، وقد علمت فيما سبق أن موريس اسم للبحيرة لا للملك، وأن منشىء هذه البحيرة الملكة أمونها، وأنها ليست من ملوك الدولة الثامنة عشرة كما ظهرت من الاستكشافات الجديدة، ومع أن مدة حكمه كانت قصيرة لكن كان فيها ما ينظمه من كبار ملوك مصر أرباب الاعتبار بالصيت والشهرة، فإنه لم يوجد من أحد من ملوك مصر مآثر أكثر مما وجد له إلا ما قل، وكان يحب السلم والراحة ويألف تقديم الفنون والمعارف حتى قيل إنه استحق أن يلقب بلقب الأكبر، فقد بلغت مصر فى أيامه ما لا مزيد عليه من الاعتبار، فقد كان فى داخلها قوة عسكرية أهلية منتظمة، وآثار جلية معظمة يوجد كثير منها بوادى المغارة وبمدينة عين شمس وبمدن منف وطيوة وبجزيرة أسوان وببلاد النوبة، وكذلك كما كانت مصر قوية فى داخلها صارت قوية فى خارجها بما حازته من الظفر بكثير من الملل البعيدة والقريبة، فكان لها كمال النفوذ فى الممالك الأجنبية وكان ملكها حَكما بين الملوك يقطع النزاع، وحكمه قرين الاتباع، وازدادت حكومته بفتوح بلاد السودان، التى جال فيها كل الجولان، يرسل إليها العمال والنواب، وفى أيامه فتحت سفنه الحربية جزيرة قبرص، واستمرت جنوده مدة سنوات تجول فى بلاد آسيا الغربية، حتى قيل فى أيامه إنه ساغ لمصر فى عصر هذا الملك أن تضع حدودها حيث شاءت لأن مملكتها اشتملت على بلاد الحبشة والنوبة والسودان والشام والعراق، والجزيرة وبلاد الأكراد.

وقد طالت مدة حكم هذا الملك، كفالة وأصالة، حتى بلغت سبعا وأربعين سنة، فلما توفى انتقلت المملكة المصرية لحفيده أمونو فيس الثانى.

---

(١) هو تحوتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م).

الملك أمونوفيس الثانى[1]

يوجد اسم هذا الملك فى مبانى بلاد الكنوز وأبريم والنوبة أكثر من وجوده فى مبانى مصر، وذلك لأنه اجتهد فى أن يستمر على تتميم ما نوى فعله والده، فكان والده بعد أن شيد فى مصر العمائر العظيمة ابتدأ فى عمائر النوبة، فأقام بتتميمها ابنه، وكانت كثيرة، ومع ذلك فيوجد اسمه على عمارات فى طيوة، ومن عماراته أيضا هيكل الكلابشة الذى انهدم بالحرب أو بطول الزمن، وتجدد فى عهد ملوك البطالسة، ومن بعدهم تهدم أيضا، وجدده الرومانيون، ويقال إن حالته التى هو عليها الآن تدل على أنه لم يكمل.

وابتداء ملك هذا الملك فى سنة ٢٣٤٥ وقيل غير ذلك، وحكم خمسا وعشرين سنة، وقيل لم يحكم إلا عشر سنين وعشرة أشهر، ولم يعلم مدفنه فى أى محل من الوادى الغربى من النيل، ولم تتميز تربته[2] من تربة أسلافه ملوك الدولة الثامنة عشرة.

الملك طوطوميس الرابع
(ابن آمونوفيس الثانى[3])

تولى هذا الملك بعد أبيه آمونو فيس الثانى، واستمر على بناء الهيكل الذى كان شرع فيه أبوه وغيره من المبانى فى وادى حلفة، ولكن مدة حكومته كانت كلها عبارة عن احتياطات عسكرية وتكميل فتوحات، لا سيما فى آخرها، وذلك لأن حدود مصر القبلية كان يخشى عليها من القبائل العاصية جهة برية لوبية وبلاد برقة، حتى أن هذا الملك اجتهد فى قتالهم فى أواخر سنى ملكه، وقد وجد ما يدل على ذلك فى آثار بجهة الشلال مكتوب عليها أن هذا الملك انتصر نصرة عظيمة على أعدائه فى السنة السابعة من ملكه.

(١) هو أمنحوتب الثانى (١٤٣٦-١٤١١ ق.م).
(٢) أى مقبرته.
(٣) هو تحوتمس الرابع (١٤١١-١٣٩٧ ق.م).

وكان ابتداء ملكه فى سنة ٢٣١٩ قبل الهجرة، وحكم تسع سنين وثمانية شهور، وهذا هو المشهور.

الملك آمونوفيس الثالث[١]

هذا الملك هو ابن طوطوميس الرابع، وولى عهده، وهو من أشرف ملوك هذه السلسلة المصرية، وله صيت عظيم فى الأقطار المغربية، يسميه اليونان الممنون، ويحكى أن ولادته وتربيته وأحواله وشؤونه كانت عجيبة ومرسومة فى آثار مبانى لوقصر أبى الحجاج على وجه غريب مضمونها: أن رئيس الكهنة بشر أمه بحمله، فأحست بذلك عن قرب، فلما وضعته بشرها أيضا بعظم ناموسه زيادة عن غيره، وأن يكون له ملك عظيم لم يسبق لمثله، وإنه يملك ما بين الخافقين[*] مشرقا ومغربا وشمالا وجنوبا، فكان من شأن هذا الملك أن بلغ من العظم ما بشر به الكاهن. وغالب مبانى وهياكل لوقصر أبى الحجاج وبيبان الملوك[٢] من أعماله وآثاره. وقد غزا الغزوات، لا سيما جهة بلاد النوبة والسودان، وانتصر فيها، ولذلك تألَّه ولقب نفسه بلفظ هوروس، يعنى شمس الربيع، كما لقب نفسه بملك القطرين وصاحب المصرين ومولى الخافقين، ومراده بالقطرين: البحيرة والصعيد، وبالمصرين: منف وطيوة، وبالخافقين: المشرق والمغرب، يعنى آسيا وأفريقية. وكان هذا الملك مهيبا فى زمن الحرب حسن السياسة فى زمن الصلح، فقد امتدت حدود مملكته من الجزيرة إلى داخل بلاد الحبشة، وقد ملأ جوانب النيل بالآثار العجيبة والتصاوير الغريبة والهياكل والمعابد، فمنها هيكل جبل البركل، وهيكل الشلال الثالث، وله آثار بجزيرة أسوان، وبجبل السلسلة، وبجهة طرة، وبجهة منف، وبجزيرة الطو، وله زيادات فى هيكل الكرنك، وإضافات إلى هيكل لوقصر مما هو مدفون تحت أسوار القرية، ويقال إنه هو الذى أنشأ على ميسرة النيل، تجاه ناحية لوقصر، معبدا

(١) هو آمنحوتب الثالث (١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق.م).
(*) الخافقان: أفق المشرق، وأفق المغرب. (الشروق).
(٢) أى وادى الملوك.

من أعظم الآثار المصرية القديمة، وقد تخرب الآن إلا الصورتان المسميتان الآن بالصنمات، وهما عبارة عن صورة الملك أمونو فيس الثالث المذكور، وكان فى الزمن الأول لم يلتفت إلى هذه الصورة أحد فحصلت زلزلة فى سنة ٥٩٥ من الهجرة، فأسقطت إحدى التمثالين وبقيت قاعدته قائمة فى محلها، وقد شوهد أن هذه القاعدة متى سقط عليها الندى وقت الصباح سمع منها صوت مستطيل عند شروق الشمس، فكان يعجب من ذلك أرباب السياحة من اليونان والرومان، فاعتقدوا أن صورة الملك أمونو فيس هذه هى صورة معبود المصريين الخرافى، يسدى التحية عند طلوع الشمس إلى الفجر، ويودعه، مع أن هذه أثر الندى وتأثير الشمس فى الحجر، فهى خاصية طبيعية، ومتى ظهر السبب بطل العجب.

وخلف عدة أولاد، تولى منهم بعده ملك مصر ابنه هوروس، وكان ابتداء ملك أمونو فيس الثالث فى سنة ٢٣٠٩ وحكم ثلاثين سنة وخمسة شهور.

* * *

ويقال إنه قد تناوب كرسى المملكة المصرية من غير بيت الملك عدة ملوك معدودين فى جملة الدولة الثامنة عشرة، خاملى الذكر، آثارهم ليست بعظيم شىء، ثم تولى الملك هوروس، وبه رجع المنصب الملوكى لمستحقيه من بيت الدولة الثامنة عشرة، كما تولى عليه أيضا من بعده أفراد آخرون من أهله.

الملك هوروس بن آمونو فيس الثالث[1]
(وبنته المسماة طماهوموت، بنت بيوروس)

لما ظهر هذا الملك على سرير الملك قامت بمصر قيامات شديدة، ومحن جديدة، بسبب ما حصل من تبديل الديانة فى زمن أمونو فيس الرابع[2]، فانتقمت الأهالى فى شأن ذلك ومحوا آثار الملوك الذين انتزعت من أيديهم المملكة قبل هوروس من

(١) هو سمنخ كارع (١٣٥١ ـ ١٣٤٨ ق.م)
(٢) آمونوفيس الرابع هو امنحوتب الرابع، الشهير بإخناتون (١٣٧٠ ـ ١٣٤٩ ق.م).

جميع الهياكل والمعابد، بل تشبثوا بهدمها بالكلية، وكان قد سبق من هؤلاء الملوك تأسيس مدينة جميلة بقرب تل العمارنة[1] لتكون تحت ملكهم عوضا عن طيوة بالصعيد، فجعلوا عاليها سافلها حتى انمحى أثرها، مع أن ذلك كله جرى فى مدة الملك هوروس فلم يمنع من كونه كان ملكا حسن السياسة والرياسة، لا سيما فى التمسك بديانة أهله فى ذلك الوقت، فعادت المملكة فى أيامه إلى ما كانت عليه أولا، وبلغت من درجة العز والمجد مبلغا عظيما، وبقى لها ما كانت حازته من الحدود البعيدة فى عهد الملك طوطوميس الثالث، وكان هذا الملك آخر من أبلغ الديار المصرية، من ملوك الدولة الثامنة عشرة، أقصى درجة العمار والفخار، فقد سار على سير أسلافه من الاجتهاد فى تجديد الهياكل والمعابد والقصور فى بلاد مصر ومضافاتها.

وأما بنته طماهوموت، أخت رمسيس الأول، فكانت عند موت أبيها رشيدة، وكان أخوها رمسيس الأول ابن هوروس قاصرا، فخلفته على الملك، ولو لم يعلم بينها وبين أخيها أسماء من تولى من بعض الملوك الذى تنوه بذكرهم فيما سبق.

وكان ابتداء ملك هوروس فى سنة ٢٢٧٩ قبل الهجرة، وكانت مدة ملكه وملك بنته معا ثمانية وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وهو آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة، على قول بعضهم، وقد أقامت على كرسى المملكة ٢٤١ سنة، وبعض أهل التاريخ يجعل آخر الدولة الثامنة عشرة الملك رهاميرى، فيزيد عدد السنين لهذه الدولة، فيجعل مبدأ الدولة التاسعة عشرة سنة ٢٠٩٦ قبل الهجرة، والأقرب للصحة ما ذكرناه.

* * *

(١) اسمها القديم «أخت أتون» أى: أفق أتون، وموقعها فى تقسيمنا الإدارى المعاصر بمركز ملوى من محافظة المنيا، شرقى النيل.

الفصل الثانى

فى ملوك الدولة التاسعة عشرة

هذه الدولة لم تزل مصر فى أيامها باقية على حالة حسنة من المجد والعز، والاجتهاد فى الغزو وتوسيع البلاد، وإنما اعتراها فى أثناء هذه المدة بعض فتور فى الهمة، يعنى أنها كانت مهيبة تشن الغارة على غيرها من البلاد وتختص بحرب المهاجمة دون المدافعة، فاعتراها فى خلال هذه المدة أن صارت تارة مهاجمة وتارة مدافعةً عن نفسها.

وأول هذه السلسلة الجديدة من الملوك هو الملك رمسيس الأول، وآخر ملوكها رمسيس الثانى.

الملك رمسيس الأول

(ابن هوروس)[1]

خلف أخته وأباه، وسار على سير أسلافه، وله آثار عظيمة فى مصر ووادى حلفة، وصورته فى رواق صور الملوك بالصعيد بجانب صور أسلافه، ولم توجد صورة أخته طماهوموت بين صور أسلافها، بوصف كونها ملكة، ولعل ذلك أن المنصب الملوكى كان انتقل فى الحقيقة لأخيها القاصر رمسيس،

---

(١) حكم من سنة ١٣٠٤ حتى سنة ١٣٠٣ ق.م.

ومع ذلك فلم يستبد به إلا بموتها، فحفظت الأصول المصرية فى أوضاع التصاوير الملوكية.

ومن المحقق أن الملك رمسيس الأول غزا غزوة بجهة شمال الشام، بميسرة نهر الفرات، وجبل كورين، والبحر المالح، وهى البلاد المعمورة بطائفة الخيتاس، عباد الصنم المسمى سوتيخ، وهم أمدة ذات بطش وقوة، وهجم على عدة طوائف من حلفائهم من أهل آسيا، وهو أول من تجاسر على ملاقاة طائفة الخيتاس وللجولان فى بلادهم.

وكان ابتداء تولية هذا الملك سنة ٢٢٤١ قبل الهجرة، وحكم تسع سنوات، وخلفه ابنه منفطة الأول، المسمى عند اليونان بالملك سيطوس الأول.

الملك منفطة الأول

(المعروف عند اليونان باسم سيطوس الأول[١])

الظاهر أن مدة حكومة هذا الملك كانت أيضا مما يتجمل به تاريخ مصر، فكيف وهو أبو رمسيس الأكبر، وله من الآثار العجيبة الحظ الأوفر؟ فما يدل على عظمة ما يشاهد الآن فى المملكة المصرية بالوجه البحرى والقبلى من الآثار العجيبة، وعلى البحر الأحمر وبلاد النوبة، وقد نقل الإفرنج من غرائب آثاره ما لا يحصى إلى مدائنهم، زينوا بها تحف خاناتهم، ففى الأقاليم الوسطى، جهة بنى حسن الجديدة وبنى حسن القديمة[٢]، آثار هيكل القمر الذى أسسه طوطوميس الرابع وأكمل بناءه منفطة الأول، وبنى بجانبه معابد ومقابر مرسوم عليها اسم هذا الملك، وكذلك جدد فى الصعيد الأعلى عند جبل السلسلة على الشاطىء الغربى من النيل معبدا منحوتا فى الجبل، ولم يزل منه بقايا جيدة الصناعة كاملة الزينة تقتضى تقدم فن

(١) هو سيتى الأول (١٣٠٣ ـ ١٢٩٠ ق.م).

(٢) على الضفة الشرقية من النيل، على بعد ٢٧٧ كم جنوبى القاهرة.

العمارة والنقش فى أيامه، وله القاعة ذات الأعمدة الموجودة بجهة الكرنك، التى هى من أبدع العمائر المصرية القديمة، وتسمى بالقصر المنفطى، نسبة إلى هذا الملك، ورشاقة هذا القصر تدل على أنه كان معدا لسكنى ملك صاحب شوكة عظيمة وثروة جسيمة، ويقال إن سيطوس المذكور لم يتمم هذا القصر وإنما تممه بعده ابنه رمسيس الثانى، ويقال إن هذا القصر يصلح أن يكون دارا للسكنى بحسب أوضاعه، وأن يكون هيكلا للعبادة بحسب نقوشه وتصاويره، ولهذا الملك أيضا هيكل للشمس فى محل يسمى الآن وادى المويه على البعد من النيل بيومين فى البرية التى على طريق القصر.

ومما ينسب إليه أيضا تقطيع أحجار الرصيف المصنوع الآن فى جزيرة أسوان، وهو من آثار أحجار العمارات التى كان بناها هذا الملك فى هذه الجزيرة، ونسب بعضهم إليه أيضا صنع المسلة العظيمة التى انتقلت من مصر إلى رومة ووضعت بها فى ميدانها الأكبر، ومن أعماله الهيكل الكبير الذى صار استكشافه أخيرًا بالعرابة المدفونة وما يحتويه من التصاوير العجيبة.

وهذا الملك هو أول من حفر الخليج لتوصيل ماء النيل إلى بحر القلزم، وأول من فتح طريقا للقوافل توصل من إسنا إلى معدن الذهب بجبل أتوكى حيث حفر فى الجبال عينا صناعية تنبع منها المياه دائمًا، ولم يقصر، مع تجديده فى العمائر العظيمة، فى تحصيل سمو القدر وعلو الرفعة والشأن للممالك المصرية وتوسيع حدودها، فقد سار على سيرة جده طوطميس الثالث وبنى على بنائه من توسيع الحدود المصرية، كما يعلم من نقوش الكرنك فى مادة الحروب التى فعلها سيطوس فإنها تفيد إنه أدخل بلاد السودان تحت الطاعة، وحارب بلاد الشام وانتصر بها، وترك بقلاعها المحافظين من الجنود المصرية، وغزا بلاد آسيا وانتصر على الخيتاس والروتونو، وهما قبيلتان عاتيتان، وغزا كلا من مدينتى نينوى[1] وبابل[2]، وسار

(١) مدينة قديمة، كانت عاصمة للإمبراطورية الأشورية، وكان مكانها على نهر دجلة، فى مقابلة مدينة الموصل العراقية المعاصرة.

(٢) مدينة قديمة، كانت قاعدة الإمبراطورية البابلية، وكان مكانها فى جنوب أرض الرافدين.

بجنوده إلى أقصى بلاد أرمينية، وانتصر على أهلها. ومن هنا يظهر أن بلاد آسيا الغربية التى كانت تحت طاعة الدولة المصرية ومعدودة من مضافاتها قبل الدولة التاسعة عشرة قد أخذت من أول عهد الملك سيطوس الأول، ثانى ملوك الدولة المصرية التاسعة عشرة، فى الخروج عليها وعدم الانقياد لها، ولابد أن مصر من وقت خروجهم كانت تعاملهم معاملة البغاة العصاة عليها، فلما بلغوا أشدهم وقويت شوكتهم صاروا لدولة مصر من أشد الأعداء، وصاروا يتشبثون بالسعى فى إضرارها بقصد التغلب عليها عند الفرصة، فلهذا تجد - كما سيأتى - صدور ذلك منهم كثيرا.

وكانت وفاة هذا الملك سنة ٢١٩٩ وكان ابتداء ملكه فى سنة ٢٢٣٢ وحكم اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، ودفن بمدافن قدماء الملوك المصرية، بمدفنه الذى ابتناه لنفسه فى وادى بيبان الملوك جهة مدينة طيوة، ومدفنه هناك حسن الشكل، من أبدع العمارات المصرية، وهو تحت الأرض، يتعجب منه غاية العجب، من جهة إحكام البناء والتشييد وهندسة الرسم المهندم على وجه عجيب، مع إتقان التصاوير الجيدة والنقوش المحكمة.

وتولى بعد منفطة الأول ولى عهده رمسيس الثانى، بكرى ولديه.

الملك رمسيس الثانى

(المشهور عند اليونان باسم سيزوستريس[1])

يقال لهذا الملك رمسيس الأكبر، لأنه أعظم ملوك مصر سلطنة وقوة وشوكة وأبهة، مع طول مدة حكمه، التى كثرت فيها الآثار المصرية والعمائر الجسيمة، حتى لا يكاد يوجد بوادى النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر الفخيمة إلا وعليها اسمه ورسمه - كما سيأتى ذكر ذلك - مع توسيع الفتوحات وجولان الغزوات، وتجديد الإصلاحات، وكثرة الترتيبات والتنظيمات الملكية والعسكرية.

---

(١) حكم من سنة ١٢٩٠ حتى سنة ١٢٢٣ ق.م.

وكان هذا الملك فى أيام والده مشتغلا بالحروب والغزوات، وكان له مَدخليَّة عظيمة فى حماية الوطن ونصرته قبل أن يكون ملكا، فاستحق بهذا عظيم الشهرة وبعد الصيت، وأن يذكر بذلك فى صحف التاريخ، لا سيما ما فعله من عظائم الأمور بعد جلوسه على سرير الملك. ويقال إن كاهن هيكل الشمس بشر أباه بأن ولده هذا يملك سائر بلاد الدنيا، ولذلك لما آلت إليه المملكة المصرية اهتم بهياكل مدينة منف المنذورة للشمس، فشيدها ووسعها توسيعا خارجا عن حد العادة. وقد طال عمره، وامتدت مدة ملكه، وتناقلت مآثره، وتواترت مفاخره، وسارت بسيرة مجده الركبان فى سائر الأقطار والبلدان، حتى بقيت سيرة ذكره إلى عهدنا هذا، والظاهر أنها تبقى مخلدة إلى قيام الساعة، فقد قص تاريخه قدماء المؤرخين، ووضحوا مناقبه وعملياته الحربية والسلمية من آخر القرن الثانى والعشرين إلى أثناء الثالث والعشرين قبل الهجرة، وقالوا إنه ملأ مشارق الأرض بصيت فتوحاته، وأرهب مغاربها - التى كانت إذ ذاك خشنية[(١)] - بهيبة بأسه وسطواته، وأغنى أهل وطنه ونَعَّم بالهم، وحسن أحكامهم وقوانينهم ونظم أحوالهم، وجدد عصره، وأحيا مصره، وقوى فيها البطش والشوكة، وضرب الخراج على عشرين أمة استرعاها، ومكن بذلك بلاده وملكه، وابتنى المبانى الباقية المآثر، التى لم تترك الأوائل من أمثالها شيئًا للأواخر. وقد ذكر المؤرخون إنه لم يسبق رمسيس الثانى أحد من ملوك الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أعظم من طوطوميس الثالث، الذى كان بينه وبين رمسيس الثانى ستة ملوك ورمسيس هو سابعهم، وهم:

١ - أمونو فيس الثانى.

٢ - طوطوميس الرابع.

٣ - أمونو فيس الثالث (الممنون).

٤ - هوروس بن أمونو فيس الثالث وبنته طماهو موت.

٥ - رمسيس الأول.

---

(١) خشنية أى غير متمدنة.

٦ ـ منفطة الأول .

٧ ـ رمسيس الثانى .

ومما ذكره المؤرخون أن أباه سيطوس كان يتوسم فيه من سن شبوبيته استعداده للحروب، وممارسة الخطوب، فأناطه بهذه الصناعة، حيث آنس منه المهارة والبراعة، وإنما مهد له تمهيدا عجيبا، وأسس له تأسيسا غريبا، مبنيا على ما كان مألوفا للطباع، بحسب الأزمان والبقاع، من سلوك سبيل المغالاة فى تحصيل المجد والفخار، وترك التساهل والمبالاة فى استحصال الشرف والاعتبار، فجمع سائر أنداده من الصبيان المصرية، المستوين معه فى زمن الولادة العصرية، وجمعهم فى الساحة الملوكية، ليصير إرضاعهم معه وإجراء تربيتهم بالسوية، لتكون التربية للجميع واحدة، على كيفية يكون التساوى فيها بينه وبينهم غير متباعدة، حتى يصيروا جميعا له من الأنصار والأعوان عند ظهور الإبَّان وحضور الأوان، ويتخذ منهم وزراء الملكية، وأمراء العسكرية، فكان ذلك كله حيث تمرنوا مثله على العيشة المستصعبة، وتعودوا على الحركات المتعبة، فلم يكن عندهم من أقرب الأشياء إلا مشاق الحروب، ومقاساة الخطوب، ومن جملة تربية هؤلاء الغلمان أنهم كانوا يذهبون قبل تناول الطعام، صباحا ومساء، للتريضات البدنية والحركات الجثمانية، ركبانا أو مشاة، ركضا أو هرولة، وأنهم دائما كانوا يعملون فى تروضهم شوطا فسيحا، وفى العادة جل تروضهم فى الصيد والقنص .

وكان رمسيس المذكور من زمن شبوبيته فاضلا بارعا جدا، متضلعا من العلم والحكمة، حتى قيل إنه تلقى سائر العلوم والفنون عن هرمس المثلث، وهو إدريس عليه السلام، وزعم بعضهم إنه تلقى عنه العلوم مشافهة، فلعل من زعم ذلك يعتقد أنه تلقاها فى عالم الرؤيا أو عالم الإلهام، لاستحالة الاجتماع المتعارف، لرفع إدريس إلى السماء، وتأخر زمن رمسيس، وإنما الظاهر أنه اقتبس تلك العلوم من كتب هرمس المثلث بالتلقى والتلقين من أحد الهرامسة المصريين .

وقد دلت كتب اليونان على أن هرمس الهرامسة المثلث هو إدريس عليه السلام،

وهو مصرى المولد، وإنه أول من وضع العلوم والفنون والسياسات والتدابير والحروب والصنائع، وله رموز عجيبة وأسرار غريبة، ومعارف كلية وجزئية، وما ينقل عنه إلى هذا العهد من الأقوال والروايات معتقد الصحة، مقبول للعقول، ومألوف للنفوس. قال بعضهم: كانت عادة المصريين من قديم الزمان أنهم إذا اخترعوا شيئا من المعارف النفيسة والحكم الرئيسة نسبوه إلى هرمس المثلث، ليسهل تلقيه من عامة الناس بالقبول، وليثق به الجميع كمال الوثوق فيما اشتمل عليه من الفروع والأصول، ولعل مثل هذا معهود فى الأعصر الحديثة.

ولما ترعرع رمسيس الثانى فى حياة أبيه، وكان قد تربى فى حجر الشجاعة والحماسة والرياسة والسياسة، وتعود على اقتحام مشاق الصيد والقنص فى الفلوات الواسعة، وعلى مواثبة الوحوش والجوارح فى الجهات الشاسعة، جعل أبوه يعلمه اقتحام الأخطار والوقائع، فأرسله أول مرة لغزو بلاد العرب، فتعود فى هذه الغزوة الصعبة على تحمل الظمأ والجوع، وهيهات هيهات الرجوع، فأدخل العرب تحت الذل والخضوع، فانقادوا لشوكة الدولة المصرية، ولم تكن العرب قبله انقادت لملك من الملوك الأولية، بل ولا كانت قابلة للانقياد والطاعة، لنفورها عن التأنس ومخالطة الجماعة، وقد اقتحم مع هذا الشاب العقبات الحجازية من اشترك معه فى التربية من الفتيان المصرية، فكانوا له أعظم أعوان وأنصار، وعادوا معه مظفرين بالنصر إلى الأوطان مع بلوغ الأوطار، فلما تحقق منه أبوه دلائل الظفر والنجاح، وأيقن أن اجتهاده فى الجهاد مقرون بالفلاح، سيره إلى جهات المغرب، فاستولى على برقة وغيرها من بلاد إفريقية، وصيرها مضافة إلى الديار الجسيمة، وأضمر على توسيع ممالكه بالفتوحات العظيمة، وتعلقت آماله بتسخير الممالك المعمورة، فجند الجنود المؤيدة، وجَيَّش الجيوش المنصورة، وشرع فى التغلب على الأقطار السودانية، فاستولى عليها، وضرب على أهاليها خراجا مُقدرًا يدفعونه كل سنة من الأبنوس وسن الفيل والذهب، ثم بعث إلى البحر الأحمر بعمارة سفن تنيف على ثلثمائة سفينة حربية، فاستولت على سواحل هذا البحر وجزائره ومدنه وثغوره، وعلى جزائر بحر الهند، ومع تجهيز هذه الغزوة وجعلها تحت رياسة أمرائه

جهـز فى آن واحد غزوة أخرى برية مقارنة لهـا جمع فيـها أبطال رجاله وفـحول أجناده، وقادها بنفسه وسار بها إلى بلاد آسيا، فاستولى عليها، وجال فيها، حتى دخل بلاد الهند، وعبر نهر الكنك(*)، ووصل من داخل أرض الهند إلى البحر المحيط الهندى، وكذلك جال فى طوافه حتى دخل بلاد التتار، وسار حتى وصل إلى نهر طونة واجتازه، واستولى أيضا على جزائر بحر الروم عند عودته، ودخل بعض ممالك أوروبا وبعض روم إيلى، وهى آخر جولاته، وسلك فى فتوحاته مسلك الحلم مع المنهزمين، والصفح عن الجانين، والعدل مع الأمم المغلوبين، فلم يضرب عليهم الخراج إلا بحسب ميسرتهم.

فمن هذا يفهم أن جولاته فى البلاد، وتسخيره للعباد، كان يفوق ما وقع من ذلك للإسكندر الرومى، حيث إن إسكندر المذكور لم يصل إلى ما وصل إليه رمسيس. وقد تمت هذه الغزوة فى ظرف تسع سنوات، وإنما يؤخذ من هذا كله أن البلاد المجاورة لتلك الأقطار التى فتحها كانت مستعدة للطاعة والانقياد، وأن تلقى إليه مقاليد ممالكها، حيث علمت بأسه وبطشه، وأنها لا تقدر على مقاوماته، فلهذا سهل أخذها، وكان كلما فتح مملكة من الممالك واستولى على دولة من الدول وخضعت له أمة من الأمم أبقى فيها فرقة من المصريين ليستوطنوا فيها وينشروا بها أخلاقهم وعوائدهم، لتكون علامة ظاهرة، ودلائل باهرة، تبقى على ممر الأيام، وتداول الأعوام، حجة على نصرته وبقاء ذكره، وربما شيد فيها أعمدة جليلة وأبنية جميلة ورسم فيها عبوره بتلك البلاد، ونقش عليها تاريخ استيلائه على الأمم والعباد، ولا زال بعض هذه المآثر باقيا إلى الآن فى بعض الممالك دالا دلالة بينة على ذلك.

فقد حكى المؤرخ هردوتس إنه رأى فى سياحاته بآسيا أعمدة مكتوبا عليها بالقلم البربائى: قد فتح ملك الملوك وسلطان السلاطين بسيفه مملكة كذا وكذا. وكان رمسيس يأخذ بعض البلاد عنوة وبعضها صلحا، ومع إنه أكثر من الفتوحات فى إفريقية وآسيا وبعض أطراف أوروبا كان لا يخطر بباله فتح داخل بلاد أوروبا، لأنه

(*) الكنك: نهر الكنج. (الشروق).

كان يعلم علم اليقين تعذر الميرة والعدة فى هذه الأسفار الطويلة، وإنه لا يتيسر له الحصول على الإمداد ولا الذخيرة، فلهذا لم يتصد لغزو تلك الجهات.

وقد أفاد التاريخ أن طبع هذا الملك الفاتح كان يخالف طباع غيره من الملوك المتهورين والسلاطين الفاتحين، وذلك إنه لم يكن متولعا إلا بمجرد محبة الظفر والغنيمة وهزم الأعداء والانتصار على الممالك بقصد شفاء الغليل، والتلذذ بغلبة الأعداء من أى قبيل، وكان مدار رغبته على أن تنقاد البلاد والعباد لسطوته، وتخضع لعزته، وأن تنتسب إليه، وتعترف له بالولاء والسيادة، وتدفع له الخراج والجزية، ولم يكن متطلبا لها لمزية أن يحكمها بنفسه، ولا لفضيلة أن ينشر فيها أحكام الديار المصرية وسياساتها، فكانت فتوحاته اسما بدون جسم، وغرس أشجار بدون أثمار، ولذلك لما جال غاية جولته، وصال نهاية صولته، وفرغ من التغلب واستراح، وعاد إلى مملكته وأغمد السلاح، دخل فى ميدان حوزته الأصلية، وانزوى فى زوايا الأقطار المصرية، ولم يسر حكم مصر فى الحقيقة إلا على بعض بلاد مجاورة لها، ولم تستمر البلاد الخراجية على دفع ما تقرر عليهم من المرتب لخلفاء هذا الملك إلا نحو أربعة أجيال، فامتنعوا من دفعها، وآل أمرها إلى الأبطال، ولما أعاد رمسيس الثانى إلى مملكة مصر زين هياكلها، وأتحفها بنفائس الغنائم، وبسط ما أهداه وأسداه إلى المعابد من هذه المكاسب الوافرة، مما عاد على جميع الأهالى بالثروة والغنى، ثم صرف همته بالكلية والجزئية إلى إصلاح وطنه وتنظيمه، وتكميل رفاهيته، فشرع فى تشييد المبانى العجيبة التى لا تدرك محاسنها إلا العقول الذكية، والأفكار الجلية، ولا تزال تتأمل فيها عقول السلف على ممر الدهور والأعصار، لتكون دالة على فخار بانيها، ومذكرة له أعظم تذكار، ولتكون مأثرة مخلدة الآثار.

فقد جدد هذا الملك فى مصر ما يقتضى السعادة والسيادة والأمنية، وحفظ الحقوق للرعية المصرية، وكان فى بنائه الهياكل والمعابد يراعى معتقد المصريين، بل معتقد كل كورة من كور مصر وكل مدينة من مدائنها، وجعل عملية هذه المبانى والصناعات على المستعبدين الذين سباهم وأسرهم فى الغزوات، وجعل معظم

همته فى تحسين مدينتى مصر العظيمتين، وهما: منف، دار المملكة، وطيوة، دار الديانة.

وقد شيد هذا الملك بيد الأسرى ما يلزم من الجسور والقناطر والترع والخلجان، ورفع الأراضى المنخفضة التى يفسدها فيضان النيل، ونقل المدن المنخفضة من محالها، وحولها إلى ربوات وهضبات وتلال عالية، حتى لا يكون للماء سلاطة على العمران، ولا على الإنسان والحيوان، فقد يشاهد الآن أن بجهة لوقصر أبى الحجاج وما حوله قصورا مبنية على تل صناعى مرتفع فوق المزارع، ولا زال باقيا من زمن هذا الملك إلى وقتنا هذا.

وما صنعه من الترع والخلجان منه ما هو خارج من النيل بالقرب من مدينة منف متواصل إلى البحر المالح، بقصد تسهيل التجارات بتوصيل الأرزاق من إقليم إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى، مع قصد منع إغارة فرسان البلاد المجاورة لتلك الناحية، إذ كانت عادتهم الهجوم على مصر من تلك الجهة، وكما حصن الجهات الغربية كذلك حصن الجهات الشرقية بالقلاع والحصون لمنع هجوم أهل الشام والحجاز.

ويقال إن هذا الملك حين رجوعه من غزوته الجسيمة جاء إليه أخوه لاستقباله فى مدينة تنيس، وأظهر إنه يهنئه، وأبدى له البشاشة والفرح، فأحسن الملك فيه ظنه، ولم يعتقد أن أخاه يظهر خلاف ما يبطن، وفى الحقيقة أضمر أخوه له السوء والهلاك، فأضرم النار فى قصر هذه المدينة، وكان الملك وعائلته لا يشعرون بذلك، فحين أحسوا بالحريق فر الملك من هذا الخطر العظيم، ونجا بنفسه وعائلته، ويقال إن أخا الملك الفاعل لهذه الفعلة هو ما يسمى عند اليونان دانوس المصرى، المعلوم الهجرة إلى بلاد اليونان، وإنه انتجع إليها وأسس فيها القبائل المصرية فى آخر القرن الثانى والعشرين قبل الهجرة، ويؤيد هذا أن هذا التاريخ موافق للقرن الذى عاد فيه رمسيس المذكور من غزوته، ويعضد هذا القول أيضا ما حكاه بعض المؤرخين من أن دانوس هو عين أرمايس، أخى رمسيس، وأنه ركب سفينة من مصر مع فرقة مصرية وهاجر إلى مورة، وعمَّر بلاد اليونان ومدنها، وخالف ذلك بعض المؤرخين،

وقال: إن دانوس هذا ليس من أبناء ملوك الدولة التاسعة عشرة ولا من أخوة رمسيس الثانى وإنما هو من عائلة الملوك الرعاة المحاربين للدولة المصرية المتأصلة فى الحقوق الملوكية، وأنهم لما ضيقوا على أمراء الملوك الرعاة وأخرجوهم من مصر وشتتوا شملهم هاجروا تحت رياسة دانوس المذكور، وقيل إنه من أبناء بنت إيناخوس المصرى الذى كان فر من مصر مع فرقة عربية من عرب العمالقة إلى صور[1]، فتزوج منها وأعقب بنتا ببلاد الصور ولدت دانوس المذكور، ثم هاجر إيناخوس إلى بلاد اليونان وتقلد ملك أرغوس، وهو إقليم فى مورة، فلما انتقلت المملكة إلى أولاده وأولادهم، وكان دانوس من ذرية بنته، ارتحل إلى مملكة أرغوس يتطلب أيضا حقوقه ووراثته فى ممالك جده. ومن هنا يعلم أن بلاد اليونان تمدنت ممن هاجر إليها من الديار المصرية فى أزمنتها الأولية، وأن اليونان إنما هى بنت مصر، لأن القبائل المصرية الذين تمكنوا فيها بالمهاجرة انتشروا فى سائر بلاد الروم ومدنوها، فلا شك أن مصر حرية بتسميتها أم الدنيا. نعم أنه حدث فى بلاد اليونان بعد المصريين قبائل صورية وكنعانية كملوا تمدنها، ومكنوا عماريتها، ثم أقبل عليهم أمير من البلاد التتارية القريبة من الجبال الجركسية مع عشيرته، فانتشروا بها، إلا أن الفضل للمتقدم كما هو معلوم.

ثم إن رمسيس الثانى مع ما كان عليه من العظم والفخار، الذى عرف به فى جميع الأقطار، قد أطفأ نورانية فتوحه العجيب، وكسف كوكب شمس نصرته وشمس بهاء تدبيره الغريب، شغفه بالفَخار العاطل، وولوعه بالتعاظم الباطل، وسلوك سبيل الكبر الذى لا جدوى له ولا تحته طائل، وذهوله عن إنه من البشر، واستهزاؤه بالملوك الأسرى لمجرد البطر والأشر، ولولا ذلك لكان بالنسبة لقدماء الملوك كالمصباح، وكشروق الشمس فى الإصباح، ولكان منظوما فى سلك كبراء الأبطال، وأمراء فحول الرجال، وعلى كل حال فهو طراز تيجان الملوك المصرية، وعصابة إكليل السلاطين المشرقية، ولو إنه حدث منه نادرة تنفر منها الطباع، وتمج

---

(١) أكبر موانىء الفينيقيين، وإليها ينسبون، وكان موقعها على جزيرة عند الساحل اللبنانى، جنوبى بيروت.

ذكرها الأسماع، وهى ما قيل عنه إنه بلغ من الكبر والسخافة أنه كان إذا ركب فى موكب أو محفل إلى معبد أو هيكل أو موسم أو زينة، وأراد أن يشق المدينة، وكان عنده بعض من الملوك والأمراء والرؤساء والكبراء، ممن حضروا ليؤدوا الجزية المقررة، أو لأداء التشريفات فى أدوار معتبرة مقدرة، فإنه كان يغتنم فرصة هذه المحافل الموكبية، ويربطهم كالخيل أربعة أربعة ليجروا العربية، ويعتقد أن هذا من قبيل الطنطنة، وعنوان على شوكة السلطنة، وفى غير هذه الحالة قبل الموكب وبعده، يحسن الصنيع معهم ويبذل فى إكرامهم وتلطيفهم ما عنده، فلا يصلهم لديه من الهوان إلا جر عربته لإظهار علو الشأن، فى هذه الأحيان.

عوقب فى آخر عمره بالإهانة، ولم يساعده الدهر على حسن العقبى، ولم يكمل معه فى ذلك إحسانه، بل كف بصره، وضاع بذلك حظه، وفقد أنسه، فقتل بنفسه نفسه، ليريحها من العناء، وسكن رمسه، وما فارق الدنيا إلا وترك مصر فى غاية الثروة والغنى، والسعادة والهنا، وكل إنسان من أهلها شاكر لصنيعه، حامد لفعاله، ولم تنل مصر من أحد من خلفائه ما نالت من فضاله.

قال بعضهم: إنه حكم مصر ثلاثا وثلاثين سنة، وقال آخرون: إن مدة حكمه طالت حتى بلغت سبعا وستين سنة، وقيل: بلغت ثمانيا وستين سنة وأشهرا. ومما يدل على طول عمره، وصحة استطالة مدة حكمه، إنه لما تغلبت على مصر دولة العجم، وخرجت الحكومة المصرية من يد الدولة الأهلية، وكان فى رواق الصور الملوكية المصرية بطيوة بالصعيد صورة رمسيس الأكبر، أراد دارا[1] ملك العجم المتغلب على مصر أن يضع صورة نفسه فى هذا الرواق فوق صورة رمسيس المذكور، وكان ناموس رمسيس لم يزل محفوظا عند أهل مصر لا يعلو عليه ناموس أحد من كبار الملوك، مع تقادم عهده، فغضب جميع الناس من قصد دارا، لا سيما رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور، وقال للملك دارا: لا يجوز لأحد من الملوك أن يعلو على رمسيس الأكبر إلا لمن ساواه فى المآثر والفضائل، وصنع لمصر من الصنائع والمنافع نظير ما صنعه هذا الماجد الفاضل، فلم يغضب دارا من هذا

(١) سيأتى حديث المؤلف عنه فى موضعه من هذا الجزء.

القول الأليم، بل أجاب الكاهن بالرضا والتسليم، ووعد إنه إن عاش عمر رمسيس ليجتهدن ويفعل لمصر من المحاسن ما فعله ذلك الملك الكريم، حتى لا يكون دونه فى المقام، لتستحق صورته أن ترقى مرقى الاحترام.

فمن هذا يؤخذ أن رمسيس المذكور طالت مدته على سبيل السلطنة، وإلا فلا معنى لرجاء دارا أن يعمر مثله، ولا فائدة فى انتظاره طول المدة فى السلطنة، ولا لوعده بفعل ما يقتضى المظهرة والطنطنة، لا سيما وأن دارا المذكور لما وصل إلى مصر كان فى السنة السادسة والثلاثين من تملكه على العجم، فرجاؤه طول مدة فى الملك على مصر كمدة رمسيس يدل على أن رمسيس تملك عليها من أيام الشبوبية إلى بلوغ الشيخوخة والهرم، ويؤيد ذلك أيضا ما سبق ذكره من كثرة العمارات الجسيمة التى تستدعى المدة المديدة، وكان يستعمل فى ابتناء العمارات العمومية، على العادة المصرية، الأسرى العديدين الواردين إليه من الحروب، ووفود الغرباء الواصلين إلى مصر من بلاد آسيا للاستيطان بوادى النيل، الجيد الخصوبة، السهل المعيشة، المكرم للأغراب، فكان هؤلاء الأجانب يقومون بالأشغال والخدم فى نظير ما يعود عليهم من المنافع، وقد نص التوراة على أن بنى إسرائيل استعملَهم فرعون المسمى رمسيس فى بناء مدينة فى شمال مصر تسمى مدينة رمسيس.

ثم إنه قبل تولية رمسيس كانت امتدت أنظار الأغراب الطائعين لمصر أن يخرجوا عن الطاعة، وينفصلوا من الجماعة، فتحركت الفتن فى بلاد السودان على مصر، وقاموا على ولاتها ونوابها وحاربوهم، وانتصر عليهم ولاة مصر وعمالها النُّصرات العديدة البالغة النهاية فى ذلك العصر، بدليل تصاوير كيفيات تلك النُّصرات المتواترة الصادرة عن أمراء الجنود المصرية، وهزمهم لرؤساء العصاة السودانية.

وكذلك فى أثناء تلك المدة هجم على ديار مصر من بلاد المغرب، من جهة برقة، أقوام كالجراد المنتشر، زرق العيون، شقر الشعور، فكان يخشى على الأقاليم الجنوبية منهم، فدفعهم الجنود المصريون دفعا عنيفا.

وقد أسلفنا أنه غزا برا وبحرا بلاد آسيا، وسخر كثيرا من الممالك والأقاليم التى

أضافها لبلاده، ونقول هنا، لبيان ذلك: إنه لما حصلت من أقوام آسيا حركة مثل حركة المغرب، وتحالفت قبيلة الخيتاس مع عشرين قبيلة من آسيا، وكان جميعهم أرباب شجاعة فى الحروب، واقتحام الخطوب، يحاربون على العربات والعجل، وتحزبوا جميعا على الديار المصرية، قاتلهم رمسيس الثانى مدة ثمانى عشرة سنة، وكان الحرب بين الفريقين سجالا فى تلك المدة، فصالحهم بمشارطة فيها المزية للجانبين، وفى أثناء هذه الغزوة الطويلة المدة أبدى رمسيس الثانى، بمرأى ومسمع من جنوده، براهين الشجاعة الشخصية والبسالة الذاتية ما استحق به المدح من شعراء زمانه، وأدباء عصره وأوانه، بقصيدة وجدت مكتوبة على أسوار جهة الكرنك بالصعيد وعلى الوجهة الشمالية من باب هيكل لوقصر الكبير، تاريخ هذه القصيدة فى شهر أبيب من السنة الخامسة من حكم هذا الملك.

وبيان هذه الواقعة أن الملك بينما كان يجد السفر مع جنده صوب مدينة آتس، إذ قابلهم جماعة من أهل البادية المتصبين فى الطريق لاستطلاع أحوال جيوش مصر من طرف قبيلة الخيتاس، أعداء المصريين، فأضلوهم السبيل، ووقع رمسيس وجنوده فى ورطة كمين، واحتاطت به على حين غفلة جيوش الخيتاس والمتعصبين معهم، ففر من كان حول هذا الملك ونجا بنفسه، فوقع وحده بين أعدائه، فقال الشاعر يحكى الواقعة: أن حضرة الملك نهض، وهو فى غاية الصحة والسلامة واعتدال المزاج، لم يبال بشىء كأنه إله ذو بطش شديد، فلبس عدة الحرب فى الحال، وتهيأ للطعن والنزال، وانساب بعربته فى صفوف الجموع، وهجم على بنى خيتاس وحده، وبذل فى اقتحام الوغى جهده، بمشهد من جميع الاتباع والخدّام، فى وسط ألفين وخمسمائة عربة حربية، من شجعان الخيتاس والعصبية، والقبائل المتكاثرة، والعشائر المتظاهرة، وكان على كل عربة من عرباتهم ثلاثة من المحاربين، ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته، ولا من أمراء دولته، ولا من قواد جنوده، ولا من العساكر الرماة، ولا من عساكر العربات، فتوجه إلى معبوده واستغاث بمولاه، قائلا يخاطبه: تركنى وحدى جند الرماة والفرسان، ولم يبق معى من يشد أزرى أو يعضد ظهرى، فماذا يريد مولاى؟ فهل أنا عاص استحق

العقاب؟! مع إنى لمولاى سميع مطيع، أعمل بما أعلم من الأمر بقدر ما أستطيع، وأقوم بحقوق المشاعر، وإظهار الشعائر، واملأ بيوت العبادة من غنائم الأعداء، وأتقرب إلى المعبود بالقربات التى لا تحصى عدا، وقد أكثرت من المعابد والهياكل، وذبحت ألف ثور قربانا مزينة بالزهور الطيبة الرائحة، وقد شيدت الهياكل الجسيمة، واقتطعت لها الأحجار العظيمة، وغرست فى المعابد الأشجار المخلدة، ونذرتها لتكون مآثر مؤبَّدة، وأحضرت من جزيرة أسوان للمولى المعبود أحجار المسلات الشامخة، وأجريت السفن فى البحار الزاخرة، لجلب غنائم الملل إلى الهياكل الباذخة، فها أنا، يا إلهى، أدعوك وأنا بين أقوام كثيرين لا أعرفهم، وأنا فى حضرتك وحدى، فاقدا الجندى، تركنى عساكر الرماة، وفر عنى الفرسان الكماة، وقد دعوتهم فما أجابونى، واستغثت بهم فما أغاثونى، وأنت أولى بى من الجنود الرماة والفرسان وأحق بنصرتى من الأبطال والفتيان، فانصرنى على العدد الكثير، والجم الغفير.

ثم أجاب الشاعر فى قصيدته بكلام عن مولاه، إنه لبى دعوته وقبل رجاه، فقال:

سمعنا، يا رمسيس، نداءك، وقبلنا رجاءك، فأنا منك قريب، وسميع مجيب، آخذ بيدك، وأقوم بسعدك، وأنا خير لك من الآلاف المؤلفة، والأعداد المؤتلفة، ومتى كنت بين عربات القوم، ولو كانوا ألفين وخمسمائة عربة، ذهبوا منهزمين بالحرب والويل، وانداسوا تحت سنابك الخيل، وضعفت قلوبهم بين جوانحهم، واسترخت أعصاب أعضائهم وجوارحهم، فلا يُفَوّقون سهما، ولا يهزون رمحا، سأغرقهم فى الماء ينغمسون فيه كما ينغمس التمساح، ولا يستطيعون إلى السباحة من براح، بل يزاحم بعضهم بعضا، ولا يستطيعون نهضا، ويفنى كل منهم صاحبه بالمهاجة والمواثبة، ولقد تعلقت القدرة بأن لا يلتفت أحد منهم خلفه ولا مرة، «ومن وقع منهم هلك، ومن هوى فلا يجد له مسلك».

هذا ما قاله الشاعر، على مقال المولى، وقال فى هذه القصيدة، على لسان سائس ركاب الملك الذى رأى صفوف الأعداء متزاحمة، مخاطبا للملك:

يا أيها السيد العظيم، والملك الكريم، حامى حمى مصر يوم النزال، قد بقينا وحدنا بين صفوف الأعداء فى ميدان القتال، فمهلا مهلا، والنجاة النجاة، عسانا ننقذ نفوسنا والمهج، وماذا يكون العمل والخروج من الضيق والحرج. فأجابه الشاعر على لسان الملك: قَوّ جأشك، ولا تفقد انتعاشك، فإنى سأنقض عليهم انقضاض العُقاب الكاسر على الغنيمة، وأطرحهم فى التراب طرح الرمة الرميمة.

ثم هجم رمسيس عليهم حينئذ بعربته، وحمل عليهم بقوته، ست مرات متواليات، فقهر رجالهم، وهزم فى كل مرة أبطالهم، فاجتمع حوله قواد عسكره وفرسانه، ولم يشهدوا الوقعة الأولى ولا كانوا من أعوانه، فجمع بهم شمله، وصفهم حوله، وقال لهم: لعمرى قد احتد عليكم قلبى، واشتد عليكم غضبى، هل منكم من أدى مفروض الوطن، وحمى الحمى والسكن؟ ولو لم يثبت فى هذا الميدان قدمى، لثبت عدمكم وعدمى. ولا زال يوبخهم الشاعر على لسانه، ويطنب فى ذكر أصناف مضمار الحرب وميدانه.

ويذكر الشاعر فى قصيدته مقالة الجنود للملك، وما أجابوا به عن خطابه، ومدحهم له بأنه بمفرده سد عنهم فى قتال الأعداء مكاره الحرب، بغلق أبوابه، وأن ما فعله يعجز عنه البشر، حتى نظمه الشاعر فى سلك الألوهية، حيث ظهر على أعدائه بأعجب مظهر، ولعل مسند الألوهية كان فى تلك الأزمان من المساند النسبية، يعنى كأقطاب الأزمان الأخيرة، وأرباب الأحوال والكرامات الشهيرة، وإلا فعقلاء المصريين وحكماؤهم يشاهدون موت من تأله بنفسه أو ألَّهُوه للتهويل والتفخيم، فلا يظن بهم أن معتقدهم فيه إنه متصف بمنصب الألوهية العظيم، فقد مات رمسيس الثانى بعد أن حكم ثمانيا وستين سنة وشهرين، وكان ابتداء ملكه سنة ٢١٩٩ قبل الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وبعض الاستكشافات الجديدة تدل على أنه كان موته فى نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الهجرة، ويقال: إنه حين مات خلف مائة وسبعين ولدا، منهم تسعة وخمسون ذكورا، ولعل هذا من باب المبالغة من المؤرخين المتقدمين، كما أنهم بالغوا فى غزواته، واتساع دوائر فتوحاته، حتى إنهم نسبوا إليه وحده من الوقائع الحربية ما حصل من ملوك

عديدة، كالملك طوطميس الثالث، والملك سيطوس الأول، والملك رمسيس الثالث، وكل هؤلاء لم يكونوا دونه فى الشهامة والفخار، ولا فى نباهة الذكر وكثرة الآثار حتى إن بعض المؤرخين نسب هذه الوقائع لرمسيس الثالث، وقال: هو الذى يسمى سيزوستريس، وقد علمت ما عليه أكثر المؤرخين.

ثم إن الذى خلف رمسيس الثانى الأكبر من أولاده الكثيرين هو ثالث عشر أولاده الذكور المسمى منفطة.

الملك منفطة الثانى[1]

هذا الملك يسمى أيضا: فاران، أو فرعان، ويقال له أيضا: فرعون، وإنما سمى منفطة لكون جده كان يسمى بذلك، وكانت عادة ملوك مصر الجارية عندهم أن يلقب الملك منهم بلقب جده. ولهذا الملك عمائر ومآثر كثيرة فى الديار المصرية، كأسلافه، وقد حكم خمس سنوات، وأعقب ثلاثة أولاد، تولى البكرى منهم الملك وسمى منفطة الثالث كما سيأتى ويقال إن فى مدة حكمه كان خروج بنى إسرائيل من الديار المصرية مع موسى، عليه السلام، من بعد ما حصل من المعجزات المذكورة فى التوراة وفى القرآن الشريف، فهو على هذا هو فرعون الذى أغرقه الله تعالى فى بحر القلزم، ولا يمنع من ذلك وجود قبره فى ضمن القبور الباقية إلى الآن بالجهة المعروفة بباب الملوك بالصعيد، لأن وجود القبر لا يدل على وجود مقبور فيه، فكثيرا ما تجد فى بلدة مشاهد على اسم أفراد ومدفنهم الحقيقى فى غيرها من البلاد، فإن من الجائز أن فرعون بنى لنفسه مدفنا ولم يدفن فيه، ويدل على هذا أن الملك منفطة الثانى لما مات خلَّف ابنة يقال لها طوسير، وخلَّف ابنا قاصرا تَسَمَّى فيما بعد منفطة الثالث[2] وأن هذه الملكة بسبب قصور أخيها تولت المملكة المصرية وتزوجت بأمير يقال له صفطا منفطا ومعناه ابن النار أو عبد النار، ولنوضح قضية غرق فرعون فى ترجمة هذه الملكة.

---

(١) هو الملك منفتاح (١٢٢٣ ـ ١٢١١ ق.م).

(٢) فى الأصل: الثانى.

الملكة طوسير، بنت الملك منفطة الثانى[1]

تولت هذه الملكة حكومة مصر بعد أبيها منفطة الثانى، وكان زوجها المسمى صفطا منفطا يلقب ملكا وفرعون تبعا لها، ولذلك وجدت مقبرة الملكة طوسير، مع مقابر أسلافها من الملوك الذين تولوا مصر مذكورة فى سلسلة الملوك دون زوجها، مع أن زوجها مدفون أيضا بمقبرة قريبة من مقبرتها، وإنما لم يدفن مع الملوك ولم ينتظم فى سلسلتهم لأنه لم يكن من العائلة الملوكية، فزوجته هى الملكة، ومن السلسلة، وإنما استولت على المملكة لكون أخيها كان قاصرا.

وكان ابتداء ملكها قبل الهجرة بنحو ألفى سنة، وحكمت تسع عشرة سنة وستة شهور، ومن ضمن هذه المدة حكم أخيها منفطة الثالث الآتى.

هذا كلام المؤرخين فى حق هذه الملكة، وهو يؤيد قضية غرق فرعون ونجاة بنى إسرائيل، ويدل على أنها كانت فى زمن هذا الملك. وبعض المؤرخين، من أهل أوروبا، قال: إن هذه الواقعة حصلت فى زمن رمسيس الثانى، وزعم بعضهم أنها كانت فى زمن أبيه منفطة الأول، والأكثر من المؤرخين أنها فى زمن فرعون ابن رمسيس الأكبر المسمى عندهم فرعان، ويقال له أيضا أبو خوريس، وهذا الاختلاف إنما هو فى خروج بنى إسرائيل من مصر، لا فى غرق فرعون، ومع ذلك كله أيضا فكل يبنى خروج بنى إسرائيل على حسابات تقريبية، واستنباطات اجتهادية، يسلك فيها مسلك مؤرخ، فيطبق الوقائع لعلها تطابق التوراة، لأن قصة بنى إسرائيل وغرق فرعون لم تُسْتَفد إلا من الكتب السماوية، يعنى من التوراة والقرآن الشريف، وتواريخ مصر القديمة لم يكن لها إلا منبعان تستنبط منهما الوقائع المصرية، وهما الكتب السماوية أيضا واسترابونس[2] وأمثاله، فأما استرابونس وأمثاله كهيروطوت فلم يتعرضوا لغرق فرعون ولا لنجاة موسى على

---

(١) حكمت من (سنة ١٢١١ حتى سنة ١٢٠٧ ق. م).

(٢) استرابون، مؤرخ شهير عاش فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد.

الصفة المذكورة فى القرآن والتوراة، مع اعتماد المؤرخين لما فى الكتب السماوية من التواريخ القديمة المصرية فما كان واقعة بنى إسرائيل فى نجاتهم إلا قصة ينتحل لها مؤرخو اليونان أدنى شىء يدل على تفسير كلام الكتب السماوية حتى يؤولون جميعا انفلاق البحر بحادثتى المد والجزر الدوريين، وينكرون غرق فرعون موسى ويجعلون أن هذه الواقعة، على فرض صحتها، لم تكن واقعة رسالة ولا إيمان وإنما هى واقعة سياسية، واقتضاءات ملوكية، استدعاها اتحاد بنى إسرائيل بالملوك الرعاة المغتصبين لمصر، وانضمام بنى إسرائيل إلى من بقى من طوائف هؤلاء الملوك، وأن ملوك مصر المتأصلين إنما ضربوا على الإسرائيليين الاسترقاق والاستعباد لإضعاف ناموسهم حتى لا يستطيعوا مساعدة أهل الحجاز والشام ممن طمح نظره الإغارة على مصر، وإنما قسيسو الأوروبيين يذكرون الغرق على وجه مجمل، تبعا لعبارة التوراة، مع إنه بالتفحص يفهم غرق فرعون مما أسلفناه بانضمامه إلى ما ذكره مؤرخو العرب.

فبتلاوة عبارة من عبارات المقريزى[1]، ومقابلتها بتاريخ منفطة وبنته طوسير يكون غرق فرعون مصر قطعيا، ونص عبارة المقريزى:

قال ابن عبد الحكم[2]: لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد، ولم يبق بها إلا العبيد والأجراء والنساء، فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا، وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت ذبا، وكان لها عقل ومعرفة وتجارب، وكانت فى شرف منهن وموضع، وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة، فخافت أن يتناولها الملوك، فجمعت نساء الأشراف وقالت لهن: إن بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يمد عينه إليها، وقد هلك أكابرنا وأشرافنا، وقد ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم، وقد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا، فأضع عليه المحارس من كل ناحية، فإنا لا نأمن أن يطمع فينا

---

(١) تاج الدين أحمد بن على المقريزى (١٣٦٤ - ١٤٤٢م) أبرز مؤرخى مصر فى عصر المماليك.

(٢) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم (توفى سنة ٨٧٠م) مؤرخ وفقيه، عاصر الدولة الطولونية، ويعد كتابه (فتوح مصر والمغرب) أقدم المصادر الموجودة لدينا عن تاريخ مصر الإسلامية.

الناس . فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها ، المزارع والمدائن والقرى ، وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء ، وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة ، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل ، وجعلت على كل محرس رجالا ، وأجرت عليهم الأرزاق ، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس ، فإذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس ، فيأتيهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة ، فنظروا فى ذلك ، فمنعت بذلك مصر ممن أرادها ، وفرغت من بنائه فى ستة أشهر ، وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر ، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة فملكتهم ثلاثين سنة . انتهى .

وقوله : لم يبق إلا الأجراء والعبيد . لعله من الدوائر الملوكية لا من عموم أهل مصر .

وقال المقريزى ، فى محل آخر أيضا : قال ابن عبد الحكم : ولما أغرق الله فرعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشراف أهلها أحد ، ولم يبق إلا العبيد والأجراء والنساء ، فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا ، واجتمع رأيهن أن يولين امرأة يقال لها دلوكة ، فملكت دلوكة بنت ذبا ، ويقال دلوكة بنت فاران وكان لها عقل وتجارب ومعرفة ، وكانت فى شرف منهن ، وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة ، فبنت جدارا حصنت به مصر من الأعداء ، وكان بناؤه فى ستة أشهر ، وهو حائط العجوز . انتهى ، ملخصا .

ويؤيد كلام المقريزى ما سبق ذكره من أن طوسير ، على كلام المؤرخين من اليونان وغيرهم ، هى بنت منفطة الثانى ، وإنه يسمى فاران وفرعان وفرعون ، فلفظ فاران موجود فى كلام المقريزى بعينه ، مع اتفاق مؤرخى اليونان أن زوجها لم يكن من بيت الملك ولا عد فى الملوك ولا دفن فى مقابرهم ، وتولية هذه الملكة عقب موت أبيها وجدها ، مع كثرة العائلة الملوكية من ذرية رمسيس الثانى ، تدل دلالة قوية على انقراض الذكور منهم ، وهذا لا يكون إلا عقب حادثة عظيمة هائلة وهى غرق فرعون وقومه ، ولولا ما نقل عن التوراة أن رمسيس الثانى استخدم

الإسرائيليين فى بناء الهياكل لصح أن يقال إن خروج بنى إسرائيل من مصر وغرق فرعون كان فى زمن الملك هوروس، المتقدم الذكر، وأن التى حكمت بعده طماهوموت بنته، ويكون خروج موسى عليه السلام فى نحو السنة السابعة عشرة من حكم هوروس، يجعل طماهوموت بنت هوروس هى عين دلوكة العجوز، وقطع النظر عن عمر دلوكة المحكى فى كلام المقريزى، فإنه من محض مبالغات المؤرخين استنباطا من تسمية حائطها بحائط العجوز، مع أنها تسمى، كما قاله المسعودى فى (مروج الذهب) بحائط الحجوز[1]، بالحاء. ومما يدل على أنها ليست عجوزا بالغة لذلك السن ما نقله المسعودى أيضا أنها بنت هذا الحائط من خوفها على ولدها، فمن كانت لها ولد تخاف عليه لا تكون عجوزا بتلك المثابة، ولكن الثابت عند المؤرخين أن الذى كان قاصرا بعد موت هوروس إنما هو رمسيس الأول، ابن هوروس، وأخو طماهوموت، التى فرضنا أنها دلوكة، فلعله اشتبه على مؤرخى العرب بالابن، وعلى كل فمن مات أبوها وخلف أخاها قاصرا لا تكون عجوزا بتلك الصفة، فإذن طماهوموت هى التى خلفت هوروس وهو فرعون الذى أغرقه الله فى اليم، ويؤيد ذلك ما ذكره قاموس مشاهير الرجال الفرنساوى: أن تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر كان فى سنة ١٦٤٥ قبل الميلاد الموافق لنحو سنة ٣٢٦٧ قبل الهجرة. وقد علم من جدول تاريخ الملوك السابق أن الملك هوروس وطماهوموت بنته كان ابتداء ملكهما فى سنة ٢٢٧٩ قبل الهجرة وأن مدة حكم الاثنين ثمان وثلاثون سنة وخمسة أشهر، وأن مدة حكم بنته منفردة ثلاث عشرة سنة، فإذا طرحنا هذه المدة الأخيرة من ثمان وثلاثين سنة وخمسة أشهر كانت مدة حكم هوروس خمسا وعشرين سنة، فيكون خروج موسى فى نحو الاثنتى عشرة سنة من أيام حكم هوروس، ويكون تتبع فرعون لموسى باقى المدة إلى غرق فرعون، أو أن هوروس هو الذى حكم المدة القليلة وبنته طماهوموت التى

---

(١) رجعنا إلى (مروج الذهب) للمسعودى فرأيناه يسميه «حائط العجوز» انظر الجزء الأول ص ٢٦٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م. والمسعودى هو أبو الحسن على بن الحسين (المتوفى سنة ٩٥٧م)، نشأ ببغداد، وتوفى بالفسطاط، وخلف عدة كتب فى التاريخ والجغرافيا وعلم الكلام، من أشهرها (مروج الذهب).

قدرنا أنها دلوكة هى التى حكمت المدة الكثيرة، حيث دلت التواريخ العربية على أن دلوكة حكمت مصر عشرين سنة، حتى بلغ صبى من أبناء أكابر العائلة الملوكية، فتولى بعدها، بل قيل: إنها حكمت نحو ثلاثين وأن الذى خَلفها هو أخوها رمسيس، فحينئذ إذا قلنا: إن هذه الملكة قد حكمت عشرين سنة من ثمان وثلاثين وخمسة أشهر كانت مدة حكم أبيها ثمان عشرة سنة وخمسة شهور، فيكون خروج موسى مع بنى إسرائيل فى السنة التاسعة عشرة من حكمه الموافقة لسنة ٢٢٦١ تقريبا، فيكون الفرق بين هذا الحساب وبين ما ذكره قاموس مشاهير الرجال نحو ست سنوات، وهو فرق هين بالنسبة لاختلاف الحسابات بالنسبة لتلك الأزمان المجهولة.

وقد قلنا: إن بعضهم يجعل خروج بنى إسرائيل وغرق فرعون فى زمن منفطة الأول، فيكون ذلك فى نحو سنة ١٢٣٠ قبل الهجرة[1]، ويبعده أن هذا الملك لم يحصل عقب حكمه حادثة عجيبة كتولية امرأة، بل تولى بعده رمسيس الثانى. وبالجملة فقدماء القبط نسبوا هذه الواقعة للملك منفطة الأول، ونسبوا إليه طرد العمالقة من مصر، وجعلوها واقعة واحدة للتعمية بقصد إخفاء واقعة إغراق فرعون فى بحر القلزم، وعلى جميع الأحوال فخروج بنى إسرائيل ونجاتهم وغرق فرعون ثابت لا مراء فيه، سواء كان فى زمن فرعون آخر ساقط من التواريخ القديمة، لا سيما وأن المؤرخين قد ذكروا أنه ساقط من التاريخ القديم ملوك قبل هوروس وبعده، فجائز أيضا أن يكون فرعون الذى أغرقه الله هو وجنوده منهم، ووجود مدافن لمن ذكروا لا يمنع الغرق لجواز عدم الدفن بها، كما سبق. على أن فرعون موسى نجا ببدنه بعد الغرق بصريح الآية: وهى قوله تعالى: ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (يونس: ٩٠) فقوله تعالى: ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ** ﴾ أى نخرجك من البحر ونخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، أى ننجيك بدنا محضا من غير روح، وجسما كاملا سويا، لم تتغير،

---

(١) منفطة الأول الذى اشتهر باسم الملك سيتى الأول (١٣٠٣ - ١٢٩٠ ق. م).

عريانا من غير لباس، معجزة لموسى عليه السلام، لتكون لمن خلفك ممن اعتقدوا فيك الألوهية ولم يشاهدوا غرقك آية حتى لا يكذبوا بذلك زعما منهم إنك إله لا تموت وإنك لست ربهم الأعلى، وأنك كنت بالأمس فى نهاية الجلال والعظمة، ثم صار أمرك إلى ما يشاهدونه فيك، فقد أغرق سبحانه وتعالى جميع قومه، وما أخرج أحدا منهم من قاع البحر، بل خص فرعون بالإخراج بهذه الحالة العجيبة دلالة على كمال قدرته تعالى، وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوة، وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أى للمصريين الذين ليسوا من الجنود ممن لم يصابوا بالغرق، أو من بنى إسرائيل، فقد قيل: إن فرعون كان طريحا على ممرهم، أو المعنى لتكون لمن خلفك، أى لمن بعدك من جميع المخلوقات آية، ففرعون فى هذه الحالة، وهى النجاة بالبدن، لا مانع من أن يكون بعد إشهاره وتمثيله أخذ ودفن، وإن لم يوجد نص صريح بهذا.

وبالجملة فدلوكة العجوز هى الملكة طماهوموت، بنت هوروس أوطوسير بنت منفطة، فإنها حكمت تسع عشر سنة وستة شهور هى وأخوها منفطة الثالث الآتى.

الملك منفطة الثالث، ابن الملك منفطة الثانى[1]

هذا الملك يسمى أيضا أوزريا منفطة، وهو أخو الملكة طوسير، وكان كثير التعبد بعبادة ذلك الوقت، له إتحافات كثيرة وإغداقات على الهياكل والمعابد، وقبره فى بيبان الملوك فى آخر الإيوان المتسع اتساع الميدان، وليست عمارته مكملة كما ينبغى، وهو آخر ملوك الدولة التاسعة عشرة، على ما هنا، ولكن المؤرخ مانطون جعله آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة، وسلك عليها بعضهم، ولكن دلائل مدينة آبو، جهة لوقصر، وما اشتملت عليه من الآثار، هى أقوى حجة من تأليف مانطون، وقد دلت على وجود ملك آخر بعده، فيكون آخر الدولة التاسعة عشرة أو

---

(١) هو الملك سيتى الثالث (أوسر) (١٢٠٧-١٢٠٢ ق.م).

الثامنة عشرة، على الخلاف الذى تقدم ذكره، وستأتى الإشارة إليه أيضا، وهذا الملك الذى هو آخر الدولتين يسمى رهاميرى.

وكان ابتداء ملك منفطة الثالث فى أثناء ملك أخته، ومدة حكمه مندرجة فى مدة حكمها، فهى مدة واحدة، كما سبق ذلك عند الكلام عليها.

الملك رهاميرى[1]

تولى هذا الملك ملك مصر سنة ١٩١٤ قبل الهجرة، ولا يعلم حقيقة نسبه، وإنما الظاهر إنه من عصبة الملوك السابقين أو من أرحامهم، وكذلك لا يعلم مدة حكمه بالتحديد، وإنما استنبط بعض المؤرخين بالقرائن والدلائل إنه حكم بعد سلفه السابق خمس سنوات وأشهرا، وبها تمت حكومة الدولة التاسعة عشرة مائة وأربعا وسبعين سنة، وانتهت بسنة ١٩١٠ قبل الهجرة، على حساب الاستكشافات الجديدة، وبعضهم يدخل بعض ملوك الدولة التاسعة عشرة فى ملوك الدولة الثامنة عشرة فتختلف المدة.

(١) لعله حكم من نهاية حكم سلفه (سنة ١٢٠٢ ق.م) حتى بدء حكم الدولة العشرين (سنة ١١٩٥ ق.م).

الفصل الثالث

فى ملوك الدولة المكملة للعشرين

هذه الدولة، كالدولتين قبلها، طبوية، وأول ملوكها هو من أبناء ملوك من قبلها، فلا يفهم من لفظ دولة معناها المعهود الآن، بل لفظ الدولة عند قدماء المصريين بمعنى آخر، كالعصابة(*) والفرع والعائلة التى تحكم مدة خاصة فى بلد خاصة حكومة متميزة وإن لم تختلف السلالة ولا خرجت الحكومة عن السلسلة الملوكية.

وترتيب ملوك هذه الدولة فى مراتبهم الحقيقية ترتيبا زمانيا لا حجة له قوية، وإنما هو مأخوذ من الاجتهاد والاستنباط والاستدلال من الآثار أو من أقوال المؤرخين.

وابتداء حكم هذه الدولة سنة ١٩١٠ قبل الهجرة، ومدة حكمها مائة وثمانية وسبعون سنة، ومدة كل ملك من ملوكها مضطرب فيها، فلذلك ضربنا عن تواريخهم صفحا، واكتفينا بذكر وقائعهم، وأول ملوك هذه الدولة رمسيس الثالث، ويسمى رمسيس الميمون، يعنى عبد شمس، ويسمى أيضا سيطوس الأول.

الملك رمسيس الثالث(١)

من المعلوم فى تاريخ مصر القديم أن رمسيس الأكبر جعل لهذا الاسم الكبير

(*) العصابة: أى الجماعة من الناس. (الشروق).

(١) حكم من سنة ١١٩٢ حتى سنة ١١٦٠ ق.م.

اعـتـبـار، ومزيد افـتـخـار، فـقـد تلقب بـه مَن بعده من الملوك، حتى أن هذه الدولة المكملة للعشرين سميت بالدولة الرمسيسية، وكان أولها الملك رمسيس الثالث، الذى فعل من الحروب والعمارات ما استحق به أن ينظم فى سلك كبار ملوك مصر السابقين، فقد دلت الآثار القديمة على انتصاره فى غزوات جسيمة، حتى عد من كبـار الفاتحين للبـلاد، ويقال إن فى عهـد أبى هذا الملك هجم العمالقة على ملك مصر، فخاف أبوه عليه حيث كان صغير السن، وسار به إلى بلاد السودان فأقام بها ثلاث عشرة سنة، فلما بلغ ابنه الرشد جمع جيشا عظيما وجاء به إلى مصر فهزم أعداءه وطردهم من مصر إلى الشام، وتمكن من سرير الملك بدون منازع، ولم يكن عمره إذ ذاك إلا ثمانى عشرة سنة، وقد جمع أيضا عساكر برية وبحرية وغزا البلاد البعيدة بآسيا وفتحها، ويقال إنه لما سافر للغزو ترك أخاه أرمايس حاكما على مصر بالنيابة عنه، متصرفا فى ملك مصر، بشرط أن لا يلبس التاج الملوكى، وأن يراعى حقوق زوجة أخيه أم أولاده، فسار رمسيس المذكور إلى قبرص ففتحها، ثم غزا سواحل الشام والجزيرة والموصل وأرمينية وغير ذلك من البلاد المشرقية، وبينما هو فى الفتوحات إذ وصلت إليه رسالة من رئيس الكهنة تفيد أن أخاه أرمايس لم يعمل بأوامره ولا احتفل بوصاياه، بل أقام راية العصيان، واستبد بالملك، فعاد رمسيس إلى مصر ودخل مدينة تنيس واستولى على سرير الملك ولبس التاج الملوكى، فهرب أرمايس وهاجر من مصر، وهو الذى يسمى عند اليونان دانوس، وكانت هجرته إلى بلاد اليونان، وقد جعل بعضهم هذه الواقعة كانت مع رمسيس الأكبر وحاكاها(*) بطريقة أخرى تعلم مما سلف فى تاريخه.

والأقرب، كما قاله بعض المؤرخين، أن هذه الواقعة إنما حصلت مع رمسيس الثالث، دون رمسيس الأكبر، وهو الذى بنى مدينة آبو، المعدودة قطعة من مدينة طيبة، وهى عبارة عن هيكل عظيم أنشأه هذا الملك لتخليد ذكره، وكتب عليه غزواته. ويقال إن بلاد السودان والحبشة أظهروا العصيان فى عصره عدة مرات،

(*) المقصود: حكاها بمعنى قصّها. أما (حاكاها) التى أوردها المؤلف فهى: المشابهة فى القول أو الفعل أو غيرهما (الشروق).

فأدخلهم فى الطاعة المرة بعد المرة، وكذلك لما عصى أهل لوبية، وهى بلاد برقة، وأغاروا على الثغور المصرية من جهة الغرب، سار إليهم هذا الملك وهزمهم شر هزيمة مرارا عديدة.

وبالجملة، فقد أدخل تحت الطاعة سائر المضافات المصرية، وهزمهم برا وبحرا، كما يعلم ذلك من التصاوير الموجودة بمدينة آبو، فإنه من جملة ما يشاهد فيها صورته واقفا على ساحل البحر، فى وقعته مع أهالى آسيا، يدفع هجوم الأعداء عن البر، وفى جنب عربته، كالملك رمسيس الثانى، أسد مستأنس يقاتل عنه ويفترس الأعداء المغلوبين، وبهذا يستدل أن الدولة الملوكية المتممة للعشرين كانت سعيدة الطالع، وأن هذا الملك أعلى شأن المملكة المصرية كالسابق، وإن كان اعترى الحكومة المصرية الخمول فإنما كان هذا بعد عهده.

مات هذا الملك بعد أن حكم مدة طويلة، وتولى بعده ابنه رمسيس الرابع، أكبر أولاده العشرة، فخلفه فى ولاية العهد لكونه البكرى، ولمقتضيات أحوال محلية، كما وقع نظير ذلك لأبيه رمسيس الثالث.

الملك رمسيس الرابع[١]

وبعضهم يسميه الخامس، كما يسمى الثالث الرابع، وعلى كل حال فهو ابن رمسيس الميمون، طالت مدة هذا الملك جدا حتى قال بعضهم إنها بلغت نحو ستين سنة، والظاهر أنه ولد قبل موت أبيه بزمن يسير.

ولم يفهم من التواريخ أفعال ظاهرة تدل على كبير الفخار، وإنما وجد مرسوما فى آثار مدينة جبل السلسلة ما يدل على أن مدة حكمه كانت فى غاية من الفخار، فقد وجد مكتوبا فى هذه المبانى ما مضمونه أن وادى النيل فى أيام هذا الملك أثرى وأخصب، ونبات الأرض رعرع وأعشوشب، وقد ملأ أفواه الهياكل بجميل ذكره،

---

(١) حكم من سنة ١١٦٠ حتى سنة ١١٥٤ ق.م.

وشحن مسامع المعابد والمشاهد بجليل ثنائه وشكره، حيث أمدها بعظيم صنيعه وفخيم بره، وكانت أحكامه فى جميع الرعية على صورة عادلة مرعية، أبقى جميع المراتب والطوائف على ما كانت عليه من التمتع بالشعائر والوظائف والخصائص واللطائف، وصار كل من الخاصة والعامة والأكابر والأصاغر مستبشرا بأيامه، مسرورا بأحكامه، لأنه كان إذا نام تفكر فى أحوال الرعايا، وإصلاح حال البرايا، وإذا استيقظ أحسن معاملة الجميع، بكمال النفع وحسن الصنيع، كما يفعل الأب مع بنيه، وهكذا فعْل الملك النبيه. فهذا محصل مناقبه، التى تؤذن بعلو مراتبه.

مات هذا الملك بعد أن حكم مدة أطول من سلفه، وتولى بعده أخوه رمسيس الخامس.

الملك رمسيس الخامس[1]

هذا الملك هو ابن رمسيس الميمون، وبعض المؤرخين يجعله السادس من هذا الاسم، تولى مُلك مصر، ولا يعلم له من الآثار ما يدل على حالة حكمه، وإنما يعلم أنه قبل أن يلى المملكة كان موظفا فى خدمة سلفه بوظائف جليلة، منها إنه كان رئيس عساكر الفرسان، وتربته[2] فى وادى بيبان الملوك لم تزل إلى الآن ظاهرة على ربوة فى آخر الوادى، وعليها نقوش دالة على وقائع فلكية، ورموز دينية، فنجد عليها رسم فلك الشمس، وما تقطعه فى اليوم والليلة، وعليها رسم عدد ساعات اليوم والليلة أيضا، وجداول مطالع الكواكب وحلولها فى البروج، وأحكام النجوم، وتناسخ الأرواح، والنص على ثواب المحسن وعقاب المسىء، وذكر الحروب الواقعة فى أيامه.

ويفرض أن مدة حكم هذا الملك كانت عشرين سنة، وتولى بعده أخوه رمسيس السادس.

---

(١) حكم من سنة ١١٥٤ حتى سنة ١١٥٠ ق.م.

(٢) أى مقبرته.

الملك رمسيس السادس[1]

هذا الملك، الذى جعله بعضهم سابعا من هذا الاسم، لا يعلم له من الآثار إلا قبره المحفور فى صخور بيبان الملوك، بقرب قبر أخيه رمسيس الخامس، وهو أول ما يجده الإنسان أمامه وهو قادم من القرنة هناك. وكانت مدة حكمه خمس سنوات، على ما قيل، وخلفه بعد موته أخوه رمسيس السابع.

الملك رمسيس السابع[2]

تولى مملكة مصر عقب موت أخيه، وله آثار عظيمة بقيت رسومها، فمنها بعض مبانى بمدينة منف، كالأعمدة الشامخة التى ارتفاع العمود منها أربعون قدما، التى بقيت على حالة حسنة إلى أن أقامت(*) مقامها الإسكندرية، وما أحسن قول بعضهم.

سألت أطلال مصر ... عن عين شمس ومنف

فما أحارت كلاما ... وما أجابت بحرف

وفى السكوت جواب ... لذى الفطانة يكفى

وهذا دليل على أن المملكة المصرية كانت لم تزل إلى أيامه باقية على عظمها، وكمال استقلاليتها وراحتها، ولم يكن طرأ عليها اختلال، ولا تضعضع حال.

وكانت مدة حكم هذا الملك أيضا خمس سنوات، على ما قيل، وخلفه بعد موته رمسيس الثامن.

---

(١) حكم من سنة ١١٥٠ حتى ١١٤٥ ق.م.

(٢) حكم، هوورمسيس الثامن، من سنة ١١٤٥ حتى سنة ١١٣٧ ق.م، وهو تاريخ حكم رمسيس التاسع الذى حكم حتى سنة ١١١٨ ق.م.

(*) المقصود: قامت. (الشروق).

وبعضهم يجعله التاسع، ويقول: إنه آخر ملوك الدولة التاسعة عشرة، وقد علمت أنه معدود فى الدولة المكملة للعشرين، على الاصطلاح الجديد الذى سلكه موسيو مارييت بك، ولم يعلم المؤرخون درجة قرب هذا الملك من سلفه، وإنما وجود تمثاله فى صف تماثيل الملوك الرمسيسية قضى له المؤرخون بأنه على عمود نسب العائلة الملوكية الوارثة ملك مصر، وقد لمحوا أيضا فى تمثاله ريشتين على ظهره، وهما فى اصطلاح هذه الدولة علامة على الصدق والعدل، فاستدل بهما على أنه معدود من الملوك، وقد وجدوا أيضا بالاستكشاف صورة سند قديم يدل على أنه كان رتب صدقة جارية على هيكل مدينة طيوة، صرفت لمستحقيها ست سنوات متواليات، فبانضمام ما ذكر مع ما تضمنته فهرست المؤرخ مانطون، المتعلقة بسلسلة الملوك، وقوله عنه: إن هذا الملك مات فى السنة السابعة من حكمه، يدل جميع ذلك على أنه ملك من ملوك هذه الدولة، وأنه حكم سبع سنوات، ولكن استظهر موسيو شمبليون، العارف باللغة المصرية القديمة، من الكشف عن قبره، ودلائل ما ظهر له أنه حكم ثمانية وأربعين سنة، قال: إن اتساع مدفن هذا الملك، والتأنق فى بنائه وإحكامه، وعمل هذا العمل الجسيم فى مدة حياته يستدعى طول مدة حكمه.

وإلى حد هذا الملك، الذى هو رمسيس الثامن، تعلم وقائع الرمسيسية، وبعده عدة ملوك لا تعلم وقائعهم، وإنما تعلم أسماؤهم فقط، بل من ملوك هذه الدولة ملكان مجهولا الاسم والوقائع فلذلك اكتفى المؤرخون بسردهم على هذا الوجه:

١	رمسيس التاسع	٦	رمسيس الثالث عشر	
٢	رمسيس العاشر	٧	رمسيس الرابع عشر	
٣	رمسيس الحادى عشر	٨	باهوراموسه	ملوك
٤	أمينومسيس	٩	فهمه	كهنة
٥	رمسيس الثانى عشر	١٠	مملكة اثنين مجهولين	-

فيفهم من هذا أن أغلب هؤلاء الملوك رمسيسية، ولا تعلم مدة حكم كل ملك من ملوكها على حدته[1]، بل منهم ملكان مجهولان لا يعلمان لا اسما ولا لقبا، وفى بعض كتب التواريخ الجديدة يوجد بدل باهورموس اسم هرهور، وبدل فهمه اسم بيانكى، معبرا عنهما بأنهما من طائفة الكهنوت، ولعلها من الأسماء المترادفة على مسمى واحد، وأن هرهور هو عين باهورموسه وبيانكى هو عين فهمه.

وقد ذكر هذا المؤرخ أيضا ملكا من طائفة الكهان المتغلبين باسم بناطيم، ولعله أحد الملكين المجهولين، ولما كان هؤلاء الملوك الإحدى عشرة المكونة لبقية الدولة المكملة للعشرين من ذرية من قبلهم من الملوك الرمسيسية الطيوبة، ولكنهم ليسوا أرباب ظهور ولا بهجة كأسلافهم، جعل بعض المؤرخين أسلافهم من الدولة التاسعة عشرة، وجعلهم دولة هى تمام العشرين، لأنهم خلعوا من الملك أسلافهم وظهروا مظهر الخمول والتساهل، حيث خانوا الأمانة، وأهانوا الديانة، ونبذوا أحكام المملكة وراءهم ظهريا، فطردهم أهل الكهانة، وضموا تاج الملك لرياسة الدين، فظهر من مدينة تنيس دولة جديدة.

* * *

وقد نص مؤرخو اليونان على حادثتين عظيمتين حصلتا فى أيام دولة الرمسيسية لا بأس بذكرهما، الأولى: أحداث دور نجمة الشعرى وطلوعها، والثانية: أخذ اليونان لمدينة طروادة، القريب محلها الآن من اسكى أزمير.

وبيان الحادثة الأولى أن المصريين كانوا يحسبون السنة التوتية ثلثمائة وخمسة وستين يوما، واستمروا على هذا الحساب المدة المديدة، ثم تبين لهم برصد الشعرى اختلاف حسابهم، ونقص سنتهم ربع يوم، فبتكميل ربع اليوم فى الاحتساب تكون السنة التوتية ثابتة على حالة واحدة، فوجدوا الفرق بين السنة المختلفة والسنة الصحيحة فى كل مائة وعشرين سنة شهرا كاملا، وبتجميع هذا الشهر وزيادته يتكون منه فى كل ألف وأربعمائة وستين سنة زيادة ثلثمائة وستين يوما، وهى سنة

---

(١) حكم رمسيس الحادى عشر من سنة ١١١٠ حتى سنة ١٠٨٠ ق.م.

كاملة، وهى الفرق بين السنين المختلفة والسنين الصحيحة، فبكبس هذه السنة فى تلك المدة يوافق، فى آخر الدور، أول السنة الصحيحة لأول السنة المختلفة، ويوافق طلوع الشعرى، فتصحيح السنة التوتية على هذا الوجه هو ما يسمى عند القدماء بالدور الشعروى.

ووجه هذا التصحيح أن الألف والأربعمائة والستين سنة المختلفة، بإضافة السنة الفرق عليها للتصحيح، تكون ألف وأربعمائة وستين سنة صحيحة، وحينئذ يكون عدد دورهما بهذه الاضافة واحدا، لأن أيام كل منهما مساو لمقدار الآخر فى العدد، فإذا صح التحرير والتصحيح لتوفيق السنين.

وكان تاريخ هذا التصحيح فى أواخر القرن العشرين قبل الميلاد، وهو يوافق زمن الرمسيسية.

وأما الحادثة الثانية، التى هى أخذ مدينة طروادة، وتغلب اليونان عليها، فهو أيضا فى عصر أوائل دولة الرمسيسيين، على أشهر الأقوال، فقد صرح المؤلف بلياس[1] أن فتوح اليونان لمدينة طروادة كان فى زمن رمسيس ملك مصر، ولم يذكر أى رمسيس هو، وإنما من المعلوم أن تدمير اليونان لهذه المدينة كان فى سنة ١١٨٤ قبل الميلاد، الموافق لسنة ١٨٠٦ قبل الهجرة، فيقرب أن يكون فى زمن رمسيس الرابع، وإن جعله بعض المؤرخين، بمقتضى حسابه، فى زمن رمسيس الثامن، استظهارا بتوفيق الحساب، ومن المعلوم أن اختلاف حساب السنين فى تواريخ ملوك مصر إنما جاء من اختلاف أسمائهم وألقابهم باختلاف المؤرخين، بسبب كثرة ألقاب هؤلاء الملوك وأسمائهم المتعددة المترادفة غالبا على مسمى واحد، فإنه متى طرقت سمع المؤرخ ظن تباينها، مثلا رمسيس الثامن يسمى مينو فريس فى كتب بعض المؤرخين، ومعناه عبد شمس، وهو اسم من أسمائه،

(١) ويسمى «بلياد» أو بليادیس، وهو اسم يطلق على سبعة من شعراء الإسكندرية عاشوا جميعا فى عصر بطليموس الثانى، والمعنى بالإشارة هنا هو لوكوفرون صاحب ملحمة «ألكسندر» التى تحدث فيها عن نهاية طروادة وسقوطها.

ويسمى طوريس عند بعض آخر، وبقية أسماء الملوك كذلك، فمن هذا حصل الالتباس فى تواريخهم.

وهناك حادثة أخرى من حوادث ملوك الدولة الرمسيسية علمت من لوح حجرى موجود بالخزانة الملوكية بمدينة باريس، مستخرج من هيكل شونس، الذى هو أحد الأوثان المعبودة بمدينة طيوه بالصعيد، ومنقوش على هذا اللوح بالخط البربائى أن أحد الملوك الرمسيسيين لقى فى بعض أسفاره بالجزيرة بين دجلة والفرات، التى كانت تابعة إذ ذاك لملوك مصر، إحدى بنات الملوك ببلاد الجزيرة فتزوج بها، ثم مضى على ذلك بعض سنوات، فبينما كان رمسيس جالسا فى قصره بمدينة طيوه وإذا ببعض الحجاب أخبره بحضور رسول من طرف صهره يلتمس منه أن يرسل إليه طبيبا حاذقا ليعالج بنته التى هى أخت زوجة فرعون المذكور، حيث أصابها داء أعجز الأطباء، فبعث إليه طبيبا مصريا ليخرج ما بها من الجن، فلما وصل الطبيب المصرى إلى تلك الجهة بذل جهده فى علاجها فلم يُجْد علاجه شيئا، ولم يخرج الجنى منها، وعاد الطبيب إلى الديار المصرية بدون نتيجة، وكان ذلك لخمس عشرة سنة خلون من حكم الملك رمسيس المذكور، ثم فى عام ست وعشرين سنة من حكمه وفد عليه رسول آخر، وأفاد رمسيس من طرف صهره بأنه لا يشفى ابنته من علتها إلا أحد الأوثان المعبودة بمدينة طيوة، فبعث إليه التمثال المسمى شونس، فمكث فى الطريق سنة ونصفا حتى وصل إلى بلاد الجزيرة، وعَزّم على الجنى حتى خرج من بدن ابنة الملك، فعاد إليها الشفاء كما كانت، فلما عرف ملك الجزيرة خاصية هذا الوثن، من أن مجرد حضوره فيه الشفاء، صمم على أن حجزه (فى) قصره، مع علمه بأن حجزه يوجب العداوة بينه وبين صهره، فأقام هذا الوثن محجوزا ببلاد الجزيرة ثلاث سنين وتسعة أشهر، ثم رأى ملك الجزيرة فى المنام أن هذا الوثن استحال إلى صورة باز(*) من ذهب وطار إلى مصر، وإنه فى وقت طيرانه أصيب الملك بعلة أتته على حين غفلة، فلما استيقظ أمر بإطلاقه فى الحال

(*) الباز: نوع من الصقور ينتمى إلى الفصيلة الصقرية. (الشروق).

وإرجاعه إلى محله، فعاد الوثن إلى هيكله المعد له بمدينة طيوة بالصعيد فى سنة ٣٣ من حكم الملك رمسيس.

هذا ما وجد مكتوبا على اللوح الحجرى. قال بعضهم: ولعل ملك الجزيرة تخيل ما هاله فى منامه فتطير منه، وخشى عاقبة أمره، ففك سجنه حالا، ولعل هذا المنام أيضا منام همسة[١]، وأما الشفاء بحضوره فهو استدراج، أو أن فى هذا الصنم خاصية وضعها فيه كهنة مصر للمصروع بالجن كالحلتيث[٢]، أو مصادفة أقدار.

وقد انتهت الدولة المكملة للعشرين سنة ١٧٣٢ قبل الهجرة، وهى ابتداء الدولة الحادية والعشرين الآتية.

---

(١) أى وسوسة.

(٢) ربما كان دواء أو نباتا طبيا.

الفصل الرّابع

فى ملوك الدولة الحادية والعشرين

ابتداء حكم هذه الدولة كان فى سنة ١٧٣٢ قبل الهجرة[1]، وملوكها سبعة، ومدة حكمهم جميعا مائة وثلاثون سنة، وأصل هذه العائلة الملوكية تنيسية، أى من مدينة تنيس، التى يسميها بعضهم أيضا مدينة صان، وهى مدينة أزلية لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وكانت جنات ونخلا وكرما وشجرا ومزارع، وكانت فيها مجار على نشز من الأرض، ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض ولا أعظم اتصالا من جناتها وكرومها، ولم يكن بمصر كورة يقال إنها ليس لها شبه إلا الفيوم، وكان الماء منحدرا إليها، لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء، يسقون جناتهم إذا شاءوا، وكذلك زروعهم، وسائره يصب فى البحر من جميع خلجانه، وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض مسيرة يوم.

ويقال إن الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز إذ يقول: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ** ﴾ (الكهف: ٣٢)

---

(١) فى المراجع الحديثة المعتمدة أن حكم هذه الدولة قد بدأ سنة ١٠٨٥ ق.م وانتهى سنة ٩٥٠ ق.م، أى أنه قد استمر مائة وخمسة وثلاثين عاما. انظر (الموسوعة المصرية) المجلد الأول، الجزء الأول. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م. وفى (موسوعة تاريخ مصر) لأحمد حسين يحدد بدء حكمها بعام ١٠٩٠ ق.م ونهايته بعام ٩٤٥ ق.م، أى أن مدة حكمها كانت مائة وخمسة وأربعين عاما. انظر ص ١٤٤ من الجزء الأول من هذه الموسوعة، طبعة القاهرة الأولى.

الآيات كانتا لأخوين من بيت الملك، أقطعهما ذلك الموضع، فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه، وكان الملك يتنزه فيهما، ويؤتى له منهما بغرائب الفواكه والبقول، ويعمل له من الأطعمة والأشربة ما يستطيبه، فعجب بذلك المكان أحد الأخوين، وكان كثير الضيافة والصدقة، ففرق ماله فى جميع وجوه البر، وكان الآخر ممسكا، يسخر من أخيه إذا فرق ماله، وكلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه، حتى بقى لا يملك شيئا، وصارت تلك الجنة لأخيه، واحتاج إلى سؤاله فانتهره وعيره بالتبذير، وقال: كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل، ونفعنى إمساكى فصرت أكثر منك مالا وولدا، وولى عنه مسرورا بماله وجنته، فأمر الله البحر فركب تلك القرى وغرّقها جميعها، فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور ويقول: (يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا) قال تعالى: ﴿ **وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ (الكهف: ٤٣) وهذه تنيس الأولى ثم بنيت ثانى مرة، وصارت عظيمة الشأن، حتى يقال إنه كان لها مائة باب مثل مدينة طيوة، وإلى هذه المدينة تنسب هذه الدولة التنيسية.

(أسماء ملوك هذه الدول)[1]

١ ـ مندو فطف: ابن حاسن ويسمى منداس واسنمداس ولم يكن حاسن أبو مندو فطف ملكا بل كان من آحاد الرعية وإنما تولى الملك ابنه مندو فطف.

٢ ـ حاسن بن مندو فطف: يسمى هذا الملك أسوسنيس، ويسمى أيضا فوسناس، حكم ستة وأربعين سنة.

---

(١) نذكر هنا أسماء الملوك الذين عنت بذكرهم وذكر تواريخ حكمهم (الموسوعة المصرية)، من ملوك الأسرة الواحدة والعشرين، وهم:

أ ـ حريحور (وهو مؤسسها) ولقد حكم من سنة ١٠٨٥ حتى سنة ١٠٥٤ ق.م.

ب ـ باينزم، ولقد حكم من سنة ١٠٥٤ حتى سنة ١٠٠٩ ق.م.

جـ ـ بسوسنس، ولقد حكم من سنة ١٠٥٤ حتى سنة ١٠٠٩ ق.م (أى بالاشتراك مع الملك السابق).

د ـ سى آمون، ولقد حكم من سنة ١٠٠٠ حتى سنة ٩٨٤ ق.م.

٣ - نفـر خريس : حكم أربع سنوات .

٤ - أمينـوفطيس : حكم تسع سنوات .

٥ - أوسـو خـور : حكم ست سنوات .

٦ - أسـيناخس : حكم تسع سنوات .

٧ - حاسن الثانى : ويسمى أبسوسنيس حكم ثلاثين سنة .

وقد عاشت وماتت هذه الدولة بدون فخار ولا اعتبار، ولم يكن لها من الشهرة إلا ضياع الملك فى عصرها، وضيق ملك مصر بعد السعة، ورجوعها إلى حدودها الأصلية، وضعف ما فى مدينة طيوة من العائلة الملوكية، فلا يوجد لأحد من ملوكها ما يذكر به من مبنى من المبانى أو معنى من المعانى، إلا لأولهم فقط، فقد وجد على صخر من الصوان فى جزيرة بربا بأسوان نقش بالقلم البربائى مشتمل على طلب الدعاء بحفظ منداس مؤسس الدولة الحادية والعشرين، وقد كان موت حاسن الثانى آخر ملوكها سنة ١٦٠٣ قبل الهجرة .

وكانت هذه الدولة فى عصر سيدنا سليمان وأبيه داود عليهما السلام، ويقال إن سيدنا سليمان تزوج بنت أحد فراعنة هذه الدولة المذكورة وأمهرها مدينة غزة، ولهذا بنى الجامع الأقصى على منوال المبانى المصرية، وبنيت مدن الشام على رسم عمارات مصر .

ثم إن عجز فراعنة هذه الدولة بتضعضع حالها فتح بابا لإضاعتها من أيديهم، حيث ظهرت عائلة أخرى من بسطة - محلها الآن قريب من الزقازيق - وخلعت عائلة تنيس من الملك وتقلدته، واستولت على المملكة المصرية، فمثل هذه الوقائع، التى ينتج عنها اختلال الدولة وعدم انتظام أحوالها، تؤدى إلى زوال ملك الملوك وسلطنة السلاطين .

فمتى وجدت أمة من الأمم أو ملة من الملل انقسمت إلى حزبين، كل منهما يسعى فى مصلحة نفسه الخصوصية، فاعلم أن سعيهما معا إنما هو لعدوهما المترقب

لذلك، فهو يعود عليه بالنفع دونهما بدون أن يشعرا بذلك، فهما فى الحقيقة سعيا لحرمانهما معا، وتمكين خصمهما، لصدق مصائب قوم عند قوم فوائد.

وما ذكرناه من أسماء هذه الدولة التنيسية فهو ما ذكره المؤرخ مانطون فى دولة العائلة الملوكية المصرية الحقيقية بالأقاليم البحرية، وكان بالصعيد بمدينة طيوة دولة أخرى مصرية تغلبت عليها طائفة القسيسين، وتلقب أيضا هذه الدولة الصعيدية بالدولة الحادية والعشرين، وهم الذين أتموا عمارة الهيكل الذى بين الكرنك ولوقصر، وعليه توجد أسماؤهم مكتوبة، وأما الدولة الملوكية البحرية المعاصرة لها فإن لها أيضا آثارا ببعض جهات، لا سيما بجهات تنيس، وقد استكشف لها بعض تيجان وأكاليل صيغت لتكون فوق المبانى، وبعض صفائح من الذهب محفوظة فى ضمن المحفوظات بالأنتيقة خانة ببولاق تدل على أسماء بعض ملوك من ملوك هذه العائلة صار الوقوف على أسمائهم عن قريب مما لم يكونوا معلومين فى التواريخ السابقة.

وقد انتهت مدة هذه الدولة سنة ١٦٠٢ قبل الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وجاءت بعدها الدولة الملوكية الثانية والعشرون.

الفصل الخامس

فى ملوك الدولة الثانية والعشرين

كان سرير هذه الدولة بمدينة بسطة الشرقية، ومحلها الآن تل بسطة، القريب من الزقازيق، وعدد ملوكها تسعة، ومدة حكمهم مائة وسبعون سنة، والظاهر أن هذه الدولة البسطية لم يكن من ملوكها من الغزاة وأرباب الفتوحات إلا القليل، كما أن الظاهر أيضا أنهم كان لهم قرابة أو مصاهرة أو ميل للأجانب، فإن أسماءهم كأسماء ملوك العراق والأكراد، وكانت عساكرهم المحافظون لذواتهم ليسوا من أهل مصر بل من المغاربة، ولا يعرف لهذه العائلة الملوكية عمارة جسيمة تنتسب إليها لغاية الآن[1]، وإنما يؤمل إنه باستمرار عملية الحفر بناحية تل بسطة لابد وأن يستكشف بعض عمارات ومبانى مما أنشأته هذه الدولة بمدينة بسطة التى اتخذتها سريرا لملكها، وأول ملوكها شيشاق.

الملك شيشاق، وهو شيشونق الأول[2]

يسمى هذا الملك بهذا الاسم فى التوراة، واسمه مرسوم على الآثار القديمة باسم شيشونق وقد كان من أرباب الغزو والفتوحات، فهو الذى غزا بلاد فلسطين حيث

(١) لغاية الآن، أى: حتى الآن.

(٢) ويسمى شاشانق الأول، ولقد حكم من سنة ٩٥٠ حتى سنة ٩٢٩ ق. م.

سار من مصر إلى القدس فى جند مؤلف من نحو ألف ومائتى عربية حربية، وستين ألف فارس، وطوائف كثيرة من المشاة المغاربة والنوبة وغيرهم، فاستولى على جميع قلاع فلسطين، ودخل مدينة القدس، وسلب أموال القصور الملوكية، حتى الدروع السليمانية المصوغة من الذهب، وقد أيد هذه الحادثة التى ذكرها التوراة ما شوهد فى رواق من الكرنك بصعيد مصر مرسوم عليه تمثال الملك شيشاق يجر تحت أقدام الأصنام كثيرا من الأسرى وعلى صدورهم اسم جنسهم وبلدهم، فقد وجد من النقوش على صدر صورة أحدهم إنه يهوذا ملك فلسطين، وهو مصور بين الأسرى موثوق اليدين خلفه.

وقد دل التاريخ على أن شيشاق قطع أحجارا كثيرة من مقاطع جبال السلسلة وأعدها لعمارات هيكل الشمس بقرب الكرنك وغيره بطيوة، ولم ينجز ذلك بنفسه بل تمم مقصوده بعده خلفاؤه.

وقد حكم هذا الملك اثنين وعشرين سنة وخلفه ابنه أوسرخون. مات سنة ١٥٨٠ قبل الهجرة.

الملك أوسرخون الأول[١]

هذا الملك يسمى فى التوراة ذا راق، ويعبر عنه بالملك الحبشى، حارب مملكة يهوذا كسلفه شيشاق فى حرب القدس، وكان ذلك بعد أخذ مدينة القدس بتسع وعشرين سنة، فهجم على مملكة يهوذا بنحو مليون من النفوس وثلثمائة عربية حربية، وتوغل فى البلاد بالإغارة، فسار ملك يهوذا لملاقاته، واصطفت جنود الفريقين فى وادى صفد، بقرب مدينة قديمة تسمى ماريسة، ولكن ألقى الله الرعب فى قلوب الحبشة فهربوا جميعا. هذا مفاد عبارة التوراة، والمراد بالحبشة المصريون ومن معهم من الجنود الأجنبية، فيؤخذ من هذا انهزام هذا الملك وعدم استيلائه على تلك المملكة.

(١) وينطق اسمه: أوسوركون الأول، ولقد حكم من سنة ٩٢٩ حتى سنة ٨٩٣ ق.م.

وقد مات سنة ١٥٦٥ قبل الهجرة، بعد أن حكم خمس عشرة سنة، وخلفه ولده شيشونق الثانى.

الملك شيشونق الثانى[1]

لم يعلم فى حق هذا الملك شىء من الوقائع إلا كونه حكم تسعا وعشرين سنة، فيكون موته سنة ١٥٣٦ قبل الهجرة، فتكون مدة حكم الملوك الثلاثة ستا وستين سنة، ولم يعلم باقى ملوك هذه الدولة بعد هذا الملك، وإنما استنبط بعضهم من بعض دلائل إنه تملك بعد شيشونق الثانى ملك يسمى طاقيلوطس، ثم تولى بعد طاقيلوطس ملك يسمى أوسرخون الثانى، ولم يعلم لحكمهما مدة ولا وقائع، فيكون عدة الملوك المعلومة الأسماء من هذه الدولة خمسة.

وذكر مانطون المؤرخ ملكين آخرين، ولم يعينهما بالاسم، وقد سبق لنا أن المؤرخين جعلوا ملوك هذه الدولة تسعة، فبقى أربعة من الملوك غير معلومين بالكلية[2]، فينتج من هذا أن مدة حكمهم المائة وأربعة سنين الباقية هى من المائة وسبعين سنة مدة حكم هذه الدولة، وأن مدة الملوك المعلومين أكثر من الستة وستين سنة المذكورة، ولعل الملك أوسرخون الثانى خلف ذرية ورثوه، واحدًا بعد واحد، وأنهم أضعفوا هذه الدولة المصرية وكانوا سببا فى انقراضها، وأن سكوت المؤرخين عن أولاد أوسرخون الثانى المذكور إما للصفح عن جناياتهم بكتم أسمائهم وعدم التعرض لهم بشر، أو إنما سكتوا عنهم لعدم الاكتراث بهم حيث لا يستحقون أن يذكروا فى سلسلة الملوك.

وسبب ضعضعة الدولة الحادية والعشرين وما بعدها أن هذه الدولة لم تسلك مسالك أسلافها فى التشبث لحفظ ناموسها، وبقاء محيط دائرتها، بل رضيت

---

(١) وينطق اسمه: شاشانق الثانى، ولقد أشركه أبوه أوسركون معه فى الحكم.

(٢) تذكر مصادر التاريخ منهم أوسركون الثانى، وتاكلوت الأول (٨٨٨ ق. م) وتاكلوت الثانى (٨٣٥ ق. م) وشاشانق الثالث (٨١٨ ق. م).

بتحكمات المال الأجانب عليها، ومطاوعة أهوائهم، ولا سيما وقد انقرضت دول الملوك الطيبية والمنفية، وانمحى أثر نسلهم، وانقطع سرير الملك عن طيوه ومنف، واتخذ الملوك أسرّة ممالكهم فى مدائن الأقاليم البحرية، فبهذا صارت الديار المصرية بحيث لا تملك استقلالها واستبدادها، والسبب الأصلى لذلك كله أن الملوك الطيوية، التى ارتفع شأنها وعلا سلطانها، قد فتحت أبوابها لبعض الأجانب، كبنى إسرائيل، واقطعتهم بعض الضياع ليستوطنوا بها على سبيل الضيافة والإكرام ولكن احترست منهم ومن ظهورهم، وضبطتهم غاية الضبط، وأدخلتهم تحت الطاعة، وأما دول المدن البحرية فإنها لم تحترس من الأجانب، ولا لاحظت أطوارهم وحركاتهم، فمن كان تحت قبضتها من الولايات المضافة إليها أقاموا راية العصيان، وتعدوا الحدود، وما أقطع لهم من الأراضى للانتفاع به والتعيش منه طمحت نفوسهم لاستملاكه والاستيلاء عليه بالقهر والغلبة، وانتهى الحال بتغلب الأجانب على ملك مصر، لكثرتهم بالثغور الشرقية، فالظاهر أن الدولة الملوكية الثانية والعشرين كان ملوكها من الأغراب المتوطنين، وقد خلف هذه الدولة دولة أخرى أسوأ منها حالا وهى الدولة الثالثة والعشرون.

الفصل السادس

فى ملوك الدولة الثالثة والعشرين

الظاهر من الوقائع التاريخية أن الديار المصرية فى عهد هذه الدولة كانت ممزقة كل ممزق، وليست على صورة وجود كلية، تعدد فيها أرباب الحل والعقد، فكانت فى الأقاليم البحرية متفرقة غير متواطئة كالجمهوريات، ولو كانت كما فى عصر العمالقة منقسمة إلى دولتين أجنبية وأهلية لكان أهون مما هى عليه فى هذا العهد، فإنها كانت فى عهد الدولة الثالثة والعشرين منقسمة إلى دول متفرقة، وطوائف متكاثرة غير متفقة، فكان يحكمها عشرة من ملوك الطوائف، وجمهورهم من طائفة الماسواس، وهى طائفة عسكرية أوجاقلية كالإنكشارية، اغتصبت المملكة بطريق التعدى، هذا ما كانت عليه مصر فى الأقاليم المصرية الحقيقية، وأما مضافاتها ولواحقها من الأقطار السودانية، التى كانت من أول الزمان إلى عهد هذه الدولة منقادة للفراعنة، فخلعت الطاعة، واستبدت بنفسها، وخرجت عن حكومة مصر، ولم ترض بالانقياد لنواب مصر عليها، فخرجت السودان عن طاعة الدولة المصرية بالكلية فى أيام الدولة الثالثة والعشرين، ولم تكتف بذلك بل أغارت على جنوب مصر من جهة الصعيد حتى وصلت إلى إقليم المنية(*)، حتى صار الصعيد فى ذلك العصر أشبه بإقليم سودانى، فكان عصر هذه الدولة من فتن ومحن، كما دل على ذلك الاستكشافات الجديدة من لوح حجر صوانى بجبل البركل بإقليم

(*) أى المنيا. (الشروق).

دنقلة، وهو من إنشاء ملوك الدولة السودانية، وليس من أعمال ملوك مصر الأصليين.

ومضمون ما دلت عليه الكتابة أن طائفة الكوشيين، يعنى السودان من بنى حام، لما أسسوا لأنفسهم مملكة مستقلة تدينوا بدين المصريين، واستعملوا طريقة كتابتهم، وتعلموا لسانهم، فكان تمدن السودان صادرا عن تمدن قدماء المصريين، وأن السودان أغاروا على معلميهم وممدنيهم وغلبوهم بما تعلموه منهم أ هـ.

فكان هذا أشبه بجزيرة سند منغ، المسماة بجزيرة هايتى، حيث استقلت بنفسها وطردت الفرنساوية، ومثله ما وقع لكثير من دول أوروبا فى مضافاتهم بأمريقة، حيث خلعوا طاعة ملوكهم عقب التمدن واستبدوا بحكوماتهم، وكان أيضا أشبه بالنيل وقد رجع على منبعه بالطغيان، وليس هذا بعجيب فى أنباء كل زمان:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

* * *

ثم إنه يظهر للمتأمل أن أحوال مصر مرتبطة فى المعنى بمنابع نيلها، وأن منافعها المعنوية تابعة لمنافعه الحسية، فكلما قرب ماء النيل من مصبه صوب الوجه البحرى ضعفت قوته ووهى عزمه إلى أن يبتلعه البحر المالح، وكذلك حكومة مصر فى الأزمان الخالية لما كان سريرها بالصعيد الأعلى، فى مدينة طيوة، كانت قوية الشوكة فى أعلى درجة، فلما دنت من الوجه البحرى فقدت قوتها شيئا فشيئا حتى صارت أشبه شىء بالشيخ الذى بلغ درجة الهرم، فضعفت بنيته، ورد إلى أرذل العمر، وأدركته منيته، وذلك بمقتضى علاقات ذلك الوقت، وأما روابط أيامنا هذه التى صار لمصر فى الجهات البحرية منبع عظيم كمنبع النيل، وهو منبع المنافع العمومية، كالتجارة ونحوها، فهى مرجحات قوية لوجود تخت المملكة بمقربة من المنافع.

وقد استبان من هذا كله إنه بعد الدولة ا لعشرين قد انقرضت تقريبا ملوك طيوة

بالصعيد، وذهبت عائلاتهم الملوكية، وانمحت تقدماتهم الجليلة الجلية، فصار لا يصدر عن طيوة ملوك ولا فنون، وليس لها حل ولا عقد، وإنما كانت فى ذلك الزمن مقصورة على المحافل الدينية والمجامع الكهنوتية، وفى الزمن الذى كانت فيه بهذه المثابة ارتقى الوجه البحرى إلى شأو الدرجات العالية، وارتفعت فيه قوة المعارف وشوكة الملك وظهرت مدنه العظيمة بمظهر رفيع، كمدائن تنيس وبسطة وصا الحجر وسمنود وغير ذلك، وصار بهذه المدن دول ملوكية منفردة أو متفرقة، ولكن كلما تباعد تخت المملكة رجعت الحكومة القهقرى، إلى أن وصلت الحكومة إلى الدولة الثالثة والعشرين التنيسية، التى قلنا أن عصرها كان عصر محن وفتن، فإن حكومة مصر كانت فى أيامها فى قبضة عدة دول ملوكية مفترقة، على غير عمود العائلات الملوكية الأصلية، ذكر منها المؤرخ مانطون الدولة الملوكية الحقيقية، ولم يتعرض لغيرها من الدول، وذكر من ملوكها ثلاثة بأسمائهم، وذكر غيره من المؤرخين أنهم أربعة، وأن المعلوم بالأسماء منهم ثلاثة لا غير، اخذا من المبانى القديمة، ومع ذلك فالملوك الثلاثة وقع ذكرهم فى الكتب على وجه مختلف حيث وجدت على المبانى بلفظ وفى فهرسة مانطون بلفظ آخر كما تراه فى الجدول [1]:

١	ابتاهوطف	فى كتابة المبانى	١	باطوباسيطس	على حسب فهرسة مانطون
٢	أوسورطاسن		٢	أوسورطون	
٣	آمين هم جم		٣	أبساموس	

وقد استكشف مارييت بك، محافظ الأنتيقة خانة، من لوح حجرى وجده بقبر العجل أبيس، الذى بجهة سقارة، دولة ملوكية أخرى كانت مستقرة بمدينة منف،

---

(١) فى الموسوعة المصرية معلومات غير مؤكدة عن مدة حكم من ذكر من ملوك هذه الدولة، فمؤسسها بدى باست (٨١٧(؟)-٧٦٣(؟) ق.م)، وشاشانق الرابع (٧٦٣ (؟)-٧٥٧ (؟) ق.م).. وفى مصادر أخرى نجد أن الذى حكم بعد بدى باست هو اوسركون الثالث الذى حكم ست أو سبع سنوات، كما يذكر اسم الملك اوبوت.. إلخ.. إلخ.

وعلم من الكتابة التى على الحجر حقيقة ثلاثة ملوك أيضا كالملوك الثلاثة التنيسية، وعلم من لوح حجرى آخر وجده البك المذكور بجبل البركل بإقليم دنقلة ما يفيد أن بعض أقاليم مصر كان فى أثناء تلك المدة فى قبضة بعض ملوك طوائف متفرقين، ليس ممن ذكرهم المؤرخ مانطون ولا ممن ورد اسمه باللوح الحجرى الذى وجد بقبر العجل أبيس، الذى كان يعبده المصريون فى تلك الأزمان.

ثم إن وقائع الدولة الثانية والعشرين وما بعدها يظهر فيها أن من أسماء ملوكها ما يوافق أسماء أهل الموصل، فهذا يقتضى وجود رابطة بين دولة مصر ودولة الموصل، فهل هذه الرابطة كانت مصاهرة وقعت بين الدولتين، فأرادت مصر التحبب والتقرب إلى دولة الموصل بتسمية أولادهم بأسماء موصلية، لا سيما وأن المحبة كانت إذ ذاك من الطرفين، حيث كان لمصر نفوذ على ساحل دجلة والفرات؟ أو لم يكن سبب ذلك رابطة مصاهرة، بل حصل فى مصر تغيير وتبديل فى دولتها باستيلاء بعض ملوك الموصل والجزيرة عليها، فبعد انجلاء المتغلبين اقتبست مصر تلك الأسماء، مثل أوسرخون ونحوه؟ ويدل على هذا الرأى الأخير سكوت مؤرخى المصريين عن بيان أخبار القرن الخامس عشر قبل الهجرة، حيث كتموا فيه ما عساه أن يكون وقع لمصر من الهزيمة.

وكان ابتداء حكم ملوك هذه الدولة الثالثة والعشرين فى نحو سنة ١٤٣٢ قبل الهجرة، وانتهاؤها سنة ١٣٤٣، فتكون مدة حكمهم تسعا وثمانين سنة، ثم جاءت بعدها الدولة الرابعة والعشرون.

الفصل السابع
فى ملوك الدولة الرابعة والعشرين

هذه الدولة صاوية، نسبة إلى تخت ملكها وهوصا الحجر، التى هى مدينة أزلية لم تزل آثارها القديمة باقية إلى الآن، ولم يبرز من هذه الدولة إلا ملك واحد وهو بخوريس، كما ذكره المؤرخ مانطون. فهذه الدولة عبارة عن هذا الملك، وقد وجد اسم هذا الملك مكتوبا على بعض أحجار من قبر العجل أبيس، الذى كان يعبده قدماء المصريين.

الملك بوخوريس

قد اشتبه على بعض المؤرخين هذا الملك بفرعون بن رمسيس الثالث، صاحب واقعة خروج بنى إسرائيل على بعض الأقوال، فإن ذلك يوافق القرن العشرين قبل الهجرة بخلاف هذا الملك فإن وجوده فى القرن الثالث عشر قبل الهجرة (وهو) الذى يسمى أنيسيس البصير، لأنه كان فاقد البصر، (وهو) الذى خلفه سيافون ملك النوبة المتغلب على مصر.

وبيان ذلك أن بوخوريس كان صاحب تنظيم وترتيب، وتربية وتهذيب، قوى روابط التجارات، وأعان على المحافظات الأجنبية والمعاملات، وبذل مجهوده فى تحسين المملكة المصرية، التى جدد بها دولته القسرية، ولكن صروف الدهر غلبت

هذا الملك الغالب، وأوقعته فى أعظم الشدائد، والنوائب، حيث اتهمه جميع الملة بأنه أهان ثورا كانوا يعبدونه، وجعلوا تلك الإهانة أعظم ذلة.

وكانت انحطت مملكة مصر عن رونقها القديم، وشاخت وهرمت واشتهر وهنها وضعفها فى كل إقليم، فعند تضعضع حالها هم النوبة بالخروج عن الطاعة، وهجموا على مصر ورفعوا علم العصيان وشراعه، فاستنجدهم المصريون على ملكهم البغيض، وأعانوا عليه ملك النوبة وشنوا غارة الإغراء والتحضيض، فأغار ملك النوبة على الديار المصرية من وراء الشلال، ووضع بوخوريس فى قبضة سباقون الجبروتية، فألقى نمرود السودان خليل الرفاهية حيا فى النار، ولعجزه عن المعجزة[1] استعاره اللهيب استعارة تحقيقية، ذهبت به إلى مجاز البوار، فكانت هذه الحادثة كناية عن استيلاء الدولة السودانية الخامسة والعشرين، وسيأتى بيانها أتم تبيين.

وقد وجد اسم بوخوريس قريبا فى هذا العهد منقوشا على آثار جهة السويس، فى حفر الموضع المسمى سربيوم[2].

وكان ابتداء حكم هذه الدولة سنة ١٣٤٣ وانتهاؤها قبل سنة ١٢٣٧ قبل الهجرة، فتكون مدة حكمها ست سنوات، وبعض المؤرخين جعل ابتداء هذه الدولة سنة ١٣٨٤[3] وجعل حكم بوخوريس المذكور أربعا وأربعين سنة، ولكن الأصح ما سبق، وأن ابتداء الدولة الخامسة والعشرين كان سنة ١٣٣٧.

---

(١) أى معجزة إبراهيم الخليل، عندما صارت له النار بردا وسلاما.

(٢) فى أقصى الغرب من منطقة سقارة الشمالية، هذا هو مكان السرابيوم، ولكن هذا المكان ليس بجهة السويس، ولقد كانت عاصمة بكوريس هى «صا الحجر».

(٣) بدأ حكم هذه الدولة سنة ٧٣٠ وانتهى سنة ٧١٥ ق.م.

الفصل الثامن

فى ملوك الدولة الخامسة والعشرين

قد كان استيلاء السودان على مصر، وتأسيسهم فيها دولة سودانية، مسببا عن الانقلابات المترتبة عن العداوة والشحناء بين ملوك الدول السابقة الذكر، حتى إن فى التوراة، ما معناه: أن ملوك تنيس صاروا لا عقول لهم، وملوك منف ضلوا وأضلوا قومهم، فقضينا أن نعطى مصر لملك جبار يتولى أمرها ويدبرها شأنها أ هـ. ففسر الأحبار الملك الجبار بالملك سباقون السودانى.

الملك سباقون[1]

لما صعد على سرير مصر، عقب إحراقه لبوخوريس، اتسعت مملكته عليها إلى البحر الأبيض، وقد تقدم بيان جبروته وقسوته بإحراقه بوخوريس حيا، ومع ذلك فقد ذكر بعض المؤرخين أنه انقاد لقانون التمدنات المصرية، وتدين بديانة مصر، وكان له عدل فى الرعية، وفضل من بعده من الملوك السودانية، حتى حكى عنه أنه رأى فى المنام أن معبود مدينة طيوة ينذره إنه لا يتمكن من ملك مصر إلا إذا قطّع كهانها وأمناء أديانها إرْبا، فلم توافقه ذمته ولا رضيت بذلك، وآثر خلع نفسه من المنصب الملوكى والعود إلى وطنه، وأبى أن يلوث ناموسه بسفك دماء أمناء

(١) ويسمى شباكا (٧١٦-٧٠١ ق.م) وهو أخ «بعنحى» (٧٥١-٧١٦ ق.م).

الأديان، فإن صح هذا النقل كان دليلا على صحة حسن سيرته، وطيب سريرته، وإنما يقال عنه أنه أول من أبطل العقوبة بالقتل، وقد اجتهد فى إصلاح الجسور السلطانية، والقناطر الملوكية، والترع والخلجان العمومية، ورمّ المبانى النافعة، واصطنع المصانع البارعة، فكيف هذا مع ما فعله من الجبر فى مبدأ أمره، مما يلوثه ويقضى بسابقة شره، ولا مانع أن الحامل له على الخروج من الضد إلى ضده، والانتقال من النقيض إلى نقيضه، إنه لما تقلد مملكة جديدة، وفتح دولة حديثة، كان أول فكرته إصلاح الزلل، وجبر الخلل، لا سيما وإنه تولى مملكة مشرفة على الخراب، فحالتها أوجبت عليه الإصلاح أكمل إيجاب، فبادر بالوصول إلى مقاصد العمران حيث توفرت له الوسائل والأسباب، لا سيما وأن بلاده مجاورة للديار المصرية، فهو يعلم حالها وأسباب ضعضعتها الداخلية، وما يلزم لحسن الإدارة والسياسة، وما يقتضيه منصب الملك والرياسة، بل كان بين الإقليمين فى الأزمان السابقة روابط وعلاقات، وتناسب واتحادات، حتى قيل باتحاد مصر والنوبة فى الجنسية والأصول الأولية، حتى إن ملوك النوبة المعاصرين لملوك الدولة الخامسة والعشرين السودانية المصرية بنوا فى النوبة مبانى على منوال المبانى المصرية، واصطنعوا مصانع وهياكل كهياكل المصريين وعبادتهم، عليها نقوش باللسان المصرى القديم بالقلم البربائى، ولم تزل الهياكل المصرية حافظة إلى الآن إصلاحات هذا الملك وسلفه، وتزييناتهم ونقوشهم، فتجد ذلك فى لوقصر أبى الحجاج، وكذلك تجد فى مدينة طيوة صورة سباقون عاكفا على تقريب القربان لتماثيل هذه المدينة وأصنامها، حتى إن ملوك السودان، لتمصرهم، لقبوا أنفسهم بالفراعنة، وتكنوا بكنى ملوك مصر.

ويقال إن الملك سباقون كان فى مبادى حكمه فى حروب مستمرة مع ملك مصرى من العائلات القديمة، حصن مملكته فى الوجه البحرى، ولعل دولة السودان بمصر كانت كدولة ملوك الرعاة، حاكمة فى أقاليم مخصوصة، وكانت دولة الملوك المصرية موجودة فى جهة أخرى، ومحاربة معها. وكانت مدة حكم الملك سباقون اثنتى عشرة سنة، فيكون موته سنة ١٣٢٥ قبل الهجرة.

الملك سواخوس ويسمى سباقوطيف[1]

بعضهم يسمى هذا الملك سباقون الثانى، تولى مملكة مصر بعد موت أخيه سنة ١٣٢٥ قبل الهجرة، وهو المذكور فى التوراة حيث ذكر أن ملك القدس لما خرج على ملك بابل، المسمى سلامنصر، استنجد بملك مصر المسمى سوارقنده عليه، فلابد أن هذا الملك هو الملك سواخوس، ومع إنه تعاهد مع ملك القدس لحرب سلامنصر، فلم ينتفع ملك القدس بمعاهدته، ولم ينتصر على عدوه، ولم تعلم مدة حكمه، وإنما يظن أنها سبع سنوات تقريبا فيكون موته سنة ١٣١٨ وتولى بعده الملك طهراق.

الملك طهراق[2]

هو ثالث ملوك الدولة السودانية الخامسة والعشرين، تولى مملكة مصر سنة ١٣١٨ قبل الهجرة، وكان ملكا محاربا، هزم ملك بابل كما يشهد بذلك ما ذكر عنه فى التوراة وما نقله اسطرابونس المؤرخ، ويعضد ذلك ما يفهم من المبانى المصرية فقد وجد عن عهد قريب فى آثار مدينة آبو تمثال هذا الملك منقوشا عليها: إنه حكم السودان والمصريين وإفريقية جنوبا وشمالا، وأن مملكة بابل كانت قيادة من مملكته، وتابعة لمصر فى مدته. وإنما قيل إن هذه دعوى بدون دليل، لا سيما لمن يعلم حقيقة مملكة بابل فى تلك الأزمان، حيث كانت دولة قوية وصاحبة صولة على بنى إسرائيل وأهل فلسطين، وأن مصر كانت فى ذلك الحين تخشى بطشها، فلا يصح أن يكون لمصر عليها ولاء وسيادة، فلم يكن لمصر مدة طهراق حكم على ممالك دجلة والفرات، وإنما شرعت مصر فى تسخير تلك الدولة فى زمن دولة نيخاو حين أغار على بابل، وكثيرا ما نجد فى عنوان ملوك مصر تلقيبهم بملوك آسيا، والظاهر

---

(١) ويسمى شباتاكا (٧٠١ - ٦٨٩ ق . م).

(٢) ويسمى طهرقا و طهراقة (٦٨٩ - ٦٦٣ ق . م).

فى هذا اللقب إنه ليس على حقيقته، بل تلقيبهم بملوك الشام أيضا فيه تسامح منهم وتساهل، لأنهم لم يستقلوا بحكم الشام بالتصرف الحقيقى، بل حكمهم فيه اسم بدون جسم.

وكانت مدة حكم هذا الملك خمسة وعشرين سنة، وبه انتهت حكومة الدولة السودانية الحقيقية، وخلفتهم دولة أخرى مصرية صاوية، وهى الدولة السادسة والعشرون، ويقال إن ملكا بعد طهراق يسمى بيانكى، وهو آخر هذه الدولة المصرية الخامسة والعشرين، ومدة حكمه على ما يظهر ست سنين، فتكون مدة حكم هذه الدولة خمسين سنة، وانتهاؤها كما تقدم سنة ١٢٨٧ قبل الهجرة، ولكن حقق بعضهم أن الملك بيانكى[١] المذكور وزوجته الملكة أمونوروطيس، التى وجد لها تمثال عجيب محفوظ بخزانة الآثار القديمة ببولاق، حكما على إقليم الصعيد فقط فى العهد الذى كانت فيه الأقاليم البحرية محكومة بالحكومة الاثنتى عشرية التى ستذكر فى الدولة المصرية السادسة والعشرين.

---

(١) أى بعنخى.

الفصل التاسع

فى ملوك الدولة السادسة والعشرين

وتسمى اصطفانيناطية

قال بعضهم: إنه كان قبل هذه الدولة دولة تسمى الجمهور الاثنى عشرى المتعاهد، ويقال لها الحكومة الاثنتا عشرية، وقد اشتهرت بذلك، وإنها كانت سابقة على الدولة الاصطفانيناطية ـ نسبة إلى اصطفانيناطس، أول ملوكها ـ فعلى هذا يقال إن مدينة صا الحجر لما أفضى بها الحال إلى انحطاط ملوكها وانقراضهم، وضعفت مملكة مصر، فتعصبت وجوه المدائن المصرية وأعيانها، وعقدوا معاهدة بينهم على تخليص وطنهم من الأجانب، فأخرجوا دولة السودان الحاكمة من الجهات البحرية، وتقاسموا المملكة، فكانت مصر بين اثنى عشر حاكما من أمراء المدن المتعاهدين، كل أمير يحكم مدينة إقليم ويحكم ذلك الإقليم بتمامه، فسميت هذه الحكومة بالمقاسمة الاثنتى عشرية فكانت عبارة عن جمهورية التزامية إلى أن استولى عليها الملك أبساميطيقوس صاحب مدينة صا الحجر وخلصها من يد الملتزمين واستبد بحكمها، فبهذا صارت مملكة واحدة، ويقال إن هذا الملك استعان فى ذلك بعساكر يونانية متطوعة، فقد حكى هرودوطس واقعة تملك أبساميطيقوس ملك مصر، واستبداده به، وتخليصه من أيدى حلفائه بواسطة عساكر اليونان على وجه غريب، حيث قال: إن بعض الكهان كان قد أخبر هؤلاء الملوك المتعاهدين أن أحدهم لابد أن يشرب الشراب ذات يوم للتقرب به إلى صنم النار فى قدح من

حديد وبهذا يصير ملكا على جميع الأقاليم المصرية، وكانوا يشربون شرابهم فى أقداح الذهب، فبينما كان هؤلاء الملوك الاثنى عشر مجتمعين للتنادم على الشراب تقربا إلى صنم النار، ولم تكن أقداح الذهب المصفوفة بينهم إلا أحد عشر قدحا، بقى أحدهم وهو أبسامیطيقوس بدون قدح، فنزع مغْفَره من رأسه، وكان من حديد، فشرب فيه الشراب، فتذكر رفقاؤه بشرى الكاهن السابق، وتنبهوا لذلك، فأكرهوه على أن يهاجر إلى بعض أجمات بالوجه البحرى خيفة أن يستبد بالملك دونهم، فأقام بتلك الجهات منفيا، فبعد وصوله إلى تلك الجهات أحضر كاهنا من الكهان وسأله عما سيقع له، فأخبره أنه لابد أن يستبد وحده بملك مصر، وأن ينصره على أقرانه رجال من حديد يقدمون عليه من جهة البحر الأبيض، فاتفق أنه أرسى على بر مصر رجال أرباب صيال[1] من ملاحى اليونان، مسلحين بأسلحة من حديد، وخرجوا فى البر على مقربة من منازل أبسامیطيقوس لينهبوا البلاد، ولكن لما ذكر أبسامیطيقوس أن خبر الكاهن ربما يتحقق بذلك بادر إلى عساكر اليونان ورحب بهم، وأكرم نزلهم، ووعدهم بالإنعام، وتحالف معهم على أن ينصروه، فدخلوا فى خدمته، واستعان بهم على شن الغارة على أقرانه، وانحاز إليهم حزبه المصرى، فتلاقى جنده بجند أعدائه فظفر بهم، وخلعهم عن أسرة ملكهم، واستبد بالملك وحده. فكان هذا **مبدأ الدولة** الصاوية السادسة والعشرين، فبانفراد هذا الملك بالحكومة انفتح لمصر ثانيا **باب** المجد المؤثل، وعاد لها رونقها الأول، ورجعت لها شوكتها القديمة، وطمعها فى الغزوات الجسيمة، ونالت من التوسيع دائرة ملكها غاية المطلوب، واكتسبت من حفظ ناموسها نهاية المرغوب، ومن هذا يفهم أن بين الدولة السودانية والدولة الاصطفانيناطية فترة، وهى مدة الدولة الاثنى عشرية، وقال بعض المؤرخين: أنه لا فترة بين الدولتين، وصَحَّحه.

وبيانه إنه لما شق على أهل مصر تحمل حكم الملوك السودانية، مع عدلهم، وكانت الأمة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للأغراب، اجتهدوا كل الاجتهاد فى طردهم، وتقرير زمام المملكة لعائلة مصرية، وكانت فى ذلك الوقت

---

(١) أى أرباب وثوب وسطو وقهر.

مدينة صا الحجر مدينة شهيرة بعظم مبانيها، وكثرة مآثرها، وبما فيها من المدرسة الكهنوتية الجامعة لأنواع العلوم والمعارف، فكان لها الأرجحية على غيرها من مدن ذلك الزمن، فانتدب بعض أمرائها وهو اصطفانيناطس فقاد العساكر وهجم على الطائفة السودانية فهزمهم، وطردهم من الأقاليم البحرية، واستبد بالملك، وجعل كرسى مملكته بمدينة صا الحجر، فهو أول الدولة الصاوية ظاهرا، ولكن أولها فى الحقيقة الملك أبساميطيقوس، فإنه هو الذى تم انفصال السودان عنها بالكلية، وقد حقق بعض الاستكشافات الجديدة، أن الدولة الاثنى عشرية أقامت متحالفة مدة خمس عشرة سنة، ثم جاء بعدها أبساميطيقوس حيث أغار على محالفيه وهزمهم، كما تقدم ذكره، ويظهر لبعض المؤرخين أن ملوك هذه الدولة، بل والأمراء الاثنى عشرية، من نسل الأمراء الأغراب، وأنهم من مغاربة برقة، وإن جعلهم كثير من المؤرخين من أبناء أمراء مصر المتأصلين، وعلى كل حال فهذه الدولة، سواء كانت متأصلة أو أجنبية، فقد أورثت الديار المصرية السعادة والرفاهية مدة مائة وثمان وثمانين سنة، بما اجتهدت فيه من محبة الفنون والصنائع، وبناء الهياكل القديمة بعد اندراسها، وتجديد معابد أخرى حديثة، وتشييد أبواب مدينة صا الحجر، سرير مملكتها، فإنها بنت بها أبوابا كبيرة جدا، حتى قال المؤرخ هيرودوطس بأنه لم يشاهد مثل عظم هذه الأبواب بسائر الديار المصرية. ولكن هذه المدينة الشهيرة قد اندرست مع أبوابها بعد أن رجعت ناكصة على أعقابها، ولم تزل الرسوم الباقية إلى الآن تدل على عظمها، وقد كان سابقا حواليها ما لا يحصى من الحدائق والبساتين، والطيور المغردة، والوحوش المستأنسة، والأنهار المطردة، والرياض المونقة، والقصور المرتفعة التى كانت شرفاتها من حجارة ملونة تلمع إذا أصابتها الشمس فينتشر شعاعها على ما حولها، وكانت فيها جميع آلات النعمة وأدوات الرفاهية، وكانت العمارات منها ممتدة فى رمال رشيد ورمال الإسكندرية. قال بعض الثقات، ممن دخل مدينة صا ومشى فى خرابها: إنه وجد لبنة طولها أربعة أشبار فكسرها وجعل يتأملها فإذا فيها سنبلة قمح قدر شبر وافر كأنها كما حصدت، ففركها بيده فخرج قمح أبيض كبار حبه جدا فى قدر حب اللوبيا، فلم يجد فيه تغيرا!

ومن آثارها هيكل الملك أبرياس، وهو هيكل عظيم يضاهى أعظم العمارات

المصرية التى بناها من قبلهم من ملوك مصر، وبه قبره، ولعل هذا الهيكل هو هيكل عطارد الذى هو مدبر الحكمة، فإن هذا الهيكل من عمارات صا الحجر كما ذكره المؤرخون. وفى هذه المدينة أيضا قبر الملك أماسيس، ومما يوجد بهذه المدينة أيضا من الآثار العظيمة تمثال عظيم الارتفاع، يبلغ ارتفاعه خمسة وسبعين قدما، وهو كالتمثال الذى بمدينة منف من آثار الملك أماسيس، وقد كان أحضر الملك أماسيس لتصليح الهيكل الموجود بتلك المدينة أحجارا ضخمة زائدة فى الضخامة، بعضها من مقاطع الأحجار بطرة، وبعضها من محاجر أسوان، وهى الجافية فى الحجم.

وبالجملة فأعظم آثار مدينة صا الحجر معبد صغير، متخذ من قطعة حجر واحدة، كان قد نقله الملك أماسيس من جبال جزيرة أسوان إلى مدينة صا الحجر، واستعمل على نقله من تلك الجهة ألفين من العملة، فنقلوه إلى السفن فسارت به على النيل مسافة ثلاثة أشهر، وطوله من الخارج اثنا عشر مترا، فى عرض سبعة أمتار، وسمكه أربعة أمتار.

وكان يعمل لهذه المدينة عيد قديم حافل وموسم عظيم جامع للخاص والعام، يسمى عيد المصابيح، توقد ليلته بالوقدات العجيبة.

ولما كانت هذه المدينة غاصة بالحكمة والعلوم النافعة انجذب إليها فلاسفة اليونان، وصاروا يحجون إليها من جميع الجهات، ومنها اقتبست العلوم والمعارف أثينة مدينة الحكماء اليونانيين، على ما ذكره مؤرخوهم، بل قد دل التاريخ على أن مدينة أثينة هى مؤسسة من قبيلة مصرية، وذلك أن أسقروبس المصرى هاجر من مدينة صا ومعه فرقة مصرية، وركب البحر حتى رسا على ساحل اليونان، ودخل إقليم أثينة مع حزبه، وكان ذلك فى أثناء القرن الثالث عشر قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية، فأسس هناك اثنتى عشرة قرية، فصارت هذه القرى فيها مدينة أثينة، ورتب هناك جمعية الأحكام والقوانين، وعلم يونان تلك الناحية العلوم الدينية والفنون الزراعية وعقود النكاح وصناعة النقش والفنون المصرية، فهو المؤسس لمدينة أثينة التى هى من أعظم مدن اليونان.

وكانت هذه الدولة السادسة والعشرون مالكة عقب دولة أجنبية حسنة الفعال،

فأرادت أن تجتهد غاية الاجتهاد، وتضاعف همتها فى تشييد أوطانها، وتأييد عمائرها وبنيانها، حتى تظهر المزية، وتستبين المحبة الوطنية، التى هى من الأمور الجبلية(*)، فصنعت من العمائر بمدينتها نظير ما صنعه من قبلهم بألف سنة، ملوك الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، بمدينة طيوة، وكذلك قد جددت هذه الدولة السادسة والعشرون جملة قبور جميلة جهة العصاصيف من مدينة طيوة بالصعيد، تتميز عن غيرها بما فيها من السعة وحسن صنعة التصاوير المزينة، وكذلك وجد بطريق الاستكشاف ألواح حجرية بقبر العجل أبيس بسقارة فيها بيان جميع الآثار والعمارات التى حدثت فى عصر بعض ملوك هذه الدولة المعنونين بعنوان أبساميطيقوس، وعلم منها أن المصريين كانوا يحافظون على تقييد عنوان قبر كل عجل يعبدونه فى ضمن لوح من الحجر، ويدفنون كل لوح فى قبر عجله، وجميع تسجيل هذه العناوين بصورة توثيق واحدة يثبتون فى هذه الوثيقة الحجرية تاريخ مولد العجل وتاريخ وفاته ومدة عمره مبينا فيه السنون والأشهر والأيام، ويؤرخون ذلك من ابتداء حكم الملك الحاكم. وكذلك مما يوجد لبعض ملوك هذه الدولة آثار متفرقة بصخور أسوان ومحطة الحمامات ومدينة طيوة وبالعرابة المدفونة وسقاوة، ولكن آثارهم الكبيرة بمدينة صا الحجر، كما تقدم.

ولم يكن لها حظ فى الحروب والغزوات وفتح البلاد، فإن الملك أبساميطيقوس شرع فى فتح بر الشام، وحاصرها تسعة وعشرين سنة، وعجز عن الاستيلاء عليها، وكذلك شرع الملك نيخاوس أن يعيد ما كان للديار المصرية من اليد القديمة على بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات فلم يستطع ذلك، بل لاقاه الملك بختنصر فى مدينة كركيس، ولم ينج منه إلا بالفرار، وكذلك بعث الملك أبرياس الجنود إلى بلاد القيروان ليفتحها، فانهزموا عدة مرات، وقتل منهم خلق كثير، وقد جبر عدم فلاح هذه الدولة عنايتها بمادة التمدين، ونشر أسباب العمارة والتحسين، وفتح أبواب المدن المصرية لقبائل العرب واليونان وأهل الشام وساحل البحر الأبيض لتكثير التجارات والصناعات بالمخالطة مع الأغراب.

وقد جعل المؤرخون عدد ملوك هذه الدولة تسعا، وأنهم حكموا مائة وثمانية

(*) أى الأمور الطبيعية. (الشروق).

وثلاثين سنة، وأما ابتداء حكمهم سنة ١٢٨٧ وانتهاؤه سنة ١١٤٩ قبل الهجرة[١]، وأولهم الملك اصطفانيناطيس وآخرهم الملك ابساميطيقوس الثالث.

(ذكر ملوكها)

١	الملك اصطفانيناطيس	ثلاثة ملوك
٢	الملك ناخيوس	
٣	الملك نيخاوس الأول	

هؤلاء الملوك الثلاثة لا يعلم لهم مآثر ولا مناقب، ولا حسن مباد ولا عواقب، وإنما يقال إنهم من هذه الدولة السادسة والعشرين، ولعل مدة ملكهم كانت نحو خمس عشرة سنة، وأنها عين المدة التى حكمها أمراء الدولة الإثنى عشرية، بل ربما كان هؤلاء الملوك الثلاثة معدودين على التعاقب من عصبة هؤلاء الأمراء، والمدة واحدة، أو أنهم كانوا معاصرين لهم، فالمدة واحدة أيضا، وبالجملة فمدتهم نحو خمس عشرة سنة، وأول ملوك هذه الدولة فى الحقيقة هو الملك أبساميطيقوس الأول.

الملك أبساميطيقوس الأول[٢]

تقلد هذا الملك مصر سنة ١٢٧٢ قبل الهجرة المحمدية، ويسمى هذا الملك أيضا أبساميطيق، وهو فى الحقيقة مفتاح فخر هذه الدولة، ومصباح تاريخها، وهو صاحب الفتوح، وعلى لسان جميع الإخباريين هو المحمود والممدوح، له مآثر تاريخية فى مبانى طيوة وفى أعمدة الكرنك وفى جزيرة الصنم، مما يدل أيضا على أنه قطع من محاجرها أحجارا كثيرة، منها ما أدخله فى المبانى والعمارات ومنها ما

(١) حكمت هذه الدولة من سنة ٦٦٣ حتى سنة ٥٢٥ ق.م.
(٢) ويسمى بسمتك الأول (٦٦٣ - ٦٠٩ ق.م).

أصلح به الهياكل القديمة المحتاجة للترميمات، وفى محاجر طرة يوجد اسمه منقوشا على حجر كبير، وهذا يدل على أنه قطع أيضا من محاجرها القليل أو الكثير. وقد اعتنى بعمل تاريخه مؤرخو اليونان، لأنه أول ملك مصرى له الفضل عليهم، حيث قربهم إلى بلاده، واستمال قلوبهم بالدخول فى رياسة جماعاته وأجناده، وخالف فى ذلك عوائد من تقدمه من الدول، وخص يونان آسيا وأوروبا من بين الأجناس والملل، وأقطعهم الإقطاعات من الأراضى المصرية، وَسَوَّى بينهم فى الحقوق وبين طوائف الجنود الوطنية، وأدناهم وجعلهم من المتقربين فى المعية، وأعطاهم غلمانا من المصريين لتعلم اللسان اليونانى منهم حتى يترجموا بين اليونانيين والمصريين، ففى أيامه كثرت بوسيلة الترجمة التجارات والمعاملات، وسهل الأخذ والعطاء بسهولة المخالفات، وتأسست بالقطر المصرى العمائر التجارية، وبهذه الوسيلة عرف اليونان تاريخ مصر على الحقيقة، واستقام نقل الأخبار المصرية على أحسن طريقة، وهذه أول مرة تكلم فيها اليونان بلسانهم فى البلاد الأجنبية، لأن أول إقامة لليونان فى غير بلادهم إنما كانت فى الديار المصرية، ولما رأى همة هؤلاء اليونان، ومساعدتهم له فى أى مكان وزمان، أكثر لهم المرتبات، ورتب لهم قشلاقات ومحطات، وجعل معسكرهم بين مدينتى ننيس وبسطة فى الولاية المعتادة للجنود الوطنية، وقلد منهم رجالا وأبطالا مناصب سامية بادية، وحين غزوه ببلاد الشام أعطى دائرة المعاونة منهم وظائف تشريفية، وجعلهم على ميمنة الجنود الأهلية، فاستشاطت جنود مصر غيظا من ذلك، وصمموا على الفرار من مملكة مصر إلى غيرها من الممالك، فهرب منهم نحو مائتين وأربعين محاربا من فحول الرجال، ممن كان معدودا من كبار الأبطال، فبهذا داخل قوة مصر بعض ضعف واضمحلال، فاجتهد هذا الملك فى استمالتهم إليه، ووعدهم براحتهم حين القدوم عليه، ولم يجد ذلك أدنى فائدة، بل اختاروا الإقامة بين أظهر الأجانب، وبقيت هذه الجنود على ما كانت عليه شاردة آبدة، فأقطعهم مَلِك النوبة بعض أراضى ليتعيشوا فيها، فتوطنوا هناك بموطن يسمى دار المصريين المهاجرين.

فلما أيس منهم ملك مصر قوى روابط المحبة مع الأجانب، وأكثر ما استطاع من جلب العساكر الأجنبية من عرب وغيرهم، وغرضه الأصلى من ذلك أن يأمن من

هجوم الأغراب، مثل العجم، فلم يفهم أهل مصر ذلك، وحقدوا عليه باطنا، فأكد الروابط بينه وبين الكهنة ليطمئن من جهتهم، فأجرى العوائد والصلات على المعابد والهياكل، وأنفق عليها النفقات الجزيلة، وبنى فى منف ضلعا من هيكل النار، وشيد هيكل مغلف العجل أبيس المنتظر الظهور بعد العجل أبيس الذى نفق بالموت، على عادة ذلك الوقت، واشتغل بالتراتيب الملكية، والتنظيمات الإدارية، وتكثير الإيرادات المالية، بشمول أنظاره على التجارات الخارجية، وجدد معاهدات تجارية بينه وبين اليونان والصوريين، فبهذا صارت مصر مركزا لتجارة الأمم والملل، وتكاثرت الأسفار البحرية والبرية ذهابا وإيابا، مع كمال الأمنية على النفوس والأموال، فصار لا يقتل الغريب القادم على مصر ولا يستعبد كالسابق، حتى إن المعاهدة مع الصوريين عادت على مصر بالغنى والثروة، لأنهم(*) لهم التقدم فى التجارة والملاحة، إذ كانت مملكة صور مخازن جميع الدنيا، وكانت ميناتها وسواحلها مطمعا لفتوح المصريين، ومطمحا لأنظار ملوكهم الأقدمين، فانتهى الحال بهذا الملك أن أضمر فتوح بلاد الشام، وحاصر بعض قلاعها، واستولى عليه بعد تسعة عشر من الأيام.

وقد طال عمر هذا الملك، الذى كان يلقب بشمس الملة، وسليم الجبلة، فمات سنة ١٢١٧ بعد أن حكم نحو أربعة وخمسين سنة، وأبقى سيرته مستحسنة، وترك لابنه، نيخاوس الثانى إتمام المشروع، وهكذا ما ابتدأته الأصول يكون تتميمه على الفروع.

الملك نيخاوس الثانى المسمى فرعون الأعرج[1]

تولى مصر بعد موت أبيه فى نحو سنة ١٢١٨ قبل الهجرة النبوية، فاستدام حرب الشام، وهزم جند عدوه، واستولى على جميع ديار الشام، وكان قد أعد لذلك سفنا بحرية وترسانة مصرية بقيت آثارها إلى زمن أسفار هردوطس فى مصر،

(*) كان الأولى أن يقال: (.. لأن) بدلا من (لأنهم). (الشروق).

(١) ويسمى نكاو (٦٠٩ـ٥٩٤ ق.م).

فكان هجوم هذا الملك على الشام برا وبحرا، وقصة ذلك مفصلة فى التوراة فى السفر الثانى من كتاب الملوك، وملخصه أن فى أيام يوشيا، ملك يهوذا، سار نيخاوس، ملك مصر، إلى نهر الفرات لحرب ملك تلك الجهة، فذهب الملك يوشيا نحوه ليقاتله، فقال له فرعون اذهب عنى ليس إليك جئت، فلم يسمع منه يوشيا، فضربه فرعون بسهم فى الترقوة فقتله فى مجدلة حيث أبصره هناك، وقبر فى أورشوليم، فاختار اليهود ولده ياهوحاز، ويسمى يواش، وملكوه عليهم، فأقام ملكا بأورشوليم ثلاثة أشهر، فأساء فى الحكم وعطل أحكام التوراة فأسره نيخاوس ملك مصر عند مدينة حماة لما تملك على أورشوليم، وولي بدله أخاه الياقيم ملكا عليها، ويسمى أيضا يوياقيم، واستصحب فرعون ياهوحاز ودخل به إلى مصر أسيرا إلى أن مات هناك فى أسره. وكان فرعون ضرب على أورشوليم، وهى مملكة يهوذا، خراجا مائة قنطار من الفضة وعشرة ذهبا، فصار يعطيها يوياقيم لفرعون، حيث كانت تؤخذ من البلاد باسم فرعون، ويجمع من الأهالى على قدر أحوالهم، وفى أيام يوياقيم المذكور تولى بختنصر ملك بابل، فتملك على أورشوليم، وانقطع حكم فرعون مصر عنها، ولم يعد أيضا ملك مصر للخروج إلى الشام، ولم يتطلب خراجها، لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات جميع الذى كان لملك مصر. انتهت عبارة التوراة.

وقد ذكر مانطون أن مدة حكم نيخاوس كانت ست سنوات، فهل هذه المدة توافق ما فى التوراة؟ وهل نص التوراة يعضدها؟ الجواب عن ذلك: أن الملك نيخاوس الثانى هزم يوشيا وقتله فى الواقعة المذكورة، وتولى بعده الملك ياهو حاز، وحكم ثلاثة أشهر فقط وعزل وقبض عليه أسيرا، وتولى بعده يوياقيم أخوه، وفى السنة الرابعة من حكمه على أورشوليم خرجت بلاد الشام من حكم الملك نيخاوس عقب الهزيمة التى حصلت له على نهر الفرات، حيث ظهر عليه بختنصر واقتفى أثره إلى أن أدخله فى مصر، حد ملكه، فموته عقيب هزيمته وعوده من الشام يؤيد صحة هذه المدة التى حكاها مانطون.

* * *

وبمناسبة ذكر بنى إسرائيل هنا لا بأس بذكر نبذة تتعلق بهم، فنقول: هذه الأمة هى بيت النبوة ومعدن الرسالة من بنى آدم، وجمهور الأنبياء عليهم السلام منهم، وكانت مساكنهم ببلاد الشام، وبها كان ملكهم الأول والآخر إلى أن أجلاهم عنها المرة الأخيرة طيطوس، الملك الرومى(1)، ومزق ملكهم وبدد جمعهم، فتقطعوا فى البلاد أيدى سبأ، وتفرقوا فى أقطارها شذر مذر، فليس فى معمور الأرض مملكة إلا وفيها منهم، فهم منشورون فى مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها، ولم تخل منهم إلا الحجاز، فإن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أجلاهم عنها لأمر النبى، ﷺ، بذلك، بقوله: «لا يبقين دينان بجزيرة العرب». ولم يشتهروا إلا بالعناية بعلوم الشرائع وسير الأنبياء، فكان أحبارهم أعلم الناس بأخبار الأنبياء، وعنهم أخذ ذلك علماء الصحابة، كعبد الله بن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، ولم يشتهر علماء اليهود بعلم الفلسفة، ولكن ربما كان فى أيام دولتهم من عنى منهم ببعض علوم فلسفية، وقليل ما هم، وإنما يعلم أن لهم حسابا دقيقا فى تاريخ تشريعتهم ومعاملاتهم، لكن لا يعلم هل هو من نتائج عقول علمائهم أو رتبه لهم بعض العلماء من غيرهم، فلما تفرقوا فى البلاد بعد ذهاب دولتهم، وداخلوا الأمم، تحركت همم قليل منهم لطلب العلوم النظرية، واكتساب الفضائل العقلية، فقال أفراد منهم ما شاءوا من فنون الحكمة.

* * *

ويفهم مما تقدم أن نيخاوس لما ظهر عليه بختنصر واقتفى أثره من الفرات إلى أن أدخله مصر، التى هى آخر حدود ملك بختنصر، مات هذا الملك حتف أنفه عقب هذه الهزيمة، بعد دخوله مصر، بدون أن تقع مصر فى قبضة بختنصر ولا دخلت فى حكمه المذكور، خلافا لما ذكره بعض المؤرخين من إنه دخلها ودمرها وقتل ملكها وافتتح بلاد المغرب، وخلافا أيضا لما قالوه من أنه ملك الدنيا بأجمعها، والآية الشريفة تدل على إنه كان مسلطا على بنى إسرائيل جزاء لهم على اختلافهم

---

(1) هو الإمبراطور الرومانى «تيش، فلافيوس سابينس فسبازيانس» (٤٠ ـ ٨١م) ولقد شارك أباه فى الحكم بعد سنة ٧١م.

وظلمهم، فقد قال تعالى: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** ﴾ (الإسراء: ٤، ٥) يعنى بختنصر وأصحابه (**فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا**).

وقال بعض المؤرخين: إن فرعون الأعرج، يعنى نيخاوس، كانت له حروب وسير فى الأرض، وهو الذى غزا بنى إسرائيل وخرّب بيت المقدس مرة قبل بختنصر.

وبالجملة فمن تشبثه بالحروب، وسيره للغزو بالجنود الكثيرة، وتعميره للسفن الحربية بقصد الفتوحات، يفهم أن همته فى ذلك كانت كهمة أبيه كبيرة، وإنما لم تساعده المقادير ولا صفت له الأوقات.

ولم يكن جهده مقصورا على الأشغال الحربية، بل كان كأبيه له عناية بتدبير داخل المملكة وتحسين أحوال الرعية، وتوسيع دائرة التجارة، فتواتر فى أيامه الاختلاط بالأجانب، وتشعب فروع المعاملات، وسهل الأخذ والعطاء بواسطة التعارف والتخاطب والترجمة، فاستدعى الحال، لتشبث هذا الملك بمشروع جسيم سنح بباله، وسمح به دهره له دون أمثاله، وهو وصل بحر القلزم بالبحر الرومى بقطع برزخ السويس بترعة موصلة للنيل على امتداد أربع مراحل بحرية، عرضها يسع سفينتين متحاذيتين، مبدأ هذه الترعة من مدينة بسطة وآخرها بركة التمساح، حيث ماء بحر القلزم كان مجراه بالقرب من ذلك، فشرع فى هذا المهم الجسيم، فهلك فى أثناء هذه العملية مائة وعشرون ألف نفس، على ما حكاه هردوطس، فأوقف هذا الملك هذه العمليات، لا سيما وقد أخبره بعض الكهنة أن هذا العمل يكون حظ الانتفاع به لدولة أجنبية، وقال أرسطاطاليس: إنما ترك نيخاوس وغيره من الفراعنة عملية الترعة بعد أن ابتدؤوها لما أفادهم المهندسون أن سطح البحر الأحمر أعلى من أرض مصر، فلهذا لم تنته العملية إلا إلى بركة التمساح المسماة بالبحيرات المرة.

وقد شرع دارا الأكبر ملك الفرس فى فتحه، ولكن ترك العمل خوفا من إغراق

البلاد بسبب ارتفاع سطح البحر الأحمر على أرض مصر، ثم تممه الملوك البطالسة وأوصلوه إلى البحر الأحمر، واستعانوا على سلامة الأراضى المصرية من التلف بأبواب وأقفال ورياحات، فكان نافعا للتجارات، ثم طم(*) وبقى مسدودا إلى فتوح مصر بالإسلام حتى أمر بفتحه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، ثم سد فى زمن المنصور الدوانقى العباسى(١)، ولم يزل فى بال الدولة العلية فتحه، والآن صار التشبث بذلك بعناية الحكومة المصرية، وبهمة مولى مصر حضرة إسماعيل باشا ينتهى إنجازه على صورة مرضية، مع حسن الروابط التجارية والسياسية الاحتراسية التى لم تخطر ببال سلفه.

ومع أن الملك نيخاوس أبطل إشغال الترعة السويسية، التى هى مقصد فخيم فى المنافع المصرية، فقد اجتهد فى مقصد آخر شريف، ومطلب سام منيف، له فائدة قوية على المصالح التجارية، وهو الشروع فى معرفة محيط قطعة(٢) إفريقية والوقوف على مسالكها البحرية على وجه الحقيقة، فكلف البحريين من أهل صور، والملاحين منهم ممن لهم خبرة بالبخور، على ممر الدهور والعصور، وحملهم على أن يرتحلوا من خليج العرب وأن يعودوا من بوغاز سبتة(٣)، وأن يستكشفوا البحار والبرور والجزائر لبلوغ الأرب، فتوجهوا بعدة سفائن من بحر القلزم، واخترقوا البحر المحيط الهندى، واستكشفوا المسالك المجهولة فى تلك الأزمان، ومروا بالرأس المسمى رأس يونس برانس، يعنى رأس عشم الخير(٤)، واقتفوا فى مسيرهم سواحل غرب إفريقية حتى وصلوا إلى بوغاز طارق، المسمى بحر الزقاق، ومنه دخلوا إلى البحر الأبيض المتوسط، حتى وصلوا إلى بر مصر.

(*) طم: أى ردم وسوّى بالأرض. (الشروق).

(١) هو أبو جعفر عبد الله (المتوفى سنة ٧٧٥م) ثانى خلفاء الدولة العباسية، ومؤسسها الحقيقى، حكم من سنة ٧٥٤ حتى وفاته سنة ٧٧٥م.

(٢) قطعة إفريقية، أى: قارة إفريقية.

(٣) سبتة ميناء ببلاد المغرب، ممتدة فى البحر، مقابل إسبانيا (الأندلس). انظر (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) لصفى الدين البغدادى، تحقيق على البيجاوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤م.

(٤) أى رأس الرجاء الصالح.

وبالجملة فقد أنجزوا هذا السفر، وعادوا بعد نحو ثلاث سنوات، وحرروا بالتحرى ما ظهر لهم من الأماكن والمسافات، فبهذا علمت سواحل إفريقية وما حولها من البحار على وجه الصحة، ولكن غاب عملها عن العقول، وتناسى الناس عليها حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا بالمرة.

وقد حكم هذا الملك ست سنوات، على رواية مانطون، ومات فى سنة ١٢١١ .

الملك أبساميطيقوس الثانى(١)

هذا الملك يسميه المؤرخون أبساميس، صعد على سرير مصر بعد الملك نيخاوس سنة ١٢١١، وحكم ست سنوات، ولو أن بعضهم جعل مدة حكمه أكثر من ذلك، وغزا بلاد النوبة، ومات فى رجوعه من الغزوة فى سنة ١٢٠٥ وسيأتى أن إحدى بناته تزوجت الملك أماسيس، المغتصب للمملكة المصرية، وأنها ولدت منه ولدا سمى باسم جده، وتولى ملك مصر بعد أبيه أماسيس.

الملك أبرياس(٢)

تولى هذا الملك سنة ١٢٠٥ قبل الهجرة، ويسمى فى فهرسه مانطون: فبريس، ويسمى فى التوراة: خفرى، بالخاء والحاء، ويسميه هردوطس: أفريس وفى التوراة أنه استنجد به صدقيا، ملك يهوذا، على بختنصر، ولم تنفع إغاثته بشىء، فإن بختنصر ذبح أولاد صدقيا أمام أبيهم، ثم فقأ عينى صدقيا، وسلسله وحمله إلى بابل، وسجن فيها إلى أن قتل صبرا، كما سيأتى.

وقد بعث أبرياس بعد ذلك بعوثا لغزو بلاد القيروان، ولكن لم ينتصر فيها أيضا، بل كانت الهزيمة على جنوده، وانتهى أمر عسكره أن رفعت راية العصيان، فأرسل إليهم أبرياس أماسيس ليخمد نار هذه الفتنة ليرجع الجنود عن العصيان،

---

(١) ويسمى أبسامتيك الثانى (٥٩٥-٥٨٩ ق.م).
(٢) ويسمى إيديس (٥٨٨-٥٦٨ ق.م).

فذهب أماسيس إلى المعسكر، وكان من أبطال جند أبرياس، وأراد أن يعظهم وينصحهم عسى أن يعودوا للطاعة، فبينما هو فى أثناء ذلك إذ أحاط به أحد الجنود وألبسه خوذة فى رأسه كالتاج، وصاح بأعلى صوته: قد رضيناك ملكا علينا، فلم يمتنع أماسيس من قبول ذلك، وسار على رأس الجند لقتال أبرياس، ولم يكن فى صف أبرياس إلا الجنود الأجنبية المجمكة[1]، فتلاقى الصفان عند مدينة منوف السفلى، والتحمت المعركة، فكانت عساكر أبرياس المجمكة تقاتل بغاية من الشجاعة والهمة، ولقلة عددهم انهزموا شر هزيمة، ووقع أبرياس فى قبضة خصمه أماسيس، فسار به إلى مدينة صا، وحبسه فى القصر العظيم الذى كان يسكنه قبل وقوعه فى الأسر، وأحسن فى حقه الصنيع، وعامله أحسن المعاملة، وأظهر له مكارم الأخلاق، وحفظ ناموسه.

ولكن قد اغتنم جنود مصر ما حصل لهذا الملك من الضيم والذل بالعزل والسجن، مع ما كانوا عليه من الحنق والغيظ لكسر أنفهم بإغرائه العساكر الأجنبية عليهم، جبروا الملك أماسيس على أن يسلمه لهم، فبمجرد ما قبضوا عليه قتلوه خنقا فى سنة ١١٩٢، بعد أن حكم نحو اثنتى عشرة سنة.

الملك أماسيس[2]

تولى هذا الملك سنة ١١٩٢ تقريبا قبل الهجرة، وقد سبق أن تقليده ملك مصر كان بانتخاب الجنود، وفى مبدأ أمره لم يكن لأهل مصر عظيم احترام ولا مزيد اعتبار فى حقه، لأنه لم يكن ذا حسب رفيع ولا نسب عريق، ولكن سلك مسلك الحزم والكياسة، وذهب مذهب حسن التدبير والسياسة، فقام شأنه وعظم سلطانه، ولما استشعر بما خطر فى بعض النفوس من اعتقاد ضعته وخسة حسبه،

---

(١) من الجامكية، وهى النقود المرتبة للجند، والمراد الجنود النظامية ذوات الأجور المستحقة فى مقابل الجندية.

(٢) وهو أحمس الثانى (٥٦٨ - ٥٢٦ ق.م).

جمع محفلا عاما وتمثل فيه بإناء من ذهب كان مستعملا فى استعمالات العادة، ثم استحال إلى أن صار تمثالا للعبادة، فعظم حينئذ محله فى النفوس، وصار مَرعى الحرمة والناموس.

ولما كان هذا الملك ذكى الفطنة، جيد القريحة، أحسن تدبير الملك، مع القيام بحظوظ نفسه وتوفيته بملاذها الصحيحة، فوفق بين مصلحته الخصوصية ومصلحة مملكته العمومية، فقد قال ذات يوم لأخصائه: أما علمتم أن القوس لا يؤثر إلا عند الحاجة، ويرخى متى فرغ القصد منه حيث أنتج الشد إنتاجه، وهكذا الإنسان، إذا انهمك على شغل جسد صعيب فلابد أن يعطى لنفسه الراحة، ويبلغها من الحظ ما تستروح به، وبه تستريح إليه كمال الاستراحة، وإلا أن استدامت على الجديات داخلتها الحماقة والغفلة على تداول الأوقات، واستعدت للوساوس والجنون، وصارت غير قابلة لإدراك السر المصون.

وقد بالغ المؤرخ هردوطس فى مدح هذا الملك حتى جعل أيامه أعظم من أيام مَن سواه من الملوك، وأن مصر لم تخصب فى أيام غيره كخصبها فى أيامه الهنية، ولم يفض النيل على مصر بالخيرات فى مثل أيامه، ولا صارت قبله كما فى عهده مربعة غنية، حتى قيل إن مدن مصر بلغت فى عهده عشرين ألف مدينة عامرة. والظاهر أنه معدود منها الكفور والقرى التى كانت زاهية زاهرة كالمدائن، بل الظاهر أن هذا من مبالغة المؤرخين كما هو العادة.

وقد أخذ هردوطس حصر هذا العدد من أمناء الدين بمصر والكهان، وكانوا يحبون المغالاة والإطراء فى مدح مصر فى أيام العجم ليظهر بذلك فخرها فى عهد ملوكها المتأصلين، لنكاية هؤلاء الملوك الأجانب، وللتمدح لما سبق لملوك الوطن من الرغائب والغرائب، وكان من أعظم أسباب ثروتها أيضا التجارات العظيمة، لا سيما مع أمم اليونان، فإنهم كانوا فى ذلك الوقت عندهم حركة التجارة والصناعة مما تحصلوا عليه بمخالطة المصريين، ولذلك كان هذا الملك دائما مساعدا لليونان، شاملا لهم بأنظاره الخصوصية، فقد رخص لهم الاستيطان بالديار المصرية فى مدينة نفراطيس، التى محلها الآن بندر فوة، على قول بعضهم، وبعضهم يجعل محلها

كوم نكراش[1]، وجعل محلها العالم الفلكى محمود بك، بالاستظهار، نقرة بجوار دمنهور البحيرة، لقرائن أثرية دلته على ذلك. وقد أباح لهم أن يتمسكوا بأصول ديانتهم، وأقطعهم أراضى مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهياكلهم ومذابحهم على اختلاف طوائفهم وأديانهم ومذاهبهم، وعقد مع حكومة أثينة معاهدة، واستولى على جزيرة قبرص وأضافها إلى مملكة مصر، ولم تكن قبل ذلك دخلت هذه الجزيرة فى حكم مصر ولا أضيفت إلى إيالاتها إلا هذه المرة، وعقد أيضا المعاهدات مع أمم أخرى، كأمة القيروان بإفريقية.

وكان له مخاطبات ومراسلات مع الملوك الأجانب، وقد بقى فى التاريخ مراسلته إلى ملك جزيرة صيصام المسماة سيموس[2] ينصحه فيها بنصيحة خيرية اقتضاها الحال، بقوله: لا تأمن صروف الزمان، بل تجهز لنوائب الحدثان، واقنع النفس بالزهد فى الدنيا عن اتباع هواها، واعصها ولا تبلغها بالتشهى مناها. فبمجرد وصول هذه النصيحة إلى الملك المذكور كان بأصبعه خاتم جوهر نفيس، لا يؤثر عليه شيئًا من زينة الحياة الدنيا، فألقاه فى اليم، حيث عزم على الزهد وصمم، ولكن سعد هذا الملك القائم، جمعه فى أقرب وقت بهذا الخاتم، وذلك أنه ابتلعه حوت عظيم وقع فى شبكة صائد، وحكم أن هذا الحوت يصلح لمائدة هذا الملك دون غيرها من الموائد، فوجد الملك الخاتم فى جوف الحوت، ففهم منه أن الأشياء سعود وبخوت، ومع ذلك فقد دارت فى الأواخر دوائر الزمان على كل من الملكين، وصح مضمون ما فى الرسالة من العنوان، فالعبرة إنما هى بالخواتيم والعواقب، ولا أمن لأحد من صروف الدهر والنوائب.

وكان للملك أيضا مراسلات مع سولون[3]، حكيم اليونان، وكانت المخاطبة بينهما متواترة لاقتباس الفوائد والعرفان. فلهذا كان لهذا الملك ذكر فى محفوظات

---

(١) أى نوكراتيس (النقراش)، انظر الخريطة الملحقة بالجزء الأول من المجلد الأول من (الموسوعة المصرية)، وهى الخاصة بالقنوات المائية الرئيسية كما حددها بطليموس ـ انظر بها الإقليم رقم ٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.

(٢) تجاه الساحل الأسيوى للبحر المتوسط.

(٣) هو أبسامتيك الثالث (٥٢٦ ـ ٥٢٥ ق.م).

الأفاضل، فكان تاريخه قائم البرهان والدلائل. وقد تزوج بنتا، من بنات أبساميطيقوس الثانى، تسمى عنق ناس، اصطفاها من العائلة الملكية ليؤسس لنسله منها دولة صاحبة حق على أمكن أساس، فولدت له ولد أسماه أبساميطيقوس، بأسماء جدوده، وتوسم فيه أن يكون خليفته وولى عهده.

وقد مات هذا الملك بعد أن حكم أربعا وأربعين سنة، على ما ذكره المؤرخون، وعضده مع ما وجده مرسوما على الهياكل والمبانى الباحثون، وإن كان على موجب ما فى الجدول لم يعط له من الحكم إلا نحو خمس وثلاثين سنة، وخلفه ابنه، وتلقب أبساميطيقوس الثالث، ومدة حكمه كانت فى تاريخ هذه الدولة السادسة والعشرين مدونة.

الملك أبساميطيقوس الثالث

هذا الملك هو آخر ملوك الدولة الصاوية، وهو تاسعهم، ويسمى عند المؤرخين وفى فهرسة مانيطون تارة أبسامقريطس، وتارة أخرى أبسامينيطس، ومرسوم على المبانى باسم أبساميطيقوس وأبساميطيق، باسم أجداده لأمه، ولم يذكر التاريخ له شيئا من المناقب إلا كونه زال فى زمان حكمه مُلْك مصر عن الفراعنة، وانقرضت فى أيامه دولتهم، وإنه حكم ستة أشهر، بحيث لا يكاد يعرف له أمر ولا نهى، ولا يكاد يستشعر بتملكه.

وقد اقتضت صروف الزمان بتملك دولة العجم للمملكة المصرية بعد غزوة مجهزة مدة سنين، آل أمرهم فيها إلى هزم آخر فراعنة المصريين، وانتقال الملك إلى دولة العجم سنة ١١٤٩ قبل الهجرة، بعد حكم الدولة السابقة مائة وثمانية وثلاثين سنة.

الفصل العاشر

فى ملوك الدولة السابعة والعشرين

وهى دولة العجم، وتسمى دولة الفرس

عدد ملوك هذه الدولة ثمانية، ومدة ملكهم مائة وإحدى وعشرون سنة، وابتداء ملكهم سنة ١١٤٩ قبل الهجرة.

وبيان ذلك إنه قبل انقراض الدولة السابقة بنحو اثنتى عشرة سنة كان ظهر فى آسيا الغربية أمة خاملة لا ظهور لها ولا ديانة، وإنما هى أخلاط ناس، فاجتازت نهر الرس هائمة لا تدرى أين تتوجه، وانضم إليها قبائل مثلها من البلاد المجاورة لحدودها، وسارت جهة الشمال الغربى من آسيا، تحت قيادة قائدها كيروس، ويسمى كورش ليس[١]، من بيت الملك، وهو كسرى الأول من ملوك الفرس، ولا يصدها فى طريقها أحد ولا يمنعها مانع، وكان كورش رئيس جميع هذه القبائل والطوائف، ومصحوبا بعباد المجوس، وكان ضباط هذا الجيش من أمراء الفرس الكينية[٢]، وكانت الطائفة المقدمة على غيرها من طوائف هذا الجيش طائفة الفرس، فعدى كورش بجيشه الجرار نهرى دجلة والفرات، وجعل معسكره فى إقليمى خوزستان والعراق، واستولى على المدينتين العظيمتين وهما خوزست

---

(١) المتوفى سنة ٥٢٩ ق.م. ويعرف بـ قورش العظيم، تمييزا له عن قورش الصغير الذى توفى سنة ٤٠١ ق.م.

(٢) الكينية: لم أعثر لها على معنى.

وبابل، ثم تغلب على بلاد الشام بدون ممانع، وضرب الخراج على ملوك الشام، وجعل على أهل الشام مغارم فى نظير ترخيص استدامة التجارة لهم ببلاد الجزيرة بين دجلة والفرات، وصارت الشام فى أيام كورش إيالة من إيالات العجم، فما مات كورش إلا وجنوده كانت مشرفة على الاستيلاء على مصر، فتولى ابنه قنبيشاش المسمى كمبيز أو قمبسيوس على مملكته، فسار على سيره فى الحكم والإغارة وتتميم مشروع أبيه وفتوحاته، فهجم على مصر هجوم السيل على الأباطح، فأغرقها فى بحر ظلمه وعسفه وبدّل العمل الصالح بالطالح، وسمى بختنصر الثانى.

ولعل هذا معنى قول المؤرخين: إن بختنصر خرب مصر، مع أن بختنصر الجبار، ملك الموصل، لم يحكم مصر ولا خربها، كما تقدم، وسيأتى لذلك بعض بيان.

والسبب المعقول لإغارته على مصر أن أمة العجم المتبربرة كانت اتخذت فى أيام أبيه الحروب والإغارات ديدنا، وكانت تتقلب فى البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ولما وجدت مغانمها فى ذلك التنقل صارت تبحث فى طريقها عن الغنائم والمكاسب، وكان إذ ذاك صيت غنى مصر وخصبها يطمع فيها الأطماع الأجنبية فعزم قنبيشاش على أن يتغلب عليها مستعينا أيضا بجنود أبيه المتجمعين من جزائر اليونان ومن بلاد أناضلى[١] ممن كان يتبع أباه فى الحط والترحال، ولما كانت فى طريقه قبائل العرب، وكان يخشى الإعاقة منهم، عقد معهم عقد محالفة استأمن به فى طريقه، فسار على مصر من جهة الفرما[٢]، حيث كان ملك مصر ناصبا معسكره هناك لملاقاته ومدافعته، فهجم ملك العجم على جيوش ملك مصر فهزموا، وهرب ملك مصر حتى لحق مدينة منف، فأرسل إليه قنبيشاش، ملك العجم، سفراء ليتكلموا معه فى شأن تسليم مصر صلحا فقتلهم، فسار هذا الملك لقتاله فثبت أمامهم مدة طويلة، ثم آل الأمر إلى أن سلم ملك مصر لخصمه بعد أن

---

(١) أى الأناضول.

(٢) فى الطريق الساحلى، بشبه جزيرة سيناء، إلى فلسطين، على البحر الأبيض المتوسط، وكان اسمها القديم بلوزيوم.

فارقه أتباعه، ومن هذا الوقت انتقل مُلْك مصر من أيدى أهلها إلى قبضة العجم، وقام السفه والجهل مقام الرشد والتمدن، وكان هذا هو مبدأ الدولة السابعة والعشرين كما سبق.

ويقال إنه حصل لإبستاميطيقوس الثالث غاية الذل والهوان، ويقال إن قنبيشاش أمر بقتله فلم يظهر التألم ولا التأثر من ذلك، بل قال: إن هذه المصائب أحقر من أن يتأثر بها عاقل، فاتعظ بذلك ملك العجم ومن معه، حتى قال بعض المؤرخين إنه رثى لملك مصر ورق لحاله، وهم بأن يرجع له الحكومة، ويجعله نائبا عنه، لولا أن هذا الملك امتنع من ذلك، وقال: الموت ولا النيابة، فرماه بعض أعدائه بدسائس خفية، وأنه مضمر للفتنة وتقويم الأمة المصرية على العجم، فحكم عليه بالقتل، وسقاه دم ثوره فشربه ومات بعد ذلك، وتمكن قنبيشاش من المملكة بموته.

الملك كمبيز، المسمى قنبيشاش، ويسمى قنبسيوس وقد سمى نفسه بختنصر الثانى[1]

هذا الملك هو رأس الدولة السابعة والعشرين، حكم مصر حكومة عسكرية صعبة، ومن كان معه من عباد المجوس عاشوا فى معابد مصر وهياكلها وأضروا بدين أهلها، مع ما صنعه هذا الملك بعد غزوتيه فى سيوة والنوبة من نبش قبر أماسيس وضربه، وقتل كهنة المعابد فى موسم العجل أبيس.

وقد ذكرنا سبب مجيئه فى مصر وحقيقته، وبينا إنه هو الصحيح، وقد نقل مؤرخو اليونان فى شأن ذلك أقاويل مطروقة للعامة مما يخترعه الحكويون من النوادر التى لا يليق بمنصب المؤرخ ذكرها واعتمادها، فمنها أن قنبيشاش كان طلب من أماسيس فرعون مصر بنته للبناء بها فأرسل إليه أماسيس بنتا من بنات أبرياس، فكشف هذه الحيلة، ووجدها ليست كفؤا له، فحقد عليه فى ذلك وغزا مصر لينتقم من ولده، وقيل إنه طلب منه حكيما كحالا ماهرا فأرسل إليه كحالا من مصر

(١) ولقد حكم قمبيز من سنة ٥٢٥ حتى سنة ٥٢٢ ق. م.

فادعى الكحال المذكور أنه من المبغوضين عنده، وأن هذا الملك انتهز هذه الفرصة فى نفيه من القطر المصرى، فأغرى هذا الحكيم قنبيشاش على قتاله، وقيل إن كورش أبا قنبيشاش كان تزوج بإبنة أبرياس، وأن قنبيشاش ولدها فهو سبط الملك أبرياس، فلما كان أماسيس غاصبا لمملكة جده أراد قنبيشاش أن ينتقم منه، وقيل إن المرأة التى أخذها أبوه من مصر لم تكن إلا سرية من المحاظى المصرية، فكانت مضارة لأمه، فهذا أوجب حقده على مصر وإغارته عليها، وقد سبق ذكر السبب الحقيقى. وهذا كله يدل على أن قدماء اليونان كانت طباعهم، كغيرهم من أهالى هذه الأزمان الحديثة، يميلون إلى التقاط الخرافات العجيبة والأباطيل الغريبة، فتصديق الأمور الغير المعقولة قدر مشترك بين أمم سائر الأزمان القديمة والحديثة.

والصحيح الذى ينبغى أن يعتمد عليه فى ذلك هو أن الملك قنبيشاش لما وصل إلى الديار المصرية فى عهد أبساميطيقوس الثالث التقى جيش العجم وجيش مصر عند مدينة فرما، فبعد التقاء الصفين والمكافحة من الجانبين ظفر ملك العجم بملك مصر، فبدد شمله، ودخل الديار المصرية واستولى عليها عنوة، وصورها إقليما من مملكة العجم سنة ١١٤٩ قبل الهجرة، وأقام بها أولا مدة خمس سنوات لم ينتهك لها حرمة، بل حفظ ذمتها وأبقاها على عبادتها، وأظهر علو الهمة والشفقة والرحمة، حيث قرب إليه أمناء الديانة المصرية ليتعلم منهم ما اشتهروا به من العلوم والحكمة، ثم شرع هذا الملك فى ثلاث غزوات فى آن واحد، حيث أرسل غزوة بحرية لحرب جمهورية قرطاجة بالمغرب، وجهز لذلك سفنا قبروصية وسفنا صورية، فخابت هذه الغزوة لوقوع الاختلاف بين الفريقين، لا سيما وأن الصوريين هم الذين عمرت قبائلهم مدينة قرطاجة وأسست مملكتها، فكان بين القرطاجيين والصوريين علاقة القرابة، فكان لا يمكنهم رفع السلاح على أقاربهم، فانهزمت عساكر البحرية ببلاد إفريقية، ورجع جيشه مذموما مخذولا.

وكانت الغزوة الثانية فى بلاد النوبة الغربية. وبيان ذلك إنه بعث قبل الحرب نحو النوبة سفراء من وادى الكنوز يحسنون لغة النوبة، وكانت(*) رجال النوبة حسان

(*) كان الأولى أن يقول المؤلف (وكان رجال النوبة.. الخ). (الشروق).

الخلقة طوال القامات، غلاظا شداد، أذكياء العقول، معروفين بعلو الهمة والشجاعة، وإنما يهملون الفنون التى بها يكمل تمدنهم، لاعتمادهم على قوة أجسامهم وصلابة أبدانهم، وكان مما يزيدهم بسطة فى الجسم والثبات قناعتهم فى المطاعم والمشارب، فلهذا كانوا أطول الناس أعمارا، فكثيرا ما كان يعيش الإنسان منهم مائة وعشرين سنة، فلم يكن سفراء قنبيشاش فى الحقيقة نحوهم إلا عيونا وجواسيس ليرودوا البلاد ويستكشفوا أحوالها، فعرف النوبة منهم ذلك، ولكن رحبوا بهم وعاملوهم أحسن المعاملة، ولم يظهروا أخذ الحذر منهم ولا الاحتراس، وكان مع هؤلاء الرسل هدايا لملك النوبة من المصنوعات الذهبية، والحلل الحمر الأرجوانية، والعطريات ذات الروائح الذكية، وأنبذة التمر المنبهة للشهية، فأعجبهم كل الإعجاب من هذه الهدايا هدية الشراب، فأرادوا مكافأة الملك على هديته السنية فأتحفوه بقوس أوتره ملكهم بمحضر من سفراء قنبيشاش، وقال ما مضمونه: إن ملك النوبة ينصح ملك العجم أن لا يحضر إلاّ بنفسه لحربنا على كثرة جنودنا ولا يكون حضوره إلا إذا قدر هو أو أحد من العجم أن يوتر قوسا عظيما مثل هذا القوس وحده كما أوترته وحدى فى أقرب وقت، وفى أثناء المسافة التى لم يكنه فيها تعليم ذلك فليحمد الإله المعبود حيث لم يرزق النوبة الطمع فى المسير على بلاد العجم والاستيلاء على ملكهم أ هـ.

فلما نقل لملك العجم هذا الجواب حنق كل الحنق، وسار يطلب بلاد النوبة هائجا مسلوب الحواس، لم يعتن بتنظيم جيشه ولا باستحضار ذخائره، ولا بإيجاد ضبط ولا ربط بين عساكره.

وبمجرد وصوله إلى مدينة طيوة بصعيد مصر قطف فرقة من جيشه تبلغ خمسين ألف نفس وأرسلها إلى واحات سيوة، ولم يكمل غزوته. وقيل إنه سار بعض مراحل فى الصحراء التى بين مصر وبلاد السودان فنفد زاده، فبادر بالرجوع، ولم يقنع من الغنيمة بالإياب، بل قصد غزو الواحات المسماة واحات آمون، القريبة من جبال برقة، وهى واحات سيوة، بقصد استعباد أهلها، وهدم هيكل المشترى الموجود بها، المسمى هيكل آمون، حيث هو معبد يزار ويحج إليه الناس، فبينما هم

فى أثناء الطريق، بعد مسير عدة مراحل فى الفلاة، مرفقين معهم خبراء، فخانهم الرفيق، وأضلهم عن الطريق، حتى نفذت(*) أزوادهم ورواحلهم وتاهوا فى صحارى تلك الجهة إذ هب عليهم ريح السموم، فأهلكهم عن آخرهم بإغراقهم جميعا فى بحر الرمال، ولم ينجح منهم أحد.

وقيل إن هذه الغزوة كانت قبل غزوة السودان، وإنه قد سار ببقية جيشه إلى النوبة، فلما وصل إلى خمس مسافة الطريق نزل بجيشه القحط والمخمصة، حيث لم يكن احترس على ما يكفى من الزاد، فكانت عساكره فى أول الأمر تأكل حيوانات الحمل والشبل، فلما فرغت كانوا يغتذون بما يصادفهم فى طريقهم من الأعشاب والحشائش الرديئة، فلما توغلوا فى الأراضى الرملية غير المنبتة صار يأكل بعضهم بعضا بالاقتراع من كل عشرة أنفس واحد ممن تقع عليه القرعة، فكان هذا الأمر أشد عليهم من الجوع، ومع ذلك فالملك مصمم على استدامة السير، ومصر على المجازفة، غير مكترث بخسارة جنده، ولكن انتهى به الحال أن خاف على نفسه الهلاك، ورجع القهقرى، ومع المخمصة الشديدة الحاصلة فى الجند لازال الملك فى مائدته محافظا على رسومها واستكمال أصناف المطاعم اللذيذة، فعاد ببقية جنوده حتى وصل مدينة طيوة، ولقصد استعواض الخسارة العظيمة التى تلفت فى غزوته سلب أمتعة هياكل هذه المدينة وزينتها وذخائرها من ذهب وفضة وغير ذلك، وكانت مملوءة بالنقاش والأمور المثمنة، فكان هذا مما يعد عند المصريين من التعديات الكفرية، ومن هذا الوقت لم تكن أفعال هذا الملك إلا محض اختلالات متوالية وقساوات متتالية، حتى إنه تصادف عند دخوله فى مدينة منف، التى كانت أعظم مدن الدنيا، كانوا يعملون فى هياكلها موسعا مشهودا لولادة العجل أبيس، فظن أنهم فرحون مستبشرون بهزيمته فقتل جميع الحاضرين من الكهان وأمناء الأديان وأرباب الحل والعقد، وختم ذلك بنبش جثة أماسيس وضربها، وضرب أيضا العجل المحترم، الذى هو، حسب اعتقادهم، ربهم المعظم، بطعنة خنجر فأدماه، وأظهر فى ملأ عظيم من الناس أن هذا العجل ليس بإله، فانتصر عابد النار على عباد الأبقار، ومأوى الفريقين جهنم وبئس القرار!

(*) المراد: نفدت. (الشروق).

ويقال إنه من حين الغضب على المصريين تلقب بختنصر الثانى، وهذا معنى قول المؤرخين أن بختنصر خرب مصر، فالمقصود به قنبيشاش أول ملوك العجم، كما أشرنا إليه فيما سبق، وقد أطنب المؤرخون فى وقائع جبروته، مما يلوث جميع أوصافه ونعوته، فمما يحكى عنه إنه ذات يوم أكره أحد أخصائه المسمى أبريساسيه على أن يخبره بما يعتقده الرعية فى شأن أحكامه، وفى تعداد مناقبه، وسيرة العدل فى أيامه، فقال له: إنهم يعتقدون اتصافك بالأوصاف الحميدة، والمناقب الحسنة، والأحكام السديدة، ويرون إنه لا مثلبة فيك إلا الانهماك على الشراب، ولولاها لكنت منزها عن العيوب بدون ازتياب، فقال قنبيشاش: هم يعتقدون إذا أنى لست لدى الشراب من ذوى الألباب؟! ثم شرع يشرب من الخمر فوق العادة، وأمر بإحضار ابن أبريساسيه، وكان رئيس السقاة فى مجلس شرابه، وأمره أن يقف بالمجلس منتصبا واضعا شماله على رأسه، وقال لأبيه: أريد أن أقيم برهانا فى ولدك على صحوى، ولو تعاطيت ما تعاطيت من الأقداح، فها أنا مفوق سهمى لأصيب فؤاد هذا الغلام مدير الراح، فإن أصبت المرمى فلست فاقد الحواس، وإن أخطأته صح فى حقى ما يعتقده الناس، فسدد سهمه صوب فؤاد هذا الغلام ففاده[1] بأحد السهام، وأمر حالا بشق بطنه ليرى أبوه السهم مرشوقا فى فؤاد ابنه، ثم قال لأبيه: هل سبق لأحد مثلى نظير هذه الإصابة؟ فأجابه الأب بقوله: ليست فى طاقة أحد من البشر هذه البراعة ولا هذه النجابة! فكان نفاق المظلوم أبشع من فعلة الظالم، ولا غرابة فى شحن الدولة الجورية باشتراك الحاكمين والمحكومين بالكبائر والعظائم.

ويحكى عن هذا الملك ما يملأ الصحائف والطروس(*) من أمثال ذلك بالتمثيل فى قتل النفوس، حتى يقال إنه كان يتسلى بقتل الأعجام، وذبحهم كالأغنام، فقد قيل إنه دفن اثنى عشر من أعيانهم أحياء فى ساعة واحدة، وأهال عليهم التراب، حيث خطر له أنهم مستحقو ذلك العقاب، وقد نبش فى مدينة منف المقابر ليتسلى

(١) فاده، بلا همز، أهلكه وأماته.

(*) الطروس: جمع طرس، والطرس: الكتاب. (الشروق).

برؤية الرم، وإنه نبش في مدينة صا قبر أماسيس، وضربه بالعصا، ومَثَّل به، ونقم عليه وانتقم، وهذا يدل على أنه إما كان فى عقله خبل أو فى لبه خلل، أو أن عقول مؤرخى أخباره فى تلك الأزمان كانت مختلة، وأنهم يصدقون جميع الأباطيل والخرافات بدون قيام القرائن على صحتها والأدلة.

وفى آخر أيامه فى مصر حدثت فتنة عظيمة ببلاد العجم، وهى أن نائبه عليها طمع فى نقل الملك إلى عائلة نفسه، فأقام أخاه الشبيه بأسمرديوس أخى قنبيشاش ملكا على العجم، فملكوه عليهم لالتباسه بابن كورش، ونجزوا تقليده بالحكم مع الإكرام والتعزيز، وأعلن له بالملوكية على جميع بلاد العجم، وأرسلوا الدعاة للمبايعة فى جميع الجهات وعند كافة الأمم، ويسمى فى كتب التواريخ أسمرديوس المجوسى، ويقال إنما سمى مجوسا لظهور زردشت[1] بدين المجوسة فى أيامه، ويعتقد المجوس نبوة زردشت، وبعضهم يجعل تاريخ ظهور هذا المتنبىء قبل كورش.

وكان قنبيشاش خرج من مصر ودخل الشام، فبينما هو هناك إذ حضر داعى العجم يدعو أهلها لمبايعة أسمرديوس المذكور، وإلى الانقياد له فى سائر الأحكام، فلما سمع قنبيشاش بذلك أراد أن يجد المسير، ويخلع المغتصب لمملكته من التخت والسرير، فبينما هو يركب جواده، إذ انساب سيفه من غمده فجرحه فى فخذه وألزمه وساده، فمات بعد أيام قلائل، بعد أن حكم مصر خمس سنين، ولم يقم على هذا القيل دلائل.

ولم يذكر لهذا الملك من المناقب الحسنة والمآثر المستحسنة إلا منقبة واحدة، يشم منها رائحة حب العدل والإنصاف، وإن كان قد تغالى فيها هذا الملك وسلك سبيل الاعتساف.

وهى أن أحد قضاته، المسمى سيزمناس، ارتشى فى بعض الوقائع ليحكم بالباطل، فلما علم بذلك قنبيشاش قتله مسلحا، وأمر أن يفرشوا جلده على منبر

---

(١) كان ظهور زرادشت فى القرن السابع أو السادس ق. م، وتعاليمه مودعة فى كتابه (الزند أفيستا) أى (تفسير القانون).

القضاء، وولى ابنه قاضيا بدله، وذكر مما جرى لوالده فيما مضى، ونهاه عن الرشوة والبرطيل[1]، وعن استبدال الحقوق بالأباطيل. ويقال إن سبب جبروته قلة التربية والتأديب، وعدم اعتناء والده كورش بالقيام بشؤونه فى تحسين الأخلاق والتهذيب، لأن أباه لما كان منهمكا على الغزو والفتوح، لم يتفرغ لتربية ابن البوح تربية أب نصوح، بل وكل أمره فى ذلك لحكام سرايته[2] وحرمه، وقل أن يفلح أمير مكث فى الحريم من مهده إلى بلوغ حلمه.

وقيل إن ما حكى عنه من الأمور المخلة غير صحيح، لأن أغلبه من نقل هردوطس عن كهنة مصر، وهم أعداء لهذا الملك، فكانوا يختلقون عليه ما لا يحصى من القبيح، وأما هردوطس فإنه كان لا يعلم حال هذا الملك إلا من هذه الجهة الكهنوتية، وأقاويل الأعداء على عدوهم غير ثبوتية.

ولما خرج قنبيشاش من مصر كان أناب عنه فى الحكم أرياندامس، فلما مات قنبيشاش سنة ١١٤١ قبل الهجرة، بعد أن حكم ثمان سنين، وخلفه دارا الأول، كانت الفتنة فى بلاد العجم لم تخمد، انتهز النائب الفرصة، وشرع يستقل بحكم مصر ويجعل نفسه أصيلا، فتدارك دارا ذلك وأبعده، وبذل جهده فى أن يحسن معاملة المصريين، وأن يستميلهم إليه لينسيهم ما صدر من قنبيشاش.

الملك دارا الأول[3]

كان صعود هذا الملك على تخت العجم فى نحو سنة ١١٤١ عبارة فى مبدئه عن تأسيس قواعد هذه المملكة الفارسية وتنظيم أمورها، فقد كان كورش وقنبيشاش وسعا هذه المملكة فى دون عشرين سنة، فلما اتسعت دوائرها وتكاثرت أقاليمها قسمها دارا، حين جاءت له نوبة المملكة، إلى عشرين إيالة أو عملا، وقد اجتهد فى جلبه لها وسايط الثروة ووسائل الغنى، حتى كان يسميه الفرس بالملك النقاد،

(١) البرطيل بمعنى الرشوة.
(٢) قصره.
(٣) أو داريوس (٥٢٢ ـ ٤٨٥ ق. م).

وذلك لأنه كان **يعرف جهات المكاسب** وتحصيل الأموال وجلبها من أى شىء كان، كما كانوا يلقبون قنبيشاش بالملك المتملك، وكورش بالملك الأب. قيل وكانت مصر وقسم النوبة وإقليم القيروان وإقليم برقة فى هذه القسمة معدودة إيالة واحدة وعملا واحدا، وكانت تسمى الإيالة الثالثة الفارسية، وتدفع خراجا جسيما لفارس.

وكان محصول صيد السمك من بحيرة قارون بالفيوم يجبى لطرف الحكومة، وكان محصوله كل يوم مقدارا جسيما مدة الستة أشهر التى يدخل فيها ماء النيل، زمن الفيضان، إلى البركة، وفى الستة أشهر الباقية محصولها هين بالنسبة للستة أشهر الأولى، وكانت مصر تدفع كل سنة أيضا مقدارا من الحنطة لكفاية المائة والعشرين ألف نفس من الجنود أو المعاونين المنوطين بمحافظة مدينة منف من طرف الفرس، وكان هذا المقدار أزيد من الكفاية فكان يفيض منه، وكانت إيالة مصر بعد إيالة بابل والموصل، اللتان هما الإيالة التاسعة من إيالات العجم، أكثر جميع الإيالات خراجا، وقد سبق أن أقاليم النوبة كانت فى أيام مضافة إلى مصر، ومع ذلك فقد استنتج بعضهم من قرائن تاريخية أن قسم النوبة، الذى كان فى زمن الفراعنة مضافا إلى مصر وكان يدفع الخراج لهم، قد انفصل عنها فى أيام دولة العجم، وإنه لا يستفاد من تاريخ دولة العجم إنهم كانوا يملكون شيئا من الأقاليم بعد جزيرة أسوان، مما يلى الجنوب وإنما كانت مملكة النوبة المُصَاقبة[1] لمصر ملزومة بهدايا تبرعية تدفعها على سبيل المحبة للعجم، وأنها كانت فى هذه المزية مساوية لبلاد فارس نفسها، حيث كانت غير ملزومة بدفع شىء بوصف الخراج، فكانت بلاد النوبة المذكورة تهدى إلى العجم كل ثلاث سنوات مُدّيْن[2] من الذهب الخالص، ومائة قضيب من الأبنوس، وخمس جوار نوبيات، وإحدى وعشرين سن فيل، وقد دلت المبانى المصرية على أن النوبة كانوا يدفعون نظير هذا القدر للملك رمسيس الأكبر ولسلفه وخلفه، وقد ضرب الملك دارا السكّة باسمه من

(١) المصاقبة: المقاربة.

(٢) المد يساوى ثمانية عشر ليترا حسب وحداتنا المعاصرة.

صنف الذهب، وصار التعامل بها فى جميع ممالكه، وهو أول من أدخل فى مصر المعاملة التى سميت بالسَّكة الدارية، وكان الملك قنبيشاش قد قلد نيابة مصر للنائب أرياندس، فلما تولى دارا أبقاه على منصبه، فضرب السَّكة من الفضة باسمه، فلما علم دارا بذلك عاقبه على افتياته، واتهمه بالخروج عليه.

وقد وصف المؤرخون دارا بميله لتنظيم الممالك وتحسين إدارتها وسياستها، ولعلهم استنبطوا ذلك من ضربه المعاملة ومن بعض إصلاحات أخر، كما استنبطوا من ذلك أيضا أن مصر كانت فى أيامه سعيدة، ولو أنها كانت محكومة بغير أهلها. فحقيقة الحال أن مصر كانت كغيرها من بلاد المشرق، التى فى حكم الفرس، وكان الفرس الموجودون بها عبَّاد النار مجوسا متعصبين لدينهم، وإنما أبقت الحكومة الفارسية لهم رخصة عبادتهم فقط، وحرمت على جميع الفرس المقيمين بمصر الكتابة بقلم المصريين القديم، ونهتهم عن أن تتداول بينهم هذا اللسان ولو فى مصر، وأمرتهم أن يحافظوا على لغتهم، حتى لقد كادت أن تكون أهلية فى مصر، فكتابة العجم المجوسية المقدسة عندهم أصلها من لسان الكلدانيين، أى السريانيين، وهم أهل بابل، ثم تلقاها عنهم أهل أذربيجان، ثم انتقلت إلى فارس، فلما تغلب الفرس على مصر بقى فى مصر آثار من هذه اللغة، يعنى من كتابتها، وكانت حكومة العجم هينة لينة فى حق الواحات وغيرها مما جاور مصر، فلم تشدد عليها لقصد اتساع دوائر التجارات، فكانت سنتها أن تستولى باللطف واللين على المحصولات التى تضبط للميرى، خاصة من الأقاليم المسكونة بالعساكر بقدر لزوم العساكر، وأنها لا تمس شيئا من إيراد بيت المال بمصر إلا بقدر ما يصرف على الطرق وغيرها بالعمليات، كطريق الحجاز من السويس والقصير، فقد وجد ما يدل على ذلك منقوشا على الصخور، مما يفيد أنهم كانوا يميلون إلى عمل ما فيه الوصلة بين طريق مصر والحجاز، فقد شرع الملك دارا المذكور فى عملية الترعة بين النيل والبحر الأحمر، ويقال إن بعض ملوك مصر شرع فيها قبل زمن حرب تروادة، وأن نيخاوس الثانى ابن ابساميطيقوس شرع فى تكميلها حتى أشرف على ذلك، ثم تركها خوفا من إغراق مصر، حيث إنها أخفض من البحر، وقيل سبب ذلك أن قوة

الصناعة فى مصر فى ذلك الوقت كانت لا تفى بإنجاز ذلك العمل، وقد وجد بقرب هذه الترعة فى واديها بعض مبان مرسوم فيها حروف فارسية قديمة، ثم أبطل دارا ترعة السويس وأدار أنظاره إلى إصلاح طريق القصير، حيث وجدها مهمة للأخذ والعطاء، فأصلحها.

وبالجملة، فلم يكن دارا متخذا مسكنه فى مصر، بل كانت إقامته فى المدائن الكبيرة من آسيا، وكان عنده أطباء من مشاهير حكماء مصر، وكان قد سبق مجيئه فى مصر، فى زمرة جنود سلفه قنبيشاش حين استيلائه عليها، وكان تقابل مع يونانى يسمى سمعان صوقوصون فى مدينة منف، فكان دارا ذات يوم خفيرا على قنبيشاش، وكان سمعان ملتحفا بكساء قانى الحمرة، فأعجب دارا، فوهب هذا اليونانى برنسه لذلك الفارسى الذى كان جنديا لا منصب له ولا نفوذ كلمة، فلما أن صار دارا ملكا على مصر أكرم سمعان المذكور وأحسن منزلته، فدل ذلك على أنه كان صاحب وفاء ومكارم أخلاق، كما قيل:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم فى الموطن الخشن

ولما كان حكام الفرس أرباب جبر وقساوة على رعاياهم، وكانوا متمادين على الجور والظلم، أصر رعاياهم على مقابلة السيئة بمثلها، فخرج أهل بابل على الطاعة، وطلبوا الحرية، وأحاطوا بمدينة بابل، حيث كان الملك مقيما بها، وضيقوا على أهل فارس فى الحصار عشرين شهرا، ولكن سلك العجم مسلك المكر والحيلة، ورفعوا الحصار، وغلبوا أهل العراق، واستمر الملك حاكما على بابل.

فاقتدت مصر بالعراق فى إثارة الفتنة، وخرجت عن طاعة العجم، وكان هذا قبل موت دارا بسنة واحدة، يعنى فى السنة الخامسة والثلاثين من حكمه، فاجتهد فى إدخالهم تحت الطاعة، فحالت بينه وبين مرامه زيادة النيل وفيضانه، وحجبت العساكر عن الوصول لقمع المصريين، فلما مات دارا سنة ١٠٩٧ قبل الهجرة، عن أربع وأربعين سنة من حكمه، لم تكن دخلت مصر تحت الطاعة بل لازالت الفتنة باقية فى بلاد مصر نحو سنتين.

الملك شيارش[1]

تولى شيارش فى سنة ١٠٩٧ قبل الهجرة، فمكن حكومة العجم فى مصر، وعاقب أرباب الفتنة، وضبطهم ومسك زمامهم، وأناب عنه أخاه أخمناس، وجعله حاكما على مصر.

ولما انقادت مصر لحكمه، رتب جنده فى ظرف أربع سنوات، وجهز للغزوات هذا الجند فى السنة الخامسة، وقنطر القناطر، وبنى فى الصعيد قباب المدينة المدفونة، وقد أعطت الإيالة المصرية لشيارش فى غزوته مائتى سفينة مكملة العدة مطقمة الرجال، كل واحد من رجالها على رأسه خوذة من الحديد ودرقة[2] ورمح مما يناسب حرب البحر، وأعطتهم البُلَط اللازمة للحرب، وكان لهؤلاء الجنود أيضا دروع وسيوف.

ولم يكن للمصريين محبة فى دوام مُلْك العجم عليهم، ولو أنه وجد مرسوما فى مبانيهم ما يفيد مدحهم للعجم، فقد وجد منقوشا فى آثار القصير التعبير عن الملك شيارش بأنه: المولى المحسن، سيد الجميع. فهذه الكتابة إنما هى رسمية جرى بها العرف فى حق الملوك، فلا يستفاد منها إسعاد ولا أتعاب فى أثناء الدولة الأجنبية الجائرة عليهم، وأيضا إنه بموت هذا الملك ظهر منهم ما يفيد الحقد والبغض، لأنهم بادروا بمجرد موته لطلب استقلاليتهم وتخليص ملكهم، وكان عندهم شجاعة وثبات وحب لأوطانهم، واستعداد للتمسك بشرائعهم وعوائدهم، والذب عن دينهم، ومفاداة حريتهم ببذل الأموال والأرواح عند الاقتضاء، وذلك لأنه كان منقوشا فى لوح أفئدتهم صورة ما وقع من الأجانب من الظلم والعدوان، فإنه طالما سلبهم ملوك الأغراب المنافع الجمة، ونهبوا هياكلهم ومعابدهم فى ابتداء فتح البلاد. ثم مات شيارش سنة ١٠٨٨ بعد أن حكم تسع سنين، وتولى بعده أرطخشيارش.

---

(١) هو خشيارشا (كسركسيس) (٤٨٥ ـ ٤٦٤ ق. م).

(٢) الدرقة هى الترس يصنع من الجلود، وجمعها: درق.

الملك أرطخشيارش ويقال ايضا ارتسخار[1]

تولى هذا الملك على العجم فى نحو سنة ١٠٨٨ قبل الهجرة، واجتهد فى طالعة أمره اجتهادا كليا فى حسم الفتنة القائمة فى مصر، وبذل الهمة فى تصميم ملكه فيها.

وكانت قوة العجم مهددة ومخوفة لليونان، وعلى صيت بعيد وهيبة عظيمة، وكان بين اليونان ومصر محالفات وعهود على أن تطرد اليونان من سواحلها سفن العجم وعساكرهم التى كانت تخشاها مصر حتى لا يبقى فى مصر للعجم بقايا، فوضعت حكومة أثينة سفنها فى البحر لمنع عبور سفن العجم، وبعثت إلى مصر جنودا يونانية من ممالك متعاهدة مع أثينة لتنضم إلى جنود مصر، فترتب على اجتماع هذه الجنود الانتصار العظيم على العجم، وانهزام جنود أرطخشيارش، وانحيازها إلى جهة مدينة منف، فهجمت عليها جنود مصر فى تلك الجهة، ولكن اجتهد أرطخشيارش فى التحيل على فصل جنود اليونان من جنود مصر، وتفريق العصبة، فأضعفهم، ونزل بسواحل النيل، وصمم دولته بمحافظة مدن السواحل المصرية، فعادت مصر إلى ما كانت عليه فى قبضة الفرس عليها بالكلية، وأقام عمه أخمناس نائبا على مصر، فاستعبد أهلها وأذلهم أكثر مما كان لهم فى أول الأمر.

وأكثر مؤرخى اليونان المشهورين كانوا أحياء فى وقت هذه الواقعة، فحكوها على ما ينبغى، إلا أنهم وإن اتفقوا فى الوقائع فقد اختلفوا فى الأزمان والتواريخ، وأصح حكايتهم فى(*) هذا المعنى كلام مانطون، حيث يشهد له ما وجد فى المبانى المصرية مما يوافقه.

ومضمون كلامه يقتضى أن أرطخشيارش، بعد أن مكن دولته، حكم فى مصر

---

(١) هو ارتخشاشا (ارتكسركسيس) (٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م).

(*) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

ثمانيا وثلاثين سنة، بعد عصيان المصريين على نائبه مدة سنتين، فتكون مدة حكمه جميعها على العجم أربعين سنة، ولازال المصريون خاضعين لنائبه، كما كان ذلك فى مدة حكم أخيه شيارش، فكانوا على غاية من الأسر والاستعباد، وقد وجد اسم هذا الملك، أرطخشيارش، مرسوما على الصخور التى بالطريق بين قنا والقصير، مضمون ذلك إنه ملك مصر وسيد الدنيا، ولما مات سنة ١٠٤٨ قبل الهجرة، بعد مدة حكمه السابقة، خلفه شيارش الثانى.

الملك شيارش الثانى

الملك سوغديانوس

الملك دارا نوطس(١)

لم تكن مدة حكم الأول إلا شهرين، ومدة حكم الثانى كانت سبعة أشهر، وأما الملك دارانوطس، يعنى ابن شيارش الثانى من السِّفاح، فقد تولى فى نحو سنة ١٠٤٧ قبل الهجرة، وحكم نحو تسع عشرة سنة، كما يدل على ذلك كلام فهرسة مانطون التى يجرى فيها ذكر الحكومات، ولو وقتية، ولو كانت مدة حكم الملوك قصيرة، وأما فهرسة ملوك العجم المنقولة عن المؤرخين السابقين والفلكيين الأقدمين فلا وجود فيها لشارش الثانى، ولا لسوغديانوس، بل كذلك جدول سلسلة تاريخ الملوك الذين ذكرهم بطليموس الفلكى(٢) فى طالعة كتابه «المجسطى»، التى بنى عليها زيجة(٣) تذكر كورش، وقنبيشاش، ودارا الأول، وشيارش، وأرطخشيارش، ودارا الثانى، ولم تذكر غيرهم، فالعمدة على ما قاله مانيطون.

والظاهر أن معاهدة المصريين مع الأثينيين كانت فى عهد حكم أرطخشارش،

---

(١) هو دارا الثانى، الذى حكم سنة ٤٢٤ ق. م.

(٢) كلوديوس بطليموس، سبقت اشارتنا إلى ترجمته.

(٣) الزيج: كلمة فارسية الأصل، وتعنى الجداول الفلكية القديمة.

وتفصيلها أن سبب إتلاف سفن العجم بالكلية أو قبض الأثينيين عليها هو أن اليونان نزلوا بالنيل وأخرجوا عساكرهم إلى السواحل تحت قيادة قارطيمس، وكان أخمناس نائب مصر من طرف العجم معه ثلثمائة مقاتل، فهزمه جند المتعاهدين وأهلكوا منه ثلث عساكره، وقتل هذا النائب فى هذه الواقعة، وهرب بقية عساكره فى قلاع منف فحاصرهم المصريون ثلاث سنوات، وضيقوا عليهم الحصار، فجاء للعجم امتدادات من جهة أناطلى والشام، فانهزم المصريون والأثينيون، وجرح قائدهم، وهربوا أمام العدو، وانحازوا إلى الوجه البحرى يتحفظون فيه من عدوهم، فناوشتهم عساكر الفرس هناك نحو سنة ونصف، وكانوا متحصنين فى جزيرة بين فرعين من فروع النيل فطمَّى[1] أحدهما العجم، واستطرقوا للوصول إليهم، فصالحهم المصريون على أن يسلموا أنفسهم من غير أن يقتل منهم أحد، وأما الأثينيون فكانوا عشرة آلاف مقاتل فأحرقوا مراكب العجم ولم يرضوا بالمصالحة كما رضى بها المصريون، واختاروا شرف الموت فى ميدان الحرب على عار العبودية، فصالحهم العجم مصالحة ليس فيها ذل ولا عار، حيث آنسوا منهم الشجاعة، وكانوا مع ذلك قد أشرفوا على التلف، فأشفق عليهم العجم ثم أرسل الأثينيون سفنا أخرى يونانية، فانتصر عليهم العجم أعظم نصرة، وانقادت مصر ثانى مرة، وجعل واليا عليها سرطاماس الفارسى، وقبض على قائد المصريين وأرسله إلى ملك العجم فصلبه هناك مظهرا للعجم أنه ابن أبساميطيقوس ملك مصر.

وهذه الواقعة الأخيرة لم تخمد همة المصريين ولا أوهنت حماسهم ولا أضعفت تعصبهم للوطن، بل رفعوا أعلام العصيان، وطلبوا استقلاليتهم فى عهد دارا نوطس، وأقاموا عليهم رئيسا مصريا يسمى أمرطيس، من مدينة صا الحجر، فانهزم عند مصادمة العجم، وانحاز إلى الجهة البحرية، ومكث فى الأراضى المسبخة مستريحا لا يدنو منه أحد إلى أن استدعاه المصريون ثانيا لتخليص الوطن من الأعجام.

(١) أى صنعوا فيه معبرا (جسرا) من طمى النيل.

فحضر هذا القائد وقاومت عساكره نائب دارا نوطس، وطاردتها، ففى أثناء ذلك مات دارا نوطس المذكور فى نحو سنة ١٠٢٨ قبل الهجرة، بعد أن حكم نحو تسع عشرة سنة، فملك المصريون جميع ديار مصر، فشرع أمرطيس فى الحكم على مصر، وأجرى الأصول السابقة كأسلافه من الفراعنة، وجدد فيها الأحكام القديمة سياسية أو ديانية، وبهذه المثابة انقرضت دولة فارس فى مصر، التى هى عبارة عن الدولة المصرية السابعة والعشرين، فكانت مدتها مائة وإحدى وعشرين سنة، كما تقدم.

الفصل الحادى عشر
فى ملوك الدولة الثامنة والعشرين
وهى الصاوية

تنسب هذه الدولة إلى صا الحجر، كما تقدم فى نظيرها، وكان ابتداء حكمها فى نحو سنة ١٠٢٨ قبل الهجرة المحمدية(١)، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ولم تتعدد ملوكها، بل الملك أمرطيس هو الذى تملك فيها وحده فكان عبارة عنها.

الملك أمرطيس(٢)

تولى هذا الملك المصرى سنة ١٠٣٨ قبل الهجرة، ولا مانع أن يكون من نسل عائلة ملوكية قديمة، وهو وحده على انفراده عبارة عن الدولة الثامنة والعشرين، ومع إنه لم يحكم إلا سبع سنوات فقد اجتهد فى إصلاح ما أفسدته دولة فارس وفى إعادة المراسم والمواسم الدينية وفى إصلاح وتحسين ما أتلفه الأعجام من الهياكل والمعابد والمصانع، وقد بذل همته قبل تقليده بالملك فى الحروب الطويلة التى كان بها خلاص وطنه، ولو عاش طويلا لتمكن من إصلاح جميع ما فسد فيها، إلا أنه مات سنة ١٠٣١ وقد أبقى بقايا أصلحها من بعده من ملوك الدولة التاسعة والعشرين التى أعقبت دولته، وهى الدولة الأشمومية.

---

(١) مدة حكم هذه الدولة من سنة ٤٠٤ حتى سنة ٣٩٨ ق.م.

(٢) يسمى: آمون حر، أو: أمرتى (٤٠٤-٣٩٨ ق.م).

الفصل الثانى عشر
فى ملوك الدولة التاسعة والعشرين
وهى الأشمونية، ويقال لها: الأشمومية

نسبة هذه الدولة إلى مدينة قديمة تسمى أشمون الرمان، التى هى على تخطيط تقويم البلدان لأبى الفداء[1] فى محل المدينة القديمة المسماة منديس، فيقال لهذه الدولة أيضا المنديسية، وكان عندها فى قديم الزمان مصب فرع من النيل يسمى الفرع المنديسى، وقد طم الآن بالرمال، ولا يدرى سبب صعود هذه الدولة على سرير الملك بعد الدولة الصاوية التى قبلها. وكان ابتداء حكمها فى نحو سنة ١٠٢١ قبل الهجرة[2]، وعدد ملوكها خمسة، ورأس هذه الدولة الملك نفروطف.

الملك نفروطف الأول[3]

تولى هذا الملك فى نحو سنة ١٠٢١ قبل الهجرة، واسمه عند اليونان نفريطس، ولم يزل من منذ صعوده على السرير يهدده ملك العجم ويرعبه ببعوث الجنود الكثيرة لحربه، ومع ذلك فقد بذل ما عنده فى سلامة وطنه، حيث عقد معاهدة مع

---

(١) أبو الفداء، إسماعيل بن على الأيوبى (١٢٧٣ - ١٣٣١م) أمير عربى من أمراء حماة، حارب الصليبيين، واشتهر كأديب ومؤرخ وجغرافى، ومن آثاره فى التاريخ (المختصر فى أخبار البشر) وفى الجغرافيا (تقويم البلدان).

(٢) حكمت هذه الدولة من سنة ٣٩٨ حتى سنة ٣٧٨ ق. م.

(٣) ويسمى: نفريتس الأول (٣٩٨-٣٩٢ ق. م)

جمهورية إسبارطة اليونانية، المسماة لقدمونة، بأن تعاونه على العجم، التى هى خصم للفريقين، فكان متقويا بهذه المعاهدة.

مات فى نحو سنة ١٠١٥ فكانت مدة حكمه ست سنوات، وتولى بعده الملك هوقور فى هذه السنة.

الملك هوقور[١]

تولى هذا الملك فى نحو سنة ١٠١٥، ويسمى عند اليونان أخوريس، ومدة حكمه، على ما هو فى فهرسة مانيطون، ثلاث عشرة سنة، اجتهد فيها دائما فى إرهاب العجم، فكانت مصر فى أيامه مجتهدة دائما بالمحافظة والممانعة، وجددت المعاهدات النافعة مع الأمم والملوك، مثل أهل قبرص، والعرب، والغرب، وبرقة، وكان فى مصر عائلة كان قد جار عليها أبساميطيقوس فى زمانه، وكان منها شخص يسمى غايوس خرج بسبب النفسانية والعداوة من مصر ودخل فى خدمة العجم، واشتهر عند رؤسائه منهم، فوقعت منافسة بينه وبين أحد رؤسائه فى حرب قبرص فهرب أيضا من خدمة العجم إلى مصر، وتبعه حزب من الجنود البحرية والبرية تحت قيادته، وانضموا إلى جند الملك هوقور، وأضيف إليهم عساكر إسبارطة، وتحزبوا مع مصر على حرب العجم، فمات غايوس المذكور قبل الانتصار على العجم، وكذلك مات رؤساء المعاهدة، فانحلت المعاهدة بموت من ذكروا، فجدد هوقور عهدا مع أمم اليونان لينتصر بهم على العجم، وانطلقوا إلى مصر تحت قيادة خابرياس الأثينى، فلما جاء أهل فارس إلى مصر كانت على جانب عظيم من القوة، فلم تبلغ فارس شفاء غليلها، وخاب سعيها.

وفى أثناء هذه المدة مات ملك مصر المذكور، ومع ما كان عليه هذا الملك من الاشتغال بحماية الوطن فقد سعى أيضا فى إصلاح ما بقى من تخريب الأعجام مما لم يصلحه سلفه، فقد وجدت فى مدينة آبو فى طيوة بالصعيد إصلاحات للأعمدة المحمول عليها الإيوانات تشهد له بالإصلاحات العجيبة، بل فى مقاطع الحجر بطره

(١) ويسمى: هكر (أكوريس) (٣٩٢-٣٨٠ ق.م).

ما يدل على أن هذا الملك استخرج منها فى السنة الثانية من حكمه أحجارا للمبانى التى أنشأها وأعادها .

وقد مات هذا الملك فى أواخر سنة ١٠٠٣ قبل الهجرة، بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة، على ما سبق، وخلفه أبساموطيس، وفى أيامه قدم أفلاطون وغيره من حكماء اليونان مصر ليتعلموا الحكمة من حكماء عين شمس ومنف وطيوة لينشروا العلوم النافعة فى بلاد اليونان .

الملك أبساموطيس(١)

تولى هذا الملك فى أواخر سنة ١٠٠٣ قبل الهجرة، ولم يحكم إلا سنة واحدة وقد وجد مرسوما فى قصر الكرنك فى مدينة طيوة بقرب سلفه هوقور، وقد مات فى نحو سنة ١٠٠٢، وخلفه الملك موطيلس، على ما هو فى فهرسة مانيطون .

الملك موطيلس(٢)

تولى هذا الملك سنة ١٠٠٢ قبل الهجرة، ولم يحكم إلا سنة واحدة، ولم يعلم له شىء من المآثر ولا ما يذكر به فى رسوم المبانى، وقد خلفه الملك نيفاروس عقب موته سنة ١٠٠١ قبل الهجرة .

الملك نيفاروس(٣)

تولى هذا الملك فى أثناء سنة ١٠٠١ قبل الهجرة، ولم يحكم إلا أربعة أشهر فقط، ولا يعلم من آثاره إلا صنم أبى الهول الذى يوجد فى خزينة التحف الأنطيكية الملوكية بمدينة باريس، ولقبه الملوكى كألقاب الفراعنة السابقين عليه، ويقال له أيضا نيفروه، وهو آخر ملوك الدولة التاسعة والعشرين التى لم تكن مدة حكمها إلا إحدى وعشرين سنة، وجاءت بعدها الدولة الثلاثون، وهى الدولة السمنودية .

---

(١) ويسمى : بسماتيس (٣٨٠-٣٧٩ ق . م) .
(٢) (٣٧٩-٣٧٨ ق . م) .
(٣) (٣٧٨ ق . م) .

الفصل الثالث عشر

فى ملوك الدولة المكملة للثلاثين

وهى السمنودية

هذه الدولة منسوبة لمدينة سمنود القديمة بالوجه البحرى، كالدول الأخرى المنسوبة إلى المدن البحرية، وذلك لأن مدن الصعيد انقطعت شهرتها العظيمة وصيتها البعيد المذكور فى التواريخ بالنسبة لما كان يصدر فيها من الملوك، فإن مدينة طيوة تمكنت من هذا المجد الأثيل، وهو خروج ملوك الدول منها زمنا طويلا، ثم تجردت عنه وانقطعت للكهنوتية، فكأنها لما طال بها الاستعباد والهوان واضمحل شرفها القديم فلم تكن مصدرا ولا مركزا لسرير ملك الفراعنة انطفت أنوار بهجتها، وضاعت منها هذه المزية، وانتقلت منها الرياسة الأصلية إلى مدن الأقاليم البحرية، ثم إن مدة هذه الدولة كانت نحو ثمانية وثلاثين سنة، وملوكها ثلاثة، وكان ابتداء حكمها سنة ١٠٠٠ قبل الهجرة[١] النبوية، وأول ملوكها نقطانب الأول.

الملك نقطانب الأول ويسمى نقطنبو[٢]

تولى هذا الملك سنة ١٠٠٠، وهو رأس هذه الدولة الجديدة، ولم تكن مدته

(١) حكمت هذه الدولة من سنة ٣٧٨ حتى سنة ٣٤١ ق.م.

(٢) ويسمى: نختنبو الأول (نخت ـ نبف) (٣٧٨ ـ ٣٦٠ ق.م).

صلحا ولا راحة، بل كان كسلفه، فقد مضى زمانه القصير في الحروب، فإنه في السنة الثانية من حكمه قد أغار عليه العجم فاضطر إلى دفاعهم، وقد كانت جاءت إليه عساكرهم برا وبحرا، وقربت من جهة فرما، وكان محترسا من ذلك بتجنيد الجنود الكافية للمحافظة، فانتصر عليهم، لا سيما وقد وقعت المشاحنة وعظمت الفتنة بين عساكر العجم، ومع انهزامهم فقد ركبوا النيل وتحصنوا ببعض الجهات، ولكن وضع الملك نقطانب المحافظة اللازمة لحماية منف، ثم شرع في قتالهم، فسار خلف القائد فرناباز، أمير عسكر العجم، ففاض النيل على عادته وعم أرض مصر فوقع العجم في أيدي المصريين بعد أن تلف أكثر عساكرهم، فخلصت مصر من أيديهم.

فبعد سنوات قدم الملك أجزيلاس اليوناني على ديار مصر سفيرا من طرف مملكة إسبارطة التي هي «لقدمونة» يستظهر لأهل إسبارطة على طائفة من اليونان تسمى طيوة اليونانية، حيث عظمت شوكتها وظهرت على إسبارطة، فأغاثهم، وكانت مدته في آخر عمره صلحا وراحة، ومما يدل على ذلك تفرغه في آخر أمره للإدارة وتحسين مصالح مملكته، فله آثار جليلة من هياكل ومعابد. واختلف في مدته، فقيل إنه حكم عشر سنوات، وقيل، وهو الأصح، إنه حكم ثمان عشرة سنة، فيكون موته في نحو سنة ٩٨٢ قبل الهجرة.

الملك طاخوس(١)

تولى هذا الملك سنة ٩٨٢ قبل الهجرة، ويسمى عند المصريين طاؤس، وقد اشتغل مدة حكمه بمحاماة مصر من العجم المغيرين عليها، ومكن المعاهدة مع اللقدمونيين من أمم اليونان، فبعثوا له جيشا قائده أجزيلاس، فوعده طاخوس برياسة عموم العساكر المصرية برية أو بحرية، ولكن لما ارتاب في منظره، وكان منظره دون مخبره، لم يقلده إلا رياسة العساكر البرية وقلد قائدا آخر يسمى

---

(١) ويسمى جدحر (تيدس) (٣٦١-٣٥٩ ق.م).

أخبرياس رياسة العساكر البحرية، وجعله أمير عموم الجيش برا وبحرا، يعنى أعطاه هذا العنوان، وكان قد أشار أجزيلاس على الملك أن لا يهجم على أهل فارس إلا إذا قدموا مصر، فأبى الملك إلا قتالهم بملاقاتهم فى سواحل بلاد الشام، ولم يرض انتظار وصولهم إلى مصر، فبمجرد ما خرج بجنده عن حدود الديار المصرية قامت عليه عساكر مصر متحزبين على عزله، فخلعوه وولوا عليهم نقطانب الثانى، ابن أخى طاخوس، فهرب طاخوس بعد عزله عند ملك العجم، وقابله فى طريقه ببلاد العرب، ولا يوجد لطاخوس أثر على أى مبنى من المبانى المصرية فيما يعهد إلى الآن، وكانت مدة حكمه إلى هروبه سنتين.

الملك نقطانب الثانى[١]

تولى هذا الملك سنة ٩٨٠ عقب خلع طاخوس، وقد انتخبته عساكر مصر ملكا عليها، فظهر بعد ذلك خصم لفرعون المذكور يتطلب الملك منه، وهو أمير من أولاد وجوه أشمون، وتحزب معه كثير من العساكر وأجاب دعوته كثير من الأحزاب، فأشار أجزيلاس على فرعون أن يبدد شمل الخوارج والعصاة بالهجوم عليهم حتى لا يكون لهم زمن ينتظمون فيه ويكثرون من الإمدادات وحسن الترتيب، ولكن ارتاب الملك من هذه النصيحة ولم يقبلها، فعما قريب ساجله عصاة العساكر وغالبوه وجبروه على أن ينحصر فى مدينة من مدائنه، فأحاط بها عساكر خصمه، ولم يساعده القائد أجزيلاس، بل خذله فى أول الأمر، ولما اشتد عليه الخطب أشار عليه أن يفتح المدينة ويغير على الأعداء ويحمل عليهم حملة شديدة، ففعل، فظهر عليهم وأبعدهم عن المدينة، واقتفى أجزيلاس أثرهم، وأخذ أميرهم أسيرا، وبقى نقطانب الثانى على مملكته لا يعارضه أحد فى تدبيره، وفى السنة الثانية من ولايته عقد معاهدة مع أهل صيدا وصور، وكانوا كأهل مصر على خوف من تملك أهل فارس عليهم، فكانت المحافظة أيضا قدرا مشتركا بينهم، وكان كل منهم محتاجا

(١) ويسمى نختنبو الثانى (نخت-حر-حب) (٣٥٩-٣٤١ ق.م).

للاحتراس من العدو، فلما قصد الفرس مصر اضطروا إلى حرب الصوريين أولا، فكان هذا عائقا لهم عن الوصول إلى أرض مصر.

فبعث نقطانب فرقة فيها أربعة آلاف مقاتل يونانية مجمكة[1] من طرفه، وجعل رئيسها منطور الروسى، ودخل فى معاهدة الفريقين أيضا عساكر قبرص، فكسروا جنود العجم، فغضب ملك فارس من انهزام رؤساء جنوده، فقاد جيشا ثانيا بنفسه، وانطلق به إلى مصر، ففزع الأمير منطور الروسى من عظم هذه الغزوة، وهاله كثرة عساكرها، فهرع إلى الانتظام فى جند الفرس، ودخل على دارا خوس، الآتى ذكره، لأنه أقوى من أخصامه، فرحب به دارا وأحسن له الصنيع رجاء أن يدله على الجهات المقصودة لحروبه حتى يسهل له أخذها.

وأما نقطانب فجهز من العساكر ما يقوم لحماية بلاده من خصمه، فقاد جندا مؤلفا من نحو خمسة وعشرين ألف يونانى وعشرين ألف مغربى وستين ألف مصرى، ووضع الحرس والمحافظين فى جميع الثغور والحصون المهمة، فكان فى مدينة الفرما من المحافظين خمسة آلاف نفس، وقد كان كل من المهاجمين والمدافعين بعضهم نصب أعين البعض الآخر، وكان مع كل من ملكى مصر وفارس رؤساء من اليونان من حزبه يستشيرهم ويستعين بشجاعتهم فى الحرب ويثق بأمانتهم فى رياسة العساكر، فالتحمت الحرب، وكانت بين الفريقين سجالا، وانتهى الحال إلى ظهور فارس على ملك مصر، فسلم المصريون واليونانيون أنفسهم لأمراء ملك العجم، فلما رأى ملك مصر انهزام جنده وتبدد شمله وقرب زوال ملكه ضاقت به الحيل وداخله اليأس والقنوط، فلم يسعه إلا أن جمع خزائن أمواله وفر إلى بلاد النوبة بدون رجعة.

وكان هذا الملك آخر ملوك الدولة المصرية المكملة للثلاثين، كما هو آخر ملك مصرى من هذه الدولة، وقد حكم ثمانى عشرة سنة، ومن بعده لم ترجع دولة الفراعنة للمنصب الملوكى ولم يقم للأمة المصرية الجليلة الذكر والمآثر سرير مصرى

---

(١) أى ذات أجور منتظمة.

أهلى، بل صاروا تحت ولاء(*) العجم والروم إلى فتوح مصر بالإسلام، كما سيأتى فى مَحالِّه، إن شاء الله تعالى.

وقد انتهت هذه الدولة المكملة للثلاثين فى نحو سنة ٩٦٢ قبل الهجرة، بعد أن حكمت مائة وثلاثين سنة.

وهذه الدولة، كالدولتين قبلها، كانت عبارة عن فتن واختلالات، فإن الديار المصرية، وإن كانت قد عادت حكومتها إلى أهلها فى ذلك العصر، إلا أنها لم تزل على حالة غير ثابتة، لتهديد الأعداء لها وإغارتهم عليها، ومع ذلك فلم تخل دولة من تلك الدول الثلاثة عن المآثر الأهلية، ولم تحرم من المزية الملوكية، فإن الملك أمرطيس، ملك الدولة الثامنة والعشرين، قد اجتهد فى إصلاح ما أفسده العجم، وإعادة المراسم والمواسم الدينية، وتعمير الهياكل والمعابد والمصانع، وكذلك كل من الملك آخوريس والملك نفرامايس، اللذين هما من ملوك الدولة التاسعة والعشرين، قد اجتهدا فى تزيين الهياكل المصرية بالتماثيل والصور، أى أن كلا منهما حسنها بصورته، وكذلك الملك نقطانب الأول، أحد ملوك الدولة الثلاثين، اصطنع توابيت عظيمة، منها ما نقل إلى مدينة لندرة وإلى مدينة برلين وإلى مدينة باريس، ومنها ما هو باق بالأنطقية المصرية، وهى عبارة عن توابيت عظيمة حسنة الهيئة متخذة من حجر الصوان، وكذلك زاد هذا الملك بعض إضافات توسيعية فى هيكل مدينة آبو والكرنك بالصعيد، كما أكمل عمارة قبر العجل أبيس بمدينة منف، وبنى الباب الكبير الحصين الموجود أمام المبانى التى تحت الأرض من آثار مدينة منف، وكذلك شرع الملك نقطانب الثانى، أحد ملوك الدولة الثلاثين، فى بناء الهيكل الكبير بجزيرة البريا القريبة من أسوان، فمن هنا يعلم أن الفتن الخارجية لم تعق فراعنة مصر ولا منعتهم من العمارات الأثرية، ولو فى أيام انحطاط درجتها واضمحلال شوكتها وضعف سياستها ورياستها، بل كان رونقها فى أيامها لا ينقص عما كان فيها من البهجة فى أيام الدول الأجنبية الآتية.

(*) لعل المؤلف يقصد أن يقول: (تحت لواء). (الشروق).

الفصل الرابع عشر

فى ملوك الدولة الحادية والثلاثين

التى هى دولة الفرس الثانية المنقرضة فى مصر بإغارة الإسكندر الرومى

كانت مصر تخلصت من استعباد الفرس، ومكثت مدة نحو ست وستين سنة فى حكم الدول الثلاثة السابقة، وقد حظيت فى أثناء هذه المدة بحفظ استقلاليتها واستبدادها بنفسها، وبظهورها على عدوها، إلى أن غلبت عليها العجم فى هذه الدفعة الثانية فى أيام دولة داراخوش الذى أسسها فى سنة ٩٦٢ قبل الهجرة، ولكن لم تطل مدتها، فإنها كانت ثمانى سنوات فقط، وعدد ملوكها ثلاثة، وقد انتهى حكمها فى سنة ٩٥٤[١] وفى هذه السنة تولى الإسكندر الرومى مصر.

الملك داراخوش[٢]

تولى هذا الملك سنة ٩٦٢ قبل الهجرة، بعد أن انتصر على نقطانب الثانى ملك مصر، الذى فر هاربا، وأقام دارا عليها شخصا يسمى فرنده، أحد أمرائه، نائبا من قبله، واستلب هذا الملك أموال مصر واغتنم جميع ما فيها، ويقال إنه بنى قصر

(١) بدأت من سنة ٣٤١ حتى سنة ٣٣٣ ق.م.

(٢) ويسمى: أوكوس، ويسمى أيضا: أرت خشتر الثالث (٣٥٩-٣٣٨ ق.م).

الشمع وجعل فيه هيكلا، فيكون قصر الشمع من بناء الفرس، وكان دارا قبل التغلب على مصر حكم على العجم نحو عشرين سنة، كما دلت عليه كتابات المباني المصرية ومات سنة ٩٦٠ فكانت مدة حكمه سنتين، وتولى بعده ابنه أرشيش.

الملك أرشيش بن داراخوش[١]

تولى هذا الملك أيضا مصر سنة ٩٦٠، ومكث حاكما عليها سنتين، كأبيه، ولم يعلم فى المبانى المصرية له ذكر، وإنما ذكره مانيطون فى فهرسته، وخلفه، بعد موته سنة ٩٥٨ قبل الهجرة، دارا الثالث آخر ملوك فارس فى مصر.

الملك دارا الثالث[٢]

تولى هذا الملك مصر سنة ٩٥٨ وحكمها أربع سنين، وهى أيضا مدة حكمه سلطنة فارس الواسعة الأطراف والأكناف، وفى مدة هذا الملك تضعضعت سلطنة فارس فى سائر أقطارها، وتلاشى أمرها، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن الملك كورش رأس الدولة الكينية أسسها ووسعها لتكون ملكا للإسكندر الرومى، حيث ورثها عن خلفاء كورش أرثاء مؤقتا، وذلك أن خلفاء كورش عاشروا اليونان وتعلموا منهم ماعندهم من حب الوطن، وأن الأمة القليلة الأهالى الصادقة فى حب وطنها، كأمة مقدونيا، إذا كان عندها بعض تمدن وسياسة تَغْلب العدد الكثير والجم الغفير من أخصامها، وكان من أمم اليونان جمهورية يونانية وَصلت فى نوبتها إلى درجة عالية فى التمدن، وانطبعت فيها الشجاعة لكونها ساكنة بالثغور بالأقاليم المجاورة للبحور، فظهرت على غيرها من الأمم، وطار بعيد صيتها إلى أقاصى البلدان، وسارت بشهرة مفاخرها الركبان، وهذه الأمة هى أمة مقدونيا، فقد

---

(١) ويسمى: أرسيس.

(٢) واسمه الأصلى: كودومانوس (٣٣٨-٣٣٠ ق.م).

حكمت بلاد اليونان واستولت على جميعها، ولما كان ملكها فليبش ذا قريحة سياسية، يدبر أمر ملكه بالسياسة والكياسة، خلفه على الملك ابنه الإسكندر، فوسع ممالك أبيه بمهيب سيفه، وذلك أن هذا الفتى الماهر فى الحروب، الشجاع الممارس فى الخطوب، لم يعقه عائق عن توسيع دوائر فتوحه للبلاد، وتسخيره للعباد، ما لم يكن وجد فى طريقه بحارا غير مسلوكة الموانع، أو صحارى غير مطروقة العوائق، أو جبالا شاهقة، أو مسالك متضايقة.

فقد جال الإسكندر جميع أقاليم آسيا، فدخل بلاد الهند وبدد شمل ملكها المسمى بوروس وهزمه، وكان بوروس المذكور قد حارب الإسكندر راكبا على فيل عظيم، وقد ظهر من هذا الفيل كمال الفروسية، فميزه الإسكندر ونذره لكوكب الشمس المعبود عند المقدونيين، وسمى هذا الفيل باسم اجاكس، أحد فحول اليونان، فصار هذا الاسم معلقا على هذا الفيل كأجل عنوان، ثم حرم ركوب ظهره ما عاش من الزمان، وقد عثروا فيما بعد على هذا الفيل عينه بعد مضى ثلثمائة، وخمسين سنة، وبهذا استدل أرباب التواريخ الطبيعية على أن عمر الفيلة قد يبلغ أربعمائة سنة.

ثم بعد أن غزا الإسكندر الهند بدد شمل تخت فارس أيضا، وورث ملكهم، وكان فتوح ما تغلب عليه العجم من الممالك أسهل شىء بالنسبة إليه، لا سيما مملكة مصر، لأنها لما كانت مستعبدة لهم، داخلة تحت أحكامهم الشاقة، رحبت بالإسكندر ليخلصها من ربقة الأسر، فأسس فيها حكمه من سنة ٩٥٤ قبل الهجرة المحمدية، فكانت مدة حكم الفرس على مصر حكما حقيقيا أو صوريا بقدر المدة التى مضت بين قنبيشاش إلى موت دارا الثالث، فكان ما بينهما من الدول المصرية غير معتبر لكون دولة الفرس كانت لهم بالمرصاد فى المدة المتخللة بين حكمها فى المرتين.

الفصل الخامس عشر

فى ذكر النتائج التى نشأت عن حكم دولة العجم على مصر

مما يلح للباحث عن الآثار القديمة إنه من عند مدينة طيوة فى صعيد مصر إلى محلة الدكة فى بلاد النوبة، فى مسافة خط يزيد عن ستين فرسخا، يشاهد الإنسان أن المبانى المأثورة عن البطالسة والرومانيين كثيرة باقية قائمة على سوقها، وأن مبانى قدماء مصر من الملوك الفراعنة خاوية على عروشها لم يبق منها إلا رسوم وأطلال، فاستنبط من هذا أن منشأ ذلك تخريب العجم لمبانى الفراعنة فى صعودهم وادى النيل لذهابهم إلى النوبة، حيث تركوا النهر بموازاة قرية سبوه، وأخذوا طريقهم فى العطمور لكونها أقصر من طريق النيل الصعب المسلك على الجنود لكثرة الشلالات والجنادل، وهذه الطريق العطمورية الصحرائية هى التى يتبعها إلى الآن الركب المسافر إلى النوبة، لقصرها، فلهذا كان الهيكل الذى بناه طوطوميس الثالث بقرب أبى حمد فى جنوب سبوه لم يزل موجودا، وبشمال هذا المحل إلى طيوة لا يوجد إلا مبانى مشيدة أو مجددة عمرها أو جددها البطالسة أو الرومان على آثار ما دمره العجم، وأما مبانى الفراعنة جهة كروسكو وبيت الوالى فإنها وإن كانت لم تزل باقية إلى الآن، مع أنها على طريقهم ولم تدخل فى عموم ما ذكرناه، فإنه لم يكن للعجم عليها سلاطة، لكون هذه الهياكل منحوتة فى الحجر، فليس فى طاقتهم تدميرها، فلذلك قنعوا بتعييب الهيكلين الموجودين هناك.

ومما لوحظ أيضا أن حكومة الفراعنة كانت عادلة لما كان أهاليها منقسمين إلى طوائف لهم مدخلية فى تلطيف الحكومة، وبهذا تحسنت أخلاق الحكومة والرعية،

ففى مدة حكومة العجم استحالت حكومة مصر إلى حكومة مطلقة طاغوتية، وبقيت فى تصرف أمراء العجم المختلفين فى درجات الجبروت والقسوة، كل يفعل ما تسمح به مرخصيته فى حق مصر وأهلها، فلم تكن مصر أيامهم فى الحقيقة إلا إقليما من سلطنة العجم الواسعة، بل كانت أشبه شىء بمعسكر فارسى.

ومما يظهر أيضا أن المانوية[1]، الذين هم أمناء مجوس فارس، كانوا مخالفين للكهنة، الذين هم أمناء دين المصريين، ولمخالفتهم لأهل مصر فى العبادة، لم يبنوا فى مصر لأصنامهم وأوثانهم هياكل، وإنما اقتصروا على تخريب هياكل المصريين وبيوت أصنامهم، ولم يبيحوا لهم إلا التعبد بدينهم فى محاريبهم، بل ضبط العجم أيضا أملاك الطوائف الكهنوتية، وضربوا المغارم على أصنام المصريين فى نظير إباحة التعبد بها، لكونها فى اعتقادهم باطلة. فكانت تدفعها لأصنام الفرس الحاكمين، لكونها فى اعتقاد الفرس صحيحة، وفى الواقع ونفس الأمر لم يكن هناك تماثل بين فارس ومصر، لا فى الهياكل والتماثيل، ولا فى الكتابة الفارسية ولا المصرية القديمة، بل كانت بينهما المباينة فى ذلك كلية أصلا وفرعا.

ومما يلحظ أيضا أن حكومة الفرس بقيت فى مصر محافظة على زيها فى ملابسها الفارسية، كما بقى المصريون محافظين على زيهم فى الملبس، ولم يمنعهم الفرس من ذلك، ولم يوجد على المبانى المصورة صورة أحد من من أهل فارس على صورة المصريين، وإنما وجد مصورا عليها بصورة أهل فارس الأولى فى الحروب التى انتصر فيها عليهم قدماء ملوك الفراعنة.

كذلك لم يعثر بأحد من ملوك الفرس دفن فى مصر أبدا، وإنما قد عثر على مقابرهم فى رساتيق قصور مدينة اصطخر، فإن أهل فارس كانوا تابعين لأصول زردشت، متمسكين بها، فكانوا يُصَبِّرون[2] أجسام ملوكهم ليدفنوها فى بلاد فارس، لاقتضاء قوانينهم ذلك، ولو مات ملكهم فى أى بلد، فقد نقل قنبيشاش

---

(١) نسبه إلى المصلح: مانى الذى ظهر فى القرن الثالث قبل الميلاد، وادعى النبوة سنة ٢٤٢ ق.م، وفى المانوية تظهر تأثيرات بوذية وغنوصية وزرادشتية، وأبرز عقائدها: القول بإلهين - (النور، والظلمة) - يرمزان للخير والشر.

(٢) أى يحنطونها.

جثة أبيه كورش من الشام إلى مدينة اصطخر، كرسى(*) بلاد فارس ليدفن بها، وقد زاره هناك الإسكندر الأكبر حين مروره بتلك الجهات، وكذلك أمر الإسكندر بدفن دارا فى مقابر أسلافه بفارس، ومقابر ملوك الفرس مبنية على جبل بفارس يسمى الجبل الملوكى، كما أن مقابر ملوك مصر التى فى طيوة بالصعيد مبنية على ربوة عالية فى المحال المسمى ببيان الملوك، وقد استنبط بعضهم من ذلك أن ملوك العجم قلدوا ملوك مصر فى بناء مقابرهم بالمحال العالية، بل قيل إن دارا الأول اقتدى بملوك مصر فى كون الملك منهم يبنى قبره فى حياته، فأمر ببناء قبره بفارس، وجهز الأشغال اللازمة لتشييده، وكان مرامه أن يرى قبره قبل موته، فحيل بينه وبين ما يشتهى من رؤية قبره وهو على قيد الحياة.

وقد اكتسب أهل فارس أيضا من حكمهم فى مصر بعض تمدنات مصرية اقتبسوها من الطوائف المصرية المنقسمة باعتبار صنائعها وفنونها إلى مراتب خصوصية، فكانت قبل استيلائها على مصر لم تبق المجد والشرف لطوائفها على اختلافهم إلا للقبيلة الملوكية الماجدة، وكان باقى طوائف العجم مجردين عن التمدن والمعارف، لا يعرفون الديانة، ولا الفنون والصنائع والزينة، بل كانوا دائمًا تحت الخدمة العسكرية، وليس لهم خبرة إلا بالحروب ولا شغل إلا بها، فكان كورش ملك فارس فى زمانه مثل جنكزخان فيما بعد، فى كونه صاحب قبائل مجندة يستعين بها على غزواته، حتى إنه استخدم طوائف المغول والتتار العارفين بالحروب، المهيئين لاقتحام الخطوب، فى جميع فتوحاته، فكانوا يسيرون معه أينما سار للقتال والمعارك، بل لم يكن سعى هؤلاء القبائل إلا عبارة عن انتجاع أم فارة من الأقاليم المجدبة إلى الأقاليم المخصبة، فكانت تنقلاتها مهاجرات وانتجاعات فى محاط رابعة[1]، ونزولات فى منازل رائعة.

فحكمهم على مصر علمهم الحكومة المستكملة، وفتح أعين ملوكهم لطرق السياسة والرياسة، ومعرفة الأحكام المتنوعة الأشكال، فإن مدة قنبيشاش شاهدة بذلك ودلائل قطعية عليه.

(*) أى مقر العرش. (الشروق).

(١) من الرباعة، وهى الحالة الحسنة.

وبيانه إنه لما قامت فى مدينة فارس فتنة عظيمة ظهر فيها سمرديوس الساحر، وتمكن من كرسى الفرس بدعوى إنه سمرديوس أخو قنبيشاش، وظهر إفكه، وخلعوه من الملك، وأرادوا أن يؤسسوا حكومة فارسية جديدة، فاختلفت الأحزاب فى صورة تلك الحكومة وتشكيلها، فجمعوا جمعيات ومجالس، وصاروا يتكلمون فيها بالخطابات الرسمية والمقالات السياسية، كل منهم يبدى ما يستحسنه فى المشورة، فبعض الخطباء أشار عليهم بترتيب المملكة المربوطة بالقوانين والأحكام، المشروطة بالسير على أصول العدل بالإتقان والأحكام، وبعضهم أشار بالحكومة الالتزامية المودعة بين أيدى الوجوه والأعيان، ومجلس الجمهورية المؤلف من أمراء البلدان، وبعضهم ارتضى الجمهورية الأهلية المؤلفة من وكلاء الأهالى والرعية، على اختلاف الدرجات، لا يختص بمزية الرأى فيها إنسان دون إنسان. فلا شك أن هذه الآراء لم تكن تخطر لأهل فارس ببال لولا قدومهم فى مصر وحكمهم فيها مدة أجيال.

بل تقسيم مملكة العجم إلى إيالات وعمالات وكور فى أيام دارا الأول، إنما كانت اقتداء بملوك مصر فى تقسيماتهم التى صار عليها فى جميع الدول المعول، فبهذا التقسيم انتظمت أحوال ممالك العجم، وحسنت عندهم الإدارة الكاملة، والسياسة الفاضلة، ودخل جميع أقاليمهم المختلفة تحت قانون عام، واتحدت فى سائر ممالكهم الأصول والأحكام، وهذا بعينه هو أساس الحكومة السياسية على نسق الحكومة المصرية، فقد صارت بلاد فارس حكومة ملكية، بعد أن كانت حكومة عسكرية، والفضل فى جميع ذلك لمصر المحمية.

وبالجملة، فإذا أردنا استخراج المنافع التى بقيت عند ممالك الأمم المتمدنة التى فتحها العجم، وفضلت بها فضل المحكوم على الحاكم، استنتجنا أن تمدن جميع هؤلاء الأمم، التى صار عندها معلومات تمدنية، وأحكام قانونية، هو السبب فى هدم أساس مملكة العجم واستئصالها، بعد أن بلغت ما بلغت فى التمكن مع استدامتها على الطغيان والعدوان، وعدم معاملتها رعاياها بالعدل والإحسان، فانقرضت هذه المملكة الفارسية العجيبة الظالمة، وزال ملكها بمصر وأغلب البلدان،

ولم ينفعها الخمسة ملايين من العساكر التى رتبها شيارش للتغلب والاغتصاب، وكان سبب انقراضها فى مصر قيام المصريين عليهم، وخروجهم عن طاعتهم، وشجاعة اليونان المعاهدين للمصريين وصلابتهم فى الحروب، وملازمتهم لاقتحام هذه الخطوب، وتصميمهم على هزم العجم، فغلب التمدن الكامل على الظلم والجبروت.

فانقراض حكم الفرس بمصر فتح لمصر تاريخا جديدا على نسق جديد، فى الوقائع الزمانية، ومزايا حديثة عادت عليها بالفوائد، وذلك أن استيلاء الإسكندر وخلفائه على مصر بعد الفرس كان أخف ضررا على أهلها من حكم الفرس، وذلك لأن أمة اليونان القديمة كانت أمة عاقلة، تلائم أحوال جميع الأمم، وتوافق إدارتها لطابع ذلك الزمن القديم، لا سيما وأنه قد كان بينهم وبين المصريين سابق عهود ومحالفات جعلتهم حزبا واحدا على الفرس، وكذلك كان بين مصر واليونان روابط محبة وشرائط ومودة باشتراكهم فى العلوم والمعارف الحكمية، والتآليف والتصانيف النافعة، والقرائح التمدنية، والعقول الذكية، واشتراكهم فى الأمور الدنيوية، والشوكة البرية والبحرية، فكل هذه المشاركات أوجبت الوصلة الباطنية والاتحاد القلبى.

المقالة الثالثة

فى الدول الثلاث الأخيرة إلى تاريخ أمـر الملك طيوديس قيصر الرمانيين، وهى من سنة ٩٥٤ إلى سنة ٢٤١، وفيها عدة أبواب.

الباب الأول

فى ملوك الدولة الثانية والثلاثين، وهى الدولة المقدونية الأولى.
وفيه فصول.

الفصل الأول

فى بيان هذه الدولة ومدة حكمها

كان ابتداء هذه الدولة اليونانية، التى عرفت فى التاريخ بالدولة المقدونية الأولى، ابتداء من سنة ٩٥٤ إلى سنة ٩٢٧ قبل الهجرة[١]، فكانت مدة حكمها سبعا وعشرين سنة، وعدد ملوكها ثلاث، ورأس هذه الدولة الإسكندر الأول، الملقب أيضا بالإسكندر الأكبر.

بهذه الدولة انتهت سلسلة الدول المصرية العائلات التى ذكرها المؤرخ مانيطون فى تاريخ مصر، فمن هذه الدولة وما يذكر بعدها إلى فتوح الإسلام ليس الاعتماد فيه إلا على ما يفهم من آثار العمارات، مما هو مكتوب عليها ومفهوم منها، مع ما يضم إلى ذلك مما يستفاد من كتب اليونان والرومانيين المتداولة عند الأمم، وما ترجم منها فى الألسن المختلفة.

فما يدل من الآثار المصرية على ملوك هذه الدولة مصراعا باب متخذ من حجر الصوان وجد فى هذا العهد بجزيرة أسوان، مكتوبا عليه عنوان الإسكندر الأكبر، وكذلك وجد بالكرنك مقصورة من حجر الصوان منسوب بناؤها لفليبش أريد بن أخى الإسكندر وكافل ابنه الإسكندر الثانى، وكذلك صار استكشاف بعض تصاوير بهيكل بالكرنك ولوقصر مكتوبا عليها اسم الإسكندر الثانى ابن الإسكندر الأكبر، تدل على أنه من ملوك الدولة المصرية، مع ما يضاف إلى ذلك كله مما ذكره المؤرخون فى شأن ملوك هذه الدولة وبيان الوقائع والحوادث الحاصلة فى أيامهم، كما ستعرفه فى الفصول الآتية.

---

(١) بدأت هذه الدولة سنة ٣٣٢ ق.م.

الفصل الثانى

فى مناقب الإسكندر الأكبر، وفتوحه لمصر وبنائه الإسكندرية

رأس هذه الدولة المعروف بالإسكندر الأول، ويسمى أيضا الإسكندر الرومى، ومع أنه يلقب أيضا بذى القرنين المذكور فى القرآن الشريف، فهو الإسكندر المقدونى ابن فليبش ملك مقدونيا، وأمه تسمى لينبادة، أناط أبوه فليبش أرسطاليس الحكيم بتربيته مدة شبيبته، فكان من مبدأ أمره تلوح عليه سمات النجابة، ويستبين من حاله أنه سيصير يوما من الأيام مفردا فى الدنيا، ظاهرا على ملوكها، أن يفعل من الفتوحات العظيمة ما يخلد به اسمه فى دفاتر مشاهير الرجال.

وقد سبقه أبوه بالنصرات العجيبة فى الحروب والفتوحات، ولما شرع أبوه فى غزوة مدينة بيزنطيا، التى خلفتها القسطنطينية، كان عمر الإسكندر نحو ست عشرة سنة، فأقامه مقامه فى حكومة مملكة مقدونيا ولواحقها، وفى أثناء هذه النيابة اجتهد الإسكندر فى تسخير الممالك المجاورة لمقدونيا، وكانت قد أظهرت العصيان.

ولما صعد على سرير ملك أبيه وهو فى سن عشرين سنة فتح شمال روم إيلى وسواحل إيطاليا وأدخل اليونان تحت طاعته، وكانوا قد خرجوا عليه استضعافا له وظنا أنه لصغر سنه لا يستطيع تذليلهم، ودمر مملكة طيوة اليونانية وأخذ مدينتها عنوة وأفنى أهلها، ولم يستثن من قتلهم إلا عائلة فندروس الشاعر، ثم أعلن حرب فارس، وارتضاه اليونان أمير جيوش جميع الممالك اليونانية المصاحبة له فى هذه

الغزوة، فقاد ثلاثين ألف مقاتل من المشاة وخمسة آلاف فارس من الفرسان وسار بهم قاصدا بلاد فارس، فاجتاز بوغاز كليبولى فهزم عسكر دارا على سواحل نهر استُولى فى أناطولى، فمرض مرضا شديدا ألجأه إلى الإقامة فى طرسوس زمنا، فلما شفى هزم دارا أيضا عند نهر إيازو فى إقليمى سلقفة وأدنة، وفى هذه الواقعة أسر عسكر دارا، وعاملهم بأحسن المعاملة الملوكية، وأخذ عقب هذه النصرة صور وصيدا وفلسطين وغزة، ودخل مصر واستولى على جميعها بالحلم والعدل واستمالة قلوب أهلها وترتيب إدارتها وسياستها القديمة على ما كانت عليه، ولم يغير شيئا من عوائد المصريين، وتوجه إلى كاهن المشترى فى واحات سيوة، فاستجوب الكهان، ولم يظهر نفسه، فعرفه الكهان، وأعلنوا بأنهم يعهدون إنه ابن المشترى، الذى أصل هيكله فى مدينة طيوة، وأن سره سرى إلى معبد سيوة، ومع حكاية المؤرخين عن(*) سفره بتلك الجهة فلا يوجد الآن من آثار القدماء ما يدل على سفر هذا الفاتح، لا بالكتابة ولا بالنقش، بل لم يوجد إلى الآن اسمه مكتوبا إلا على مصراعى باب مصنوع من حجر الصوان وجد فى هذا العهد بجزيرة أسوان، ومرسوم عليه عنوان الإسكندر الأول، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الفصل الذى قبله، ولم يبق من آثاره غير ذلك إلا آثار مدينة الإسكندرية التى اختار موقعها فى البرزخ الذى بين بحيرة مريوط والبحر المالح فى غربى النيل.

وقد كان هذا المحل قرية قديمة تسمى راقودة، فدخلت فى سور الإسكندرية، وأبقى اسم راقودة لخطة بالإسكندرية بنيت على آثارها.

وقد رسم الإسكندر صورة مدينته الجديدة، وجعلها على نسق المبانى المقدونية، وقد خطط محل أساساتها بالدقيق المدخر لمؤنة العساكر، فبنيت أسوارها على هذا التخطيط، وكان قطر محيطها لا ينقص عن ثمانين غلوة سهم، وكان المعمارى المسمى دينارخس اليونانى هو المأمور بإجراء عملية الرسم كما رسمه الإسكندر.

وقد عين الإسكندر بنفسه محال المبانى العمومية والهياكل، سواء كانت معابد أصنام اليونان أو أصنام المصريين، وهذا دليل واضح على إباحته الديانة، بل نص المؤرخون على أنه صرح للمصريين بإباحة ذلك يوم فتوحه، فهذا الصنيع لم يخطر

(*) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

مثله لعقول العجم أيام حكمهم، وهو يدل على علو درجة الإسكندر فى التمدن وحسن السياسة والتدبير، فإن معابد المصريين على مقتضى معتقدهم واجبة البناء فى هذه المدينة الجديدة، وقد أحدث الإسكندر لهذه المدينة العمران، حيث جلب إليها من المدائن المصرية أناسا كثيرين تصير بهم آهلة عامرة، وجعل فيها محافظين مقدونية، وأذن لكثير من اليونان وأهالى أناطولى وغيرها من البلاد المشرقية أن يستوطنوا بها، وفتح أبوابها لجميع أهل الملل والدول، وأعدها مركزا جديدا لتجارة أهل المشارق والمغارب، فصارت كذلك على مدى الأزمان، فهى إلى الآن رابطة لزومية ومدينة مركزية لتجارة أوروبا وآسيا وإفريقية، بل وأمريكا.

وقد رزقها الله تعالى بفاتح آخر مقدونى الإقليم، مخلدا لاسم المشروع الجسيم، أشرق طالع سعده على أفق مدينة سلفه، فى زمن طويل من بعده، وقد كادت أن تكون فى نومة أصحاب الكهف والرقيم، فأعاد إليها شبابها، وألبسها من الزينة إهابها، هيأها لمقاصد سامية، ومراصد عالية، وأعاد إليها المآثر الدوائر بمقتضى أحوال لزومية، ومساعدات وقتية، وتنظيمات أوروباوية. وهذا المقدونى الثانى، المحمود الاسم الكريم بالمثانى، ساكن الجنان، الحاج محمد باشا علىّ الشان، جليل البرهان، أنجز دوام ما قصده الإسكندر ونواه، وذلك مما تفضل عليه به مولاه، مما يعود بالمنافع الجليلة على الديار المصرية، وينتهى به الحال إلى تمدن إفريقية.

وإلى هذا العهد لازالت هذه المدينة تتزايد فى درج الكمال، وبلوغ الآمال، وسيأتى الكلام على معبد تمدن الديار المصرية، وبيان مفاخر الإسكندرية فى الحكومة الإسمعيلية[١]، المحفوفة بالعناية الصمدية.

ثم لما قصد الإسكندر السفر إلى آسيا من جهة الشام، ليستمر على الغزو والفتوح، قلد ولاية مصر للأمير أقليومنوس، وسار هو حتى دخل إلى آخر حدود آسيا، وفى عودته من مصر إلى آسيا انتصر على دارا النصرة الأخيرة بقرب مدينة أربل جهة الموصل، وكان ذلك فى سنة ٩٥٣ قبل الهجرة[٢] المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية.

---

(١) حكومة الخديو إسماعيل.

(٢) أى سنة ٣٣١ ميلادية.

الفصل الثالث

فى ذكر واقعة أربل

كانت هذه الواقعة ختام دولة الفرس فى حكمهم على الممالك المتكاثرة، وبيان ذلك أن جيشى مقدونيا وفارس كانا متباينين عددا وبطشا، فكان جيش دارا مؤلفا من ستمائة ألف من العساكر المشاة وأربعين ألفا من الخيالة، وكانت عساكر الإسكندر لا تزيد على أربعين ألفا من المشاة ومن خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف فارس، ولكن عساكر الإسكندر كانوا أرباب شهامة وقوة حماسية، وأما العجم فكانت جنودهم أقواما متجمعة وأخلاطا مستهجنة وهمجا مستعجمة لا جنودا مجندة بحيث لم يتكوّن منها جيش منظوم مؤلف من كماة أبطال وحماة فحول رجال.

وكانت تعبية الجيشين على شكل واحد، فقد رتب كل من الفريقين جنده صفين، فجعل الإسكندر الفرسان جناحى جيشه ميمنة وميسرة والمشاة قلبا وكبدا له، وجعل ضباط المشاة والفرسان تحت قيادة ملوك الطوائف الذين جاءوا معه من ممالكهم، وجعل الحكام والأمراء أرباب الرياسة العالية من أخصاء الملك وأمنائه.

وجعل الفرس مواجهة صفهم محصنة بمائة عربة حربية مسلحة بالمناشير والمناجل وخمسة عشر فيلا مركوبة بالعساكر، وكان مستقر دارا بينهم فى مركز الصف الأول، محروسا بالحراس الملوكية المنتخبين من شجعان جنده، وبالعساكر اليونانية المستخدمة عنده، وبوجاق العساكر المشاة ممن أدخلهم فى خدمته لما عهده فيهم من الحماية ومقاومة يونان المقدونية المزراقجية.

ولما رأى دارا أن صفوف عساكره أكثر امتدادا وانبساطا فى الصف من عساكر الإسكندر، أضمر أن يغتنم فرصة ذلك بالإحاطة على صفوف عساكر الإسكندر ليحصروهم من جميع جهاتهم، ويأخذوهم غيلة من كل جانب، ولم تفت هذه المكيدة الحربية الإسكندر، بل تداركها حيث أمر حاكم الصف الثانى إنه إذا هجم عليه عدوه من الخلف يدير وجه الصف إليه ويقاومه، أو يرتب عساكره متقاطعة تقاطعا صليبيا فى حالة ما إذا جاء العدو للهجوم على جوانب الصف، ووضع الإسكندر للتحصين أكثر عساكره المقوسين والمقلاعجية ورماة النبال والأحجار فى واجهة الصف الأول لمقاومة العدو ورد عرباته المسلحة بالمناشير والمناجل، ولإرعاب خيل تلك العربات وتنفيرها بتساقط السهام والنبال والأحجار على وجهها كأمطار السماء، وأمر الإسكندر قواد جناحى جيشه أن يمدوا صفوفهما مدا واسعا، بشرط أن لا تضعف قوة الصف بالمد والانتشار، وقد جعل أيضا فى المعسكر بعض قراقولات لحفظ الذخائر والأمتعة، وللمحافظة على أسرى الفرس المسجونين فيه، وكان من جملتهم أم دارا وأولاده، وجعل إمارة ميمنة الجيش لنفسه وإمارة الميسرة للأمير بارمنيون.

فلما تقابل الجمعان تبين للإسكندر أن دارا دبر له كمينا فى موقع من المواقع فانحاز عنه الإسكندر واجتنبه، ووسع جيشه على البعد من هذا الكمين جهة اليمين ليأمن من هذه المكيدة، فكان العجم يزحفون على جيش الإسكندر بحسب حركة جيشه وموقع عساكره، ثم أدرك دارا أن القصد من حركة جيش الإسكندر إنما هى زحزحة جيشه من المحل الذى أصلحه بالتسوية إلى أرض مضرسة بالارتفاعات والانخفاضات لمنع عرباته المسلحة وتعجيزها عن المسير، فأمر فرسان الجناح الأيسر، الذى هو أبسط وأوسع من جناح جيش الإسكندر، ليمنعوه عن الانبساط والاتساع زيادة عما هو عليه، فلما أحس الإسكندر بذلك منهم بعث فرسانه بصدهم عن ذلك على قدر الإمكان، فانكمشت عساكر الأعجام وانضمت، ثم حملت على العدو حملة عظيمة والتحم القتال.

وكان عساكر العجم أكثر عددا من عساكر المقدونية، وأجود سلاحا وخيلا،

ومع ذلك فعساكر الإسكندر تجلدت وتثبتت أمام العدو حتى كلت وتعبت من مطاردة فرسان العجم، ثم أخذت فى الثبات والبسالة فوق طاقتها، وتمادت على ذلك، فألجأت فرسان العجم إلى الفرار.

فعند ذلك أطلقت الفرس عرباتها ذات المناشير والمناجل على مزراقجية[١] المقدونية قاصدة اختلال نظامها وتبديد شملها، فكان ذلك ايضا بدون طائل، لأن المزراقجية صاروا عند ذلك يدقون بأسنة رماحهم على درقاتهم فتحدث عنها قعقعة عظيمة صوتها مزعج للخيول، وجعلت ترمى النبال عليهم من كل جانب، فبهذه الوسيلة جفلت الخيل ورجعت ناكصة على أعقابها، فهجمت على عساكر أصحابها فأوسقتهم[*] جراحا وجعلت كيدهم فى نحورهم، وتعرض عسكر الإسكندر لبعض عربات العجم بالقبض على زمام خيولها فأوقفوها وأنزلوا من فيها وذبحوه على محله، وبعض عربات العجم دخلت فى الانفراجات المتخللة بين الصفوف التى أمر بانفراجها الإسكندر بعبورهم، فاستولى عليها المقدونية بدون أن تضرهم فى عبورها بشىء.

وقد فهم الإسكندر من دارا أنه يريد أن يدبر حركة أخيرة ليهجم على جيشه بجميع جنوده دفعة واحدة، فخشى الإسكندر من هذه الحملة على جنوده لقلتهم وكثرة عدد العدو، وخاف أن ينهزموا بالرعب حين الانقضاض عليهم، فدبر حيلة لإحياء قلوب عساكره وانتعاشهم، وكان معه بالمعسكر شخص يحسن العرافة وزجر الطير يسمى أرسيطاردة، فأمر الإسكندر أن يلبس حلة العرافة البيضاء، ويقبض بيده على غصن من شجر الغار، ويزجر الطير، ويبشر بالخير، ففى أثناء الخطر والتردد فى الظفر دنا هذا العراف من الجيش ووقف فى مركزه وصاح بأعلى صوته معلنا للبشارة قائلا: قد لاح لى أن عقابا باسطا جناحيه على رأس الإسكندر، وهذه بمقتضى التجاريب عندى دلالة باهرة على النصر والتأييد، وها هو العقاب بمرأى من أبصاركم، وأشار بأصبعه إلى جهة السماء، فأحدق الجميع

(*) لعل المراد: «فأوسعتهم جراحا». (الشروق).

(١) المزراقجية: هم المتسلحون فى القتال بالمزاريق، وواحدها: مزراق، وهو الرمح القصير.

أبصارهم، وشخصوا إلى ما أشار إليه، وتخيلوا أنهم رأوه بالأبصار، فدبت فى عروق أبدانهم النخوة، وداخلهم الحماس والفتوة، فعادوا بالجملة على عدوهم بقوة ونشاط، وبسالة وشجاعة وسرور نفس وانبساط، وشقوا صفوف الأعداء ومزقوهم كل ممزق، وشتتوا شمل فرسانهم، فلما رأى الملك ذلك لحقهم بخواص جيشه وحرسه، وتم هزيمة الأعداء من جناحهم الأيسر، وسقاهم فى الوغى كأس الموت الأحمر(*)، فلما تمت عليهم الهزيمة رجع الملك القهقرى، حيث لا موجب لاقتفاء آثارهم، ثم انعطف بالحملة على الفرقة التى كان فيها دارا، فلما التقى الصفان، وكان كل من الملكين بمرأى من صاحبه ومسمع، قويت عزيمة الجندين، وتحركت همة الجمعين، وقد كان دارا راكبا عربته المسلحة، وكان الإسكندر أيضًا راكبا على ظهر جواده، وحوله حرسه من فحول رجال أجناده ممن يفديه بنفسه، فاشتد القتال، واتسع المجال، وسالت الدماء فى ميدان النزال، وقد فوق الإسكندر سهمه وسنانه فطعن بذلك ركاب الملك دارا فخطر فى الظنون أن دارا هو المطعون، وكثر اللغط بذلك، ودارت الألسنة أن دارا لا محالة هو الهالك، فشدوا عليه النكير، ودعوا هنالك ثبورا حيث هو قد صار من القادمين على منكر ونكير، فاختل نظام جيوش العجم، وفرّ أقارب دارا وأحبابه، حيث أيقنوا بالتلف والعدم، وفارقه كل من كان على ميسرة عربته لظنهم موته، وأما من كان على يمينها فقد علم الحقيقة، فبادر بأخذه وتوصيله إلى مركز جنوده، ليكون فى أمن عليه وأمان، واطمئنان من غائلة الطعان، فلما رأى دارا إنه معرض للخطر، وأيس من بلوغ الوطر، سل خنجر من غمده، وهم بقتل نفسه ومفارقة جنده، وما حمله على هذه العزيمة إلا تخوفه من عار الهزيمة، التى هى عند أهل الحروب مثلبة ذميمة، ثم رأى أيضًا أن عساكره لم يزل فيهم الرمق، وربما ساعدهم الدهر والتأم شملهم المفرّق فاستحيا أن يتركهم وحدهم لحومة الميدان، ويفارقهم مفارقة الجبان، فاستبقى على نفسه، ولم يسمع فى تعجيل حلوله برمسه، وأما جمعه فكانوا بين الرجاء والخوف، فارتخت أقدامهم شيئا فشيئا، فانفرجت صفوفهم، وأرغمت أنوفهم،

(*) الموت الأحمر: أى القتل أو الموت الشديد. (الشروق).

فلم تكن هذه واقعة قتال، بل كانت مذبحة كاملة الاختلال، فلما أيقن دارا أن حينه قد حان، وإنه قد أمن الدهر فخان، عطف على وسائل النجاة وعول، واقتفى جنده أثره وأولوا صريح ما لم يتأول، وتفرقوا فى الفلاة طالبين النجاة، فاقتفى الإسكندر أثره سائرا إلى أربل ظنا أن يجد دارا هناك مع أتباعه، ويظفر بذخائره ومتاعه، فوجد أنه ترك له خزائن ماله غنيمة، بل ترك قوسه ودرقته واختفى غب هذه الهزيمة.

فهذه آخر هزيمة للفرس ونصرة للمقدونية، خسر فيها العجم سلطنتهم الباهرة، ودولتهم القاهرة، فقد قال المؤرخ أريانوس[1]: إن العجم هلك منهم فى هذه الواقعة ثلثمائة ألف نفس، غير الأسرى، وهذا إن لم يكن صحيحا فلا أقل من كونه يدل على أن خسارتهم كانت جسيمة جدا، وأما جند الإسكندر فلم يهلك منهم على ما قاله أريانوس إلا نحو ألف ومائتى نفس، أكثرهم من الفرسان، وهذا أيضا من باب المبالغة التاريخية فى القلة من طرف مؤرخى اليونان، وفى الحقيقة كانت هذه الواقعة بقرب محل واقعة أيزو، فى سهل بالموصل، على مقربة من مدينة أربل، فبهذا اشتهرت هذه الواقعة بهذا الاسم، وهو واقعة أربل.

ثم لازال الإسكندر يقفو أثره من محل إلى آخر ليعلم خبره، وأين مستقره، فوجده قتيلا قريبا من دمغان، بإقليم أذربيجان، فأسف عليه كل الأسف، وعلم أن قاتله أحد قواده حيث لم يوافقه دارا على الهروب، وارتكاب أكبر الذنوب، فصنع له جنازة عظيمة ملوكية، ورجع من حيث أتى لمقاصده الخصوصية.

وأول شيء فعله الإسكندر بعد النصر والفتوح، تقريب القربان وذبح الذبائح، وشكر إلهه وإظهار التهانى فى الغبوق والصبوح، ثم أنعم بالصلات والعوائد، والمنح الجزيلة الفوائد على جميع من امتازوا فى الوقائع من الأبطال، وحازوا قصب السبق فى حومة النزال، فقد منحهم أيضًا المنازل والقصور، والمناصب والوظائف، وجعلهم من ولاة الأمور، ولما كان شاكرا لفضل أمم اليونان، حيث قلدوه الإمارة

---

(١) مؤرخ من بيثينيا، عاش فى القرن الثانى الميلادى، وكتابه (تاريخ الإسكندر) يعد المصدر الأساسى فى تاريخ تلك الحقبة.

العظمى على عموم جنودهم المختلفة باختلاف البلدان، ومنحوه الرياسة العمومية على سائر الجيوش اليونانية، أمر برفع ما كان عليهم من التكاليف، واستمال قلوبهم إليه وألفها أحسن تأليف، وأعاد لهم ما سلب منهم من الخصائص والمزايا، وحرر مدنهم وأعتقها ورفع عنها المغارم ومنحها بالعطايا. وبالجملة، فقد أظهر للجميع ميله إلى الفضائل، وحبه لإحياء مكارم الأخلاق وإماتة الرذائل، وإنه أهل وفاء وأمانة، وصاحب عناية وصيانة، وقيام بأداء الواجبات والحقوق، ومحب للبر ومبغض للعقوق، لا يميل عن العدل والإحسان، ويحب أن يقتدى به فى ذلك كل إنسان. وبالجملة، فقد كان يسلك مع رعاياه سبل الفضائل ومكارم الأخلاق، حتى اشتهر بالمكارم فى سائر الآفاق.

الفصل الرّابع

فى دخول الإسكندر الأكبر فى مدينة بابل بالعراق ووفاته بها

قد سار الإسكندر قاصدا مدينة بابل حتى لم يكن بينه وبينها إلا فرسخ ونصف وإذا بمشايخ أهل العراق الذين كانت لهم يد فى رصد النجوم خرجوا إليه من المدينة وتمثلوا بين يديه وأخبروه بأنه ظهر لهم من التنجيم ومن علوم أحكام النجوم القديم أن دخوله بمدينتهم يعود عليه بالخطر، وإنه يموت بذلك، كما بدا لهم من الطوالع وظهر، ورغبوا كل الرغبة أن ينصرف عنها إلى غيرها من المدائن، فتطير من ذلك وتشاءم، ولم يدر أن المقدر كائن، فبعث بعض أمرائه إلى هذه المدينة، وسار إلى معسكره وقد أضعف شك التنجيم يقينه، فوصل إلى معسكره بعد مسير عشرة أيام، وكان فى المعسكر جماعة من حكماء اليونان العظام، فقدموا عليه للتهنئة والتبريك، وعلموا ما فى نفسه من الوسوسة والتشكيك، وإنه عدل عن دخول بابل لما أوضحه له المنجمون من الدلائل، فأقاموا الحجج والبراهين على أن أحكام التنجيم مجرد دعوى ليس تحتها طائل، وأن زعم الاطلاع على الغيب من قبيل إفك بدون شك ولا ريب، وأن تنجيم أهل العراق من قبيل الزندقة والنفاق، فطمع فى السير إلى بابل مع جميع جنده، وكان قد بلغه قدوم الوفود من جميع بلاد الدنيا إليها، وأنهم ينتظرون قدومه، فجد السير بكل جهده، فلما فرح بذلك واستبشر، وزال عنه الوسواس والشر، طرح قول العراقيين وراءه ظهريا، وصار التشاؤم من

قولها نسيا منسيا، ودخل هذه المدينة التى هى مركز الجمعية العمومية، مع غاية الأبهة والطنطنة المشرقية، ثم تقابل مع سفراء الملوك العظام، وأظهر الشمم وعلو الشأن مع الترحيب والإكرام.

ومكث فى بابل نحو سنة يجدد فيها الأعياد والمواسم، والضيافات والولائم، ولم يحد عن طريق الصواب بشىء من أنواع الظلم والارتكاب، ما عدا ارتكاب اللذات والانهماك على الشراب، فبينما كان ذات ليلة فى مجلس اللذات والشهوات، إذ أسرف على نفسه وأفرط فى السكر والمقدر لا شك آت، فالتمسوا منه فى مجلس الشراب إعادة الحانة والمدام، وأن يشرب على صحة كل واحد من الندامى نحو جام[1]، وكانوا نحو العشرين أنيس، كل واحد منهم هو نديم له وجليس، فأجاب هذا الالتماس، وشرب العشرون عن محبة كل واحد كاس، ثم استدعى بقدح كبير المقدار، يسمى هرقلوس الجبار، يسع ملء ست زجاجات فشربه مرتين، وأراد أن يظهر الثبات فوقع مغشيا عليه وانكب على محياه، فأصيب فى الحال بشديد الحمى، فما هنأه أحد ولا حياه، بل نقلوه فى فرشه فاقد الشعور، فلازمته الحمى المتقطعة بالمرور والعبور، فكان إذا فارقته الحمى يأمر وينهى بما يخص إرسال الجنود المقدونية، لجهات الغزو برية وبحرية، ظنا أن زمان مرضه قصير، وأن أمره إلى استكمال فتوحاته وحفظها يصير، فلما رأى أن حياته على شفا، وإنه قد أيس من البرء والشفا، وإنه قد ضعفت حواسه، وانقطعت أنفاسه، خلع خاتمه من أصبعه وسلمه إلى الأمير برديقا، وأوصاه أن ينقل جثته إلى هيكل المشترى بواحات سيوة ليدفن هناك بين الأصنام لا بين الناس.

ومع إنه كان على آخر رمق فكان يظهر التجلد والقوة، فقد أسند ظهره ذات يوم على وسادة ومد يده يقبلها جميع الجند حسب العادة، فسأله بعض كبراء دولته عمن يخلفه على هذه المملكة الجسيمة، فقال: خليفتى عليكم أصلحكم بحفظ ناموس الملك والطريقة المستقيمة، ثم قال: إنى لأرى أنه لابد أن يقع بينكم الفشل والشقاق، وأن لا يكون بينكم اتحاد واتفاق.

---

(١) الجام: الكأس، وجمعها: جامات، وأجوام، وأجؤم، وجوم.

وسـأله بعـضـهـم : مـتى نعـدك ممن يبـجل ويعظم ، وفى سلك أقطاب الكون وعقدهم المنظم ، فأجابه : لا استحق هذا الاحترام ، إلا إذا سعدتم بعدى وانتظم شملكم أحسن نظام ، فكانت هذه العبارة آخر كلامه ، ونهاية ساعاته من الدنيا وأيامه ، توفى وعمره إذ ذاك اثنان وثلاثون سنة وثمانية شهور ، وهذا أصح الأقوال والمشهور ، وحكم منها اثنتى عشرة سنة ، ألا إلى الله تصير الأمور ، وكان ذلك سنة ٩٤٦ قبل هجرة[١] بدر التمام ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

(١) أى سنة ٣٢٣ ق . م .

الفصل الخامس

فيما ترتب على موت الإسكندر من تقسيم ممالكه بعده، ومن حكم مصر من ذويه

لما كان قد فتح الإسكندر الممالك العظيمة، وأدخل ممالك آسيا تحت حكمه، اشتهر في البلاد المشرقية بكمال الرجولية والشهامة، بل جل في الأعين من جهة كونه فاتحا لبلاد الدنيا، وصار له احترام وتبجيل حتى قيل إن نصرته السريعة خارجة عن طوق البشر، وأنها من قبيل العناية الإلهية، فكانت سطوته موجبة لصداقة الأمم التي استرعاها، وانقيادها لحكمه مدة حياته، وكان يظن من هؤلاء الرعايا وملوكهم القيام بحقوقه بعد موته وبقاءهم تحت دولته، فلما مات فجأة لم يبق شيء من ذلك، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

ومن المجرب أن الحقوق المكتسبة بالقوة القسرية تزول بزوال تلك القوة، بل متى تجددت قوة أخرى غالبتها فإنها تنتزع بهذه القوة، أي تكتسب الحقوق بمثل ما كانت اكتسبت أولا حيث إن العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما، فالحقوق التي اكتسبت بالقوة القهرية تزول بالقوة القهرية، فكما لعب الإسكندر في ميدان حروبه باسترقاق الممالك والملوك، واستبد بحكومة هذه الممالك وأعدها حقوقا له، مع أن مبنى ذلك على التعدي والتسلط بالقوة، عوقب بنزعها من ورثته وورثائه، بل الذي انتزعها منهم بقوته هو ممن شاركه في العمل والتغلب وأعانه عليه.

ولم يعقب الإسكندر وارثا لسرير ملكه يصلح لأن يخلفه حالا ولو على مملكة

مقدونيا الموروثة عن آبائه، فضلا عن أن يخلفه على الممالك المتكاثرة، فإن الإسكندر لم يكن له من الأخوة إلا أخ لأب يدعى «فليبش أريديس»، وكانت أم هذا الولد دنيئة الأصل فأخذها فليبش أبو الإسكندر ورزق منها بذلك الولد، وكان للإسكندر أيضا ولد من زوجته باريسيته بنت دارا اسمه هرقولس، وكانت زوجته التى مات عنها، وهى روشنك بنت ملك همدان من بلاد العجم، حاملا ومشرفة على الوضع، فكان يحتمل أنها تضع ذكرا أن يخلف أباه، فكانت ولاية العهد منحصرة فى شخصين محققين وثالث مظنون.

فأما أخوه فليبش أريديس فكان معلوما حاله، وإنه غير مقتدر على حمل أعباء الملك الجسيم فلا يصلح للخلافة على ممالكه، وكان ابنه من باريسيته لا تجربة عنده ولا سبق له معرفة بسياسة ولا رياسة، ولم يكن محققا ذكورية الحمل الملوكى، وعلى فرض وجودها فالحاكم فى الحقيقة هو وصيُّه، وحكومة الوصى ضعيفة نظرا للوقت والحال، حيث إن موت الإسكندر كان بغتة بعد استيلائه على ممالك متكاثرة وخضوع ملوك قوية له، فلا يقوم مقامه على هذه السلطنة العظيمة وصى على طفل صغير، بل لابد فى حفظ هذه الممالك المختلفة المتباعدة من ملك عظيم، صاحب بأس خطير، موصوف بجميع صفات الإسكندر الفاتح لها.

فلو اتحد جميع قواد جيشه وأمراء جنوده وأعيان دولته، واتفقت كلمتهم، وكانوا على قلب رجل واحد لهان هذا الخطب الجليل، وافترقوا على وجه جميل، ولكن ترتب على أطماعهم اختلاف الكلمة، وتحقق ما أخبر به الإسكندر قبل وفاته من حصول الفشل والمشاحنة بينهم، وذلك لأنهم كانوا جميعا ما بين أرباب مجد أثيل ونسب عريق، أو امتيازات بخدامات ملكية وإمارات عسكرية، ويضاف إلى مجدهم التليد والطريف كون الحكمة الإلهية زادتهم بسطا فى الأجسام والعقول، وكان ممن امتاز منهم بهذه المحاسن والعطايا، وفاق على أقرانه بالخصائص والمزايا عدة أمراء، وهم:

برديقا، واليوناط، وأنطباطير، ولوزيماك، وبوطون، وبوطسطس، ونيارخس، وبطليموس.

ففى غداة موته اجتمعوا حول سريره، ووضعوا على ذلك السرير علامات الملك الخصوصية وسلاح الإسكندر، وعقدوا مجلسا وتذكروا فيمن يخلفه، فرأى برديقا أولوية ابنه من زوجته روشنك، القريب الولادة، ورأى نيارخس أن الذى يصلح لذلك هو ابنه الموجود المرزوق له من باريسينه بنت دارا، وقد سبق أن هذا الولد يسمى هرقواس، فنقض بطليموس كلا الرأيين، ولم يستحسن تولية واحد من النجلين، قائلا: إنهما من أسباط ملوك العجم، فإذا قلدنا الملك لواحد منهما فكأننا سلمنا بأنفسنا ملك مقدونية لملوك فارس، ثم قال: الأحسن أن توضع إدارة سلطنة الإسكندر فى يد مجلس الأعضاء من أعيان قواد الإسكندر.

فبينما هم يتداولون فى هذا الرأى إذا بصوت جهورى يسمع من خلال المجلس: ها نحن نبايع أخا الملك خليفة على سلطنة أخيه، ونلقبه فليبش، وكان هذا الاسم مألوفا عند أهل مقدونية، وقد عضد هذا الرأى رئيس الجنود المشاة، فاختلفوا على هذا الرأى، ورفضه أكثرهم، واجتهدوا فى عدم تولية أخيه، واستعانوا بفرسان الجنود، فلم يُجْد ذلك شيئا، بل ظهر فليبش أويديس أخو الإسكندر وعليه الحلة الملوكية، وتزيا بزى ملك العجم، فبايعه السواد الأعظم والجمهور من الأهالى والجنود على أنه وارث الإسكندر، فوزع الإيالات والمناصب الملكية على الضباط ومشاهير الرجال، لا سيما على من كان مقبولا منهم.

واشتغلوا بتحنيط جثة الإسكندر وتصبيرها، وكان لم يزل طريحا على فراشه محروما من الدفن مدة سبعة أيام.

وفى هذا المجلس قلدوا بطليموس نائبا على مملكة مصر وما يضاف إليها من برقة وبلاد الغرب المتاخمة لها. وبعد فليبش تولى الإسكندر الثانى تحت كفالة بيطون، فتكون عدة ملوك مصر التى من الدولة المقدونية الأولى، التى هى الثالثة والثلاثون، ثلاثة وهم: الملك الإسكندر الأكبر، وقد سلف ذكره، (والملك أرهيدة فليبش، والملك الإسكندر الثانى).

الفصل السادس

فى الملك أرهيدة فليبش[1]

يسمى هذا الملك أريديس فليبش، وهو أخو الإسكندر من أبيه، وفى الحقيقة لم يكن إلا ابن فليبش من السفاح، تولى ملك مقدونيا بالاشتراك مع ابن أخيه الإسكندر الثانى، ولم يكن له فى المنصب الملوكى على مقدونيا إلا مجرد اللقب لا النفوذ الحقيقى، فكان ملكا فى الصورة فقط، وكان المتسلطن على ممالك مقدونيا فى الحقيقة الأمير برداقا وصى الإسكندر على ممالكه، وذلك لأن الإسكندر حين حضرته الوفاة أحضر أربعة من أمراء جنوده، الذين هم من ملوك الطوائف، وجعلهم أوصياء على تقليد ممالكه لمن يستحقها، فتغلب الأمير برداقا على ختم الإسكندر عند موته، واجتهد فى أن يستولى على جميع الممالك، وطمع فى السلطنة، وكان للإسكندر الأكبر أخت تسمى قلوبطرة فتزوجها الأمير برداقا، فتحزب عليه أربعة من ملوك الطوائف ومنعوه من ذلك، وكان بطليموس إذ ذاك نائبا على مصر من طرف ملك مقدونيا، فسار برداقا فرارا من المتحزبين إلى مصر طمعا فى أخذها من بطليموس حيث يئس هو من السلطنة على مقدونيا، فالتحم القتال بينهما بقرب مدينة منف، فانهزم برداقا هنالك ومات غريقا فى نيل مصر.

وأما فليبش أرهيدس، ملك مقدونيا، فقتلته لينبادة زوجة الإسكندر لسبع سنين من حكمه، فكانت توليته فى سنة ٩٤٦ وموته سنة ٩٣٩ قبل الهجرة، وانفرد بمملكة مقدونيا الإسكندر الثانى.

---

(١) هو فليب أرهيدايوس تولى الحكم سنة ٣٢٢ ق.م.

الفصل السابع

فى الملك الإسكندر الثانى ابن الإسكندر الأكبر

هذا الملك هو ابن الإسكندر الأكبر من زوجته روشنك، بنت ملك همدان، تلقب ملكا فى طفوليته فى أيام عمه فليبش أرهيدس، ثم بعد موته انفرد بالملك الصورى، وكان النفوذ إذ ذاك للأمير أنطباطير، أحد الأربعة الأوصياء، فبعد موت أنطباطير دخل الإسكندر المذكور تحت وصاية الأمير بيطون، أحد الأوصياء الأربعة، بتوسط بطليموس نائب مصر، فعند ذلك قام ابن أنطباطير، المسمى كسندرة على الإسكندر المذكور فقتله وتغلب على مملكة مقدونيا، وقتل لينبادة أم الإسكندر أيضًا، وحمل الناس على المبايعة له على المملكة فى نحو سنة ٩٣٣ قبل الهجرة، فيكون مدة حكمه إنفرادا ست سنين.

ثم إن كلا من فليبش والإسكندر الثانى كانت مصر فى قبضتها بالتبع لمملكة مقدونيا، كالإسكندر الأول، فإن لهما آثارا بمصر دالة على ذلك، فقد بنى فليبش أرهيديس مقصورة جميلة من حجر الصوان بهيكل الكرنك، وهى فى وسط مقصورة أخرى من إنشاء الملك طوطوميس الثالث، أمام محراب هذا الهيكل، وكذلك قد وجد بعض تصاوير بهيكل الكرنك ولوقصر مرسوم عليها اسم الإسكندر الثانى، فهذا كله يدل على أن فليبش والإسكندر الثانى كانت لهما اليد العليا على مصر، وبموت الإسكندر الثانى انقضت الدولة الثانية والثلاثون، وكانت مدتها سبعة وعشرين سنة، وخلفتها الدولة الثالثة والثلاثون التى هى الدولة اليونانية الملقبة بدولة البطالسة.

البابُ الثانى

في ملوك الدولة الثالثة والثلاثين، وهى الدولة اليونانية المسماة أيضا بدولة البطالسة.

وفيه فصول

الفصل الأول

فى تأسيس هذه الدولة وما لها من المناقب

قد أسلفنا أن الأمير كسندرة بن أنطباطير قتل الإسكندر الثانى ملك مقدونيا، وتغلب على ممالكه، وحمل الناس على المبايعة له، وأن ذلك كان فى سنة ٩٣٣ قبل الهجرة، ثم بعد مضى نحو ست سنوات من تغلبه اقتسم ممالك مقدونيا مع بطليموس نائب مصر، وكان ذلك فى سنة ٩٢٧ قبل الهجرة، ومن ذلك الوقت صارت مصر فى قبضة البطالسة، مملكة مستقلة لا مشارك لهم فيها ولا منازع، ثم انضم إليها مملكة قبرص والقيروان عقب حروب عديدة، كما انفصلت عنها هذه الأقاليم واتصلت بها مرارا عديدة بالحروب المترددة. وأما ملك مصر الحقيقى، يعنى ملك الديار المصرية، فقد بقى فى أيدى البطالسة ثلاثة قرون متوالية[1]، مع حفظ الحدود الحقيقية المصرية، فكان تأسيس دولتهم سنة ٩٢٧ قبل الهجرة، وكانت هذه الدولة عبارة عن بقية الدولة اليونانية، وإنما انفردت عنها لاستقلالية ملك البطالسة بملك مصر ومضافاتها، حيث لا رابطة لمصر بمملكة مقدونيا ولا غيرها من بلاد اليونان، لا سيما بعد استبداد بطليموس الأول بحكومة مصر، وعقب السبع عشرة سنة التى كانت عبارة عن قائمقامية، وإن كانت مدتها فى الحقيقة استقلالية فعلا.

---

(١) من سنة ٣٢٣ حتى سنة ٣٠ ق.م.

قد تحققت ثمرات فتوح الإسكندر، وبدأ صلاحها فى مصر، وظهرت فيها شوكتها وبهجتها، ولكن لم تظهر نتائج عقل هذا الفاتح المقدونى وآثار فكرته إلا فى أيام البطالسة بالأصالة وبعدهم بالتبعية، فإن إدخال المعاملات التجارية والمعارف أوجبت اتحاد المشرق بالمغرب كما تخيلته قريحة الإسكندر وتصورته فطنته.

الفصل الثانى

فى الملك بطليموس الأول[1]

أول دولة البطالسة بطليموس الأول، الملقب سوطير، يعنى المخلص، وقد وقعت مصر فى نصيبه حين مقاسمة ممالك الإسكندر بين ملوك الطوائف، وكانت مصر أعظم ممالك الدنيا وأرجحها وأبهجها، وكان لاغوس، أبو بطليموس، من قواد فليبش، أبى الإسكندر، فاشترك بطليموس من أيام شبيبته فى الحروب مع الإسكندر، واقتسم معه الخطوب، فرفع قدره حتى صار رئيس فرسانه وخدمه بالصداقة فى جميع غزواته، حتى تولى بعد وفاته حكومة مصر، فصارت مصر من ذلك الحين حكومة مؤلفة الأهالى ما بين مصريين ويونانيين.

قال بعض المؤرخين: كان بطليموس اللاغوسى يعرف اعتبار مصر ومقامها وامتيازها بين الممالك، وكان مختصا من دون ملوك الطوائف بالعدل والاستقامة، منزها عن طماعية النفس، لا يخطر له ببال التغلب على سلطنة فارس، ولا أن يقلد الإسكندر، ولا أن يخلفه على ممالكه، بخلاف أقرانه، وإنما كان يتداخل عند الاقتضاء فى مصالح الدولة الفارسية لقمع مطامع غيره فقط، فكان دائما على حذر من طمع النفس، كما كان محترسا من طمع غيره فى مصر، فلذلك بقيت مصر محفوظة الناموس، لم يبلغ أمله أحد من ملوك الطوائف فى سلبها من بطليموس.

فأول ما حكم بطليموس مصر أحسن التدبير والسياسة، واستمال عقول جميع

(١) الملقب بـ «سوتر» أى المنقذ (٣٢٣-٣٠٨ ق. م).

الأهالى المصرية، وقد كان إذ ذاك برديقا وصيا على مملكة فارس، وبيده الحل والعقد، وكان بطليموس يعهد منه الطمع فى الاستيلاء على مصر، فأخذ الحذر منه، وجهز جندا عظيما للحماية، وعضد ملكه بمعاهدة الملوك الخارجية، وتحالف أيضًا مع الأمير انطيباطر والى مقدونيا وصاهره، وبينما هو يدبر أمور مملكته، ويقيم دعائم حكومته ويقوى روابط شوكته، إذ لاحت له الفرصة فى إدخال جمهورية القيروان، بالجهات المغربية، تحت حكمه، لما قامت فيها فتنة عظيمة بين الجمهورية والأهالى، فغلب الجمهور والأعيان رعاياهم، ونفوا أصحاب الأملاك من مدينة القيروان، فنزلوا مصر واستجاروا ببطليموس، فأحسن نزلهم وأجارهم حيث انطلق منهم بجنود كافية، وسفن حربية وافية، فهزم ذلك الجمهور، واستولى عليها وأضافها إلى مصر، وعاد إلى مقر حكومته مصحوبا بالهناء والسرور.

وكذلك انتهز فرصة أخرى، زاد بها رفعة وفخرًا، وهى أن الأمراء لما صمموا على نقل جثة الإسكندر إلى مقدونيا، وأحس بطليموس بذلك، بادر بالسير إلى بلاد الشام بجنده، مظهرا تأدية آخر واجب لسيده، وبمجرد وصوله وخروج الجنازة للذهاب بها إلى مقدونيا، استولى على تابوته ورجع به إلى الإسكندرية، وبنى له هيكلا عظيما، وصنع لجنازته محفلا جسيما، لم يسبق بمثله، فبهذا أحبه جميع الأهالى، ودنا منه الخاص والعام، وكان دأبه تأليف القلوب، فهرع الناس إلى الإسكندرية، وجاء إليها القاصى والدانى من جميع الأقطار، ورغب الجميع فى خدمة بطليموس، وانتظامهم فى زمرة جنوده، فحسن حال السائس والمسوس، وفى هذا الوقت بعينه خطر لبرديقا أن يغير على مصر، فهجم عليها بخيله ورجله، فانهزم عند عبوره بالنيل، فقتله جنوده وأغرقوه، وقد كان بطليموس قادرا على أن يأخذ مقدونيا بعد قتل برديقا، لما كان له فيها من الأحزاب والأحباب، ولكن آثر بها صاحبه بيطون على نفسه، فأقامه وصيا على أرهيدس، وبقى أرهيدس ملكا تحت كفالته.

ولما كان ملوك مصر فى سائر الأزمان يرغبون فى إضافة بر الشام إلى مصر، جهز لذلك جيشا، وبعث من قبله قائدا للتغلب عليها، فاستولى قائده على أصول مدن

السواحل الشامية، ولكن لم تمكث تحت يد بطليموس مدة طويلة، بل أخذها منه أنطيفونس أحد ملوك الطوائف بعد هزمه هزيمة متلفة، ولكن انجبرت خسارته فى هذه الواقعة بما اكتسبه بالاستيلاء على جزيرة قبرص وإعادتها إلى حكمه بعد خروجها عليه، وباستيلائه أيضًا على إقليم أدنة وما جرى له.

ثم إن دمتريوس بن أنطيفونس قصد مصر أيضًا، فاستشعر بذلك بطليموس، فسار إليه فى جند مؤلف من ثمانية آلاف من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان، فلما وصل إلى قرب غزة، وتلاقى الجمعان هناك والتحم القتال بينهما، كانت الهزيمة على دمتريوس، ولكن عامله بطليموس بأحسن معاملة ملوكية، حيث أعاد إليه جميع الأسرى، قائلا: ليس قصدى بالحرب مع أنطيفونس وابنه تحصيل الغنائم والسبايا، وإنما موجب الحرب بينى وبينهما مخالفة الشروط والعهود، وسلبهما من سيليقوس مملكة العراق بمحض التعدى وهتك حرمة الحقوق والمحالفات، وقد اكتسب بطليموس من نصرة غزة حيازة مدينتى صيدا وصور لنفسه، وإعادة مملكة العراق لسيلقوس، الذى استظهر به فى هذه الواقعة العظيمة، ومع ذلك لم تمكث مدن السواحل فى حكم بطليموس، بل جرد أنطيفونس وابنه دمتريوس جندا عظيما وسلبوها من يده، ولم يسلمها إلا بعد أن هدم حصونها.

وقد كان بطليموس فى الغالب منصورا فى المدافعة عن مصر، لا يغلبه غالب فى المهاجمة عليها، وأما فى حروبه الخارجية فلم يعد عليه كبير فائدة، بل كان مآل نصراته إلى الهزيمة، وعاقبة ظفره إلى الخيبة، وذلك لأن سبب نصرته فى مصر منعة سواحلها التى يصعب الدنو منها، وميل المصريين إليه، لأن ميل الرعايا لملوكهم هو حرز حريز وحصن منيع، وهو الحصن الحقيقى لحفظ الملك والمملكة، ولذلك لما أراد أنطيفونس، عقب انتصار ابنه على الجنود المصرية فى قبرص، أن يتغلب على مملكة مصر تلفت أكثر سفنه وخابت آماله وولى مدبرا.

ثم إن بطليموس لما علم بالتجربة الصحيحة عُقْم نتائج الفتوحات الخارجية اختار السلم والراحة، وأحجم عن أن يدخل فى مصالح العجم أو غيرهم، فتفرغ فى باقى مدته لتنظيم مملكته العظيمة، وعزم على أن يصرف إليها همته، وأن يبرز فى

تشييدها حكمته، فشرع فى تتميم الهياكل والقصور والمبانى والمصانع التى عملها فى الإسكندرية لتصير من أعظم مدائن الدنيا، فمن هذه المبانى ضريح الإسكندر الأكبر، الذى خفى الآن عن العيون، وظنت بأنه فى محل نبى الله دانيال الظنون، وكذلك منارة الإسكندرية التى أنشأها بجوار «المينى» البحرية لمنافع التجارات، وفوائد السياحات الملاحية والمعاملات، وهى أحد بنيان العالم العجيب الذى بقى على ممر الأزمان من عجائب الدنيا، حتى تولع به مؤرخو المتقدمين وشعراء المتأخرين، فمن ذلك قول بعضهم:

وسامية الأرجاء تهدى أخا السرى ... ضياء إذا ما حندس الليل أظلما

لبست بها بردا من الأنس صافيا ... فكان بتذكار الأحبة معلما

وقد ظللتنى من ذراها بقبة ... ألاحظ فيها من صحابى أنجما[1]

فخيل أن البحر تحتى غمامة ... وإنى قد خيمت فى كبد السما

وقال بعضهم فيها أيضًا:

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا ... كأنما فيه للنسرين أوكار

رأسى القرارة سامى الفرع فى يده ... للنوء والنور أخباء وأخبار[2]

أطلقت فيه عنان النظم فاضطردت ... خيل لها فى بديع الشعر مضمار

وبالجملة، فقد كان موضوع بناء هذا المنار بهذا الموقع ليكون علما بالليل ومرقبا بالنهار، وأن بانيه إنما هو بطليموس الأول فى أصح الأقوال.

ومن أنفع مبانى بطليموس المذكور مدرسة الإسكندرية المسماة بالرواق، حيث

---

(١) وقوله: وقد ظللتنى من ذراها بقبة إلخ. . يشير به إلى ما ذكروه من إنه كان هناك قبة أساطين من نحاس مذهب، والقبة مذهبة، وأن ارتفاع القبة نحو مائة ذراع، أو إشارة - إذا كان الشاعر من المتأخرين - إلى القبة التى بناها أحمد بن طولون من الخشب فى أعلى المنارة حين رم المنارة. (الطهطاوى)

(٢) القرارة: هى المستقر والثابت المطمئن من الأرض. والنوء: من معانيه المطر.

جمع فيها جميع علوم ذلك الوقت ومعقولاتها من فلسفة ورياضيات وطبيعيات وحكمة وآداب وإلهيات، وكانت هذه المدرسة موصلة لقصره بقرب عمود السوارى، وقد جلب إليها علماء اليونان وغيرهم من سائر البلدان، فلم يمض على الإسكندرية يسير من الزمن إلا وقد استحالت مركزا لسائر العلوم والفنون، وكانت هذه المدرسة ذات إيوانات عظيمة، ورواقات حسنة فخيمة، وأنشأ فيها خزائن كتب ملوكية جمع فيها الكتب القديمة المعتنى بها، وجلب إليها النساخين والمصححين والمجلدين والمذهبين، وكان بطليموس المذكور يستعير الكتب الجليلة من محالها فينسخ منها النسخ الجميلة ثم يرسلها لأربابها بدلا عن النسخ الأصلية المستعارة ليحفظها فى خزائنه، فكثرت الكتب النافعة المتنوعة بتنوع الفنون والعلوم، وبلغت فى الكثرة مبلغا جسيما.

وكان له مزيد عناية بالفنون البحرية وعمارات السفن، حتى كان عنوانه فى ديوان مقدونيا قبطان الأسطول، وكل هذا كان سببا لثروة مدينة الإسكندرية حيث عادت عليها الملاحة بتوارد المعاملات، فكثرت فى أيامه التجارات والمخالطات مع البلاد الدانية والقاصية والأمم الأجنبية مثل بلخ[١] وهمدان[٢] وبلاد الهند والسودان والحبشة وغيرها.

وكما كثرت الثروة والغنى، وازدحم الناس على مصر، وازداد أهلها وسكانها زيادة بليغة، كثر إيراد الحكومة، وقويت شوكتها، وعظم سلطانها، وارتفع شأنها ومكانها، فكانت قوتها العسكرية، برية أو بحرية، وكانت سفن بطليموس محامية للتجارات الواسعة، وأعلامه الملوكية منشورة على هذه السفن بجهات البحر الشاسعة، محترمة الناموس عند جميع الملل والدول.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى أيامه كان فى وسعها الاستحضار على مائتى ألف من العساكر المشاة وأربعين ألفا من الفرسان وثلثمائة من الأفيال الحربية

---

(١) مدينة تقع جنوبى نهر جيحون، وإلى الشرق من إقليم خراسان، وبين إقليمى طخارستان وجوزجان، وكانت ملتقى حضارات قديمة، واسمها الآن: باكتريا.

(٢) مدينة غربى إيران، على سفح جبل الفند، وهى التى توفى فيها ابن سينا.

وعلى ألفى عربة مسلحة بالمناشير والمناجل، وكان فى مخازن المملكة ثلثمائة ألف طقم مجهزة من الزرد، وكان بالترساخانات نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة كبيرة أو صغيرة.

وكان ما يبقى فى الخزينة فى كل سنة من الإيراد السنوى، بعد الصرف، نحو مائة ألف كيس.

وقد كانت مدينة الإسكندرية غاصة بالأهالى، وجميعهم على غاية من المحبة والمودة لهذا الملك العادل، لاعتدال حكومته، وتشويق السكان برخصة[1] التجارة والأرباح بحسن معاملاتهم مع المدن الكبيرة، فكانت أسواق التجارات فيها نافقة برواج الأخذ والعطاء، وكانت هذه الحالة تكتسب كل يوم النمو والزيادة، حتى أن بطليموس كان دائما يجلب الأهالى من مواطنهم لاستيطانهم فى الإسكندرية، وقد رغب طوائف اليهود بالنزول بها حتى تكاثروا فيها بالتناسل وعمروا فيها خطة عظيمة أضيفت إليهم.

ومما حبب فى هذا الملك رعاياه أنه، دون ملوك الطوائف، أبقى لرعيته، حين استولى عليها، أحكامها وسياساتها وعوائدها، وصورة تقسيم أقاليمها، وأباح لها التمسك بأصولها الدينية، وأبقى بها طوائف الكهان والأحبار على حالهم، وبهذا تمكنت دولته، وامتدت صولته.

ومع إنه سكن الإسكندرية، وجعلها مقر حكومته ودار مملكته، فقد أبقى مدينة منف على حالها من كونها دارا لمملكته رسما[2]، ومقر سرير الاحتفالات الملوكية والشعائر المصرية ذات الابتهاج، لا يلبس الملك التاج المملوكى إلا فيها، فكانت بمنزلة مصر القاهرة الآن بالنسبة للإسكندرية، وكان فيها الهيكل الأكبر المشتمل على الشعائر الدينية.

وفى أثناء تنظيم بطليموس لهذه المملكة المصرية كانت الدولة قد طرأ عليها ما

---

(١) الرخصة هنا معناها الإباحة، أى الحرية.

(٢) أى رسميا.

صيرها مشرفة على فتنة عظيمة، وذلك أن دمتريوس لم يقنع بمملكة مقدونيا، بل هجم على آسيا، وأراد أن يعيد جميع البلاد المشرقية التى كان يحكمها أبوه أنطيفونس، فتحزب عليه بطليموس، وأخذ سفنه الحربية ودخل فى بحر الروم، فوجد أن معاهديه من ملوك الطوائف كفوه مؤنة الحرب إذ قد غلبوا دمتريوس وسلبوا منه مقدونيا وأخذوه أسيرا، ثم مات فى أسره، ومن ذلك الوقت عاش بطليموس فى ممالكه متمتعا بالسلم والراحة بدون منغص.

ثم لما رأى أنه قد عمر وناهز الثمانين سنة شرع فى ترتيب ولاية عهده من بعده حتى لا يبقى ملك مصر بعد وفاته مترددا عرضة للشقاق، وكان له زوجتان، وله من كل منهما أولاد، فكان أكبر أولاده من إحداهما يسمى بطليموس، ويلقب قرونوس، يعنى الصاعقة، لحدته وجسارته، وكان أكبر أولاده من الزوجة الأخرى يسمى أيضًا بطليموس، الملقب بمحب أخيه، من باب أسماء الأضداد، فاختار الثانى ونصبه ولى عهده، فاستشاط أخوه من ذلك غيظا، وخرج من مصر وذهب إلى بلاد مقدونيا، والتجأ إلى ملكها سيليقوس، فأكرم نزله، ومع ذلك قتله بطليموس الصاعقة غدرا، ودعا أهل مقدونيا وترحالة لمبايعته، وصار ملكا على تلك الجهة، ثم قتل الأمراء المتطلبين للمملكة، وكانت أخته أرسنوية قد فقدت زوجها لوسيماقوس وتأيمت، وكان لها ولدان منه، فتزوجها، وقتل ولديها، ففرت إلى مصر فتزوجها أخوه بطليموس الثانى، الملقب فيلودلفيس، فلم يقتصر بطليموس على تقليد ابنه الثانى ولاية العهد من بعده، بل لإظهار حبه فيه آثره على نفسه وقلده الملك فى حياته.

وكان بطليموس المذكور قد حكم فى مصر ثمانية وثلاثين سنة، منها سبع عشرة بمنصب نائب إيالة مصر، ومنها إحدى وعشرون بمنصب ملك مصر وسلطانها، ولما أراد خلع المنصب الملوكى على ابنه عقد له موكبا عظيما وقلده ملك مصر، وكان ذلك فى سنة ٩٠٧ قبل الهجرة، ثم مات بطليموس بعد تولية ابنه بسنتين وهو فى سن الثمانين، وقد تقدم إنه كان يلقب سوطير، يعنى المخلص أو المنجى.

الفصل الثالث

فى الملك بطليموس الثانى، الملقب فيلودلفيس

تولى المملكة سنة ٩٠٧ قبل الهجرة، ولقب فيلود لفيس، أى محب أخيه، من باب التهكم والسخرية بقصد الضدية، لأنه كان يبغض أخوته، وقد تقصدهم بالقتل، وكان سنه وقت تقليده ملك مصر أربعا وعشرين سنة، وقد سار على سير أبيه، وتحقق فيه ما كان يرجوه منه من الاستقامة، حيث آثره على أخيه فى ولاية العهد عنه، وكانت مدة ملكه، التى هى عبارة عن ثمان وثلاثين سنة، مصروفة غالبا فى السلم والصلح، بل كانت خيرا من مدة أبيه.

وقد تفرغ هذا الملك إلى تقديم العلوم والمعارف، فهو الذى أمر القسيس مانيطون المصرى بتأليف تاريخ مصر باللغة اليونانية، فجمع هذا المؤلف تاريخه من الدفاتر الرسمية والتذاكر القديمة المحفوظة بالهياكل والمعابد المصرية، ولم يبق من هذا التاريخ المانيطونى إلا بعض جزئيات وصلت إلى الإفرنج فى ضمن كتب المؤرخين من اليونان والروم برسم عبارات منقولة عنهم وجدول مبين فيه ملوك مصر كان قد وضعه المؤرخ المذكور فى ذيل تاريخه وأثبته فى تاريخه بعض المتأخرين من المؤرخين السابقين على زمن الهجرة بسنين قلائل.

ثم إن ذلك الملك قوى أيضًا فى مصر التجارات، فكانت مصر فى عهده أعظم البلاد تجارة وملاحة وأسفارا بحرية وعمرانا، فقد حكى سيو قريطس: أن مدن

---

(١) حكم فيلادلفوس من سنة ٣٠٨ حتى سنة ٢٤٦ ق.م.

مصر بلغ عددها فى أيام هذا الملك ثلاثة وثلاثين ألف مدينة. فإذا صح قول هذا المؤرخ أنتج أن مصر إذ ذاك كانت أعمر بلاد الدنيا، وإلا فإن قلنا إن هذا النقل من مبالغة المؤرخين وإطرائهم، كما هو دأبهم، فلا أقل من كونه يفيد أن مصر فى هذا العهد كانت عامرة جدا. وقد كان ورث هذا الملك من أبيه ممالك كثيرة، لأن أباه كان تملك غير ديار مصر مملكة القيروان وسواحل الشام وبلاد العرب المجاورة لمصر وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم وأغلب سواحل أناطولى الجنوبية وبعض سواحل روم إيلى، فاقتنع الابن بهذه الموروثات العظيمة، ولم يطمع، كما هو الظاهر، فى الفتوحات التى تقتضى توسيع سلطنته زيادة عن ذلك، بل اقتصر على محافظة ممالكه وإدارة أنظاره إلى عمليات جسيمة تعود منها على بلاده، بل وعلى سائر بلاد الدنيا، المنافع الجمة، وهى أنفع من الفتوحات الجديدة والتوسيعات التى بدون فائدة، فاعتنى بمعرفة حقائق البلاد، واستكشافات طرق البحار بالأسفار، ليقف على معرفة المسالك والممالك، فاستكشف داخل بلاد إفريقية والبلاد التى على سواحل بحر فارس، وأرسل القبطان طيوسطينس إلى بلاد النوبة من طريق مصعد النيل ليعرف حقيقة مجراه ومنبعه، وليسخر بلاد السودان إلى طاعته، فوصل ذلك القبطان إلى جزيرة مروة، بقرب شندى، وهى جزيرة أتبرة، فى مسافة ستين يوما، وأرسل أيضًا القائد أرسطقريون إلى هذه الجهات، فجال فى هذا الإقليم أبعد من هذه المسافة، وانعطفت من هناك إلى جهة المغرب، فبهاتين السياحتين اتسعت دائرة المعاملات التجارية، وانتظمت بين مصر والنوبة، كما اتسعت دائرة المعارف الجغرافية، وأمكن الوقوف بذلك على أحوال البلاد والعباد.

قال ديودورس الصقلى[1]: إنه لم يكن قد توغل أحد فى بلاد النوبة بهذه المثابة من الدهور الخالية إلى عهد بطليموس، وإنما نهاية ما وصلت إليه المعرفة هو حدود حكومة مصر جهة الجنوب، لأن وسط بلاد النوبة لم يكن أهله يألفون الأجانب، فكان فى دخول الأجانب إليهم خطر عظيم، فلم تعلم حقائقها إلا من أسفار هذا الملك، ودخول الجنود اليونانية بها تحت قيادته. انتهى.

---

(١) ديودور الصقلى، مؤرخ معاصر ليوليوس قيصر، وأغسطس، عاش حتى سنة ٢١ ق.م على الأقل، وكتب تاريخ العالم فى أربعين جزءا.

وقد اجتهد بطليموس فى ترتيب المعاملات التجارية بين ممالكه والممالك الهندية والمشرقية، وقد جدد عملية فتح ترعة السويس التى كان شرع فيها من الفراعنة الملك نيخاوس، ومن الفرس الملك دارا، ففتح بطليموس، محب أخيه، هذا الخليج من فرع طينة القريب من تل بسطة عند الزقازيق وأوصله إلى البحر الأحمر بقرب السويس فى الجهة الشمالية، وقد أرسل طيمسطينس، الذى كان استكشف مجرى النيل فى النوبة، إلى أن يستكشف طريق البحر الأحمر وسواحله، وأرسل كثيرا من الكشافين لكشف جهات عديدة كسواحل جزيرة العرب إلى بحر الهند وأخذ مساحتها ورسمها، وأرسل سفنا أيضًا لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السودانية الداخلية، وأمرها أن تجعل فيما تستكشفه محطات عسكرية أو تجارية، وكان سير هذه السفن إلى تلك الجهات من مبنى القصير فكانت موردا للتجارات ومصدرا للأخذ والعطاء، سواء لبلاد النوبة أو لبلاد العرب أو لبلاد العجم والهند، وكان مركز التجارات العمومى مدينة الإسكندرية، فكانت محطا لرحال التجار لم تنتقل عنها فضيلة الأولية إلى غيرها ما دامت دولة البطالسة باقية، فكانت الإسكندرية قطب دائرة تجارة الدنيا.

ومع أن تواريخ الأزمان القديمة أوضحت عن مشروعات بطليموس، محب أخيه، وعن مآثره الجمة على وجه التفصيل، فلم تفدنا تفاصيل وقائعه الحربية وسياسته الخارجية وما جرى بينه وبين المقدونيين من الحروب.

وغاية ما يستفاد من التاريخ، فى مدة هذا البطليموس، أن مصر فى أيامه حفظت علو شأنها وبقاء ناموسها كما فى أيام أبيه، ولا يعلم كيف كان نفوذه عند ملوك الطوائف، ولا درجة توسطه فيما شجر بينهم، حيث كانت مصر فى الدعة والراحة وكانوا هم فى الحروب والمنازعات والفتن والاختلالات، وإنما وقع بين بطليموس وأخوته وأصهاره حرب فى الشام والقيروان أوقعه فيها أخوته بالاستظهار عليه، وكان فيها مؤيدا منصورا، وقد زوج ابنته برنيقة لأنطيوكوس ملك الشام، وشرط عليه أن يكون لأولادها الذكور منه وراثة ملك الشام بعد أبيهم، وهذا يدل على أنه كان منصورا على أنطيوكوس، ثم جهز بنته جهازا عظيما ملوكيا وأوصلها بنفسه

إلى زوجها من طريق البحر حتى دخلت إلى مدينة أنطاكية على نهر العاصى، وعمل لها الأفراح العظيمة والاحتفالات الجليلة اللائقة بمقامه ومقام صهره، ومات بعد عوده من هذا السفر، وقد كان شرع فى بناء هيكل عظيم لزوجته أرسنويه، التى هى أخته، وكانت قد فرت من مقدونيا بعد قتل بطليموس الصاعقة لولديها، ثم تزوجت به، وذلك لأن بطالسة مصر وسلوقية بلاد الروم كانوا يعتقدون أنهم ورثاء ملوك الفرس فتمجسوا بزواج الأخوات والبنات، واختصوا بتجويزه دون الملوك المقدوانية وغيرهم من الأمراء اليونانية، فهذا تسبب عنه فساد أخلاقهم، وقبح سيرهم، واتصافهم بالمساوئ والمثالب الفاضحة.

وقد تقدم أن بطليموس، محب أخيه، كان دائمًا ملتفتا لتوسيع دائرة العلوم والفنون والصنائع والتجارات، وقد سبق القول على توسيعه للتجارات باستكشاف الطرقات البرية والبحرية، وأما التفاته للعلوم فقد أكثر من تحصيل الكتب وتجسيم[1] الخزانة التى أسسها أبوه، وكانت عظيمة، فزادها من الكتب الجليلة، ففى السنة العاشرة من توليته أمر بترجمة التوراة من لسان العبرانيين إلى اللسان اليونانى، لأن كثرة الإسرائيليين وكثرة اختلاطهم مع اليونان أوجب اطلاع اليونان على كتبهم، ومعرفة عقائدهم وأحكامهم، وهذه الترجمة هى المسماة بالسبعينية، وسيأتى أن المأمون صنع فى ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية مثل ذلك.

ولما كان هذا الملك يرغب فى الوقوف على سائر الكتب المترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللسان اليونانى، لم يهمل كتب اليهود الذين وطّنهم فى بلاده.

وكان ديوان هذا الملك دائمًا مشحونا بالشعراء والأدباء وأرباب الإنشاء والمحاضرات، وكان قد شرع فى عقد المخالطة والمعاملة بينه وبين مدينة رومة، وعقد معها معاهدة، فبهذا أوجبت هذه المعاهدة تأسيس مداخلة رومة فيما بعد فى المصالح المصرية.

وقد مات بطليموس الثانى فى سنة ٨٦٩ قبل الهجرة، بعد أن حكم ثمانيا وثلاثين سنة.

---

(١) المراد توسيعها والزيادة فى حجمها.

الفصل الرابع

فى الملك بطليموس الثالث، الرحوم[١]

هذا الملك يلقب ويرجيطة[٢]، ومعناه الرحوم، لقب به من باب التهكم والسخرية، وهذا اللقب هو الذى اشتهر به، وقد لقبه رعاع الناس بلقب آخر وهو أطريفون، ومعناه المهزول. تولى على مصر سنة ٨٦٩، وقد ذكره بعض المؤرخين بهذا اللقب أيضًا، ولما خلف أباه على سرير المملكة لم يمكث زمنا طويلا إلا وقد اضطر إلى الحرب والقتال مع ملك الشام، واستمرت المشاجرة بينهما أزمانا طويلة، وذلك لأن أنطيوكوس ملك الشام كان قد تزوج برنيقة أخت بطليموس المذكور عقب طلاقها، وهربت مع ابنها فى قرية دفنة من بلاد أنطاكية، فقبض عليها سيلوقوس الثانى ملك الشام وقتلها وقتل ابنها بعد أن تغلب على ملك زوجها، فهذا أوجب حرب أخيها بطليموس ويرجيطه مع ملك الشام ليأخذ ثأرها وينتقم لها وولدها منه، فسار إلى الشام بجند عظيم من المشاة والفرسان والفيلة، وجهز سفنا حربية لتساعد الجنود البرية، فأغار على البلاد التى قبل نهر الفرات، فاستولى على مملكة أذنة وما جاورها وعلى سواحل سيواس وعلى إيالة عكا وعلى سواحل أناطولى، وجال فى ممالك أعدائه وظفر بهم فى أسرع وقت، ثم اجتاز نهر الفرات واستولى أيضًا على الجزيرة والعراق وعلى إقليمى

---

(١) حكم من سنة ٢٤٦ حتى سنة ٢٢١ ق.م.

(٢) ويرجيطة أو: يورجيتس، أى الخير.

خوزستان وأذربيجان، وكان مستعدا للتغلب على فارستان وجميع بلادها إلى بلخ وهمذان، ولولا ما بلغه من قيام فتنة عظيمة فى الديار المصرية صدته عن الاستمرار على الحروب لتملك جميع سلطنة أخصامه السيلوقية وملوك الطوائف، بل عاد إلى مصر وأبقى من فتوحاته مملكة الشام، وسلم مملكة أذنة وما جاورها لأنطيوكوس أخى سيلوقوس، وكان قد تحزب مع بطليموس وأعانه على ملك الشام فكافأه بطليموس بمملكة أذنة.

وقد أبقى بطليموس جنودا مصرية فى المدن تحت قائده المسمى زنطيبس، ودخل هو مصر مثقلا بالغنائم، ومن جملتها تماثيل الأصنام المصرية النفيسة التى كان استلبها قنبيشاش ملك العجم من مصر ونقلها إلى بلاد فارس، كما سيأتى ذلك فى الفصل الثانى عشر من هذا الباب.

ثم بعد مضى زمن يسير ظن سيلوقوس إنه تقوى على حرب مصر، فغزاها، فانهزم وخاب أمله، فاقتفى أثره بطليموس، ودخل الشام وأخذ دمشق وميافارقين وجبر رؤساء السيلوقية أن فروا إلى أنطاكية وانزووا فيها.

ثم اصطلح أنطيوكوس مع أخيه سيلوقوس وتعصبا معا على ملك مصر، فالتزم أن يعقد مع ملك الشام هدنة يترك فيها الحرب بينهما عشر سنين، ثم وقع الشقاق والاختلاف بين الأخوين المذكورين فاغتنم بطليموس فرصة العداوة بينهما فى فسخ الهدنة وأغار على الشام ودخل إلى بلاد الجزيرة، وقد كان أنطيوكوس فاقدا لمملكة أذنة مطرودا منها، فذهب إلى مصر ظنا إنه يجد فيها ملجأ وحمى عند بطليموس، فلم يصفح عنه بطليموس ولا سامحه من غدره وخيانته، بل سجنه، فدبر الهروب ورجع إلى أناطولى ومكث فيها مدة طويلة يحارب أمراء الشام.

وأما بطليموس فكان آمنا مطمئنا على سريره، مشغولا بتنظيم ملكه وتدبيره، بل كان يصرف جل زمنه فى الولائم واللذات، والحظوظ والشهوات، مما أفضى إلى تلقيبه بالمهزول، صاحب الكسل والخمول، ومع ذلك فلم يهمل فى حفظ ناموس مصر الملوكى، بل بقى ناموسها فى أيام حكمه كما ورثه عن أسلافه،

فكان له النفوذ فى مصالح اليونان، محاميا عن حقوق معاهديه المورلية، معينا لهم على مقاومة المقدونية، مساعدا لمحالفيه بالعساكر البرية والبحرية، وإذا اقتضى الحال ساعدهم بالمال، فبينما هو كذلك إذ اختلبته أظفار المنية، وحالت بينه وبين الأمنية فى سنة ٨٤٤ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وكانت مدة حكمه خمسا وعشرين سنة، وخلفه بطليموس الرابع، محب أبيه.

الفصل الخامس

فى الملك بطليموس الرابع[1]

تولى هذا الملك مملكة مصر فى سنة ٨٤٤ قبل الهجرة، ويلقب فيلا بوطور[2]، أى محب أبيه، على سبيل التهكم، لأنه أتهم بقتل أبيه بالسم، وهو رابع ملوك البطالسة اللاغوسية، جلس على سرير مصر فى أيام صباه، فكان نفوذ الحكم لوزيره سوسبيوس، كما كان له النفوذ سابقا على المملكة فى أواخر مدة بطليموس الثالث، ولأجل أن يتمكن هذا الوزير من النفوذ والانفراد بمصالح المملكة والاستبداد بالرأى والحل والعقد ترك الملك ينهمك فى اللذات والشهوات، وأرخى له العنان فى ذلك حتى لا يكون للملك وقت لرعاية الرعية، وليتباعد عن المصالح العمومية، لالتفاته لحظوظ نفسه وملاذه الخصوصية، وبهذا احتجب بطليموس عن أرباب الديوان وعن أرباب الوظائف والعمل، فكان لا يرى مأمورى المصالح إلا فى النادر، وكان لا يلتفت إلى حكومة الأقاليم والممالك البعيدة المضافة إلى مصر ولا يسأل عن أحكامها وولاتها وجنودها، مع أنها كانت مطمح نظر أسلافه فكانوا يلتفتون إليها أكثر من مصر.

فكان سلفه يبذلون الهمة فى حفظ وادى الشام الذى بين طرابلس ودمشق، وكانوا يحفظون جزيرة قبرص المحروسة بعساكرهم، حتى كان يهابهم ملوك الشام

---

(١) حكم من سنة ٢٢١ حتى سنة ٢٠٣ ق.م.

(٢) أو: فيلوباتور.

ويخشون من ملوك مصر ومن هجومهم على بقية البلاد الشامية، وكان البطالسة لهم مدن على سواحل بلاد آسيا وعلى الجزائر، وكانت الثغور والرباطات الساحلية فى قبضتهم من عكا إلى جناق قلعة وبوغاز كليبولى، وكلها محروسة بجنود تابعة لمصر، وكان لهم مدن بقيت فى أيديهم من تغلبهم على إقليم روم إيلى، فكانوا يلاحظون بذلك إقليمى روم إيلى ومقدونية، وعند الاقتضاء يبعثون عساكرهم لهذه الجهات القاصية، ولا يخشون شيئا أمامهم من هذه الممالك، وبهذه الوسائل يحكمون مصر مع غاية الأمن والاطمئنان، فهكذا كانت حالة ممالك أسلاف بطليموس الرابع، ولهم حق فى رسوخ تملكهم على البلاد الخارجية لكمال الأمن على خصوص مملكة مصر وتمكنهم فيها، ولكن أهمل بطليموس الرابع حفظ البلاد الخارجية لتفرغه لحظوظ نفسه وانهماكه على اللذات والشهوات الملومة، وقد عمى عن التبصر فى تدبير ملكه، ولم يكترث بحفظ ناموس سلطانه، فعما قريب قام عليه أعداؤه، وصمموا على قتله والاستيلاء على سلطنته.

وقد جرت العادة أن الملك الموصوف بهذه الصفات يكون سخيف العقل ضعيف الرأى أذنا[١] يصغى إلى الأغراء والتحذير، ويسمع ما يلقى إليه من التهم ولا ينقدها نقد بصير، ويعامل بالقسوة والجبروت من يتوسوس منه بسعى السعاة ووشى الوشاة، فأدخل عليه وزيره سوسبيوس الأراجيف والتخويفات التى لا أصل لها، حتى صار يأخذ حذره خوفا على نفسه وعلى مملكته، وقصد الوزير بذلك أن يبعد عنه أرباب النفوذ لئلا يقف منهم على حقيقة حاله وخيانته، فنفَّر نفس الملك من النصحاء، وأغراه على إيذائهم، حتى أمر الملك أولا بقتل أخيه مغاس لئلا يتحد مع العساكر المجمكة ويتحزب معهم عليه، وأمر أيضًا بقتل أمه برنيقة لمثل هذه الأسباب، وسيأتى قتله لأخته وزوجته، ثم قصد أن يقتل أقليومونس ملك أسبارطة الذى استضافه، وذلك أن ملك أسبارطة كان موعودا مدة بطليموس الملقب ويرجيطه أن يرجع إليه ميراث أبيه بمساعدة المملكة المصرية، وكان متعاهدا معه على ذلك، ففى زمن بطليموس الرابع التمس تنجيز الوعد فلم يجب إلى ذلك، لا سيما

(١) الأذن، بضم الهمزة وسكون الذال: من يسمع مقالة كل أحد.

وكانت فرصة تنجيز هذا الوعد أسهل شيء عليه، لأن أنطيغونس ملك مقدونيا كان قد مات وبقيت مقدونيا تحت حكومة ابنه الذى كان سنه خمس عشرة سنة، فتضرع أقليومونس إلى ملك مصر أن يمكنه من مقدونيا، فخشى بطليموس عاقبة ذلك وأبى أن يعينه مخافة أن يستولى فيما بعد على عموم اليونان ويوسع سلطنته فى أوروبا فيعود منها الضرر على مصر، فغضب إقليومونس من امتناعه، وتكلم وهو فى مصر فى حقه بما لا يليق، وقال: إنه ليس أهلا إلا للاتحاد بالشبان الذين يلعبون بالمزامير، فوصل ذلك إلى مسامع سوسيبوس وزير الملك بطليموس، فزعم أن ملك أسبارطة إقليومونس إنما أراد بقوله ذلك إثارة الفتنة فى مصر، فبهذا السبب وضع عليه السجن وجعله تحت الحرس، فغضب إقليومونس من هذا الصنيع، وقال: لا أموت أبدًا فى الحبس المظلم موت الجبان، وانتهز فرصة غيبة بطليموس فى أبو قير فجمع خدمه وأحبابه على وليمة وخرج فى النهار معهم من سجنه مشهرا سيفه من غمده بدون أن يترقب أحدا فى وقوع ذلك منه، فاستدعى من الأهالى أن تقوم معه وأن تطلب الحرية، فلم يوافقه أحد على ذلك، فصعد إلى قلعة الإسكندرية وكسر أبوابها وأخرج المسجونين وسلحهم ليستعين بهم فلم ينجح تدبيره، حيث قهره ضباط القلعة وهزموه، فخشى هو ومن معه الوقوع فى يد خصمهم فقتل بعضهم بعضا، فلم يمكنوا أخصامهم من شفاء غليلهم منهم.

فلما تقدم بطليموس إلى الإسكندرية مثل بجثة قليومونس بصلبها، وذبح تحتها زوجته وأمه وأولاده، وكان ذلك فى سنة ٨٤٢ قبل الهجرة.

وكان أنطيوكوس الأكبر ابن سيلوقوس قلينوكوس خلف من منذ سنوات على مملكة الشام أخاه سيلوقوس قلينوكوس المذكور، وكان أنطيوكوس شابا ولكن متصفا بصفات عظماء الملوك، فراودته نفسه أن ينتهز فرصة جبن بطليموس الرابع وفتور همته لينتقم منه مما فعله أبوه فى الشام، وأن يستلب منه الأقاليم التى تملكتها مصر فى آسيا والبلاد المشرقية، فشرع فى ذلك فخاب أمله، وضاع فى هذه المرة عمله، وتنحى عما صمم عليه، وذهب لتسكين ما قام فى بلاده من الفتن والشرور، فبينما كان أنطيوكوس بعيدا عن حدود مصر وإذا ببطليموس قد وجد طريقة فى تقوية نفوذ مملكته وزيادة بطشها، فعقد معاهدة مع أخيوس ملك أناطول المتغلب عليها بنفسه، فبعد أن

سكَّن أنطيوكوس فتنة بلاده المشرقية جاء إلى أنطاكيا مدينة السيلوقية الواقعة على نهر العاصى، وكان بها العساكر المصرية من وقت نصره بطليموس الثالث، فأخذها، وكان سيودوطوس اليونانى حكمدارا على العساكر المصرية التى بالشام من طرف بطليموس، فكان غير شاكر لسيده، حيث كان سيده غير شاكر أيضًا الصنيعة فسلم أنطيوكوس جميع ما تحت يده من الولايات والمدن الأخرى، كصور وعكا، فلما سمع بطليموس بتلك الخيانة أرسل بدله حكمدارا آخر إلى سواحل الشام، وأصحبه بجند جديد، فهجم هذا الحكمدار على أنطيوكوس فى جبال بيروت فهزمه أنطيوكوس هزيمة عظيمة، فوقعت البلاد فى يد أنطيوكوس إلى حدود مصر.

ولما كانت قوة بطليموس متجمعة جهة الفرما، وكانت لم تزل عظيمة القوة شديدة البأس جدًا دبر أباطوكليس وسوسبيوس حيلة على أنطيوكوس بأن أرسلوا السفراء إليه لطلب الصلح، وقصدوا بذلك تطويل الوقت، وأظهروا أنهم يريدون عقد هدنة بمهلة أربعة أشهر، فمضى فصل الشتاء فى المخاطبات التى لا طائل تحتها، فلما دخل فصل الربيع شرع فى الحرب.

وكان كل من ملك مصر وملك الشام له سفن بحرية تساعد الجنود البرية، فتلاقيا فى جهة صيدا، وكانت القوة البحرية من الطرفين متكافئة لا ظهور لسفن أحدهما على الآخر، ولكن كانت جنود أنطيوكوس البرية منصورة على نظيرتها من جنود مصر، فاستولت على إيالة بيسان ومملكة يهوذا وجزء من بلاد العرب، وكان ذلك فى سنة ٨٣٨ قبل الهجرة.

وبعد ذلك بسنة[١] أغرى وزراء مصر بطليموس على أن يقود إلى الشام جنده بنفسه، فسار من الفرما أميرا على جيش مؤلف من سبعين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وثلاثة وسبعين فيلا، وقصد أن يهجم بذلك على أنطيوكوس، وكانت عساكر أنطيوكوس اثنين وسبعين ألفا من المشاة وستة آلاف من الفرسان ومائة واثنين من الفيلة، ثم تقابل ملك الشام وملك مصر تحت أسوار مدينة رافيا، بين العريش وغزة، فظهر أنطيوكوس على عدوه من الجهة التى كان فيها أنطيوكوس

(١) أى فى سنة ٢١٩ ق.م.

المذكور، ولم يلتفت إلى الجهة الأخرى من جيشه، وقد كانت انهزمت عساكر تلك الجهة وأخذت فى الفرار ولم يشعر بهزيمتها، فلما التفت إليها علم هزيمة ميسر جنده وانكسار قلب صفِّه وأنهم ولوا مدبرين، فاقتضى الحال أن يقف ويجمع ما تشتت من جنوده المنهزمة، فوجد أن معسكره قد خسر خسارة بليغة، فولى مدبرا بالبقية، وترك جند مصر منصورا يستولى على مدينة رافيا ومدن سواحل الشام وفلسطين وطرابلس ودمشق، وكان أنطيوكوس قد تغلب على هذه المدن قريبا فانتزعت من يده، فعقد متاركة وهدنة مع المصريين بمهلة سنة واحدة.

وهذه الواقعة سميت واقعة رافيا، وقد نتج منها تعذيب اليهود وقتلهم، وسبب ذلك أن بطليموس الرابع كان التمس من خاخام القدس أن يدخل بيت المقدس فمنعه الخاخام من ذلك، فحقد على جميع اليهود، وأمر باستئصال يهود الإسكندرية، وكتب لجميع عماله أن يقتدوا به فى قتل اليهود وإهلاكهم.

ولما رجع هذا الملك من الغزو إلى الإسكندرية عاد لما كان عليه من اللذات والشهوات، وكان بالإسكندرية امرأة تسمى أغاسقلة، كانت أخت أغاسقليس أحد وزراء المملكة، وكانت مشتركة مع الوزير سوسيبوس فى السياسة والتدبير، فأخذت بمجامع قلب الملك لفرط حبه لها، وحرضته على قتل زوجته الملكة أرسنويه، وسبب ذلك أن زوجة بطليموس المذكورة كانت أيضا أخته، ومكثت مدة طويلة معه سنة ٨٣١ قبل الهجرة[١]، فوقعت الغيرة منها فى قلب أغاسقلة، وحقدت عليها لما وجدت أن جميع الأهالى فرحوا بوضعها غلاما، فنقمت عليها، وقصدت إعدامها بتوسط سوسبيوس، فأغرى الملك على قتل أمها برنيقة، فسعى فى قتل البنت أيضا، فلم يعش الملك بعد قتل زوجته التى هى أخته، لأن جسمه كان قد انتهك بالشهوات واللذات، وقد ضعفت قواه فمات فى بحبوحة شبابه، وكان أنطيوكوس إذ ذاك مشغولا بحرب فارس وبلخ وهمذان، ومصمما أن يهجم على مصر بجنوده المتكاثرة، وكان موته فى سنة ٨٢٧ قبل الهجرة، فكانت مدة حكمه سبع عشرة سنة، وتولى بعده ابنه بطليموس الخامس.

---

(١) فى سنة ٢٠٨ ق.م تقرر إشراك هذا الطفل فى ولاية العهد.

الفصل السادس

فى الملك بطليموس الخامس، الملقب بالماجد[1]

تولى مملكة مصر سنة ٨٢٧ وهو ابن بطليموس الرابع، ويلقب ابيبغانوس[2]، ومعناه الماجد، فأعلن له بالملك بعد أبيه فى سنة ٨٢٧ وأقاموا عليه وكيلا أغاسقليس، أحد وزراء أبيه، حيث كان عمر بطليموس المذكور خمس سنوات، وكان سوسبيوس وزير المملكة كما كان فى السابق وله اليد العليا فى إدارة المصالح الملوكية، وبوصاية أغاسقليس على هذا الملك القاصر صفا الوقت له ولأخته الدنيئة النفس وتمكنا من مرامهما بدون منكد ولا منغص، فلا زال هذا الكافل يزداد فى ارتكاب الجرائم مجاوزة الحدود حتى نفرت منه ومن عائلته نفوس الأهالى والجنود نفورا شديدا، وحقدوا عليه، وقد أوجس فى نفسه خيفة الفتنة منهم والقيام، وأنه عرضة للانتقام، حيث هو مبغوض من(*) الخاص والعام، وقد خشى عاقبة ذلك على نفسه، وكان يأنف أن يقلع عن ذنوبه وأن يعتذر مما جناه، وكان لا خلاق له، فأراد أن يعقد مع المقدونيين معاهدة ليكونوا من حزبه على أهل مصر، فاجتهد فى ذلك ولم يثمر اجتهاده شيئا، بل انتصر المقدونيون لخصمه المسمى طلابوليميس، رئيس الجنود، إذ كانوا يعتقدون شجاعته واستقامته، وخذلوا كافل المملكة، فلما

---

(١) حكم من سنة ٢٠٣ حتى سنة ١٨٠ ق.م.

(٢) أو: أبيفانس يوخاريستوس، ومعناه: الظاهر الكريم، وهو ما يعبر عنه المؤلف بالماجد.

(*) إضافة يقتضيها السياق (الشروق).

قامت الفتنة وخرجت الأهالى والعساكر عن طاعة وصى المملكة لم يجد نصيرا ولا مجبرا. قال بوليس[1] فى حكاية هذه الفتنة ما نصه:

انقسم أرباب الفتنة إلى فرق متعددة، فاجتمع البعض فى ميدان السباق، وأخذوا فى الصياح والهياج والغوغاء، وشرع البعض الآخر فى التشجيع وتقوية الحماس والوعظ، وبعض ثالث تجنب الخطر وانزوى فى بيته أو فى الأماكن الحصينة، وفى أثناء هذه الثورة وظهور الفتنة وتجمع الجموع كان أغاسقليس نائما فى قصره فأيقظوه، فما أحس بالخطر إلا بعد أن امتلأ ما حول القصر الملوكى وميدان التعليم والرحبات والملاعب من الناس المجتمعين، وبالجملة فقد كانت غصت الميادين السلطانية بالأحزاب على اختلاف مراتبهم وصنائعهم، فسار وصى المملكة وخلفه أتباعه وحزبه إلى محل الملك، فأخذ بطليموس من يده وصعد به إلى الرواق الموصل للملعب بالقصر، وكان للقصر ثلاثة أبواب، فسد البابين الكبيرين بالأحجار والمتاريس، وتحصن وراء الباب الثالث واحتمى فيه مع عائلته وحراسه والملك بطليموس وسائر الاتباع.

فازداد اجتماع الأهالى ونسلهم من كل حدب إلى المحال العمومية، واستفاضتهم من جميع أخطاط المدينة، حتى سدوا الطرق والمشارع والحارات، وملؤا البيوت والسطوح والطاقات، وضجوا وعجوا، وصاحوا وهاجوا وماجوا، كأنما اعتراهم الجنون، فبقى هذا الحال إلى ضحوة النهار، وازدادوا فى الحدة والشجون، ولهجت الألسنة بالانتقام وأخذ الثأر، وإزالة الذل والعار، واستدعوا جميعا خروج الأمير إليهم من قصره، وانفصاله من كافله وولى أمره، فتحركت عساكر اليونان المقدونية، وحاصروا دهليز السراية السلطانية، محل انعقاد المجالس العمومية، وبحثوا عن المحل الذى احتمى فيه بطليموس والتجأ، فعرفوه، وخلعوا أبواب الرواق الأولية ليفتحوا لهم مدخلا ومخرجا، فلما وصلوا إلى ثانى الأبواب دعوا بطلب تسليم الملك إليهم بدون حجاب، فلما رأى أغاسقليس أن نفسه قد

(١) اسمه: بوليبيوس (٢٠٣ - ١٢٠ ق.م)، مؤرخ إغريقى، كتب كتابه (تاريخ عالم البحر المتوسط) فى أربعين جزءًا.

صارت عرضة للبلايا، لما جلبه لها من الرزايا، ترجى بعض من معه من الحراس أن يستميلوا إليه نفوس الناس، وأن يعطفوا قلوب الجنود المقدونية عليه، عسى أن ينظروا بعين الرأفة إليه، وأن يعلموهم بأنه مستعد للتنازل عن الكفالة الملوكية، وللاستعفاء من مسك زمام المملكة المصرية، وإنه راض بإسقاط حقوقه ومزاياه، وترك أمواله وما ملكت يداه، ليفدى بذلك نفسه من الهلاك، ولا يخرج من المملكة بشىء من الأموال والأملاك، وإنما يكتفى بالكفاف، ويتجرد عن صفات الأماجد والأشراف، حتى لا يكون له أدنى شوكة وباس، بحيث لا يتوهم نفوذه أحد من الناس، فلم يرض أحد من الحراس أن يدخل فى ورطة التوسط فى هذه القضية، ولا أن يكون شفيعا فى تخليصه من هذه البلية، فلما أيس من شفاعة الشفيع، وقنط من الملجأ والمنجى فى هذا الهول الشنيع، مد يده إلى العساكر المقدونية، إشارة إلى التسليم الذى يعقبه حصول الأمنيَّة أو المنيَّة، وكذلك أخته أغاسقلية أخرجت ثديها من القميص، وقالت: هذا الثدى هو الذى أرضع الملك واغتذى بلبنه فلا يسوغ وقوعه فى مثل هذا الخطب العويص، وتضرعت الأخت وأخوها بإظهار الندم ولات ساعة مندم، فلم ينفع البكاء ولا العويل، ولم يرث أحد من الأهالى لهما ولا سمع لهم منها الكثير ولا القليل، فأخرجا الملك من حرزه، فأخذه الجند إلى حوزه، وأركبوه جوادا وذهبوا به إلى الميدان الفسيح، فصار بمرأى من الأعجمى والفصيح، فلما أبصره جميع الجموع، فرحوا به الفرح الشديد، وأقبلوا إليه وأجلسوه على كرسى الملك، وشرعوا فى أحسن مشروع، إذ سأله أحد الأمراء: هل تأذن بهدر دماء أرباب الخيانة الذى خانوك فى قتل أمك، ولم يراعوا قانون الصيانة، وهل تتركهم ينتقم لك منهم جميع الناس؟ أو تأمر فى حقهم بما تقتضيه أوامرك السنية بخلاف هذا الالتماس؟ فأجاب بإباحة إراقة دمهم وتنكيس علمهم، فقال ذلك الأمير لبعض الجنود: أخبروا الأهالى بما قاله الملك: وأمر بتنجيزه فى اليوم الموعود، فلما سمع الناس ذلك الأمر الصريح استحسنوه جميعا، وحصل لهم به غاية التفريح.

وقد كان أغاسقليس وأخته ذهب كل منهما فى محل إقامته، منتظرا ساعة قيامته، وكان قد تفرق العساكر من بادىء رأيهم، أو بإغراء بعض أمرائهم، للبحث

عنها، ففى خلال ذلك برز شخص من أخصاء أغاسقليس يسمى فيلون فى الميدان، بروز المعربد السكران، وصاح بين الأهالى، وهم فى نهاية الغضب والحدة قائلا: كيف تصنعون لو خرج أغاسقليس من ورطة هذا الخطر، فلابد أن جميعكم يندم على هذا العصيان الذى هو محض أشروبطر، فلما سمعوا منه هذه المقالة هجموا عليه بالمشاتمة والملاكمة، وقصدوا قتاله، فأظهر المدافعة عن نفسه وقاومهم، فمزقوا ثيابه وطعنوه بالرماح، فكان ذلك أول ظهور المقتلة وإراقة دماء حزب أغاسقليس الذى هدر دمهم لما زلت قدمهم، ورموا جثته بجب أغاسقليس مضرجة بالدماء فى الميدان العام، وتنبهوا لقتل بقية هذا الحزب وذبحهم كالأنعام، فظهر أغاسقليس مكبلا بالسلاسل والأغلال، فأكبوه على وجهه، وأذاقوه بالقتل كأس العذاب والوبال، ثم حضرت أخته أغاسقلية مع بناتها وأقاربها فقتلوها أشد قتلة، ثم قتلوا زوجته المسماة ابنانه، راكبة على جوادها عريانة، فأذاقوها وأتباعها بالقتل كأس الإهانة.

وكان المتولى لقتل الجميع الأهالى والرعاع، فما تركوا شيئا من أنواع التعذيب إلا أذاقوه للمتبوعين والأتباع، فبعضهم كان يعض بأنيابه، وبعضهم يطعن بحرابه، وبعضهم يفقأ العيون، حتى أذاقوهم على هذا الوجه كؤوس المنون، وكلما قتلوا واحدا منهم مزقوا جثته وقطعوا أعضاءه وأهانوا رمته، ولما علم النساء المنسوبات إلى الملكة أرسنوية حضور فيلامون قاتلها إلى الإسكندرية هجموا على منزله، وأرادوا الفتك به بأشد بلية، فاثخنوه بالعصى والمثقلات، ونجزوا قتله بالسلاح بأشد القتلات، وخنقوا ولده وكان فى سن الطفولية، وذبحوا زوجته بالميدان العمومى أشر ذبحة ردية.

وعقب هذه الفتنة الواضحة، والمقتلة الفاضحة، أقاموا الأمير أطلابوليموس مقام أغاسقليس فى الوصاية على الملك، فلم ينتج من هذه الفتنة العظيمة إلا تغيير الوصاية واستبدال الكفالة، فكأنما ذهب من مصر حاكم غشوم وخلفه ظالم مشؤوم، وذلك أن الوصى الجديد كان تربى فى المعسكرات، فلم يكن له خبرة بأصول السياسات، فنشأ من ذلك ضعف المملكة المصرية، وأخذها فى

الاضمحلال لسوء تدبير هذا الوصى وعدم معرفته فى الإدارة الملكية، فإنه بمجرد ما استولى على ما فى مصر من الخزائن والأموال تفرغ للألقاب الصولجانية أو الترسية مع أقرانه من الشبان، واتخذ لهم عقب هذه الألعاب الهزئية الولائم الفاخرة، والضيافات التى بمثله مزرية، وأخذ يسرف فى النفقات، ويبذر فيما يمنحه من الأموال لسفراء ممالك اليونان والولايات، وأكثر من المنح والعطايا والرغائب، لأرباب الملاهى والملاعب، ولأمراء العساكر والأجناد، ومن يتردد على ديوانه السعيد ويحسِّن له ما أراد، فهذا السلوك تسبب عنه أنه أقصى الأهالى، أو صار بينه وبينهم حجاب، لشغله بحظوظه وإسرافه على نفسه مما يمنع الاقتراب، فاضطر إلى تسليم عنان الحكومة المصرية ليد أرسطومينيس الرومى، فكان كأنه الثابت الحقيقى يتصرف كما يريد، فنشأ من ذلك من الوخامة والسقامة ما لا عليه من مزيد.

فبتلك الفتنة التى سفك فيها الدم المباح، وبما أعقبها من التقلبات الخالية من الصلاح والإصلاح، لاحت الفرصة القوية لملك الشام أن ينتقم من واقعة رافيا، التى سبق فيها الكلام، فعقد معاهدة مع فليبس ملك مقدونيا، فهجم فيبش على جناق قلعة وعلى بوغاز كليبولى وعلى بلاد روم إيلى، التى كانت فيها من عهد فتوح فيلادلفس رباطات مصرية ومحافظات عسكرية، وكذلك هجم ملك الشام على المدن المصرية المملوكة بالديار الشامية وعلى جهة أناطولى، وكان بهذه البلاد أسقوباس من طرف بطليموس الخامس، فانتصرت مصر فى أول أمرها على ملك الشام نصرة عجيبة على سواحل الشام وعلى بلاد فلسطين، ثم انهزمت على منابع نهر الأردن، وأخذ منه أنطيوكوس صاحب الشام مدينة سامرة وغيرها من المدن كمدينة القدس نفسها، وفى ثانى سنة مضت من هذا التاريخ أخذ منه جميع المدن المصرية التى بولاية أدنة وغيرها من ولايات أناطولى.

وقد تصادف فى حالة نصرة أنطيوكوس على ملك مصر إنه كان قد صمم أنطيوكوس أن يهجم فى أوروبا على جمهورية الرومانيين بإيطاليا، فلأجل أن يتفرغ للتجهيز لهذه الجهة ولغزوها لزم مصالحة بطليموس مصالحة نافعة، تقوى روابط المحبة بين الطرفين، وتؤكد دوام الصلح بينهم، وكان لأنطيوكوس بنت تسمى قلوبطره، فكان من شروط الصلح أن يزوجها لملك مصر ويهب لها أقاليم الشام فى

نظير جهازها، بداعى أن مملكة الشام كانت محل النزاع بين مصر والشام، فلما جعلت من نصيب قلوبطره كأنها صارت حاسمة للنزاع بين الفريقين.

ولما كان ملك مصر لم يدخل بها، وإن كانت معدة لذلك بموجب الشروط، بقيت عند أبيها، ففى أثناء هذه المدة حدثت فتنة أخرى فى مصر نشأت عن البغضاء بين أرسطومينوس، كافل المملكة، واستقرباس، رئيس الجنود، وقد كان هذا الرئيس معتمدا على الجنود الرومية التى فى خدمة مصر، فلما وقع القتال بينه وبين خصمه فى الإسكندرية أثار أسقوباس الفتنة وقواها وتكاثرت أحزابه وخرجوا عن طاعة الملك، وتبعه جميع أهل بلاده، وتحزب المصريون مع الملك فقبضوا على رئيس الجيش، وحققوا قضيته، وأثبتوا خيانته، وحكموا عليه بالقتل هو وأحزابه، وطردوا جميع أهالى بلده من الخدمة العسكرية المصرية، فنجح أرسطومينوس فى هذه القضية، ثم أراد أن يتمكن من النفوذ تمكنا زائدا فتوج الملك فى محفل عام ليجلس على سرير الملك ويتقلد بالأحكام، ولم يكن سنه إذ ذاك يزيد عن ثلاث عشرة سنة، وذلك فى سنة ٨١٨ قبل الهجرة(١).

ومع أن هذه الفتنة التى أثارها أسقوباس قد سكنت فقد نتج عنها وقت اضطرابها إشاعة موت بطليموس بدون أصل، حتى وصل ذلك الخبر إلى مسامع أنطيوكوس فى بلاد روم إيلى فأراد أن ينتهز هذه الفرصة ويفسخ المعاهدة بالهجوم على جزيرة قبرص، وكانت تابعة لمصر، فوجه إليها سفنه فرمتها الرياح المختلفة على سواحل أناطولى، ففى أثناء ذلك وقف على حقيقة الحال وأيقن أن بطليموس لم يزل على قيد الحياة، فصمم على عدم نقض المعاهدة التى عقدها فى شأن زواج بنته لملك مصر، وكان قد مضى ست سنوات من وقت عقد المصافحة بينه وبين أرسطومينوس، فسار إلى مدينة رافيا بين غزة والعريش واستصحب بنته معه، وكان أيضا بطليموس نازلا بهذه المدينة، فبنى بزوجته، واستلم بالتوكيل عنها أقاليم الشام التى هى جهازها حسب الشروط.

ثم شرع أنطيوكوس عقب ذلك فى الحروب مع جمهورية الرومانيين بإيطاليا،

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٧ ق.م، وحدث التتويج هذا مسجل على حجر رشيد الشهير.

وكان بينه وبين ملك مصر عهود أكيدة بأن لا يعاون الرومانيين عليه، ومع ذلك فقد عرض بطليموس عليهم المرة بعد المرة أن يمدهم ويعينهم بما يلتمسونه، فلم يرفض مجلس إيطاليا بقبول تلك الإعانة، فلما انهزم أنطيوكوس فى غزوته ومات عقب ذلك كان المأمول لمملكة مصر بالنسبة لموالاتها لتلك الجمهورية أن تبقى زمنا طويلا فى السلم والاطمئنان، ولكن إساءة بطليموس الماجد لتدبير المملكة وظلمه لرعاياه كان السبب فى انقطاع راحتها وعدم تمتعها بلذة الصلح مع الأهالى، وذلك أن وكيل هذا الملك كان دائما ينصحه ويوبخه ويخوفه عاقبة أفعاله الوخيمة، وكان الملك لا يقبل نصيحته ويحقد عليه فى تهديده وتخويفه، فتخلص من هذا الوزير بقتله بالسم ليرتاح منه، فلما ظفر بقتل وزيره ترتب على استبداده برأيه ذنوب كثيرة، وارتكب من المآثم والخطايا ما لا تستطيع أن تحمله الرعايا، وكثر منه الطغيان والظلم والعدوان، فنتج من ذلك خطر عظيم الاختلال، وقامت الأهالى على الملك ملتمسة تغيير الحال، وعمت الفتنة كثيرا من المدن المصرية، ولكن جنود اليونان المستخدمون فى مصر كانوا أيضا كثيرين، فنصروا الملك وخذلوا أعداءه، لا سيما وأن قائدهم بولقراطس كان بطلا فاضلا، وهماما باسلا، فضيق على الثائرين للفتنة كل التضييق، وحصرهم غاية الحصر حتى سلموا أنفسهم لعفو الملك وطلبوا منه الأمان، فذهب كثير من رؤساء الأحزاب المصرية الرافعين راية العصيان إلى مدينة صالجر، حيث كان الملك فيها، فقتلهم شر قتلة، ومثل بهم، وكان ذلك فى سنة ٨٠٧ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

ثم أن الوقائع التى حصلت فى آخر مدة بطليموس الماجد لا يعلم منها إلا كونه جدد المعاهدات المنعقدة مع يونان المورة، وإنه بينما كان يجهز جنوده للحرب مع سيليقوس الرابع ابن أنطيوكوس إذ اخترمته المنية فى سنة ٨٠٣ قبل الهجرة، بعد أن حكم أربعة وعشرين سنة، وكان قد أحضر بهذه الغزوة كثيرا من الجنود الخارجية المجمكين، ولا زال يكثر منهم، ويقال إنه سئل ذات يوم: من أين تدفع جوامك هؤلاء العساكر، ونفقات هذا الجيش الجرار؟ فأجاب: كيف هذا السؤال؟ أما تعلمون أن أموال أحبابنا هى أموالنا؟ فدخلت الأراجيف فى قلوب أحبابه، فمكروا به، ودسوا عليه السم فمات مسموما، لكونه أفرط فى المحبة إلى هذه المثابة.

الفصل السَّابع

فى الملك بطليموس السادس، محب أمه[1]

تولى هذا الملك سنة ٨٠٣ قبل الهجرة، وهو أكبر ابنى بطليموس الماجد، يلقب فيلوماطور[2]، يعنى محب أمه، على سبيل التهكم والسخرية، خلف أباه فى سنة ٨٠٣ قبل الهجرة، وكان قاصرا، ولكن كانت مدة قصوره وكفالته أقل اضطرابا وتقلبا من مدة قصور أبيه، فإن مملكة مصر قد أصلحتها عناية الملكة قلوبطرة، أم هذا الملك، وذلك أن سيلقوس الرابع ملك الشام مع كونه أخا هذه الملكة وخال ولدها قد أراد أن ينتهز فرصة طفولية هذا الملك ويستولى على ولايات مصر التى بسواحل الشام ووادى دمشق، فاخترمته المنية فى أثناء تجهيزه للغزو، وحالت بينه وبين ما يشتهيه، فصمم خليفته أنطيوكوس على تنجيز هذا المقصد، فاقتضى الحال أن قلوبطرة التمست لمملكة ابنها حماية الرومانيين بأن تكون مصر تحت عنايتهم، وملكها تحت كفالتهم، فبعثت جمهورية الرومانيين من طرفها أميرا يقال له إيمليوس لايدوس إلى مصر، وجعلته كفيلا على هذا الملك الصبى، وكان هذا الكفيل من طائفة أمناء الدين الكهنة، فماتت الملكة قلوبطرة بعد يسير من الزمن فعزل أهالى الإسكندرية هذا الكفيل وقلدوا الكفالة لشخصين مصريين وهما أوليوس الطواشى ولونيوس أحد أعيان الحكومة، وكان ملك الشام قد استولى على سواحل الشام ودمشق، فطلب منه هذان الوصيان إعادة هذه الأقاليم للديار لمصرية، وكذلك ملك

---

(١) حكم من سنة ١٨٠ حتى سنة ١٤٥ ق.م.

(٢) أو: فيلو متور، وبعض المصادر تكتب الفاء قافا.

الشام، الذى هو أنطيوكوس، طلب كفالة ابن عمه وقال: إنه أولى بذلك من الأجانب، وفى أثناء هذه الحالة حضر من طرف الرومانيين إلى مصر سفراء مفوضون بتجديد المعاهدة بين الجمهورية الرومانية والدولة المصرية على طبق شروط كانت بين الجمهورية وبطليموس الخامس، فأنهوا قضية المعاهدة، ولم يفصلوا الخصومة التى بين الشام ومصر، فصار إشهار الحرب بين حكومتى مصر والشام، وكان الرومانيون مشغولين إذ ذاك بالحرب مع برشاوش ملك مقدونيا، فكان يتعذر عليهم إعانة بطليموس السادس، محب أمه، فاستولى أنطيونوس بدون تعب ولا نصب على ولاية دمشق ويهوذا وسواحل الشام إلى حدود مصر، كما استولى على جزيرة قبرص بخيانة محافظها، فتقوى أنطيونوس بنجاحه، ورغب أيضا فى الهجوم على مصر، فاجتهد بطليموس أن يوقف سيره عند مدينة فرما ويمنعه من دخول مصر، وكان ذلك فى سنة ٧٩٢ قبل الهجرة[١]، فانهزمت فى هذه الواقعة عساكر مصر هزيمة شديدة، ودخل أنطيونوس إلى مدينة مصر بالنصر والتأييد، ومع ذلك فقد أحسن معاملة بطليموس، واعتذر له بأنه لم يقصد بالحرب الاستيلاء على كرسى مصر.

ولكن ديوان الإسكندرية وجنودها وعساكرها لما رأوا وقوع ملكهم أسير، وإنه صار فى قبضة ملك الشام، بايعوا على مملكة مصر أخاه بطليموس بدله، ولقبوه أويرجيطة الثانى، يعنى الرحيم، وكان هذا الملك صبيا قاصرا، فلما علم أنطيونوس بذلك سار بجيشه لحرب الإسكندرية، فتجهز من فيها للممانعة والمدافعة وبذلوا غاية جهدهم فى ذلك، وبعث بطليموس أويرجيطة الثانى وأخته قلوبطرة سفراء إلى الرومانيين للاستغاثة بهم، وحاصر ملك الشام الإسكندرية، وطالت مدة حصارها، وفى أثناء ذلك أشاع يهود الشام موت ملكهم فى حصار مصر فقامت فتنة عظيمة فى الشام وطنت فى آذان أنطيونوس فعزم على العود إلى مملكته، فعند ذلك ذهب بطليموس السادس، محب أمه، إلى منفيس رجاء أن اختلافه مع أخيه يكون وسيلة فى استيلائه على مصر كما كان، وكان قد ترك أنطيونوس محافظته

---

(١) وتوافق سنة ١٧٠ ق.م.

بمدينة فرما فلم ينجح فى إثارة الفتنة بين الأخوين وتوجه إلى القدس فأخذها وسلب ما سلب ونهب ما نهب، ففى أثناء غزوه مع يهود الشام اصطلح بطليموس، محب أمه، مع أخيه أويرجيطة الثانى، بتوسط أختهما قلوبطرة فى هذا الصلح، وقصدا أن يدافعا عن وطنهما كل جهدهما فى حالة ما إذا خطر ببال أنطيونوس أن يجدد الحرب ويغير على مصر والتمسا أيضا من الرومانيين أن يبعثوا جمعية مختارة لإصلاح ذات البين بين مصر والشام، وصار قواد الجنود المصرية لقتال سفن أنطيونوس على سواحل قبرص إلى حين حضور الجمعية الرومانية، وفى فصل الربيع سنة ٧٩٥ قبل الهجرة[١]، هجم جيش جرار من الشام على مصر واستولى منها على جميع البلاد إلى حد مدينة منف، ونصبوا معسكرهم بقرب الإسكندرية، وكان قد حضر بوبليوس ليناس سفير الرومانيين فأوقفهم هناك، ثم أخرجهم من مصر فى أسرع وقت، على أحسن وجه.

ومع أن ملك الشام قد انفصل عنها، كما هو مرام الأخوين، فلم يطل الصلح بينهما، ولم تتمتع مصر بالراحة لحصول الفشل وتولد الحرب الداخلى، ولا يعلم تفصيل هذه المخاصمة، وإنما غاية ما وصل إلى علم المؤرخين إنه نتج منها ذهاب أويرجيطة الثانى إلى مدينة روما ليستغيث بالجمهورية الرومانية، فأرسلت الجمهورية المذكورة سفارة أخرى، وأفادت بطليموس أنها حكمت بأن يتنازل لأخيه أويرجيطة عن مملكة القيروان وبرقة، لكن لم يقنع أخوه أويرجيطة الثانى بنصيبه فى هذه المقاسمة، بل ألح على مجلس روما بأن يضم إلى هذه المملكة قسما آخر من الولايات التى تحت حكومة مصر، فأضافوا إلى ما تقدم جزيرة قبرص، فأبى بطليموس ملك مصر أن يمتثل لهذه الزيادة، فغضب الرومانيون من ذلك، لأن لهم إذ ذاك كمال النفوذ فى الدول المشرقية والتكلم عليها، لا سيما إذا فوّض إليهم التحكيم، فكان لا أحد من ملوك زمانهم يعارض آراءهم، فأصدر مجلس روما أمرا بترخيص سائر الممالك اليونانية وممالك آسيا، وكانت متعاهدة مع روما، أن تمد عند الاقتضاء بالإمدادات اللازمة أويرجيطة الثانى وأن تنصره على أخيه، فاستعان

---

(١) أى فى سنة ١٦٨ ق.م.

بتلك الممالك وجهز الجنود لقتال أخيه، ومع ذلك كله فكانت الهزيمة عليه، وقد كان فى قدرة بطليموس أن يصنع معه ما تقتضيه العداوة من الانتقام، لكن عامله بمكارم الأخلاق، وصفح عنه الصفح الجميل، واشترط عليه أن يقتنع بمملكة القيروان وبرقة وبعض مدن من جزيرة قبرص، ولأجل تمكين الصلح وبنائه على أساس متين وعد أن يزوج أخاه ابنته، كعادة البطالسة فى ذلك الوقت، تشبيها بملوك فارس الذين يزعمون أنهم ورثاؤهم، فبوسيلة ذلك كله رجعت مصر إلى الصلح التام والراحة العامة، وبقيت على ذلك عدة سنوات.

ثم إنه كان فى جزيرة قبرص حكمدار من طرف مصر يسمى أرخياس، فأراد خيانة مصر بتسليم الجزيرة لملك الشام، حتى كادت أن تضرم لذلك نار الحرب بين المملكتين كل الإضرام، ولكن انكشفت الحيلة، ولم يستطع أرخياس أن ينجز خيانته، بل خاب أمله، لظهور دناءته، فيئس وقتل نفسه، فأضمر بطليموس العداوة لدمتريوس ملك الشام بسبب إغوائه لحاكم قبرص، وقصد أن ينتقم منه، فأعان إسكندر سرا صهره أن يدعى إنه ابن انطونيوس، وأحله على سرير الشام بمحض دعواه، وعزل دمتريوس سوطير، وكان ذلك فى سنة ٧٧٥ قبل الهجرة، وأمده فى نصرته على دمتريوس المذكور بالعساكر المصرية.

فلما تولى إسكندر مملكة الشام التمس أن يتزوج قلوبطرة بنت بطليموس، محب أمه، فجهزها له أبوها وسار بها بنفسه إلى الشام وعمل لها أفراحا عظيمة وفى سنة ٧٦٩ قبل الهجرة، يعنى بعد تولية الإسكندر بطليموس بست سنوات، نهض دمتريوس نقطاطور بن دمتريوس سوطير وقصد أن يستلب تاج أبيه من إسكندر المغتصب، الذى هو صهر بطليموس، فأعان بطليموس إسكندر بجيش عظيم، برى وبحرى، فأخذ بطليموس بجنده البلاد الشامية من فلسطين إلى عكا، وكلما تغلب على مدينة رتب فيها رباطا مصريا، فارتاب من هذا الصنيع أمنيوس وزير إسكندر ملك الشام ونوى أن يقتل ملك مصر غيلة، فاستشعر بطليموس بذلك وأحس بما نواه عدوه، فطلب من إسكندر عقاب هذا الوزير، فأبى إسكندر أن يعاقبه، فأشهر بطليموس الحرب معه، وتغلب على مدن سواحل الشام إلى أنطاكية

التى على نهر العاصى، وفرق بينه وبين بنته، وساعد دمتريوس بن سوطير أن يأخذ مملكة أبيه ويجلس على كرسيه، وزوجه ابنته، واتحدت قوة مصر والشام، فلما وصل بطليموس محب أمه، أنطاكية ألبسه أهلها تاجين، أحدهما: تاج مصر، والآخر: تاج الشام، فأبى أن يلبس تاج مملكة الشام، بل آثر به دمتريوس المذكور، وكان شابًا.

فإذا نظرت إلى حقيقة هذه الواقعة تجد أن ما صنعه بطليموس مع دمتريوس نظير ما صنعه من(*) قبل أنطيوكوس فى مدينة منف مع ملك مصر سواء بسواء، حيث أن ملك الشام أعطى مملكة مصر لويرجيطة، كما تقدم، ولكن وصل إسكندر من بلاد القرمان مع جنوده وتقابل مع أعدائه وتصادموا، فانهزم إسكندر وهرب عند رئيس حى من أحياء العرب فقتله فى سنة ٧٦٨ قبل الهجرة، وبعث برأسه إلى بطليموس فتصادف موت بطليموس فى هذا الوقت حيث سقط من ظهر جواده فى أثناء نصرته، بعد أن حكم خمسا وثلاثين سنة، وفى مدة بطليموس، محب أمه، هرب أونياس الإسرائيلى إلى مدينة الإسكندرية بمصر، واستأذن من هذا الملك فى بناء هيكل لليهود على محل معبد آخر فى مدينة تل بسطة لإظهار شعائر اليهود فى الديار المصرية على منوال هيكل بيت المقدس.

(*) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

الفصل الثامن

فى الملك بطليموس السابع، الملقب أباطور، أى الماجد الأب[1]، وبطليموس الثامن أويرجيطة، يعنى الرحوم، ويلقب فسقون، يعنى البطين[2]

أما بطليموس السابع، الملقب أوباطور، أى الماجد الأب، فقد خلف أباه بطليموس، محب أمه، فى سنة ٧٦٨ قبل الهجرة، وكانت أيام حكمه قصيرة جدا حتى ولم يذكره بعضهم فى بطالسة مصر، بل كان لا يعلم للمؤرخين إنه تولى على مصر، وإنما نص أهل التاريخ على أنه كان من نسل البطالسة، ثم ظهر للمؤرخين المتأخرين استكشاف وثيقة معاهدة يونانية مكتوبة فى ديوان مصر يؤخذ منها إنه ابن بطليموس، محب أمه، وأنه تملك مصر ولقب بالماجد الأب، وأنه تولى قاصرا وكفلته أمه قلوبطرة، وحكمت مصر بالنيابة عنه مدة يسيرة جدا، بحيث لا تعد مدة مستقلة فى حد ذاتها، بل متداخلة فى مدة أخيه بطليموس الثامن، الملقب أويرجيطة الثانى، يعنى الرحوم الثانى.

وأما أويرجيطة الثانى المذكور، الذى هو بطليموس الثامن، فسبب توليته للملك إنه كان فى زمن أخيه بطليموس، محب أمه، ملكا على القيروان، فشاع موت أخيه قبل حصوله، ولكن اعتمادا على التواتر صمم أن يبادر بالتملك على مصر، فتجهز

(١) خلف أباه بطليموس السادس سنة ١٤٥ ق. م. ويلقب بـ «نيوس فيلو باتور» أى المحب لأبيه الجديد.

(٢) حكم لأول مرة سنة ١٧٠ ق. م وتوفى سنة ١١٦ ق. م، ويلقب بـ «يورجتيس الثانى» أى الخير الثانى.

لذلك وتقوى بجنده، وكذلك الملكة قلوبطرة زوجة بطليموس، محب أمه، لما توفى عنها زوجها، الذى هو أيضا أخوها، بادرت بالمبايعة لابنها بطليموس الماجد الأب، وكان صبيا قاصرا، فلما قدم بطليموس الثامن إلى مصر ووجد أخاه قد مات، وأن ابن أخيه قد تولى ملك مصر، لم يظهر تطلب الملك بنفسه، بل تطلب أن يكون وصيا على مملكة ابن أخيه، فأبت قلوبطرة أن تمكنه من الوصاية، فهجم على الإسكندرية، وتزوج قلوبطرة، التى هى أخته، وذبح فى يوم عقده عليها ابنها على حجرها بيده، وكان قد أمر بقتل أحزاب ابن أخيه، فقتلوا عن آخرهم، وبعد هذه الأفراح والأتراح، وسفك الدماء، سئم من أخته، حيث لم يكن الغرض من زواجها إلا التمكن من التاج الملوكى، فتزوج عليها بنتها من أخيه، وبقى مع الزوجين: الأم، والبنت، بوصف الزوجية، وأبقى لكلتيهما عنوان ملكة مصر، فأوجبت هذه الفعلة الشنيعة، بانضمامها إلى جبروته، نفور جميع رعاياه منه بالكلية، فخشى عاقبة ذلك، فاتخذ الجنود الأجنبية المجمكة لحماية نفسه ومحافظة ممالكه، فاشتدت بذلك كراهية الخاصة والعامة. لا سيما إنه كان منهمكا على اللذات والشهوات ومصرا على أنواع المعاصى، فكره الجميع منظره وقبحت فى أعين الناس صورته، وكان قصير القامة ضخم البطن لا يكاد يقتدر على المشى لهذه العلة المسببة عن الإفراط فى الشهوات واللذات، ولهذا لقبه أهل الإسكندرية بالبطين.

وقد طال حكمه من سنة ٧٦٨ إلى سنة ٧٣٩ قبل الهجرة، فبلغت مدة حكمه تسعا وعشرين سنة على ما كان عليه من العسف وبغض الأهالى.

ومن العجائب إنه مع كونه محتقرا مبغوضا عند جميع الأهالى إلى هذا الحد طالت مدة حكمه، ولم ينزع الملك من يده، ولكن متى ظهر السبب بطل العجب، فقد استبان أنه كان له وزير عظيم حامل لأعباء الملك، وكان هذا الوزير راجحا فى ميزان الاعتبار عند الجميع، فبهذه الوسيلة وحسن التدبير والسياسة لم يزل ملك مصر باقيا مع المخدوم بحسن إدارة الخادم، وهذا هو الوزير المسمى هوهياراش محافظ الإسكندرية، فكانت مدة وزارته مانعة لعطب المملكة حامية لها من الاختلال، واقية لها من الزوال.

نعم إنه فى آخر مدة هذا الملك هاج غضب الأهالى واشتد حنقهم عليه، فقامت الفتنة على ساق وقدم فى سنة ٧٥٢[1] وحرقوا قصر الملك أويرجيطة الثانى، الذى هو بطليموس الثامن، فبادر ذلك الملك بالهروب، وقصد جزيرة قبرص، واستصحب معه قلوبطرة الصغيرة، وكان مثير الفتنة ومقوم الأهالى قلوبطرة الكبيرة، التى هى أمها، بدليل أنهم لما كسروا تماثيل أويرجيطة الثانى، الذى هو بطليموس الثامن، تلميحا بعزله، سلموا زمام الحكومة لهذه الملكة فبادرت بقبولها.

ثم إن الملك لما سمع فى أثناء طرده هذا الخبر استشاط غيظا، وخشى أن تبايع الملكة لابنها منه على ملك مصر، فأرسل يأخذ ابنه فى قبرص ليكون معه، فبمجرد وصوله إليه أمر بذبحه ثم وضع أجزاءه فى زنبيل وبعث بها إلى أمه فى الإسكندرية، فبينما هى مشغولة بعمل وليمة لمولدها إذ جاءوا إليها بجثة ابنها مذبوحا ممزقا، فتجهزت لحرب أويرجيطة الثانى، كما تجهز لحربها، وأكثر كل من جنده، وجعل أويرجيطة قائد جيشه هجالوخوس، وجعلت قلوبطرة قائد جيشها مرسياس، فلما التقى الجمعان فى ميدان مصر هزم قائد أويرجيطة جيش الملكة قلوبطرة، ووقع مرسياس أسيرا فى يد خصمه فبعث به إلى الملك أويرجيطة فى جزيرة قبرص، فأحسن معاملته وصفح عنه ليستميل بذلك قلوب المصريين.

وأما قلوبطرة فتحزبت فى الإسكندرية، وخلعت المملكة المصرية على صهرها دمتريوس نيقاطور ملك الشام، فجاء حالا وحاصر الفرما، فقامت قيامة فى الشام فعاد إليها سريعا، فاضطرت قلوبطرة إلى الهروب فى الشام، فبهذا صار تسليم الإسكندرية صلحا لأويرجيطة الثانى، فركب سرير سلفه ثانيا، وأراد أن ينتقم من دمتريوس، فأغرى شخصا يسمى سيداطس على أن يدعى أنه ابن انطيوكوس ملك الشام، وأن له حقا فى التملك عليها، فقام ليدعى ذلك ويتطلب حقوقه، فلقب نفسه إسكندر زابيناس وبايعه أناس كثيرون وحارب دمتريوس، فانهزم دمتريوس بقوة خصمه الدعى، وهرب فى صور، وقتلته زوجته بهذه المدينة فى سنة ٧٤٨ قبل

(١) حدثت هذه الثورة سنة ١٣١ ق.م.

الهجرة[1]، فانتقلت إليها بهذه الفعلة مملكة الشام، وكانت تعهد أن زابيناس يبغض أويرجيطة الثانى فتقربت من أويرجيطة المذكور واستمرت على الحرب مع زابيناس فانتصرت عليه بعناية ملك مصر ومعاهدتها له وتزويج بنته المسماة طروفانة لابنها أنطيوكوس أغرويوس لتأسيس المحبة وتأكيدها، فمن هذا الوقت استمر بطليموس الثامن الملقب أويرجيطة الثانى فى أمن تام على مملكة مصر إلى أن حضرته الوفاة.

وقد سلك مسلك أسلافه من ملوك البطالسة من الزيادة فى كتب خزانة الإسكندرية زيادة كثيرة، وكان له مشاركة فى العلوم الحكمية والفنون الأدبية، فكان قد تلقى العلوم عن المعلم أرستارخس الشهير بالمعارف الأدبية، وقد ألف هذا الملك بعض كتب ورسائل، وفى أيامه كانت السفرة العملية لاستكشاف بحر الهند، وكانت هذه أول سفرة سافر فيها المصريون لاستطلاع أحوال البحر المحيط الهندى تحت رياسة القائد هودوشيش القوزيقى، وكان شجاعا على الأسفار، جسورا على اقتحام البحار والقفار، يحسن الأرصاد الفلكية، والملاحظات العملية، وتعيين المواقع الجغرافية، فخاطر فى الملاحة، وطاف حول أفريقية فى هذه السياحة، وتمم بالأرصاد معرفة ما فى البحر الهندى من الجزائر والبلاد فى أيام بطليموس المذكور، وكان موت هذا الملك لسنة ٧٣٩ قبل الهجرة، بعد أن حكم تسعا وعشرين سنة كما سبق فى أثناء الفصل، وتولى بعده بطليموس التاسع.

---

(١) سنة ١٢٦ ق.م.

الفصل التاسع

فى الملك بطليموس التاسع[1]

تولى بطليموس التاسع ولاية مصر فى سنة ٧٣٩ قبل الهجرة، وبقى ملكا عليها إلى سنة ٧٠٣ فتكون مدة حكمه ستا وثلاثين سنة، ومن ضمنها مدة حكم أمه قلوبطرة الصغيرة، كما سيأتى فى آخر الفصل.

ولهذا الملك عدة ألقاب، فيلقب سوطير الثانى[2]، يعنى المخلص، وبوطونوس، يعنى المحبوب، ولاطوروس، يعنى الأرقط، لأنه كان له علامة فى وجهه. وكان أكبر ولدى بطليموس البطين من قلوبطرة الصغيرة، وكانت أمه تبغضه وتحب أخاه الصغير المسمى إسكندر وتؤثره عليه، وكان لها سلطنة على قلب زوجها بطليموس البطين، فحملته على أن يبعث هذا الولد البكرى إلى جزيرة قبرص ليكون حاكما عليها، وقصدت بتغريبه حرمانه من ولاية العهد، وانتقال حق الملك لولدها إسكندر الصغير، ليخلف أباه فيما بعد على مصر بدون مانع، وليغتنم هذه الفرصة قبل أخيه الأكبر. لكن مع ارتكابها هذا العمل خاب منها الظن واخطأها الأمل، لأنه بمجرد موت زوجها بطليموس البطين جبر أهل الدولة المصرية قلوبطرة الصغيرة على أن تحضر ابنها الأكبر من جزيرة قبرص لتقلده مملكة مصر، فبادرت بإحضاره وألبسته التاج الملوكى، واشترطت عليه أن يطلق زوجته قلوبطرة

---

(١) ارتقى عرش مصر مرتين: الأولى (١١٦ ـ ١٠٧ ق. م) والثانية (٨٨ ـ ٨١ / ٨٠ ق. م)

(٢) سوتر الثانى، أى المخلص، والمؤلف يقول: الثالث، وهو خطأ، إذ أن الذى لقب بـ سوتر، من قبل، هو بطليموس الأول فقط.

أخته، ويتزوج بدلها إحدى أخواته المسماة سيلانة، المعهودة الطاعة لأمها، والمعروفة بكمال الامتثال وعدم العقوق، فطلق قلوباطرة، وبقيت حاكمة على جزيرة قبرص، واستمرت على التداخل فى مصالح الشام إلى أن قبلت بأوامر أختها طروفانة ملكة الشام، وتزوج بطليموس لاطوروس أخته سيلانة عملا بشرط أمه.

ومع ذلك فقد بقيت قلوباطرة أمه حاقدة عليه، مضمرة له العداوة، ومريدة له التلف، فبمجرد أن ماتت ابنتها قلوباطرة حاكمة قبرص جعلت ابنها الصغير إسكندر ملكا على هذه الجزيرة، رجاء أن يعود منها ذات يوم ويصير ملكا على مصر، فكانت دائما مصممة على خلع ولدها الأكبر من مملكة مصر عند أول فرصة، فمكث كل من بطليموس التاسع وأمه زمنا طويلا على إدمان العداوة والإصرار على الدسائس الخفية، وكل منهما يعتمد على حزب فى الشام من أغراضه، ثم انتهى الحال على أن أم الملك المذكورة اتهمت ابنها بطليموس التاسع بأنه هم بقتلها سما فحزّبت عليه جميع أهالى الإسكندرية ليفتكوا به، ففر هاربا إلى جزيرة قبرص فى سنة ٧٢٨[1] قبل الهجرة، وعاد ابنها إسكندر إلى مصر فبايعه المصريون وجعلوه ملكا على مصر بهذه الوسيلة.

ومع ذلك فلم تترك قلوباطرة ابنها الأكبر بطليموس التاسع آمنا على نفسه فى مدة انزوائه فى جزيرة قبرص، بل أرسلت إليه جيشا مصريا ليخرجه منها ويجليه عنها، فخرج بطليموس التاسع من قبرص إلى سواحل الشام ومعه ثلاثون ألف مقاتل فهجم بهم على سواحل نهر الأردن وهزم اليهود الذين كانوا أعداء لأنطيوكوس القوزيقى ملك الشام، وكان هذا الملك معاهدا له، واستولى أيضا على عكا، وكانت فى قبضة مصر، فلما سمعت قلوبطرة بهذه الوقائع جهزت جنودا مصرية برية وبحرية وسيرتها إلى الشام، وأخذت منه مدينة عكا، وقصدت أن تخرج جزيرة قبرص من قبضته فعجزت عن ذلك، ومكث الحرب بين الأم والابن سجالا، كل منهما غالب تارة ومغلوب أخرى، إلى أن انتهى بالمصالحة بينهما.

---

(١) أى سنة ١٠٦ ق.م.

ومكثت هذه الحروب مدة طويلة متجهة جهة الخارج ، وكلما انقطعت تجدد بدلها فتن داخلية فى مصر ، فالتفتت قلوبطرة إلى حسم الفتن الداخلية ، وقد رأت أن أبنها الأصغر إسكندر الأول الذى جعلته ملكا على مصر ، ولقبته بطليموس ، لم يكن مطيعا لأوامرها ونواهيها ، فأخذت تحقد عليه وتضمر له السوء ، كما فعلت بأخيه ، فقصدت أن تتخلص منه بقتله غيلة ، فبينما هى شارعة فى تنجيز أغراضها إذ أحس بذلك فتدارك نفسه بإبقاء حياته بقتل أمه فقتلها وأراح العباد والبلاد منها ، واستبد من هذا الوقت بملك مصر بدون مشارك ولا منازع .

ثم ارتكب ذنبا آخر وهو نبش قبر إسكندر الأكبر ، وسلب التابوت المصوغ من الذهب المتضمن لعظام هذا الفاتح المقدونى ، فأداه طمعه إلى سلبه بوضع جثة إسكندر فى تابوت متخذ من البلور ، فبعد هذه الفعلة لم يمكث زمنا طويلا إلا وقد جوزى بعمله ، وذلك أن صنيعه أغضب الأهالى والجنود فتعصبوا عليه جميعا ففر هاربا إلى خارج مصر ، فاستدعى ديوان الإسكندرية حضور أخيه بطليموس سوطير ، وطلبوه من قبرص ، لما آنسوه فيه من حميد السيرة وحسن الأخلاق ، فمالت إليه النفوس ، واجتمعت على محبته القلوب ، فحضر سوطير الثانى بالإسكندرية ، وكان أخوه بعد أن خرج من مصر وصل إلى بلاد برقة فاستولى عليها ، وقصد أن يجتهد فى الاستيلاء على قبرص ، فسار إليها بجنده ، ووقعت حروب بحرية بينه وبين جنود قبرص ، فهلك فى هذه الواقعة سنة ٧١١ قبل الهجرة[١] .

وأما بطليموس سوطير فسار بجنده إلى مدينة طيوة ، مدينة الصعيد ، وكان قد امتنع أهلها من مبايعته ورفعوا راية الخروج عن طاعته ، فقاتلهم وهزمهم واستولى على المدينة وقتل وسلب وسبى ونهب ، فأباد هذه المدينة التى كانت فى مصر على كمال العمارية والزينة ، فلم تعد إلى حالتها العليا ، ولم تصر بعد ذلك أم مدن الدنيا .

ثم إن المملكة المصرية عادت فى أيام هذا الملك الحسن التدبير والسياسة لعلو

---

(١) أى سنة ٧٩ ق . م .

شأنها ورفعة مقامها كما كانت فى السابق، وصارت لها اليد العليا والشوكة القصوى على ممالك بلاد الشرق، فإن بطليموس التاسع أعاد لها شوكتها البحرية بتعمير السفن التجارية والحربية وتمكين فن الملاحة، فبهذا حسن حالها، وعلا قدرها، وصارت مرغوبة للمعاهدات، ومطلوبة للمحالفات، فقد التمس مطريداطس ملك قبادوقيا وأرمنستان[1] تأكيد عهد المحبة وعقد المودة بينه وبينها، وكذلك التمس منها الرومانيون نظير ذلك، وهذا مما يؤيد فخرها فى تلك الأزمان، ويزيد قدرها بين دول ذلك الأوان. وكان بين ملك قبادوقيا والرومانيين شقاق وخلاف، فكان التماس كل منهما معاهدة مصر لقصد تحصيل القوة بها، ومع إلحاح الالتماس بين الطرفين فقد أبى بطليموس التاسع أن يتعاهد مع كل من الفريقين، وأن يوالى مملكة من المملكتين، ونوى أن لا يتداخل ظاهرا فى حروب بعضها مع بعض، والظاهر إنه كان يخشى اتساع صولة الرومانيين وقوة دولتهم، لأنها كانت دائمًا آخذة فى التزايد شيئا فشيئا، فكان يحاذر من مساعدتهم، ومع إظهاره خلو أغراضه كان يعين ملك قبادوقيا سرا، فإن من المحقق أن الرومانيين لما أرسلوا قائدهم يوقولوس لحرب مملكة قبادوقيا بعثوا سفيرا إلى ملك مصر يطلب منه الإعانة للقائد يوقولوس، وكان الطالب لذلك سولا رئيس الجمهورية الرومانية، وامتنع ملك مصر من إرسال هذه المساعدة، وكان ذلك فى سنة ٧٠٧ قبل الهجرة[2]، وهذا مما يدل على شوكة مصر فى ذلك الزمن، حيث لم تلب دعوة سولا، رئيس الجمهورية الرومانية، مع إنه كان لا يمكن إذ ذاك لأحد من ملوك الدنيا أن يخالف أغراض الرومانيين لما كانوا عليه من العز والسلطان.

وقد مات ملك مصر المذكور حتف أنفه، وترك مصر إذ ذاك فى صلح مع غيرها من الممالك، وكان موته فى سنة ٧٠٣ قبل الهجرة، ومدة حكمه وحده ومع أمه ست وثلاثون سنة، وقد خلفته بنته قلوبطرة برنيقة على سرير الملك، ولم تحكم إلا ستة أشهر لا غير.

---

(١) قبادوقيا هى: كبدوكية، وهى إلى الجنوب الغربى من ارمينية (ارمنستان).

(٢) أى سنة ٨٥ ق.م.

الفصل العاشر

فى الملك بطليموس العاشر[1]

وبطليموس الحادى عشر[2]

يعبر عن الأول بإسكندر الثانى، وعن الثانى بعنوان أوليطيس، ومعناه الزامر[3]، وكانت مدة ملكهما معا من سنة ٧٠٣ قبل الهجرة إلى سنة ٦٧٤ نحو تسع وعشرين سنة، وذلك إنه لما مات بطليموس التاسع كان الأمير سولا رئيسا على الجمهورية الرومانية، وكان لإسكندر الأول البطليموسى ابن يسمى إسكندر الثانى، وكان مقيما فى ديوان متريداطس نزيلا قبل ذلك عنده، ولما جاء الأمير سولا إلى قبادوقيا قائدا على عسكر الرومانيين للحرب مع ملكها متريداطس المذكور. واستحسن إسكندر الثانى أن ينضم إلى سولا ليعينه عند الفرصة على تولية مصر له، فذهب إلى سولا فأكرم نزله، واستصحبه معه إلى رومة بعد انقضاء حرب قبادوقيا، فلما تواتر الخبر بموت أخيه سوطير الثانى، الذى هو بطليموس التاسع، أرسل سولا رئيس الجمهورية إسكندر الثانى ليتولى ملكا على مصر، فلما وصل إسكندر الثانى، الذى هو بطليموس العاشر، إلى مصر قصد أن يحسم الفتنة بقطع

---

(١) حكم من سنة ١٠٧ حتى سنة ٨٨ ق. م.

(٢) حكم وقتل فى نفس العام (٨٠ ق. م).

(٣) معلومات المؤلف هذه غير دقيقة، ذلك أن بطليموس العاشر هو إسكندر الأول، لا الثانى، وأن بطليموس الحادى عشر اسمه إسكندر الثانى، وليس أوليطيس (الزامر)، أما (الزامر) فهو بطليموس الثانى عشر الآتى ذكره فى الفصل القادم. انظر (الموسوعة المصرية) جـ١ ص ٢٠١-٢٠٣.

عرق النزاع بينه وبين الملكة قلوبطرة برنيقة، فتزوجها وشاركها فى الملك، فبعد أيام قلائل قتلها لينفرد بالملك، فلما رآه رؤساء الجنود المصرية معولا على دولة الرومانيين، التى هى أجنبية وليس لها حق فى المدخلية فى المصالح المصرية، مع كون هذا الملك مبغوضا للمصريين فى حد ذاته، ذبحوه فى ملعب الإسكندرية بعد تسعة عشر يوما مضت من ولايته.

ولم يكن إذ ذاك للبطالسة اللاغوسية أولاد ذكور من نكاح صحيح، وإنما كان لسوطير الثانى ولد من السفاح يسمى بطليموس أوليطيس، يعنى الزامر لتولعه بسماع المزمار، فولاه المصريون ملكا عليهم ولقبوه بطليموس الحادى عشر، ومن المعلوم أن هذا لولد قد تولى ملك مصر مع اتصافه بوصفين مذمومين من أعظم العيوب: وهو كونه من السفاح، وكونه تولى المملكة رغما عن أنف الجمهورية الرومانية بدل ملك كان انتخبه الرومانيون ونظموه فى سلك أحبابهم ومعاهديهم. فكانوا بالضرورة لا يعترفون بملوكية بطليموس الزامر، فبهذا صرح الرومانيون بأن توليته على مملكة مصر لاغية لا اعتداد بها ولا صادفت محلا، وأعلنوا أن سرير مصر خال عن الذات الملوكية المستحقة للتولية المعتبرة الصحيحة، وأن ملوكية مصر انحلت لا عن وارث من السلسلة، وآلت إلى نظارة جمهورية روما بمقتضى وصية إسكندر الثانى ملكها. وسواء كانت هذه الوصية صحيحة أو ادعائية فكانت على كلتا الحالتين لابد من تنفيذها جبرا، وأيضا كان فى الشام من ذرية بطالسة مصر بنات خلفن ذكورا أو إناثا من ملوك الشام، فكن يعتقدن تقديم نسلهم على بطليموس الزامر، وأن لنسلهن الأولوية عليه، وأن الرومانيين يساعدون على ذلك.

وذلك إنه كان لبطليموس سوطير أخت فى الشام، تسمى سيلانة، كانت زوجة بطليموس الفوزيقى ملك الشام، وكان قد بقى من تعلقات مصر بعض مدن على سواحل الشام، كمدينة عكا، ولها ولدان من ملك الشام، أحدهما يسمى أنطيوكوس، والثانى يسمى سيليقوس، فبعثت فى إيطاليا ابنيها لتطلب من جمهورية روما أن تسعى فى تقليدهما مملكة مصر بقولها: إن المملكة المصرية انتقلت إليهما بالميراث من جهة أمهما، فاستشعر بطليموس الزامر بهذا، وبعث من طرفه

سرا عدة سفراء إلى روما ليعارضوا ما طلبته الملكة سيلانة، ويمنعوا أنطيوكوس وسيليقوس من دعوى ذلك، لأنهما من أمراء الشام لا من أمراء مصر، وليستميلوا بالرشا والبراطيل بعض أمراء الجمهورية الرومانية ليكونوا معه ومن أغراضه، فوقعت المذاكرات والمداولات فى مجلس روما مرارا وتكرارا فى شأن مملكة مصر، وهل يجوز أن ترسل الجمهورية إلى ديار مصر جنودا رومانية ليقيموا فيها إقامة مؤقتة لمنع الاختلال، ولحفظ المملكة من النزاع والجدال، ولتمكين بطليموس الزامر؟ أم لا يجوز؟ وسبب المذاكرة والتطويل ما كان يدفعه وكلاء بطليموس فى روما من البراطيل، فكانت لا تنحل هذه المسألة المعضلة بمدينة روما، بل يحصل فيها التراخى والإهمال، وأيضا كان للرومانيين فى ذلك الوقت شغل أهم من هذا، وهو الحرب المفتوح بينهم وبين متريداطس، ملك قبادونيا، فكان هذا الحرب مما أعاق الرومانيين عن الالتفات لمصر وتنجيز أغراضهم فيها، فلما هزموا ملك قبادوقيا وفرغ الرومانيون من قتاله صرفوا همتهم إلى الالتفات للمصالح المصرية على وفق أغراضهم.

فالتمس أقراسوس(١) ويوليوس(٢) قيصر، اللذان هما رؤساء روما، من مجلس الجمهورية أن يصير إرسالهما من طرف جمهورية روما إلى مصر لإجراء ما تقتضيه مصلحة المملكة المصرية، فلم يصدق مجلس روما على إرسالهما.

وفى سنة ٦٨٦، قبل الهجرة(٣)، التمس المستشار رولوس من مجلس روما أن تضاف مملكة مصر لممالك الرومانيين، وتكون إيالة ملحقة بإيالة روما، وكان فى المجلس قيقرون الخطيب، ويقال أيضا شيشرون(٤)، وهو خطيب مصقع مشهور بالفصاحة والبلاغة، فأقام البراهين القاطعة على عدم صحة إضافتها لروما، لما فى ذلك من مخالفة أصول الملل والدول، واحتج أيضا على وجوب استقلالية مصر فى

---

(١) هو لوكيوس ليكينيوس كراسوس (المتوفى سنة ٩١ ق.م).
(٢) هو كايوس يوليوس قيصر (١٢٠؟ - ٤٤ ق.م).
(٣) أى سنة ٦٤ ق.م.
(٤) هو ليكينيوس كراسوس شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م).

حد ذاتها، وأن تكون قائمة بنفسها، مستبدة بأحكامها، لاقتضاء موقعها ذلك، فحكم مجلس روما بناء على سماع دلائله وبراهينه بتخليص مملكة مصر من ورطة التبعية للرومانيين، وقضى بإبقاء استبدادها بنفسها على حاله.

ولما كانت الجمهورية الرومانية لا تزال تتوعد مصر بإدخالها فى إيالاتها، وتهددها بتبعيتها لها، أوجب ذلك أن بطليموس صرف النظر عن موالاة الجمهورية الرومانية ومصادقتها فى الباطن، فلما انفتح الحرب أخيرا بين الرومانيين وبين متريداطس اقتصر بطليموس على إظهار عدم التعرض للطرفين، فلم يساعد الرومانيين ولا أمدهم، وكذلك لم يساعد متريداطس مساعدة ظاهرة، وإنما كان بينهما مراسلات سرية ومخالطات باطنية، فلما عاد جيش الرومانيين من حرب متريداطس، وكان الرئيس على الرومانيين الأمير بومبيوس، وكان قد نزل بالشام فبلغه فى طريقه موت متريداطس، الذى كان عدوا مبينا لروما، دخل هذا الرئيس إلى حدود مصر، فارتعب منه بطليموس الزامر، وأرسل إليه الهدايا الفاخرة، وواساه كل المواساة، والتمس منه أن يعينه على رعاياه، وكانوا قائمين عليه، مضرمين نار الفتنة فى المملكة المصرية، فأبى هذا الأمير الرومانى دخول مصر، وامتنع من إعانة بطليموس، فألح عليه بطليموس، وطلب منه المعونة والمحاماة، فأجابه إلى ذلك، وكان فى مدة حصار بومبيوس لبيت المقدس أعانه بطليموس بالدراهم والذخائر، فلما عاد بومبيوس إلى روما، وكان قيصر ملكا عليها، وكان بينه وبين بومبيوس محبة، فأوصاه على بطليموس، فشمله قيصر بنظره، وجعله تحت حمايته، والتمس من المجلس الرومانى أن يقره على ملوكية مصر بعد أن كان قبل ذلك قد قضى فى هذا المجلس بنزع الملك من يده، وكان ذلك فى سنة ٦٨١ قبل الهجرة[1].

وبالجملة، فقد أنفقت السلالة اللاغوسية الأموال الجمة فى تحصيل الحماية الرومانية، فإنه بعد هذا الزمن بيسير قرر بعض أرباب المجلس الرومانى، تبعا لغرض بعض أرباب مجلس الأهالى الرومانية، نزع ملك جزيرة قبرص من يد

(١) أى سنة ٥٩ ق.م.

ملكها أخى بطليموس الزامر، وإدخال هذه الجزيرة فى أملاك الجمهورية الرومانية، فأجيب إلى ذلك، واغتصبت رومة جزيرة قبرص، فأغضب ذلك ديوان الإسكندرية وأهاليها، لأنهم كانوا إذ ذاك لا زالوا محافظين على التمسك بحفظ ناموس وطنهم وصيانة أملاكهم أكثر من تمسك ملوكهم بذلك، فالتمس أهل الإسكندرية من ملكهم بطليموس الزامر أن يبذل جهده فى نقض معاهدة الرومانيين، وأن ينزع من أيديهم جزيرة قبرص بالقهر والغلبة ويعيد أخاه ملكا عليها، أجابهم بالمنع وعدم الرضا بما التمسوه منه، فقاموا عليه وأثاروا الفتن والشرور، فخرج من مصر بدون أن يشعر به أحد، وذهب إلى روما لالتماس الإعانة على رعيته حيث حرضوه على ما ينبغى فلم يقبل منهم ذلك.

وكان الرومانيون قد عينوا الأمير قاطون حاكما على جزيرة قبرص، وقد سار حتى وصل إلى جزيرة رودس، فذهب إليه بطليموس الزامر بعد خروجه من مصر ليزوره فلم يكرمه، بل لامه على الخروج من المملكة وتركها، وأشار عليه أن يركب معه سفنه ليوصله إلى مصر ويتوسط له فى الصلح مع رعيته، وأكد عليه فى ذلك، فأبى بطليموس الرجوع إلى بلاده قائلا: إن مد يد السؤال إلى مساعدة روما أهون على من عودى إلى مصر لطلب الصلح مع رعيتى.

وفى أثناء هذه المدة كانت انقطعت أخبار بطليموس الزامر عن رعاياه، ولم يقفوا له على خبر ولا أثر، فظنوا أنه قد هلك وكان له بنتان كبيرتان، وهما قلوبطرة طروفانة، وبرنيقة، ثم بعثوا إلى الشام سفراء ليلتمسوا من أنطيوكوس خال الملكتين، أن يحضر إلى مصر ليشركهما فى المملكة، وقد كان أنطيوكوس ملكا على الشام ثم عزل عنها بعد طرد الرومانيين ملك الأرمن، وكان الذى عزله عنها هو بومبيوس رئيس روما، فكان أنطيوكوس مقيما فى الشام كآحاد الناس، فلما ذهب السفراء لطلبه لم يجدوه على قيد الحياة، فبهذا فاته المنصب الملوكى على مصر كما فات أهل الإسكندرية غرضهم من التعضد به، فعرض السفراء هذه المشاركة على فليبش، أحد أقاربه، للياقته للتملك على مصر ومدافعة الأجانب، ولكن صده عن السفر إلى الإسكندرية غابنيوس، قائد عسكر الرومانيين، حيث لم يمكنه من ذلك

فاستبدله السفراء بالأمير سيليقوس(*)، أخى أنطيوكوس، فقبل المنصب وسار إلى مصر فوجد قلوبطرة طروفانة، إحدى الملكتين قد ماتت بعد أن أشركت أختها فى حكم مصر سنة كاملة، ووجد برنيقة منفردة بملك مصر فتزوجها سيليقوس واشترك معها فى الحكومة المصرية، وبعد يسير من الزمن قتلته خنقا وتزوجت بعده أرخيلاوس، كاهن هيكل البستان الذى ببلاد الأرمن، ويقال إن هذا الكاهن ابن متريداطس الأكبر ملك بلاد الأرمن، وبقيت معه.

وأما بطليموس الزامر فكان قد انتقل من جزيرة رودس ووصل إلى روما، وتداخل مع أرباب الحل والعقد من الجمهورية ودبر جميع ما يقدر عليه من الحيل والدسائس، وتوسل إلى الرومانيين ليعود إلى منصبه الأصلى ويرجع ملكا على الديار المصرية، وأرفقت معه الأمير أنطونيوس الشهير، الذى صار فيما بعد قنصل روما، وكان فى وقت هذه المأمورية قد تقلد إمارة قبادوقيا وبلاد الأرمن، فتعهد الرومانيون بإدخال بطليموس مصر وتنصيبه على مملكتها كما كان.

وفى أثناء ذلك حصلت مشاجرة فى روما بين أعضاء الجمعية الرومانية، وقام النزاع والشقاق الداخلى على ساق وقدم، وخرج بومبيوس من مدينة روما مغضبا، فأعاقت هذه الفتن والمحن الرومانية تنجيز سفر بطليموس إلى مصر، بل كان خروج بومبيوس من روما على الحالة غير المرضية محض ضرر على بطليموس لأنه كان مظاهرا له ومناصرا لأغراضه، فبقى بطليموس فى روما عديم الجاه قليل الحيلة. وأما أهالى الإسكندرية فإنهم لما بلغهم خبر حياته وتشبثه بالسعى فى روما لنيل مراده أرسلوا إلى روما سفراء لتثبيط همته والسعى فى نقيض مراده، ونبهوا على سفرائهم أن يعددوا معايبه ويترافعوا معه بالنيابة عن الأهالى فى مجلس روما، فتحيل بطليموس الزامر فى قتل أكثر هؤلاء السفراء، وكانوا تحت رئاسة الأمير ديون، فجذب بطليموس إليه هذا الرئيس، وصده عن أداء مأموريته، إما بالرشوة أو التهديد، فلم يعد إلى مجلس روما للمرافعة ولا إلى التشكى لجمعية الرومانيين،

(*) الصواب أن تكون هذه الجملة على النحو التالى: «فاستبدل به السفراء الأمير سيلقيوس» حيث إن الباء تدخل على المتروك. (الشروق).

فلم يتم أمر قضية بطليموس الزامر وعوده ملكا على مصر إلا فى سنة ٦٧٧ قبل الهجرة[1]، لما تولى بومبيوس حاكما على الرومانيين وتلقب قنصلا عليهم وتقلد هذه الرئاسة العظمى، فإنه حين ذلك حرر الأوامر الأكيدة إلى غابنيوس، قائد جنود الرومانية المأمورة بالغزوة الفارسية، أن يعيد بطليموس ملكا على مصر، ويصحبه ليجلسه على كرسى مملكته، وسلم هذه الأوامر - إلى بطليموس ليذهب بها إلى ذلك القائد.

فلما وصل بطليموس إلى الشام وجد غابنيوس عازما على عبور نهر الفرات ليعيد على مملكة من ممالك الفرس متريداطس الثالث، الذى كان طرده أخوه منها، وهذه المأمورية تعادل مأمورية إعادة ملك مصر إلى مصر سواء بسواء بالنسبة لقائد الجنود الرومانية، وإنما غزوة مصر أسهل وأقرب من غزوة فارس وأرجح منها بالنسبة للقائد المذكور، لأن فيها دراهم معدودة وبراطيل موعودة، فإن بطليموس قد صرح لهذا الأمير بذلك، ووعده بالدراهم غير مرة، فلما طن فى أذنيه رنة الدراهم والدنانير رجح مصلحة بطليموس على مصلحة متريداطس الثالث، فتأخرت نصرة هذا الأمير.

ومع أن قانون الرومانيين كان يأبى خروج الولاة من إيالاتهم، وإنهم إنما يرسلون من يقوم مقامهم فى مثل هذه المأموريات حتى لا تفوتهم إدارة أقاليمهم بأنفسهم، فقد خالف هذه الرسوم غابنيوس وأناب عنه ولده فى إدارة الشام مدة غيابه، وسار بنفسه مع بطليموس الزامر إلى مصر، وقد أمدته اليهود بأصناف الإمدادات، وكان قائد عسكره مرقوس أنطنيوس، محب بطليموس الذى سيأتى قريبا أنه يشترك مع قلوبطرة ملكة مصر فى التسلط على مملكة مصر، وإنه يتزوجها ويشركها فى الزينة والرفاهية المصرية - فوصل هذا القائد أمام مدينة فرما بمصر مع فرسانه الرومانية، وتغلب عليها بدون قتال، بل بخيانة المقيمين بها من اليهود، فقدم أرخيلاوس، زوج الملكة برنيقة، وكان شجاعا فى الحرب صنديدا شديد الطعن والضرب، فهجم على جند غابنيوس الرومانى على مقربة من فرما، فانهزم جيشه، ودخل جيش

---

(١) أى سنة ٥٥ ق. م.

الرومانيين فى الديار المصرية من جهة البر، وكذلك دخلت سفنه قهرا من بوغاز البحر، وسلكت فى النيل وسارت وهى صاعدة على ظهر هذا النهر.

ومع أن أهل الإسكندرية كانوا يبغضون بطليموس الزامر فى الباطن والظاهر، لأنهم لا يترقبون منه إلا إضمار السوء، إلا إنهم لما رأوه قد وفد عليهم، ودخل البلاد وصار بين يديهم، ورأوا أن أرخيلاوس، زوج الملكة، مصمم على مدافعة الرومانيين وممانعتهم، وإنه يجهز الإسكندرية للمحاصرة والدفاع، خافوا عاقبة هذا النزاع، مع ما جبلت عليه طباعهم من الخفة والطيش، وقد كرهوا المدافعة، لظنهم أنها غير نافعة، فكثر لغطهم، واشتد سخطهم، لا سيما لما رأوا أن أرخيلاوس يرسم خطوط استحكامات هندسية، ويخطط أخاديد تحفظية، ويحفر الخنادق للممانعة، فإنهم إزدادوا حنقا عليه، ومع ذلك فقد أراد أن يقاتل مقاتلة جديدة بالمهاجمة، فاجتهد فى تحصيل الظفر والتأييد، فخاب فى عزيمته، وانهزم وقتل فى هزيمته، فجلس بطليموس الزامر على سرير الملك ثانيا بعناية الرومانيين.

وأما أنطونيوس قائد عساكر الرومان فإنه لما علم بقتل أرخيلاوس رثى لحاله، وتأسف عليه، وشيع جنازته بأعظم المحافل، لأنه كان قد أضافه قبل ذلك بمصر فأكرمه غاية الإكرام، فأدى إليه بعد موته ما يليق به من كمال الاحترام، وبمجرد دخول بطليموس الإسكندرية وعوده إلى كرسى السلطنة المصرية سلك فى الانتقام أشنع طريقة، فابتدأ بقتل بنته برنيقة، وسفك دماء الأغنياء والأعيان، وضبط أموالهم وأهداها للرومانيين المتعصبين معه حيث نصروه على الأخصام والأقران، ثم ذهب غابنيوس مع قائده أنطنيوس من حيث أتى مثقلا بالذخائر والأموال، وأبقى لبطليموس من يحرسه من فحول الرجال، وهم من الغلية[1]، أى قدماء الفرنساوية.

فعاد لبطليموس فى هذه المرة ملك مصر، ولم يصنع فيها شيئا من المنافع، كما أنها فى الدفعة الأولى[2] لم تنتفع منه مصر بشىء، ومات فى عنفوان شبابه، وكان

(١) أى سكان بلاد الغالة القديمة.

(٢) أى مدة حكمه الأولى.

موته فى سنة ٦٧٤ قبل الهجرة[١]، فكانت مدته مع مدة من حكم قبله وبعد حكمه الأول نحو تسع وثلاثين سنة، وكان قد أرسل قبل موته إلى مدينة روما سفراء ومعهم وصية لمجلس الرومانيين، ليحفظها بومبيوس تحت يده، مضمونها إنه أوصى بممالك مصر لأكبر أولاده وكبرى بناته، بشرط عقد الزواج بينهما حين بلوغهما سن الزواج، وأن يشتركا معا فى الحكومة شيوعا، وأن يكون الوصى عليهما الأمة الرومانية، وأن تعاملهما بمنطوق «العهد نامة»[٢] المنعقد مع الجمهورية الرومانية والدولة المصرية.

(١) أى سنة ٥٢ ق.م.

(٢) المعاهدة.

الفصل الحادى عشر

فى الملك بطليموس الثانى عشر[1]

وبطليموس الثالث عشر[2]

والملكة قلوبطرة[3]

كانت مدة ولايتهم من سنة ٦٧٤ إلى سنة ٦٥٢ قبل الهجرة النبوية، فتكون مدة ولاية جميعهم نحو اثنتين وعشرين سنة.

وبيان ذلك أنه لما مات بطليموس الزامر تولى بعده على مصر ابنه بطليموس الثانى عشر، الملقب دنيس، أى الخمَّار، عملا بوصية أبيه، ولم يكن عمره إلا ثلاث عشرة سنة، فكان قاصرا، وكان عمر قلوبطرة، الشهيرة، الموصى لها بالملك بالمشاركة مع أخيها، سبع عشرة سنة، فكانت أهلية السياسة والتدبير منحصرة فيها دون أخيها لعدم رشده، فأقيم عليه ثلاثة أوصياء من أعيان المملكة المصرية، وهم: بوطين الطواشى، وطيودوطس وزير الداخلية، وأخيلاس رئيس الجند، وكان هؤلاء الوكلاء الثلاثة أعداء لقلوبطرة، من حيث أغراضهم الذاتية، فكانوا لا

---

(١) حكم من سنة ٨٠ حتى سنة ٥١ ق.م، ولقبه السكندريون بـ أوليتس، أى الزمار، أما لقبه الرسمى فكان «فيلوباتورينوس ديونيسوس» أى: المحب لأبيه ديونيسوس الجديد.

(٢) حكم من سنة ٥١ حتى سنة ٤٧ ق.م.

(٣) وهى كليوبطرة السابعة، ابنة بطليموس الثانى عشر، وزوجة بطليموس الثالث عشر، ارتقت معه العرش سنة ٥١ ق.م، وانتحرت انتحارها الشهير سنة ٣١ ق.م.

يرغبون فى اشتراكها مع أخيها فى الملك، فكان اشتراكها معه صعبا على نفوسهم، ولما عرضت التولية المذكورة على مجلس الرومانيين صدق عليها جميع أربابه، وبمقتضى هذا الإقرار والاستصواب صارت الملكة وأخوها بطليموس الثانى عشر منظومين فى سلك الملوك المعاهدين للرومانيين، ومعدودين من أحبابهم ومحسوبيهم.

وفى هذا الزمن بعينه كانت رياسة الدولة الرومانية بين يدى أميرين رومانيين مشتركين وهما: يولس قيصر، وبومبيوس، وكانت قد ظهرت بينهما العداوة وحصل الفشل الذى لا مزيد عليه، وانقسم الرومانيون إلى حزبين بحسب أغراض الرئيسين، وانفرد كل منهما بحزبه، وحصل القتال بين الفريقين المفترقين، فصمم بومبيوس على أن يهاجر من رومة إلى البلاد اليونانية، وكانت معدودة من الإيالات الرومانية، وتجهز للارتحال، فأرسل أكبر أولاده مع قائد من حزبه يسمى قورنليوس سبيون إلى مصر ليجمع له منها عساكر يستعين بها على خصمه قيصر، فأمدته قلوبطرة بالزاد والراحلة وأعانته بستين سفينة مصرية وبالعساكر الغلية التى كان أبقاها غابنيوس فى مصر لحرس الملوك البطالسة وقت أن أعاد بطليموس الزامر، وكان عددهم خمسمائة مقاتل، فسار ابن بومبيوس إلى أبيه بهذه الإمدادية، ولم تكن على غرض أوصياء بطليموس، فحقدوا على قلوبطرة هذا الصنيع، وحنقوا كل الحنق وحرضوا أهالى الإسكندرية على القيام عليها والخروج عن طاعتها، فثارت فتنة عظيمة يخشى عاقبتها، فخافت على نفسها وفرت إلى الشام مع أختها الصغيرة المسماة أرسنوية.

وتصادف فى ذلك الوقت أن يولس قيصر هزم خصمه بومبيوس عند مدينة فرسة، بولاية ترحالة، ففر بومبيوس هاربا إلى مصر، وكان بطليموس الثانى عشر إذ ذاك قاصدا السفر من الإسكندرية إلى الخارج ليقفو أثر أخته قلوبطرة، ويحاربها، فلمح سفن بومبيوس، وعلم أنه جاء إلى مصر مستجيرا به لما له عليه من اليد البيضاء، حيث أعانه على توليته ملك مصر، فلما رأى بطليموس أن بومبيوس جاءه نزيلا مستصرخا ليحتمى من قيصر لم يحسن نزله، ولم تأخذه النخوة الملوكية ولا الفتوة والأريحية على أن يحمى نزيله، لا سيما وأن له عليه سابقة معروف

وإحسان، بل عاملة معاملة الخائن الجبان، المقابل النعمة بالكفران، فقتله ليشمت فيه خصمه، ولم يراع حقوق المنة والنعمة.

فشتان بين صنيع بطليموس ملك مصر وبين صنيع محمد بن معاوية، عامل مصر، حيث أجار رجاء بن روح من صالح بن على فى أيام الخلفاء العباسية، وذلك إنه لما ولى صالح بن علىّ على مصر، من قبل ابن أخيه أبى العباس السفاح، خرج عليه رجاء بن روح بفلسطين، مع عمه الحكم بن ضبعان المتولى على شرطة مصر، فأرسل إليهم صالح بن على أبا عون ومحمد بن أشعث الخزاعى فهزما الحكم، وبلغ صالح بن على أن رجاء بن روح دخل مصر واستجار بمحمد بن معاوية، فأجاره، فأرسل إليه، فحضر، فقال له: ألم أكرمك؟ ألم أشرفك؟ قال: بلى، فقال: جزائى منك أن أجرت عدوى؟ قال: ومن ذاك أيها الأمير؟ قال: رجاء بن روح، فآت به، قال: أصلح الله الأمير، اختر واحدة من اثنتين لى فيهما براءة، إما أن أثلج صدرك باليمين، أو ترسل رجلا من ثقاتك يفتش منازلى، قال: أو تحلف؟ قال: نعم، فأحلفه بطلاق زوجته وعتق عبيده ومشيه إلى مكة راجلا حافيا، فحلف محمد بن معاوية له، ثم انصرف إلى منزله، وأعلم زوجته، فاعتزلت عنه، وقالت له: لا تنقطع عنى لئلا يشعر بك! فلما عزل صالح بن على عن مصر ورجع إلى بغداد أظهر محمد بن معاوية طلاق زوجته وأعتق رقيقه ومشى إلى مكة كما شرط عليه! وما أحسن قول الشاعر:

هو المرء أما ماله فمحلل ... لعاف وأما جاره فمحرم

فبطليموس ملك مصر لم يرع حق الجوار كأحد ولاة مصر فى أيام الإسلام.

فلما حضر قيصر بنفسه أمام الإسكندرية متتبعا خصمه، وكان بطليموس إذ ذاك بقرب فرما يريد السفر إلى الشام، رجع حالا إلى الإسكندرية، ولما أرسى قيصر على بر الإسكندرية حضر طيودوس وزير بطليموس إلى يولس قيصر برأس بومبيوس ووضعها بين يديه، فكان أول شىء وقع عليه بصر قيصر رأس خصمه، فلم يتمالك قيصر نفسه من إسالة الدموع على قرينه، ورثى لحاله، وأظهر الأسف والحزن، وجهز جنازته بكمال الاحتفال، كما يليق بمقام فحول الرجال والأمراء الأبطال، ومع أنه كان هزمه وانتصر عليه فى حال حياته نصرة عجيبة، وألجأه إلى

الهروب إلى مصر فقد أحسن معه الصنيع بعد موته، وعامله بمكارم الأخلاق اللائقة بأكابر الأمراء وأمراء الأكابر - وسيأتى إنه ولو أمهل بطليموس وأبقى عليه إلا أنه سجنه، ثم أطلقه بشروط، ثم غزاه وأغرقه هو وجنده فى النيل، وما هذا إلا للأخذ بثأر بومبيوس - فشتان بين سوء خلق بطليموس وحسن خلق قيصر، فمذهب الملق قديم ولا يأباه إلا كريم:

لم يبق فى الناس إلا الشوك والملق شــوك إذا اختبروا ورد إذا رمقـوا

فإن دعـاك إلـى إيـلافهــم قـــدر فكن ســعيرا لعل الشوك يحتـرق

وما فعله قيصر فى حق بومبيوس بعد قتله نظير ما فعله الإسكندر الأكبر فى حق دارا خصمه بعد موته، بقتل اتباعه له، فإنه أسف عليه غاية الأسف، وقتل قاتله.

وأما قيصر فلما وجد خصمه قد مات مقتولا، ولم يكن له حاجة بمصر، غير قطع عرق النزاع مع خصمه، قصد الرحيل منها حالا إلى مدينة إفريقية بالمغرب، وكان قد تجمع فى هذه المدينة ما بقى من أحزاب بومبيوس، ولكن عاقه عن السفر اختلاف الرياح، فأقام بالإسكندرية زمنا، بل كان الموجب الحقيقى لإقامته بالديار المصرية إنما هو تعلقه بقلوبطرة، لأنها كانت بديعة الجمال، وكان قد أحضرها معه من الشام إلى مصر، وأعادها ملكة كما كانت، وأصلح بينها وبين أخيها بطليموس الثانى عشر.

وكان أهل الإسكندرية يتشبثون دائما باستقلال وطنهم، ويتغالون فى محبة حريتهم، ويكرهون توسط الرومانيين فى المصالح المصرية، فلما حضر قيصر بمصر، وأصلح بين قلوبطرة وأخيها بطليموس المذكور، أغضب ذلك المصريين، فتظلم بوطين الطواشى للوجوه والأعيان من هتك ناموس المملكة المصرية وعدم رعاية حرمتها من طرق قيصر الذى لم يراع حقوق مصر، ثم أمر بوطين المذكور الأمير أخيلاس قائد الجيوش المصرية أن يهجم على الإسكندرية ويقاتل بطليموس المذكور، وكان قيصر قد أمر بصرف جنوده وتخلية سبيلهم وخروجهم من الإسكندرية، حيث لا حاجة له بهم، فلما هجم جند مصر على بطليموس دبر هذا الملك الهروب من قصره ولحق عسكر قيصر ليحتمى فيه، ولم يكن مع قيصر من

العساكر بجهة الإسكندرية إلا ثلاثة آلاف نفس، فكان فى حيرة عظيمة فى أمر هذه المدينة العامرة الغاصة بالأهالى المطبوعين على خلع ملوكهم، فأراد قيصر تسكين الفتنة، وتلى عليهم وصية آخر ملوكهم، ووعظهم الموعظة الحسنة ليدفعهم بالتى هى أحسن، وأمرهم بأن يعطوا جزيرة قبرص لذرية بطليموس الزامر، وهما أرسنوية وبطليموس القاصر ليشتركا فى مملكتها، وألزمهم ذلك بوصف كونه رئيس الرومانيين ومنفذ وصية ملك مصر، وكالناظر الحسبى على مصالحها، وأن توسطه ليس من تلقاء نفسه، ولا لإظهار جاهه، فسكنت الفتنة سكونا مؤقتا، ثم هاجت ثانيا بتحريض الوزراء الأوصياء لما وجدوا أن وصايتهم قد زالت، وأن تصرفهم قد انتهى بانتقاله منهم إلى الرومانيين، فحرضوا جميع الأهالى على القتال، واتحد بوطين الطواشى بالأمير أخيلاس قائد الجيوش المصرية وغيرهم وصمموا على إهلاك قيصر ومن معه من الرومانيين بالإسكندرية، فجاء أخيلاس إليها بجيشه، وكان يبلغ اثنين وعشرين ألف مقاتل، ونصب معسكره أمام الإسكندرية، وأفاد الرومانيين أن تسكين الفتنة لا يكون بدون تسليم قلوبطرة للأهالى لينتقموا منها كما يشاؤون، فلم يرض قيصر بتسليمها، واختار الإقامة فى الإسكندرية محصورا أو مسجونا، وآثر المكاره الشديدة على تسليم هذه الملكة للأهالى يستبيحون دمها، ورأى أن ذلك مخل بناموسه، وموجب لاتصافه بالخسة ودناءة الهمة، فشرع أهل الإسكندرية فى وضع يدهم على سفنه واستيلائهم عليها، فلم يمكنهم منها بل أضرم فيها النيران حتى انتشرت الحريقة منها إلى القصر الملوكى، واحترقت كتبخانة البطالسة الموصلة إلى هذا القصر، وقد سبق أنهم جمعوا فيها عددا كثيرا من كتب الدنيا مع ما تجدد عندهم من التآليف العديدة، ومن هنا يتضح أن نسبة حرقها إلى عمرو بن العاص، بأمر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، رضى الله عنهما، إنما هو من إشاعة المؤرخين الذين لا علم لهم بالحريقة المذكورة الواقعة فى أيام البطالسة، فلا معنى حينئذ لمن يشن الغارة باللوم على أمير المؤمنين، رضى الله تعالى عنه، بأنه حرق كتب العلوم الأولية.

وبينما كانت عساكر قيصر، القليلة العدد، الكبيرة الشجاعة، مشرفة على فتور الهمة مما قاسوه من النصب والتعب، إذ جاءهم الفرج على حين غفلة بقدوم فرقة

عسكرية وذخائر وإمدادات حضرت إليهم من رومية، فاستقبلها قيصر بنفسه، فبهذه الإمدادية المنضمة إلى العساكر البحرية انتصر قيصر على أهالى الإسكندرية وهزمهم شر هزيمة حتى التجأوا إلى طلب الصلح من قيصر، وأرسلوا إليه من طرفهم رسلا مفوضين فى ذلك، فالتمس منه الرسل إطلاق بطليموس الثانى عشر، وكان محجوزا عنده، فصالحهم على إطلاقه بشروط معلومة، مع علم قيصر بغدره وخيانته، وإنه خصمه، ولكن آثر قيصر أن يكون خصمه ملكا، وأن يكون حربه مع هذا الملك دون الأهالى، لأن الحرب مع ملك يجمع عساكر معينة مجمكة[١] يستعين بها على خصمه أسهل من الحرب مع الأهالى بتمامها، حيث لا يمكن القبض على جملة الأهالى، فضربة الملك لملك مثله وحربه معه أولى وأقرب من ضربته لأهالى مملكة بتمامها وحربه معهم وأقرب للانتصار.

فبمجرد ما تخلص بطليموس الثانى عشر من قبضة قيصر أظهر للرومانيين أشد المعاداة، وقصد قيصر بالمضرة والإيذاء، ولكن من سعد قيصر حضور متريداطس والى برغام[٢] لمساعدة قيصر مع الجنود الرومانية التى كانت فى أناطلى والشام وفلسطين، وكان قد هجم على عساكر قيصر جيش مصرى يمنعه من المرور بالشام، فهزمته عساكر اليهود، ووقع حرب عظيم آخر بين قيصر وبطليموس على سواحل النيل فهلك فى هذه الواقعة بطليموس الثانى عشر عقب إنهزامه وفراره مع فرقة عظيمة من جيشه غرقوا جميعا فى النيل، وقذفتهم الأمواج على الساحل، فعرفت جثة بطليموس بما وجد بها من الدرع المصوغ من الذهب الذى كان مدرعا به، وكان موته فى سنة ٦٦٩ قبل الهجرة[٣]، بعد أن حكم خمس سنوات.

وبعد موته جلس أخوه بطليموس الثالث عشر على سرير الملك بأمر قيصر، لأن قيصر تغلب فى غزوته التى مات فيها بطليموس على الإسكندرية ومصر، فكان يقتدر أن يجعل مصر ولاية رومانية من جملة عموم ولايات الجمهورية الرومانية،

---

(١) أى نظامية معينة لها الرواتب والنفقات.

(٢) من مدن آسيا الصغرى.

(٣) أى سنة ٤٧ ق.م.

ولكن استصوب تنفيذ وصية بطليموس الزامر، وآثر تنفيذها على شفاء أطماعه، فولى بطليموس ـ وكان قاصرا ـ مملكة مصر ليشترك مع أخته قلوبطرة فى الحكم، وأبقى لحرس قلوبطرة وصيانة مملكتها فرقة عسكرية غلية، أى فرنساوية، خيفة من أن ينزع أحد الملك من يدها، واستصحب معه إلى رومة أختها أرسنوية، لأنها لو بقيت فى مصر لحصل بوجودها فى المملكة فتنة عظيمة، فوصلت هذه الأميرة إلى رومة أسيرة كأنها غنيمة من جملة ما اغتنمه قيصر من مصر، ودخلت فى رومة فى الموكب المنعقد لقيصر وقت دخوله فى رومة، فمن هذا الوقت صارت قلوبطرة قابضة على زمام مملكة مصر، ولها دون غيرها فى المملكة الحل والعقد، وأما زوجها الذى هو أخوها فكان ملكا صورة فقط.

وفى سنة ٦٦٨ قبل الهجرة[١]، يعنى بعد جلوس بطليموس الثالث عشر على كرسى المملكة بسنة واحدة، سارت قلوبطرة هى وزوجها إلى رومة فتلقاها الرومانيون تلقى المحبين المتعاهدين مع الرومانيين، وبعد سنتين من هذا التاريخ مات بطليموس الثالث عشر، عقب ثلاث سنوات من حكمه، ويقال إن أخته قلوبطرة سمته.

وما دام قيصر على قيد الحياة لازالت قلوبطرة باقية، بحمايته وجاهه، تحت عناية رومة وحمايتها، ومن هنا يعلم أن ملك مصر فى ذلك الزمن كان متعلقا برومة، غير مستقل بنفسه، وكان فى حمى الرومانيين.

وقد اتفق فى تلك الأزمان أن قيصر عظم بأسه وقويت شوكته، وظهر منه قصد التعدى على الجمهورية الرومانية وحرمانها من الحرية، وإنه إذا دام على هذه الحالة تسلطن عليها حسا ومعنى، وكان حزب الجمهورية قويا، وكان فيهم شجاع يسمى بروطوس[٢]، دعى مجهول الأب[*]، إلا إنه كان مشهورا بمذهب الحرية،

---

(١) أى سنة ٤٦ ق.م.

(٢) هو ماركوس يونيوس بروتوس (٨٥ـ ٤٢ ق.م).

(*) الأفضل أن تكون هذه العبارة على النحو التالى: (كان يُظن أنه دعىّ مجهول الأب). لأن المؤلف ذكر فى السطور التالية أنه كان ابنا لقيصر من السفاح. (الشروق).

ومتعصبا للجمهورية، وكانت أحزاب الجمهورية قد أضمرت على التخلص من رياسة قيصر، بقتله، فحرضوا بروطوس على ذلك، وقالوا له: لو كنت شجاعا ما بقينا فى العبودية على هذه الحالة! فتمكن الإغراء من قلبه، وقال للأحزاب: دليل شجاعتى إطلاقكم من أسر العبودية! وجرد خنجره وأقبل على قيصر فى المحفل العام بالمجلس وطعنه به، فرفع قيصر عينه إليه وصاح قائلا: قد طعنت بيدى ولدى! وفى الحقيقة كان بروطوس بن قيصر من السفاح، وإلى وقت قتله لقيصر لم يعلم إنه أبوه، فندم على ذلك، وخلص الرومانيون من قيصر ووقعوا فى أسر من هو أشد منه وهو أغسطوس قيصر، أول ملوك القياصرة ـ كما سيأتى قريبا فى الدولة الرابعة والعشرين.

فلما قتل قيصر، محبوب قلوبطرة، كان يخشى على مصر من هجوم قسيوس الرومانى، حاكم الشام، فخاطرت قلوبطرة بنفسها، والتجأت إلى المجلس الرومانى، وتوصلت بعد موت أخيها إلى تمليك أصغر أولادها، التى زعمت أنها ولدت من قيصر، ولقبته بطليموس قيصرون، يعنى القيصر الصغير، ويجعله بعض المؤرخين بطليموس الرابع عشر.

وكان أنطنيوس أحد الشركاء فى دولة الرومانيين قد عشق قلوبطرة بمجرد ما رآها بعد موت قيصر، وحماها حماية كاملة، وفيما بعد تزوج بها، وارتبط بخته ببختها وتخته بتختها، فكأن لسان حالها فى هذه الحالة ينشد:

إن ضاق بى بلـــد يممت لى بلـــدا	**وإن نأى منـــزل بى كان لى بـدلى**
وإن تغيـــر لـــى عـــن وده رجـــل	**أصفى المودة لى من بعـده رجـــل**
لم يقطع الله لى من صاحب أمــلا	**ألا تجـــــدد لى من صاحب أمـــل**

وبيان ذلك أن أنطنيوس لما أدخل قلوبطرة تحت حمايته كان قد قصد أن يسافر للغزو فى مملكة من ممالك العجم، وكان قد ارتاب فى سياسة هذه الملكة، واشتبه فى أمرها، وخشى أن لا تكون صادقة فى محبتها فتساعد أخصامه عليه، فأراد أن يتحقق أمرها ويعلم حقيقة سلوكها معه تفصيلا، فشدد عليها فى الامتحان

والاختبار حتى طلب منها مقادير جسيمة من المال فلم تقصر فى ذلك، فعزم عليها أن تسير من مصر بعد وصوله إلى مدينة طرسوس، وتصل إليه هناك، وتبادر بمقابلته فيها، وكانت قلوبطرة تعلم منزلتها عنده وما لها فى قلبه من شدة المحبة، وأنها متسلطنة على فؤاده، فسلكت مسلك الدلال والخفر، ولم تبادر، كمرغوبة، إلى السفر، بل أخرت المسير إلى جهة طرسوس، ثم لما حملها الهوى على المسير سارت حتى وصلت إلى إيالة سلفقة، فركبت نهر قراصو، وهو نهر طرسوس، وسارت فى سفينة مذهبة الأطراف والأكناف أرجوانية القلوع والستائر الحرير، وكانت أمواج البحر تضطرب بالنسمات على نغمات العيدان والمزامير، وروائح البخور يعبق شذاها بسائر الأرجاء فتكتسب الروائح المسكية، ويفوح منها إلى سائر النواحى روائح الطيب الزكية، حتى امتلأت شواطىء النهر من رياها[1]، فلما لمح أهالى مدينة طرسوس أنه قد هل عليهم كوكب الزهرة المصرية، وموكب مليكة الجمال القيصرية، ولاحت أنوارها الإشراقية بآفاقهم المشرقة، هرعوا جميعا إلى هذا النهر للتملى برؤياها، والتعطر برياها، وكل استقبل جميل محياها، وبتحية الملوك حياها، ولم يتخلف إلا أنطنيوس، إذ بقى فى مجلسه السعيد، ولم يسع لاستقبال هذا القمر المنير من بعيد، بل استدعاها أن تحضر أمامه، حيث قدمت إلى المدينة بالسلامة، فلم ترض هذه الملكة إلا بسعيه إليها على الأقدام، وقدومه عليها أولا لإظهار التبجيل والإعظام، فأجاب إلى مطلوبها، ولبى دعوتها كمرغوبها، وكانت على غاية من البهاء والجمال، ونهاية من التزين بأفخر ما عندها من حال الكمال، فتعجب أنطنيوس من زهوها وبهائها بهذه الحالة، وسحرت لبه بما كانت عليه من الجمالة والجلالة، فأدخلها فى مجلسه الملوكى الفائق، فخطرت كغصن البانة المتأود، فحق للسان حال أنطنيوس أن ينشد:

بحسن يوسف من مصر بدت ملكه ... وللنهى نصبت من دلها شبكه
مصرية لملوك الروم ساحره ... هندى ألحاظها من صابه فتكه
لا غرو من فلك يرتج إن خطرت ... كم لدى الفلك الدوار من حركه
يطالع القلب باب الاختصاص بها ... وقد غوى فى الهوى من يقبل الشركه

(١) الريا - بتشديد الراء والياء المفتوحتين - معناها هنا: الريح الطيبة.

ثم هيأ لها من الوليمة الفاخرة ما هو بمقامه ومقامها من اللائق، فابتهج مجلسه بها كمال الابتهاج، وانتقشت أشعة ما عليها من الجواهر والملابس الزاهية على أرجاء المحل، فكانت كالسراج الوهاج، فكان المجلس يسطع على جوانبه أنوار الأشكال المتنوعة، ويتلألأ على أطرافه وأكتافه لوامع أنوار الأجسام النورانية المجتمعة، فاتحدت الأنوار الحسية بالمعنوية، في محفل هذه الوليمة البهية، وما ذاك كله إلا من بهجة هذه الملكة المصرية، فمن هذا الوقت أخذت بمجامع عقل أنطنيوس، وسحرت لب هذا البطل، وشموس الحسن المصرية تستولى على النفوس، فجعلته من هذا الوقت طوع يدها، وأسير قيدها، فجلبته معها إلى الإسكندرية، وانعقد بينهما عقد الزوجية، وذاق معها في هذه المدينة نعيم الوصال، وتلذذ منها بشهي طعم الحسن والجمال، وذهل بظريفته عن وظيفته، وببيت قصيده عن تمام مقصوده، وما فصله عن تواصل هذه اللذات، ولا أخرجه من التمتع بجمال هذه الذات، إلا تهديده من مجلس رومة بتجرده من منصب الحكومة، وخوف انفراد أقطاس[1]، قرينه، بالرياسة، واستبداد شريكه دونه بالسياسة، فخرج من مملكة مصر كرها لا بطل، ونهض إلى إيطاليا على عجل، ثم سار من إيطاليا إلى إيالة الشام، ليجهز فيها مواد الحرب لغزو الأعجام، فقابلته قلوبطرة في البلاد الشامية لقضاء الأوطار، وتمنت عليه أعظم أمنية إذ التمست منه أن يضيف إلى المملكة المصرية جميع مدن السواحل الشرقية، الواقعة على بحر سفيد، لتوسيع دائرة ملك مصر على وجه مفيد، وأن يضاف إلى مصر أيضا جزيرة قبرص، وجزء من أناطول، وبلاد يهوذا الموصوفة بالبلسم في تلك الأزمان، والتمست أيضا أن يعطى لها بلاد العرب والحجاز الموصلة إلى بحر الهند، لتكون هذه البلاد مضافة لدولة الإسكندرية، لما أن أهلها أرباب حركة صناعية وإدارة تجارية، فبهذه الإضافة يتم للإسكندرية صفة المركزية العمومية، لتعود بها المعاملات كالزمن القديم، وتعوض ما فات، فإن الإسكندرية كانت تلاشت تجارتها، وتضعضع حال معاملتها من منذ تدمير مدينة صور، التي هي قرينة الإسكندرية، ومن وقت انقراض مملكة العجم لم تبق لكل من مدينة صور والإسكندرية إلا الشهرة الظاهرية الصورية.

---

(١) هو أوكتافيوس، أو أوكتافيانوس (٦٣ ـ ١٤ ق. م).

فقبل أن يهجم أنطنيوس على بلاد الأعجام، عرج على مصر لإجابة التماس هذه الملكة ونظمه على أبدع نظام، فلما دخل إلى الإسكندرية أطال المكث مع الزهرة المصرية، ولم يستطع الخلاص من أسر جمالها، بل نسى مقام وظائفه الرومانية، واستعوض أعمالها بإهمالها، بل شرع فى مقدمات إضعاف مصالح الجمهورية الرومانية وإبطالها، فأعطى عنوان الملك لأولاده من قلوبطرة، وقسم الممالك التى يؤمل فتحها بينهم دون سواهم، وجرد رومة من هذه الممالك، ولم يراع حقوق الرومانيين وخالف هواهم، فجعل ابنه إسكندر ملك أرمينية وأذربيجان وفارس، وقلد ابنه الثانى بطليموس ملك سواحل الشام ودمشق وأناطول، وأحضر هذين الولدين أمام الأهالى بالمظهر الملوكى المعتاد، فألبس ابنه الأكبر التاج الملوكى والحلة الملوكية فى زى ملوك الأرمن وأذربيجان، وألبس الثانى التاج الملوكى والحلة الملوكية فى زى ملوك الطوائف، الذين خلفوا إسكندر على الممالك اليونانية، ومن هذا الوقت صارت قلوبطرة لا تخرج من قصرها إلا بالملابس الملوكية الرسمية الموكبية اللائقة لملكة مصر والرومانيين، برسم كونها ملكة مصر بالوراثة عن أسلافها، وبرسم كونها زوجة ملك الرومانيين، الذى هو أجل ملوك الدنيا، وبرسم كونها أم الملكين العظيمين اللذين تملكا على ممالك العجم، فصارت لا تظهر إلا بهذا المظهر العظيم.

وقد كان فى عصمة أنطنيوس زوجة أخرى، رفيعة الحسب والنسب، وهى أوقطاوية، أخت أوقطاوس، شريك أنطنيوس فى الرياسة الرومانية، فبالزواج على أخته حصل الشقاق والعداوة بين الشريكين، وفارق أنطنيوس زوجته أوقطاوية، واقتصر على قلوبطرة.

وكانت مملكة الرومانيين إذ ذاك أعظم ممالك الدنيا مجدا وشأنا، وكانت تحت رياسة أنطنيوس وأوقطاوس، وكانا مشتركين فيها شيوعا، ولهما عليها اليد العليا، ولم يكن حاكم هذه الجمهورية غيرهما، إلا مجلس الجمهورية الذى له حق التصرف بالحل والعقد فى هذه المملكة العظيمة، فتظلم أوقطاوس من خصمه لهذا المجلس، الذى هو بمنزلة محكمة عليا تبث الأحكام بين الأخصام، ورفع دعواه،

واتهم أنطنيوس بأنه مزق الدولة الرومانية، وأدخل قيصرون فى وراثة قيصر، مع إنه ابن سفاح، فحكم المجلس الرومانى بعزل أنطنيوس من رياسة الجمهورية، وإعلان الحرب مع قلوبطرة ملكة مصر[1]، وبالضرورة صار أنطنيوس من ذلك الوقت عدوا لأوقطاوس، وقد قال أوقطاوس لمجلس الجمهورية: لا يسوغ لنا أن يكون الحرب بيننا وبين أنطنيوس لأن الشراب المصرى قد أسكره وذهب بعقله، فلا يكون حربنا إلا مع أتباع الملكة قلوبطرة وأمراء جنودها. يشيرون بذلك إلى أنه مخمور لا يكاد يصحو، فلو كان كعنترة العبسى[2] وانتصر عليهم حين غزوه لرد عليهم بمثل قوله:

وإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

وقد أخذ هذا المعنى ابن حمديس[3]، وزاده حسنا، فقال:

يعيد عطايا سكره عند صحوه ... ليعلم أن الجود منه على علم

ويسلم فى الإنعام من قول قائل ... تكرم لما خامرته ابنة الكرم

لكن أنطنيوس صدق القول بالفعل بقراره وعدم فراره، قال ابن الرومى[4]:

والله ما أدرى لأية علّة ... يدعونها فى الراح باسم الراح

أريحها أم روحها تحت الحشا ... أم لارتياح نديمها المرتاح

فاستعد كل من الفريقين للحرب، وخرجت قلوبطرة بنفسها للغزو، واصطحبت معها أنطنيوس إلى محل الواقعة البحرية، وهو مدينة أكسيوم، التى هى مدينة أزيو بساحل روم إيلى، فكانت ميدان القتال بين أنطنيوس وأوقطاوس،

(١) إعلان الحرب مع كلوبترة، أى: إعلان الحرب عليها.
(٢) شاعر جاهلى شهير، توفى حوالى سنة ٦٠٠ م.
(٣) عبد الجبار بن أبى بكر (١٠٥٥-١١٣٢ م) من شعراء صقلية، ولد فى سرقوسة، ثم ذهب إلى الأندلس بعد استيلاء النورمنديين على صقلية، ثم عاش بالمغرب، وتوفى ودفن فى بجاية.
(٤) على بن العباس بن جريج (٨٢٦-٨٩٦ م) من أشهر شعراء بغداد فى عصره.

فأمدت قلوبطرة أنطنيوس وحزبه بمائتى سفينة بحرية، واجتهدت فى إحياء همة الجنود ونشاطهم لكى تنتصر على أوقطاوس، ويكون فخر نصرة السفن المصرية عائدا عليها بالمجد والفخار.

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

فجعلت مدار الحرب على جنودها البحرية، لتغلب خصمها بجندها، فحصل القتال بين سفن الرومانيين والسفن المصرية، وكان الحرب بينهما سجالا، فلم ينتصر أحد الفريقين على الآخر انتصارا قطعيا حاسما للنزاع، فبينما الأمر كذلك إذ سارت ستون سفينة من سفن قلوبطرة بقوة المجاذيف، وانفصلت من بين سفن أنطنيوس، وهربت صوب جزيرة المورة، وفيها الملكة قلوبطرة هاربة من القتال، والهروب نصف الشطارة! فارة من مضمار النزال، إما لأن الحرب أفزعها والطعن والضرب روعها فخافت على نفسها من الهزيمة، التى عاقبتها ذميمة، أو إنه حصل بينها وبين أوقطاوس اتفاق سرى ودسائس مكتومة ومواعدة بينه وبينها، فغدرت بقرينها حيث وجدته قرين سوء:

ذهب الحمار ليستفيد لنفسه قرنا فآب وماله أذنان

فلما رآها أنطنيوس قد أدبرت ولى مدبرا وراءها، إما جبنا منه، أو اقتفى أثرها للتعلق بها وعدم القدرة على فراقها، كما قيل:

يوم الفراق لقد خلقت طويلا لم تبق لى جلدا ولا تعويلا

لو حار مرتاد المنية لم يجد إلا الفراق على النفوس دليلا

قالوا الفراق فما شككت بأنها نفسى عن الدنيا تريد رحيلا

وبالجملة فقد هرب كل منهما إلى مصر، ولسان حالهما يقول:

وما أدرى إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يلينى

أألخير الذى أنا أبتغيه الشر الذى هو يبتغينى؟!

فاقتفى أثرهما أوقطاوس، وسلمت إليه قلوبطرة مدينة فرما، التى[*] هى مفتاح الديار المصرية، أرادت بهذه الخيانة أن تتحبب إليه حتى ينتهى الحال بها أن تتنصل من أنطنيوس، وكان أنطنيوس لسوء حظه يعتمد على أمانتها، ولا يخطر له فى بال أنها سلمت مدينة فرما قصدا، ولو قيل له ذلك لا يصدقه.

يقضى على المرء فى أيام محنته — حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

لا سيما وإنه فى يوم وصول أوقطاوس أمام مدينة فرما كان أنطنيوس دخل الإسكندرية، وأطلع الملكة على دفتر العساكر الذين حاربوا معه وامتازوا فى الواقعة، وكل هذا لم يجذب قلبها إليه، فصارت لا تعول على كلامه، ولا تعتمد عليه، وكأنها تقول:

كنت بدرا وكان قلبى أفقا — ومليكا ولا أخالف أمرك

فاعتراك الكسوف والملك ولى — عظم الله فى المحاسن أجرك!

وفى اليوم الثانى من دخوله الإسكندرية خانته العربان، وتحزبوا عليه مع خصمه، وانفصل عنه العساكر المشاة، وانضمت السفن المصرية إلى سفن قيصرون، ولا شك أن هذه فعلة قلوبطرة، لأنها جردت أنطنيوس من جميع الجنود، حتى من السفن البحرية التى كان يمكنه أن ينجو بها من خصمه، فهذا كله عين الخيانة، وإن لم يستشعر بها أنطنيوس، ولكن كاد المريب أن يقول خذونى، لأن قلوبطرة أحست بسوء فعلتها، وحاك إثم الفعلة فى صدرها، فخافت من انتقام أنطنيوس إذا علم الحقيقة.

ومهما يكن عند امرىء من خليقة — وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فاختفت مع أموالها فى مدفن حصين كانت شيدته لتدفن فيه، فكأنها مصداق ما قيل:

جعلت حقيبة الأطماع يأسا — فآوانى إلى كهف وديع

ركبت مطية الإقبال غفلا — بلا رحل يشد ولا شسوع

(*) إضافة يقتضيها السياق (الشروق).

فاحتمت فى هذا المحل، وأشاعت أنها تريد قتل نفسها، وتواتر الخبر بذلك حتى بلغ أنطنيوس فعزم أيضا أن يقتل نفسه حتى لا يعيش بعدها، فأشار إلى مملوكه بتنجيز هذه الفعلة، فرفع المملوك سيفه مظهرا قتل سيده وطعن نفسه بالسيف، ولم تسمح نفسه بقتل مولاه، فخجل أنطنيوس من ذلك وطعن نفسه بخنجره، ولم يمت فى الحال، وقد علم قبل إزهاق روحه أن قلوبطرة لم تزل على قيد الحياة، فطلب من أتباعه أن ينقلوه إليها ليجتمع بها قبل موته . .

تمنيت من حبى بثينة أننا ... وئدنا جميعا ثم تحيا ولا أحيا

فترجع دنياها عليها وإننى ... بساعة ضمتها رضيت من الدنيا

فلم تفتح له باب محلها، بل أدنته من شباك المحل، وأنزلته فى جهة من المدفن فمات فيه .

وما هذه الأيام إلا صحائف ... نؤرخ فيها ثم نمحى ونمحق

ولم أر عيشا مثل دائرة المنى ... توسعها الآمال والعيش ضيق

وكان قد بلغ أوقطاوس أن قلوبطرة تريد أن تقتل نفسها، فأرسل إليها من جنده من يمنعها من ذلك، فدخلوا من ذلك الشباك فوجدوا فى حزامها خنجرا كأنها كانت تقربه على بطنها، ورأوها على هيئة من يعمد إلى طعن نفسه، وفى الواقع أنها كانت لا تحب قتل نفسها، وإنما كانت تظهر ذلك لأمل(*) أن تفتن أوقطاوس كما فتنت عمه قيصر، فخاب ظنها فى ذلك، ولم يلتفت أوقطاوس إلى جمالها ولا مال قلبه إليها .

لست ممن غوى هواء بريم ... أو ظباء لها القنا كالكناس[1]

أن دنت دارها قلبى لبى ... أو نأى ربعها فلست باس

فلم يلتفت إلى تهديدها إياه بقتل نفسها ليصعب على نفسه ذلك . .

تهددنا وتوعدنا رويدا ... متى كنا لأمك مقتوينا[2]

(*) المقصود: (لأجل) أو (على أمل). (الشروق).

(١) القنا معناها هنا: الحياء، والكناس بكسر الكاف - بيت الظبى .

(٢) لأمك أى: لأصلك، ومقتوينا، أى: مشترينا .

فلما أيست منه بالكلية صممت على قتل نفسها، فأمسكت عن الشراب والطعام، وواصلت الصيام، لفهمها أن غرض أوقطاوس أن يوقعها فى أسره ويذهب بها إلى رومة، ويدخل بها فى موكب عظيم من جملة الغنائم المصرية، مغلولة العنق، وربما يربطها خلف عربته ويدخل بها رومة على هذه الحالة المُعرّة، فقتلت نفسها شر قتلة حتى لا تكون عند أعدائها مُثلة.

ومع أن أوقطاوس كان يرسل إليها ليصدها عن قتل نفسها، ويتوعدها بقتل أولادها بعدها إن فعلت ذلك، لم ينفع التهديد ولا التحذير، بل كان ما كان من قتلها مما جرت به المقادير.

من نال من دنياه أمنية أسقطت الأيام منها الألف[1]

فوجدوها ذات يوم من الأيام ميتة فى وسط نساء مقتولات معها، وجميعهن نيام، فكانت هى نائمة فى فرش من الذهب الإبريز، وعلى جبينها تاج الملك، لها به على صويحباتها كمال التمييز، وكأنها متجملة بجميع زينتها الملوكية ليوم عيد، وهو فى الحقيقة يوم وعيد، أو لمراسم رسمية:

فالدهر يرقص والأيام تنشده هذا هو العيش لولا إنه فانى

واختلف فى طريقة قتلها لنفسها، فقيل: إنها تعاطت لذلك السم الناقع، والمتواتر أنها كانت أحضرت ثعبانا عظيما أخفته فى وعاء مملوء من التين مدة طويلة، فلما خرج إليها الثعبان من الوعاء قالت له: قد حان وقتك، وقد حضرت هنا! فدب لقتلها وسعى. هذا ما تداول فى ذلك الوقت على لسان العامة، واعتقد صحته أوقطاوس، حتى إنه لما عاد إلى رومة صور تمثال هذه الملكة وجعل فى جانب صورتها ثعبانا ينهشها. وكان موتها سنة ٦٥٢ قبل الهجرة[2].

* * *

وقد وقع نظير ذلك تقريبا للزباء، المتولية على ملك أبيها بالعراق، مع جذيمة

---

(١) أى تحولت «الأمنية» إلى «منية»؟!

(٢) أى سنة ٣٠ ق.م.

الأبرش ملك الحيرة، إلا أن الزباء سلكت فى جميع سلوكها مسلك الأبطال، ولم تطمع فيها أحدا من الرجال، وشتان بين العصمة العربية وعادة اليونان الابتذالية، وكانت واقعة الزباء بعد واقعة قلوبطرة بنحو ستين سنة، لأنها كانت بعد ميلاد عيسى بثلاثين سنة.

وبيان خبر الزباء مع جذيمة، أن جذيمة كان من العرب الأولى، من بنى إياد، وكان فى أيام ملوك الطوائف، وكان قد ملك شاطىء الفرات إلى ما والى ذلك إلى السواد ستين سنة، وكان الملك قبله أباه، وهو أول من ملك الحيرة، وهى بلدة قديمة كانت على ساحل البحر بقرب الكوفة، وكان فى قديم الزمان بحر والآن ليس بها أثر، بل آثارها طامسة، وكانت الحيرة منزلا لملوك بنى لخم، وهم كانوا ملوك العرب فى قديم الزمان، وإياهم أراد الأسود ابن يعفر[1] فى قوله:

مـــاذا أؤمل بعـــد آل محـــرق تركـــوا منازلهم وبعـــد أياد
هل الخـــورنق والســـدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد[2]
نزلوا بأنقـــرة يســـيل عليـــهم مـــاء الفـــرات يجىء من أطواد
أرض تخـــيرها لطيب مقـــيلها كـــعب بن مـــامـــة وابن أم دؤاد
جـــرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كـــانوا على مـــيعـــاد
ولقـــد غنوا فيـــها بأنعم عيشـــة فـــى ظل ملـــك ثابت الأوتـــاد
فـــإذا النعـــيم وكل مـــا يلهى به يومـــا يصـــير إلى بلى ونفـــاد

ويروى عن أبى أمية شريح بن الحرث، القاضى بالكوفة، الذى يضرب به المثل فى العدل وتدقيق الأمر، إنه جاء رجل عنده لشهادة، فقال: ممن الرجل؟ قال: من بنى فلان، قال: أتعرف قائل هذا الشعر:

مـــاذا أؤمـــل بعـــد آل محـــرق تركـــوا منازلهـــم وبعـــد أيـــاد

---

(١) أبو نهشل الأسود بن يعفر النهشلى، شاعر جاهلى، من سادات تميم. من أهل العراق (توفى حوالى سنة ٦٠٠ م). انظر (الأعلام) للزركلى. الطبعة الثالثة.

(٢) الخورنق والسدير وبارق أسماء قصور ملكية شهدتها الحيرة فى ذلك التاريخ.

قال: لا، فقال: توقف يا وكيل فى شهادته، فإن من كان فى قومه رجل له هذه النباهة وهو لا يعرفه أظنه ضعيفا!

وكان جذيمة هذا يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما فى أيديهم، وهو أول من أوقد الشمع، ونصب المجانيق للحرب، وأول من اجتمع له الملك بأرض العراق، وكان قد قتل أبا الزباء، ملك الجزيرة، ويعد من ملوك الطوائف، وغلب على غالب ملكه، وألجأ الزباء إلى أطراف مملكتها، وكانت عاقلة أديبة، فبعثت إليه تخطبه لنفسها ليتصل ملكه بملكها، فدعته إلى ذلك، فشاور وزراءه، فكل أشار عليه أن يفعل، إلا قصير بن سعد، فإنه قال له: أيها الملك، لا تفعل، فإن هذه خديعة ومكر، فعصاه، وأجابها إلى ما سألت، فقال قصير عند ذلك: لا يطاع لقصير رأى! وقيل: أمر! فأرسلها مثلا - ولم يكن قصيرا، ولكن كان اسما له - ثم إنه قال له: أيها الملك، أما إذا عصيتنى فإذا رأيت جندها قد أبلوا[1] إليك فإن ترجلوا وحيوك ثم ركبوا وتقدموا فقد كذب ظنى، وإن رأيتهم إذا حيوك طافوا بك فإنى معرض لك العصا، وهى فرس لجذيمة لا تدرك، فأركبها وانج، فلما أقبل جيشها حيوه ثم طافوا به، فقرب قصير إليه العصا، فشغل عنها، فركبها قصير فنجا، فنظر جذيمة إلى قصير على العصا وقد حال دونه السراب، فقال: ما ذل من جرت به العصا، فأرسلها مثلا.

وأدخل جذيمة على الزباء، وأفهمته أنها ليس عندها متاع عروس، وأنها لا تصلح للتمتع وإحياء النفوس، وأمرت بإجلاسه على نطع[2] وقطع رواهشه - أى العرقين اللذين فى باطن ذراعيه - فقطعت رواهشه، وكان قد قيل لها: احتفظى بدمه، فإنه إن أصاب الأرض قطرة من دمه طلب بثأره، فقطرت قطرة من دمه فى الأرض، فقالت: لا تضيعوا دم الملوك، فقال جذيمة: دعوا دما ضيعه أهله! فلم يزل الدم يسيل إلى أن مات.

ثم إن قصيرا أتى عمرا ابن أخت جذيمة وأخبره الخبر، وحرضه على أخذ الثأر،

---

(١) أى جاءوا فى إبلتهم أى جماعتهم وقبيلتهم.

(٢) بساط من الجلد يفرش تحت من سيعذب أو تقطع رأسه.

واحتال لذلك بأن قطع أنفه وأذنيه، ولحق بالزباء وأخبرها أن عمرا فعل به ذلك، وإنه اتهمه بممالأته لها على خاله، فلم يزل يخدعها حتى اطمأنت له، وصارت ترسله إلى العراق بمال فيأتى إلى عمرو فيأخذ منه ضعفه ويشترى به ما تطلبه ويأتى إليها به إلى أن تمكن منها وسلمته مفاتيح الخزائن وقالت له: خذ ما أحببت، فاحتمل ما أحب من مالها وأتى عمرا، فانتخب من عسكره فرسانا، وألبسهم السلاح، واتخذ غرائر وجعل أقفالها من داخل، ثم حمل على كل بعير رجلين معهما سلاحهما، وجعل يسير النهار حتى إذا كان الليل اعتزل عن الطريق، فلم يزل كذلك حتى شارف المدينة، فأمرهم فلبسوا الحديد ولبسوا الغرائر ليلا، وعرف أنه مصبحها، فلما أصبح عندها دخل عليها وسلم، وقال: هذه العير تأتيك الساعة بما لم يأت قط مثله، فصعدت فوق قصرها وجعلت تنظر العير وهى تدخل المدينة، فأنكرت مشيها، وجعلت تقول:

ما للجمال مشيها وئيدا ... أجندلا يحملن أم حديدا

أم صرفانا باردا شديدا ... أم الرجال جثَّما قعودا[1]

فلما توافت العير المدينة حلوا أقفالهم، وخرجوا فى الحديد، وأتى قصير بعمرو فأقامه على سرب كان لها إذا خشيت خرجت منه، فأقبلت لتخرج من السرب فأتاها عمرو مصلتا سيفه، فجعلت تمص خاتمها وفيه سم ساعة وتقول: بيدى لا بيد عمرو! وفارقت الدنيا، وما أحسن ما أشار إلى ذلك ابن جابر الأندلسى[2] فى وصف ممدوحه، حيث قال:

تطول به للمجد أشرف همة ... فما باعه عن غاية بقصير

سما لاقتناص المكرمات كما سما ... بعمرو إلى الزباء سعى قصير

---

(١) الصرفان، من معانيه النحاس والرصاص.

(٢) محمد بن أحمد بن على بن جابر (١٢٩٨ - ١٣٧٨م) شاعر وعالم من علماء العربية، نشأ بالأندلس، وزار مصر، ثم أقام بالشام إلى أن مات، وخلف عدة آثار فى النحو والشعر.

وقد ذكر هذه الواقعة عدى بن زيد العبادى[1] فى قصيدة طويلة أولها :

أبدلـــت المنـــازل أم عنينـــا   تقـــادم عهدهـــن فقـد بليـــنا

وقال يخاطب النعمان بن المنذر بن ماء السماء :

ألا يـــا أيهـــا الملـك المرجـــى   ألـم تسـمـع بخطـــب الأوليـــنا

ومنهـا :

دعـــا بالبـــقـــة الأمــــراء يومـــا   جـــذيمة عـــصــر ينحــوهـم تبـينا
فطاوع أمـــرهم وعـصى قـــصـيـــرا   وكـــان يقـــول، لـو تبع، اليـــقـــينا
ودست فى صـــحـــيـفـتـهـــا إليـه   ليـــملك بضـــعـــهـــا ولأن تدينا
فـفـاجـأها وقـد جـمـعت فـيـوجـا   على أبواب حـصـن مـصلتـينا
فـــــأردته ورغب الـنفس يـردى   ويبـــدى للـفـتى الحَـيْن المبـينا[2]
وحـــدثـت العـصـــا الأنبـــاء عنه   ولم أر مـــثل فــارسـهـا هجـينا
وقـــددت الأديم لراهشـــيـــــه   وألفـى قـــولهـــا كـــذبا ومـــينا
ومـن حـــذر الملاوم والمخـــازى   وهـن المـنـدبـات لمـن مـنـيـنـا
أطف لأنفـــه الموسى قـــصـيـــر   ليـــجـــدعـــه وكـــان به ضنينا
فـــأهواه لما رنه فـــأضـــحـى   طلاب الوتـر مـجـدوعـا مـشـينا
وصـــادفت امـــرأ لـم تخش منه   غـــوائله ومـــا أمنت أمـــينا
فلمـــا ارتد منهـــا ارتد صلبـــا   يجـــر المال والصــدر الضـغـينا
أتتـــهـا العـــيس تحـمل مـا دهـاها   وقنـع فى المســـمـــوح الـدارعـــينا
ودس لهـــا عـلى الأنفـــاق عـــمـــرا   لشكتـه ومـــا خـشـيـت كـمـــينا
فـحللهـــا قـديم الأسـر عـضـبـا   يصـك به الحـــواجب والجـــبـــينا

(١) شاعر جاهلى، من تميم (توفى حوالى سنة ٥٩٠ م)، كان أول كاتب ومترجم من العربية إلى الفارسية بديوان كسرى. والمؤلف ذكر اسمه «على»، وهو خطأ.
(٢) رغب النفس حبها.

فأضحت من خزائنها كأن لم تكن زباء حاملة جنينا
وأبرزها الحوادث والمنايا وأى معمر لا يبتلينا
إذا أمهلن ذا جد عظيم عطفن له ولو فرطن حينا
ولم أجد الفتى يلهو بشىء ولو أثرى ولو ولد البنينا

* * *

وكما أنه انتهى بقتل الزباء حكم ملوك الجزيرة وانتقاله إلى ملوك الحيرة، انتهى كذلك بقتل قلوبطرة نفسها حكم البطالسة بمصر، وصارت مصر إيالة رومية، حتى إن بطليموس قيصرون، الذى هو ابنها، بعد أن كان تلقب ملك الملوك فى حياتها، فقد قتله أوقطاوس - الآتى ذكره باسم أغسطوس - بعد قتل أمه قلوبطرة ولبعضهم:

يا أيها الناس إنى ناصح لكم فعوا كلامى إنى ذو تجاريب
لا تلهينكم الدنيا بزخرفها فما تدوم على حال ولا طيب

الفصلُ الثانى عشر

فى بعض ملحوظات عمومية تتعلق بأيام البطالسة

وفى ذكر جدولهم

هذه الدولة تسمى أيضا دولة اللاغوسية، وجميع ملوكها يسمون باسم بطليموس بن لاغوس، ويقال ابن لاوى أيضا، الذى هو رأس هذه الدولة، فغلب على جميعهم اسمه كما أن نساءهم يسمين غالبا باسم قلوبطرة وبرنيقة وأرسنوية، ولو أن مصر فى أيامهم كانت رجعت إلى القهقرى النسبية، ومالت من درجتها العليا إلى درجة ثانوية، حيث فقدت ما كان لها من وطأة القدم على سائر الدول والأمم، إلا أنها كانت لم تزل فى أيام البطالسة كثيرة المآثر، غزيرة المفاخر، تستحق الانتظام فى سلك المجد المؤثل، وشرف العقد الأول، ومما أعلن على اتصافها بهذه المناقب تبصرها فى العواقب، حيث تعلقت همتها بمنح الرخصة العمومية، وكمال الحرية لأهل الوفود والرعية، ونظمت الجميع بوحدة الأحكام، فى أجمل ترتيب وأكمل نظام، وشملت جميع الأهالى والسكان، بحسن المعاملة بالعدل والإحسان.

وقد كان سن لهم هذه السنة الحسنة إسكندر الأكبر، الذى هو أول الدولة اليونانية، حيث حسن تخت مصر وأمَّنه، فإنه بمجرد فتحها أباح لها التعبد بدينها، والتمسك بعقائدها، ولم يكلفها بما لا تطيق لتكثير فوائدها، وقد اقتدى به بطليموس بن لاغوس حين خلفه عليها، فصرف جميع عنايته فى عماريتها وتحسين

حال أهاليها، وتجنب ما كان فعله قبيشاش الجبار، ملك العجم، من الظلم والجبروت، الذى تسمى بسببه بختنصر، فاختلط بهذا الاسم مع نمرود الموصل الممقوت، فبعناية بطليموس لاغوس اتحد اليونان والمصريون فى التمدن العام، والتسوية فى الأحكام، وإنما بقى لليونان صفتهم الجنسية، وأصالتهم اليونانية، فكانت ملوك البطالسة تستميل قلوب الرعية المصرية بإبقائهم على عاداتهم الوطنية، عادية أو دينية، فقد ذكر المؤرخون أن أحد البطالسة لما توجه إلى غزو العراق وما والاه، وخاب سعيه ولم يبلغ من أعدائه مناه، عاد من الغزو ومعه أكثر من خمسة وعشرين ألف صنم، مما كان قد استلبه ونقله من الديار المصرية إلى تلك الجهات قنبيشاش ملك العجم، فلما ظفر به بطليموس فى أسفاره بادر برده إلى المصريين ليؤلف قلوبهم بإعادة مناسك الدين وشعاره، فكان مما أعان على العمران رعاية العوائد والعناية بإباحة الأديان.

ومما جعل لدولة البطالسة أوائل أمرها كمال الرسوخ والثبات أنهم تشبثوا بتجديد العلوم والمعارف فى الإسكندرية ليجبروا ما فات، فإن مدار الحركات العقلية على النظر فى العلوم، وصرف الأفكار إلى تحصيل ما يدوم، فقد سبق لنا أن بعض ملوكهم أمر بترجمة التوراة من العبرانية إلى اليونانية، وجلب لها سبعين مترجما، ليعرف حقيقة الصحف السماوية، وفى أيام بعض ملوكهم كان تأليف مانيطون لتاريخ القدماء من المصريين، وجمع كتبخانة الإسكندرية المشتملة على جميع علوم الأولين والآخرين، فشحنت هذه الخزانة بجميع كتب اليونان والرومان وانضمت إلى كتب حكماء المصريين التى صنفوها فى غابر الأزمان، ولأجل تمام الفائدة ترجمت الكتب المؤلفة باللغات الأجنبية إلى اللغة الأهلية، وقد أنشأ بعض هؤلاء الملوك خزانة للتحف والغرائب وجلبها من سائر الأقطار لتكون فى مصر من العجائب، ووضع هذه التحف الجمة برواق فى الإسكندرية يسمى رواق الحكمة، حتى قيل: إنه لم يسبق تنظيم مثل هذا الرواق فى سائر الأقطار والآفاق.

وأما ما يخص العمارات والأبنية، فكانت دولة البطالسة تقيم على حبها للعمارات أصدق شهود وأعدل بينة، كما يشهد بحسن أثرهم النبيل، ما يشاهد منه

على شواطىء النيل، حتى قيل إنه لم يكن بعد الدولة المصرية التاسعة عشرة، أكثر آثارا من آثار دولة البطالسة المعتبرة، فقد أصلح ملوكهم ما كان قد تخرب من الهياكل المصرية، وأتموا بناء ما ابتدأه سلفهم من العمائر الأهلية، وأضافوا إلى ذلك معابد جديدة، وهياكل عديدة، كهياكل بلاد النوبة بالتاكة وببلاد الكلابشة، وكذلك المبانى التى بجزيرة البربا، المسماة أنس الوجود، فإنها زينة تلك الجهة، وجمالها مشهود. ومن آثارهم الفخيمة مدينة إسنا القديمة، التى احتجبت عن الأبصار ببناء المدينة الجديدة على هذه الآثار، ومن بنائهم أيضا مدينة أرمنت القديمة الباقية الرسوم والدّمن، الدالة على فخامة ملوك ذلك الزمن، ومع أنهم جعلوا مدينة الإسكندرية دار ملكهم، ونظام عقد سلكهم، وحلوها بأعظم أنواع الزينة والزخارف، وجمعوا بها من الآثار التليد والطارف، فلم يطرحوا مدينة طيوة بالصعيد فى زوايا الإهمال، بل كسوها بالعمائر الجديدة حلل الجمال والكمال، فمما أسسوه بها الهيكل المعروف بدار المدينة، والمعبد الصغير المبنى على بركة آبو المزين بأجمل زينة، وشيدوا على الجانب الأيمن منها الباب الكبير المنفرد فى شمالى الكرنك، والباب الآخر المناظر له، الذى يمر به القادم من لوقصر إلى هيكل شونش. وقد بنت الملكة قلوبطرة بدندرة هيكلا عظيما أهدته لأصنام المصريين باسم ولدها قيصرون، المولود لها من يولس قيصر الروم سفاحا، وهذه الملكة هى التى بنت مدينة إدفو القديمة، ذات الآثار الجسيمة، والرسوم الدينية، ورسم أسماء الأماكن والبلدان، وفى جميع آثار البطالسة كتابة اسم الملك والعنوان، ومما يدل على مجدهم وعزهم ما يوجد بكثرة بإقليم إسنا وإقليم أخميم، كمنشأة النيدة التى بناها بطليموس فيلادلفس، وكذلك تكثر آثارهم بناحية بهبيت، بجوار المحلة الكبرى. ويغلب على ظن الباحثين عن الأنطيقات والآثار القديمة أن من جملة آثار البطالسة: المبانى الجميلة القريبة من مقابر العجول الأبيسية المعبودة للمصريين التى بناحية سقارة، وما يوجد فى هذه المقابر من النواويس والتوابيت العجيبة الصنعة.

ومما عثر عليه جنود الفرانساوية مدة إقامتهم فى الديار المصرية لوحة الحجر التاريخية، التى تعرف فيما بينهم بحجر رشيد، وهى من آثار البطالسة النافعة، فقد توصل بها أحبار أوروبا إلى حل رموز الأقلام القديمة على طريقة بارعة، فهذا اللوح

الحجرى مكتوب على إحدى جهاته ثلاث صحائف متفاصلة متمايزة، أحدها بالقلم البريائى القديم، المخصوص بمعرفته الحكماء والعلماء، وهو قلم العلوم والمعارف والأسرار، والصحيفة الثانية مكتوبة بالقلم المعتاد المتداول بين الأهالى المصرية فى ذلك الزمان، والثالثة بالقلم اليونانى، فبالتأمل لتلك الصحف وإمعان النظر فيها أدرك العقلاء ببادىء الرأى أن الصحيفة الثالثة اليونانية إنما هى ترجمة الصحيفتين اللتين باللغة المصرية، وإنه يمكن بما هو مكتوب على الحجر أن يتوصل بالمعلوم منه إلى المجهول، بمقابلة الحروف والكلمات والتوفيق بينها، والوقوف بذلك على اصطلاح القلم المصرى القديم، الإشارى والاعتيادى[1].

وكان الفرانساوية، لما عثروا على هذا الحجر، حفظوه فى الإسكندرية، ثم وقع بعد ذلك فى يد الإنكليز مع بعض آثار أخرى سلبوها من الفرانساوية حين خروجهم من مصر، ولم يزل هذا اللوح الحجرى بتحفتخانة الغرائب بمدينة لندرة. ففضيلة تفسير القلم المصرى القديم الإشارى والاعتيادى ينبغى أن تنسب لدولة البطالسة وتضاف إلى ما لهم على مصر من الفضائل واليد البيضاء.

وبالجملة، فمنذ جعل ملوك البطالسة ديار مصر سلطنة يونانية، وأقاموا كرسيها بمدينة الإسكندرية، صار هذا الثغر موردا للخاص والعام، والمورد العذب كثير الزحام، فوفد عليها من الخارج أرباب العلوم والمعارف من العلماء والحكماء والأدباء، وأرباب العقول الكاملة، فعمرت بهم مدرسة الإسكندرية وتمكنت غاية التمكين، وتشيدت على أساس متين، حتى لم يزل رونقها باقيا فى أيام دولة الرومانيين، فإنه لما ظهر دين عيسى بن مريم وانتشر فى مشارق الأرض ومغاربها وعم وتشعب إلى مشاعب ومذاهب، واختلفت فروع عقائده ما بين مخطىء وصائب، وعارضته الحكماء والفلاسفة، ووقعت المحاورات والمجادلات بين أهل الرشد والسفه، امتاز حكماء الإسكندرية بمشاجرة هذا الدين، والانتصار لدين المصريين، وإن لم يدل هذا على رشدهم وسدادهم، فقد دل على تمكن عقولهم من إدراك عقائد بلادهم، فقد داموا متمسكين بعبادة

(١) الإشارى والاعتيادى، أى كتابة الحكماء والكهنة، وكتابة العامة المعتادة.

الأصنام والأوثان، مع كونهم أرباب العلوم الحكمية فى تلك الأزمان، ولكن أضلهم الله على علم:

وإذا البينات لم تغن شيئا — فالتماس الهدى بهن عناء
وإذا ضلت العقول على علم — فماذا تقوله النصحاء؟!

وأما فى مادة الإدارة فلم تخل دولة البطالسة من المخالطات السياسية، والعلاقات الدولية، والأشغال الداخلية والخارجية، فإنهم قد بعد صيتهم، وسارت به الركبان فى سائر المدن والبلدان، وصعدوا إلى أوج الفخار على قدر الإمكان، وإن لم يصلوا إلى درجة فراعنة مصر فى الأزمان الخالية، والدهور البالية، وإنما كان جل مشروعهم وخير منفوعهم تقديم العلوم والآداب، والترحيب بالأجانب والأغراب، وكشف الحجاب لمن يطلب الاقتراب، وبقيت هذه العادة جارية على سبيل الملك لا العارية إلى زمن الإسكندر بطليموس الزامر، الذى لم تخل مدته عن بعض المحاسن والمآثر، ولكنه لما لم يعقب نسلا كفوا لولاية عهده، أوصى بالديار المصرية كفالة وتمليكا إلى الدولة الرومانية من بعده.

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها — مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها — حتى إذا مات خلاها وما فيها

فكانت آخر ذرية البطالسة بالديار المصرية الملكة قلوبطرة، التى كانت السبب فى تدميرها بالاتحادات القيصرية، ومع أنها كانت بديعة الجمال، فبكمال عقلها أو سياستها غلبت فى غالب الأحوال فحول الرجال، فاستولت على عقل يوليوس قيصر، وصادت بشركها أنطنيوس فدخل فى حبالتها وما قصر، وكان بيدهما زمام دولة الرومان، التى كانت لها السلطنة على ممالك تلك الأزمان، فأعان قلوبطره كل من الرئيسين على أغراضها، وشفياها من أمراضها، وكان ما كان بين قيصر أغسطوس وأنطنيوس، مما ينفر القلوب ويوحش النفوس، مما أدى إلى قتل نفسها بنفسها، وتعجل حلولها فى رمسها، مما تقدم ذكره، وعلم فى سائر التواريخ أمره، وكانت بالاتحاد مع أنطنيوس قد توجت ابنها قيصرون بتاج ملك الملوك، يعنى ملك مصر وجهة بلاد العجم كأرمنستان وأذربيجان، وغير ذلك من مملكة العجم، فلهذا

عده المؤرخون من البطالسة، فيكون على ذلك هو بطليموس الرابع عشر، وكان - كما تقدم - إدخاله فى ميراث بعض أقاليم الرومانيين سببا فى حروب أوقطاوس مع أنطنيوس، وهلاك هذا الأخير وقتل قلوبطرة لنفسها، وزوال دولة البطالسة وقطع دابرها، واستئصال نسلها بقتل أغسطوس لقيصرون السالف الذكر، واستيلاء دولة الرومانيين على مصر.

وقد عد أكثر المؤرخين من البطالسة الذين حكموا مصر من ليس منهم كبلطيموس الاقلوزى الفلكى[1]، ولو إنه يونانى أو مصرى، فالتحقيق إنه ليس من عائلة البطالسة الملوكية، وقد كان هذا الحكيم الشهير من أصحاب المعارف الموجودين بالإسكندرية فى القرن الثامن قبل الهجرة، كان كثير الاشتغال بالعلوم الفلكية والجغرافية، وكان كثير الاجتهاد والتشبث بجمع أشتات المعارف ومتفرقها، ولم يعده العلماء من أرباب القرائح المخترعة للعلوم، بل كان أغلب أوقاته يشتغل بنقل كلام من قبله من الحكماء، وبذل الجهد فى تصحيحه وتنقيحه وترتيبه وتهذيبه، وكان أكثر اعتماده على كتب أبرخش[2] الحكيم، حتى قال بعضهم إنه لم يصلح مما فيها من الخطأ إلا القليل، بل ما حرر منها لم يستوف تحريره، وقد اشتهر مذهبه الفلكى باسمه فيقال: مذهب بطليموس لدوران الشمس والنجوم السيارة حول الأرض الثابتة، ورسم الشمس والنجوم مداراتها حول الأرض. ولازال الحساب جاريا على المذهب البطليموسى عند جميع الفلكيين فى سائر المشارق والمغارب إلى أن ظهر قوبرنيق[3] الفلكى الأوروباوى، فأقام البراهين على ثبوت الشمس ودوران الأرض، وتبعه أهل أوروبا فى مؤلفاتهم الفلكية والجغرافية، وقالوا: إن حركة الشمس إنما هى ظاهرية فقط، والحساب واحد.

وليس القول بدوران الأرض انفرد به الحكيم قوبرنيق المذكور، بل هو مذهب

---

(١) سبقت اشارتنا لترجمته.

(٢) فلكى يونانى، اشتهر فى القرن الثانى ق.م، قام بقياس أطوال البلدان برصد الخسوف، واستعمل حساب المثلثات بطريقة منتظمة. والمؤلف يذكر اسمه: ابرخس، بالسين، وهو خطأ.

(٣) نيقولا كوبرنيق (١٤٧٣ - ١٥٤٣ م) فلكى بولندى، اشتهر بنظريته عن دوران الأرض والكواكب حول الشمس.

قديم لبعض فلاسفة اليونان، كفيثاغورس[1] الحكيم وأصحابه، كما ذكره العلامة زكريا بن محمد بن محمود القزوينى[2] فى كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) وعبارته: «ومن القدماء من أصحاب فيثاغورس من قال: إن الأرض متحركة دائما على الاستدارة، والذى يرى من دوران الكواكب إنما هو دوران الأرض لا دوران الكواكب، وقال بعضهم: إنها واقفة فى الوسط على مقدار واحد من كل جانب، والفلك يجذبها من كل وجه، فلذلك لا تميل إلى ناحية، لأن قوة الأجزاء متكافئة، مثال ذلك حجر المغناطيس الذى يجذب الحديد، لأن من طبع الفلك أن يجذب الأرض، وقد استوى الجذب من جميع الجهات فوقفت فى الوسط، ومنهم من قال: إنها مدورة موقوفة فى الوسط، وسببه دوران الفلك، وسرعة حركته، ودفعه إياها من كل جهة إلى الوسط، كما أنه لو جعل تراب أو حجر فى قارورة مدورة وأديرت فى الخطوط بقوة قام التراب أو الحجر إلى الوسط». انتهت عبارته.

ومع أن قوبرنيق أبطل مذهب بطليموس فى دوران الشمس حول الأرض، وجعلها من الثوابت، وأثبت قول فيثاغورس وأصحابه من أن الأرض دائرة، وصار هذا المذهب معمولا به ومعتمدا عند الإفرنج، فلا يحصل يأس من تقدم العقول بعد مدة طويلة ورجوع الإفرنج إلى مذهب بطليموس بعد مدة مديدة بمقدار المدة التى مضت من زمن بطليموس إلى عهد قربرنيق، ولا غرابة فى ذلك فإن مذهب بطليموس لم يزل إلى الآن متداولا على الألسن، فيقول الإفرنج: إن الشمس تقطع فلكها فى مقدار كذا، فينسبون الحركة إليها، نظرا للمظاهر، وعلى كلا المذهبين تكون الأرصاد الفلكية واحدة، وإنما الاختلاف فى العلل والأسباب، وكل من القولين بدوران الشمس أو الأرض فيه أعظم دلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى:

---

(١) فيلسوف يونانى عاش حوالى (٥٨٢ـ٥٠٧ ق.م)، كون جماعة فلسفية كانت تؤمن بتناسخ الأرواح، وضرورة الحياة المطهرة من الشهوة.

(٢) مؤرخ وجغرافى، من القضاة (١٢٠٨ـ١٢٨٣م). ويخطىء المؤلف فيذكر اسمه هكذا: «محمد ابن محمد». وهناك القزوينى، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، (١٢٦٨ـ١٣٣٨م) وهو أديب وفقيه، ولكنه غير مؤلف عجائب المخلوقات.

وللــه فى كـــل تحريكـــــة وتســـــكينة أبـــدا شـــــاهد

وفـى كـــل شـــىء له آيـــة تـــدل عـــلى أنـه واحـــــد

ولا ينبغى أن يذكر القول بدوران الأرض إلا فى معرض الحكاية عن قائله، وهو قوبرنيق أو فيثاغورس ومن ذهب مذهبهما من أهل الهيئة والجغرافية، لا فى معرض العقائد الدينية التى يعتمد فيها على صريح نص الآيات القرآنية، كقوله تعالى:

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (يس: ٣٨) فعلينا معشر أهل السنة أن نعتقد جريان الشمس وأن نسلك فى ذلك مسلك السلف من تفويض جريان الشمس إلى الله تعالى، لا مذهب التأويل، فلا نقول إن جريان الشمس ظاهرى ناشىء عن جريان الأرض، على مذهب من يقول به كفيثاغورس مثلا(١).

ثم إن فيثاغورس الحكيم ممن قدم من حكماء اليونان إلى مصر، فلما وصلها اشتاق إلى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر، فورد على أهل مدينة عين شمس فقبلوه قبولا كريها، وامتحنوه زمانا فلم يجدوا عليه نقصا ولا تقصيرا، فوجهوا به إلى كهنة منف كى يبالغوا فى امتحانه، فقبلوه على كراهة واستقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيبا، ولا أصابوا له عثرة، فبعثوا به إلى أهل ديوسوس، أى طيوة، بالصعيد، ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقا، ولا إلى إدحاضه سبيلا، ففرضوا عليه فرائض مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبته، فقبل ذلك وقام به، فاشتد إعجابهم به، وفشا بمصر رسمه، حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطانا على ضحايا الرب وعلى سائر قرابينهم، ولم يعط ذلك لغريب قط.

فقد فهم مما سبق أن بطليموس المذكور ليس من ملوك مصر البطالسة، ولا من البيت الملوكى، كما توهمه كثير من المؤرخين.

---

(١) يذكرنا موقف الطهطاوى هنا بذلك الازدواج فى فكر الرجل وعقله، وكيف كان عقلانيا إذا ابتعد عن نطاق العلوم الدينية، سلفيا محافظا إذا تعلق الأمر بالعلوم الدينية. انظر فى ذلك الدراسة التى قدمنا بها لأعماله الكاملة، فى الجزء الأول من هذه الأعمال - الفصل الخاص بنظرته للحضارة الأوروبية.

كما أن بعض المؤرخين توهم أن من ملوك مصر بطليموس، الذى سماه الصائغ، وقال: إنه تولى على مصر بعد أبيه بطليموس الأول، الملقب سوطير، والواقع أن هذا خطأ من وجهين:

الوجه الأول: أن بطليموس المذكور، ابن سوطير، إنما يلقّب بالصاعق لا بالصائغ، لحدته وشدة جراءته تشبيها له بالصاعقة.

الوجه الثانى: أن الذى تولى ملك مصر بعد بطليموس سوطير الأول إنما هو بطليموس فيلودلفس بن سوطير وأخو بطليموس الصاعقة كما سبق ذكره فى محله، وأما بطليموس الصاعق فإنه ترك مصر وسار إلى مقدونية وكان ملكا عليها سيليقوس، فأكرم نزله، ورحب به، فخانه بطليموس الصاعقة حيث فتك به وطلب من أهل مقدونيا وترحالة أن يبايعوه بالملك، فصار ملكا على مقدونيا وترحالة، ثم قتل الأمراء المتطلبين للمملكة المذكورة، وتزوج بأرسوية أيِّم الأمير لوسيماقوس، وبنى بها، وقتل أولادها من زوجها القديم، فهربت من مقدونيا إلى مصر خوفا من الفتك بها، فتزوجها بمصر أخوه بطليموس فيلودلفس، ثم كان لبطليموس المقدونى الجزاء من جنس العمل، فقد مات قتيلا فى حربه مع الغلية، الذين هم قدماء الفرانساوية، بعد أن حكم على مقدونيا وترحالة سنة وستة أشهر، فلا وجه لعده من بطالسة مصر، وإن كان من العائلة الملوكية، حيث لم يتول مصر أصلا. ولنذكر هنا جدولهم..

جدول البطالسة الذين حكموا مصر

أسماء الملوك	مدة حكمهم سنة	أسماء الملوك	مدة حكمهم سنة
بطليموس الأول	٣٨	بطليموس السادس	٣٥
بطليموس الثانى	٣٨	بطليموس السابع، وبطليموس الثامن	٢٩
بطليموس الثالث	٢٥	بطليموس التاسع	٣٦
بطليموس الرابع	٢٧	بطليموس العاشر، والحادى عشر	٢٩
بطليموس الخامس	٢٤	بطليموس الثانى عشر، وبطليموس الثالث عشر، والملكة قلوبطرة	٢٢

فكانت مدة حكم ملوك هذه الدولة مائتين وخمسة وسبعين سنة، كما ذكره المؤرخون، لأن ابتداء دولتهم من سنة ١٩٢٧[١] قبل الهجرة، وانتهاءها سنة ٦٥٢ قبل الهجرة أيضا[٢]، فيكون مدة حكمهم ما ذكر، ولكن إذا جمعت مدة حكمهم على ما فى الجدول المذكور وجدت المدة ثلاثمائة سنة وثلاث سنين، فأطرح منها سبعة عشر سنة حكمها بطليموس بن لاغوس بوظيفة نائب على مصر، قبل استقلاله بمملكتها عليها، فتكون باقى المدة مائتين وستة وثمانين سنة.

ومن المعلوم أن ابتداء تملك كل ملك وانتهاء مدته وابتداء مدة الآخر قد يكون فى آخر السنة المحسوبة من حكمه أو فى وسطها، فتختلف السنين، حيث شهور لتولية غير معلومة، فالإحدى عشرة سنة هى فرق التوليات الملوكية.

وبالجملة، فمدة حكمهم هى المائتان والخمسة وسبعون سنة، ويضاف إليها سبعة وعشرون سنة حكم الدولة اليونانية قبل الهجرة الأولى، فتصير مدة حكم اليونان سنتين وثلثمائة سنة، وهذا يوافق ما عليه أيضا مؤرخو العرب، حيث قالوا: إن اليونان حكموا مصر ثلثمائة سنة وسنة واحدة، ولعل السنة الزائدة فرق بين المبدأ والمنتهى.

وبعد هذه الدولة الثالثة والثلاثين ابتداء الدولة الرومانية الرابعة والثلاثين التى ابتدأوها من سنة ٦٥٢ قبل الهجرة.

---

(١) هكذا فى الأصل، والأصح ٩٤٥، إذ أن ذلك هو الموافق لعام ٣٢٣ ق.م.

(٢) أى سنة ٣٠ ق.م.

البابُ الثالث

(فى ملوك الدولة الرابعـة والثلاثين، وهى دولة الـرومان. وفـيه فصول).

الفصل الأول

فى الكلام على أصل هذه الدولة، ومدة حكمها

تسمى هذه الدولة دولة اللاطينيين، واشتهرت بالدولة الرومانية، نسبة إلى مدينة رومة التى هى تختها، كما أن هذه المدينة سميت رومة أو رومية نسبة إلى بانيها وهو رومولوس بالاشتراك مع أخيه روموس، وكان تأسيسها سنة ١٣٧٥ قبل الهجرة[١] المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية، وببنائها يؤرخ الرومانيون تاريخهم.

وكانت فى مبدأ أمرها عبارة عن ضيعة كالضياع المعتادة، مأوى لأرباب الصيّال[٢] وقطاع الطريق، يجتمع إليها أخلاط الناس والهمج، ثم تجاسم أمرها واتسعت بالتدريج فى أيام ملوكها السبعة الذين تداولت أيديهم عليها واحدا بعد واحد فى ظرف قرنين، ونصف وهم: رومولوس، الذى هو مؤسسها، ونومابوميلوس، الذى هو أول مفتن لقوانينها، ثم طوليوس هسطيلوس، ثم أنقوس، ثم تركين القديم، ثم سروبوس طليوس، ثم تركين الشاب الظريف.

وقد اتسعت مدينة رومة فى عهد الثالث والرابع، ثم قويت شوكتها فى عهد الملوك الثلاثة الأخيرة، وازداد عدد أهاليها زيادة بليغة، وتحصلوا على الغنى والثروة، ثم انتزعت المملكة من أيدى العائلة التركينية[٣] وترتبت بدل الدولة

(١) أى سنة ٧٥٣ ق.م، وهو تاريخ تأسيس رومولوس لروما.

(٢) أى أرباب السطو والوثوب. والرجل الصؤول هو الذى يضرب الناس ويتطاول عليهم.

(٣) نسبة إلى أسرة تاركوينيوس، التى حكمت حتى سنة ٥٠٩ ق.م.

الملوكية حكومة جمهورية ذات رئيس يلقب بالقنصل، ومعناه منفذ الأحكام، فملك، واستمرت الحكومة الجمهورية على هذا الوجه مدة خمسمائة سنة.

وكانت الدولة الرومانية فى عهد الجمهورية غاية العزة والظهور، فقد استولت على جميع أمم إيطاليا وأدخلتهم تحت الطاعة والانقياد، ثم ظهرت ظهورا كاملا.

وكانت دولة قرطاجة، المسماة قرطاجنة أيضا، وهى الآن تونس، معاصرة لها، ومعادلة فى القوة والباس، فوقع بين الفريقين حروب عظيمة تسمى بالحروب البونيقية، وكذلك ظهرت على مملكة مقدونيا أعظم ظهور، وعلى بقية أمم اليونان بل وعلى جميع الأمم المعروفة فى تلك الأزمان، ما عدا الأمة الجرمانية والفرس الأولية، وكانت فى أثناء دولتهم مصر ذات قوة وشوكة، فمدت دولة الرومان أنظارها عليها، وتداخلت فى تنصيب ملوكها البطالسة حين داخلهم الضعف بالمشاجرات الداخلية، وانتهى الحال بتسلط الرومانيين على الديار المصرية وجعلها إيالة رومانية فى عهد أغسطوس - كما سيأتى - وكان أغسطوس مبدأ دولة القياصرة، الآتى ذكرهم واحدا بعد واحد فيما بعد.

وفى أول أيام القياصرة عظمت دولة الرومانيين، وملكت الدنيا بأجمعها، ثم حصل فيها حروب داخلية أفسدت حالها، وسلكت القياصرة مسلك الترف والانهماك على اللذات والشهوات وفساد الأخلاق، وطغوا وبغوا، فكان هذا موجبا لانحطاط دولتهم ووهن ملكهم.

وفى سنة ٦٥٢ قبل الهجرة[١] تحولت الحكومة الجمهورية إلى حكومة قيصرية، وكان أول ملوكها الملك أغسطوس، الآتى.

وفى سنة ٦٤١ قبل الهجرة[٢] انقسمت القيصرية الرومانية إلى قيصريتين: قيصرية المغرب، وتختها مدينة رومة، وقيصرية المشرق[٣]، وتختها مدينة

(١) أى سنة ٣٠ ق.م.

(٢) أى سنة ٣٨١م، ولكن المعروف أن انقسامها حدث عقب وفاة ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩١م.

(٣) أى الدولة الرومانية الغربية والدولة الرومانية الشرقية.

القسطنطينية، وفى سنة ١٤٦ قبل الهجرة[١] تغلب على قيصرية المغرب الأمم المتبربرة، كأمة الغوطة[٢]، وغيرها، وانحلت قيصرية الرومان المغربية، وانتهى الحال بزوال ملكها فى تلك الجهات بالكلية. وبقيت قيصرية المشرق إلى فتوح الإسلام، فغزا القسطنطينية بنو أمية، وضربوا عليها الخراج، ولكن بقى فتحها داء بدون علاج إلى أن أنهى فتحها السلطان محمد خان الفاتح ـ كما ستعرفه.

وأما الديار المصرية فإنما دخلت فى حكومة الرومانيين وصارت إيالة من إيالاتها فى سنة ٦٥٢[٣] وقت أن صارت قيصرية، وبقيت فى أيديهم إلى فتوحها بالإسلام سنة ١٩[٤] من الهجرة المحمدية، يعنى مدة ٦٧١ سنة، منها إحدى عشرة وأربعمائة سنة إلى صدور أمر الملك طيودوسيس بالتمسك بالديانة العيسوية فى جميع الإيالات الرومانية، التى منها إيالة الديار المصرية، وهذا هو موضوع الباب المعقود لهذه الدولة الرومانية الثالثة والثلاثين، وبقية مدة الدولة الرومانية الحاكمة على مصر التى مبدؤها تقسيم القيصرية تذكر فى مقالة أخرى على حدتها، وقد مكثت مصر قبل استيلاء هذا القيصر عليها سنة واحدة وكانت معدودة فى هذه السنة من جملة أعمال الرومانيين.

ثم لما تلقب قيصرا كان ملكا عليها كباقى الإيالات الرومانية، وحيث كان هذا القيصر أول القياصرة، وبه استحالت الجمهورية إلى مملكة كان لا بأس بذكر بيان تحويل الجمهورية الرومانية إلى مملكة قيصرية رومانية، وبيان أسباب تحويلها، وهو أن أوقطاو، الذى صار فيما بعد أغسطس، كان أبوه أحد أرباب مجلس الجمهورية، ويسمى أوقطاويوس، وكان متزوجا بأخت يولوس قيصر، أحد رؤساء الجمهورية، فولدت أوقطاو المذكور، فلما مات أوقطاو أويوس كان ابنه أوقطاو فى حداثة سنه فتبناه خاله قيصر، واعتنى بتربيته، وأرسله إلى مدارس

---

(١) أى سنة ٥٧٦م، ولكن المعروف أن نهاية الإمبراطورية الغربية كان فى ٤٧٦م.

(٢) أى القوط، بقيادة ألريك.

(٣) أى سنة ٣٠ ق.م.

(٤) أى سنة ٦٤٢م.

اليونان لتحصيل المعارف، فلما قتل خاله قيصر فى مجلس الجمهورية برومة كان عمر أوقطاو ثمانى عشرة سنة، وكان فى مدارس بلاد اليونان للتعليم، فبادر بالحضور إلى رومة ليستولى على ميراث خاله قيصر، حيث تبناه، ومع أنه صغير السن فقد جبر أنطنيوس أحد رؤساء الجمهورية على أن يعطيه جزءا عظيما من ميراث قيصر، وكان أنطنيوس قد اغتصب ذلك وأعطاه لغيره، ثم خاف من بعض أمراء الرومانيين أن يقتلوه حيث لمح منهم الغباوة، فاصطلح مع خصمه أنطنيوس وزوج أخته أوقطاوة، التى صارت ضرة قلوبطرة ملكة مصر فيما بعد، فبهذا الصلح اشترك هو وأطنيوس فى رياسة الجمهورية الرومانية، وأشركا معهما ثالثا يسمى أبيدوس، فكانت رياسة الجمهورية مثلثة، فشتتوا شمل أعدائهم، وكانوا مثل يولس قيصر يميلون إلى المذهب الملوكى والاستبداد بالأحكام، ولا يحبون الحكومة الجمهورية التى النفوذ فيها لأعضاء المجلس بتمامه، فتشبث الثلاثة بتشتيت شمل أعدائهم، وهزموا أحزاب الجمهورية، وكان هذا بهمة أوقطاو وأنطنيوس، ثم شرعا فى طرد شريكهما الثالث، وهو أبيدوس فناوياه وبلغا مقصودهما من طرده، وصفا لهما الوقت، واقتسما أقاليم الرومان، فأخذ أوقطاو الأقاليم الغربية، وأخذ أنطنيوس رياسة الأقاليم الشرقية، وفعل أنطنيوس ما فعله من تزوج قلوبطرة وخلعه عليها وعلى أولادها جزءا من نصيبه من الولايات الرومانية، فوقعت العداوة بين الشريكين، ووقع الحرب بينهما، فانتصر أوقطاو على أنطنيوس عند مدينة أكسيوم بساحل روم إيلى، فهرب أنطنيوس إلى مصر فاقتفى أثره أوقطاو، وأخذ الإسكندرية، فقتل أنطنيوس نفسه، فصارت مصر فى قبضة الرومانيين.

فلما رجع أوقطاو إلى رومة تلقب أمير مجلس الجمهورية، ثم تلقب إمبراطور الجمهورية، ثم تلقب أخيرا أغسطس، يعنى قيصرا، فتحولت من ذلك الوقت الجمهورية الرومانية إلى مملكة.

ومع أن أغسطوس قبل توليته قيصرا كان فيه شدة وحدة وجفاوة وقساوة، فبمجرد توليته تشبث بالعدل والحلم، فرتب القوانين العدلية لراحة الأهالى،

وسلك مسلك الرفق واللين مع الجميع، وعلى ما فيه من الحدة فلم يكن عظيم الشجاعة، وأما انتصاره فى حروبه فإنما كان بشجاعة قواده وأمرائه، لا سيما قائده المسمى أغريبا، فإنه كان بطلا صنديدا.

وقد كان أغسطوس له ميل إلى المعارف الأدبية فلهذا جلب إلى رومة أرباب الأدب والشعر، ويقال إنه سلم من المنصب الملوكى وأراد خلع نفسه، ولكن نأى عن ذلك فيما بعد، وتعلم بقية أوصافه ووقائعه فى الفصل الآتى:

الفصل الثانى

فى الملك أغسطس قيصر[1]

تولى هذا الملك قيصرا على الدولة الرومانية سنة ٦٥١ قبل الهجرة، ثم استولى على مصر، فكان أيضا ملك مصر، يقيم عليها نائبا من طرفه، وكان يلقب إمبراطورا، ومعناه فى الأصل رئيس الجيوش، واشتهر كغيره باسم قيصر، ويلقب أيضا أغسطس، ومعناه الرئيس الأعلى أو الخديو.

لما تولى هذا الملك وانفرد بالمملكة الرومانية وفد عليه رسل الملك بالمشرق يرغبون فى ولايته ويضرعون إليه فى السلم، فأسعفهم، ودانت له الأرض، وضرب الخراج على أهل الآفاق، وكان العامل على اليهود بالشام من قبله هيرودوس، ولما استولى على ناحية الشرق سير عساكره إلى فتح مصر فملكها وقتل ولدى قلوبطرة، وكانا يسميان الشمس والقمر، وكان أحدهما المسمى قيصرون ابنا من السفاح لقيصر، خال أغسطوس، فكانت أمه لما تزوجت من أنطنيوس وولدت له أولادا أقطعهم أنطنيوس بعض ممالك بلاد الروم فتلقب قيصرون ملك الملوك لاستحقاقه إرث مصر عن أمه وإرث بعض بلاد الروم عن قيصر أبيه، فلما قتل أغسطوس أولاد قلوبطرة آل إليه ملك مصر، ويحسن هنا قول الشاعر:

وللموت تغدو الوالدات سخالها   كما لخراب البيت تبنى المساكن[2]

---

(١) (٦٣ ق.م-١٤م).

(٢) السخلة: ولد الشاة.

وعلى تسمية ولدى قلوبطرة بالشمس والقمر وازدهائهما لحظة وكسوفهما لا إلى عود وانجلاء ينطبق قول بعضهم :

يا ذا الذى بصروف الدهر عيَّرنا هل عائد الدهر إلا من له خطر

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ويستقر بأدنى قاعه الدرر

وفى السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر

فلما دخلت مصر تحت حكومته ولى على إيالتها قورنليوس غالوس، فكان أول نائب على مصر من نواب الرومانيين، حيث صارت مصر بعد انقراض دولة البطالسة، بموت قلوبطرة، عمالة رومانية، وفى قبضة القياصرة، فكان أول اجتهاد هذا النائب على مصر إصلاح ما أفسدته الفتن والحروب الأخيرة، بجلب الراحة العمومية، والطمأنينة الداخلية، كما اجتهد أيضا فى إصلاح الأراضى الزراعية بالعمليات الهندسية، كحفر ترع مصر وخلجانها، وإقامة جسورها وقناطرها.

ومع تشبثه بصالح المصلحة المصرية قام عليه أهالى مدن عديدة، ورفعوا راية العصيان، فأسكن فتنتهم، وأدخلهم تحت الطاعة والانقياد. وكان من جملة المدن التى أضرم أهلها نار الفتنة مدينة طيوة بالصعيد، فعاملها بالسلب من الأشياء النفيسة، على ما حكاه قدماء المؤرخين، والظاهر أنه اغتر بعد ذلك بشوكته وشدة بأسه، وبنصرته على المصريين، فطغا وبغى، ونظم نفسه فى سلك الفراعنة، وقلدّهم فى جميع أفعالهم الجورية، فأمر أن تنحت تماثيله على صورته وتوضع فى الميادين العمومية بمصر، وأن ترسم وقائعه على المبانى والهياكل العامة كالفراعنة الأقدمين.

ولكن لم تدم هذه الحالة زمنا طويلا، ولا تهنَّا برفعة شأنه وعلو مقامه كما يتمنى، حيث أعقبها عزله ونفيه، وقتله لنفسه فى محل نفيه، وسبب ذلك أن أغسطس كان قد غضب على أحد علماء الآداب الرومانية وطرده من رومة فآواه بمصر هذا العامل، فبهذا أغضب أغسطس، فكان هذا سببا لما جرى عليه من قتله لنفسه.

والظاهر إنه لم يتول بمصر نائب من طرف خليفة أو سلطان إلا تتوق نفسه إلى الاستبداد بملك مصر والاستقلال بحكمها والتسلط عليها، وذلك إما لطمعية النفس فى الانفراد بالمجد والشرف، لا سيما إذا كانت فى أشرف المواطن كمصر، وإما لاقتضاء موقع مصر وحدة التصرف وعدم التبعية، وأنها لا تفلح حكومتها إلا بانفراد الحاكم بالتصرف، يكون النائب مضطرا إلى الاستقلالية ورفض التبعية، ويدل على هذا أن نائب مصر قديما وحديثا له خصوصيات ومزايا ومعافاة دون غيره من نواب الممالك، ولم يكن فى زمن من الأزمان تابعا تبعية مطلقة، بل تبعيته ظاهرية فقط، فقل أن تجد نائبا على مصر لم يبحث عن الاستقلالية، والذى لم يبحث عن ذلك كجوهر[1] قائد المعز لدين الله، الذى أخذ مصر لسيده، ولم يطمع فيها، فإنه كان بمنزلة الملك الحقيقى، لا سيما وإنه كان مملوكا وجميع جنوده أتباع للمعز، وبالجملة فنيابة مصر ووزارتها كالسلطنة قديما وحديثا، فإن نور الدين[2] ولاها وزارة لصلاح الدين[3].

وتولى بعد قورنليوس غالوس نائبا على مصر بطرنيوس، وفى أيامه قام عليه أهل الإسكندرية وخرجوا عن طاعته، فأدخلهم حالا وسريعا تحت الطاعة الرومانية، وفى مدة ولاية هذا العامل أمر أغسطس بغزو بلاد العرب، فجهز بطرنيوس، نائب مصر، جيشا لذلك تحت رياسة إليوس غالوس، أحد نواب قواد الجنود الرومانية، وسيره إلى بلاد العرب تحت قيادة القائد المذكور، وقيل إن أغسطوس صحب الجند أيضا إلى تلك الجهة، فانتصرت تلك الجنود الرومانية على العرب من أول الأمر، ثم انهزمت واضمحلت لصعوبة مزاج الأقطار الحجازية وعدم موافقة أهويتها للجنود الرومانية، فبعد مضى سنة كاملة فى الحروب والخطوب، ومقاساة النصب والتعب، وفقد الزاد والراحلة، وما يضاف إلى ذلك

---

(١) جوهر الصقلى (٩١٨؟ - ٩٩١م) قاد الجيش الفاطمى الذى فتح مصر سنة ٩٦٩م، وهو مؤسس مدينة القاهرة والجامع الأزهر.

(٢) نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى (١١١٨ - ١١٧٤م) من أبرز أبطال الكفاح ضد الغزو الصليبى، وهو الذى انتزع منهم إمارة الرها سنة ١١٤٤م.

(٣) صلاح الدين الأيوبى (١١٣٧ - ١١٩٣م).

من أمراض تلك النواحى، وعدم انقياد العرب لغيرهم، رجعت الجنود الرومانية من طريق بلاد العرب، ودخلت فى مصر من غير حصول على مرغوب الإمبراطور أغسطس، حيث كان قصده من هذه الغزوة الاستيلاء على بلاد اليمن الكثيرة العطريات والبهار، لا سيما وأنها كانت إذ ذاك مركزا لمحصولات الهند الشهيرة بالثروة والغنى، ولا غرابة فى تشبث أغسطس بذلك، فقد دلت التواريخ والوقائع قديما وحديثا على أن كل من ملك مصر من أرباب العقول السليمة امتدت أنظاره العالية للاستيلاء على جزيرة العرب للاستحصال على الحظوة بمحصولات الهند واغتنام مكاسبها وأرباحها.

وفى مدة هذه الغزوة العربية اغتنمت أهالى السودان فرصة غيبة العساكر من صعيد مصر وغاروا على الديار المصرية بجيش جرار تحت قيادة قنداقة ملكة جبال بركل، بإقليم دنقلة، فاستولت على مدينة أسوان وما حولها من الجزائر المصرية، كجزيرة الصنم، ودخلت ببلاد الصعيد الأعلى، وأهلكت الحرث والنسل، واغتنمت الغنائم العظيمة، فقصدها بطرنيوس، ودفعها عن مصر إلى السودان، واقتفى أثرها ليعاقبها على جسارتها وتعديها حتى غلبها على دار ملكها، ولم يعقد معها الصلح إلا بشرط أن تدفع لدولة رومة خراجا سنويا، وأن تبعث من طرفها سفراء للقيصر أغسطس كتتميم هذا الصلح بإقراره عليه، وكان قد أبلغ ديوان رومة خبر هذه الوقائع وهجوم هذه الملكة على الديار المصرية، التى هى من الأعمال الرومانية، فانفعل أغسطس من ذلك كله، وسار بنفسه إلى مصر لينتقم من هذه الملكة، لظنه أنها لم تزل بصعيد مصر متشبثة بالعتو والفساد، فبلغه فى أثناء طريقه وهو بجزيرة صيصام[1] انتصار بطرنيوس عليها وما عقده معها على الصلح وتفويض تتميمه لأغسطس، وأن نائب مصر حمل الملكة على أن تبعث سفراءها للملك، فانتظر أغسطس سفراء السودان، فلما حضروا إليه أقر الصلح الذى عقده نائبه، وإنما عافى هذه الملكة من الخراج السنوى الذى قرره عليها عامله.

ولما عاد بطرنيوس من البلاد السودانية إلى الديار المصرية عكف على ما كان عليه

(١) مقابل ساحل آسيا الصغرى على البحر الأبيض المتوسط.

من حسن إدارة الأقاليم، وإصلاح أراضيها، وتقويم أودها بما تقتضيه أحوال البلاد المصرية، وكان مطمح نظره فى عملياته كلها إصلاح مجارى النيل ومصارفه وخلجانه وترعه، فبذل مجهوده فى ذلك حتى صار النيل على حالة مرضية، بحيث متى بلغ اثنى عشر ذراعا يكون ضامنا للرى، وكافلا(*) لخصوبة الأرض وكثرة الإنبات، وكان قبل عملية هذا النائب لا يكفى فى رى مصر دون أربع عشرة ذراعا، هكذا قال أرباب التاريخ، والمشهور أن رى مصر فى تلك الأزمان ست عشرة ذراعا، فلا مانع من أن حسن عملية الرى تفعل الغرائب، أو أن المقصود أن رى مصر إذا وصل إلى أربع عشرة ذراعا لا يحصل القحط لإمكان زرع النبارى فى الأراضى العالية وزرع الحنطة فيما يروى من الواطية، وهذا كاف فى أن مصلحة الرى ليس فيها الأربع عشرة ذراعا مضرة، وقد مكث بطرنيوس واليا على مصر ثمان سنوات، ثم خلفه عليها إليوس غالوس، الذى كان قائدا من طرف قيصر على غزوة العرب فى أيام نيابة بطرينوس، وبمجرد تولية إليوس غالوس نائبا على مصر ذهب إلى الصعيد الأعلى، واستصحب معه اسطرابونس الجغرافى[1] فى سياحته لاستكشاف البلاد، وبقى نائبا على مصر مدة طويلة، ومات أغسطس فى نيابته.

وقد أعقب تولية الرومانيين على مصر خسارة عظيمة ومضرة جسيمة بالنسبة للعلوم والمعارف الموجودة بالإسكندرية، بضعف مدارسها ومكاتبها الأهلية، ولم تكن هذه الخسارة دون ما سبقت من حريقة كتبخانة الإسكندرية فى آخر أيام الملوك البطالسة، وذلك لأن أكابر المعلمين والمدرسين بتلك المدارس رحلوا من الإسكندرية إلى رومة لينالوا القبول عند القياصرة، والحظوة بإنعاماتهم الجليلة، فخلت منهم ربوع العلوم والمعارف، والفنون واللطائف، ومع ذلك فقد جدد القياصرة فى مصر مدارس ومعالم، وعينوا لها من الرؤساء والرجال من له السبق فى ميدان الفضائل، ولكن لم يحتفل الأهالى بتلك المدارس، ولا مارسوا العلوم كالأول، حيث فترت همتهم، واعتراهم التكاسل عن التحصيل، فمن هذا لم

(*) المقصود: كافيا. (الشروق).

(١) اسطرابون (حوالى ٦٣ ق.م - ٢١م) جغرافى ومؤرخ يونانى، درس فى آسيا الصغرى واليونان وروما والإسكندرية، وله كتاب فى الجغرافية من سبعة عشر جزءا، خصص لمصر أحد أجزائه.

تتقدم العلوم حق التقدم الكلى كالسابق، وإن كانت تلك المدارس المصرية لا زال يتخرج منها أفاضل ممتازون بالعلوم والآداب، لهم جميل الذكر والشهرة فى تواريخ أولى الألباب.

وبالجملة، فقد وقع فى زمن حكومة الرومانيين على مصر، بالنسبة للعلوم والمعارف، نظير ما وقع فى سائر الأزمان، وهو أن تحصيل المعارف البشرية، واكتساب العلوم العقلية، ظهر فى مصر بقدر ما اقتضته عناية الحكومة واجتهدت فيه همة الدولة المتسلطة عليها، ومن المعلوم أن أيام الدولة الرومانية لم تكن كأيام الفراعنة ولا البطالسة فى صرف الهمة للفنون والعلوم، فإن غالب همة الرومانيين كانت مصروفة فى الحروب والغزوات، وتوسيع دائرة الفتوحات، فلما أخذت مصر أعدتها مخزنا للدولة، تستخرج منه ما تحتاج إليه من محصول الزراعة، وجعلت الإسكندرية مركزا للتجارة وتكثير البضاعة، فكانت المعارف المصرية بالنسبة لدولة رومة من الأغراض الثانوية.

وقد اقتدى أغسطس بالإسكندر الأكبر حيث رخص للمصريين فى التمسك بدينهم، وأباح لهم التعبد بمقتضى أصولهم، ولم يمنعهم من شىء فى عقائدهم وعوائدهم، فصاروا يجددون الهياكل لأصنامهم فى أى إقليم من الأقاليم المصرية أو النوبية، ويصلحون ما تهدم منها، حتى إنهم كتبوا على مبانيهم اسم أغسطس قيصر لتخليد اسمه، وتأبيد رسمه.

وفى أيام هذا القيصر الرومانى كان ظهور عيسى بن مريم، على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فكان ميلاده قبل الهجرة بستمائة واثنتين وعشرين سنة، بعد ولادة ابن خالته يحيى بن زكريا بثلاث سنوات، وبمولد عيسى عليه السلام، الذى حصل بعد نحو عشرين سنة مضت من ملك أغسطس، أرخ النصارى فيما بعد تواريخهم، وهو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

وأصل عيسى فى اللغة العبرانية، التى هى لغة أمه وآبائها، ياشوع، وسمته النصارى يسوع، وسماه الله تعالى، وهو أصدق القائلين: عيسى، ومعنى يسوع: المخلص، بتشديد اللام، وينعت بالمسيح، ومعناه الصديق.

وكان من خبره عليه السلام أن مريم ابنة عمران بينما هى فى محرابها إذ بشرها الله تعالى بعيسى، فخرجت من بيت المقدس، وقد اغتسلت من الحيض، فتمثل لها الملك بشرا فى صورة يوسف بن يعقوب، أحد خدام القدس، فنفخ فى جيبها فسرت النفخة إلى جوفها، فحملت بعيسى كما تحمل النساء، إذ حلت نفخة الملك منها محل اللقاح، ثم وضعت بعد تسعة أشهر، على الأصح، بقرية بيت لحم، من عمل القدس، فى يوم الأربعاء خامس عشرى كانون الأول وتاسع عشرى كيهك سنة ٣١٩ للإسكندر، فقدمت رسل ملك فارس فى طلبه ومعهم هدية لها فيها ذهب ومر ولبان، فطلبه هيرودوس ملك القدس ليقتله، وقد أنذر به، فسارت أمه مريم به وعمره سنتان على حمار ومعها ابن عم لها وهو يوسف النجار حتى قدموا إلى أرض مصر فسكنوها مدة أربع سنين، وذلك أنهم حين وصلوا إلى مصر نزلت به أمه إلى مدينة بسطة فى رابع عشرى بشنس، فلم يقبلهم أهلها، فنزلوا بظاهرها وأقاموا أياما، ثم ساروا إلى مدينة سمنود وعدّوا[1] النيل إلى الغربية، ومشوا إلى مدينة الأشمونين، فدخلت مريم بعيسى عليه السلام، وظهرت له فى الأشمونين آية وهو أن خمسة جمال زاحمتهم فى مرورهم فصرخ فيها المسيح فى الأشمونين فصارت حجارة، ثم إنهم ساروا من الأشمونين، وأقاموا بقرية تسمى فيلس مدة أيام، ثم مضوا إلى القوصية، وكان بها أصنام، فصاح من جوف الأصنام صائح وقال: إن امرأة أتت ومعها ولدها يريدون أن يخربوا بيوت معابدكم، فخرج إليه مائة رجل بسلاحهم وطردوهم عن مدينة القوصية، فمضوا إلى ناحية ميرة، فى غربى القوصية، ونزلوا فى الموضع الذى يعرف اليوم بدير المحرق، وأقاموا به ستة أشهر وأياما، فرأى يوسف النجار فى منامه قائلا يخبره بموت هيرودس ويأمره أن يرجع بالمسيح إلى القدس، فعادوا من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف اليوم فى مدينة مصر بقصر الشمع، وأقاموا بمغارة تعرف اليوم بكنيسة أبو سرجة، ثم خرجوا منها إلى عين شمس فاستراحوا هناك بجوار ماء فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح، وقد اتسخت، وصبت غسالتها بتلك الأراضى التى تنبت

(١) عبروا.

البلسان(*) هنالك، وكان إذ ذاك ينبت البلسان بالأردن، فانقطع من هناك وبقى بهذه الأرض، وكثر الماء بالبئر الموجودة هناك حيث سال عليها الماء الذى غسلت منه مريم، فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر، وذكر بعضهم أن من خواص مصر النيدة، وهى عسل القمح، ولا يوجد فى الدنيا اصطناعها إلا بمصر، وقد ذكر الحكماء أن السيدة مريم، عليها وعلى ولدها الصلاة والسلام، صنعت النيدة للسيد عيسى عليه السلام حين قل لبنها، فألهمها الله تعالى عملها، ومن المعلوم أن النيدة أكثر اتخاذها فى منشأة أخميم المسماة بمنشأة النيدة، ولم يزل عملها باقيا بها إلى الآن.

ولم يذكر أحد من المؤرخين أن مريم ذهبت بعيسى، عليه السلام، إلى تلك الجهات من الصعيد، وإنما قال بعضهم: إن مريم أقامت أيضا بابنها بأهناس المدينة، بالصعيد، حتى قيل إن أمه ولدته بها، وأن فيها النخلة التى ذكرت فى قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم: ٢٥) وأن هذه النخلة تسمى نخلة مريم، وأنها لم تزل باقية بأهناس المدينة إلى آخر أيام بنى أمية.

والذى عليه الجماهرة أن عيسى، عليه السلام، إنما ولد بقرية بيت لحم، وجاءت به أمه إلى مصر وعمره سنتان، وإنه أقام فى مصر أربع سنين، ثم عادت به أمه ومعها يوسف النجار، وعمر عيسى ست سنين، فنزلت به مريم قرية الناصرة، من جبل الجليل، فاستوطنتها، فنشأ بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة، فسار هو وابن خالته يحيى بن زكريا، عليهما السلام، إلى نهر الأردن فاغتسل عيسى فيه فحلت عليه النبوة لثلاثين سنة، ولم يتنبأ غيره إلا على رأس الأربعين، فمضى إلى البرية وأقام بها أربعين يوما لا يتناول طعاما ولا شرابا، فأوحى الله إليه بأن يدعو بنى إسرائيل إلى عبادة الله تعالى، فطاف القرى ودعا الناس إلى الله تعالى، وابرأ الأكمة والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله، وبكت اليهود، وحصل ما حصل مما سيأتى ذكره فى الفصل الآتى.

(*) البَلَسَان: نوع من الشجر له زهر أبيض صغير كهيئة العناقيد، وهو من الفصيلة البخورية (الشروق).

وفى السنة الرابعة عشرة من ميلاد عيسى، الموافقة لسنة ٦٠٨ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية، كان موت أغسطوس، الذى هو أول قياصرة الرومانيين، وعمره ست وسبعون سنة، بعد أن حكم ثلاثا وأربعين سنة، حكومة ملوكية، غير مدة الرياسة الجمهورية. وتولى بعده على الرومانيين قيصر طيبروس. ثم إن لفظ أغسطس، ويقال فيه أيضا أغسطوس، ومعناه الرئيس الأعلى كما سبق، يطلق عند الرومانيين على كل ملك من ملوكهم، فهو بمنزلة قيصر وإمبراطور، فهى ألقاب ثلاثة مترادفة على معنى واحد.

الفصل الثالث

فى الملك طيبروس قيصر الأول، ويسمى طباريوس[1]

تولى هذا الملك قيصر سنة ٦٠٨ قبل الهجرة.

وهذا القيصر هو ثانى إمبراطور من أباطرة الرومانيين، خلف أغسطس على الدولة الرومانية، وولى على مصر عاملا من طرفه يسمى إمليوس أولوس، فاجتهد هذا العامل فى تقرير خراج مصر زيادة عما كان قرره عليها أغسطس، وبعث يستأذن طيبروس فى ذلك فأجابه هذا القيصر بقوله: «نعم، اشتهى من الراعى تسمين ما يرعاه، ولا أرضى منه أن يذبحه»! وهذا نظير ما صدر فى صدر الإسلام من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، لعامله لما أراد مثل ذلك، وزاد فى الخراج زيادة فائقة الحد، حيث كتب إليه: «إن اللقحة قد درّت، ولكن أجاعت أولادها»!

وقد خلف هذا العامل عدة ولاة تعاقبت على مصر فى مدة طيبروس، فمنهم أليون سيان، وهو الذى تكبر وتعاظم جدا ليخشى بأسه ويجل قدره فى أعين الناس وتكمل هيبته، فكان جوره وختله كجور طيبروس وختله وعتوه، لأن طيبروس كان جبارا عنيدا ماكرا، ومخادعا منافقا، يظهر خلاف ما يبطن، بدليل أنه فى مبدأ توليته على رومة أراد أن يخلع نفسه من الملك قائلا: ليس لى فضل فى السياسة والتدبير كفضل أغسطس، بل قبل إقدامه على التولية ترجاه مجلس رومة فى أن

(١) حكم القيصر تيبيريوس من سنة ١٤ حتى سنة ١٧م.

يكون قيصر الرومانيين فلم يتول إلا كرها، وأظهر إنه لا يحب أن يكون إمبراطورا، وهذا نظير ما وقع من السلطان قانصوه الغورى[1] حين اختاروه للسلطنة على مصر، وحين سئموا منه بعد ذلك، فجمعهم وأظهر أنه يريد خلع نفسه من السلطنة فأبقوه، فمكايد الملوك قد تتفق مع اختلاف الأزمنة والأمكنة، وفى الحقيقة كان أغسطس أهلا لحكومة الدولة الرومانية، فإنه لما تولى لقب نفسه أميرا، ولم يرض أن يكون ملكا ولا سيدا، فقد ساس الرومانيين وما سادهم، ورعاهم وما استرعاهم، وأما طيبروس فلم يرض أن يلقب إمبراطورا، يعنى أمير العساكر، بل تسلطن، وقال: أنا مولى الرعايا وسيدهم، وهم عبيدى، وأمير العساكر وقائدهم، وهم جنودى، وملك الأهالى وسلطانهم، وهم فى قيودى! وقد كان يرى أن إهداء جميع أنواع التعظيم والتبجيل بالنسبة لمقامه شىء قليل، وقد استوزر من يلائم طبعه من الأمراء، وهو أليوس سيان، نائب مصر، وجعله آلة لجبروته، ووسيلة عظمى لطاغوته، وكان هذا الوزير بطانة سوء فأشار على طيبروس بقتل عائلة أغسطس، فقتلهم على التدريج واحدا بعد واحد، ولم يبق منهم إلا القليل، ثم استشعر هذا القيصر بأن وزيره يريد أن يتغلب على الملك ويستلبه من يده، فأمر بقتله وطرحه فى الميدان العمومى، ففرح الأهالى بذلك ومزقوا جثته.

وفى أول ولاية هذا القيصر كان العثور فى بلاد العجم على الفيل الذى أخذه الإسكندر من بوروس، يعنى فيروز ملك الهند، ووسمه ونذره لكوكب الشمس، وأطلقه محرما ظهره إكراما لمعبوده، كما تحرم عند العرب الإبل التى يصل راكبها إلى الحرم النبوى، كما قال الشاعر:

وإذا المطىّ بنا بلغن محمدا ... فظهورهن على الرحال حرام[2]

فلما عثروا بهذا الفيل استدل على أنه طويل العمر - وقد تقدم ذكر ذلك فى الفصل الرابع عشر من ملوك الدولة الحادية والثلاثين.

* * *

(١) السلطان الثانى والعشرين من سلاطين المماليك البرجية، حكم من سنة ١٥٠٠ حتى سنة ١٥١٦م.
(٢) والرحال بالحاء المهملة. (الطهطاوى).

قال فى (حياة الحيوان)[1] «وقد حكى أرسطو أن فيلا ظهر أن عمره أربعمائة سنة، واعتبر ذلك بالوسم». انتهى.

والواقع أن الفيل يعيش هذا القدر من السنين، كما نص عليه أيضا غير الدميرى من علماء المواليد، ونظير هذه الغريبة ما حكاه ابن خلكان[2]، قال: «إن فى أثناء سنة ٦٦٠ توجه عسكر الشام إلى أنطاكية فأقاموا عليها قليلا ثم رجعوا فأخبرنى بعضهم بغريبة وهى أنهم نزلوا على جرود، وهى بين دمشق وحمص، فاصطادوا حمر وحش كثيرة، فذبح رجل حمارا وطبخ لحمه فبقى يوما يوقد عليه ولا ينضج لحمه ولا يتغير ولا يقارب النضج، فقام جندى وأخذ الرأس فوجد على أذنه وسما فقرأه فإذا هو بهرام جور، فلما أتوا أحضروا تلك الأذن إلىَّ، فوجدت الوسم ظاهرا، وموضع الوسم أسود، وهو بالقلم الكوفى، وبهرام جور من ملوك الفرس كان إذا كثر عليه الوحش وسمه وأطلقه، وحمر الوحش من الحيوانات المعمرة، وهو لعله عاش ثمانمائة سنة وأكثر». انتهى كلام ابن خلكان، ونقله عنه صاحب (المنتقى من تاريخ الإسلام) لمحمد ابن الذهبى[3]، كما نقله أيضا عنه الدميرى فى (حياة الحيوان)، وبعد أن أورد هذه الغريبة قال: إن حمر الوحش تعيش أكثر من مائتى سنة، ثم قال: وقيل إنها تعيش أكثر من ثمانمائة سنة، ثم نقل عن الجاحظ[4] أن أعمار حمر الوحش تزيد على أعمار الحمر الأهلية، قال: «ولا يعرف حمار أهلى عاش أكثر من حمار أبى سيارة، وهو عميلة بن خالد العدوانى، كان له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة إلى منى أربعين سنة». انتهى.

ومن العجب أن ثلاثة من أكابر الفضلاء ينقلون مثل هذه الغريبة، ويعتقدون أن

---

(١) حياة الحيوان معجم رتبه واضعه محمد بن موسى الدميرى (١٣٤١ ـ ١٤٠٥) على ترتيب حروف المعجم، وخصصه للحديث عن الحيوانات.

(٢) شمس الدين أحمد، ابن خلكان (١٢١١ ـ ١٢٨١م)، مؤرخ وأديب، رأس قضاة دمشق، وأشهر مؤلفاته (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان).

(٣) محمد بن أحمد الذهبى (١٢٧٤ ـ ١٣٤٨م) مؤرخ، خلف فى التاريخ آثارا هامة، منها (تاريخ الإسلام الكبير) و(دول الإسلام) و(سير النبلاء).. إلخ.. إلخ.

(٤) عمرو بن بحر (٧٧٥ ـ ٨٦٨م) كاتب ومفكر وأديب غطت آثاره الكبيرة والهامة أغلب فروع الفكر والثقافة، وهو من بين علماء المعتزلة صاحب مدرسة.

الحمار الوحشى يعيش ثمانمائة سنة فأزيد، مع علمهم أن العمر الطبيعى للحمر، ولو وحشية، هو نحو الخمسين بموجب الناموس الطبيعى الذى اقتضته الحكمة الإلهية، ويعتمدون فى ذلك على الوسم باسم بهرام جور، مع أنه يمكن أن يصطاد أحد من المتأخرين حمارا وحشيا ويسمه باسم هذا الملك الأعجمى، تذكارا لتولعه بالصيد، فمن عثر عليه ظن أنه من وسم بهرام جور، فلعل حمار هؤلاء الفضلاء، الذى هو مطية قولهم، من هذا القبيل! ويدل على ضعف قولهم كون الاسم بالقلم الكوفى الذى لا يصح، على وجه مستحسن، أن ينسب لبهرام جور فى تلك الأزمان، ولو تفطنوا لمثل هذه الدقيقة لحققوا النقل وناقشوا فيه، لكن تهافتوا فى أمثال هذه الغريبة.

وحكاية هذا الحمار الوحشى أشبه بحكاية ابن بطوطة[1] فى سياحة الصين عن شيخه المعمر عدة قرون، وكحكاية أهل السودان المتواترة عن عبد العزيز القندرى الذى نقلوا عن أهل قندر أنه عاش فوق أربعمائة وخمسين سنة، مع أن الأعمار الاستثنائية، يعنى النادرة جدا، فى الأزمان الجديدة لا تكاد تبلغ المائتى سنة، والتثبت أولى فى مثل هذه الأمور.

* * *

وكان هذا القيصر سفاكا للدماء، حاقدا على جميع الأكابر والأعيان، تكره أهل رومة منظره، واعتكف فى جزيرة قريبة من رومة وانزوى فيها ليبعد عن أعين الناظرين ويفعل ما لا يليق بالمنصب الملوكى، فاختلى فى هذه الجزيرة مع شركائه فى الفسق والخبائث، وآوى إليه أرباب الرذائل والدنايا، وشبيه الشىء منجذب إليه! وجعل هذا المحل مقتلة ومذبحة، فكل من أراد قتله أحضره من رومة إلى هذا المحل وقتله، وأغرقه فى الماء من محل مخصوص بالجزيرة معد لذلك، وفيه آلة تكبس على الغرقى فتكسر عظامهم حتى لا يعيشوا بعد السقوط فى الماء، وكان له بهذه

---

(١) محمد بن عبد الله اللواتى (١٣٠٤ ـ ١٣٧٨م) رحالة عربى، نشأ بالمغرب، ولقد أودع فى كتاب رحلته الذى أسماه (تحفة الأنظار، وغرائب الأمصار، وعجائب الأسفار) أودع فيه مشاهداته فى رحلته التى استمرت ثمانية وعشرين عاما.

الجزيرة قصور، فإذا أراد أن يتماشى حولها للنزاهة(*) يسأل الساعى عن حال الطريق حولها هل هى خالية من الناس أولا .

ومع بطشه وفتكه فكان فى ارتياب عظيم وخوف على نفسه، فكانت ذمته مترددة موسوسة تحيك فيها الآثام وتتحرك فيها الشبهات والوساوس، فكأنما نيران ذمته المتوقدة ترعى أحشاءه، وطالما كان يسأل العرافين والكهان، ويزجر الطائر فى كل مكان وأوان ليتعرف عاقبة أمره، والباقى من عمره، ولما أحس بأن عمره قد دنا وأشرف على القدوم إلى دار البقاء، والخروج من دار الفناء، تكلف كتمان سره على من سواه، وأظهر التجلد وأخفى نصبه وعناه، فبينما هو خارج من وليمة من الولائم، إذ أبصره حكيمه فوجده بحال غير موافق للحالة الطبيعية ولا ملائم، وأن علامات الموت قد نشرت عليه آثارها، وأنشبت المنية أظفارها، وأن عيشته أضغاث حالم، بعد ظهور هذه العلائم، فأنذر أهل الديوان بأن القيصر لا يعيش أكثر من يومين، وأنه سينعق على رأسه عما قريب غراب البَين، فأرسلوا سعاة لقواد العساكر، فكان أول حاضر منهم ومبادر الأمير أليغولا بن جرمانيقوس، فأمسك زمام الحكومة واستولى عليها، فما يشعر إلا وقد رجعت للقيصر حواسه، واستنار بعد الظلام نبراسه، فارتعب جميع الناس غاية الارتعاب، وهربوا وارتابوا غاية الارتياب، فقام أمير مبارك الطلعة ميمون، يسمى الأمير مقرون، فلف القيصر فى بُرد جمة، وثقل عليه بها حتى صارت فوقه كالغممة، وكان هذا القيصر هرما قد ناهز السبعين أو الثمانين، فمات لحينه فى سنة ٥٨٥ قبل هجرة[1] سيد الأولين، بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة .

وقبل موته بأربع سنين رفع عيسى بن مريم إلى السماء، وقصة رفعه مشهورة فى قصص الأنبياء وبين العلماء، وملخص ذلك إنه لما تنبأ وأظهر المعجزات، المذكورة فى الفصل السابق، وأمر اليهود بالزهد فى الدنيا والتوبة من المعاصى، آمن به

(*) كان الأفضل هنا أن يقال «للنزهة» وليس «للنزاهة» يقال :
تَنَزَّه فلان : أى خرج للنزهة .
أما «النزاهة» فهى البعد عن السوء وترك الشبهات . (الشروق) .
(١) أى سنة ٣٧م .

الحواريون، وكانوا قوما صيادين، وقيل قصارين[1] وقيل ملاحين، ولا مانع أن يكونوا من هؤلاء الطوائف الثلاثة، وعددهم اثنا عشر رجلا، وصدقوا بالإنجيل، وكذب به عامة اليهود وضللوه واتهموه بما هو برىء منه، فكانت له ولهم عدة مناظرات آلت بهم إلى أن اتفق أحبارهم على قتله، وطرقوه ليلة الجمعة، فقيل: إنه رفع عند ذلك، وقيل: بل أخذوه وأتوا به إلى بلاطس البنطى حاكم القدس من قبل الملك طيباريوس قيصر، وراودوه على قتله، وهو يدفعهم عنه، حتى غلبوه على رأيه بأن دينهم اقتضى قتله فأمكنهم منه، وعندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه رفعه الله إليه وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وثلاثة أشهر، فصلبوا الذى شبه لهم، كما أخبر الله تعالى فى قوله: ﴿ **وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ (النساء: ١٥٧) وما أحسن قول المتنبى:

ما مقامى بأرض نخلة إلا … كمقام المسيح بين اليهود

أنا فى أمة تداركها الله … غريب كصالح فى ثمود

وقد اشتهر هذا الملك بأنه هيكل الظلم، وشخص الجبروت، ومع اتصاله بهذه الخصال الذميمة فكان له فضائل ومعرفة بالسياسة والتدبير، فقد كانت أيامه فى رومة أيام سلم وصلح مع الأجانب، ولم يحصل فى مملكة الرومانيين المنتظمة أدنى اختلال، وكانت العدالة موجودة فى الأقاليم والعمالات، وكانت أموال الخزينة الرومانية مدبرة موفرة، فقد وجد فى بيت مال الرومانيين بعد موت هذا القيصر خمسمائة وخمسون مليونا من الفرنكات، واشتغل كثيرا بالعلوم والآداب، وألف وصنف ونظم باليونانية واللاتينية، ولكن اغتال تأليفه يد الضياع، بمجرد ما خلت من ذات الملوكية الرباع، وإليه تنسب طبرية بالشام، فهى مأخوذة من اسمه.

---

(١) مفردها قصار ـ بفتح القاف وتشديد الصاد ـ وهو الذى يحور الثياب ويبيضها.

الفصل الرابع

فى الملك قاليغولا قيصر(١)

تولى إمبراطورية الرومانيين فى سنة ٥٨٦ قبل الهجرة، بعد وفاة عمة طيبروس، وكانت مدة حكمه نحو أربع سنوات، واستبشر به الرومانيون فى طالعة أمره، لا سيما وأنهم كانوا قد ضجوا من طغيان طيبروس، وكذلك مما أوجب فرحهم به أنه ابن جرمانيقوس، الذى كان من فحول الرجال المحبوبين للرومانيين، فلقبوا ابنه قاليغولا لحبهم إياه تبعا لمحبتهم لأبيه فى مبدأ حكمه نجم الدولة وولى نعمة الملة، وكان فى أوائل -حكمه على جانب عظيم من حسن السلوك وكمال الاستقامة، كما توسّم فيه جميع الرومانيين ذلك، ثم لما مرض مرضا شديدا وشفى منه تغيرت طباعه، واختلت أحواله، واستحالت إلى حالة سيئة جدا، حيث اعترته الحماقة التامة، والميل لارتكاب الكبائر والمآثم، وسفك الدماء، والغدر، والاتصاف بسائر القبائح.

فقد تشبث بأن يحيط به أرباب اللهو واللعب، وأهل السخرية والهذيان، والتجاهر بالمعاصى والخطايا، فكان يفعل اللهو واللعب فى المحافل العامة وعلى رءوس الأشهاد، ويدعو لذلك أرباب المجلس الرومانى، وكل من لم يستحسن هذه الألعاب ويظهر الانبساط منها والإعجاب يقتله حالا، ومن رفع صوته فى ميدان اللعب أمر بجلده وضربه ضربا مبرحا! فقد اتفق ذات يوم فى عقد مجلس

(١) حكم القيصر كاليجولا من سنة ٣٧ حتى ٤١م.

الألعاب أن هذا الملك كان ينافس بين الفضائل الرومانية، ويفاضل بينها وبين المحاسن اليونانية، ويجادل فى التفضيل بينهما، فتركت عامة الرومانيين مجلس اللعب وانفصلوا عنه، فصاح هذا الملك قائلا: ليت الأمة الرومانية لم يكن لها إلا رأس واحدة، يشير إلى إنه كان يسهل عليه قطعها! وكثيرا ما أمر بطرح من قصر من اللاعبين عند الحضور فى ميدان اللعب، وقذفه بين المتفرجين، عقابا لتقصيره، وربما قطع لسانه حذر أن يصيح فى الميدان فيكدر على أهل المجلس.

وقد ارتكب غاية التبذير ونهاية الإسراف فى الحظوظ والشهوات، حيث أنفق على ذلك ما أبقاه سلفه طيبروس من الأموال، فكان يأمر بأعمال الجسور والقناطر على البحر، فكأنه يأمر بالمحال، مما يظهر فى خيال ذهنه الدال على الاختلال، ويعمل الصنادل والزوارق المرصعة بالجواهر، ويجعل فى هذه السفن حمامات وغرفا مزينة وأشجارا وأزهارا مرونقة، وقد اصطنع اصطبلا بناه من المرمر لفرس كانت عليه عزيزة، وعمل فى الاصطبل لها حوضا من العاج، ورصع طقومها باللؤلؤ والمرجان، وقيد اسمها فى دفتر القسيسين والأحبار، ووعد أن هذه الفرس تصير ذات يوم من الأيام حاكمة على الرومانيين ويكون لها عليهم الأمر والنهى، وكان يسقيها الخمر فى الأكواب من الذهب، وهذا من أعجب العجب.

وأمر فى حق نفسه أن تصطنع صورته، ويتخذ منها تماثيل عديدة حتى توضع فى جانب الأوثان والأصنام فى جميع الهياكل والمعابد الموجودة فى كافة المدن الرومانية، ليكون من جملة الأرباب، وجعل لنفسه قسيسين خصيصين يتقربون إلى تمثاله، المتخذ من الذهب الإبريز، بذبائح الطواويس والسِّمان وكل طير نادر الوجود عزيز.

فكم سبق فى ملوك الدنيا حاكم بأمر الله، يفعل فى رعيته مشتهاه، ولعل مثل هؤلاء الملوك المتجاوزة فى الأحكام الحدود، صار فى حقهم المبالغة والمغالاة، أكثر مما نسب إليهم مما ليس بمعهود، وإلا فكيف يتصور أن أمة من الأمم تطيع الحاكم المختل وتطيق اختلاله، وتنقاد إلى امتثال ما به أمر وحكم؟ وهل كان وزراؤه مثله فى الاختلال؟! وإلا فكيف بلغ منهم هذا المبلغ فى الانقياد والامتثال، لا سيما وأن

الأمة الرومانية كانت متمدنة، وذات قوانين محكمة متقنة، فيبعد أن يكون ما حكاه المؤرخون عن مثل هذا الملك وقائع حرفية، وإلا فما الفرق بين الأمم المتمدنة والخشنة فى الأحوال العسفية؟ ولعل هذا فى التواريخ من القضايا الانحرافية أو التحريفية.

وبالجملة، فكان عظم جبروته على قدر جسامة حمقه، فكان إذا أمر بقتل إنسان أمر بحضور أبويه وأقربائه ليشهدوا مقتله، فإذا اعتذر أحدهم عن الحضور بمرض مثلا بعث بنعش يحمله عليه ليشهد قتله، وكان لا يحلو له قتل أحد ولا تعذيبه إلا وهو على المائدة، وكان يوصى الجلاد بالتعذيب. وكان ذات يوم فى وليمة حافلة، وفيها أرباب مجلس رومة متكاملة، فضحك هذا الملك وقهقه من غير سبب، فسأله من بجانبه من أرباب المجلس عن سبب هذه القهقهة، فقال لهم: إنما السبب هو أنى إن أردت أن أقتلكم قتلتكم بأدنى اشارة.

ومع إنه كان طاغية جبارا، وداهية غدارا، فلم يكن شجاعا ولا هماما، ولا باسلا مقداما، بل كان يرجف قلبه من أقل الأشياء، ولا يستطيع فى الصف أن يقابل الأعداء، فقد سار فى غزوتين، إحداهما: إلى بلاد جرمانية، والثانية: إلى بلاد أبريطانية، فلم يكتسب غير الجبن والعجز، وعاد، من غير أن يرى صف الأعداء، مع الخيبة، ومع ذلك فكتب فى سفره إلى مجلس رومة يقول لأربابه: بينما أنتم عاكفون على اللذات، ومنبسطون على بساط الشهوات، فأنا معرض نفسى للأخطار باقتحام العقبات، وكان أشد القياصرة ظلما، حتى إنه طلب من اليهود نصب وثنه ببيت المقدس، فمنعوه، ووقعت فى أيامه شدة على النصارى، ويقال إن امرأة من بيت الملك تنصرت فى أيامه فعضدت النصارى، ولقى النصارى الذين بالقدس الشدائد من اليهود، وكذلك لقى اليهود فى أيامه شدة، فإنه أول سنة من ملكه غزا نائب مصر اليهود واستعبدهم سبع سنين، وفى الرابعة من ملكه أمر عامله على اليهود بفلسطين أن ينصب الأصنام فى محاريب اليهود ببيت المقدس، فلما عظم فى الإساءة حاله، وثقلت على قلوب الجميع أفعاله، قتله الأمير خيرياس فى قصره، وخلص العالم من جنونه وأسره، وكان ذلك فى سنة ٥٨١ قبل الهجرة، وبموته قرت الأعين.

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافـــر

وفى أيامه كان العامل على مصر من طرفه أوليوس فلاقوس، فحصل فى أيام ولايته فتن عظيمة فى مدينة الإسكندرية، بأن نائب مصر المذكور أساء السلوك، فأوجب إظهار اليهود العداوة لحكم الرومانيين على مصر، فقاموا على الحكومة وأظهروا العصيان، وصمموا على القتال، فبعزل النائب المذكور وقتله سكن الفتنة.

وتولى على الرومانيين بعد مقتل قاليغولا، المسمى أيضا قايوس، الإمبراطور قلودس الأول.

الفصل الخامس

فى الملك قلودس الأول قيصر

تولى هذا الملك إمبراطورا[١] على الرومانيين فى سنة ٥٨١ قبل الهجرة[٢]، وأمر توليته عجيب، وذلك أنه لما قتل سلفه فى قصره دخل العساكر القصر الملوكى للنهب والسلب، فبينما أحدهم يفتش على شىء ينتهبه إذ عثر بشخص طويل القامة أصلع الرأس، مختف وراء الفراش، ترتعش جميع جوارحه، فاقد الحواس، فاستبان إنه قلودس، من آل بيت جرمانيقوس، فسلم عليه الجنود بالقيصرية، ولقبوه إمبراطور الرومانيين، وحملوه على تختروان وذهبوا به إلى المعسكر ووضعوه هناك، فأفاق هذا الأمير من فزعه، وبايعه الحرس الملوكى، فأنعم على كل واحد منهم بخمسة وعشرين دينارا ليستميل قلوبهم إليه، ويعتمد على صداقتهم، ووعد بقية الجنود أن يغمرهم بإنعامه:

ما قيد الحر كعبد الشرا ... وأطلق الألسن إلا السخا

فكن كريما لا تخف فاقة ... ما يعقب الشدة إلا الرخا

---

(١) تقضى قواعد العربية نصب إمبراطور، فتكتب: «إمبراطورا»، ولكن هذا الخطأ يطرد غالبا فى أسلوب الطهطاوى، كغيره من عدد من الأخطاء فى اللغة والأسلوب، ولقد اخترنا أن نترك بعض هذه الأخطاء على صورتها كمعالم لمن يدرس أسلوب الرجل ومكانه كمرحلة انتقال للغتنا من عصر الركاكة والانحطاط إلى عصر البلاغة الحديثة والازدهار المعاصر، كما آثرنا عدم إثقال النص بالتعليقات التى تشير إلى هذه الأخطاء، اعتمادا على ثقافة القارىء وحسه اللغوى.

(٢) حكم القيصر كلوديوس من سنة ٤١ حتى سنة ٥٤م.

وقال آخر :

إذا وضعوا تيجانهم فضراغم　　وان نزعوا تيجانهم فبدور
على أنهم يوم النزال قساور　　ولكنهم يوم النوال بحور

وقال آخر :

إذا كان فى دولة المرء غبطة　　ولم يغشنى احسانه ورعايته
فسيان عندى موته وحياته　　وسيان عندى عزله وولايته

وبالجملة، فاللُّهى[1] تفتح اللَّها[2]! فكان هذا أصلا للإتحافات الملوكية، والإنعامات القيصرية، ورسما من رسوم ابتداء التولية للخلافات، فلا تتخلف هذه العادة، حيث صارت سنة متبعة.

وكان هذا القيصر مجردا من المكر والحيلة، منزها عن الغدر والأذى كثيره وقليله، وإنما كان على غاية من الحمق والغفلة، حتى كانت أمه تلقبه من زمن الطفولية بأضحوكة العالم، وبالصورة الخيالية، لأنه كان فى مهده مبتلى بداء الهزال، حتى أورثه نحافة الجسم وسخافة العقل، فكان أشبه بالخيال، ومع ذلك فكانت له مشاركة فى الإنشا، فقد ألف تاريخ رومة وقرطاجة وأحسن ما وشى. ولما كان هذا القيصر عاجزا عن حمل أعباء الملك وتدبيره، أوكل إدارة المصالح للمعاتيق والموالى، وقلدهم بإدارة أموره، وكانوا أصحاب شرور وقبائح، والمشهور اثنان ممن تقلد منهم رياسة المصالح، أحدهما يقال له بلاص، والثانى يسمى نرجسا، فكانا أعز وزرائه، وأعظم أمرائه، وكان لهذا القيصر زوجة خبيثة تسمى مسالينة، وكانت ممن ينكرن العشير، ويكفرن الكثير من الخير واليسير، فكانت تبغضه وتحقد عليه طمعا فى زواج شاب من الأمراء تميل إليه، فقصدت ذات يوم قتله لتولى محبوبها

---

(١) اللهى - بضم اللام المشددة - هى أفضل العطايا وأجزلها، والحفنة من المال. ومما يذكر أن رسمها فى الأصل: «اللها».

(٢) اللها - بفتح اللام المشدده - اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم. ومعنى عبارة الطهطاوى: أن الإنعامات تجعل التأييد للمنعم قويا وصوت المؤيدين عاليا؟!

قيصرا بدله على الدولة، فانكشف له منها الخيانة، وآنس منها خدش وجه الأمانة، فقتلها بدون عطف ولا حنانة، ومن ذلك الوقت صحا من غفلته، وداخلته الحماسة غب يقظته، وتطور من طبعه إلى طور آخر حميد، وتزوج بزوجة أخرى أيم تسمى أغربينة، وهى بنت جرمانيقوس، من نسل أغسطس، ولكنها ليست فى الخيانة دون السابقة، بل عنها تزيد، وكانت ولدت من زوجها الأول نيرون الجبار، وكان للقيصر ولد آخر من ضرتها، ودائما تغار منه ومن أمه، وتطمع فى تولية مملكة الرومانيين لابنها الغدار، وتحرم منها أخاه، ابن ضرتها، كما هى فعال الأشرار، وخصال أهل النار، فصممت على سقى السم لزوجها قلودس، فجهزت له سما بطيئا فشربه ولم يمت فى الحال، فخشيت على نفسها من ظهور هذه الخيانة، وأن تذوق ما ذاقته ضرتها من المذلة والإهانة، فأرسلت لحكيم يسمى زنفون، وأشركته معها فى قتل هذا القيصر وسقيه كأس المنون، فأظهر هذا الحكيم أن يسقى الملك علاجا لاستفراغ ما فى جوفه، فأدخل ريشة مسمومة فى حلقه، فكانت سببا فى تعجيل حتفه، فمات لوقته فى سنة ٥٦٨ قبل الهجرة، بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة، وكانت على الرومانيين مرة بالمرة.

وفى مدة حكمه وقعت فى مصر واقعة بين يهود الإسكندرية ومن بهذه المدينة من اليونان، وحصلت بينهما فتنة عظيمة اقتتل فيها الفريقان، فأسكن هذا الملك فتنة اليهود، وأعطاهم رخصة بأن ينتخبوا لهم نقيبا منهم يحكمهم على حسب ما لهم من المواثيق والعهود، وفى أيامه كتب متى الحوارى[1] إنجيله فى بيت المقدس بالعبرانية، ونقله يوحنا بن زبدى إلى الرومية، وكذلك كتب بطرس رأس الحواريين إنجيله بالرومية، ونسبه إلى مرقص تلميذه، وكتب لوقا من الحواريين إنجيله بالرومية، وبعث به إلى بعض الأكابر من الروم. ثم عظم الفساد بين اليهود بعضهم مع بعض، فبعث أقلوديس عساكر الروم فقتلوا من اليهود خلقا كثيرا، وحملوا إلى أنطاكيا ورومة من اليهود سبيا عظيما، وخربت القدس وانجلى أهلها عنها، فلم يول عليهم القياصرة أحدا لخرابها، وافترق اليهود على فرق كثيرة. ولسبع من ملك هذا

---

(١) فى الأصل: حوارى، بدون أداة التعريف.

القيصر دخلت بطريقة من الروم فى دين النصارى على يد شمعون الصفا، فجاءت إلى القدس لتظهر دين النصارى ورجعت إلى رومة، وكذلك اتسعت فى أيامه بمصر دائرة العلوم والمعارف، وتأسس فى الإسكندرية دار علوم متحفة بالتحائف واللطائف، وتحسنت بها المدارس والمكاتب، وعادت لما كانت عليه من علو الشأن والمراتب، ولكن كان اجتهاد العلماء والفضلاء لا يوازى كرامة الحكومة لهؤلاء النبلاء، فإن إكرام الدولة كان أجسم من تحصيل العلوم من هؤلاء الأجلة.

الفصل السادس

فى الملك نيرون قيصر[1]

تولى هذا الملك الإمبراطورية فى سنة ٥٦٨ قبل الهجرة المحمدية، وحكم ثلاث عشرة سنة، كثيرة السيئة، قليلة الحسنة، وكان نيرون ربيب أقلودس، فتبناه وزوجه بنته أوقطاوه.

وكيفية توليته أنه فى أثناء احتضار قلودس ومعالجته فى نزع روحه أظهرت زوجته أغربينة، أم نيرون، آية الأسف والحزن، وبالغت فى ذلك، وأظهرت أيضا أنها تريد أن تسلى نفسها وتصبرها على هذا المصاب العظيم فى زوجها، وكان ابنه من ضرتها، المسمى أبريطانيقوس، يشبه أباه، فذهبت إليه وعانقته وضمته إلى صدرها، وقالت له: إنك على صورة أبيك قلودس الذى نحبه، فلا يسلينا عنه غيرك، وإنا لا نقدر على فراقك، فكأنها تقول:

فانظر إلى الولدين من أدناهما   شبها بوالده فذاك الماجد

فألانت له الكلام، وخادعته، ومنعته أن يخرج من القصر، وأن يظهر بين الأهالى، وأمرت الحراس أن يغلقوا جميع أبواب القصر ومنافذه، وأن يشيعوا زمنا بعد زمن أن القيصر قلودس قد تناقص مرضه، وحصل التحسين فى صحته، وأنه مشرف على الشفاء.

---

(١) حكم القيصر نيرون من سنة ٥٤ حتى سنة ٦٨م.

وفى أثناء هذه المدة صارت تداهن الجنود وتواسيهم بالهدايا والإنعامات، فبهذا دبرت التدابير اللازمة لتولية ولدها نيرون، فلما تم لها الدست. وأيقنت بنجاز مرامها، فتحت أبواب القصر على حين غفلة، وإذا بنيرون خرج وصحبته بوغوس رئيس الخفر القيصرى، فدخل هذا القيصر فى وسط الخفر الملوكى فتلقوه بالترحيب والكرامة وبايعوه، ثم ذهب إلى المعسكر الرومانى وتلا عليهم مقالة رسمية تتضمن تشويق الجنود وإحياء قلوبهم ووعدهم بالإنعامات الجمة كإنعامات أبيه، فسلموا عليه بالقيصرية والإمبراطورية الرومانية، وصدق على هذه المبايعة لعسكرية أرباب مجلس رومة، وأهل الحل والعقد بالمدينة، وبهذه الطريقة وثق هذا القيصر بأن لا يتوقف فى مبايعته أحد فى الإيالات الرومية، ثم جهزوا جنازة قلودس مع غاية الاحتفال، وشيعوها بما يليق بمقامه القيصرى من الإجلال.

ولم يكن عمر نيرون إذ ذاك خمس عشرة سنة، فحكمت أمه بالنيابة عنه، وكان يظهر من حاله إنه يصير قيصرا جليل الشأن، وكان فى حال شبوبيته يستشير معلميه بوغوس وسناخس فى جميع أطواره وأحواله، حيث استوزرهما، وكان الأول ممتازا بمعارفه العسكرية وشهامته وحسن استقامته، كما كان الثانى ممتازا بذكاء قريحته وقوة فطنته وحسن سلوكه مع الناس بمكارم الأخلاق، فلما أراد الملك تلاوة المقالة الرسمية على جمعية الأهالى الرومانية أنشأ له سناخس مقالة تتضمن الوعد منه للأهالى إنه يحكمهم ويسوسهم على موجب أصول أغسطس وقوانينه العدلية.
ومما يحكى عن هذا القيصر من الكلمات الدالة على أنه يرجى خيره لمدينة رومة أنه ذات يوم عرضوا عليه قضية حكموا فيها على إنسان بالموت، ليكتب بالإجراء والتنفيذ، فصاح قائلا: ياليتنى كنت أميا! ولما مدحه مجلس رومة، قال لأرباب المجلس: امسكوا عن المدح حتى استحقه! وكان يظهر من حاله أنه يألف الحلم والعدل، فبان منه فيما بعد خلاف ذلك، فقد كان هذا القيصر ظلوما غشوما، قليل التدين بدين من الأديان، فإنه لما بلغه أن كثيرا من أهل رومة تدينوا بدين النصرانية كره ذلك منهم، وأمر بقتلهم حيث وجدوا، وقتل بطرس، رأس الحواريين، الذى كان بطركا برومة منذ خمس وعشرين سنة، وكان بطرس المذكور، زيادة عن كونه

رأس الحواريين، رسول المسيح إلى رومة، فولى بدله أريوس بطركا عليها، وقتل مرقص الإنجيلى بالإسكندرية لثنتى عشرة من ملكه، وكان هنالك من منذ سبع سنين بها مساعدا على إشهار النصرانية بالإسكندرية ومصر وبرقة والمغرب، وولى مكانه حنانيا، وهو أول البطاركة بالإسكندرية، واتخذ معه الأقسة الاثنى عشر، وقتل أيضا هذا القيصر رئيس كهنوتية اليهود بالقدس، فثار اليهود على من كان بالقدس من النصارى، وقتلوا أسقفهم هنالك، وهو يعقوب بن يوسف النجار، وهدموا البيعة، وأخذوا الصليب والخشبتين ودفنوها إلى أن استخرجتها هلانة أم قسطنطين، وولى مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون، ثم ثار بهم اليهود وأخرجوهم من المقدس لعشر خلون من ملك نيرون، فأجازوا الأردن وأقاموا هنالك، وبعث قائده المسمى وسياسيانوس، ويقال له إسباشيانس، وأمره بقتل اليهود وخراب القدس، فتحصن اليهود من هذا القائد، وبنوا عليهم ثلاثة حصون، فحاصرهم إسباشيانس وخرب جميع حصونهم وأحرقها، وأقام عليهم سنة كاملة، وهذا كله بخلاف ما كان يعهد من نيرون فى ابتداء أمره، فبهذا وغيره من أفعاله الشنيعة ظهر جبروته، واستبانت دناءته، واختل حاله، وساءت أفعاله، ونزع أمه من النيابة عنه. ولم يكن لوزيريه السابقين منعه من اتباع هوى نفسه، فأوجبهم الأمر أن وافقاه على مرغوبه، ولم يخجلا من ذلك، وأما أمه أغربينه فكانت تحب أن تكون نافذة الكلمة على الحكومة بجاه ابنها، وكان جل قصدها أن تبلغ بغيتها، وتنفذ أحكامها من الجنايات وخلافها، فكان قتل النفس عندها كلاشىء، لبقاء الملك فى قبضة ولدها، ولتمكنها من أنواع التصرفات، فاشتكت من سلوك ولدها، وأوضحت لرؤساء الجنود أنها تخشى ضياع الملك من يده بواسطة أبريطانيقوس، ابن ضرتها، وانها تبغى زواله حتى تأمن على الملك، فصمموا من ذلك الحين على قتل أبريطانيقوس، فبينما هو ذات يوم على المائدة القيصرية مع الأقارب والحواشى، إذ وقع مغشيا عليه، وذلك لأن نيرون اصطنع له كأسا مسموما وسقاه له على الأكل، فلما رأى الحاضرون سقوطه تفرقوا ما بين مرجوف وخائف، ومن بقى منهم على المائدة صار مبهوتا ينظر شررا إلى نيرون ويشخص إليه بالبصر، وأما نيرون فكان لا يبالى بذلك، بل اضطجع على فراشه، ومد رجليه كأنه لا يعلم

سبب موت أخيه، بل قال للحاضرين: إن موته بمرض كان فيه من زمن طفوليته، وأن موته عادى! ودفنه ليلا بدون احتفال لجنازته، وقسم أمواله وأملاكه على الموالين معه فى قتله.

ومن هذا الوقت أحاط بهذا القيصر أرباب الفسق والعصيان، و صحاب اللهو واللعب والألحان، وقطاع الطريق، وخوان الرفيق، وجلسوا معه على فرد خوان[1]، وصار يلبس فى الليل التنكر تبديلا وتخفيا، ويتزيا بزى المماليك مترديا، ويطوف بأطراف المدينة وأكنافها، وصحبته المعاكيس المناحيس ينهبون الحوانيت، ويؤذون المارين ولا إيذاء العفاريت، ولكون هذا القيصر متنكرا لا يكاد يعرف للأهالى فى طوافه، حتى إذا تقاتل معهم ضربوه ضربا موجعا أثر فيه تأثيرا ذريعا، ثم علم الأهالى أنه هو الذى يطوف ليلا مع قطاع الطريق، فاقتدوا به فى ذلك، وكثر التعدى والسلب والنهب ليلا من المفسدين، حتى صارت رومة فى الظلام كأنما هى مدينة أخذت عنوة، وقد جرح هذا القيصر فى بعض الليالى جراحة شديدة فى قتاله مع الأهالى، فاحتاط من ذلك الوقت، واحترس من وقوع مثل ذلك، فلم يطف بالليل إلا ومعه ما يكفى من العساكر المتنكرة اللباس، ومن المتصارعين المتبدلين، لئلا يعرفه بهم أحد من الناس، ثم إن أم هذا القيصر التى هى أمر منه وأدهى، وكانت تشتهى أن تأمر دائما وتنهى، ويكون فى يدها زمام المملكة فلم تملك مقصدها فى ذلك، حيث كان ابنها يمنعها من تنفيذ أغراضها ولا يمكنها من ذلك، فقصدت أن تصنع طريقة فى إعادة نفوذها بالقهر والغلبة، ولكن كان ابنها مغرى من بطانته ووزرائه، وكانوا يشيرون عليه فى جميع أموره بالمفاسد والقتل والنهب والسلب، فكان يسلك سبيل الإصرار على أفعاله القبيحة الآخذة دائما فى الزيادة، فلما آنس من أمه ما أضمرته له من المكاره اشتد بغضه لها، وأضمر قتلها ليستريح منها، وكان من أشد أمرائه فتنة وإفسادا أنيقاطوس، أمير السفن القيصرية، فدبر للقيصر الحيلة فى قتلها، وهو أن يصطنع سفينة مخترعة عجيبة الشكل والهيئة، بأن يكون جزء منها منفصلا عن أجزائها الحقيقية، متصلا فى الظاهر بها،

(١) الخوان هنا - بكسر الخاء وفتحها - ما يوضع عليه الطعام للأكل.

بحيث لو سقط فى البحر تبقى السفينة بتمامها كاملة ولا يخشى عليها من الغرق، فاستحسن القيصر هذا التدبير، فاصطنع الأمير السفينة بهذه المثابة، وأظهر القيصر أنه يريد أن يعمل عيدا لهيكل عطارد فى مدينة بايس، التى على ساحل نابلى، وكان لهذا القيصر فى هذه المدينة قصر ملوكى وحمامات ومنتزهات، فدعا أمه، وأفهمها أنه يريد عمل المواسم هناك، وأنه بمناسبة ذلك يصالحها ليزول ما فى النفوس بينها وبينه، فصدقت قوله وحضرت فى الحال راكبة سفينة، وكان هو فى المينا لاستقبالها، فلما أرست سفينتها استقبلها بأحسن تشريف وتلطيف، وأخذ بيدها وضمها إلى صدره، ولا زال يكثر من الملاطفة والتودد حتى مضى يوم العيد، فذهب ما كان بها من الوحشة والنفور، وزال عنها البأس والوسواس، ثم ذهب ليودعها إلى جهة الساحل، وكانت السفينة حاضرة ومزينة زينة تليق بها، فأنزلها فيها، وافترقا على وجه جميل، وهى لا تدري ما نصبه لها من الشرك، فسارت مع السلامة صوب مقصدها، وكان السير فى ليلة مقمرة تحسن فيها الملاحة، فبينما هى قد دخلت السفينة فى بحبوحة البحر إذ أعطيت الإشارة على حين غفلة للملاحين بما أضمر لهذه الأميرة، فانخسف مقعدها وانفصل عن السفينة، وسقطت بها وبمن معها من أتباعها الألواح فى البحر، فصاحت إحدى النساء المصاحبات لها وقالت: أنا الأميرة أغربينة، أم القيصر، ظنا أن تنجو بذلك من الغرق، فضربها بعض الملاحين بمجداف، فقتلها.

وأما أغربينة أم القيصر نفسها فلم يحصل لها من سقوطها فى البحر إلا جرح هين، وكانت تحسن السباحة والعوم فسبحت حتى وصلت إلى سفن تجارية بإحدى المين[1] الرومانية ناجية بنفسها، فلما عرفوها أوصلوها إلى بيتها فى ضواحى بلدتها، وقد فهمت بما كان دبره لها ابنها من الهلاك، ووجدت أن سكوتها عن ذلك أولى، وأنه لا ينفعها إلا عدم إظهار إنها فهمت الحيلة، فكتبت لابنها ما مضمونه: قد نجوت بالألطاف الإلهية من الغرق، وتخلصت من الخطر العظيم. فارتجف قلب نيرون من ذلك وارتعدت مفاصله، وعلم أنه قد خاب فى تدبيره، وأن حيلته لم

---

(١) أى الموانى.

تنفع، لما سبق فى علم الله وتقديره، وخشى من أمه أنها إن عاشت وبقيت على قيد الحياة لابد أن تثير عليه فتنة عظيمة، وتغرى عليه العساكر والقود وأرباب الحل والعقد، فسعى فى طلب قتلها بسائر الوسائل الموصلة إلى ذلك، بأى شىء كان، وألح فى ذلك على كثير من أرباب الفساد والعصيان، وعرض عليهم واحدا بعد واحد هذا الأمر، وطلب منهم الغدر، فبرز له صاحب الحيلة الأولى، وتعهد بقتل هذه الأميرة ليكون له على ابنها بقتلها اليد الطولى، فصاح القيصر قائلا لهذا الجلاد: إن صدق قولك فأنا قد صرت من الآن فصاعدا قيصر رومة وما يتبعها من البلاد، وأما أنت فلك علىّ اليد البيضاء، ولابد أن أكافئك أيضا. فقتلها من ليلته أنيقاطوس الأثيم، وأخذ ذنبها فى عنقه ليكون للقيصر أصدق صديق وأعز حميم، فلما بلغ القيصر مقتلها أشاع أنها قتلت نفسها، واختارت مفارقة رومة بالحلول فى رمسها، فمن ذلك الحين صفا الوقت لنيرون الجبار، وخلا له الجو وصار يفعل برومة ما يشاء ويختار.

لقد انفردت بملك رومة فافرح   مات الذى قد كنت منه تستحى

فصار يفعل ما بدا له بدون أن يخجل من شىء ما، وصار يتعدى الحدود ويجول فى ميدان السفاهة والدناءة، فكأنه ما تمكن من الحكم وتسلطن إلاّ ليتمرد ويتشيطن، وكانت له زوجة عفيفة حسنة الأخلاق، حميدة السيرة، تسمى أوقطاوية، قل أن يوجد مثلها فى الآفاق، فعشق امرأة تسمى بوبة، وكانت من الخواطىء فصارت له محبوبة، فعقد عليها عقد زواج، وأمر بقتل الأولى، وفى حالة قتلها كان عاكفا على اللهو واللعب، مشغولا بسماع المرقص والمطرب، فى المحافل العمومية، والملاعب الأهلية، وقد اتخذ ملعبا عظيما ضرب إليه من جميع الأسوار، وكان ميدانا رحبا خصصه لحظ نفسه فى السر والإجهار، فكان يأوى إليه فى الليل والنهار، ويجرب نفسه فى اللعب والغناء والرقص وسوق العربات، ويفعل ذلك بنفسه، وإذا احتاج إلى المتفرجين والمستمعين احتفل بخدمه وحشمه وحشدهم فى الميدان أجمعين أكتعين أبصعين[1]، فيلعب أمامهم، وبابتذاله نفسه

(١) أكتعين أبصعين: صيغ تأكيد ترادف صيغة أجمعين فى المعنى.

أضعف، بالنسبة إليه، احتشامهم، ولا يزال يجرب نفسه فى هذا الميدان، حتى وصل فى جميع هذه الفنون على كمال الإحسان والإتقان، بحيث تأهل للعب فى المحافل العامة، فكان يركب الإبل ويعدو عليها، ويجمع الحيوانات للهراش، ويصطنع الولائم يدعو إليها الخواص والعوام، وينفق عليها كرائم الأموال الجمة، وجزيل الإنعام، ولا يدع أحدا من الأهالى إلا دعاة للحضور، ليفوزوا بالحظوظ والحبور، فكان رعاع الناس إذ ذاك لا يطلبون إلا اللعب والقوت، ويقنعون بالكفاف من ذلك الغرض الممقوت.

قالت أراك مع الأنذال تصحبهم ... ومن يصاحبهم فى عمره يهن

لا يصاحب مظهرا عذرى ومنشدها ... بيتا به تضرب الأمثال فى الزمن

يقضى على المرء فى أيام محنته ... حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقد طلا جدران هذا الملعب بالذهب الأبريز، وكساه من حلل السندس المطرز أحسن تطريز، وعمل الأشراك والشبك الذى يصطاد به من القصب المصنوع من الذهب والفضة، وكان إذا ذهب هذا القيصر إلى الملعب سار بألف عربة، تسحبها البغال المنتعلة باللجين، وكان يصحبه أيضا سائسو الخيل والسعاة متجملين بالملابس، متزينين بأنواع النفائس، وكان يطلق فى ميدان اللعب أصناف البخور الثمينة، كالمسك والعنبر، وينفق فى ذلك كله على الألعاب ما لا يحصى من الأموال ولا يحصر.

وبينما هو عاكف ذات يوم على أنواع اللهو واللعب، مشغول ومشغوف بما يعجب المتفرجين، ويطرب، إذ حصل فى مدينة رومة حريق هائل رعى[1] المدينة فى أقرب وقت، وسرى فى أطرافها وأكنافها، واحترق من أهلها الجم الغفير، وخرج الناس منها مبادرين بالفرار، نجا من نجا وتلف من تلف، ولم يستطع أحد إخماد النيران، وكل من تعرض لإطفائها سمع صوتا يهدده ويتوعده من غير أن يرى شخصه، بل كان الناس يبصرون شعل النيران الملتهبة ترمى فى المدينة، وبها

(١) رعى أى: أحرق.

أصوات تصيح: نحن مأمورون بذلك! وكان القيصر، على ما يقال، فوق منارة عالية، ينظر الحريق على بعد، ويتفرج عليه مستحسنا لذلك المنظر الهائل! وكان إذ ذاك بزى اللاعبين، ينشد الأشعار التى قيلت فى رسوم تراوده معالمها وأطلالها بعد خرابها، ويتغنى بها متمثلا.

ولما وجد الأهالى قد خسروا منازلهم وأموالهم ومتاعهم، وخرجوا من المدينة غب هذه الأهوال مجردين عن الذخائر والأموال، أراد أن يجبر كسرهم، فأذن لهم بأن يدخلوا فى ميدان تعليم العسكرية، وفى غيره من الميادين القيصرية، وأباح لهم سكنى بساتينه، وبنى لهم الدور والمساكن حالا، وفرشها لهم، وأعطاهم بعض أدوات وآلات، وأرخص أثمان الحبوب والغلال، وكل هذ يستميلهم ويستعطفهم، فلم يجد ذلك شيئا ولا مال إليه أحد من الأهالى، حيث علموا أن هذا القيصر قد سعى فى خراب وطنه، ولا سيما أنه كان شرع فى بناء قصر متحف بالتذهيب والأحجار النفيسة، وكان رسمه رسما متسعا، وأدخل فيه البساتين والحدائق والمزارع والبرك والأنهر والغابات والرياض والحياض، فكانوا يقولون: أنه هو الفاعل للحريق والآمر به.

فلما علم منهم ذلك، وكثر لغطهم به، أراد أن يسكتهم، فادعى أن هذا الحريق إنما هو صادر من النصارى الذين جددوا دين عيسى بهذه المدينة، وتشبث بهذه الوسيلة، وتصدى بتعذيبهم وإهلاكهم، وكان تعذيبهم معدودا فى رومة من الأفراح والمواسم، فكانوا يلبسونهم جلود البهائم، ويطرحونهم للكلاب لتفترسهم، وكانوا يصلبون بعضهم، ويدهنون جلود بعض آخر بالأدهان والزيوت والنفط والقطران، فإذا أظلم الليل أطلقوا(*) فيهم النيران، وأوقدوهم كالمشاعيل ليستصبحوا بهم! وكانت هذه الفعائل كلها تفعل فى حدائق نيرون وبساتينه بأمره، وقت الألعاب الميدانية، وكان يشاهد ذلك بعينى رأسه، ويتدرج بين الأهالى فى صورة عربجى أو فى صورة أخرى. وفى هذه المحنة العظيمة قتل طرس حوارى، وبولص حوارى، بعد أن جاهدا كل المجاهدة، ودعيا الناس إلى دين المسيح، عليه

(*) أى أضرموا. (الشروق).

السلام، وكان استشهاد بطرس حوارى بالصلب، واستشهاد بولص بضرب عنقه، حيث كان رومانيا فتلطفوا به فى القتل.

ثم أخذت رومة تتجدد شيئا فشيئا، فاجتهد فى تشييد مبانيها أعظم وأنظم مما كانت عليه قبل المحنة، وفى أثناء ذلك قام أهلها على نيرون وأضرموا نار الفتنة، وقصدوا بذلك إبطال الألعاب والملاهى، فتحزب عليه أرباب المجالس والأمراء والأعيان، بل والنساء، وترابطوا على ذلك سرا وكتموه بحيث لا يفشى إلا بإجراء مفعوله من طرف المتعصبين، ولكن اتضح حال هذه الفتنة السرية، فقبض على الأحزاب، وصار عذابهم بأشد العقاب، وكان من أعيانهم شخص يسمى سوبريوس، فقال لنيرون: لا أحد من العساكر يصدق فى خدمتك إلا بقدر معروفك ومحبتك، وأما أنا فقد شرعت فى بغضك من وقت ما صدر منك قتل أمك وزوجتك، ومن وقت ما صرت عربجيا ولاعبا ومحرقا لرومة. انتهى.

وقد عذب بعض من اتهمه بالفتنة، من أرباب الفضل والأدب، تعذيبا شديدا، فقطع عروقه وفتح منازل الدم، ولا زال يستفرغ دمه حتى مات بهذه الفعلة.

وقد اتخذ نيرون، مع منصب القيصرية على رومة، صناعة الغناء وضرب الألحان، واللعب فى الأفراح العامة، حتى إنه قيد اسمه فى دفاتر اللاعبين والمغنيين، لأنه شرع أولا فى إنشاد الأشعار للحماس، وأراد أن يظهر بمظهر أرباب هذا الفن ليطرب الجلاس، فطلب منه الامتحان فى الألحان وغير الألحان، حيث أفادوه أنه لا يقبل دخوله فى أبناء الفن إلا بالبحث والاختبار، للوقوف على درجة فضله ورتبته فى هذا الاعتبار، فتقدم فى الميدان العام بزى لاعب، وعلى هيئة مناضل مضارب، وفى صورة مغن فى الميادين والملاعب، ولم يبصق ولا تنحنح، ولا مسح وجهه، بل أمال أعطافه وترنح، وحافظ على القوانين والرسوم الواجب اتباعها فى الميدان، ثم جثا على ركبتيه كالمتمنى للحاضرين لتستحسنه الأهالى فى تمنيه، ففرحوا بذلك وابتهجوا، ولعل ابتهاجهم إنما كان سببه تعجبهم من قلة مروءته ومذلته وهوانه، وأيضا لم يكن أحد من الأهالى مقتدرا على أن يظهر الكآبة والعبوس وقت لعب القيصر فى الميدان، بل لابد من إظهار الالتفات والمسرة والإعجاب، وكان لا يستطيع أحد أن يكدر على مجلس اللعب ولا على

المتفرجين، وإلا فلا يلومن إلا نفسه، فكان بالميدان حراس متفرقون فى الأطراف والأكناف يعاقبون من حصل منهم أدنى خلل، حتى إن الأمير وسباسيانوس، الذى صار فيما بعد قيصر على رومة، لما تناوم وظهر منه غطيط قصد القيصر قتله فى نظير ذلك، ولولا شفاعة من لا ترد شفاعته عند القيصر ما نجا من القتل، وكذلك بوبة، زوجة القيصر ومحبوبته، لما قالت له: أنه لاعب عجيب اللعب، على سبيل التهكم، رفسها برجله فى بطنها رفسة عنيفة كانت سببا فى موتها.

وقد قصد نيرون سفر بلاد السودان، فانتقل من رومة ورسا على بلاد اليونان، ليغزوها غزوة لعبية، حتى يشهدوا له بالبراعة فى فنه وحروبه اللعبية، فاستصحب جنوده، وكانوا من أرباب الألحان والمغنين، فتسلحوا بالعيدان والمزامير وغيرها من آلات الطرب، ونزل بهم مدينة قورنثية، وكان يونان هذه الجهة دون غيرهم يعرفون هذه الفنون حق المعرفة، فانتصر عليهم نيرون فى هذه الحروب الألعابية، فأنزل تماثيل فحول الرجال الذين اشتهروا فى سالف الأعصار بالسبق فى الألعاب الأولامبيقية[1]، وانتصروا فيها وحازوا قصب السبق فى ميدان الفخار.

فلما أنزل نيرون تماثيل فحول اليونان بالقول على أنه انتصر عليهم تقديرا، كان هذا بمنزلة التحقير لقدماء اليونان، ومع ذلك فقد صانع الأهالى وصفقوا لهذه النصرة التخيلية تملقا ونفاقا، كأنهم شهدوا لهذا القيصر بالبراعة والفوقان على الأقدمين، وكانت هذه الواقعة كما تقدم بمدينة قورنثية، بإقليم أخايا، وكان إذا ذاك هذا الإقليم تحت استعباد الرومانيين، فأعتق إقليمهم وأعاده للحرية كما كان أولا، حيث شهدوا له فى الألعاب بكمال البراعة، واستحسنوا منه إتقانه هذا الفن وإحكامه لتلك الصناعة، وكان ذلك فى نحو سنة خمسمائة وخمسة وخمسين قبل الهجرة، فكانت غنيمته من هذه الحروب استحسان ألعابه التى يعدها من المفاخر، وليست فى الحقيقة إلا من قبيل الهزئيات والمساخر.

---

(١) والألعاب الأولامبيقية نسبة إلى أولمبية بلدة ببلاد اليونان وكان بها موسم يجتمع إليه الناس فى كل أربع سنين كسوق عكاظ وفيه تكتسب الامتيازات اليونانية وبهذه المواسم المتكررة كل أربع سنوات يؤرخ اليونانيون وقائعهم فيقولون حادثة كذا وقعت فى الأولمبياق الأول أو الثانى أو الثالث وهكذا كالسنة من الميلاد أو من الهجرة فهذا الأولمبياق عبارة عن عقد أربع سنوات. (الطهطاوى).

فقد رضى من الغنيمة بالإياب، بل باء بصفقة المغبون غب الغياب، حيث خسر الإقليم الذى استولى عليه سلفه بالاكتساب، وداخله فى عودته الاختيال بنفسه والإعجاب، ووقع استحسان اليونان للعبه منه أعظم موقع، فلما دنا من مدينة رومة هدموا له جانبا من أسوار المدينة، فدخلها من هذا النقب(*)، راكبا عربة مسحوبة بخيول بيض، لابسا حلة أرجوانية ملوكية، وخوذة مرصعة بنجوم فضية وذهبية، وعلى رأسه تاج النصرة اليونانى المصطنع من أغصان الزيتون البرى، وفى يده إكليل آخر يونانى من شجر الغار، وكل هذا علامة على الانتصار، وأمامه جماعات حاملون ألفا وثمانمائة إكليل مكتوب عليها أسماء المسابقين المناضلين الذين حازوا قصب السبق فى مضمار الفخار، واستحقوا الامتياز بين الأقران بهذه الأكاليل والتيجان، وحول عربة هذا القيصر ينشد المغنون فخره وانتصاره، وأمامه المباخر والعطريات يعبق شذاها فى سائر النواحى والجهات، وأناس كثيرون ينثرون الأزهار واللآلئ فى هذا الموكب العالى المتلألئ، وهذا يذكر التالى:

من الذكـــرك جــانا الناصـر وجـــاب معـــه أســـد الغابة

ووكبك يا شـــيخ هنطــش ما كانت إلا كــــــدا بـــة!!

ثم لم يكتف هذا القيصر بهذه المفاخرات والامتيازات، بل أمر أن يصنعوا تماثيله ويصوروه على هيئة أرباب الطرب والألعاب، وأن توضع هذه التماثيل فى الميادين العمومية، على هذه الصورة الرسمية، وأن ترسم بهذا الوجه على النقود والسكة القيصرية، ولمحبته فى تحسين نغمه، وجمهورية المغنى الخارج من فمه، أمسك عن كثرة الكلام، والتزم الصمت حتى عن الأمر والنهى فى الأحكام، وقلل الكلام مع جنده وخادمه وعبده، خشية أن يضعف حسه، ليبلغ من ترخيم الأنغام أنسه، فكان بعد هذه الإجادة من كمال الشرف والمجادة.

فهذه مناقبه فى حياته، وأما كيفية مماته فكان سببها أنه لما أخل بناموس ذاته الملوكية، وبحرمة مروءته القيصرية، وتجاوز الحد إلى هذا الحد، وفقد صفة الشرف

(*) النقب: الخرق فى الجلد أو الجدار. (الشروق).

العلية، ومنقبة المجد، سئم الأهالى من الانقياد لمثل هذا القيصر الذميم، والملك الوضيع اللئيم، وخيم الخيم[1]، عديم التربية البعيد عن التكريم، فصمموا جميعا على مجازاته بسوء فعله، واستحسنوا المبادرة بقتله، وكان من جملة الأقاليم الرومانية إقليم فرانسا القديم، التى كانت أهله تسمى الغلية، وكان نائب هذا الإقليم يسمى ونديش، من ذرية ملوك تلك الجهة، فحقد على نيرون وناواه، وقصده بالحرب عسى أن يملك من الاستراحة منه مناه، وعرض تقليد مملكة الرومانيين على نائب رومة فى أسبانيا، وكان يسمى غلبا، وكان ذلك فى سنة ٥٥٤ قبل الهجرة[2]، فلما أحس بذلك نيرون أرسل قائد جنود جرمانيا إلى ونديش قائد الغلبة فقتله، وتجهز هذا القائد الجرمانى ليساعد القيصر على غلبا المنتخب للقيصرية، فبلغ قائد جنود جرمانيا الخبر بأن مجلس الرومانيين استصوب مبايعة غلبا فأحجم عن المعونة.

وأما نيرون فقد أيقن أنه لا محيص له عن الهلاك، وتصور الموت نصب عينيه، وتقاعس عن الحظوظ والشهوات، وهرب من رومة مع أربعة من ثقاته، واختار سكنى الفلوات، فنزل بقصر له فى الخلاء على البعد من رومة بأميال قلائل، وقد دلت على قرب حينه الدلائل، فأشار عليه بعض أحبابه بقتل نفسه بنفسه، وتقربه بالطوع والاختيار إلى الحلول برمسه، وأن هذا أولى من قتل أخصامه له، فلم يشجع نفسه على ذلك، لأنه كان يخشى من الموت وينفر منه كل النفور، ولم تسمح نفسه بسماع قول الشاعر، لو كان فى زمانه:

فقد قلت مذ ذكروا الحياة واطنبوا ... فى الموت ألف فضيلة لا توصف
منها أمان لقائه بلقائه ... وفراق كل معاند لا ينصف

فطالما كان ينوح على نفسه ويندبها، ويقول: كيف يجوز قتل مثلى وهو صاحب فن نفيس؟! ولسان حاله ينشد:

---

(١) الخيم - بكسر الخاء - الطبيعة والسجية.
(٢) أى سنة ٦٨ م.

لو يعلم الدهر منى أن مصطيرى   يغتال صرف الليالى ثم يفترس
كانت جياد الرزايا كلما اطردت   تحوم حول دموعى ثم تنعكس

فبينما هو على هذه الحالة، إذ سمع صهيل الخيل وصرير سنابكها، وقد حضر الفرسان وقبضوا عليه، فقال لهم: هيا بنا، فقد أوجبت الشجاعة على أن أقتل نفسى حين لا حيلة لى فيما دون ذلك..

ابت لى همتى وأبى حيائى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وأجشامى على المكروه نفسى   وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات   وأحمى بعد عن عرض صريح

فهَمّ بقتل نفسه، وشجع نفسه فلم تشجع، وكلما عمد لقتل نفسه بيده، وفيها الخنجر، رفع يده من الخوف، فأخذ بعض أحبابه يده قابضة على الخنجر ووضعه على منحره ليشجعه فتجلد لذلك وطعن نفسه فأزهقها، وكان موته فى سنة ٥٥٤ قبل الهجرة[١]، فاستراحت الأمة من ظلمه وعسفه. يقال إنه وجد على سيف بختنصر كتابة أعجمية فعربت فى هذه الأبيات:

الشر مصراع له سطوة   يستنزل الجبار عن عرشه
وأنت إن لم تدرج أو تتقى   كالميت محمولا على نعشه
لا تنبش الشر فتبلى به   فقلما تسلم من نبشه
إذا طغى الكبش بلحم الكلى   أدرج رأس الكبش فى كرشه
ونابش الموتى له ساعة   تأخذه أنبش من نبشه
لله فى قدرته خاتم   تجرى المقادير على نقشه

فمن هذا يفهم أن بختنصر الجبار كان يعتقد وحدانية الله وقدرته، فقد قال

(١) أى سنة ٦٨م.

بعضهم، نقلا عن وهب بن منبه[1]: إنه بعد أن رد الله بشريته بعد المسخ، ورد عليه روحه، دعا إلى توحيد الله تعالى، وقال: كل إله باطل إلا الله إله السماء.

فقيل لوهب: أمات مؤمنا؟ فقال: وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: آمن قبل أن يموت، وقال بعضهم: قتل الأنبياء، وخرب بيت الله المقدس، وأحرق كتبه، فغضب الله عليه، فلم يقبل منه التوبة ـ وقد تقدم ذكره فى الكلام على الملك نيخاوس الأعرج أحد ملوك الدولة السادسة والعشرين ـ فالبيت الأول أصدق بيت قيل فى وعد الظالمين، فقد صدق فى صاحب السيف المرقوم عليه وفى غيره، ومن أحسن ما قيل فى وصف دعوة المظلوم على الظالم قول بعض الأعراب فى أبيات لا بأس بذكرها هنا:

وسائرة لم تسر فى الأرض تبتغى ... محلا ولم يقطع بها البيد قاطع
سرت حيث لم يجد الركاب ولم تنخ ... لورد ولم يقصر لها القيد مانع
تمر وراء الليل والليل ضارب ... بجثمانه فيه سمير وهاجع
إذا وفدت لم يردد الله وفدها ... على أهلها والله وراء وسامع
تفتح أبواب السموات دونها ... إذا قرع الأبواب منهن قارع
وإنى لأرجو الله حتى أننى ... أرى بجميل الظن ما الله صانع

ومدح بعضهم إنسانا وشبه سمو همته بدعوة المظلوم، فقال:

كلفت همتك السمو فحلقت ... فكأنما هى دعوة فى ظالم
وطئت بأوطان النجوم فكم لها ... من مارد قذفت إليه براجم

والسراج الوراق[2] فى هذا المعنى:

---

(١) أبو عبد الله، وهب بن منبه (٦٥٤ ـ ٧٣٢م) مؤرخ، كثير الاعتماد على الأساطير والإسرائيليات، ولد وعاش فى صنعاء، وتولى قضاءها.

(٢) أبو حفص، عمر بن محمد بن حسن، الوراق (١٢١٩ ـ ١٢٩٦م) أكبر شعراء مصر فى عصره، عمل كاتبا لواليها يوسف بن سباسلار، وله ديوان شعر، غير كتابه (نظم درة الغواص).

توق ممن سؤته دعوة تطلع حيث السهم لم يطلع
ما كبد القوس إذا أرسلت فيها الذى فى كبد الموجع

وبموت نيرون الظلوم الغشوم، وانقطاع حكمه الذى كان على الرومان من أعظم البلاء والشؤم، انقطعت عائلة قيصر أغسطس، وتم أمر الإمبراطورية للقيصر غلبا.

قال بعضهم إن نيرون مع ما كان عليه من الطغيان والعدوان، واللهو واللعب والهذيان، كان ينتخب نوابه من أرباب الفضائل، فكانوا جميعا يحسنون السياسة والتدبير فى كافة الأقاليم والبلدان، وكان حريصا على الوقوف على الحقائق، والكشف عن تفاصيل الجزئيات والدقائق، فقد أناب عنه فى مملكة مصر بلبيلوس، فأحسن فيها الصنيع، وأصلح أرضها وأخصبها بتدبير النيل المبارك على وجه رفيع، وكان لهذا القيصر اعتناء بتحسين الديار المصرية، وكمال رغبة فى الوقوف على حقيقة المنابع النيلية، فلهذا بعث من الرومانيين جماعة ليستكشفوا هذه المنابع، فأدوا واجب سياحتهم فى الأقطار السودانية على وجه جليل، فقد حكى من شاهد أرباب هذه السياحة حين عودهم من السودان أنه اجتمع باثنين من رؤسائهم، وسمع منهما شفاها ما ملخصه:

قد وصلنا بعد سياحة طويلة، وسفرة مستطيلة، إلى ملك السودان، فأعطانا الزاد والراحلة، وأمدنا بالذخائر الطائلة، وأعاننا على تتميم هذا السفر، وقضاء الوطر، بأن أوصى علينا الملوك المجاورة لبلاده، فأذنوا لنا بالجولان فى بلادهم والتقدم فيها، والتعمق فى أقاصيها، فسرنا حتى انتهينا إلى محال ذات بحيرات وبطائح، وبرك يتعذر السير فيها للغادى والرائح، لكونها مجهولة المعالم والمسالك، غير مطروقة لأهالى تلك الممالك، لكونها مملوءة بالأشجار المتكاثفة والحشائش والأعشاب المتلافة، فبهذه المثابة وبتكاثف غروسها يعسر التطرق فيها بل يتعذر، فلا يستطيع دخولها الماشى الخائض فى مائها، ولا يستطيع الراكب أن يسير بمطيته فى أرجائها، وقد وجدنا هناك صخرتين عظيمتين، تخرج عندهما المياه بغاية القوة، فما علمنا هل هما منابع هذا النيل السعيد، أو منابعه بعدهما، وأن هذين المنبعين فى أثناء طريقه، ومنبعه الحقيقى بعيد؟ انتهى.

ومن المحقق أن نيرون كان أشغل نفسه بمصر ، وتعلق قلبه برؤيتها ، حتى إنه عزم على أن يسافر إليها وتجهز لذلك ، وكان إذ ذاك نائبه طقسوس ، أخاه من الرضاع ، فأرسل إليه يعلمه بقدومه إلى مصر ، وأرسل القيصر رسلا يشعرون بقرب قدومه ، ويجهزون ما يليق باستقبال ذاته القيصرية ، فجهزوا له ما يلزم ، وصنعوا له حمامات خصوصية حسب العادة والرسوم ، ليدخلها عقب القدوم ، فتجاسر نائبه طقسوس واغتسل فيها ، فكان هذا بالنسبة للقيصر مما يخل بالناموس الملوكى ، فلما علم القيصر بتلك الجسارة أمر بقتل النائب ، ولم يراع أخوة الرضاع ولا حق النيابة والإمارة . .

أنى لأعرف فى الرجال مخادعا	يهدى الصفاء وود، ممذوق
مثل الغدير بربك قاع قراره	لصفائه والقاع منه عميق

فما أحسن قول الطغرائى[1] :

أعدى عدوك أدنى من وثقت به	فحاذر الناس وأصحبهم على دخل
فأنما رجل الدنيا وواحدها	من لا يعوّل فى الدنيا على رجل

وحين أشرف القيصر علي حد الارتحال إلى الديار المصرية ، حلت فى مدينة رومة فتن داخلية ، فقتل هذا القيصر الشرير يوم أن عزم على المسير فى صباحه ، وأطفأوا بفراغ زيت ذاته نور مصباحه ، وكان ذلك فى سنة ٥٤ قبل الهجرة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة ، كما تقدم الكلام على ذلك فى أول الفصل السادس .

---

(١) الحسين بن على (١٠٦١ ـ ١١٢١م) أديب ، وعالم بالكيمياء ، ومن أشهر آثاره الأدبية (لامية العرب) .

الفصل السابع

فى الملك أسليقيوس غلبا قيصر، ويقال له غلبان[1]

تولى هذا القيصر إمبراطور على الرومانيين عقب انقراض عائلة أغسطس فى سنة ٥٥٤ قبل الهجرة، وحكم سنة واحدة، وكان غلبا المذكور من عائلة شهيرة بالحسب والنسب بين عائلات إيطاليا، وكان شيخا كبيرا معمرا نحو ثلاث وسبعين سنة، فاجتمع الجنود الرومانية فى مجلس للشورى بينهم فأجمعوا أمرهم سرا فى أن يكون لهم الحق أن ينتخبوا قيصر من غير مدينة رومة، فانتخبوا هذا القيصر المعمر، وكان موسرا بالمال، لكن بخيلا صعب الأخلاق، مدققا فى الإدارة والتدبير، مشددا فى الصرف والإنفاق، لا يلائم طبعه طبع الرومانيين فى الكرم، وإنما انتخبه الجند، على ما فيه من هذه العيوب، ظنا أنه لشيخوخته لا يعمر زمنا طويلا، ورجاء أنه بتوليته ربما تسهل أخلاقه وتتغير طباعه ويتخلق بالسخاء والكرم، وينالهم منه ما يتمنونه من جزيل الإحسان والنعم، وتوسموا فيه أنه أقل ما يعطيهم من العطايا عوائدهم ومرتباتهم التى عودهم عليها سلفه من القياصرة عند التولية، فإن هذا رزق لا مقطوع ولا ممنوع، فلا يتوهم الحرمان منه.

وكما أن الجنود كانت على هذا الأمل كان الأهالى أيضا يؤملون منه أملا آخر، فكانوا ينتظرون منه أن يعمل لهم مواسم وأعيادا وولائم وملاعب عمومية،

---

(١) حكم القيصر غالبا من سنة ٦٨ حتى سنة ٦٩م.

لمنافعهم الخصوصية، وكان جميع ذلك بخلاف رأيه ومذهبه، ومعدودا بالنسبة إليه من النوافل، بل من الإسراف والتبذير.

فلما لم يجدوه وفى بشيء من ذلك، بل أمسك عن الإنعامات المعتادة للعساكر المنتخبة ولغيرهم، التمسوا منه الوفاء به التماسا رسميا، فما كان جوابه إلا أن قال: أنا أختار عساكرى أحسن اختيار، ولا اشترى خدمتهم بدرهم ولا دينار.

ثم عاقب وزراء نيرون وعزلهم، واستوزر غيرهم، وأمرهم سرا بالاقتصاد وتقليل الإيراد والمصرف على قدر الإمكان، محاذرا علي حسن التدبير، كما قيل:

حــذر أمورا لا تخاف وآمــن ... ما ليس منجيــه مـن الأقـــدار

فضيقوا على العساكر وقتروا عليهم كمال التقتير، فاغتاظوا جميعا من سوء هذا الترتيب المبنى على شح هذا الشيخ الكبير، فبهذا السبب كان الخلاص من العجب، فلم يقتصروا على نزع الملك من يده بل صمموا على انتزاع روحه من جسده!!..

إذا أراد اللــه أمـــرا مضـــى ... ولـــم يقـــو حـــى عـــلى رده

ولله در من قال:

إذا المرء أحمى نفسه كل شهوة ... لصحـــة أيـــام تبيـــد وتنفـــد

فما باله لا يحتمى عن حرامهـا ... لصحـــة ما يبقـــى له ويخـــلد

وكان بمدينة رومة إنسان من عائلة قديمة ماجدة، يبسط لكرم يده، ويمد للشجاعة ساعده، يسمى مرقوس أوطون، وكان شهيرا بسعة الإنفاق، مثقلا بالديون للبذل فى مواساة الرفاق، فلتنجيز توليته قتلوا ذلك الشيخ الهرم بعد سنة من حكمه، وأردفوه بوزيره المسمى بسقون، إذ هو مثل قيصره على الشح شره ونهم، فكان فى حالة الموت والحياة معطوفا عليه، وشبيه الشيء منجذب إليه، فتولى مرقوس أوطون فى سنة ٥٥٣ قبل الهجرة[1]، ولم تطل مدة حكمه، ولا علمت منه مضرة ولا مبرة، فسبحان من فاوت بين الخلق.

---

(١) أى سنة ٦٩م.

قيل لإبراهيم، عليه الصلاة والسلام: أذبح ولدك، فتله للجبين، وقيل لبنى إسرائيل: اذبحوا بقرة، فذبحوها وما كادوا يفعلون! وخرج أبوبكر الصديق، رضى الله عنه، من جميع ما له، وبخل ثعلبة بن حاطب بالزكاة! وجاد حاتم فى حضره وأسفاره، وبخل الحباحب بضوء ناره! وكذلك فاوت بين الفهوم، فسحبان أنطق متكلم، وباقل أعجز من أخرس! وفاوت بين الأماكن، فزرود[1] تشكو العطش، والبطائح تشكو الغرق! وهو سبحانه وتعالى الفاعل المختار، يقلب القلوب كما يقلب الليل والنهار.

---

(١) الزرود: الحلوق والبلاعيم، واحدها مزرد.

الفصل الثامن

فى الملك مرقوس أوطون قيصر[1]

قد اختارت جنود رومة تولية مرقوس أوطون فى سنة ٥٥٣ إمبراطورا عليهم لشهرته بالكرم، عسى أن يفوزوا منه بانهمال ديم النعم، وكأنه بما استتر عندهم من الفضائل هو المعنى بقول القائل:

سألت أخاه البحر عنه فقال لى شقيقى إلا أنه السائغ العذب

لنا ديتما ماء ومال فديمتى تماسك أحيانا وديمته سكب

إذا نشأت برية فله الندى وان نشأت بحرية فلى السحب

ومع ذلك فلم يصبهم شيء من فائض نعمته، بل اقتسموا معه رابض نقمته، لأنه ريثما تولى القيصرية، ورضيت به رومة والديار المصرية، كانت جنود الرومان فى جرمانيا قد بايعت أيضا وبطليوس المسمى أيضا إبطالس، الذى هو قائدهم، قيصرا على الرومانيين، فحصل حرب داخلى بين الفريقين، ولما تلاقى الجمعان، واصطف الفريقان، بدون حضور الإمبراطورين، انهزمت عساكر أوطون، وانتصرت جماعة وبطليوس، فلما أحس أوطون بانهزام جمعه، وتحقق إنطفاء نور شمعه، قتل نفسه، بعد أن حكم ثلاثة شهور، فبهذه النصرة تحققت الإمبراطورية الرومانية للقيصر وبطليوس. وفى مدة حكم أوطون على رومة، ولو كانت المدة

(١) ابتدا حكم القيصر أوتو، وانتهى سنة ٦٩م.

هينة، ضربت السكة باسمه فى مصر، لأنها أول من اعترف له بالقيصرية من الممالك الرومانية، كما سبق، حتى إن اسمه يوجد فى مبانى مصر العمومية مرسوما عليها دون سلفه وخلفه، يعنى دون غلبا قيصر ومن بعده وهو وبطليوس قيصر، فلم يوجد لهما اسم على المبانى العمومية المصرية.

وفى زمن القيصر مرقوس أوطون، وفى عهد اثنين من خلفائه، كان النائب على مصر طيبروس إسكندر، من طائفة اليهود، وسيأتى ذكره فى الكلام على وسباسيانوس قيصر.

الفصل التاسع

فى الملك وبطليوس قيصر[1]

لما تولى هذا الأمير إمبراطور على الرومانيين فى آخر سنة ٥٥٣ قبل الهجرة، ذهب إلى مقتل خصمه الذى قتل فيه عدوه، وأظهر الشماتة التى هى أقبح المثالب، إذ لا أحد يأمن صروف النوائب:

لا تظهرن لعاذل أو عاذر حاليك فى السراء والضراء

فلرحمة المترحمين حرارة فى القلب مثل شماتة الأعداء

ثم قال لقواد عساكره: إن جثة العدو المقتول هنا لا يزال يشم منها على طول الزمان وتداول الأيام رائحة طيبة! فمثل هذا القول الصادر من هذا القيصر الرومانى، الذى كان أعظم ملوك الدنيا فى ذلك العصر، يدل على خسته وقلة مروءته ولؤم طبيعته، وأنه لا يرجى منه خير لوطنه، لأن قصده بذلك أن هزيمة عدوه يتسبب عنها تنعيمه وتلذذه بالطعام والشراب، والانهماك على اللذات والشهوات وسائر الأغراض الدنيوية الدنية، بدون نظر لمنافع وطنية، وقد تحقق منه ذلك فيما بعد..

---

(١) ابتدأ حكم القيصر فيتليوس - وهذا هو نطق اسمه فى المراجع الحديثة المعتمدة - سنة ٦٩م. انظر (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) تأليف: إدوارد جيبون، ترجمة محمد على أبو درة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

الناس أطوار إذا جربتهم كالنبت فيه طيب وخبيث

وفى الخبر: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والخبيث والطيب». وقال بعضهم: الناس معادن كمعادن الذهب والفضة وغيرهما.

ضاعت مروءة أهل الأرض كلهم إلا الأقل فليس العشر من عشره

لا تحمدن أمرا حتى تجربه فربما لا يوفى خبره خبَره

وقيل: إن جملة الناس كالشجر والنبات، منها ما له ظل وليس له ثمر، وهو النافع فى الدنيا دون الآخرة، فإن نفع الدنيا كالظل السريع والزوال، ومنها ما له ثمر وليس له ظل، وهو الصالح للآخرة دون الدنيا، ومنها ما ليس له واحد منهما، كأم غيلان، تمزق الثياب وليس لها طعم ولا شراب، ومثاله من الحيوان الفأرة والعقرب، قال الله تعالى ﴿ **يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ** ﴾ (الحج: ١٣).

وقد كان هذا القيصر نحيف البدن، ضاوى الجسم، يضيع أكثر ساعاته فى الجلوس على المائدة، وباقى ساعاته يشغل نفسه فى الأوامر بجلب الأطعمة النادرة العزيزة الوجود من الأقطار الشاسعة والبلاد البعيدة، وقد أحضر له أخوه فى يوم واحد ألفى سمكة وسبعة آلاف طائر من أغرب الطيور وأندرهم وجودا، وطبخها له وأحضرها على مائدته ليشكره على ذلك، ويتحصل على الشرف والفخار، فما كان من القيصر إلا أن استخف بها، وأظهر أنها كلاشىء، ووجد طريقة جلب بها أكثر من ذلك وأعظم، ليظهر اقتدار نفسه.

وكانت مدة حكمه ثمانية شهور، فأنفق فيها على مطبخه ما قيمته نحو مائتى مليون فرنك، فلم يكن هم هذا القيصر الأحمق إلا لبطنه، بدون أن يشبعها أبدا، وكان لا يشتغل بشىء من مهمات المملكة، ولا يتفكر فى حسن تدبير الحكومة، بل يصرف همته فى المطاعم والمشارب، فقد قيل عنه إنه لما بلغه أن عساكر الرومانية والإيالات المشرقية والديار المصرية قد بايعوا وسباسيانوس، القائد الشهير، على

القيصرية الرومانية، لم يتفكر فى ذلك، ولا أهمه هذا الأمر، بل بقى نائما تحت ظلال الأشجار كالبهيمة السائمة، لم ينتقل من محله، معتمدا على أمرائه وجنوده، موكلا أمره إليهم، وهذا يقرب مما حكاه المؤرخون عن الخليفة الأمين العباسى، وهو مشغول بالصيد حين حربه مع أخيه، وهجوم الجند عليه، فانهزمت جنود هذا القيصر من جنود خصمه، وأخذوا رومة منه، فاختفى فى بيت أحد حجابه، فقبضوا عليه، وطافوا به المدينة مشدود الوثاق، يسبه العامة فى طريقه ويضربونه، ثم انتهى الحال بضرب عنقه ليلا، فهو وإن فاته الموت بالتخمة الحسية، فقد أودت به إلى الهلاك التخمة المعنوية، وكان موته فى سنة ٥٥٣ قبل الهجرة.

الفصل العاشر

فى الملك وسباسيانوس قيصر، ويسمى إسباشيانس[1]

تولى القيصرية فى سنة ٥٥٣ قبل الهجرة، وانتهى حكمه فى سنة ٥٤٣، فكانت مدة حكمه عشر سنوات، وسبب توليته القيصرية أن السلطنة الرومانية منذ أن صارت إمبراطورية، بعد أن كانت جمهورية، كان مضى عليها خمسون سنة بعظمها الأول، ثم صارت بعد هذه المدة من تأسيسها قيصرية قد مالت بتعاقب القياصرة الذين لا رأي لهم ولا حزم عندهم ولا حسن سياسة ولا كياسة إلى الانحطاط بعض ميلان، وتنازلت عن درجتها القديمة وعن رفعة الشأن، وربما تلاعب بها أخصامها خارجا وداخلا، ولم يرجح لها ميزان.

فكانت الأعجام تُغير على ملحقاتها المشرقية، المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة.

وكان رعاياها من اليهود فى بلاد فلسطين يعتقدون أن حكم دين عيسى بن مريم عليهم قد آن آوانه، وأن الرومانيين هم خلفاؤه وأعوانه، وإنهم ينفصلون عن رومة أو يستقلون بأنفسهم، فكانوا يقومون على الرومانيين، ويثيرون الفتن ويرفعون راية العصيان، ويقاتلون ولاة أمورهم.

وكانت الإيالات المحكومة بالرومانيين تحاول مثل ذلك، وتطلب الاستقلال، فقد تحزب الأمير قيوويليس الفلمنكى مع إيالة جرمانيا على الجنود الرومانية، وكان

(١) حكم القيصر فسبازيان - وهذا هو النطق الأدق لاسمه - من سنة ٦٩ حتى سنة ٧٩م.

يطلب انفصال الإيالة الغلية عن حكومة رومة، يعنى استقلال أهالى فرانسا القديمة وما يتبعها. وكان فى الدولة الرومانية عائلتان شهيرتان بالبأس والكلمة، إحداهما تسمى عائلة الغلاوية، والثانية تسمى عائلة الأنطونونية، فاجتهدت كلتاهما فى رفع شأن الدولة الرومانية وسمو صيتها، وإعادة رونقها القديم، ولم تكن العائلة الغلاوية ذات مجد أثيل ولا نسب عريق، ولم يكن رئيسها وسباسيانوس صاحب مظهر عظيم، بل كان يألف الخمول، فلم تكن له شهرة عالية ولا صيت بعيد، لأن جده لم يكن إلا ضابطا من ضباط بومبيوس، وكان أبوه مصيرفا، وأما هو فقد كان بطلا باسلا، ومقداما فاضلا، له حظ عظيم فى الفضائل العسكرية، ونصيب وافر من المعارف الملكية، فكان عصاميا لا عظاميا، ولكن كان فيه البخل والطمع، وهما خصلتان ذميمتان، ومن المعلوم أن الخصال الذميمة تضر بالفضائل، وكان له مداخلة قوية مع الإسكندر طبياروس الإسرائيلى، نائب الديار المصرية، فلهذا توسط هذا النائب فى قضية توليته، حيث حمل الجنود الرومانية التى بمصر على المبايعة لهذا القيصر وانتخابه إمبراطورا على الدولة الرومانية، ولذلك كان اعتراف ديوان الإسكندرية بالإمبراطورية سابقا على دواوين الإيالات الرومانية، وكان هذا بتداخل هذا النائب الجسور، فكان جزاؤه من هذا القيصر الفاجر كما جوزى مجير أم عامر، فقد قتله بعد سنة، وولى بدله لوبوس نائبا على مصر فى سنة ٥٥٢ قبل الهجرة.

وكان عمر هذا القيصر عند توليته ستين سنة، فضاعف الخراج، وزاد العوائد، وجاوز الحد فى ضرائب الأموال، وأحدث مكوسا لم تكن قبل عهده، وبلغ من طمعه أنه كان لا يستحيى أن يقاسم خدمه وحشمه وأتباعه فى الأموال المستفادة لهم من الشفاعات، وكان يبعث إلى الأقاليم عمالا يختارهم من المشهورين بالطمع والبخل ليعاقبهم فيما بعد بضبط أموالهم واستصفاء ما عندهم بالمصادرات، وكان يشبههم بالسفنج، ويقول: إن السفنج متى عصروه أخرجوا ما فيه من الماء، فكذلك العمال متى صار التشديد عليهم أخرجوا ما عندهم!..

كل امرىء راجع يوما لشيمته ... وإن تخلق أخلاقا إلى حين

فلا غرابة من صدور تلك الأفعال ممن اجتمعت فيه قلة الأصول، وكثرة الفضول، وخفة العقول، وسوء الأخلاق، وتكدير الضمائر، ومخالفة الباطن للظاهر، فالواثق بمثل ذلك على غرر، والمتمسك به على خطر..

عموا عن الخير واعتادت نفوسهم   فعل القبيح وظنوا أنه حسن

وكان الرومانيون ولوه عليهم لظن ضعفه، وانتظار اللين والرفق وعدم التشديد عليهم، ثم تبين لهم أنه لم يظهر بعد أغسطس قيصر من(*) يده أصعب من يده، ولا أقوى من سطوته وبأسه فى مسك زمام المملكة وحسن تدبيرها وسياستها، فإنه عمل فى المملكة الإصلاحات النافعة التى ابتهجت بها أيامه، وافتخرت بها أحكامه.

واستولى على مدينة القدس الشريف بعد أن غلبت الرومانيون عليها اليهود بوجه عنيف، وذلك أنه أقدم ولده طيطوس على حصارها، وعاد هو إلى إيطاليا، فأخذ المدينة ولده عنوة بعد مقاومة عظيمة، وهلك فى هذه الوقعة من اليهود ألف ومائة نفس بالقحط والأسر، وبهذه انتهى خراب القدس الشريف، كما أنذر عيسى، عليه السلام، حواريه، حيث قال: لا يبقى من هذه المدينة حجر على حجر. ومن هذا الحين تفرق شمل اليهود فى الآفاق، وتمزقوا كل ممزق، وانتشروا فى الأقطار، وتفرقوا أيادى سبًا، وانقرض ملكهم، ولم يقم بعدها قائم لهم فى شأم ولا عراق.

ولما ملك طيطوس بيت المقدس رجع النصارى الذين كانوا عبروا إلى الأردن، فبنوا كنيسة بالمقدس، وسكنوا، وكان الأسقف فيهم شمعان ابن عم يوسف النجار، وهو الثانى من أساقفة المقدس.

ومع أن وسباسيانوس المذكور كان متصفا بحسن التدبير، وجميل الخصال، وكمال العدل، لم تسلم مصر فى أيامه من الجور، فقد جدد فيها مغارم لم يكن أحدثها أحد قبله، وأوكل أمر جمعها وتحصيلها إلى أرباب الخيانة من أعوانه،

(*) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

فكانوا لا يرعون للرعايا المصرية إلاً ولا ذمة، ولما شكا المصريون مظلمتهم لهذا القيصر قابلهم، علي ما قيل، بالاستهزاء والسخرية، ولم يقبل منهم صرفا ولا عدلا، ولسان الفرح يناجى: صبرا فإن الفرج يفاجئ . . .

خفض عليك ولا تكن قلق الحشى ... ممـــا يكـــون وعـــله وعســـاه

فالدهـــر أقصـــر مـــدة ممـــا ترى ... وعســـاك أن تكـفى الذى تخشـــاه

وذلك أن وسباسيانوس لما بلغ سن تسعة وستين سنة مرض مرضا شديدًا يعز فى مثله الشفا، حيث أيس من نفسه إذ كان علي شفا، وكان من عادة الرومانيين إذا فارق الدنيا قيصرهم روحنوه بعد الممات، ونظموه فى سلك العلويات، وعدوه فى عداد الروحانيات، فكان هذا القيصر يمزح فى محفل تقديسه، بمحضر كاهن دينه وقسيسه، ويقول: قد آن تقديس نفسى بالروحانية، ونظمى فى سلك الأرواح العلوية. ولما أحس بدنو أجله، وأشرف على انفصال روحه من بدنه، أظهر عدم خوفه ووجله، واعتمد على أيدى أمرائه، واستند وانتصب من فراشه قائما كالوتد، وقال: يحق للقيصر أن لا يموت إلا قائما، فمات لوقته وهو منتصب، ولصفة الشجاعة مغتصب، وكان ذلك فى سنة ٥٤٣ قبل الهجرة، وحكم من السنين عشرة، كما تقدم فى أول الفصل، وتولى بعده ولده طيطوس منصب القيصرية.

الفصل الحادى عشر

فى الملك طيطوس قيصر، ويقال له طيطش[1]

تولى الإمبراطورية فى سنة ٥٤٣ قبل الهجرة، وحكم إلى سنة ٥٤١ وكان قبل توليته لا يعهد منه فعل الخير ولا مكارم الأخلاق، بل كان المعهود فيه القساوة والجبروت والسفاهة والإسراف، لا سيما ما ظهر منه فى محاصرة القدس واستيلائه عليها، وما فعله، من كثرة القتل والأسر واستلاب الأموال، حتى يقال: إنه احتمل الخوارج الذين كانوا فى نواحى القدس مع الأسرى، وكان يلقى كل يوم منهم للسباع فرائس إلى أن أفناهم! فلمما صعد على سرير الملك سلك سبيل العدل والرشد، وحسنت حالة، وحمدت خصاله، وحكم بالعدل والإحسان، واجتمع بأهل الفضل وصلحاء الناس، وكان متفننا فى العلوم، عارفا باللسان اليونانى واللطينى، وكان ملازما للخير، مخالطا للناس، غير محتجب عن أصحاب الحوائج، وقد طرد من ديوانه بطانة السوء، وأهل السخرية، وتنزه إلا عن معاشرة أرباب الفضائل، ولذلك لقبوه: نعيم الدنيا. ويحكى أنه مضى عليه يوم لم يعمل فيه عملا صالحا لرعاياه فصاح فى الليل يبدى التأسف والتحزن، قائلا: مضى هذا اليوم سدا. وهو كقول بعضهم:

أليس من الخسران أن لياليا ... تمر بلا نفع وتحسب من عمرى؟!

---

(١) حكم القيصر تيتس من سنة ٧٩ حتى سنة ٨١م.

وقـال آخـر :

إذا كان هذا الدمع يجرى صبابة على غير سعدى فهو دمع مضيع

ووقعت فى أيام هذا القيصر حادثة من الحوادث الهائلة ، تميزت بها أيام دولته ، وهى ثورة بركـان[1] إيطاليـا المسـمى ويزوف ، حيث ارتج هذا الجبل عـقب رعـدة عظيمة ، وانفرجت منه فرجة ، وهى فوهته ، وصارت تقذف المواد المعدنية الملتهبة والرماد الغزير ، فغير شكل الخلاء الجميل الذى انتشرت عليه هذه المواد النارية ، وكان على مقربة منه مدينتان عظيمتان ، إحداهما تسمى هرقولانوم ، والأخرى تسمى بومبايس ، فوصل إليهما ما قذفه هذا البركان من المواد الجمرية والرمادية ، فتراكمت عليهما هذه المواد فأغرقتهما وغطتهما . وكان فى هذا العهد بلنياس الأكـبـر ، الحكيم الطبـائعى ، فـاجـتـهـد فى أن يمتـحن هذه الحـوادث الكونيـة ، وكيفيةوقوعها ، ليقف على أسبابها ومسبباتها وعللها ومعلولاتها . فدنا من البركان في حال ثورته ، فهلك هذا الحكيم لوقته ، فمات قتيل جسارته وشهيد مجازفته . ولا زال هذا البركان إلى الآن يهيج ويقذف المواد النارية .

وبعد ذلك بنحو سنتين مرض طيطوس بالحمى ، فدخل الحمام فمات به فجأة ، وذلك فى سنة ٥٤١ بعد أن حكم سنتين وشهرين ، فكأنما ظهر فى الدولة الرومانية لخراب بيت المقدس الذى أنذر به عيسى ، وليكون قدوة لملوك الرومانيين فى التحبب إلى الرعية ، فإن فى أيامه ذهب الغدر والحسد والبغضاء والشحناء من مدينة رومة ، ولم يكن بغية هذا القيصر إلا مواساة أحبابه ، وأحبابه هم جميع رعاياه ، ورعاياه هم الرومانيون ، والرومانيون هم الناس ، كل الناس ، فقد واسى الجميع بحسن الصنيع ، ومن مناقبه أنه كان يذهب بنفسه ، بدون حاشية ، إلى مجلس رومة ليستشيره ، كما يذهب وحده إلى الميدان العمومى فى وسط الأهالى ليسمع المواعظ والمقالات بنفسه ، فكان يحب جميع الرومانيين وجميع الرومانيين يحبونه ، ولا يتفكر إلا فى إسعادهم فلما مات فى سنة ٥٤١ خلفه أخوه دومطيانوس .

---

(١) ولفظ بركان معناه جبل النار . (الطهطاوى) .

الفصل الثانى عشر

فى الملك دومطيانوس قيصر[1]

تولى إمبراطورا فى سنة ٥٤١ قبل الهجرة، عقب موت أخيه طوطوس، وبقيت مدة حكمه إلى سنة ٥٢٦ قبل الهجرة.

وقد دلت القرائن على أن هذا القيصر قتل أخاه طوطوس بالسم، وليس هذا ببعيد، فإن هذا الملك كثير الآثام والخطايا، وكان يتظاهر قبل توليته بما لا مزيد عليه من طيب الأخلاق، وحسن السريرة، والرفق واللين، ولكن الظلم فى النفس كمين، حتى إنه بعد تقلده بالقيصرية لم يرقط أظلم منه على وجه الدنيا، فكان أشبه بنيرون الطاغية فى الميل إلى اللهو واللعب والمصارعة، والتولع بسفك الدماء والجرأة على قتل النفوس البريئة، وكان إذا لم يجد من الناس من يقتله سلى نفسه بنخس الذباب، حتى لا يخلو طرفة عين من إذاقة خلق الله العذاب، فكان شديد الجبروت، يخترع للعقوبات طرائق للشر متنوعة لا تخطر على قلب بشر، فإذا أراد أن يقتل إنسانا فى غد، أحضره عنده ليتناول معه الطعام، وأكرمه غاية الإكرام، وهذا التكرم على سبيل التهكم، وكم له أمثال فى العقوبات من باب الهذيان.

وكان له قائد ماهر فى الحروب يسمى أغريقولا، فظهر اجتهاده وفضله فى الفنون الحربية، وانتصاره على الأمة البريطانية، يعنى الإنكليز، وتسخيرهم للرومانيين، فغار القيصر من قائده وحسده على هذا الانتصار، وجازاه كما جوزى

(١) حكم القيصر دوميشيان من سنة ٨١ حتى سنة ٩٦م.

سنمار(*)، فأورده حوض المنون مسموما، وأغضب الأهالى والأمراء خصوصا وعموما، ولما تصدت عساكر الرومانيين لحرب بلاد الأفلاق والبغدان، وما جاورها من المدن والبلدان، أهمل هذا القيصر إمداد الجنوب الرومانية بالميرة، ولم يسعفهم بالزاد والذخيرة، فكان ذلك سببا لانهزامهم، وتنكيس أعلامهم، وانتصر ملك الأفلاق والبغدان على أقطار الرومان، حتى التجأت رومة الخطيرة أن تدفع خراجا لملك تلك البلاد التى هى بالنسبة للرومان حقيرة، وكان هذا مما يبخس بقدر الرومانيين، فدخل فى نفوسهم من هذا الملك الداء الدفين، فأغروا على قتله أميرا يدعى اصطفانوس، فحضر عنده بوسيلة كتاب حضر به لديه، وناوله الكتاب ليطلع عليه، فبينما كان الإمبراطور مشغولا بقراءة الكتاب، إذ قام عليه وقتله تبحرا واجتهادا وافق الصواب، وكان ذلك فى سنة ٥٢٦ قبل الهجرة، فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة، وبمقتله انقرضت العائلة الغلاوية، وتولى المملكة بعد نيروا قيصر، وهو رأس العائلة الأنطونونية.

* * *

وفى أيام القيصر دوميطيانوس والقيصرين السابقين عليه لم يذكر المؤرخون من وقائع مصر شيئا، ولا ذكروا أعمال القياصرة فيها، فلم يظهر منهم فى شأنها منافع تعود عليها بالإسعاد أو بالشقاء، وإنما يستنبط من قرائن الأحوال، ويغلب على الظن باستنطاق لسان الحال، أن مصر لم تخل من السعادة والراحة فى عهد طوطوس، فإنه كان عادلا، وشأن العادل إسعاد الرعية، فلا شك أن مصر كانت بعنايته مرعية، إلا إنه لم تطل مدته، وأعقبتها أيام دومطيانوس، وفى زمنه تمكن دين النصرانية، ولكن مرقس حوارى استشهد بالإسكندرية بسبب نشر هذا الدين، وذاق العذاب المبين، ولهذا كان خلفاؤه بطارقة الإسكندرية التى استشهد بها، وهم بطارقة طائفة القبط، وبقيت كنيسة الإسكندرية كرسى البطاركة الذين هم على قدم مرقوس حوارى، وعدتهم إلى وقتنا هذا نيف وسبعون بطريقا.

وكان عدد الأقباط فى صدر الإسلام وما بعده كثيرا فى القطر المصرى، فلما

(*) يقال: جَزَاهُ جَزاءَ سنمَّار. وهو مثل لمن يفعل الخير فيُكافأ بالإساءة. (الشروق).

تناقص عددهم بالأحوال المقتضية انتقل كرسى البطرق إلى قلاية[1] المحروسة.
وكيفية انتخاب بطرك طائفة القبط، أن العادة الجارية إنه لا ينتخبه المطارنة ولا الأساقفة ولا القمامصة ولا القسوس، وإنما حق الانتخاب موكول إلى وجوه الملة المسيحية وأعيانهم، فينتخبون أولا ثلاثة أنفار من الرهبان المشهورين بالاستقامة فى دينهم، والعدالة فى يقينهم، لينتخب منهم فى المرة الثانية خيرهم فى الفضل والاستقامة، وقد جرت العادة أن من سمع من هؤلاء الأحبار الزاهدين بأنه سيصير بطريقا يهرب فى الخلاء، إظهارا للتعفف عن المنصب البطريقى وزهدا فى الرياسة، والغالب أن جميع الثلاثة يفرون من ذلك لنفورهم منه، ثم تحضرهم القلاية قهرا عنهم بواسطة الحكومة، فيساقون بالسلاسل والأغلال، ويحضرون على هذه الهيئة ولا يفكون من أغلالهم إلا بعد انتخاب واحد منهم بالقرعة، وهذا هو الانتخاب الثانى، فمن خرجت عليه القرعة فهو البطريق، وله الرياسة على جميع الطائفة اليعقوبية. وهذه رسومهم السابقة.

وأما الآن فقد اقتضت الأحوال إجراء نظام الانتخاب على أسلوب آخر غير السابق، يعنى أن تمام الانتخاب إنما يكون بمعرفة الوجوه والأعيان والطائفة القسيسية، من مطارين وأساقفة وقمامصة مع تصديق الحكومة المحلية. وأيضا كان المنصب البطريقى فى السابق مجمع الأضداد، يعنى أن صاحبه متصف بالرفعة والضعة، بمعنى أنه عالى المقام رفيع الجناب فى وقت تأدية وظائفه، كامل التقشف والزهد، نافذ الحكم فى طائفته، محروم من اللذات والشهوات فى نفسه، عظيم فى أعين أهل ملته، حقير فى حد ذاته، حيث يرى نفسه بعين الحقارة، غنيا لكونه مستحوذا على أموال أوقاف جماعته يصرفها بمعرفته، وفقيرا بحيث لا يملك شيئا لخاصيته ولا له مال يرثه عنه غيره. وأما الآن فقد أخذت البطارقة فى سلوك طريق التمدن، وتلبسوا برفاهية المطعم والملبس، والمؤانسة والمحادثة، والتودد للناس والتردد عليهم، وساروا بسير الوقت والحال. ولكن المتمسك منهم بالعوائد القديمة والسنة المسيحية يخشوشن فى الملبس الذى يمس البدن وفى المطعم إذا اختلى

(١) لعلها بمعنى صومعة.

ونفسه، ويوافق العموم عند الداعى إلى الاجتماع بالناس، لقصد تهذيب أهل ملته وتحسين أحوالهم، كما قيل:

وللناس عادات وقد ألفوا بها   لها سنين يرعونها وفروض

فمن لم يوافقهم على العرف بينهم   فذاك ثقيل عندهم وبغيض

ويقال إن دومطيانوس قيصر هو ابن أخت نيرون قيصر، فلهذا كان غشوما كافرا مثله، وقد أمر بقتل النصارى، كما فعل خاله نيرون، وحبس يوحنا الحوارى، وأمر بقتل اليهود من نسل داود حذر أن يملكوا، وكان شديدا على اليهود، وقتل أبناء ملوكهم.

وسبب قتله للنصارى ما قيل له إنهم يزعمون أن المسيح يأتى ويملك، وبحث عن أولاد يهوذا بن يوسف من الحواريين، وحملهم إلى رومة مقيدين، وسألهم عن شأن المسيح فقالوا: إنما يأتى عند انقضاء العالم، فخلى سبيلهم، وفى السنة الثالثة من دولته طرد بطرك الإسكندرية من كرسيه ونصب غيره، ونفى من رومة جميع الفلاسفة والمنجمين، وأمر أن لا يغرس بها كرم.

وبالجملة، فقد كان فيه من الجبروت بقدر ما فيه من الجبن، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن الجبناء غالبا جبابرة، فيستعينون على تحفظهم على أنفسهم بالجبروت لفقدهم نخوة الشجاعة وإحساسهم بالضعف الذى يلازمه الخوف والفزع. وقد أسلفنا إنه مات قتيلا، حيث حنق عليه الرومانيون، وقيل إنه قتل فى حروبه مع الإفرنج، وتولى بعده نيروا قيصر.

الفصل الثالث عشر

فى الملك نيروا قيصر[1]

تولى هذا القيصر إمبراطورا على الرومانيين بعد مقتل دومطيانوس فى سنة ٥٢٦ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٥٢٤ فكانت مدة حكمه سنتين.

لما تحزب جموع الرومان على قتل سلفه انضم المجلس الرومانى إلى المتحزبين بعد هلاكه ليولوا غيره، فانتخبوا نيروا قيصر، وكان شيخا إيطاليانى المولد، كريدى الأصل والجنس، فى سن سبعين سنة، وكان فى السياسة جليل المذهب جيد الرأى يميز الغث من الثمين، وإنما كان ضعيف القلب فاتر الهمة لا يقوى على تنجيز الأشغال ولا تنفيذ الأفعال، ولما كان هو رأس العائلة الأنطونونية، لانقراض العائلة الغليانية، قام عليه الأهالى، عقب توليته، حتى كادوا يخلعونه من المملكة، لأنه ليس من بيت الملك، لولا أنه بادر بالاتحاد مع أولبيوس طريانوس، حكمدار جرمانيا السفلى، فتبناه وأشركه فى الملك معه وفى القيصرية، فاجتهد الأمير طريانوس فى تشتيت شمل المفسدين وقتل رؤساء الفتنة عن آخرهم، وتمكين شوكة نيروا، فأحسن السيرة، وأمر برد من كان منفيا من النصارى، وأباح لهم التمسك بدينهم، ورجع يوحنا الإنجيلى إلى أفسوس[2] بعد بعده عنها ست سنين، وقيل كان مسجونا فأطلقه نيروا من السجن.

---

(١) حكم هذا القيصر - واسمه نرفا - من سنة ٩٦ حتى سنة ٩٨م.

(٢) مدينة إغريقية قديمة على الساحل الغربى لآسيا الصغرى.

وكان فى مدة حكمه مهتما بمحو الظلم والجور، وبسلوك سبيل العدل والسداد، يصفح عن الجانى حسب الإمكان، وقد عفا عن قتل الأشخاص المتهمين بخيانة الحكومة بسعى عتقائهم وعبيدهم بهم، فاقتصر على نفيهم وإجلائهم من البلاد لحسم الريبة، ثم قتل العبيد والعتقى الواشين بساداتهم، الساعين فى إضرارهم، جزاء لارتكابهم النميمة فى حق مواليهم، حيث أن سعيهم من باب الخيانة وكفران النعم. ولما تمكن من الملك ومهد البلاد بواسطة طريانوس لم يعش بعد صفاء الوقت له إلا ثلاثة شهور، وكان موته سنة ٥٢٤ قبل الهجرة، بعد أن حكم سنتين، وتولى بعده شريكه طريانوس.

الفصل الرابع عشر

فى الملك أولبيوس طريانوس قيصر (١)

تولى إمبراطورا على الرومانيين سنة ٥٣٤ قبل الهجرة، وامتد حكمه إلى سنة ٥٠٥، فكانت مدة حكمه نحو تسع عشرة سنة، ولما كان هذا الأمير شريكا لنروا قيصر فى تدبير المملكة الرومانية، لم ينتطح عنزان فى استخلافه على الرومانيين عقب موت سلفه، وقد كان عند خلو سرير القيصرية غائبا فى الأقاليم الإفرنجية التى على نهر الرين، ولم يبادر بالحضور إلى رومة للقبض على زمام المملكة، ولكن لكونه له فى قلوب الجميع كمال الهيبة والوقار، شهيرا بعظم الصولة وعز الدولة، لم تقم فتنة فى غيبته، ولا حصل اختلاف فى توليته، لا سيما وأنه قد حصل على يديه قمع الفتنة الأخيرة فى أيام سلفه. وأصل مولده بمدينة مالقة، ببلاد الأندلس.

وقد اشتهر بأنه أعظم أمراء الدولة الرومانية معرفة وشجاعة، وكان يشهد بعلو درجته فى الفضائل العسكرية كافة الأهالى، فلما حضر إلى رومة عقدوا له موكبا لطيفا مجردا عن الأبهة والطنطنة، ودخل المدينة غير مختال ولا معجب بمسند السلطنة، بل ماشيا على الأقدام، بشوشا مع الخاص والعام، مقبلا على من أقبل للتهنية، باسطا يده لمن أراد تقبيلها، متشكرا لأرباب الأدعية والأثنية، ثم توجه إلى الحاضرين، وقال: أحب أن أصنع مع جميع الناس ما كنت أحب أن يصنعه معى

(١) حكم هذا القيصر - واسمه تراجان - من سنة ٩٨ حتى ١١٧م.

قيصر رومة لو بقيت فى أيامه معدودا من الآحاد، فما أحبه لنفسى أحبه لأهل وطنى وأبناء جنسى.

وقد اجتهد هذا القيصر ذو القلب السليم، بأن يعيد للدولة الرومانية فخارها القديم، ويخصها بالمزايا والحقوق، كما كانت تتمتع بذلك فى عهد الجمهورية الأولية على وجه موثوق، وقد رخص لمجلس الأحكام برومة التصرف بما تقتضيه المصلحة على أصول معلومة، وكذلك أباح للقضاة والحكام قوة نفوذهم فى إجراء الأحكام، وقد نهى عن أن يحكم القضاة على الغائب فى مواد الجنايات، لأن القضاء على الغائب، الذى لا يدافع عن نفسه، فصل نزاع بدون إثبات، وتعليقه من باب درء الحدود بالشبهات، فقد قال هذا القيصر: إن أصول الاحتياط ترجح جانب البراءة على جانب الجناية، فلا تحكم بالعقاب فى غياب المتهم، لأن الأصل عدم الجناية، يعنى أن الغائب المتهم، الذى يراد الحكم عليه بالجزاء، يحتمل كونه مذنبا كما يحتمل كونه بريئا، فينبغى أن يغلب جانب البراءة على جانب الجناية، لأنه إذا حكم عليه بالعقاب، وكان بريئا، فالحكم جناية من الحاكم يأثم به، وإذا سكت الحاكم عن الحكم بعقابه، وكان فى الحقيقة مذنبا، فلا لوم على الحاكم فى السكوت، لأنه ليس مكلفا بباطن الأمر.

وكان هذا القيصر يحسن التدبير والإدارة، ويتبصر فى عواقب الأمور، فلهذا خفف المكوس والعوائد، وتشبث بجلب ما يقتضى من الفوائد، فأنشأ القناطر والطرق العمومية، وجدد المينات البحرية، فمن ذلك ميناء انكونة على جون[1] البنادقة بإيطاليا لتكثير التجارات والمعاملات، وقد اجتهد فى تنجيز بناء هذه المينا فى سنة واحدة، فاعترف له مجلس أعيان الرومانيين ومجلس الأهالى بأنه يستحق التعظيم والتبجيل، فبنوا له هيكلا بهذه المدينة لتخليد ذكره وبقاء اسمه. وبنى برومة ملعبا لسباق الخيل، وجدد كتبخانة عظيمة، وأقام فى رومة العمود المشهور المسمى الطريانوس المتخذ من الرخام الأبيض، ورسم عليه الحروب التى وقعت من

(١) أى خليج.
(٢) أى سنة ١١٠م.

الرومانيين مع الأفلاق والبغدان، وجميع ما جرى من نصرة الرومانية عليهما فى ذلك الزمان، وكان لا يحضر مجلس هذا القيصر إلا مشاهير الرجال، وأكابر أهل الفضل والامتياز من الأبطال، ويحبهم من صميم قلبه، وكان لأهل الحكمة عنده منزلة عظيمة ومودة صميمة، فكان يعد من أكبر أحبابه الحكيم بلنياس الأصغر، وكان من مشاهير المؤلفين، فقد جمع مناقب هذا القيصر لتصير تذكرة للمتأخرين.

وكان قد غزا طريانوس بلاد الأفلاق والبغدان، وضم هذه البلاد للأقاليم الرومانية، فحصل له من ذلك كمال الشهرة، وبعد صيته فى سائر ممالك الدنيا، حتى إن ملوك الهند بعثوا له سفراء ليهنوه على انتصاره، ثم جعل بلنياس المذكور حاكما على هذه الأقاليم، ثم ظهر لهذا القيصر أن عرب الحجاز يريدون شن الإغارة على الأقاليم الرومانية المشرقية، لقصد السلب والنهب وسبى النساء، وأنهم قد تحركوا لهذه الجهات المشرقية المملوكة للرومانيين، فسار إلى آسيا لقتال العرب وإدخالهم تحت الطاعة، وكان ذلك فى نحو سنة ٥١٢ قبل الهجرة، فاجتهد العرب فى بذل ما عندهم من الشجاعة والبسالة لحماية أوطانهم، فانهزموا وأدخلهم طريانوس تحت الطاعة الرومانية، فصارت بلاد الحجاز إيالة من إيالات القياصرة، وسار بعد ذلك بسنة إلى بلاد فارس وغالبهم على ملكهم، وأخذ منهم أرمينية والجزيرة وبلاد الأكراد والعراق واليمن.

وبالجملة، فقد أجمعت القلوب على حب هذا القيصر حتى سمته رعيته أنطينوس، يعنى القيصر الكامل، ولم يقدح فيه المؤرخون إلا بكونه لم يخل من مثالب خصوصية وعيوب شخصية، كميله للشراب، وحبه للطعان والضراب، وبأنه أضر بالنصارى وآذاهم، وخذلهم وأخزاهم، وقتل شمعان بن كلاويا أسقف بيت المقدس وأغناطيوس بطرك أنطاكيا، ولقى النصارى فى أيامه شدة، وتتبع أحبارهم بالقتل واستعبد عامتهم، وفى عهده كتب يوحنا إنجيله فى بعض الجزائر فى السنة السادسة من ملكه، وكان قد رجع اليهود إلى بيت المقدس، وكثروا بها، وعزموا على الانتقاض عليه، فبعث عساكره لحربهم، حتى طالت الحرب بينه وبينهم، فخربوا كثيرا من المدن، ووصلوا إلى مصر والإسكندرية، ولا زالوا

يقاومون الحكومة المصرية ويحاربون من فيها من الجنود الرومانية ويغالبونهم حتى توصلوا أن أخرجوا من الإسكندرية لوبوس نائب مصر، فاضطر طريانوس قيصر إلى أن بعث إليهم بدله مرطيوس مع جنود عظيمة، واشتد الحرب بين الفريقين، لاستمرار الفتن والاختلالات الداخلية المترتبة على المنازعات الواقعة فى الإسكندرية بين اليونان واليهود، لما بين الطائفتين من العداوة التى لم تكن تنقطع أبدا، فلم ينته حرب مرطيوس نائب مصر إلا فى أيام أدريانوس قيصر.

وكان لطريانوس قيصر آثار عظيمة فى الديار المصرية، وقد جال هذا القيصر فى الفتوحات ببلاد الشرق، حتى دنا من البحر المحيط الهندى، وفى عوده من الشرق مات فى أثناء طريقه فى سنة ٥٠٥، بعد أن حكم تسع عشرة سنة، وخلفه ابن عمه أدريانوس، وقد أسف عليه جميع الرومانيين، وغيرهم من الأهالى الذين سخر بلادهم، كما حزنوا على طيطوس قبله، لما له من المآثر والمكارم.

الفصل الخامس عشر

فى الملك أدريانوس قيصر[1]

تولى هذا القيصر إمبراطورا على الرومانيين سنة ٥٠٥ قبل الهجرة وحكم إلى سنة ٤٨٤ فكانت مدة حكمه إحدى وعشرين سنة .

وذلك أن طريانوس لما لم يعقب ولدا ذكرا استخلف الجند ابن عمه أدريانوس قيصرا على الرومانيين، وكان رئيس جيش الشام، فلما بايعه الجنود على الإمبراطورية صدق على ذلك أرباب المجلس الرومانى، وكان أدريانوس متناقض الأحوال، متباين الخصال، متضاد الأفعال، فتارة يكون حليما وأخرى غضوبا، وطورا يميل إلى الفضائل وطورا آخر إلى الرذائل، فكان كأبى قلمون[2] يتلون بكل لون، ولم يجعل مطمح نظره كسلفه فى المفاخر الحربية، ولا فى الفضائل العسكرية، ولا فى الفتوحات الرومانية، بل كان يؤثر السلم والدعة، ويقتصر على محافظة الحدود والمدافعة، وفى غالب أيام ولايته كان جوالا فى بلاده، سياحا فى ممالكه، وكان يزيد فى العوائد والمكوس، ويضرب على الأشياء مغارم مؤقتة خارجة عن العوائد الأصلية، ولم يساوه أحد من سلفه فى الميل إلى تشييد العمارات العمومية، والمبانى الملوكية، وكان يحب المعارف والآداب، وله فيها

---

(١) هو القيصر هادريان، ولقد حكم من سنة ١١٧ حتى سنة ١٢٨م.

(٢) فى لسان العرب : أبو قلمون - بفتح القاف واللام - ثوب يتراءى إذا أشرقت عليه الشمس بألوان شتى . قال : ولا أدرى لم قيل له ذلك، قال : وقال لى قائل سكن مصر : أبو قلمون طائر من طير الماء يتراءى بألوان شتى، فشبه الثوب به .

مشاركة عظيمة، وكان يعيش فى قصره عيشة هنية، ويتشبث بأفعال شهوانية، حتى يقال إنه اعتراه بعض خفة وطيش، وتناقص عقله من التنعم بذلك العيش، ويدل على هذا أنه أشرك معه فى إدارة المملكة شخصا دنىء الهمة يسمى قومودوس ويروس، ولم يستحسن أحد منه عقد هذه الشركة، حتى شاع عند جميع أهالى رومة أن سبب تشريكه إياه فى المملكة أنه اخترع صنفا من الفطير لذيذ الطعم، يستطيبه الفم، وصنفا من الفراش يمتد على بساط الورد فى وسط الروائح المعطرة! فبلغ عنده مبلغ الإقبال، لاختراعه هذين الشيئين لا على مثال، وكان ويروس المذكور خنث الشمائل، تميل طباعه إلى تكسر النساء فى المحادثة والمسامرة، وقد اخترمته المنية قبيل أدريانوس قيصر بقليل من الزمان، فأشرك بعده فى إدارة المملكة طيطوس أنطونين، الذى صار فيما بعد قيصرا، ولولا موت قومودوس ويروس فى حياة القيصر لكانت مصيبة الرومانيين بتوليته عليهم بعده عظيمة.

وقد كانت ولاية أدريانوس قيصر على الرومانيين طيبة بالنسبة إلى الديار المصرية، فإن فى مدته كان يونان الإسكندرية خلفوا اليهود بتطبعهم بطباعهم فى فتنهم وتقلباتهم وعصيانهم على نوابهم، وحروبهم معهم، وسرت الفتنة منهم إلى كثير من المدن المصرية، وكان قيامهم على النواب قد ترتبت عليه محنة عظيمة، وفتنة جسيمة، بعد تسكين فتنة اليهود، فلم يخمدها إلا هذا القيصر، وسبب ذلك أنه ظهر بالديار المصرية عجل جديد على شكل العجل أبيس، معبود المصريين، وكان المصريون إذا مات عجلهم المخصوص الشكل ينتظرون ظهور مثاله انتظار الدروز للحاكم بأمر الله، معتقدين إنه ظهر بعد الغيبة، وأنه آب بمظهره القديم أعظم أوبة، وإنه مستوف العلامات والدلائل الأبيسية، وانه موصوف بالصفات الوثنية القدسية، فبمجرد أن ظهور عجل بهذه الصورة اتفقوا على التحقق من هويته وماهيته، وأرادوا أن يعجلوا بتخصيص المحل المستعد لرضاعه وتربيته، وكثر جدالهم واختلافهم فى التخصيص، ولم يقع وفاق على محل معهود من معاهد التنصيص، فقامت الحرب لذلك على ساق وقدم، وظهر ضرام الفتنة ولا ظهور نار على علم، واشتد الحال فى هذا الأمر لكونه عندهم من ذوات البال، فلما طرقت مسامع أدريانوس هذه الفتنة العظيمة، والمحنة الجسيمة، وكان فى المرور بإقليم

فرانسا، عجل بالذهاب بنفسه إلى الديار المصرية، لاقتضاء الأهمية أن يخمد بحضوره نيران هذه البلية البهيمية، فحضر وأطفأها، وأزال الجفوة من مصر بين اليونان والمصريين وصفاها، وعند دخوله مدينة فرما تبوأها، وأصلح مباني تربة[1] بومبيوس وزينها، فكان لسان حاله يقول عند هذه التربة للمقيم في هذه الغربة:

تقيم إلى أن يبعث خلقه لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلى في كل يوم وليلة وتبقى كما تبلى وأنت حبيب

ثم ساح في أرجاء مصر للتنزه والفرجة، وابتهج الأهالي بعبوره ومروره أعظم بهجة، فأرادوا تخليد تلك السياحة القيصرية، وتذكارها في سائر الأعصر للأهالي المصرية وغير المصرية، فضربوا سكة من الحديد مرسوما عليها تاريخ سفره المنيف، حيث عاد على مصر بالتكريم والتشريف، فصوروا على هذه النقود المشخصة النيشانية شخص مدينة الإسكندرية كأنها إنسان يستقبل هذا القيصر وهو قادم في سفينة، وصوروا القيصر يتلقى تشريفات هذه المدينة كأنه يمد يده للإسكندرية وتمد يدها إليه للمصافحة والتحية، واليدان في بعضهما مشتبكان، ويد القيصر ويد المدينة متماسكان، كما يتصافح الخلان ويتصادق الأخدان، وصوروا على النقود موكب القيصر وتقريبه للقربان، وكذلك رسموا على النقود من الجهة الأخرى مسير القيصر على النيل المبارك وهو في سفينة مقدمها على شكل قرن، والخصب واليمن، وضربوا أيضا لهذا الإمبراطور سكة أخرى عليها صورته وصورة زوجته سابينة، وعليها تاريخ ابتداء ولايته القيصرية. ويحكى أنه في أثناء سفره على النيل السعيد، إلى جهة الصعيد، فقد ولده أنطنيوس، وناح عليه نواح الخنساء على صخر، والثكلى على ولدها البر ولا عجب في الأسف والحزن على الأولاد، فإنهم فلذات الأكباد، كما قيل وهو جيد في المعنى:

على صفحتي خدي أجربت مقلتي بحيث ترى الأنهار من تحتها تجري
وخدي لسقم عاد صخرا وجندلا فمقلتي الخنساء تبكي على صخر

---

(١) قبر.

وقال آخر :

لئن أخليت منك اليوم أنسى ... فما أنا فيك من أسف خلى
عصانى الصبر بعدك وهو طوعى ... وطاوع بعدك الدمع العصى
وهل أبقت لى الأيام دمعا ... فيسعدنى به الجفن الشقى

وقد أعان هذا القيصر ديار مصر الكثيرة اللطائف على توسيع دائرة العلوم والمعارف، وأنشأ فيها بعضا من العمائر، لتكون على زيارته من أجل الأمائر، وقد كتب فى أثناء سياحته رسالة لبعض أحبابه المسمى سرويانوس، من كبار الرومانيين، تدل على فضل القيصر وعلى حالة مصر فى ذلك الوقت، ومضمون هذه الرسالة بالمعنى :

«قد استقصيت أحوال الديار المصرية، واستقربت عوائد هذه البلاد، وأطلعت عليها بالمطالعة الجلية، وكنت فى الأمر أخصها بالمدح، وأشرحها بالنسبة لما يتراءى بأجل شرح، وأتحاشى سلوك منهج اللوم والقدح، فاستبان لى بعد التأمل والنظر، أنها عبرة لمن اعتبر، فهى بلد طائشة متلونة، لا تدوم على حال واحدة بينة، كثيرة القيل والقال، لا ينقطع منها الشغب والجدال، لا سيما فى مادة الأديان، وعبادة الأوثان، أو الملك الديان. فإن من لم يعبد الشمس والعجل أبيس، يعد نصرانيا، مع أنه ليس له من الدين العيسوى أدنى مسيس، بل الذين يزعمون بمصر أنهم أساقفة على دين عيسى بن مريم، هم كغيرهم يحترمون الشمس والعجل المعظم، وخاخام اليهود كغيره يحترم العجل والشمس، وكل قسيس أو راهب أو عامى له فى الشمس والعجل احترام، فكأنهم جميعا يعبدون الأوثان والأصنام، ويغلب على الظن أن بطرك النصارى الخارج عن الديار المصرية لو دخلها لوافق أهلها على التمسك بهذه الاحترامات الدينية، بل ربما اعتقدوا أن الشمس والعجل وعيسى أسماء مترادفة، والألوهية فى الثلاثة واحدة موصوفة بأوصاف كاشفة، وهذه من العلوم المتعارفة.

وأهل مصر دون غيرهم يميلون إلى اختلاف الكلمة، ويسرعون إلى الملاعنة

والمشاتمة، وأما مدينة الإسكندرية، التى هى دار الحكومة المصرية، فهى بلدة مثرية غنية، كثيرة البركات والخير، بعيدة عن الضرر والضير، وليس أهلها أهل بطالة ولا كسل، وأغلبهم حاكة الكتان، لا يخرج عن الميل إلى الصناعة منهم إنسان، ولا يستثنى منهم فى ذلك العرج والعميان، ولا المصابين بداء النقرس وغيره من علل الأبدان، فلا يهملون الصناعة طرفة عين، ولا يضيع زمنهم سدى لاكتساب الورق[1] والعين[2]، كلهم يقرون بواحدنية المعبود، وسواء فى ذلك اليونان والنصارى واليهود، حتى عامة الناس ورعاعهم تميل إلى وحدانية المعبود أنفسهم وطباعهم، فلو كانت مدينة الإسكندرية رفيعة الدرجة فى التربية والتمدنية، زيادة مما عليه الآن، لكانت سيدة الأمصار والبلدان، ومع ذلك فهى بكثرة أهاليها، واتساع أراضيها ومبانيها، تستحق عنوانها، وصيتها. وشأنها بأنها تخت الديار المصرية ومركز العمارية، فلهذا الخصوص لم أمنعها شيئا من حقوقها، بل منحتها مزاياها القديمة وزيادة عليها لحسن تنظيمها وتنسيقها، لقصد أن ترضى عن هذه الحالة الراهنة، ولتكون على عوائدها ورسومها آمنة.

ولكن بمجرد ما خرجت منها، وتباعدت عنها، صار أهلها يستهزؤون بابنى ويروس، ولا يخفاك ما عسى يقولونه فى موت ابنى أنطنيوس، فأنا لا أتمنى لهم إلا التخمة بما عندهم من الدجاج، ليكسبهم كثرة الباة[*] الموجب لقوة التوليد، وهو داء قليل العلاج، والافصاح عن ذلك أزيد مما قلته يخل بالأدب والحيا، والتصريح به مما يخجل منه ويستحيى. والواصل لكم بعض كؤوس وأكواب مختلفة الألوان، معدة للشراب فقد أهداها إلى كهان الهياكل، فوهبتها لك ولأختى ليطوف بها السقاة فى المواسم والمحافل، تحلو بها المدامة بين الندمان، فى مجلس الأنس الجامع للإخوان والخلان، وإنما ينبغى أن يحترس صاحبنا أفريقانوس من أن يكثر من الشراب بها فيعربد، فلا يدعو هَنوّ نفسه ليستولى عليه ويستبعد النهى».

---

(١) الورق: الفضة.

(٢) العين: الذهب.

وعلى ما تقدم من ذكره التخمة بالدجاج، يحسن قول بعضهم، وقد أهدى إليه فطائر.

لا أبالى إن لم أفز بدجاج منكمو بل ائت لى بالفطائر[1]
كيف والتمس تشتهيا وعندى هى أكل معادل ألف طائر

وعلى ذكر العربدة يحسن قول ابن سهل الإسرائيلى الأشبيلى[2]:

فيا طيب عيش العشق لولا جنونه محا لذة النشوان سكر المعربد

وقد أثخن هذا القيصر فى اليهود، ثم بنى مدينة القدس وسماها إيلياء، وكان شديدا على النصارى، وقتل منهم خلقا، وأمر الناس بعبادة الأوثان، ويقال إنه ألزم أهل مصر حفر خليج من مجرى النيل إلى مجرى القلزم، أجرى فيه الحلو ثم ارتدم بعد ذلك، وجاء الفتح والدولة الإسلامية فألزمهم عمرو بن العاص بحفره، حتى جرى فيه الماء ثم انسد، ولما بنى هذا القيصر مدينة القدس رجع إليها اليهود فبلغه إنهم يريدون الانتقاض، وأنهم ملكوا عليهم زكريا من أبناء الملوك، فبعث إليهم العساكر، وتتبعهم بالقتل، وخرب المدينة حتى عادت صحراء، وأمر أن لا يسكنها يهودى، وأسكن اليونان بيت المقدس، وكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطس، وهو الجلوة الكبرى[3]، وامتلأ القدس من اليونان، وكانت النصارى يترددون إلى موضع القبر والصليب يصلون فيه، وكان اليهود يرمون عليه الزبل والكناسات، فمنعهم اليونان من الصلاة فيه، وبنوا هنالك هيكلا على اسم الزهرة، وفى السنة الخامسة من ملك هذا القيصر قدم نسطش بطركا على الإسكندرية، وكان حكيما فاضلا، فلبث إحدى عشرة سنة ثم مات، وقدم مكانه

(١) فى الأصل: بل أنت إلى الفطائر.. وهو غير مستقيم نظما ومعنى.
(٢) إبراهيم الأشبيلى (المتوفى سنة ١٢٦٠م) من شعراء الأندلس الغزليين، كان يهوديا ثم أسلم، وعمل كاتبا لوالى مدينة سبته.
(٣) أى الجلاء الكبير، ويسمى الشتات.

أمانيق فى السنة السادسة عشرة من ملك هذا القيصر، وهو سابع البطاركة، فلبث إحدى عشرة سنة.

وقد أسلفنا أن أدريانوس كان أشرك معه قبل موته بقليل فى إدارة المملكة طيطوس أنطينينوس، فلما مات هذا القيصر فى سنة ٤٨٤ قبل الهجرة، بعد أن حكم إحدى وعشرين سنة، تولى بدله شريكه المذكور، ألا إلى الله تصير الأمور.

الفصل السّادس عشر
فى الملك طيطوس أنطينينوس قيصر(١)

تولى هذا القيصر الإمبراطورية فى سنة ٤٨٤ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٤٦١، فكانت مدة حكمه ثلاثة وعشرين سنة، ويلقب بالرحوم.

وأصل العائلة الأنطونونية من أمة الغلية، أسلاف الفرنساوية، وأهالى مدينة نيمة، وكانت هذه العائلة مصاهرة لأعيان إيطاليا.

واشتهر طيطوس انطينينوس بكرم النفس وحسن التربية، وكان مستنير العقل، مطبوعا على مكارم الأخلاق، محافظا على جلب الراحة للبلاد والعباد، وتأمين الرعايا، والسعى فى تقديم التجارة والصناعة، ناجح المشروعات، وكان يدقق النظر فى حسن الإدارة، والاقتصاد فى مصارف المملكة، فلا يكاد يفتر طرفة عين على أن ينظر بغاية الدقة لكليات المصالح وجزئياتها، وكانت فى أيامه الأموال مدبرة موفرة على وجه لم يسبق مثله فى خزينة الرومانيين، فقد كان هذا الملك يسلك فى معيشة المملكة طريقة بسيطة بدون زخرفة ولا زينة، مع غاية الاقتصاد بدون إسراف ولا تبذير، فكانت خزينة المملكة فى أيامه دائما معمورة بالأموال، فلهذا قال، من أراد التلميح بتوسط معيشة هذا القيصر، ما معناه: «حسبه من الاقتصاد إنه لو أراد أن يتكفل بالإنفاق على جميع الرعية، وأن يقوم بمصارفهم على وجه السعة وبدون تقتير، لأمكنه ذلك، ولو حدثت له حوادث مهمة، ووقائع مدلهمة، على حين

(١) هو القيصر أنطونينوس بيوس، حكم من سنة ١٣٨ حتى سنة ١٦١م.

غفلة، لكان كفؤا لأن يزحزحها عنه بالمال»! ولهذا تمكن بجمع الأموال من إنشاء العمارات العميقة، ذات المنافع الجسيمة.

وبالجملة، فكانت أفعاله مؤسسة على حسن التدبير والحكمة، ولا يفعل إلا ما يوجب احترام ناموسه عند جميع الملوك والأهالى المجاورين لبلاده، فقد كان قيصرا وحكيما لم يكن فى وقته من ملوك الدنيا أحد بشهرته فى حسن التدبير والسياسة.

وبينما كان يحكم فى أوروبا وإفريقية وآسيا إذ ظهر فى بلاد الصين ملك شهير بالسياسة والحكمة يسمى هياكنغ تى، فهذا الملك اشتغل أيضا بتمدين رعاياه وتهذيب أخلاقهم وتلطيف أحوالهم، وقنن لهم قوانين مبنية على التوسط فى الحدود والعقوبات، وأبطل التعذيب للمذنبين وحكمهم كحكم الأب على أولاده، بمراعاة مصلحة أحوالهم، وتقدمت من عهده بلاد الصين، وسارت فى سيرة العدل والحرية.

وهذه البلاد الصينية واسعة الأقطار، معتدلة الأقاليم، طيبة الهواء، كثيرة الخير والبركة، لعظم أنهارها وأشجارها، وجبالها المعدنية المثرية بالمعادن المتطرقة وغيرها كالأحجار الكريمة، وبجبالها ظباء المسك، وبأشجارها صموغ الطلا التى لا توجد فى غيرها، وبها شجر الكافور، ويرتفع جدا ويحصل منه محصولات عظيمة، وكذلك عود الصبر، وهو يختلف عن الصبر الهندى، فثمره على شكل الزيتون، وداخله ثلاث أصناف من الحبوب، الصنف الأول: يسمى حب العقاب، وهو مرغوب جدا، والصنف الثانى: يسمى حب القلنبوق، وهو خفيف الزنة، والصنف الثالث: يسمى القلنبا، وهو يوجد فى وسط الثمر، ويباع بزنة الذهب، وله رائحة عظيمة، وهو نافع جدا للمهزولين والمفلوجين. وتكثر عندهم الحشائش ذوات الروائح الذكية، وعندهم علم الفلاحة متقدم جدا، فيحرث الملك بنفسه كل سنة أخدودا من الأرض لتشريف الزراعة، ويرفع درجات المزارعين إلى مرتبة الإمارة، وعند الصينيين تقدم قديم كاختراع صناعة الورق والطبع والرقوم وغير ذلك، ومع أن حكومتهم مطلقة التصرف إلا أن التسوية والعدالة موجودة عندهم.

ثم إنه كان ظهر ملك الصين الحكيم السالف الذكر، فى أيام أنطينينوس، كذلك

ظهر فى أيامه بمصر بطليموس المنجم، صاحب الفلك، وبعضهم يجعل ظهوره فى أيام البطالسة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند ذكرهم.

وكانت أيام حكمه هينة لينة، مؤسسة على العدل والإنصاف، مجردة عن الجور والاعناف، لا سيما فى إدارة مصر، فإنه قد نالها عدله وإحسانه وفضله وامتنانه، فقد كثر فيها فى أيام حكمه العمارات الأهلية، والمبانى الدينية، وإنما كان يونان الإسكندرية يتجاوزون الحدود فى إثارة الفتن والعصيان على الدولة والكلام فيما لا يعنى، فلم يتمتعوا بالسعادة العمومية، ولا اغتنموا مذاق لذاتها الهنية، فلهذا تواتر بهذه المدينة الاختلالات الدائمة حتى قتل يونانها نائب القصر على مصر، فحضر هذا القيصر بنفسه إلى الديار المصرية فى جيش جرار، ودخل الإسكندرية منصورا مؤيدا، فقمع العصاة وأعاد الهدوء والسكون.

وفى السنة الخامسة من حكم هذا القيصر تولى مرتيانو بطركا بالإسكندرية، وهو ثامن البطاركة، فلبث تسع سنين ومات، وكان فاضل السيرة، وولى بعده كلوتيانو فلبث أربع عشرة سنة ومات فى أثناء حكم مرقورياس، الآتى ذكره.

وقد كان موت طيطوس أنطينينوس سنة ٤٦١ قبل الهجرة، بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة، وتأسف على موته جميع الإيالات والأقاليم الرومانية، لما له من المآثر الجميلة والآثار الجليلة، لا سيما بمدينة نيمة بفرانسا، التى هى مسقط رأسه، فقد ترك بها آثارا جميلة من مصنوعاته، وتولى بعده صهره مرقوريلس.

الفصل السابع عشر
فى الملك مرقوريلس قيصر[1]

تولى هذا القيصر إمبراطورية الرومانيين سنة ٤٦١ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٤٤١ فكانت مدة حكمه نحو تسع عشرة سنة، وكان هذا القيصر صهر طيطوس أنطينينوس، فلهذا سمى أيضا أنطينينوس الأصغر، وكان متمسكا بمذهب زينون الحكيم[2]، أحد الفلاسفة المتقشفين، فكان من شبيبته زاهدا فى الدنيا، ورعا متقشفا ينام على الفرش اليابسة، ويعود بدنه على حركة الرياضة الشاقة، كما يروض عقله على النظر فى التأمل، والنظر فى دقائق الأمور، والتفكر فى المصنوعات وأحوال الكائنات، فقد استقل بالآداب والعلوم الحكمية، واتسعت دائرة عمله فيها، واشتهر بالمعارف شهرة عظيمة، فعند تمام دراسته وتمكنه من العلوم دعى لولاية الإمبراطورية الرومانية، وبنى على ما أسسه من كان قبله، من القياصرة الثلاثة، من حسن السياسة والتدبير، فتمم ما كانوا شرعوا فيه من المقاصد الخيرية، واجتهد زيادة عنهم فى اتباع القوانين والتمسك بالأصول وعدم تعدى الحدود، وشدد فى إجرائها، وأكد على العمل بموجبها حرفا بحرف، ثم إن هذا

---

(١) هو القيصر ماركوس أوريليوس، حكم من سنة ١٦١ حتى سنة ١٨٠م.

(٢) هو زينون الرواقى (٣٣٦ - ٢٦٤ق. م) وإليه تنتهى نشأة الرواقية، كمذهب فلسفى، وسميت كذلك نسبة للرواق الذى اتخذه مركزا لبث فكره. وهناك فيلسوف يونانى آخر يحمل نفس الاسم هو زينون الإيلى (٤٩٠ - ٤٣٠ق. م) ولكن الذى اشتهر بالتقشف هو زينون الرواقى. انظر: (قصة الفلسفة اليونانية) لأحمد أمين، وزكى نجيب محمود ص ٢٨٠.

القيصر من فرط حرصه وبدو فكره أشرك معه فى إدارة المملكة الرومانية لوقيوس ويروس بن ويروس السابق، شريك أدريانوس، وسيأتى ذكر ما تسبب عن هذا الاشتراك.

وكانت أيام مرقوريلس وأحكامه حسنة فى الجملة، ولولا ما حصل فى المملكة الرومانية فى أيامه من المصائب والمصاعب، التى بمحض القضاء والقدر، لعدت أيامه سعيدة بحسن إدارته الحميدة، إلا أنه قد تصادف فى عهده وقوع وباء عظيم هلك به ما لا يحصى من الأهالى، وفاض أيضا نهر رومة فأزعج الأقاليم الوسطى بإيطاليا، وقحط الناس سنتين، واستسقى لهم النصارى فأمطروا، وارتفع الوباء والقحط بعد أن كان اشتد على النصارى وقتل منهم خلقا، وهى الشدة الرابعة من بعد نيرون، كما سيأتى ذلك فى أثناء هذا الفصل، مع ما يضاف إلى هذه الوقائع من حصول زلزلة عظيمة فى أيامه أزعجت كافة العالم.

ولا مانع من أن تكون السقيا حصلت ببركة دعاء أحبار عيسى، عليه السلام، لأن هذا وقع فى أيام أن كانت شريعته مطهرة باقية الحكم غير منسوخة، ومنه يفهم أن الاستسقاء قديم. ومن غريب ما وقع فى الاستسقاء ما يحكى عن محمد بن مسلم[1] أنه انتدب إلى صلاة الاستسقاء والخطبة فى بعض السنين، فصلى وخطب يومين فحصر عن القراءة فيهما، إلا أنه استسقى فى خطبة ثانى يوم بإنشاد بيت أبى طالب فى مدح النبى، صلى الله عليه وسلم:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وبآل البيت، رضى الله عنهم، فما كان آخر النهار إلا وسقى المسلمون بمنه تعالى، فنظم بعض الحاضرين هذه الواقعة وأنشدها:

خطيب لنا استسقى بذكر جماعة هموآل بيت المصطفى العظيمة

(١) بتشديد اللام المفتوحة، المغربى، التونسى، الحصينى، نسبة إلى بنى حصين، طائفة من عرب المغرب. (الطهطاوى).

وأبدى لعم المصطفى بيته الذى قد استنشقت[1] من مسكه الشعراء

فسحت[2] علينا السحب من فيض ربنا وتوبع فى أثناء ذاك ثناء

فيالك من بيت كريم مشرف به طفقت تستمطر الضعفاء

وكان وقوع هذا فى حلب الشهباء الذى كان هذا الشيخ التونسى مقيما بها، وله الكلمة النافذة على المغاربة القاطنين فيها.

وفى هذا الزمن بعينه، يعنى زمن مرقوريلس، أغار العجم على البلاد الرومانية المشرقية، كما أغار الجرمانيون أيضا، الذين هم بسواحل طونة، على البلاد الرومانية المغربية، فكل من العجم والجرمانيين أزعج الرومانيين بهجومه، فكان يخشى على المملكة من التمزيق والتفريق، وكانت مدينة رومة فى أثناء هذه الأخطار محكومة بحاكمين مختلفى الأمر والنهى فى سائر المدن والأمصار، وذلك أن القيصر مرقوريلس كان من فرط حرصه وقلة حزمه أشرك معه فى القيصرية لوقيوس ويروس بن ويروس السابق، الذى كان مشاركا فى أول الأمر لأدريانوس قيصر..

ومن يشابه أبه فما ظلم

فكان فى هذا الولد خسة أبيه ودناءته، قضى عمره فى الحانات ومحال اللهو واللعب، لا يكاد يخلو من السكر والعربدة ومجالسة أمثاله، فلما هجم العجم على أقاليم الرومانية فوض إليه الإمبراطور أمر إبعادهم وطردهم، وأناط به مدافعتهم، فأخذ قائدا تحت يده من الرومانيين، يسمى أويديوس قسيوس، وكان هذا القائد شجاعا مجربا، فاعتمد عليه، وهو الذى حارب الأعداء وطردهم وحاز فخار النصرة فى هذه الغزوة، دون لوقيوس ويروس المقلد برياسة عموم الجيش، فلم يسر مع وكيل الجيش، ولم يقتحم الحرب والقتال، بل أقام وقت المعمعة مع أرباب الهزؤ والسخرية، فلم يحضر مضمار الحرب، ولم يشاهد فى الواقعة الطعن والضرب.

---

(١) فى الأصل: استشقت.

(٢) فى الأصل: فسبحت.

وقد كان أويديوس قسيوس أميرا ماهرا اشتد على جنوده تشديدا لا مزيد عليه، متمسكا بأصول الضبط والربط والتربية العسكرية، وكان جنود المشرق المقيمين من طرف الرومانيين فى أقاليمهم قد ألفوا العوائد المشرقية، من فتور الهمة والتكاسل والتساهل، فكان توجيه هذا القائد إليهم قد صادف محلا، حيث ضبطهم بأصول التربية العسكرية وشدد عليهم فى اتباع منطوق القوانين الحربية، وكان يعاقب من خالفها حالا بأشد عقاب، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فى سجل كتاب، وجازى جانبها بقدر درجة الارتكاب.

ومن وقائع هذا الأمير أنه لما علم أن فرقة من الجيش هجمت من تلقاء نفسها علي جيش العدو، على حين غفلة، فهزمت ثلاثة آلاف نفس وبددت شملهم، وكان ذلك بدون إذن أمراء الجيش العظام، أمر هذا القائد بقتل ضباط تلك الفرقة، حيث خالفت الأصول، وسلكت بعدم الإذن سبيل الافتيات والفضول، ولم يلتفت إلى انتصارها على الأعداء والأخصام، لجواز عدم النصرة واختلال النظام، وعد النصرة من قبيل رمية من غير رام، فقام عليه الهياج فى المعسكر من كل قبيل، وخاض الجميع فى عرضه ووقع فى حقه القال والقيل، فلما بلغه ذلك حضر بين الجند بدون رعب ولا انزعاج، وكشف عن صدره بدون خفقان قلب ولا ارتجاج، وقال لهم: اطعنوا هذا القلب الأبيض وارتكبوا أعظم خطية، وأضيفوا ذلك إلى جنية عدم الإطاعة العسكرية، التى هى أعظم جنية، فأحجموا عن قتله بعد الإقدام والتصميم، وبهذا سكنت الفتنة ورضوا عن هذا الهمام المقدام، واعترفوا بذنبهم الذميم، وعادوا لأشغالهم الحربية، وعلموا أن فعلته التى فعلها إنما هى لمجرد التربية، فلهذا انتصر بهم الأمير على العجم أعظم نصرة، فلم يكن لأعدائه على مقاومته من القدرة مثقال ذرة، وانتهى بهم الأمر أن طلبوا منه الصلح والأمان، وكان ذلك فى سنة ٤٥٨ قبل هجرة[١] سيد ولد عدنان.

وكما كان القيصر لفيوس ويروس[٢] منوطا بحماية البلاد المشرقية، كان شريكه

(١) أى سنة ١٦٤م.

(٢) هو لوسيوس فيروس، شارك ماركوس أوريليوس فى الحكم من سنة ١٦١ حتى سنة١٦٩م.

مرقوريلس قيصر منوطا أيضا بالسفر لحماية البلاد المغربية، والذب عنها من إغارة القبائل الشمالية، فوصل إليهم فى وقت الحاجة إلى وصوله، ليتمكن من بلوغ مقصده وصوله، وذلك أن قبيلة المرقومان، التى هى إحدى القبائل المتبربرة، كانت اجتازت جبال ألبة، كأنها حمر مستنفرة، وكان يخشى على إيطاليا من هجومها، فسار إليها هذا القيصر وطردها قبل تحقق قدومها، وبعد ذلك بثلاث سنوات انضمت أمة الجرمان إلى قبائل متوحشة أشبه بقبائل البدوان، وهم قبائل الأندلسيين والسريوه واللآنوقصدت إيطاليا لتدمير الجيوش الرومانية والتغلب على البلاد الإيطاليانية، فجمع الإمبراطور مرقوريلس جميع الأرقاء والمصارعين واللاعبين وأمثالهم ممن صنعتهم الدوارة والبطالة ونظمهم فى سلك العسكرية خير لهم من الدعة والكسالة، ولأجل الإنفاق على هؤلاء الجنود المجندة باع الأمتعة الملوكية النفيسة المتعددة، وسار إلى الأعداء بجيش جرار لا يلحقه فى مضمار الفخار غبار، وهو لا يشك فى النصرة على هؤلاء القبائل الفجار. ولكن قد تجاسر هؤلاء القبائل الأجانب وحاصروا جيش القيصر وأحدقوا به من كل جانب، وقطعوا عنه الإمداد والميرة العدة والذخيرة، فظمئ الجيش ظمأ عظيما، وكادت الجنود أن تهلك عطشا وحرا، وأشرفوا على أن يهلكهم العدو ويبدد شملهم، وأيسوا من العود إلى رومة، وفقدوا قوتهم وحولهم، ولولا أن أغاثهم المولى سبحانه و تعالى بنزول الأمطار وانهمال الغيث وارتووا من الصدى لكانوا ذهبوا بجملتهم إلى حيث![1]، فبانهطال المطر المدرار ترعرعت أبدانهم، ونجوا من الضرر والضرار، وانتصروا غاية الانتصار، وكان النصارى قد استسقوا لهم بصفة فنية وإخلاص، فاعتقدوا أن صدور السقيا من القسوس هى سبب ا لخلاص، حتى إن القيصر صدق على ذلك واعتقده، وادعى أن هذا من كرامات الديانة المسيحية المعتقدة، وكانت قبل ذلك عنده منتقدة، فكتب إلى مجلس رومة يوصى على الملة العيسوية، وأن لا يصير لهم من الآن فصاعدا شيء من التعدى كالمدة الأولية، بل ندم القيصر على ما سلف منه من التطاول عليهم فى مبادئ أمره، واعترف أنه من محض ظلمه وغدره، وأباح

---

(١) هنا محذوف لم يذكره المؤلف، على عادة العرب، وهو معروف فى المثل العربى إذ يقولون «إلى حيث ألقت أم عمرو حذاءها؟!».

دخول الدين العيسوى فى جنوده، فكثر العيسويون فى معسكره، فكف المجلس عن النصارى كف التعدى برهة من الزمان، ثم تعرض الحكام لهم فى الإيالات الرومانية فى غيبة القيصر، وامتدت إليهم يد العدوان، لا سيما فى إقليم الغلبة، التى هى الآن دار الفرانساوية، وكان النصارى قد كثروا فيها كثرة بليغة، فأضعفوا قوة ظهورهم، ومنعوا إيناع زهورهم.

وقد يوجد على المبانى المصرية مرسوما اسم كل من القيصرين، وهما مرقوريلس قيصر، ولوقيوس ويروس شريكه فى القيصرية، وفى مدة قيصريتهما ظهر فى مصر عدة من الأحزاب اشهروا السلاح تحت راية رئيس خارجى جسور يسمى أزيدور، أغراه على الخروج قسيس مصرى مثير للفتن والشرور، فقاتل أزيدور عساكر الرومانيين فى جميع الجهات المصرية، وهجم على مدينة الإسكندرية، التى فيها ديوان الحكومة الرومانية، فاجتهد الأمير أوديوس قسيوس نائب ويروس قيصر على مصر وغلب هؤلاء الأحزاب، وبدد شملهم وأذاقهم كأس العذاب، فأغتر بهذه النصرة واستضعف الإمبراطور مرقوريلس، وظن أنه لكبر سنه قصير العمر، فسعى فى طلب الإمبراطورية لنفسه، فبايعه عليها الجنود المصرية، ويقال إن الإمبراطورة زوجة مرقوريلس هى التى أعانته على خلع زوجها لغرض من الأغراض، وكان لهذا النائب ولد يسمى مطيانوس، وكان نائبا على الإسكندرية، فبعد المبايعة لأبيه تعصب عليه الجنود وقتلوه مع ولده، ولم تنفع ولايته بشىء، بل بقى منصب القيصرية لصاحبه الأصيل، ودخل المتعدى فى خبر كان ولم يظفر بقطمير ولا فتيل.

وكان مرقوريلس كريم النفس، رفيع الهمة، كامل المعانى، يعفو عن المذنب ويصفح عن الجانى، ومع ذلك فلم يعف عن خصميه، بعد أن صارا فى قبضة يديه، وإنما عفا عن أحزابهما، وصفح عن أحبابهما، ولما حضرت إليه السندات الدالة على صورة الفتنة، المتضمنة للمراسلات والمخاطبات الواقعة بينهما وبين رؤساء الفتنة فى النواحى والجهات، لم يرض بقراءتها، والاطلاع على مضمون حقيقتها، بل مزق الأوراق، واكتفى بالعفو ونفى رؤساء الفتنة إلى الآفاق، ثم لما

وصل هذا القيصر إلى الإسكندرية استجلب قلوب الأهالى واستمال نفوس الرعية، وعامل الجميع بحلمه وكرمه، فارتكز فى قلوبهم أمر مجده وعظمه، وكانت أيامه، كأيام بقية الأنطونونية، أزمان صلح وسعادة على الأمة المصرية، وإنما لم يحسن المصريون اغتنام فرصة الهنا، ولا التمتع بالإسعاد والغنى، فقد حرمت مصر بسبب عصيانها من نيل المنى، ولو سلكت مسلك الطاعة والانقياد، لحصلت فى أيام هذه الدولة الرومانية من المعاملة على طبق المراد، وقد سبق أن مرقوريلس قيصر كان منوطا بغزاء[1] الأمة الشمالية، وقد غزاهم غزوتين انتصر فى كلتيهما، ومات فى الغزوة الثالثة بالوباء، وكان ذلك فى سنة ٤٤٢ قبل الهجرة، وخلفه ابنه قومودس.

---

(١) أى غـــزو.

الفصل الثامن عشر
فى الملك قومودس قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية فى سنة ٤٤٢ وحكم إلى سنة ٤٢٩، فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة، وكان لا يؤمل من ظاهر حال هذا القيصر فعل شيء من الحسنات، ولا يرجى خيره لما ظهر منه فى أيام صباه من السيئات، فكيف وقد كان له حمامى معتاد على تنظيف بدنه، وإزالة ما على جسمه من أوساخه ودرنه، فجهز له الحمام حسب العادة، فوجد هذا الأمير الماء بالغا فى الحرارة حد الزيادة، فأمر بقذف الحمامى فى المستوقد، وشواه على جمر لظاه وقد توقد، فهل يوجد من الجبروت أعظم من التعذيب بالنار، والغدر بخادم متقرب ليس له ناصر سوى الملك القمار؟ فبهذه الفعلة الرديئة لم يتوسم فيه أحد عدلا ولا حلما، بل مما يضم إلى ذلك ويوقع فى الأذهان اليأس من صلاحه وفلاحه، أن أباه لما مات فى ويانة، مدينة النيمسا، وهو معه، ظن الناس أنه قتله بالسم، فأوقع فى نفوس الجميع إنه منطبع على العقوق، مضيع للحقوق، فمثله قل أن يحسن السياسة بالعدل والإحسان، فما خاب فيه ظن إنسان، فبمجرد ما بويع له بالقيصرية فى تلك البلاد التى كانت جنود الرومان تحارب فيها القبائل المتبربرة الخشنية، وكان الحال مقتضيا لمكثه لتتميم هزيمتهم ودفع خصومتهم، وكان أبوه قد بنى بتلك الجهات قلاعا واستحكامات، وأعدها للمحافظة من المهاجمات، فترك قومودس قيصر تلك القلاع، وانسل من

---

(١) هو القيصر كمودوس، شارك أباه الحكم من سنة ١٧٧م، ثم انفرد به من سنة ١٨٠ حتى سنة ١٩٢م.

تلك البقاع، وعاد إلى رومة معجبا بنفسه النفيسة، يختال بالتيه والخفر، وبيده مرآة ينظر فيها إلى حسنه وجماله، وقوام قده واعتداله، فدخل المدينة على هذه الحالة بموكب عسكرى عليه صورة الجمالة والجلالة، والقيصر فى وسطه كأنه المؤيد المنصور، وكل مشاهد شاهد عليه بالقصور، وضياع تلك الأبراج والقصور.

ولم تتمتع مدينة رومة بأفراحه ومسراته إلا مدة قصيرة، وكانت أغلب أعوامه مغمة، وشرار نيرانها مستطيرة، وذلك لأن هذا القيصر كان عظيم القامة، جليل الهامة، فيه قوة بهلوانية، وخفة المصارعين البدنية، فبان منه الاستعداد إلى هذه الصنائع الدنية، والميل إلى مغالبة القوى الحيوانية، وإلى منازلة الرجال الغلاظ الشداد، ومبارزة الأقران والأنداد، فلا يميل غصن بدنه الرطيب إلا فى ميدان المواثبة فى التحطيب، فقد حارب فيلا شديد العنفوان فى حالة الافتراس، وضربه ضربة واحدة فألقاه على الأرض عديم الحواس، كما يحكى نظير ذلك فى أسد غلبة الخليفة المعتصم[1] من بنى العباس، وقتل ذلك القيصر فى يوم واحد خمسة حيوانات من الأفراس البحرية، هجم عليها دفعة واحدة فأعدمها الحسية، وفى هذا اليوم بعينه طعن مائة أسد بمائة سهم فوّقها، فقتل تلك الأسود وبالسهام مزقها، فبوصوله إلى هذه المغالبات الوحشية إزداد كبرا وعتوا، وانتظم فى سلك الجبابرة والعمالقة وقوم عاد، وسمى نفسه هرقول الرومانيين تشبها بهرقول اليونان الذى يحكى عنه العجائب والغرائب فى قتل الغيلان، وتنظيف البقاع من الآساد، ولذلك يوجد معنونا فى بعض التواريخ بعنوان هرقليانوس، وشتان بين هذا القيصر وبين ملك شاه[2] السلجوقى، سلطان خراسان، فإنه كان مولعا بالصيد، ويقال إنه ضبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف، فتصدق بعشرة آلاف دينار، وقال: إنى خائف من الله تعالى من إزهاق الأرواح! وكان بعد ذلك كلما قتل صيدا تصدق

---

(١) المعتصم بالله (٧٩٥ - ٨٤١م) ولى الخلافة بعد أخيه المأمون سنة ٨٣٣م، وهو الذى أنشأ مدينة سامرا سنة ٨٣٧م.

(٢) هو جلال الدين ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢م) أبرز سلاطين الدولة السلجوقية. وهو الذى استقدم عمر الخيام إلى مرصد بناه، واستعان به فى إصلاح تقويم السنة الفارسية. انظر: تاريخ العرب (المطول) لفيليب حتى، وآخرين. ص ٤٦٠، ٤٦١، ٥٧٢ طبعة بيروت سنة ١٩٥٣م.

بدينار، وصاد مرة وحشا كثيرا، فبنى منارة من قرون الظباء وحوافر الحمر الوحشية! قال ابن خلكان: «والمنارة باقية إلى الآن، تعرف بمنارة القرون». فانظر إلى مكارم الأخلاق الإسلامية الصادرة من السلطان، وإلى عظائم الآثام الرومانية الصادرة عن القيصر.

وبالجملة والتفصيل، فكان لا يهتم هذا القيصر بمصالح الدولة إلا أقل من القليل، بل جميع أوقاته تمضى فى مجامع المصارعة والمحاطبة والمسابقة والمغالبة، وكان لا يأنس إلا بمجالسة هؤلاء المحترفين بهذه الحرفة، ويظهر معهم بمظهرهم فى المحافل العمومية بدون احتشام ولا كلفة، ويشاركهم فى النزال والبراز(*)، ويترقب فى حومة الميدان شهادة الأهالى له بالفوقان والامتياز، فكان يحب السبق على هؤلاء الإخوان، حتى كان يتطلب هذه الشهادة من الحاضرين بالإلحاح، وفى الحقيقة كان له مزيد الفوقان والنجاح، فقد انتصر فى ميدان المصارعة على ألف مصارع، وافتخر بهذه النصرة حيث ظهر أنه أول مصارع بارع، ويدل على ذلك إنه كان بروما تمثال الشمس على صورة مجسمة، فرفع هذا القيصر رأس هذا التمثال، ووضع صورة شخصه محل رأس صنم الشمس الرفيعة المنال، وكتب فى أسفل التمثال ما نصه: «قد انتصر قومودس على ألف مصارع». ليخلد ذكر مهارته فى المصارعة لتبقى من أعظم الحوادث والوقائع، ولم يعتكف أحد على هذه المثالب اعتكافه، ولا ساواه بشر فى سلوك سبيل هذه المعرة والكثافة، فإنه كان دائما حليف اللاعبين، رفيق المسابقين، فإذا خلا بنفسه فى قصره سفك دماء الناس، وأجرى فيه بحور الدماء بلا مقياس، وكان مغرى بسلب الأموال والأرواح، مغرما بأطماع نفسه واتباع هواها فى المباح وغير المباح، وأين منه السفاح[1] ونظائر السفاح، وبون بعيد بينه وبين السلطان إسماعيل السامانى[2]، أحد ملوك السامانية، بما وراء النهر

(*) أى المبارزة. (الشروق)

(١) أبو العباس (٧٥٠-٧٥٤م) أول خلفاء الدولة العباسية، وهو ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس.

(٢) هو إسماعيل بن أحمد (٨٩٢-٩٠٧م) حكم الدولة السامانية بعد أخيه نصر (٨٧٤-٨٩٢م) الذى أسسها، ولقد انتزع إسماعيل مدينة خراسان من يد الدولة الصفارية سنة ٩٠٣م، ويعد الموطد الحقيقى للدولة السامانية.

وخراسان، على ما يحكى عنه إنه كان يأمر مناديا ينادى فى كل وقت ليصل من كانت له ظلامة. ويرفع الحجاب، ويبعد البواب، ويقف مع المظلوم فى جانب السباط، ويقضى بين الخصوم ويسمع الدعاوى كبعض الحكام، ثم يعود إلى موضعه ويقبض على لحيته ويرفع وجهه نحو السماء ويقول: «اللهم إن هذا جهدى، وقد بذلته، وأنت عالم الأسرار، تعلم نيتى ولا أعلم على أى عبد من عبيدك حفت، فاغفر لى ذنوبى». فلما كان صادق النية، جميل الطوية، لا جرم قوى أمره، وارتفع قدره، وبقيت المملكة السامانية مدة طويلة، هكذا تكون الملوك أرباب العدل والإنصاف، المنزهين عن الجور والاعتساف، لا كمثل هذا القيصر الطاغية، الملازم فى جميع أطواره وأحواله للأحكام الباغية، إذ كان يأمر بالقتل بأدنى سبب، حتى فقدت الأمنية فى زمانه فى رومة وفى الطرق السلطانية، وكان يسلى نفسه ويروحها ويماسيها ويراوحها بتعذيب من يريد قتله، فيخترع كل يوم عذابا جديدا، وهكذا من أعمى الله بصيرته وأضله، والبغى مرتعه وخيم، يمهله ولا يهمله العزيز الحكيم، وإذا أراد الله بحاكم خيرا ألهمه بالوعظ استدرك ما وقع فيه لطفا منه سبحانه وتعالى، وأطلعه على باطنه وخافيه، كما يحكى عن أبى جعفر المنصور إنه كان جالسا بفناء قصره إذ جاء سهم فوقع بين يديه، فذعر منه، ثم أخذه فإذا عليه مكتوب:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت — ولم تخف سوء ما يجرى به القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها — وعند صفو الليالى يحدث الكدر

وعلى جانبه الآخر مكتوب: همذان، وكان الأعمش[1] حاضرا عند المنصور فسأله عن ذلك فقال: لعل فى السجن رجلا من همذان، فأمر أن يبحث عن ذلك، فوصلوا إلى السجن فوجدوا رجلا يتلو القرآن ويردد قوله تعالى: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ (الشعراء: ٢٢٧) فقالوا له: من أين أنت؟ قال: من همذان، ففكوا عنه القيد وحملوه إلى المنصور، فلما دخل عليه قال: ما قصتك؟

(١) الأعمش، سليمان بن مهران (٦٨١ - ٧٦٥م) نشأ بالكوفة، وكان من علماء القرآن بها، ولقد روى نحوا من ألف وثلثمائة حديث. وهو من طبقة العلماء التابعين.

قال: وصل واليك إلى بلدنا، ولى ضيعة تغلُّ ألف درهم، فأراد أخذها منى، فامتنعت عليه، فكبلنى بالحديد، وكتب بأنى عاص، فطرحت فى السجن! فقال المنصور: منذ كم؟ فقال: منذ سنتين، فأمر بإطلاقه، والإحسان إليه، وخلع عليه خلعة كاملة، وقال له: يا شيخ، قد رددنا عليك ضيعتك، ووضعنا عنك خراجها ما عشت وعشنا، ووليانك بلدك، وحكمناك فى الوالى تفعل به ما شئت، فقال: أما الضيعة فقد قبلتها، وأما الولاية فلا أصلح لها، وأما الوالى فقد عفوت عنه! فأمر له المنصور بصلة، وانصرف إلى بلده مكرما.

وأما قومودس قيصر فلم يلهم ولم يستدرك الوقوع فى المأثم، بل استدرج من حيث لا يعلم، فإن تكن قضية وقوع السهم بين يدى المنصور - كما هو الظاهر - وضعية، فقضية العلم بحبس الهمذانى هى قضية طبيعية، كما أن قضايا قومودس كلها واقعية، فلهذا قام عليه الرومانيون، وعصاه من الجنود الجميع، وسقوه السم النقيع، بواسطة معشوقته مرقيا، ولكن قوته الطبيعية، وبنيته الحيوانية، غلبت على السم القاتل، فلم ينفع فيه وحده، بل مع ما يضاف إليه من طعنه فى المقاتل، أو موته بخنق وشنق، فقام عليه أحد المصارعين، وهو المسمى نرجس، من أهل الفتوة، وكان أشد منه عزما وقوة، فطرح نفسه عليه، وضمه بين ذراعيه وقدميه، وتصارع الجسمان بجميع أعضاء الأبدان، فغلب المصارع قيصره وصرعه، وخنقه وتمم مصرعه، وأسكنه دارا غير هذه الدار، ومأواه جهنم وبئس القرار، فبموته انقطعت عائلة الأنطونونية، وكان ذلك فى سنة ٤٢٩ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وخلفه برطيناش قيصر، كما سيأتى.

* * *

ولم تكن مصر فى أيام الأنطونونية الرومانية فى حالة صلح ولا سعادة، ولا كانوا يستجلبون الحكم بالعدل والإحسان والشفقة واللين، ولا عرفوا كيف يذاق لمدة عدل الأنطونية بالديار المصرية، فإن مصر حرمت ذلك بما كسبت يداها من إثارة الفتن، فأيام قومودس لم تفدها أدنى راحة ولا سعادة، لتشبثها بالخروج والعصيان على دولة الرومان، وكان فى مدة حكم الأنطونونية يأخذ دين النصرانية فى الانتشار

والاتساع، فى سائر الاقطار والبقاع، وكان يبيح قياصرتهم التمسك به بدون تهديد ولا تشديد، ويباح إجراء عباداته بدون تخويف ولا تنكيد، وإنما كان دين المصريين القديم لم يزل متمسكا به فى الحكومة المصرية، وهو الكثير والغالب، فكانت عبادة الشمس والقمر جارية فى مصر يتبعها اليونان والروم والغرباء المتوطنون، ومن أراد الدخول فى النصرانية فى تلك الأوقات أبيح له ذلك، وإن كان الدخول فيها يعد عند عامة الناس من الموبقات.

الفصل التاسع عشر
فى الملك برطيناش قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٤٢٩ قبل الهجرة، وحكم ثلاثة شهور، وذلك إنه لما مات قومودس اجتمع الأحزاب وبايعوا بالقيصرية لبرطيناش، وكان عمره ستين سنة، وكان أبوه نجارا رومانيا من الموالى، ولكن رباه أبوه فأحسن تربيته، فكان أول أمر برطيناش إن صار معلما للسان اللاتينى، وكانت همته عالية فلم يقتنع بالتعليم، بل صمم على أن يدخل فى الخدمة العسكرية، فانتظم فى جند أنطينينوس قيصر، واستخدم فى جنود الشام، ثم خدم ويروس قيصر ففاق الأقران، واشتهر فى حرب العجم، ولما تولى مرقوريلس كان يحقد عليه فى أول أمره ثم غمره بالإنعام، وجعله من أعضاء مجلس رومة، ثم أعطاه فرقة عسكرية جعله رئيسا عليها، وهذا أقوى دليل على فضل برطيناش، لأن مرقوريلس كان صيرف(*) رجال، ونقاد أبطال، فلما صار برطيناش رئيسَ الفرقة العسكرية وقائدا مستقلا هابه أعداء الرومانيين كمال الإهابة، وطار صيته فى الآفاق، وظهر أنه يحسن السياسة الملكية والعسكرية، فبهذا استحق أن يجعله مرقوريلس حاكما كبيرا بوصف القنصلية الرومانية، حيث استبانت صداقته للقيصر المذكور، ولما تولى المملكة استبان منه الحلم، والتحبب للناس، والميل للعدل والإنصاف، وإنما أراد أن يصنع فى الدولة الرومانية محسنات إدارية بديعية، فأظهر بعد السماحة الحماسة،

---

(١) هو القيصر برتيناكس، حكم فى سنة ١٩٣م.

(*) الصيرف: من يحسن تصريف الأمور، المجرب لها. (الشروق).

وقصد الاقتصاد فى الأموال، وتشبث بتأسيس تدبير المصارف على أقوى أساس بما تقتضيه السياسة والكياسة، فعما قريب غضب عليه أمراء الرومانيين، وأصبحوا على قتله مصممين، حيث منعهم من الحرية فى الصرف والإنفاق، ولم يجدوا لهم فى سوق قيصرته نفاق، فاجتمع من الأحزاب المقاتلين ثلاثمائة تحت رياسة أمير يسمى لوطوس، واصطفوا صفوفا منتظمة وأحاطوا بقصره من جميع المسالك، حتى أيس من الحياة، وأيقن أنه لا شك هالك، فقبضوا عليه وذبحوه، ومن نصب(*) المنصب القيصرى أراحوه، فلم يظهر منه ما يؤذن بالتحسين أو التقبيح، ولا بالتعديل أو التجريح، ولم تكن مدة ولايته إلا ثلاثة شهور، وكان يرجى بره للرومانيين لولا صروف الدهور، وتولى بعده بديوس يوليانوس فى عين هذه السنة، باشتراء المملكة على صورة غير مستحسنة، وكان حظه كحظ سلفه، كما سيأتى.

(*) أى متاعبه ومسؤولياته. (الشروق).

الفصل العشرون

فى الملك ديديوس يوليانوس قيصر[1]

تولى هذا الملك الإمبراطورية سنة ٤٢٩، وحكم شهرين، لما خلا سرير الإمبراطورية الرومانية عن قيصر وعن ولى عهد استبد أمراء رومة وقواد جنودها، وكانوا إذ ذاك أرباب النفوذ وأولو الحل والعقد، بتولية قيصر عليهم على موجب أصول جديدة، وإن كانت غير مجيدة ولا سعيدة، حيث لم يكن عندهم روابط مشروطة، ولا قوانين مضبوطة، عند خلو السرير من القيصر يُلجأ إليها، ويُعتمد عليها، فاستصوبوا أن يضعوا المنصب القيصرى فى المزاد، وأن يلتزم به من يشتريه بأغلى ثمن، فيكون نوعا من المقاطعات الالتزامية يستفيده من يكثر الثمن ويملأ خزينة المالية، فلما استقر الرأى على ذلك صعد على أسوار الرباطات العسكرية فى المشارع والمسالك عدة أشخاص، وصاحوا على العامة بالنداء صيحة جهورية، وأذن مؤذنوهم قائلين: إن المملكة الرومانية فى المزاد لمن يسوم، فمن تغالى فى الأمور صار قيصرا على جميع بلاد الروم، فحضر اثنان من السوام فى محفل المزايدة العام، أحدهما سولبقيانوس، صهر القيصر الهالك، والثانى ديديوس يوليانوس، وهو خير من ذلك، لأنه كان عارفا بحسن القوانين والأحكام، وكان الأول بالنسبة إليه منظوما فى سلك العوام، فسام الأول المنصب القيصرى بخمسة آلاف من الدراهم على كل رأس رومانية، وجعل العمدة فى ذلك على الفرز

(١) هو القيصر ديديوس جوليانوس، حكم فى سنة ١٩٣م.

والعدية، وأبلغه الثانى على كل رأس ستة آلاف ومائتين وخمسين، بالنظر لعدية رؤوس الرومانيين، وكلاهما معتمد على التعديل والميزانية، وتحصيل هذه المقادير من الرومانية وغير الرومانية، فاستقر البيع للثانى، فبايعوه على القيصرية بالتزام هذا الثمن، حيث وعدهم بالوفاء بدون مطل ولا توان، فأخذ عنوان الإمبراطور والقيصر، ونال بالملك الحظ الأوفر، وصدق على ولّايته مجلس أعيان رومة، وسلمه زمام الحكومة، ومع أن مجلس رومة كان له مزيد الفخار والاعتبار، ولا يخفاه ما فى هذه البدعة الذميمة من السبة والعار، إلا أن شوكة قواد الجنود كانت إذ ذاك قوية، فلم يمكن للمجلس أدنى معارضة، ولا تصح منه فى تلك الحالة الراهنة مناقشة ولا مناقضة، لا سيما وإنه لم يكن للرومان قوانين أكيدة صريحة، فى وراثة المملكة على طريقة صحيحة، فلو كانت عندهم الوراثة القيصرية من الحقوق الشرعية، والأصول المرعية، لساغ لمجلس رومة أن يصونها، ويحامى عنها، ويحفظها من التغيير والتبديل، حتى تكون بالرسوخ متوارثة بالتسلسل لا تزول عن مستحقيها فى كل جيل. والظاهر أنها لو كانت على هذا المنوال، لبقيت إلى هذا الوقت والحال، فانظر إلى الدول المتجددة، فإنها لم تزل على مدى العصور باقية فى بيوت الملوك مخلدة.

ومن المعلوم أن الذى حل محل الدولة الفارسية والرومانية فى الأعصر الأخيرة إنما هو الدولة العثمانية، فقد خضعت لهم صناديد الأكاسرة، وأعناق القياصرة، وعظماء الجبابرة، وتلك مزية ظاهرة، ومرتبة فاخرة، وقد وقعت مهابة سلاطينهم فى قلوب الخلق، وجلالة خواقينهم فى صدور الناس، خصوصا عساكرهم وأجنادهم، فلا يجسر أحد يسطو عليهم، ولا أن ينظر بعين الازدراء إليهم، بل هم على ممر الأعصار معظمون، وعلى توالى الدهور مهابون، مع اتساع مملكتهم العظيمة، وأقاليمهم الجسيمة، واستيلائهم على غالب الأقطار، وأعظم البلدان والأمصار.

ولا ريب أن أعظم البلاد المعمورة، وأشرف الأقاليم المنصورة، إقليم الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر والمغرب، وقد استولت هذه الدولة العثمانية على

جميع هذه الأقاليم السنية، فلا يعلم من الملوك من ملك كملكهم، ولا من اندرج في مثل نظمهم وسلكهم، وما ذاك إلا أن مملكتهم موروثة بموجب قوانين منتظمة، ومن الغريب إنه قد ولى السلطنة منهم خمسة عشر سلطانا كل واحد منهم ابن السلطان الذى قبله على نسق واحد، ولا يعلم فى الجاهلية ولا فى الإسلام ملوك بهذه المثابة، وهو أمر عجيب، لم يقع لغيرهم مثله ولا ما يقاربه، إلا ما وقع لخلفاء مصر الفاطميين - كما سيأتى فى محله إن شاء الله تعالى - وهذا من حسن تنظيم الوراثة، التى بها قوام الملك وعليها مداره.

وأما الرومانيون فكانوا محرومين من ذلك، فلما تولى ديديوس يوليانوس المنصب بتلك المثابة الغريبة، عقدوا له موكبا وساروا به إلى القصر الملوكى، ولكن فى أثناء الطريق أصابه ما أصابه، فإن جميع الأهالى شنوا عليه الغارة، وصاروا يسبونه ويرجمونه بالسب واللعن مما هو أقوى من الرجم بالحجارة، ولا فرق فى ذلك بين الوجوه والرعاع، فانظر كيف يكون حال الراعى مع الرعية إذا ظهر منهم العصيان والامتناع، فإنه يخشى عليه الضياع، وفى الواقع لم يلبث هذا الإمبراطور فى منصب القيصرية طويلا، وقد ذاق فى مدة حكمه، التى هى عبارة عن شهرين عذابا وبيلا، فقد زعق على هامته المزينة بالتاج غراب البين، ولم ينج بالتزام نصاب العين[١] من مصاب العين[٢]، فاجتمع العساكر المحافظون من سائر الحدود والثغور، وانقضوا على أمراء رومة وقوادها ولا انقضاض البازات والصقور، وبايع جنود كل إقليم قيصرا اختاروه من القواد، وكادت أن تتمزق السلطنة الرومانية إلى عدة قياصرة بانتخاب قيصر فى كل واد، فعساكر الشأم مثلا اختارت قائدها قيصرا على الجميع، وجنود أبريطانيا بايعوا لأميرهم كذلك، وجنود سواحل إيطاليا اختاروا أميرهم سبطيمس سويرس قيصرا على سائر الرومان، وهو الذى صحت قيصريته وعمت جميع البلدان، فهذا القيصر هو الذى ساعدته على إقباله المقادير، لأنه قريب من رومة ومشهور بحسن

(١) العين هنا معناها: الفضة.

(٢) العين هنا هى العين الباصرة.

التدبير، فسار سويرس قيصر صوب رومة، وكان وديوس يوليانوس قيصر لم يزل فيها يتمتع بالمنصب القيصرى ويتولى أمر الحكومة، فاتهمه المجلس الرومانى بأنه خائن الأوطان، وأن ولايته مجرد طغيان وعدوان، وحكم بقتله بصورة قرار، فقتلوه وأسكنوه دار البوار، فكان موته فى أثناء السنة، ولم يحكم إلا شهرين، فكأنه كان فى غفوة من النوم أو سنة، وصفا الوقت لسبطيمس سويرس قيصر، فمد باعه للقبض على زمام الحكومة وما قصر.

الفصل الواحد والعشرون

فى الملك سبطيمس سويرس قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٤٢٩ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى نحو سنة ٤١١، فكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة، وكان هذا القيصر من بلاد المغرب، من مدينة لبودة، إحدى مدن أفريقية، وكان قد تزوج بزوجة شامية اشتهر بها، فلهذا قيل: إنه أول سلسلة القياصرة الشامية، وكان طاغية من طواغى قياصرة الروم الجبارين.

وكان فى حال صباه يهوى اللعب بمحاكاة حركات القضاة والحكام، ويقلدهم فى ألعابه وهزلياته، فكان يجمع أنداده من الصبيان، وأقرانه من الغلمان، ويجعل نفسه رئيسا عليهم، ويوزع عليهم مصالح المحكمة ووظائفها، ويجعلهم على صورة مجلس قضائى، ويصعد على منبر القضاء، ويصفهم حوله، ويتذاكر معهم فى قضية يخترعها، ومشاجرة يبتدعها، ثم يقول: حكمت بذلك! فكأنه من وقت شبوبيته كان مستعدا للأقضية والأحكام، فلما تولى القيصرية، وكان خارج رومة، بادر بالذهاب إلى رومة مع جيش جرار يبلغ ستين ألف مقاتل، فلما أشرف على المدينة ارتعب منه المجلس الرومانى، وأرسلوا إليه من أعضائه رسلا ليهنئوه على منصب القيصرية، فلما وصل إليه الرسل وَهَمَ منهم وخشى أن يكونوا جاؤا لمكيدة، وارتاب فيهم بسبب اغتصابه للملك من باب: كاد المريب أن يقول خذونى، فأمر

(١) هو القيصر سبتميوس سيفيروس، حكم من سنة ١٩٣ حتى سنة ٢١١م. واشترك مع أنطونينوس كراكلا من سنة ١٩٨م، ومع جيتا من سنة ٢٠٩م.

بتفتيشهم فلم يجد شيئا مما أتهمهم به، فأمر بتمثلهم بين يديه، ولأجل تطييب خاطرهم ونسيان ما حصل لهم من التحقير أجزل إنعامهم، وبالغ فى إكرامهم، فقبلوا إنعامه وإكرامه، ولم يقدروا على رده خوفا منه على أنفسهم.

فأول ما وصل إلى رومة لم يبال فى الدخول على المجلس بعساكره، ثم وعد أرباب المجلس إنه يحكم الدولة الرومانية بالعدل والإنصاف، فأظهر المجلس الرومانى إنه صدق وعده بذلك، مع علم المجلس المذكور أن الملك المغتصب للقيصرية لا يوثق بمواعيده العرقوبية(*)، وقل أن يحكم رعيته بالأحكام العدلية، ثم أصحبوه بموكب ودخل القصر الملوكى بالرفعة والشأن، ثم تولى الأحكام بنفسه، فكان أول حكم أصدره من ديوانه هو إبطال الخفراء المحافظين القاتلين أبريطناش سلفه، ووضعوا المملكة الرومية فى المزاد، كما سلف، وعاقب رؤساء الفتنة جزاء لهم على أفعالهم الشنيعة، ثم اشتغل بتنظيم المملكة وحسن ترتيبها، فمحا وأثبت وغيَّر وبدّل، ولأجل أن يأمن على نفسه طرد المحافظين الذين عزلهم من رومة، وأهدر دم من يعود إليها منهم، وجنّد خمسين ألف عسكرى للمحافظة، واهتم بترتيب أصول الضبط والربط فى العسكرية على الطريقة الحسنة التى كان يجريها فى المملكة الغلية حين كان رئيسا على الجيوش الرومانية المحافظين فيها.

ثم فى أثناء ذلك اقتضت المصلحة سفره خارج إيطاليا، وذلك لأن الحال اقتضى أن يحارب القائدين المتطلبين للقيصرية الرومانية، المختارين فى الجهات الخارجية، أحدهما بسقنيوس نيجر، قائد عساكر الشأم ومصر والبلاد المشرقية، وثانيهما قلوديوس ألبينوس، قائد عساكر أبريطانيا، فلأجل أن يتفرغ لقتال بسقنيوس نيجر أشرك معه فى القيصرية قلوديوس ألبينوس، ليأمن على مملكته، فكل من القائدين فى الحقيقة عدو مبين، إلا أن الأول أضر من الثانى على القيصر، فقد كان ظلوما غشوما، وكان جده وكيلا على الديوان القيصرى رومة، وكان قد تربى هو فى مدة حكومة مرقوريلس فى العسكرية، فكان الجند يألفونه، مع شدته وحدته وعدم تلطفه بهم، وكانت مصر متحزبة معه ومعترفة بأنه ملكها وملك المشرق، حتى أن ديوان

(*) نسبة إلى عرقوب؛ وهو رجل يضرب به المثل فى خلف الوعد. (الشروق).

الإسكندرية كتب على باب المدينة: «نيجر سيد هذه المدينة وصاحبها». فسار لقتاله سبطيمس سويرس سيرا حثيثا ليأخذه غيلة، فلما قدم سويرس على مصر تمثل بين يديه أهل الإسكندرية، وازدحم على بابه عامة الناس ورعاعهم، وأظهروا الفرح بإقباله عليهم، وصاحوا قائلين: «نيجر سيد هذه المدينة، وأنت سيد نيجر»! وقصدوا بذلك إصلاح ما رسموه على باب المدينة، ومداواة جراح ما فعلوه من اعترافهم بملوكية نيجر، حيث لم يمكنهم إنكاره، فأقام هذا القيصر نائبا على مصر من أحد أرباب مجلس رومة، وأقام على الإسكندرية من أعضاء مجلس رومة أيضا، وخالف في ذلك قانون أغسطس قيصر حيث لا ينيب أرباب المجلس في الولايات.

وكان نيجر لما أحس بسير سويرس إليها فر هاربا، فسار سويرس يقتفي أثره، ويهجم عليه في المدن المبايعة له، وهو يمانع عن نفسه وعن بلاده، ويصادم خصمه، حتى أظهر ما لا مزيد عليه من الشجاعة والمهارة في جميع المصادمات والمطاردات، برية وبحرية، ولكن لم تساعده المقادير في النصرة على سويرس قيصر حيث حدثت تلاقيح شديدة، ورياح عواصف عنيفة تسبب عنها انهزامه عند رأس بالبحر، فأخذ في الفرار إلى بلاد العجم، فضبط في أثناء طريقه وقتل، وكان ذلك في سنة ٤١٧ قبل الهجرة[١]، وصفا لسويرس قيصر مُلْك الجهات المشرقية.

فلم يبق لهذا القيصر إلا خصم واحد بالجهات المغربية، وهو قلوديوس ألبينوس، الذي كان أشركه في القيصرية، وكان مجلس رومة يميل باطنا إلى تقليد قلوديوس بالإمبراطورية، وإلى نصرته على سبطيمس سويرس، مع كون جنوده مشهورة بالقوة والشجاعة وكونه معدودا من فحول الرجال، وكان قد لقب نفسه أغسطس، فسار إليه سويرس، فلما تلاقى الجمعان بقرب مدينة ليون بفرانسا وتصادما صدمة عظيمة كانت الهزيمة على جند ألبينوس، فانكسر هو وجنوده، فقتل نفسه خوفا من أن يقع بين يدي عدوه، فقطع سويرس رأسه، وبعث بها إلى المجلس الروماني بخطاب لأربابه يلومهم على ميلهم وتعصبهم سرا لهذا الخارجي، ويفيدهم غضبه عليهم، وغيظه منهم، ثم عاد هذا القيصر إلى رومة فقتل وفتك

(١) أي سنة ٢٠٥م.

وأجرى فيها الدماء كالسيول والأنهار ونفى منها ما نفى من أكابرها وأعيانها، وضرب أعناق مشاهير رومة وصناديدها، ومشاهير مدن المملكة وصناديدهم، ولم يُبق على أعضاء مجلس رومة، بل انتقم منهم كل الانتقام، فقد وعد بما وعد من الإصلاح فأخلف وأتلف، وهكذا عادة الجبارين الذين لا دين عندهم ولا يقين، فإنهم يظهرون فى مبادى أمرهم خلاف ما يبطنون لإحساسهم بضعفهم، فإذا تمكنوا أعلنوا ما كمن فى الخواطر، وتظاهروا بمستترات الضمائر، وقد تفرغ بعد تصميم المملكة لحرب إيالة العجم والإنكليز وضبطهما وإدخالهما تحت الانقياد والطاعة، فحارب الجهات المشرقية حتى حاصر مدينة بوزنطيا، التى هى الآن قسطنطينية، وجعل على حصارها قواده ليفتحوها، فدافعت عن نفسها نحو ثلاث سنوات، ففى أثناء غزوه فى الشرق والغرب استولت جنوده على القسطنطينية، ونهبوا هذه المدينة المثرية ودمروها كل مدمر، فبعد أن غلب العجم والبلاد المشرقية بلغه أن الإنكليز غالبون لجنده، فقدم عليهم من حيث لا يشعرون، وغزاهم غزوتين خسر فيهما خمسين ألف مقاتل، وكان قد أشرك ولديه فى القيصرية معه، وأكبرهما يسمى بسيانوس حضر وقعة الإنكليز وانهزام جنود أبيه، فوقعت الفتنة فى المعسكر بين الجنود، وحصل الفشل بين الرؤساء، فقام بسيانوس بن سويرس على أبيه وسل عليه السيف يريد قتله فلم يتمكن من ذلك.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

فحنق أبوه من جسارة ولده فمات بغيظه وكمده.

وفى مدة حكمه كان أصدر أمرا بقتل النصارى فى ممالكه، فوقعت عليهم مذبحة عظيمة، وكانت هى الشدة الخامسة، وقد ابتدأت أولا فى مملكة مصر ثم سرت منها إلى البلاد الغلية وإلى أفريقية فقتل فى تلك البلاد من النصارى ما لا يحصى عددا، لا سيما فى مدينة ليون بفرانسا وفى قرطاجة بالمغرب، فلما هلك هذا القيصر سنة ٤١١ قبل الهجرة ظن الأهالى أنهم اكتفوا شره، وأن ابنه بسيانوس إذا تولى بعد يرجون خيره، فأخلفت الحية حوية صارت أفعى، وصارت باللدغ واللسع إلى جميع الناس بالأذى تسعى.

الفصل الثانى والعشرون

فى الملك بسيانوس قراقلة قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٤١١ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٤٠٥، فكانت مدة حكمه ست سنين. وبيان ذلك أن سبطيمس سويرس قيصر مات عن ولدين، أحدهما: يسمى بسيانوس قراقله، والثانى: يسمى سبطمبيوس جيطا، وكان أبوهما قد عهد لهما بالإمبراطورية فى حال حياته فبويع لهما معا بها، فاشتركا فيها بعده.

وكان يتوهم فى بسيانوس قراقله الشفقة والرفق بالعباد والبلاد، فإنه كان يعهد منه فى حال صباه، أيام والده، إنه لا يتمالك دمع عينيه متى عاقب أبوه أحدا من الناس بقذفه للحيوانات المفترسة لتفترسه، فكان الولد يستبشع وقوع ذلك الأمر فى ديوان أبيه على رؤوس الأشهاد، فكان الناس يؤملون فيه الخير، فبمجرد توليته قيصرا استحالت هذه الشفقة والرأفة إلى جبروت وقساوة، وظهر المخبأ، وألبس هذا الملك رداء سريرته الردية. وقد هم أن يقتل أخاه بالسم، فاحتال على ذلك بكل الحيل فلم يتمكن من قتله مسموما، فأغرى عليه أعوانه فقتلوه بين ذراعى أمه، فأظهر بسيانوس قراقله إنه لم يعلم ذلك.

---

(١) هو الإمبراطور كراكلا، ولقد شارك فى الحكم من سنة ١٩٨م مع سبتميوس سيفيروس، ومع جيتا من سنة ٢٠٩م، واستمر اشتراكه مع الأخير حتى سنة ٢١٧م.

وبحسن السبك قد ينفى الزغل

فهرب من سرايته، وأظهر إنه يخاف من هؤلاء الأعوان، وإنه أراد بذلك أن ينجو بنفسه من الخطر والفتنة، وأعلن جميع الناس أن قتل أخيه كان على غير مرامه، وذهب بنفسه إلى معسكر الخفر والمحافظين وأعلمهم بقتل أخيه، فأنكر الجنود على ذلك، وأظهروا الأسف والحزن على الطفل الهالك، فوعدهم بالإنعام الجزيل، وأنجز لهم ما وعدهم به، وكان لم يزل حزب أخيه حاقدا عليه، مثيرا للفتنة، فأشار عليه المحافظون الذين أجزل لهم العطاء أن يصنع لأخيه تمثالا، وينظمه فى سلك الأصنام المعبودة، على عادة ملوك الرومانيين، ليقمع الفتنة بذلك، ويقنع حزب أخيه بما هنالك، فأجاب بأنه لا مانع من صنع التمثال لتخليد ذكر أخيه حيث فارق الدنيا وانتقل من دفتر الأحياء على أسوأ حال، ثم التمس هذا القيصر من وزير أبيه، المدعو باسم بابنياس، أن ينشىء له مقالة رسمية لتتلى على الأهالى فى المحافل العمومية، اعتذارا عما جرى لأخيه من البلية، فأجابه بابنياس بقوله: «كان ترك القتل أسهل من الاعتذار عنه»! فغضب من قوله، وجازاه على فلتة لسانه بقتله، ولا غرابة فى ذلك وأمثاله فقد قيل:

لا تبطرنك خلعة ألبستها — ما خلع قلبك عندها ببعيد

والبدن ليس بمنكر تزيينها — للنحر ليلة جمعة أو عيد

فقد جرت عادة الملوك أن يستعظموا، ولو فى الثواب، رد الجواب، ويستقلوا فى العقاب ضرب الرقاب، فلذلك قيل: كن من الملوك مكانك من الشمس، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والأرض دار، فكيف لو نزلت قليلا! وكما ضربوا الشمس للملوك مثلا، كذلك جعلوا البحر منهم بدلا، فقالوا: جاور ملكا أو بحرا، وأحرى براكب البحر أن لا يسلم، وقيل: مثل صاحب السلطان كراكب الأسد، يهابه الناس وهو لمركبه أهيب!

ومن خـدم السلطان أكـرم نـفـسـه ولكنه عـمـا قليل أهـانهـا
ومن عـبـد الـنيـران لم ينتـفع بهـا ولم يـلق إلا حـرهـا ودخـانهـا

فلما أن خلص هذا القيصر من وزير أبيه، بنحره، تصدى لاتباع هوى نفسه الأمارة فى حاله وأمره، فتأمر وتكبر، وتأسد وتنمر، وتشبث بالاغتيال بالظفر والناب، وأكثر من سفك الدماء وضرب الرقاب، وفتك بالأكابر والأعيان ووجوه الناس، ولكل زمان حجاج ثقفى يتشبث بالمراء والمراس، فكان عدد ما قتلهم من الأعيان والكبار ينيف عن عشرين ألف نفس مختلفين فى الدرجات والأعمار، ثم توسوس وتخوف، وتهوس وتحرف وتنكر وتعرف، وحاكت فى نفسه الخبيثة آثامه وخطاياه، ولازمه الوهم الفاسد وما تخطاه، فكان يخيل له دائما الانزعاج بأضغاث الأحلام، حتى يرى أن أباه وأخاه يريدان قتله فى المنام، فلم يستقم له بعد ذلك حال، ولا تنعم له بال، ولا اعتدل مزاجه أدنى اعتدال، ولا حسنت منه أقوال ولا أفعال، وانتزعت من قلبه الشفقة على العباد والرأفة، وتمكن منه الطيش والخفة، فكان يسلى نفسه بحضور الولائم والألعاب، واللعب بالميادين العامة، حتى صار عبرة لأولى الألباب، يلعب مع اللاعبين، ويرتكب ما يخل بناموس الملوك ومروءة السلاطين، ويلبس فى الميدان ملابس العربجية، وفى عنقه ياقة زرقاء كالزنار[1]، مخصوصة بذلك الكار[2]، وفى يده كرباج العربة كأنه سيما الافتخار، وإذا أقبل فى ميدان البرجاس سلم على رئيس الألعاب تسليم ائتناس، وأظهر بالتمنى لطفه وظرفه، وحياه تحية أنفار الحرفة، ودخل فى ميدان السباق مع الإخوان، وسابقهم مسابقة الأقران، وإذا انتصر عليهم التمس قصب السبق ليمتاز، وظن أن من حاز هذه الجائزة بالنصرة وزحزح عن الهزيمة فقد فاز، وهى عبارة عن فلزّة من الذهب، يتميز بها من غلب.

وقد كان هذا القيصر كثير الغش والزغل والتدليس، فكان غشه مستوعبا لجميع

---

(١) الزنار - بضم الزاى المشددة - حزام يشد على الوسط.
(٢) الكار معناها: الحرفة.

أحواله وأطواره، حتى كانت نقوده القيصرية المضروبة باسمه من دراهم ودنانير مغشوشة! حتى قال بعض أهل عصره: «كان القيصر يعطينا النقود المتخذة من الرصاص، مطلاة بالفضة، على أنها فضة خالصة، والنقود المتخذة من النحاس، المطلاة بالذهب، على أنها ذهب خالص، وكان يحتكر النقود من الذهب الخالص والفضة الخالصة ويكنزها عنده ولا يخرج منها شيئا إلا ما كان يدفعه للقبائل الأجنبية المتبربرة فى نظير عقد الصلح معهم حتى يتجنبوا حربه أو يساعدوه على الرومانيين».

وكانت دائما أفعاله سخيفة، فقد تولع على حين غفلة بتقليد الإسكندر الأكبر المقدوانى والتشبه به فى جميع شؤونه وأحواله، ولو أن التشبه بالرجال فلاح، كما يقال، لكن لم يكن لهذا القيصر فى ذلك إصلاح ولا صلاح، لأنه لم يكن معدودا من الأبطال، فكان يقلده فى أحواله وأطواره، ويتزيا بزيه فى الملبس والمطعم، وكان يتكلف التخلق بأخلاقه فى جميع ما يحكى له عنه بدون مصادفة محل، وشتان بين التكحل والكحل! فقد كان للقيصر من الجنود المحافظين نحو ستة آلاف مقاتل، كلهم مقدوانية، تقليدا لعساكر الإسكندر، وقد علق أيضا تمثال الإسكندر على جميع الميادين العامة والهياكل والمعابد، وسمى نفسه الإسكندر، لتكون هذه التماثيل رموزا له، معنونة بعنوانه، ومنطبقة عليه، ليتحد الاسم والمسمى، وكان يعتقد أن إطلاق هذا الاسم الجليل عليه يكفيه فى المجد والتبجيل، وانتهاء الفخر إليه، وأن اتحاد ذاته بذات ذلك الجناب المهاب تدفع عنه اللوم والعقاب.

وقد قصد أن يستوفى فى أصناف هذه التقليدات الهزلية، والتخيلات المجازية، ويجعلها منطبقة عليه بالكلية والجزئية، وأن تكون موجبة لا سلبية، فشرع، بحسب اقتضاء الحال، أن يفتح الفتوحات على منوال الإسكندر الأكبر، فأخذ فى الغزوات، حتى جعلته أضحوكة عند جميع العالم، حيث أجراها على أسلوب غير معهود، ونجزها على وجه ليس بمحمود، فتصدى إلى غزوة حربية فى بلاد فرانسا، المسماة إذ ذاك بالغلية، أهلك فيها الحرث والنسل، وأفنى فيها الجنود حيث ارتحل

وحل، وجال فى البرارى والقفار، حتى نزل على بلاد جرمانيا كسيل العرم(*)، ولم يستطع أن يغلبها، بل صار فيها بحالة المنهزم، لأن أهل جرمانيا تأهبوا لمصادمته، فعبروا نهر الرين ليهزموه شر هزيمة، ويخلعوه من منصب الإمبراطورية الفخيمة، ولولا أنه أرشاهم بالدراهم الوافرة، لكسروه وقطعوا دابره، لكنهم لما حصلوا منه على مراهم الدراهم، عادوا إلى بلادهم بما كسبوه من المغانم، بوصف مسالم، ثم دخل فى بلاد المجار والافلاق والبغدان، وبلاد الأردل المجاورة لبلاد الجرمان، فوجد هذه الممالك فى قبضة الغوطية، وكانوا أصحاب بطش وشوكة قوية، فكانوا قد أشرفوا أن يصادموه ويخرجوه من الحدود، فلم ينتج من حربه معهم إلا كونه أدخل تحت طاعته مملكتين صغيرتين لا يفيان بما أهلكه من الجنود، ومع هذا كله فكان انقيادهم له بالمكر والحيلة، لا بالوقعات الجليلة.

وكذلك تشبث بتدمير إقليم فارس فما ظفر ولا ظهر، بل اصطلح بعد أن انهزم ولا وازى ما فعله الإسكندر الأكبر.

وقد وثب أيضا على الديار المصرية، وأباد مقدارا عظيما من أهالى الإسكندرية، وسبب ذلك ما بلغه من أن أهل الإسكندرية يخوضون فى عرضه ويذمونه غاية المذمة ولا يرعون له إلا(**) ولاذمة، فحضر إليها قصدا، وأوقع بأهلها وقعة عظيمة، وأغرى عليهم جنوده حال قدومه، فذبحوا أكثر أهلها فى مذبحة عظيمة، مكثت يوما وليلة، فكانت عليهم مشؤومة.

وانتهى حاله فى غزواته بالعجز عن القتال، وعدم منفعة ما صنعه مع العجم من الحرب والنزال، حيث عاد العجم للانتقام منه، فلما رأى جنده أن قيصرهم صار أضحوكة لأهل الممالك، ومهانا فى جميع الطرق والمسالك، وأن هذا يخل بناموسهم، ويزرى برفيع بأسهم، ويفضى إلى بؤسهم، صمموا على قتله فى أثناء الطريق، فأراحوا بسفك دمه الرفيق والفريق، وكان قتله فى سنة ٤٠٥ قبل الهجرة، فكانت مدة حكمه ست سنوات، ليس فيها للدولة الرومانية غير المذلة والمعرة.

(*) سيل العَرِم: السيل الجارف، هدّم سد مأرب، أقوى سدٍّ فى اليمن قديمًا، وأغرق مملكة سبأ. (الشروق).

(**) الإل: العهد. (الشروق).

وفي جميع غزواته كان يلبس على رأسه مغفرا[1] على زى بلاد فرانسا من الصنف المسمى قراقله، فكأنه يقول:

أنا ابـــن جـــلا وطلاّع الثنايـــا متى أضـع العمامـــة تعرفونـــى

فاشتهر بهذا الاسم فى كتب التاريخ، وتولى الإمبراطورية بعده مقرينوس، رئيس الخفر القيصرى.

وقد كان بسيانوس قراقله حين اشتراكه مع أخيه جيطا رسم العلامات الملوكية والطغرى[*] القيصرية فى جميع البلاد الغربية والشرقية باسمه واسم أخيه معا، ومن جملتها ما كان قد رسم على المبانى والهياكل، فلما مات أخوه قتيلا أمر بمحو اسمه فى سائر الجهات، فانمحى اسم أخيه من جميع الرسومات، ولا فرق بين المبانى وغيرها، ولم يبق لأخيه عين ولا أثر، وإنما بقى فى مصر، دون غيرها من البلاد، آثار محو على بعض الاحجار، لكن يمكن قراءة الاسم لمن أمعن الأنظار.

ومما ينبغى التنبيه عليه أن هذا القيصر هو آخر قيصر من القياصرة بقيت آثاره على مبانى الديار المصرية، ولم يكن لقيصر بعده من اسمه رسوم أثرية.

---

(١) المغفر: زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة.

(*) الطغرى: هي كلمة تترية استعملها الروم والفرس ثم أخذها العرب عنهم وأصلها (طورغاى) ومعناها: الطُرَّة تكتب فى أعلى الكتب والرسائل وتتضمن نعوت الحاكم وألقابه. (الشروق).

الفصل الثالث والعشرون

فى الملك أوبليوس مقرينوس قيصر(١)

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٤٠٥ قبل الهجرة، وبقى إلى سنة ٤٠٤، فكانت مدة حكمه سنة واحدة، وقبل توليته المنصب الملوكى كان، كما قيل، رئيس الخفر القيصرى، كما سبق، ويقال إنه هو الذى أغرى الجند سرا على قتل قراقله، وإنه جعل للجند فى نظير ذلك جعلا جسيما، وأن سبب ذلك كون بعض الكهنة من أهل العرافة أخبر هذا الرئيس إنه سيصير ذات يوم إمبراطور الرومانيين وقيصرا عليهم، فبعد قتل قيصره أعلنت له الجنود فى المعسكر بالإمبراطورية. وكان مولده فى مدينة الجزائر بالغرب، وكانت تسمى قيصرة، وكان هذا القيصر مثقوب الأذن فسمى مقرينوس، ويسمى أيضا مقرين، ومعنى مقرين، بلسان بربر المغاربة، مثقوب الأذن، وكان مسعود الطالع، ميمون الطلعة، فارتقى المناصب العالية فى أقرب وقت، ومع أنه كان من عشيرة خاملة الذكر كان صاحب علوم ومعارف متنوعة، فتارة يتوظف بوظيفة خطيب مصقع فى المجالس، وتارة بوظيفة عدل فى المحاكم، وطورا بوظيفة قاض رئيس محكمة، فلما كان منظوما فى سلك القضاة والحكام، وله اليد الطولى فى معرفة القوانين والأحكام، رفعه قراقلة قيصر إلى منصب إمارة الجنود ورياسة الجيوش، واستخلصه بمعيته، ثم رقاه إلى أعلى

---

(١) هو القيصر مكرينومر، حكم من سنة ٢١٧ حتى سنة ٢١٨م، واشترك فى العام الأخير مع ديادومنياتوس.

المناصب الرومانية، وجعله أميرا لمحافظة القيصرية، وكان هذا المنصب يعادل منصب الأتابك عند السلاطين فى الأعصر الحديثة، فانتهى به الحال أن خان ومان، وتطبع بطبيعة ذلك الزمان، بل وكل زمان، وغدر بولى نعمته، لحيازة رتبته، وهذا هو الغاية القصوى فى كفران النعم، المذموم شرعا وعقلا عند سائر الملل والأمم، وجور صاحب المملكة لا يسوّغ قذفه بيد أصدقائه فى المهلكة، وأحسن ما قيل فى ذم عمل السلطان وخدمته ما كتبه أبو الفضل الهمدانى[1] إلى بعضهم: «نهت الحكماء، أدام الله عز الشيخ، عن صحبة الملوك، فقالوا: إذا خدمتهم ملكوك، وإذا لم تخدمهم أذلوك، وإنهم يستعظمون فى الثواب ردا لجواب، ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب، وأنهم ليراوحون بحميد الخدمة، ويعادون بلطيف التحفة، فلا يقيمون لها وزنا، ولا يعرفون لها قدرا. وقالوا: كن من الملوك مكانك فى الشمس، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار، والأرض دار، فكيف لو نزلت قليلا! وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد، فيتخذ فى الأرض سربا، لواذًا منها وهربا، ويبتغى فى الأرض نفقا، فرارا منها وفرقا، وكما ضربوا الشمس للملوك مثلا، كذلك جعلوا البحر منهم بدلا، فقالوا: جاور ملكا أو بحرا، وأحرى براكب البحر أن لا يسلم، كراكب الأسد يهابه الناس وهو لمركبه أهيب».

وقد سبق ذكر بعض ذلك فى الفصل الثانى والعشرين، وتكرر هنا، والمكرر أحلى، وإنما إذا كان التكرار لفائدة فلا بأس به. وهنا نضم إلى ذلك فائدة زائدة، والشيء بالشيء يذكر، ويحسن ذكره مع غيره ولو تكرر، فنسرد هنا ما ذكره أبو النصر العتبى[2] فى وصف السلطان وذم خدمته، قال: «السلطان بمنزلة السيف القاضب، والنبل الزاغب، والنار ذات اللهب، والنخل ذات الشوك والرطب، إن فرشت له خد الطاعة سلمت من حديه، وقطعته سالما من طرفيه، وتمتعت بجدوى صلاته وضيائه، ونعمت بين أفيائه وأجنائه، وإن سحبت ذيل الرداء له غدوت على

---

(١) أبو الفضل الهمدانى، صالح بن أحمد بن محمد بن التميمى (المتوفى سنة ٩٩٤م)، من حفاظ الحديث المعمرين، وله (سنن الحديث) و(طبقات الهمذانيين).

(٢) أبو نصر العتبى، محمد بن عبد الجبار، مؤرخ وكاتب وشاعر، وله فى الأدب كتاب (لطائف الكتاب) وفى التاريخ كتاب (اليمينى) نسبة إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين.

قضاء مذروب[1]، ودفاع غلوب، ونار يلفح وهجها ولظاها، ومشاك تدمى الأصابع بشباها[2]، وما فى لذة الانتفاع بهم وفاء بعاجل المخافة وآجل الآفة، مع ما بينهما من نصب الأبدان بإمساء وتبكير، وإدلاج وتهجير، وتعب النفوس بتعديل الأطراف، وتقويم الأعطاف، وتهذيب العبارة، واتباع آداب الإمارة، والمنافسة مع الخلطاء فى الخدمة، والشركاء فى النعمة، ثم احتقاب الأوزار، التى مصيرها إلى النار، وبئس عقبى الدار، فمن نشط للذة بمحذورها وثمرة بزنبورها[*]، فليشدد للذل نطاقه، وليبذل فى الطاعة ما أطاقه، وإلا فليعبد سلطان السموات والأرض، ومالك البسط والقبض، يرض منه بدون هذه المناصب والمتاعب، وشطر هذه المخاوف والمراهب، مع ما استحق من كريم الرغائب، وعظيم المثاوب، ورفيع الدرجات والمراتب، ثم عقباه جنة تنعم فيها الأبرار، وتجرى من تحتها الأنهار، خلود يجعل الوجه منيرا، والعيش نضيرا، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا». انتهى.

فقد بين فى هذا أوصاف المنافع والمضار، وأصناف العقوق والمبار، وحذر وأنذر، وألف ونفر، فمنه يفهم أن من خالف الملوك يندم، وإن استطاع أن يستغنى عن الخدمة فلا يقدم، وسواء فى ذلك الحقير والخطير، والوزير وغير الوزير.

فما فعله مقرينوس هو محض جناية، وإن حصلت له بتولية القيصرية العناية، وقد كان حزب من الجنود المحافظين انفرد بالتوقف زمنا طويلا عن مبايعته، فلما تولى وشرع فى أداء الوظيفة القيصرية اشتكى منه جميع الناس وتمكنت منهم الوحشة، وتجردوا عن حلية الإيناس، وكان بمجرد توليته استمر على الحرب مع الفرس لأن إردوان ملك الفرس الإردوانية كان هجم على حدود الرومانيين، فانهزم القيصر هزيمتين متواليتين، واضطر إلى أن يشترى صلح أردوان معه بثمانين مليونا من دراهم الفضة العين، فحنق عليه الحزب الذى نكص عن مبايعته، ثم لما

---

(١) المذروب، يمكن أن تعطى معنى المسنون الحاد.

(٢) الشباة، من معانيها إبرة العقرب، وحد كل شىء، والشبو، معناه الأذى.

(*) الزنبور: حشرة أليمة اللسع من الفصيلة الزنبورية. (الشروق).

تكرر منه ارتكاب جناية الفتور والكسل وإظهار الجبن والعجز والملل استشاطوا عليه غيظا، ثم محا وأثبت فى القوانين الملكية، والأصول المتداولة العسكرية، وتشبث بالتشديد فى انتخاب شبان العساكر المستجدة، وأهمل تسريح العساكر المتعلمة التى طالت عليها المدة، حقد عليه الجنود وصمموا على انتهاز الفرصة فى الانتقام منه، فعما قريب لاحت لهم الفرصة فى ذلك، وأن يلقوه بأيديهم إلى أشد المهالك.

وذلك إنه كان قد نزل بقرب مدينة حمص فرقة عسكرية، وكان أهل هذه المدينة صابئين يعبدون الشمس، وكان لهم كهان لخدمة هيكلهم، ومن هؤلاء الكهان شماس عمره ثلاث عشرة سنة يسمى بسبانوس، جميل الشكل، حسن الوجه، وردى الخدود، رشيق القوام.

متورد الخدين من خجل   متخادل الأعضاء من كسل

ما راعنى إلا تدافعه   كالغصن بين الصدر والكفل

إذا لبس الملابس الفاخرة المعدة للكهنوتية، المكللة باللؤلؤ والمرجان، شخصت إليه الأبصار، ومالت إليه القلوب، فكانوا يشبهونه بالقمر المنير، ويحفلون به وقت تقريب القربان ولا احتفال الجند بالأمير، ويرقصون حوله ويغنون بالأنغام على صوت الألحان، وينتشون من خمر عينيه ولا نشوة مدامة الحان، ولا تمل أعينهم من التملى بذاته الجميلة، وشمايله الجليلة، قال بعضهم:

بالله يا صاحب الوجه الذى اجتمعت   فيه المحاسن فاستولى على المهج

خذنى خديما، وإن لم ترض بى صلفا   فادفع بى العين عن ذا المنظر البهج

وكان لهذا الغلام جدة تسمى يوليه موزه، اخت يوليه دومنا زوجة سويرس قراقله قيصر، ومن المعلوم مكايد العجائز، وأن عندهم كل مفعول جائز، فكانت جدته تزعم إنه ابن قراقله قيصر، لتحبه العساكر وتميل نفوسهم إليه، وكان مجهول الأب، فكان يسمى فى بعض الأحيان بسيانوس هليوغباله، يعنى الشمس، لنورانيته وضيائها المعجب للحس والنفس. وهو مشهور فى كتب التواريخ بهذا

الاسم، فلما عهدت جدته تمكن حبه من قلوب الجنود، وأن ميلهم إليه بقلبهم وقالبهم مشهود.

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

لا سيما وأنهم يرجون خيره، فأخذته ذات يوم من الأيام وذهبت به إلى المعسكر، ليتولى منصب القيصر، فبايعه الجنود ولقبوه أغسطس، ففاز بنفاسة الإمبراطورية لنفاسة جماله ونسبته إلى قيصر نفيس وهو سويرس قراقلة قيصر

لولا نفاسته ونسبته لمن يدعى نفيسا لم يفز بنفيس

فلما سمع بذلك مقرينوس جمع أحزابه فى أقرب مدة وجاء يقاتل خصمه بقرب أنطاكية، فكان الحرب بينهما سجالا، ولم يظهر الغالب من المغلوب، وانتهى الحال أن جبن مقرينوس عن القتال، وعجز عن النزال، فهرب فى الحال، ولم يقف إلا عند مدينة قاضى كوى فى إيالة بروسة، فاقتفى الجنود دائره وقتلوا حزبه، وفتكوا به وأسكنوه قبره، وكان ذلك فى سنة ٤٠٤ قبل الهجرة، وبقيت الإمبراطورية الرومانية فى قبضة بسيانوس هليوغباله، فباء سلفه بصفقة الخسران، وقد قيل: كما يدين الفتى يُدان.

الفصل الرابع والعشرون

فى الملك بسبانوس هليوغبالة قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٠٤ قبل الهجرة، وبقى إلى سنة ٤٠٠، فمدة حكمه أربع سنوات، وبمجرد تصديق مجلس رومة على انتخابه وصفاء الوقت له قتل أقارب مقرينوس وأحزابه وكثيرا من الأعيان والأمراء.

ولم تزل باقية معه رياسة هيكل الشمس، كالخلافة، فكان جامعا بين القيصرية والكهنوتية، وقد صنع لولايته القيصرية مواسم وأعيادا لبثت ستة شهور، وقد رتب أن يكون أكبر الأصنام فى رومة ومصر صنم الشمس الذى نقله من المشرق، وكان متمسكا بعبادته، فكان لا يعلو عليه وثن من الأوثان، وهو عبارة عن حجر أسود لا صورة به ولا شكل، فأمر أن يبنى له فى رومة هيكل عظيم فشيدوا له معبدا، وجعلوه سيد الأصنام وكبيرهم، وجميع الأصنام المعبودة فى رومة عبيده وخدمه، ثم زوجه لصنمة الزهرة، التى هى رئيسة أصنام إفريقية، ورتب له مهرجانا عظيما ومواسم وأعيادا سنوية، وجعل مصرف ذلك على جميع الأهالى يتوزع عليهم، وكان هذا الصنع فى بلاد الشام التى كانت إذ ذاك كثيرة البدع والأوهام، متخلقة بالأخلاق المذمومة، والطبائع الملومة، فنقله هذا القيصر الكهنوتى إلى رومة ليتسلطن فى أقطارها المغربية.

وكان هذا القيصر حين دخوله رومة، وسنه أربع عشرة سنة، لابسا حلة كهنوتية من الحرير المقصب، وهو أول قيصر لبس الحرير فى رومة، وكان فى يده أساور من

(١) هو القيصر أنطونينوس (الأجابالوس)، حكم من سنة ٢١٨ حتى سنة ٢٢٢م.

ذهب وفى رقبته أطواق من الذهب أيضا، وكان مزجج الحواجب، مكحول العينين، يتزيا بزى العذارى تارة وبزى المردان أخرى، وليس فيه من صفات الرجولية الرومانية أدنى شىء، وكان ينثر فى قصره دائما أنواع الزهور والرياحين، وينثر تحت رجليه الذهب والفضة، فكان فى التكسر أشبه بالنساء، ولم توجد أخلاقه الذميمة من حيث الهيئة الاجتماعية فى أحد من القياصرة غيره، فكان إذا أراد التسلية والنزاهة وترويح النفس والفكاهة ذهب فى ذلك مذهبا عجيبا، فكان يدعو إلى مائدة ثمانية أنفار من العور ومثلهم من العرج ومثلهم من الصم ويسخر بالأربعة والعشرين نفرا كمال السخرية، حيث كمل نصاب الحظ أربعة وعشرين قيراطا.

وكان فى بعض الأحيان فى وقت انتظام الديوان واحتفال الجلساء والندمان يطلق على حين غفلة الأسود والنمور حتى يصير ديوانه بهذه الوحوش كالشرى[1] المعمور، ومع أن هذه الوحوش الكاسرة مقلمة الأظافر، مخلوعة الأنياب، لكن القصد منها إيهام الحاضرين بمنظرها الهائل، ولا يكتفى بإزعاجهم بذلك بين يديه، بل كان يزعج خواصه بهدايا واتحافات مملوءة من الهوام، حتى إذا فرحوا بها وفتحوها أرهبتهم وأورثتهم المضار والآلام، وإذا اجتمع الأهالى فى ميادين الألعاب العمومية للتفرج والتبسط أمر أعوانه بإطلاق الثعابين فى هذه الميادين لإزعاج جميع المتفرجين، فكان الناس فى أول الأمر يتكلفون الصبر على حكومته القاسية.

وقد قلنا فيما سبق إنه ابن دعى، منسوب إلى سويرس قراقلة نسبة ادعائية، وأن ذلك القيصر كان زوج خالته، وكان لخالته بنت لها ولد يسمى الإسكندر سويرس، فالتمس منه الرومانيون أن يشركه معه فى القيصرية، فرضى بذلك، وأشركه معه، ولكن الإسكندر لم يطاوعه على أغراضه، فدبر لقتله تدبيرا عظيما، فانكشفت حقيقة الحال، وأنبأت عن وبال المآل، واستقبح جميع الناس هذه النية، فقام عليه الأهالى وهموا بقتله، فاختفى فى مكان خفى من المعسكر، فبحثوا عنه وأمسكوه وذبحوه وقذفوا جثته بعد تثقيلها بحجر فى نهر رومة، وذلك فى سنة ٤٠٠ قبل الهجرة، وولوا بعده الإسكندر سويرس الثانى، ابن خالته.

---

(١) الشرى هنا يقصد بها المأسدة الواقعة بجانب نهر الفرات، وكان المثل يضرب بها فى كثرة أسدها.

الفصل الخامس والعشرون

فى الملك الإسكندر سويرس قيصر الثانى[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٤٠٠ قبل الهجرة، وبقى إلى سنة ٣٨٧، فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة، وكان تقليده بها من طرف مجلس رومة، لا من طرف الجند كأسلافه، ولو فرض أن قيصرا من القياصرة يستطيع بتدبيره وحده أن يتدارك الدولة الرومانية، ويمنعها من الانحطاط، ويكسوها حلة العظم السابق، لما كان إلا هذا القيصر هو الذى يستطيع ذلك ويقدر عليه، بحسن سياسته، وكمال حزمه، فقد كان نصرانى الأم، وكانت أمه تسمى مامة، فكان يستشيرها فى جميع أطواره وأحواله، ويستنصحها فى جميع مشروعاته وأفعاله، ويعمل برأيها فى جميع حركاته وسكناته، فكان ملتزما لها بكمال الطاعة بقدر الاستطاعة، فلهذا أبطل جميع الأمور المخالفة الصادرة من سلفه، فأعاد صنم الشمس إلى حمص، وأخرج الأصنام الأجنبية من رومة ومنع إباحة التعبد بها فى غير محالها الخاصة بها، ولم يرض أن تتمسك رومة من الأديان الأجنبية عن الرومانيين بغير دين النصرانية، يعنى أن الرومانيين يباح لهم أن يتمسكوا بدين جاهليتهم القديم، ولا يباح لهم غيره من الأديان إلا الدين العيسوى، بأن يصير الدين العيسوى مقبولا فى هياكل الرومانيين ومعابدهم حتى لو قصدوا أن يدخلوا صورة سيدنا عيسى عليه السلام بين ما للرومانية من تماثيل الأصنام لا أحد يمنعهم من ذلك، فأصدر أمره

(١) هو القيصر سيفيروس الإسكندر، حكم من سنة ٢٢٢ حتى سنة ٢٣٥م.

بهذه الرخصة، لكن نهاه عن ذلك كهنة الأوثان الرومانية، وقالوا له: إذا تم هذا الأمر عاد على الأصنام الرومانية بالمحاق، وتمكنت الملة العيسوية من الأهالى على الإطلاق، وانقرضت عبادة الأوثان، ولم يبق إلا دين عيسى الناسخ لهذه الأديان.

ثم رتب هذا القيصر التراتيب النافعة للأخلاق والعوائد، ونظم إدارة المالية وسياسة الملكية على أحسن الأساسات والقواعد، ومكن أصول الضبط والربط أحسن تمكين، وسلك بنفسه فى حركاته وسكناته أحسن السلوك، متمسكا بالأحكام المتينة والقوانين، وسن مكارم الأخلاق الحسان، فاقتدى به رعاياه فى سلوك طريق العدل والإحسان، ولم يقبل فى ديوانه أحدا من أرباب السخرية والمضحكين، ولا أرباب الآلات من المغنين، فأمثال هؤلاء كانوا عن ديوانه من المطرودين، ولم يجالس إلا أرباب الصداقة والنصائح، وإذا ابطئوا عليه سلى نفسه بكتاب من الكتب المتعلقة بالمنافع والمصالح، فكانت لذته إما مطالعة الكتب النافعة، أو فى الرياضة العسكرية واستطلاع حركات المهاجمة والممانعة، وكان لا أحد يتكلم من مجلسه يتمنى إعادة شىء من العوائد القديمة، ولا أحداث شىء من البدع الذميمة، وطالما كان يجمع الأهالى فى المحافل العامة، ويعظهم بالخطابات والمقالات الرسمية التى تفيد الفوائد التامة، وذلك كما كان يفعل عظماء الجمهورية الرومانية فى أيام انتظام دولتهم الأولية، وكان يستشير مجلس رومة فى كافة المصالح، ويسترشدهم فيما يبديه من تجديد العمل الصالح، وقد خفف عن الأهالى العوائد والمكوس والجبايات، وكان يحيى قلوب أهل الفنون والصنائع بالجوائز الجزيلة والمكافآت، وذلك لقصد التشويق والترغيب، وتقويم ود بلاده فى زمن قريب، وكان يتدارك بحسن ملاحظته وكمال تفتيشه ما عساه أن يقع من الخلل من نواب الجهات والأقاليم، ويمنعهم من السرقة والاختلاس، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وكان مع ذلك كله له كمال العناية بالجنود والعساكر، لا يفتر عن تحسين شؤونهم طرفة عين، فيواظب على دفع جوامكهم وعلوفاتهم فى أوقاتها، وكان يفتش بنفسه على المرضى فى خيامهم، ويسأل عن أسباب أمراضهم وآلامهم، فإذا رأى أحدا منهم اشتد به المرض أمر بنقله فى المارستانات المدنية، وأمر بدفع مصاريف العلاج من طرف الحكومة والأودية، وكان يقول: يجب على الجندى

كمال الطاعة بقدر الاستطاعة، ويجب له أيضا من طرف الدولة أن يكون حسن اللباس، جيد السلام، مستور القدم، متحصلا على قوته على الوجه الأتم، وأن يكون فى جيبه جانب من الدراهم لحاجة نفسه، فكان العساكر فى أيامه مستحوذين على تلك المنافع، ولكن إذا صدر من أحدهم أدنى جنحة شدد فى الجزاء، فكان كل من تجرد من علامات العسكرية، أو حاد عن سنن التربية الحربية، أو سرق أو نهب أو اختلس أو ارتكب عوقب بما يقتضيه جرمه، وعذب بما يوجبه إثمه من جلد أو قتل، فكان حبل إجراء الأصول بمقادير الجنايات والعقوبات غير منقوض، بل هو دائما موصول.

وفى أثناء هذه التنظيمات حدث فى البلاد المشرقية انقلاب عظيم، وذلك أن أمة ألبرث، التى هى أمة قديمة تنسب إليها فارس، أو هى الفرس الأولى، ذهبت دولتها، وتولى عليها أردشير بن بابك، رأس الدولة الساسانية(١)، وهو ابن ساسان الأصغر ابن بابك بن هرمز بن ساسان الأكبر بن كى بهمن المشهور، وكان ساسان الأكبر قد تزهد لما أخرجه أبوه من الملك وجعله لداراب قبل ولادته، فأردشير من بيت الملك لا من رعاع الناس، كما قاله بعضهم، وأبو مساسان بن بابك وفى البخارى الشريف عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، عن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع» فقال بعضهم: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا أولئك»؟ انتهى.

وكان أسلاف الفرس يحجون البيت، ويطوفونه ويعظمونه لأجل جدهم إبراهيم، عليه السلام، لأنهم من ولد إسحق، عليه السلام، والعرب من ولد إسماعيل، فالعرب والفرس يجمعهم سيدنا إبراهيم، عليه السلام، فلذلك قال بعضهم، يفتخر على قحطان:

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا ... أب كان مهديا وملكا معمرا

---

(١) ولفظ أردشير مركب من كلمتين فارسيتين، إحداهما: «أرد»، بمعنى: الغضب، وثانيتهما: «شير»، اسم للأسد، فسمى الملك بهذا المركب، ومعناه، قبل العلمية ـ (بفتح العين واللام) ـ أسد الغضب. (الطهطاوى).

وقد افتخر بعض الفرس على العرب من يعرب بن قحطان سنة ٢٠٠ من الهجرة :

ألم تكن في القديم أمكم لأمنا سارة الجمال أمه
والملك فينا والأنبياء لنا أن تنكروا ذلك توجدوا ظلمه
أما بنو يعرب فليس كمن قد أسكن الله أمتنا حرمه
ولا كأبناء فارس وهمو في الأرض مثل الأسود في أجمه[١]

ولعل قائل هذا من عرب فارس بالشام وغيره، الذين كان أصلهم فرسا واستعربوا .

وقد قلنا إن أسلاف الفرس كانوا يحجون البيت ويطوفون به ويعظمونه لأجل جدهم إبراهيم، عليه السلام، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك، جد أردشير أول الساسانيين، وكانوا يزمزمون عند بئر إسماعيل، والزمزمة قراءة المجوس، حتى قيل إنها سميت زمزم لذلك، قال شاعرهم :

وزمزمت الفرس في زمزم وذلك في عصرها الأقدم

وقال شاعرهم المستعرب :

وما زلنا نحج البيت قدما ونلفى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق لنصر دينا[٢]
فطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تروى الشاربينا[٣]

(١) إن الأبيات الثلاثة الأولى توحي بأن قائلها يفاخر باليهود وليس بالفرس، وفخر الفرس هو بالبيت الرابع. . وكذلك قائل البيت السابق على هذه القطعة أرجح أنه مفاخر باليهود لا بالفرس كما فهم المؤلف. وعلى كل فإن قول الطهطاوي عن الفرس إنهم من أبناء إسحق يثير قضية تستحق البحث والتفكير.

(٢) وقوله: «لنصر دينا» أصله: لنصره دينا، فحذف المضاف وقدره ثابتا، وأعمل المصدر، ونسب دينا على ذلك. (الطهطاوي).

(٣) يشتد ميلي إلى اعتبار هذا الشعر - وبالأحرى مضامينه - أثرا من آثار المعارك الفكرية التي أثارتها الحركة الشعوبية.

وفى بعض التواريخ أن ابن الزبير[1] لما هدم الكعبة، التى هى من بناء إبراهيم، عليه السلام، قال: أطلبوا من العرب من يبنيه، فلم يوجد من يقوم بذلك، فقال: استعينوا بفارس فإنهم من ولد إبراهيم، ولن يرفعه إلا ولده[2].

وكان أردشير قبل وثوبه عاملا على إقليم من أقاليم اصطخر، وكان قد أخبره أحد المنجمين بأن ملك الفرس سيصير إليه، فوثب على ملوك الطوائف، وأخذ منهم البلاد، فملك اصطخر وهمذان والجبل وأذربيجان وأرمينية والموصل والسواد، وبنى مدينة على شاطىء دجلة شرقى المدائن، ثم رجع إلى اصطخر ففتح سجستان ثم جرجان ثم مرو وبلخ وخوارزم إلى تخوم خراسان، ثم رجع إلى فارس ونزل صول، أطاعه ملك كوستان ومكران، ثم ملك مدينة البحرين بعد أن حاصرها مدة، وألقى ملكها بنفسه فى البحر، ولم يزل مظفرا، وقهر الملوك حوله، ومدَّن المدن، واستكثر من العمارة، وقتل أردوان الأشغانى وغيره من الأردوانيين.

وكان سبب قيام أردشير وحروبه إنه أراد الاستيلاء على ملك الفرس، الذى كان لآبائه، وأن يجمعه ويستولى عليه وحده، فظفر بمراده، وسلب الملك من خصمه أردوان الذى كان ملكا على الأردوانيين، وهم أنباط السواد، يعنى السريانيين.

وكان على الأرمن ملك يسمى بابا، والأرمن هم أنباط من نبط الشام، وكان بين أردوان وبابا حروب مستمرة وفتن مستقرة، فاجتمعا على قتال أردشير، فحارباه مناوبة، ثم بعث أردشير، إلى بابا فى طلب الصلح على أن يدعه فى الملك، ويخلى بابا بينه وبين أردوان، يعنى ينفصل عنه، فلم يلبث أن قتل أردشير أردوان، ثم استولى على السواد، فأعطاه بابا الطاعة بالشام وانقاد له بعد أن كانت تحت طاعة الرومانيين، ودانت له سائر الملوك وقهرهم واستولى على ممالكهم، كما أسلفناه.

---

(١) عبد الله بن الزبير (٦٢٢ - ٦٩٢م) أحد فرسان قريش وخطبائها، خرج على الأمويين، وبايع الناس له بالخلافة، واتخذ مكة مستقرا لحكمه حتى قتله بها الأمويون فى حربهم له سنة ٧٣هـ بعد خلافة استمرت تسع سنوات.

(٢) ولا أظن هذه الرواية، المنسوبة إلى ابن الزبير، إلا أثرا من آثار الحركة الشعوبية كذلك.

ثم رجع إلى أمراء العرب، وكانت بيوتهم على ريف العراق، ينزلون الحيرة، وكانوا ثلاث فرق متمايزة:

الفرقة الأولى: قبيلة تنوخ، ومنهم قضاعة، وكانوا يسكنون بيوت الشَّعر والوبر، ويضعونها غربى الفرات، بين الأنبار والحيرة وما فوقها، وكانوا على حريتهم، فلما تملك أردشير هذه البلاد أنفوا من الإقامة فى مملكته تحت قبضته، وخرجوا من البرية ليستمروا على الحرية.

الفرقة الثانية: قبيلة العباد، وكانوا يسكنون الحيرة، متوطنين فيها.

الفرقة الثالثة: قبيلة الأحلاف، الذين نزلوا بهم من غير نسبهم، ولم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس، ولا من العباد الذين دانوا لهم، فقبيلة الأحلاف تملكت الحيرة والأنبار، وكان منهم عمرو بن عدى وقومه، فعمدوا إلى الحيرة والأنبار ونزلوا بها وخربوها، وكانت من بناء العرب منذ عهد بختنصر، ثم عمرها بنو عمرو بن عدى لما صيروها دارا لملكهم إلى أن صبحهم الإسلام واختط الخلفاء مدينة الكوفة فدثرت الحيرة، كما سيأتى.

ولما زحف أردشير على الممالك التابعة للرومانيين، كمملكة الأرمن، السالفة الذكر، وأقام دولة الفرس الساسانية الجديدة، وتلقب بالملك الأكبر، وساعدته الأقدار على اتساع ملكه، وقوة دولته، وعظم صولته فى البلاد المشرقية، التى كان أكثرها تحت قبضة الرومانيين، خشى إسكندر سويرس بأسه، وأن يتسلط على ملكه، فسار هذا القيصر سيرا حثيثا إلى البلاد المشرقية ليمنع كسرى أردشير من امتداد سطوته إليه، فأرسل إليه أردشير سفراء يطلبون منه إعادة جميع ممالك فارس التى كانت ملحقة بها فى زمن كورش الممتدة إلى جزائر الروم، فتعجب هذا القيصر من كلام كسرى، وجد السير واستمر فى طريقه، وقد تصادف أن بعض العساكر من جنده خالفوا أصول الضبط والربط فعقد مجلسا عسكريا للحكم عليهم بأصول العسكرية، وأحضرهم أمام المجلس فى السلاسل والأغلال، وقرر فى المجلس العام الحافل بحضور الخواص والعوام أن السكوت على إهمال العساكر فى أصول الضبط والربط يترتب عليه هدم الناموس الرومانى، وينتج عنه فقد شرف المملكة

الرومانية، ومحو صيتها من دفاتر الدنيا، فلما سمع أرباب المجلس هذه العبارة القيصرية ارتفعت الأصوات الأهلية على الذات الملوكية، كأنهم لم يصدقوا على قوله، فقال المجلس للخفراء: اضبطوا هؤلاء الصائحين، ووجهوهم صوب الأعداء لقتالهم عوضا عن أن يعارضوا الملك ويقاوموه، فاشتد غضب الأهالى، وتمادوا فى غيهم، واستطالوا على القيصر، وأقاموا فى وجهه السلاح، فقال لهم: أغمدوا سلاحكم، فإن مثلى لا يزعجه هذا التهديد! فبسماع ذلك منه سكنت الفتنة وحصل الهدوء والراحة، وسار هذا القيصر على العجم بنفسه، فتلاقى معهم، فانتصر عليهم نصرة مؤزرة صار بها صاحب البلاد، ومالك رقاب العباد، فهرب أردشير ونكص على أعقابه، ومكث مدة طويلة لا يشن الغارة، ولا يطلب ثأره، ورجع القيصر إسكندر سويرس إلى رومة مؤيدا منصورا، فتلقاه أهلها بالأفراح والمسرات، وأكثروا من التهانى على هذه الفتوحات.

وصورة ذلك أن القيصر بعد حضوره من السفرية دخل المجلس العالى على حين غفلة، وتكلم بمقالة رسمية مضمونها: يا أعضاء مجلس رومة، قد هزمت الفرس شر هزيمة، ولا حاجة لبسط الكلام فى هذا المعنى، بل اقتصر على ذكر قوة العدو بجنده، وبما ظفرنا به عند هزمه وطرده، فقد كان للفرس فى هذه الوقعة سبعمائة فيل يقاتلوننا بها، فقتلنا منهم مائتى فيل، وسلبنا ثلثمائة، أحضرنا منهم إلى رومة ثمانية عشر، وكان عندهم ألف عربة مسلحة بالمناجل مطقمة بالعساكر المقاتلين بهذه الآلات، فهزمناهم، وأخذنا منهم مائتين، ولم أحضر بهما هنا لأنه لا طائل إلى ذلك حيث لا حاجة بعد الأثر فى هذه الأشياء إلى العين، وقد هزمنا فرسان الفرس، وكانوا مائة وعشرين ألفا، فبددنا جموعهم، وقتلنا منهم عشرة آلاف مدرعين، وسلبنا دروعهم، وجعلناهم عدة لعساكرنا، وأسرنا من عساكرهم عددا كثيرا، صار مبيعهم، وقد أعدنا إلى دولتنا الرومانية بلاد الجزيرة الفراتية التى لم يحمها القيصر سلفنا، وقد بددنا شمل أردشير، مع إنه فى المشرق مشهور باسم الملك الكبير، وفى الحقيقة هو عظيم الدولة، فخيم الصولة، فقد ولى الأدبار، والتجأ إلى ممالكه بوصف الذل والانكسار، وقد نصبنا أعلامنا فى جميع الأماكن التى كانت تحت أحكامنا، حتى أن أعلام أردشير قد بقيت بعد فراره تحت أيدينا،

فهذه بضاعتنا ردت إلينا. فقد بسطنا للمجلس هذه الغزوة بغاية من الدقة فى العبارة، والعيان دليل صدق، بل تكفى فى مثل ذلك الإشارة، فاغتنام العساكر دليل ظاهر، وقد أنساهم هذا الانتصار ما كابدوه من الأخطار، فعلى المجلس أن يأمر فى المعابد والمشاهد بنشر أنواع الشكر والمحامد، فى مقابلة هذه النعمة التى لا ينكرها إلا جاحد معاند.

فأجاب أرباب المجلس عن هذه المقالة: أيها القيصر قد استحقيت[1] الامتياز بلقب الفارس الأول، والاختصاص بهذه المزية، حيث انتصرت على الفرس نصرة حقيقية، والفضل فى تلك النصرة إنما هو لحسن تدبيراتك العسكرية.

ثم خرج من المجلس وذهب إلى الميدان العام، وركب على منبر الخطابة، فاحتفل به الخواص والعوام، فقال: يا أيها الرومان، قد هزمنا جنود فارس، ورجعنا بجنودنا سالمين غانمين، فنعدكم بالإنعام والإكرام، وفى يوم غد نمنحكم بالألعاب الميدانية، لإشهار أفراح هذه النصرة السنية. فصاح جميع الناس يلهجون: ما أسعد رومة بطول عمر الملك المنصور، مجدد مجد الحكومة!

ثم جرد هذا القيصر عساكره على جرمانيا، وسيَّرهم إليها جندا بعد جند، وكانت قد أقامت عليه راية العصيان، وكان يخشى من دخولها على بلاد الرومان، فكانت هذه الغزوة منحوسة عليه وعلى جنوده، حيث أخلت بناموس أعلامه وبنوده، فإنه لما وصل إلى معسكر سيانسه بفرانسا، حدثت الفتنة بين جنوده فى المعسكر، وقام بعضهم على بعض، ولم يلتفتوا للعدو الأكبر، وهاجوا وماجوا، وعصوا أمر هذا القيصر، بل تجاسروا عليه، ودخلوا فى خيمته وذبحوه، وكفوه شر قتال الأعداء، ومن نكد الحيلة أراحوه، ولم يلتفتوا لوجوب إبقائه لمصلحة أوطانهم، ولا نظروا أن فى حياته إحياء عزهم وسلطانهم. وقل أن تجد من السفهاء

(١) كان الأولى أن يستخدم المؤلف كلمة: «استحققت»، ولكن الطهطاوى يستخدم: «استحقيت»، كما يلفظها العامة فى لغتهم، وهذا مثل لاستخدامات كثيرة لا يلتزم فيها المؤلف أسلوب الفصحى ولا قواعدها، تركناها كما هى، معالم لعصره وأسلوبه، واعتمادا على وضوحها للقارىء وحاسته اللغوية والبلاغية، كما سبق ونبهنا على ذلك.

والأوغاد من يسلك فى جادة الرشد والسداد. وكان مقتله فى سنة ٣٨٧ قبل الهجرة، وبموته انقطعت القياصرة الشامية، الذين هم فى الحقيقة من بلاد إفريقية، بالأقطار المغربية، وتولى بعده مقسيمينوس.

وكانت مصر فى عهد الإمبراطور الإسكندر سويرس الثانى قد تجدد فيها نوع من العمارية، وتقدمت فيها العلوم والمعارف، من أدبيات وفلسفة وغيرها، واكتسبت مصر فى أيامه من التقدم والتمدن نظير ما اكتسبته رومة وغيرها من المدن الرومانية، وحصل على جميع البلاد الداخلة فى حكم الرومانيين كثير من الإصلاحات والتنظيمات والتدابير الحسنة، ولو كان فى أجله فسحة لحصل للأهالى الرومانية كمال المنحة.

الفصل السادس والعشرون

فى الملك مقسيمينوس قيصر الأول، ويسمى مخشيميان قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٨٧ قبل الهجرة، وحكم إلى سنة ٣٨٤، فكانت مدة حكمه أربع سنين.

وكان هذا القيصر عاتيا جدا، فظا غليظا، حسا ومعنى، خارجا فى ضخامة الجسم عن حد العادة، جافى الطبع والعقل والجسم، فهو أقرب غلظة إلى الحيوانية غير الناطقة، بل ما أقصاه من محاسن السلاطين، وأدناه من مثالب الشياطين كما قيل:

شخص خبيث لو طلبت اسمه — من أحد يوصف بالضن

لبادر الحال إلى كشفه — وقال: عفريت من الجن

فكان إذا تختم فى أصبعه تختم بأساور زوجته، فتكون على قياس أصبعه، وإذا ضرب الفرس بقبضة يده كسر أسنانها، وكان يسحق بيده الأحجار، وكان فيه قوة شديدة بحيث يفلق الشجر فلقتين بيديه، وكان يسحب العربة الكثيرة الأحمال وحده، ولا يحتاج إلى مساعدة ولا إعانة، وكان يأكل فى اليوم أربعين رطلا من اللحم، ويشرب جرة من النبيذ زنة خمس وعشرين أقة.

وهذه الأوصاف وإن كان يشم منها رائحة المبالغة والإطراء، إلا أن أصلها لا

---

(١) هو القيصر مكسيمينوس تراكس، حكم من سنة ٢٣٥ حتى سنة ٢٣٨م.

يخلو من أن يكون صحيحا بعد تلطيفها بمزيد التحرى ودليل الاستقراء، وإلا فلا يبعد على المؤرخ من أى قبيل أن يلحق النملة بالفيل.

وكان أبوه من جنس الغوطية، وأمه من جنس اللان، وكان عملاقى[1] الجسم، يعنى من الرجال الطوال الشداد، أشبه بما يؤثر عن قوم عاد.

وقد رقى إلى المنصب القيصرى بصدفة عجيبة، وذلك لأن القيصر سويرس كان قد صنع عيدا مشهودا على ساحل نهر طونة بمناسبة مولد ابنه جيط، وكان مقسيمينوس يرعى الماشية بهذا الساحل، فحضر فى المعسكر والتمس قبوله من ضمن اللاعبين فى هذا الفرح، فعجب القيصر من ضخامة بنيته ومن منظره الهائل، ورأى أن مثله يليق للمنازلات والحروب، فأذن له أن يتصارع مع أقوياء العساكر ليجربه. فطرح من المبارزين معه على الأرض ستة عشر صنديدا، واحدا بعد واحد، وغلبهم فى أقرب وقت من غير تخلل زمن للاستراحة، فأمر القيصر بقيده فى جريدة[2] الجنود، وانتظامه فى سلكهم، ولا زال فى أفراد العسكرية إلى أيام الإسكندر سويرس قيصر، فأعطاه الإسكندر المذكور رياسة جيش ليعلمه وينظمه ويربيه التربية العسكرية، فرتبه أحسن ترتيب وأتم نظام، وضبطه ضبطا كاملا، وعلم شبان هذا الجيش الحركات العسكرية، وتدبيرات الحيل الحربية، وكان يناضلهم ويصارعهم بنفسه، فلما مات القيصر الإسكندر سويرس بايع مقسيمينوس الأول جنوده عند شطوط نهر الرين وجعلوه إمبراطور الرومانيين، فأقام البرهان بأفعاله وحركاته على عدم أهليته واستحقاقه للمنصب الملوكى، لأنه جسم بدون عقل، وذلك إنه لما عبر نهر الرين أحرق مقدارا عظيما من القرى والبلدان التى على طريقه، ثم تقدم فى السير إلى إيطاليا، وجعل معسكره فى مملكة النيمسا، وأصدر أوامره بقتل أغنياء من إيطاليا وأعيانها، وأمر أن يرسلوا إليه فى معسكره لتنجيز قتلهم، فبعثوا بهم إليه على عجل، فصار يقتلهم بالصلب أو يقذفهم فى أفواه الوحوش المفترسة، ثم اقتفى أثر النصارى بالقتل والتعذيب، لا

---

(١) فى الأصل: عمليقى.

(٢) جريدة هنا معناها السجل الذى ترصد فيه أسماؤهم.

سيما القسيسين والأساقف، وكان كل من قبض عليه منهم صلبه أو أغرى الوحوش على افتراسه، وكان يحتقر النوع البشرى أشد الاحتقار، فكان الإنسان عنده كلاشيء. وبالجملة، فهو أشد القياصرة لؤما وخسة، وأقلهم مروءة وإنسانية، حتى أنه صرح لأعيان دولته بذلك، فقال: أنا لا أريد أن أحكم إلا على رعية مستعبدة ذليلة! فلو قيل فى حقه:

إن هو مستوليا على أحد إلا على أضعف المجانين

لكان عين مناه، ولكن لم يتركه الأمراء والجنود يستمر على فعل مرامه ولا بلّغوه مقصده من كل الوجوه، بل حكموا بعزله، وولوا بدله قيصرين مشتركين فى الإمبراطورية، وهما قيصر غوردیانوس الأب وقيصر غرديانوس الابن، فكان عزل من ذكر وتوليتهما فى سنة ٣٨٤ قبل الهجرة.

الفصل السابع والعشرون

فى الملك غرديانوس قيصر الأب

وابنه الملك غرديانوس قيصر الأصغر(١)

تسمى هذه المدة مدة الغرديانوسيَّين - بصيغة التثنية - وبيان ذلك أن فى سنة ٣٨٤ قبل الهجرة، كان فى أفريقية بمملكة قرطاجة من طوف الرومانيين شيخ هرم يسمى غوردديانوس، من وجوه العائلات وأعيانها، وكان له ابن يسمى غوردديانوس الأصغر، وكان استقر الأمر فى مجلس رومة عقب عزل مقسيمينوس الأول على توليتهما معا وتسريكهما فى الإمبراطورية، فولياها معا، وكان على مملكة قرطاجة نائب للرومانيين يسمى قابليانوس، فقاتلهما وهزمهما، وأوقع الافتتان بينهما حتى اقتتلا، فقتل كل منهما صاحبه، فعين مجلس رومة عوضا عنهما قيصرين آخرين يسمى أحدهما بوبيانوس(٢)، ويسمى الناس قلودس بلبينوس، فلما سمع مقسيمينوس، وكان قد أغرى على قتل خصميهما، بتوليتهما، وكان قصده بالإغراء العود لمنصبه، استشاط غيظا، وتغير مزاجه، واختبل عقله، فهاج وماج، ومزق ثيابه، وتدحرج على الأرض، وخرج من طور البشر، وثار ثورة الوحوش، وصار يزأر ولا زئير الأسد الكاسر، ثم أفاق بعد برهة فجد السير لقتال خصميه، فافتتن جيشه، وعظمت الفتنة بين العساكر فقتلوا ذلك القيصر المعزول سنة ٣٨٤

---

(١) هما القيصران: جورديان الأول، وجورديان الثانى، حكما فى سنة ٢٣٨م.

(٢) ويسمى: بوبينوس.

قبل الهجرة، فكان كالساعى لحتفه بظلفه، ونفذت تولية بوبيانوس وبلبينوس قيصرين رغما من أنفه.

فقد حصل أيضا فى هذه الدفعة ولاية قيصرين فى آن واحد، يحكمان الرومانيين بالاشتراك، وكلاهما من عائلة خاملة دنيئة الأصل، فقد كان والد بوبيانوس إقفالى، كما كان والد بلبينوس من أولاد الموالى، ولما كانت ولايتهما بدون انتخاب الجنود الرومانية، ولا بإقرارهم عليها، بل كانت من قبل مجلس رومة، أبى أمراء الجنود إقرارهما على القيصرية، ولم يمتثلوا لهذا الانتخاب، حيث لم يكن لهم فيه مدخلية، لا سيما وقد تكرر استبداد مجلس رومة بتعيين القياصرة عدة مرات، فكانت أمراء الجنود تعد هذا بالنسبة لحقوقهم الادعائية من قبيل الافتيات، فتصادف ذات يوم دخول أميرين من أمراء الجنود فى مجلس رومة، بعد انتخاب هذين القيصرين، وكان دخولهما بلا أذن فى المجلس، فغضب أربابه من هذا التهجم، وحكموا عليهما بالقتل، فقامت الفتنة فى الخفر القيصرى، فقتلت الجنود القيصرين فى أثناء هذه الفتنة، وكان ذلك فى سنة ٣٨٤ المذكورة، وولوا بدلهما غرديانوس الثالث ابن حفيد غرديانوس الأكبر.

الفصل الثامن والعشرون

فى الملك غورديانوس قيصر الثالث[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٣٨٤ قبل الهجرة، وحكم إلى سنة ٣٧٨. فكانت مدة حكمه ست سنوات.

قد بايع الجنود القائمون على مجلس رومة بالقيصرية لصبى عمره دون الخمس عشرة سنة يسمى غورديانوس، من ذرية غورديانوس السابق، الذى كان ولاه مجلس الرومانيين مع ولده، وكانت ولاية هذا القيصر بدل القيصرين، وكان أيضا عوضا عن مقسيمينوس الذى قتلوه بعد عزله، ولما كان هذا الشاب قاصرا لم يبلغ سن الرشد، ولا يعتمد على مثله، لعدم تجاريبه، مع عدم الأمن من الأخطار، أرفق معه المجلس الرومانى وزيرا حسن التدبير، فصيح اللسان، يسمى ميسوطش، ليساعده على إدارة المملكة، فكان وصيا على القيصر وعلى الدولة الرومانية، فبكفالة هذا الوزير انتظم حال الدولة الرومانية فى أيام هذا القيصر وارتفع شأنها، وقويت شوكتها، وسارت بحسن سيرتها الركبان.

وكان فى عهده قد قامت أمة الإفرنجية، يعنى الأمم المتبربرة التى جاءت من البلاد البعيدة، وأغارت على فرانسا، وأقامت بها، فهجموا على إقليم جرمانيا الرومانى، وقصدوا التغلب عليه، فخلصه من غائلتهم قائد الجيش القيصرى المسمى أورليانوس، الذى سيأتى أنه تولى قيصرا فيما بعد، فقد هزم هذا القائد

(١) هو القيصر جورديان الثالث، حكم من سنة ٢٣٨ حتى سنة ٢٤٤م.

الأفرنج شر هزيمة، وقد سار القيصر غورديانوس بنفسه بجيش جرار لغزو سابور بن أردشير، كسرى الفرس، فانتصر عليه نصرة عظيمة، كما انتصر أيضا فى هذه السفرة على أمم السرماطية والغوطية الذين أغاروا على بلاد روم ايلى مع أمة اللان، ثم سافر إلى الشام فطرد نواب الفرس منها واقتفى أثرهم وطردهم من الجزيرة، وأخذ منهم عدة مدن، وانتصر نصرة عظيمة، وكان ملك فارس إذ ذاك سابور بن أردشير، الذى فتح حصن الحضر، وهو غير سابور ذى الاكتاف، الذى هو تاسع الأكاسرة بعد أردشير، ولا بأس بذكر تاريخه، فنقول:

إن المذكور يسمى بالفارسية شابور بالشين والباء الفارسية، وهذا الاسم مركب من شا، مختصر شاه، بمعنى سلطان، وبور، بمعنى ولد، يعنى ولد السلطان، فعربته العرب بلفظ سابور، بالسين المهملة. وسبب تسميته بذلك أن أردشير لما حارب أردوان وقتله أراد أن يقطع نسله فقتل أولاده وأحفاده، وأسر أتباعه وجواريه. فيوما من الأيام رأى أردشير فى قصره جارية بديعة الجمال فافتضها، وكان يتسراها ويتخذها حظية، فسألها يوما عن جنسها، فأخبرته أنها بنت أردوان ملك الأرديوانيين، فغضب الملك من هذا الكلام، وطلب الوزير وأمره بقتلها، فأخذها الوزير لإنفاذ الأمر، فلما رأى براعة جمالها أخذته الشفقة، فسألها عن أحوالها، فأخبرته بأنها حامل من الملك، فلما تيقن صدق كلامها قطع ذَكَره وخصى نفسه نفيا للتهمة، ووضع ذكره فى زجاجة وختمها بخاتم الملك وأودعها عند خازن الملك، ثم ولدت الجارية ولدا فسماه الوزير شابور، يعنى شاه زاده، ورباه تربية ترشيح للملك.

وكان أردشير لم يرزق بولد يرثه، وكان مغموما من ذلك، فيوما من الأيام تأوه وقال: إنى سخرت العباد، وفتحت البلاد، وكان ليس لى وارث يرث الملك. فعند ذلك أخبره الوزير بما فعله، وجيء بالآلة المقطوعة نفيا للريبة، وأخبره إنه سماه شابور من يوم وضعه، ففرح الملك بذلك فرحا عظيما.

ثم لما مات أردشير ورثه شابور وصار ملكا كبيرا ذا سطوة قاهرة، وكان حسن التدبير، فأفاض العطاء لأهل الدولة، وتخير العمال. ثم شخص إلى خراسان

فمهد أمورها، ثم رجع فشخص إلى نصيبين فملكها عنوة، فقتل وسبى وافتتح من الشام مدنا وحاصر أنطاكية، وكان بها قيصر الرومانيين والريانوس فاقتحمها عليه، وأسره وحمله إلى جنديسابور فحبسه بها إلى أن فاداه على أموال عظيمة، ويقال بل فاداه على بناء شادروان تسترا، جهة همذان، ويقال جدع أنفه وأطلقه، ويقال إنه قتله، وكان قد سبقت إغارة سابور على إيالات الرومانيين، وصار الحرب بينه وبين غورديانوس فهزمه غورديانوس وأبعده عن الإيالات الرومانية بالبلاد المشرقية، ورجع ثانيا فى أيام والريانوس - كما سيأتى فى الفصل الثالث والثلاثين عند ذكر والريانوس قيصر.

وأما قصته مع صاحب الحضر فمجملها: إنه كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر، وبها ملك من الجرامقة يقال له الساطرون، من ملوك الطوائف، وتسميه العرب الضيزن، من قضاعة، وكان بأرض الجزيرة، ومعه من قبائل قضاعة من لا يحصون عددا، وكان ملكه قد بلغ الشام حيث اغتنم فرصة غزاء سابور فى أرض العراق، فشخص إليه سابور عند انقضاء غزواته حتى أناخ على حصنه الذى هو الحضر، وحاصره سنتين، وقال الأعشى:

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمى وهل خالد من نعم

أقام به جند سابور حولين يضرب فيه رؤوس القمم

وكان للساطرون، وهو الضيزن، ابنة تسمى النضيرة، خرجت إلى ربض المدينة، وكانت من أجمل النساء، وكان سابور جميلا أيضا، فأشرقت عليه فشغفت به وشغف بها، وداخلته فى أمر الحصن ودلته على عورته فدخله عنوة بعد تمام الحصار أربع سنين، وقتل الضيزن وأباد قضاعة الذين كانوا معه، وخرب حصن الحضر، وقال على بن زيد فى رثائه:

وأخو الحضر إذ بناه واد دجلة تجبى إليه والخابور

شاده مرمرا وجلله كأسا فللطير من ذراه وكور

لم يهبه ريح المون فباد الملك عنه فبابه مهجور

ثم أعرس بالنضيرة بعين النمر، وباتت ليلتها تتضرر فى فراشها، وكان من الحرير محشوا بالقز، فإذا ورقة آس بينها وبين الفراش تؤذيها، فقال: ويحك!! بم كان أبوك يغذيك؟ قالت: الزبد والمخ والشهد وصفو الخمر! فقال: وأبيك، لأنا أحدث عهدا، وأبعد ودا من أبيك الذى غذاك بمثل هذا! وأمر رجلا أن يركب فرسا جموحا ويعصب غدائرها بذنبه، ولم يزل يركضه حتى تقطعت أوصالها!

ومن أمعن النظر فى كيفية ولادة سابور المذكور، وفى قطع مذاكير الوزير، وفى ورقة الآس التى تأثرت منها النضيرة، وما ماثل ذلك، طرح غث هذا الكلام ظهريا، واستصفى الحوادث التاريخية مما يكون به أصل التاريخ حريا.

وظهر فى أيام سابور المذكور مانى بن مازن، الزنديق، وادعى النبوة، وتبعه خلق كثير، وكان قد جمع له كتب فلسفة اليونانيين ونقلها إلى اللغة الفارسية، فرجع سابور عن مذهب المجوسية إلى مذهب مانى والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد بعد ذلك إلى دين المجوسية، ولحق مانى بأرض الهند لأسباب أوجبت ذلك. وإلى مانى، المذكور، تنسب المانوية، الذين يقولون بالأصلين وهما: النور، والظلمة، فالنور أصل الخير، والظلمة أصل الشر، وقد لهج الشعراء فى تغزلاتهم بذكر مذهبهم تصديقا أو تكذيبا، فمن ذلك قول الشاعر:

هدى بثناياه وضل بشعره ... فكدنا نقول المانوية تصدق

وقال من رد عليهم:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبر أن المانوية تكذب

وقاك سرى الأعدا تمر بحيهم ... وزارك فيه ذو البنان المخضب

ومدح الظلام أيضا البهاء زهير[1] فقال:

---

(١) بهاء الدين زهير، محمد بن المهلبى (١١٨٥ـ ١٢٥٨م) كاتب وشاعر، خدم الدولة الأيوبية، وتولى ديوان الرسائل بمصر لفترة من الزمن.

قد ستر الليل علينا وغفر ... وما لذيذ العيش إلا ما استتر

لليل عندى من إذا اعتكر ... يلحفنى جناحه عند الحذر

كم حاجة قضيت فيه ووطر ... أودعته سر الهوى فما ظهر

رق على قلبه كما كفر ... أشكره وأن مثلى من شكر

وللعلامة الأمير[1] في الرد على المجوس الثنوية والمانوية قوله:

وكم ليلة بات الحبيب مؤاتى ... وقد سترتنا من دجاها ذوائب

ولما بدا نور الصباح فراعنى ... تبين لى أن المجوس كواذب

وقال أيضا:

وافى الحبيب بليلة ... وأزال عنا كل بوس

وبدا الصباح فراعنا ... لا شك فى كذب المجوس

وقال من حسن الظن بهم: إنهم عنوا بالنور صفات الجمال، وبالظلمة صفات الجلال، فإن أنواع الخير من آثار الأولى، وأنواع الشر من آثار الثانية، فعلى هذا يكون لا إشراك عندهم، ولكن مفردات كلامهم تأبى ذلك التأويل.

فالذى فتح حصن الحضر هو سابور بن أردشير، صاحب الحروب مع غورديانوس قيصر مع بعض من خلفه من القياصرة، كما سيأتى، وأما سابور ذو الأكتاف فهو بعد سابور بن أردشير بنحو أربعين سنة، وهو فى زمن قسطنطين قيصر الروم، وإنما سمى ذا الأكتاف لأنه لما حارب عربان الحجاز وقهرهم كان كلما أخذ أعرابيا أسيرا يثقب كتفه ويجعل فيه حبلا ليقوده، فسمته الأعراب ذا الأكتاف.

ثم بعد انتصار القيصر غورديانوس على كسرى حصل له مزيد الفخر عند الرومانيين، وكان قبل ذلك قد تزوج ببنت ميسوطش، كافل الدولة، فلا زال لهذا

---

(١) الأمير، محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر بن عبد العزيز السنباوى (١٧٤٢ - ١٨١٧) من فقهاء المالكية بمصر، وصاحب مجموعة كبيرة من الحواشى والشروح على كتب الفقه.

الوصى النفوذ باقيا على حاله فى الدولة الرومانية، وكان من أمراء الجيوش الرومانية قائد شهير يسمى فليبش، أصله من العرب، وكان يحقد على كافل الدولة وعلى القيصر، فدس لكافل الدولة السم فتعاطاه فمات مسموما بذلك، ثم أوقع فيلبش الفتنة بين الجند حتى افتتنوا فتنة عظيمة قتل فيها غرديانوس الثالث بإغراء فليبش، وذلك فى سنة ٣٧٨ قبل الهجرة، فحمل فليبش الجند على أن يبايعوا له بالإمبراطورية، فبايعوه وتم له الأمر.

الفصل التاسع والعشرون

فى الملك فليبش قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٣٧٨ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٣٧٣، فمدة حكمه خمس سنين. وكان هذا القيصر عربى الأصل، وابتداء ولايته عبارة عن استمرار الاختلال والاغتصاب للإمبراطورية الرومانية بدون انتظام ولا اعتبار حقوق فى التولية، فمن عهد هذا القيصر لم يكن المنصب الإمبراطورى إلا غنيمة يستلبها رؤساء الجنود وقواد العساكر، ويغتصبونها بدون حق ولا أهلية فى الغالب، فكان يستولى على المنصب من غلب.

وقد فتح فليبش المذكور باب التغلب على السرير القيصرى بقتل سلفه، ومع ذلك فلم يجتن ثمرة جنايته، ولا اغتنم مزية فرصة خطيئته، ولا فرح بالقيصرية مدة طويلة، بل ظهر له خصمان منغصان لعيشته، منكدان عليه طول مدته، لينتزعاها من يده، أحدهما: يسمى بطيبانوس، ولم يعش هذا المعارض إلا قليلا حيث قتله عساكره، ودارت عليه من صروف الدهر دوائره، وثانيهما: من أعضاء مجلس رومة، يسمى دوقيوس، فاستظهر على فليبش بجنود الرومانيين المحافظين فى بلاد البشناق والصرب والبلغار، وكانوا يميلون إليه ويتعصبون له، فمات فليبش فى واقعة بقرب مدينة ويرونه من مملكة البنادقة. وكان فى مدته قد عقد الصلح مع

---

(١) هو القيصر فيليب العربى، حكم من سنة ٢٤٤ حتى سنة ٢٤٩م، واشترك معه ابنه فيليب فى الحكم من سنة ٢٤٧ حتى سنة ٢٤٩م.

سابور بن أردشير ببلاد العجم بعد قتل سلفه، وعاد إلى رومة، وسلك سبيل التحبب مع كبارها وأعيانها، وكان من مبدأ أمره متشبثا بتقوية شوكته، فأعطى المناصب لأقاربه وأحبابه ليعضده ويمنعوا عنه الأذى، ولكن المولى سبحانه وتعالى مطلع على القلوب والضمائر، لا يترك الخطايا والذنوب بدون مجازاة، فلم يفز فليبش بالمملكة الرومانية، بل بويع دوقيوس قيصرا على الإمبراطورية الرومانية، وحرم منها فليبش، وكان ذلك فى سنة ٣٧٣ قبل الهجرة.

الفصل الثلاثون

فى الملك دوقيوس قيصر[1]

تولى الإمبراطورية سنة ٣٧٣ قبل الهجرة، وبقى إلى سنة ٣٧١، فكانت مدة حكمه نحو السنتين لا غير. وكان هذا القيصر من بلاد استوريا، من ممالك النيمسا، وكان من عائلة خاملة الظهور، فارتفع إلى درجة القنصل، يعنى الحاكم الكبير، بمجرد معارفه، لا بحسب ولا نسب، ومع ذلك فقد كان مغتصبا للملك، سفاكا للدم، غادرا خائنا، لا يبالى بشىء، فقد وقع فى أيامه مفاسد عظيمة فى الدولة الرومانية حتى كادت الدولة أن تكون على خطر عظيم، فاقتضى الحال أن سار بجيشه إلى سواحل نهر طونة لتخليص الإيالات الرومانية مما عساه أن يحدث فيها من زحف الأعداء عليها، وذلك لأن أمم الغوطية والهيرولية والبرغولية خرجوا من أقاليمهم الشمالية واجتازوا نهر طونة، مع رئيسهم المسمى أقليوة، وأهلكوا الحرث والنسل فى طريقهم بجهة روم إيلى مما كان تحت الرومانيين، فتصادم معهم جند الرومانيين هناك وهزمهم، وبعد أن ظهر الرومانيون عليهم كمال الظهور، وكانت هذه الأمم قد طلبت من الرومانيين الصلح، ولم يرض الرومانيون مصالحتهم، وأبوا إلا قتالهم، عادت الهزيمة على الرومانيين، وكانت شر هزيمة، وهلك فيها قيصرهم دوقيوس سنة ٣٧١ قبل الهجرة، وخلفه القيصر غالوس، الآتى ذكره، ويقال له والوس، وأشرك معه فى الإمبراطورية هوسطليانس، وغدر به فيما بعد، كما سيأتى فى الفصل بعده.

---

(١) هو القيصر دسيوس، حكم من سنة ٢٤٩ حتى سنة ٢٥١م.

وكان القيصر الهالك، وهو دوقيوس، قد أمر فى أيامه بالتشديد على المتنصرين بقتلهم وسلبهم وتعذيبهم، لأنهم كانوا يحبون سلفه فليبش، وكانوا متعصبين له، فكانت أيام دوقيوس مصيبة عليهم، ولم يذق النصارى من النكبات شدة أعظم مما ذاقوه فى أيامه، وكانت مدة حكمه كحكم عدة ممن تقدمه ذات أحكام مختلة، وأصول معتلة منحلة، عرضة للمحو والإثبات، قليلة الرسوخ والثبات، كأنها لم تكن إلا مؤقتة، وكان الظلم والفتن العسكرية كالمحن العمومية، أقرب رسوخا ودواما من رسوخ القوانين الملكية، وكانت عناصر هذه الاختلالات تتولد فى بعض الأقاليم الرومانية، ثم تسرى فى باقيها كالأمراض الوبائية المعدية، وكان المصريون دائما مصرين على تمسكهم بعقائدهم القديمة، وعوائدهم المستديمة، لا يريدون أن يتزحزحوا عنها، وكان إذ ذاك دعاة دين النصرانية مجتهدين فى حمل المصريين على التمسك بدين المسيح، فكانوا يحاولون إدخاله فى ديار مصر للإرشاد إلى الدين القويم، والصراط المستقيم، وكان لهم فى مصر أحزاب يدعون إلى الإنجيل، لإرشاد الخلق إلى الصواب، وذلك لا يخلو عن فائدة، ببذل الهمم المتزايدة، فى أثناء ذلك ظهر من بين ظهرانى المصريين داع لإحياء الدين القديم، متعصبا لإنعاش عبادة الأصنام، واستمالة القلوب للانقياد لتعظيم الأوثان والاستسلام، وأغرى الجم الغفير على رفض دين ابن مريم، ودعا النصارى إلى الردة، واستفحل أمره واستحكم، فنهبوا بيوت النصارى بالديار المصرية، وكثر النهب بمدينة الإسكندرية، حيث كانت مأوى المتنصرين، ومثوى المتنصرين، وقد اختل نظامها قبل عهد دوقيوس، وفى أيامه عظم الاختلال، واشتدت الفتنة على النصارى لا على سابقة مثال، وصار تعذيبهم بعد من أبرك المصالح، ويحسب من العمل الصالح، فاقتفى أثرهم، وكثر التفحص عنهم، فهربوا فى صحارى الصعيد الأعلى، وانزووا فى أقطارها، وترهبنوا، واتخذوا للرهبانية فى كل جهة من تلك الجهات محلا، وهذه الفرق الهاربة المصرية أول من ترهبن، وسكن الديور، وسن الرهبانية، والتجأ إلى البرارى والقفار، ولم تكن الرهبانية إذ ذاك معروفة لأحد، حتى أن القسيسين على اختلاف مراتبهم لم يكونوا مجبورين على ذلك.

ويقال إن مثير الفتنة والتعصب على النصارى إنما هو اليهود والمصريون عباد الأصنام، فكانت الحكومة الرومانية بالديار المصرية تساعد المتعصبين أرباب الحمية، لتوقع الفشل والشقاق، وتؤكد العداوة بين أهل الأديان من رعاياها، لتدوم شوكتها، ويستمر حكمها، فلهذا حصل فى تلك الأزمان تغيير وتبديل فى صورة الحكومة المصرية، بتدبير رئيس الحكومة فى الإسكندرية، فترتب فى الديار المصرية أمير كبير رئيس على الجيوش الرومانية بديار مصر، ثم أمير مصرى الأصل بمقام تلك يأمر وينهى فى الملكية[1]، وهذان الأميران اللذان أحدهما عسكرى والآخر ملكى، زيادة على الحكمدار العمومى، الذى هو قائمقام القيصر على مصر، فقد بقى على ما كان عليه، وإنما كان ضعيف التصرف مع وجود الأميرين السالفين، فكانت الحكومة المصرية فى ذلك العصر كحكومة مصر فى أيام حكم المماليك، حيث كان المتولى عليها فى الحقيقة اثنين، وهما: شيخ البلد، ورئيس العساكر، وكان الباشا المقيم فى القلعة نائبا صوريا عن الدولة العلية، والأحكام فى يد غيره.

فقد يتقارب الوصفان معنى ... وموصوفاهما متباعدان

وكانت قوة عبادة الشمس والقمر فى ذلك العصر لم تزل متينة متمسكا بها بدون أن يعتريها ضعف ولا وهن، لا سيما فى عهد غورديانوس الثالث وفليبش ومن بعده، فقد كان التمسك بها لم يزل فى هياكل مصر والنوبة، ولم يتحول عن دين الصابئة أحد من العائلات المصرية والنوبية، فكان هذا كله مما يقوى عزم المصريين على إثارة الفتن والشرور، ويبعثهم على القيام على الرومانيين وعدم الانقياد لهم، فكان المصريون يساعدون من تحزب على الحكومة المصرية وخرج عن طاعتها من أمراء الرعايا والأغراب، ويعينون كل من أراد خلع الإمبراطور، فطالما أعانوا من أراد اغتصاب المنصب القيصرى ونصروه، والغالب أن أرباب الافتيات على الحكومة الرومانية إنما هم من الأجانب، فكانت نتيجة ذلك كله حصول الفتن العظيمة، والحروب الداخلية الجسيمة، وما ترتب على ذلك من القحط والوباء، مما

(١) الملكية، أى: الأهالى، ويقابلون الجنود.

أهلك أهالي مصر وقلل عددهم، وكان مما يقوى المصائب الرومانية انتخاب القياصرة من أرباب الخمول والدناءة، وهذا مما كان يعود بالخسارة على مصر بخصوصها، وعلى المملكة الرومانية بعمومها، لأن القياصرة الذين لا أصل لهم ولا فصل لا يبالون بارتكاب القبائح المضعفة للدولة الرومانية، كما سيظهر ذلك عند الكلام على زنوبية ملكة تدمر عند ذكر أولريانوس قيصر.

الفصل الواحد والثلاثون

فى الملك غالوس قيصر، ويسمى أيضا والوس[1]

تولى الإمبراطورية سنة ٣٧١ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٣٦٩، فكانت مدة حكمه سنتين.

لما انهزم جند الرومانيين فى روم إيلى بانتصار أقليوه رئيس القبائل الشمالية عليهم نصرة مؤزرة، وقتل فى هذه الواقعة دوقيوس، حصل للجند غاية الخجل من ذلك، فلم يقلدوا الإمبراطورية لوالوس ولا لهوسطليانوس بن دوقيوس، بل انتظروا قرار المجلس الرومانى فيمن يتولى القيصرية منهما، وكان غالوس معدودا من قواد العسكرية الرومانية، وكان قد ارتقى بغيرته واجتهاده إلى درجة عالية فى المملكة، فحمل من معه من الجند على مبايعته، وأشرك معه هوسطليانوس بن دوقيوس فى الإمبراطورية. وكان لغالوس ولد يسمى وولسيانوس، فأعطاه عنوان القيصرية[2]، وكل هذا حصل فى معسكر بلاد النيمسا، ثم سار من بلاد النيمسا، واستصحب معه شريكه هوسطليانوس يقصد مدينة رومة ليصدق عليه المجلس، وكان إذ ذاك فى المملكة الرومانية وباء عظيم، فاغتنم الإمبراطور فى أثناء طريقه فرصة قتل شريكه ورفيقه ليستبد بالمنصب الملوكى، وأشاع عند جميع الناس إنه مات بالوباء، ثم دخل رومة فبايعه مجلس رومة على الإمبراطورية بيعة صحيحة،

---

(١) هو القيصر تريبنيانوس جالوس، حكم من سنة ٢٥١ حتى سنة ٢٥٣م.

(٢) هو فولوسيانوس، الذى شارك أباه فى الحكم.

مؤملين إنه لبسالته إذا تقلد القيصرية ينصر الرومانيين على أخصامهم، فخاب فيه الأمل، وسلك في إدارته سوء العمل، فقد ابتدأ توليته في رومة بقتل البابا ماركورنيليوس رئيس النصارى، ثم عقد مع الغوطية صلحا ليس فيه شرف للرومانيين، حيث شرط للغوطية أن يدفع لهم الرومانيون خراجا سنويا في نظير عدم إغارتهم على بلاد رومة، فقد قرر الجزية على الرومانيين، وعاد إلى رومة مذموما مدحورا، فكان في هذا الصلح كمال الحقارة والصغار على الرومانيين، وحصل لهم منه كمال الخزى والعار، وقد قصد القيصر بتعجيله الصلح مع الغوطية على هذا الوجه أن يريح نفسه ويتفرغ لحظوظه وشهواته الخاصة به، ولم يلتفت لمصلحة الوطن، ومع ذلك فلم تتمسك الغوطية بشروط هذا الصلح، بل نقضوه، وأغاروا على الأقاليم الرومانية التي ببلاد البشناق والصرب والبلغار، وكان أمير الجيش بتلك الجهة أمليانوس، المغربي الأصل، فاجتهد في محافظة تلك الإيالات الرومانية، وهزم أمة الغوطية، فبايعه جنده على القيصرية في ميدان الحرب الذي انتصر على أعدائه، فلما سمع والوس بذلك سار إليه ليؤدبه على افتياته، فلم يبلغ مقصوده، بل قامت عسكر والوس عليه وعلى ولده فقتلوهما، وكان ذلك في سنة ٣٦٨ قبل الهجرة، وسلم أمليانوس من هذه الوقعة.

الفصل الثانى والثلاثون

فى الملك أمليانوس قيصر[١]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٣٦٨، وقتل فى سنته، بعد أن حكم أربعة شهور.

وذلك إنه أول ما جلس هذا القيصر على سرير الرومانيين سار لقتاله قائد جيش الرومانيين ببلاد الغلية المسمى والريانوس مستصحبا بجيشه المحافظ لتلك البلاد، فالتقى جند هذا القائد مع جيش القيصر فقتله هو وولده جند هذا القائد فى ميدان الحرب شر قتلة، ولم تدم مدة ملكه إلا أربعة شهور، فما سلم إلا ودع، وتولى بعده والريانوس، فانظر إلى اختلال أجناد قياصرة الرومانيين فى تلك الأوقات وإلى درجتهم فى العصيان وعدم الانقياد، وتشبثهم بقتل الأمبراطرة[٢] اعتباطا بدون علة، فقل أن يكون وقع مثل ذلك فى دولة من الدول، فما منهم من قائد إلا وهو لقيصره غير منقاد، ولا عامل إلا وحركة عمله إثارة الفتنة لعدم راحة العباد والبلاد، فكانت أيام الخلفاء فى الأزمان الحديثة تعد أيام هنا، وكان فيها نور الإسلام ساطع البهاء والسنا.

قال أحمد بن يوسف الكاتب[٣]: دخلت على المأمون، أمير المؤمنين، وبيده

(١) حكم فى سنة ٢٥٣م.

(٢) أى الأباطرة.

(٣) أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح العجلى، المعروف بالكاتب، تولى الوزارة، كما تولى ديوان الرسائل للمأمون، (توفى سنة ٨٢٨م).

كتاب، وهو يطيل النظر فيه، فبقيت متعجبا من أمره، فقال لى: أراك مفكرا فيما تراه منى؟ فقلت: نعم، وفى الله أمير المؤمنين المكاره، قال: إنه لا مكروه فيه، ولكنى رأيت كلاما نظير ما سمعت الرشيد يقول فى البلاغة، قال: هى التباعد عن الإطالة، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أظن أحدا يقدر على ذلك حتى قرأت هذا الكتاب، ثم رمى به إلىّ فإذا هو كتاب من عمرو بن مسعدة[1]، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. كتابى إلى أمير المؤمنين، أعزه الله، ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أعطياتهم، واختلت لذلك أحوالهم»! فلما قرأته قال: إن استحسانى إياه بعثنى على أن أبعث للجند الذى قبله بعطاياهم السبعة أشهر، وعلى مجازاة الكاتب بما يستحقه فى صناعته. انتهى.

فانظر إلى حسن الإشارة اللطيفة فى قول الكاتب: إن الأجناد فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أعطياتهم، واختلت لذلك أحوالهم، فإنه تلطيف فى الكتابة بإدماج السؤال، وانظر أيضا إلى ملاطفة الخليفة للجند والكاتب المذكور بإجابة سؤالهم المدمج. ويقال إنه لما مات عمرو بن مسعدة عن ثروة وغنى رفعت إلى المأمون قصة فيها إنه خلف كذا وكذا من الأموال، يريد رافع القصة إضافة مخلفاته، لجسامتها، إلى بيت المال، فوقع الخليفة على ظهرها: «هذا قليل لمن اتصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيما خلف، وأحسن لهم النظر فى ذلك»!

* الله أكبر كل الحسن فى العرب*

(١) عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول (المتوفى سنة ٨٣٢م) كان كاتبا بليغا، وتولى الوزارة للمأمون.

بتمزيق ممالكه، ويقول: ما دام إقليم إيطاليا باقيا تحت حكمى فلا أبالى بضياع ما عداه من الأقاليم، فكانت أيام حكمه عرضة لضياع ممالك الرومانيين الخارجة عن إقليم إيطاليا، فتحير الرومانيون فى أمرهم، واشتد عليهم الخطب، وداخلهم الذل والعار، وضربت عليهم الذلة والمسكنة بكسر الناموس وهدم الاعتبار، فقام عليه الجنود وقتلوه شر قتلة، لعل أن تمحى بقتله عنهم المسكنة والمذلة، وكان ذلك فى سنة ٣٥٤ قبل الهجرة، وانتخبوا بدله قلودس الثانى، إذ كانوا يرجون خيره.

وفى أيام غليانوس كان قد قام فى مصر أمير الجنود الرومانية، يسمى أمليانوس، واغتنم فرصة حرب غليانوس قيصر مع إفرنج الغلية فأرسل إليه الرومانيون طيودوطس فهزمه وقبض عليه وأرسله إلى رومة فسجن فيها، وصار قتله صبرا(*) بأمر غليانوس، وكان على مدينة تدمر ملك يسمى أدنياطوس وكان محالفا للرومانيين، فهو الذى هزم العجم المغيرين على أقاليم الرومانيين وطاردهم إلى أن أوصلهم إلى تخت بلاد العجم، حتى قيل إنه لم يبق للرومانيين مصادق إلا ملك تدمر، حيث كان حافظا لبلاد الرومانيين من هجوم العجم، وقد كافأه غليانوس قيصر على صداقته وإعانته له فأعطاه لقب أغسطس، وهذا العنوان أيضا انتقل من هذا الملك إلى زوجته زنوبية وأولاده إذ كان متوارثا فيهم بعد موت أودنياطوس المذكور، عقب اكتساب هذا العنوان، وسيأتى الكلام على زنوبية فى محله مفصلا، ثم إنه فى مدة هذا الملك قام عليه كثير من أمراء الجنود، واغتصبوا الإمبراطورية منه، فمن هؤلاء المغتصبين من قتله هذا القيصر، ومنهم من قتله جنوده، ثم صار قتل هذا القيصر فى سنة ٣٥٤ وانتخاب قلودس الثانى إمبراطورا على الرومانيين.

(*) يقال: قتله صبرا: أى حبسه حتى مات. (الشروق).

الفصل الخامس والثلاثون

فى الملك قلودس قيصر الثانى[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٣٥٤ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٣٥٢، فكانت مدة حكمه سنتين، وكان هذا القيصر أول سلسلة القياصرة الليرية، يعنى السواحلية، بالنسبة لإيطاليا، فكان أصل هذا القيصر من إقليم دلماشيا، وكان معدودا من فحول رؤساء الجيوش الرومانية لما استبان منه من البسالة التامة فى حرب الغوطية وانتصاره عليهم، فبهذا استحق المنصب القيصرى، فقد انتخبه الجنود أولا، وأقره مجلس رومة واستصوب انتخابه وفرح به واستبشر، وقد استبان فيما بعد بالتجارب الكثيرة أنه فى الحقيقة أهل لهذا المنصب العالى، وذلك لأن الغوطية جمعوا جيشا عظيما عند نهر آق كرمان، ونزلوا على سواحل البحر الأسود، وأغاروا على المدن الرومانية القريبة منها، وكانوا يغيرون على البلاد اليونانية التابعة للحكومة الرومانية بهذه الجهة، فسار هذا القيصر لقتالهم وانتصر عليهم نصرة بليغة تسمى نصرة نيسا، اسم لمدينة ببلاد الصرب كثر فيها إراقة الدم فى ميدان الحرب، حتى تولد عن هذه الدماء وباء عظيم، فسار إلى قلودس فمرض ومات به فى مدينة سرمش جهة بلاد الصقالبة وذلك فى سنة ٣٥٢ قبل الهجرة، وتولى بعده أورليانوس قيصر.

---

(١) هو القيصر كلوديوس الثانى، القوطى، حكم من سنة ٢٦٨ حتى سنة ٢٧٠م.

الفصل السادس والثلاثون

فى الملك أورليانوس قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٣٥٢، وبقى إلى سنة ٣٤٨ قبل الهجرة، فكان مدة حكمه أربع سنوات، ولما مات قلودس انتخب الجنود هذا القيصر، وكان أبوه نزيلا فى بلاد الأفلاق، وذلك لأن القيصر أورليانوس المذكور كان مقاتلا مهيبا، تخشى سطوته، ويخاف بأسه، فاشتهر فى الشجاعة والبسالة حتى طار صيته فى الأقطار، وكان صعبا على الجند، وكان يتراءى منه فى مبدأ أمره إنه نحس على الدولة الرومانية، لأن طوائف الألمان أغاروا فى مبادىء أيامه على إيطاليا وبددوا شمل جيش جرار من الجيوش الرومانية، وقضوا زمنهم بنهب مدن إيطاليا وسلبها، وضيعوا أوقاتهم فى ذلك، ولكن فى أثناء مشغوليتهم بالسلب والنهب جمع أورليانوس ما تفرق من عساكره وانقض عليهم ولا انقضاض الباز الأشهب، وبدد شملهم حتى مالوا إلى الفرار، وولوا الأدبار، وعدموا القرار، وعادوا يجتازون نهر طونة وذلك فى سنة ٣٥١ قبل الهجرة[2]، واكتفى شر هؤلاء الطوائف وسلمت البلاد والعباد من أذاهم.

ولكن حدث أيضا من جهة أخرى حوادث أخرى خطرة على الرومانيين فى مدة هذا القيصر، وإن كان موجبها متقدما على زمانه، وهى أنه قبل موت القيصر

(١) هو القيصر أوريليان، حكم من سنة ٢٧٠ حتى سنة ٢٧٥م.

(٢) أى سنة ٢٧١م.

غليانوس بسنة كان حصل منه مساعدة لملكة التدمر ، المسماة زنوبية ، حيث كان زوجها محالفا للرومانيين ومظاهرا لهم على الفرس ، فقلده الملك منصب الأغسطوسة هو وزوجته وذريته ، فظهرت زنوبية بعد زوجها مظهرا عجيبا فى البلاد المشرقية ، وقويت شوكتها ، واستفحل أمرها ، وانتظم ملكها ، وصارت مدينتها الملوكية ، التى فى صحارى الشام الرومية ، وهى مدينة تدمر ، عامرة آهلة زاهرة بهية ، حتى كأنها جنة من جنان الدنيا ، ومنتزه من المنتزهات الزهية ، واتسعت دائرة ملكها من ساحل بلاد الصور والشام إلى نهر الفرات والعراق برا وبحرا ، واهتمت هذه الملكة بإعانة التجارات وتوسيع دائرة الأخذ والعطاء ، فأحرزت مدينتها ما لا مزيد عليه من الرونق والبهجة ، كما يدل على ما بقى من الأطلال والرسوم والآثار والردوم . فالظاهر أن هذه المدينة اكتسبت من الحلى والزينة فى أيام هذه الملكة ما لم تكتسبه فى أيام سليمان ، عليه السلام ، بالنسبة للوقت التى هى فيه ، فكانت هذه الملكة بلقيس زمانها فى بلاد الشام بتدمر سليمان ، عليه السلام ، وكانت متزوجة بالملك أدنياطوس ، الذى هزم سابور ملك فارس ، وانتصر عليه بشجاعته وبسالته فى عهد غليانوس قيصر ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الفصل الرابع والثلاثين ، فلما تأيمت بموته تقوت عزيمتها ، واحتدمت شكيمتها ، واتصفت بصفات الرجولية ، وتقلدت بنعوت البطلية والفحولية ، حتى خلفت زوجها فى الشجاعة والحماس ، والشوكة والباس ، فأحرزت مملكتها كمال الشهرة وبعد الصيت ، وتلقبها بالقيصرة ثبت ملكها أتم تثبيت .

وكانت تزعم أنها ملكة بالاستحقاق ، لأنها فى نسبها صاحبة تأصيل وإعراق ، أثيلة المجد ، أصلية الجد ، تدعى أن نسبها ينتهى إلى فراعنة مصر وملوكهم ، وأنها تستحق أن تنظم فى سلوكهم ، فكانت فى جنس النساء نادرة الزمان ، وفريدة العصر والأوان ، تخطب العساكر بأبلغ خطابة ، وتحرضهم على الحرب وتضمن لهم النصرة والإصابة ، وتلبس فى رأسها خوذة الحرب كالأبطال ، حاسرة عن ذراعيها كالفتيان من الرجال ، وكانت قوية الجأش والحنان ، تقوى باقتحامها الخطوب قلب الجبان ، مع سلوك سبيل الحزم والاحتراس ، ولها فى السياسة اليد الطولى واستخدام جميع الحواس ، تترقب دائما أن تحكم الممالك الرومية ، وتؤمل أن تصير

على ممالك الدنيا ملكة عمومية، ولا تكاد تنفك عنها هذه النية، ولا تغرب عن ذهنها هذه الأمنية.

وكانت إذ ذاك الديار المصرية تحاول الخروج من قبضة الرومانيين، وتزاول الاستقلال بنفسها كما فى زمن الفراعنة الأولين، فشرعت الملكة زنوبية أن تستولى على مصر مستعينة ببذل ما عندها من الأموال، فلم تستطع أخذ مصر بهذه الوسيلة لمصادمة المصريين لها بحسب اقتضاء الأحوال، فاستعملت القوة الجبرية، وغلبت الجنود المصرية واستولت على سرير الإسكندرية، ولكن لم تلبث قليلا أن طردت منها، وزحزحت عنها، ثم عادت إليها، وعولت فى التغلب عليها، حيث أمدتها مملكة تدمر بالجنود العديدة، والذخائر المجيدة، وكان ذلك فى زمن أوريانوس، وكان التغلب على مصر فى عهده دونه حرب البسوس[1]، فجد هذا القيصر السير من رومة الكبرى، وحضر إلى الشام ليزيل عن ممالكه ضيقا وحصرا، فانتصر على زنوبية نصرة عجيبة بقرب حمص الشام، فهربت داخل حصون تدمر عقيب هذا الانهزام، فضيق عليها الحصار ومنع عنها الميرة، فنفد ما فى المدينة من الزاد، وأيست من الذخيرة والإمداد، فحاولت الخروج والفرار، وتسليم هذه الدار، فقبض الجند على هذه الملكة فى أثناء الطريق، ووقعت فى قبضة فرسانهم، وخانها الرفيق والصديق، فلما تمثلت بين يدى القيصر المنصور، وليث الرومانيين الهصور، قالت له: قد ساعدتك بالنصر علينا الأقدار، فها أنا معترفة لك بالولاء اعتراف من تفرقت عنه الأنصار، وأما سلفك فإنهم لم يصلوا إلى هذه المثابة، ولا سلكوا مسلك النجابة، فالخروج عليهم كان من عين الإصابة، فاستدعى سائر الجنود سفك دمها، وطلب جميع العساكر إباحة دمها، فأبى أورليانوس قتلها، واستصوب الاستبقاء عليها، ولكن أسرها وأذلها، فأدخلها رومة من ضمن الموكب المعقود، فى اليوم المشهود، لتكون غنيمة، وعلامة على النصرة العظيمة، وعوضها عن مملكتها قصرا منتزها فى رومة، وقد بقيت ذريتها هنالك إلى قرب فتوح الشام

---

(١) هى الحرب التى تذكرها «أيام العرب» على أنها وقعت بين قبيلتى بكر وتغلب، فى الجاهلية، والبسوس اسم امرأة تنسب إليها الأسطورة شعرا فى التحريض على هذه الحرب، عد مثالا فى الشعر التحريضى، وسميت قصائدها تلك بـ«الموثبات».

بالإسلام، حتى تغيرت الأحوال، وخرجت الشام عن حكم الروم، وساغ لهم الانتقال، وكان أسر زنوبية وزوال ملكها من البلاد الشامية وغير الشامية فى سنة ٣٥٠ قبل الهجرة[١] المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

وبعد هذا الزمن بمدة يسيرة ظهر أحد تجار مدينة الإسكندرية، وقصد الاستبداد بالمملكة المصرية، وكان صاحب ظهور وخروج، وله فى مراقى الإمارة عروج، فأعلن لنفسه بالرياسة وتشبث بالانفراد فى الأحكام والسياسة، وانتهى إليه فى ديوان، مصر الأمر والنهى فى جميع الأمور، وخضع له من أهلها السواد الأعظم والجمهور، وتكفل بدفع جوامك[٢] جميع الجنود، وإقامة شعائر الأعلام والبنود، وزعم أنه يدفع مصرف ذلك من مكسب صناعة ورق الكتابة، الذى كان إذ ذاك من شجر البردى المعروف، فلبى دعوته جماهير الأقاليم المصرية، وعقد المعاهدات مع أهل المجاورة من ملوك القبائل العربية، وضرب السكة باسمه، واستعان بأروام الإسكندرية فدخلوا تحت حكمه، وانتصروا له ودخلوا فى حزبه، وقصدوا طلب الحرية، والتخلص من الحكومة الرومانية، فحارب ذلك التاجر الفاجر دولة الرومانيين، وتلاقى معهم فى ثلاث وقائع، ولم يظهر عليهم فى نصرة، بل انتهى به ا لحال أن انهزم وانكسر شر كسرة، ووقع اسيرا وقتل شر قتلة، ووقعت مصر تحت قبضة الرومانيين كما كانت تحت هذه الدولة، وتقلد نيابتها أمير من طرف أورليانوس، يسمى أورليوس بروبوس، فاجتهد هذا النائب فى إصلاح ما أفسدته الحروب والوقائع، فأصلح العمارة العمومية بالتجديد والترميم، والتحسين والتنظيم، كما أصلح النيل السعيد بالعمليات الهندسية، وشغل فيها العساكر الجهادية، فبحسن هذه العمليات التطهيرية، سهل سير السفن فى هذا النهر على صورة مرضية.

فكانت سيرة أورليانوس أحسن سيرة، وكان للممالك الرومانية فى أيامه نجدة شهيرة، وكان يرجى منه أن يتمكن أتم تمكين، وأن يكون لوطنه أعظم حصن

---

(١) أى سنة ٢٧٢م.

(٢) أى رواتب جميع الجنود ومستحقاتهم المقررة.

حصين، ولكن أضره الإغارة على الإيالات المشرقية، حيث سار إليها بعد الانتصار على عصاة الديار المصرية والشامية، وكان سيره بقصد قتال الفرس، فقامت عليه فتنة من جنوده كان مثيرها ورئيسها كاتب سره منسطيس، فقتل هذا القيصر عقب هذه الفتنة فى سنة ٣٤٨ قبل الهجرة.

وفى السنة الأخيرة من حكمه كان تعذيب النصارى بالشدة السابعة، وفيها قتل ساندنيس، رئيس أساقفة باريس. وتولى بعد هذا القيصر أورليانوس طاقيطوس، أحد أرباب مجلس رومة، بعد فترة ثمانية أشهر خالية من الحكومة، وسيأتى أن طاقيطوس هلك قتيلا كسلفه.

ومع إصلاح مصر وتنظيم أورليوس برويوس لها فكان صعيد مصر لم يزل فى فتن وشرور فى عهد كل من أورليانوس وطاقيطوس.

الفصل السابع والثلاثون

فى الملك طاقيطوس قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية فى سنة ٣٤٧ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى أثناء سنة ٣٤٦، فلم تبلغ مدة حكمه سنة كاملة، بعد ما سلف من زمن الفترة السابقة.

لما قتل أورليانوس فى حرب العجم بفتنة الجنود الرومانية لم يستطع أحد أن ينتخب قيصرا على الرومانيين، فبقى سرير رومة خاليا عن الإمبراطورية، وهذه أول مرة خلا فيها سرير رومة عن ذلك، فكان زمن فراغ سرير رومة من القيصرية ثمانية أشهر، فكانت هذه المدة فترة.

فلما ظهر الإفرنج وعبروا نهر الرين للتغلب على إيطاليا، بقصد اغتنام الفرصة فى هذه الفترة، اتحد مجلس رومة مع أمراء الجنود واختاروا طاقيطوس، أحد أعضاء المجلس إمبراطورا عليهم. وكان حكيما عاقلا حسن المقاصد صافى النية، يفخر على غيره من جهة إنه من ذرية طاقيطوس المؤرخ، وقد حكم دون السنة، وذلك لأنه كان هرما بلغ من العمر خمسا وسبعين سنة، ولم يكن مجربا للحروب، ولا مارس الخطوب، وإنما كان له معرفة الإنشاء والمحاضرات، وبالأدبيات والخطابات، فكانت نفوس الجنود غير مائلة إليه، ولا معولة على حصول الخير لهم على يديه، لما بين العلوم الأدبية والمعارف العسكرية من المباينة العادية، لا سيما وأن

---

(١) هو القيصر تاسيتس، حكم من سنة ٢٧٥ حتى سنة ٢٧٦م، ولقد شاركه فى سنته الأخيرة فلوريانوس.

دولة الرومانيين كانت مؤسسة أصالة على الغزو والقتال، والفتوح للبلاد واسترعاء الخلائق على ممر القرون والأجيال، فكان القيصر ينتخب من الأبطال وفحول الرجال، لا من أرباب اللسن والمقول الحسن، مع أن المنصوص عند أرباب السياسة والحزم والكياسة إنه لو تعارض فى المملكة اثنان، وانحصر الانتخاب منهما، وكان أحدهما يحسن العسكرية والآخر لا يحسن إلا العلوم السياسية، فانتخاب الثانى أولى، وهو الجدير بأن يكون السيد والمولى، لأنه لغزارة علمه وجودة فهمه يحسن أن ينتخب أمراء جنوده، وكبراء أعلامه وبنوده، وسائر خدمه وحشمه، لذكاء فطنته وتمكنه من حسن التدبير ورسوخ قدمه، بخلاف العسكرى البطل المنازل، إذا كان متصفا بفضيلة الحرب ومجردا عن غيرها من الفضائل، فلا يقدر أن يسوس الرعية إلا بطريقة التخويف وسلوك الطرق الجبرية. ففضيلة العلم فى الملوك مستحسنة، بل وفى سائر حواشيهم تعد من اللوازم البينة.

قال ابن الصلاح[١]، روينا عن الزهرى[٢] إنه قال: «دخلت على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهرى؟ قلت: من مكة، قال: فمن خلفت يسود أهلها؟ قلت: عطاء بن أبى رباح[٣]، قال: أمن العرب هو؟ قلت: بل هو من الموالى، قال: وبم سادهم؟ فقلت: بالعلم، فقال: إن أهل العلم ينبغى أن يسودوا، فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبى حبيب[٤]، قال: أفمن العرب هو؟ قلت: بل من الموالى، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول[٥]، قال: أفمن العرب هو؟ قلت: بل من الموالى، عبد نوبى اعتقته امرأة من هذيل، قال: فمن

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن، المعروف بابن الصلاح (١١٨١ - ١٢٤٥م) أحد علماء التفسير والحديث والفقه والتراجم، وله آثار كثيرة فى هذه العلوم.

(٢) محمد بن مسلم الزهرى (٦٧٠ - ٧٤٢م) محدث مشهور، ينسب إليه البدء بتدوين الحديث.

(٣) عطاء بن أسلم بن صفوان، فقيه من التابعين، ولد باليمن، وعاش بمكة يحدث أهلها ويفتيهم، ولد سنة ٦٤٧ وتوفى سنة ٧٣٢م.

(٤) يزيد بن سويد الأزدى (٦٧٢ - ٧٤٥م) كان فقيها ومحدثا، وهو أول من أظهر علوم الفقه والحديث بمصر، وكان نوبيا من دنقلة.

(٥) هو مكحول الشامى (المتوفى سنة ٧٣٠م) كان فقيه الشام فى عصره، وحافظا من حفاظ الحديث، من أصل فارسى، ولد ونشأ بكابل، ثم سبى منها وبيع لامرأة بمصر من هذيل، ثم أعتق وتفقه حتى برز.

يسود أهل الجزيرة؟ قلت: الضحاك بن مزاحم[١]، قال: أمن العرب هو؟ قلت: بل من الموالى، قال: فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعى[٢]، قال أفمن العرب هو؟ قلت: نعم، من العرب، قال: ويلك يا زهرى! فرجت عنى، قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله، فمن حفظه ساد، ومن ضيعه سقط».

ومما يرفع قدر حرفة العلم والأدب ما حكاه بعضهم عن زياد ابن[٣] أبيه مع حارثة[٤] بن بدر الغدانى، وذلك إنه لما ولى زياد ابن أبيه العراق كان كثير الرعاية لحارثة بن بدر الغدانى، وكان حارثة مكبا على الشراب، فوقع أهل البصرة فيه عند زياد، ولاموه على تقريبه، فقال لهم زياد: «يا قوم، كيف لى بأطرح رجل يسايرنى منذ دخلت العراق، فلم تصك ركابى ركابه قط، ولا تقدمنى فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عنى فلويت إليه عنقى، ولا أخذ على الروح فى الصيف، ولا الشمس فى الشتاء، ولا سألته شيئا من العلوم إلا ظننته لا يحسن سواه»؟

وحكى المبرد[٥]، قال: «دخل الأصمعى[٦] يوما على الرشيد، ومجلسه حافل، فقال: يا أصمعى، ما أغفلك عنا؟ فقال: والله، يا أمير المؤمنين، ما لاقتنى أرض! فتبسم الرشيد، وقال له: اجلس، قال: فجلست حتى خلا المجلس، ولم

---

(١) الضحاك بن مزاحم البلخى الخراسانى (المتوفى سنة ٧٢٣م) كان فقيها ومعلما تضم مدرسته ثلاثة آلاف صبى!! وله كتاب فى التفسير.

(٢) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران النخعى (٦٦٦ - ٧١٥م) من علماء التابعين، فقيه العراق، وأحد الحفاظ ورواة الحديث.

(٣) عبيد الله، زياد بن أبيه (المتوفى سنة ٦٨٧م) أحد ولاة معاوية بن أبى سفيان، ولاه على سجستان وخراسان والعراق.

(٤) حارثة بن بدر بن حصين التميمى (توفى سنة ٦٨٤م) بصرى، من التابعين، وقيل إنه أدرك النبى عليه السلام، ولقد شارك مع الأمويين فى قتال الخوارج فى العراق.. والمؤلف يقول: حارثة بن بدر الفزارى، وصحتها: الغدانى.

(٥) محمد بن يزيد (٨٢٦ - ٨٩٨م) إمام مدرسة البصرة اللغوية، ومن أشهر كتبه فى الأدب واللغة (الكامل) و(المقتضب).

(٦) عبد الملك الباهلى (٧٤٠ - ٨٣١م) من أشهر اللغويين والرواة والمحدثين بالبصرة، وله آثار كثيرة اعتمد عليها من أتى بعده، منها (فحولة الشعراء) و(الأصمعيات).

يبق غيرى، ومن بين يديه من الغلمان، فقال لى: يا أصمعى، ما معنى قولك ما لاقتنى أرض؟ قلت: ما أمسكتنى أرض يا أمير المؤمنين، وأنشد مفردا:

كفاك كف ما تليق درهما　　جودا وأخرى تقطر السيف والدما

أى ما تمسك، فقال: هذا حسن، وهكذا فكن وقرنا فى الملأ - أى بأن لا نسمع منك شيئا تسئله منا - وعلمنا فى الخلا، فإنه يقبح على السلطان أن لا يكون عالما، إما أن أسكت فيعلم الناس أنى لم أفهم إذا لم أجب، وإما أن أجيب بغير الصواب فيعلم ذلك من حولى».

وقال الأصمعى: قال لى الرشيد يوما، فى خلوة، يا أصمعى، أنت أعلم منا، ونحن أعقل منك، لا تعلمنا فى ملأ، ولا تسرع إلى تذكيرنا فى خلا، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت فى الجواب حسب الاستحقاق فلا تزد، إلا أن يستدعى منك ذلك. قال: فعلمنى أكثر مما علمته».

فكانت علوم خلفاء الإسلام معادلة لشجاعتهم وتجاريبهم فى الحروب، فقد اجتمع فيهم الرأى والشجاعة والسيافة والبراعة، فلم يكن عندهم السيف أصدق أنباء من الكتب، بل تساوى عندهم الصدق بين السيف والقلم، والعِلم والعَلم، فلم يقل لهم كما قيل لغيرهم:

فصغ ما كنت حليت　　به سيفك خلخالا

فما تصنع بالسيف　　إذا لم تك قتالا

ولا قيل لهم:

دع اليراع لقوم يفخرون به　　وبالطول الردينيات فافتخر

فهن أقلامك اللاتى إذا كتبت　　يوما أتت بمداد من دم هدر

وكيف يقال هذا لمن يفتخر بالأداتين على حد سوى، وإنما يحسن أن يقال عن الخليفة المفضال:

إن ســـار ســـار لواء النـصــر يقــدمـــه   أو حـل حـل به الآمـــــــال والـكـرم

يلقى الـعـدا بجـيـوش لا يقـاومـهـا   كـــثـــر الـعـــشـــائر إلا أنـهـا هـمـم

فقد وسعوا فتوحاتهم أكثر من الرومانيين، ومدنوا البلاد أكثر منهم أعظم تمدين، حتى صار من المعلوم إنه لا يتيسر لأحد من السلاطين أن يملك مثل الخلافة الأموية فى سعة ملكها، ولا أن يدخل فى مثل نظمها وسلكها، فقد كان خلفاء بنى أمية يملكون الصين والهند والسند وخراسان وبلخ وبخارى وسمرقند ونيسابور والعجم والروم والعراق ومصر والحجاز واليمن والمغرب بأسره والأندلس، وسائر أقطار الإسلام من مشرق الأرض إلى مغربها، ومن أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، وكان لا يتولى أحد فى بلد الإمارة فى شىء إلا بأمر الخليفة، وكذلك أوائل خلفاء بنى العباس، كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون، كما سيأتى تفصيل ذلك فى تاريخ الخلفاء(١).

وإنما كانت دولة الرومانيين أشبه شىء فى التملك على البلاد الكثيرة بالدولة العثمانية، فى الجملة، لا من جميع الوجوه، ولا فى الرسوخ والثبات، ولا فى الشهامة الإسلامية، ولا فى العدالة بين الرعية، وكيف يحصل الرسوخ وثبات الدولة مع التغيير والتبديل والنفى والإثبات، وكثرة التولية والعزل بمحض الافتيات، وأن كل قيصر يصحب الدنيا بلا أمل، وينادى عليه حين مصرعه: سبق السيف العذل، فأكثر القياصرة ساقهم البغى إلى صرعة للحين لم تخطر على بالهم، كم أملوا المكروه فى عزهم فنالهم مكروه آمالهم.

فإن الجنود الرومانية لما علموا أن طاقيطس قيصر لم تحنكه التجارب، ولم يكن له من فحولية الرجال حظ ولا نصيب، حصل بينهم وبينه وحشة ونفور، وكثر منهم فى حقه القيل والقال، واشتد الخطب وعظمت الأمور، ولم يكن له فى قلوبهم الهيبة القيصرية، لقصوره عن درجة سلفه غورليانوس الذى هو بطل صنديد خبير

---

(١) لم يمهل العمر مفكرنا الطهطاوى حتى يبلغ من تأريخه عصر الخلفاء فتوفى بعد إنجازه التأريخ لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتأسيس الدولة الإسلامية، وهو الجزء الرابع من هذه الأعمال.

بالفنون العسكرية، فقامت الفتنة بين الجنود وأشهروا العصيان، فأراد قائدهم أن يسكن غضبهم بإرشادهم من الضلال إلى الصواب، وقال لهم: إن مجلس رومة أعطاكم طاقيطوس حيث التمستم توليته عليكم، وها هو يعدكم بالإكرام والإنعام، ويبلغكم القصد والمرام، فلم يفد ذلك أدنى فائدة، بل قتلوا هذا القيصر فى سنة ٣٤٧ قبل الهجرة، وبايعوا بعده بروبوس قيصر لما رأوا من الغبطة، على حسب الأصل والقاعدة.

الفصل الثامن والثلاثون

فى الملك بروبوس قيصر(١)

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٣٤٧ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٣٤٠، وحكم نحو سبع سنوات.

كان أبو هذا الإمبراطور بستانيا، وكان الابن قد خدم فى الجنود الرومانية، وارتقى الدرجات العسكرية، وتسمى بروبوس، بمعنى الصالح، وكان مستقيم الحال، حسن الفعال، جديرا بتحقق ذلك العنوان، أقام على صلاحه واستقامته أعظم برهان، فقد عرف الجند شجاعته بحصاره المدائن والثغور، وحروبه وفتوحاته، فكان دائما معدودا عند العسكرية من فحول الرجال، ورؤساء الأبطال، ولما أحضروا له الحلة الملوكية ليلبسها امتنع أول الأمر من قبولها، فألحوا عليه فى ذلك، وانتهى الأمر أن رضى بلبسها، وقال لهم: لعلكم قلدتمونى القيصرية بداهة، وبدون روية، وستندمون على ذلك، فإنى فيما يخص النواهى والأوامر والحدود والزواجر لا أرعى لأحد منكم أدنى خاطر!

فكان أول شروعه تحصين الحدود والثغور والعناية بمحافظتها، ودفاع الأعداء ومنعهم من الإغارة عليها، ثم شرع فى حرب الغوطية والصقالبة والإفرنجة والألمان، وانتصر على الجميع، وقد أرسل قبائل رومانية خلف نهر الرين للتوطن بالبلاد التى وراء ذلك، وأرسل عدة قبائل جرمانية إلى الأقاليم المشرقية الرومانية،

---

(١) هو القيصر بروبوس، حكم من سنة ٢٧٦ حتى سنة ٢٨٢م.

وأذل أهل فارس وأهانهم، وأدخل تحت الطاعة والانقياد أهالى صعيد مصر، وأسكن فتنتهم، وعاقب بالعقاب الشديد أحزاب تلك المدن الصعيدية، كأهل مدينة قفط وأخميم ومنشأة أخميم.

وبعد هذه الغزوات المنصورة حضر إلى مدينة رومة ليستريح فيها من المتاعب والمشاق، فدخلها بموكب عظيم، ومشى أمام عربته إسراء الأمم والدول المنهزمة.

ولما تم دخول أهل صعيد مصر تحت الطاعة والانقياد، وخرج هذا القيصر منها مؤيدا منصورا يقصد رومة، كان النائب على مصر إذ ذاك أميرا يسمى ساطرنيوس، فاغتنم هذا النائب فرصة عود القيصر إلى رومة، واستعان بمن استماله إلى نفسه من أروام الإسكندرية، وأعلن لنفسه بالإمبراطورية، ثم هلك قتيلا، وعادت حكومة القيصر بمصر على حالها. ثم تولى نيابة مصر من طرف القيصر أمير يسمى أخليس، فراودته نفسه كسلفه أن يتولى إمبراطورا فبايعوه على ذلك بمصر، وقتل كالأول.

وفى عهد بروبوس غرس الرومانيون أرض الملاعب بالأشجار والغابات، وأطلقوا فيها أنواع السباع والحيوانات، لأجل تمرين الأهالى على الصيد والقنص فى هذه الميادين الواسعة، ورتبوا فى هذه الميادين المناوشة والمهارشة بين الأسود والنمور والدبوب(*)، ومصارعة المصارعين.

وقد تمكن الصلح التام والطمأنينة العامة فى داخل المملكة الرومانية فى أيام هذا القيصر، إذ كان معينا على التجارات والصناعة والفلاحة والزراعة، لا سيما غرس الكروم فى بلاد الغلية والجرمانية والبلاد الأندلسية، وتكثير العنب، وكان مع ذلك كله لا يدع هذا القيصر الجند فى البطالة، بل يستعملهم فى الخدم العمومية، كتنشيف البرك والمستنقعات، وعمارة القناطر والجسور، وفتح الترع والخلجان، وتطهير الأنهر وتحسين مجاريها لإصلاح حال المزارع والمنافع، وكان لا يدعهم للاستراحة من الأشغال العمومية طرفة عين، وكان قد أنذرهم قبل ذلك، كما سبقت الإشارة إليه، بقوله: «لعلكم قلدتمونى القيصرية بدون روية، وستندمون

(*) أى الدببة جمع دُبّ. (الشروق).

على ذلك، فإني لا أرعى فى الأوامر والنواهى لأحد منكم أدنى خاطر»، فكان الأمر كما قال، فسئم الجند من استدامة الخدمة على هذا المنوال، وأغضبهم استمرارهم على هذه الحال، كما هى عادة المترفهين وأهل الكسل الذين لا يحبون إلا الدعة والنزاهة، مع التخلق بالهرج والمرج، فقتلوه عند بعض البحيرات، وكان بالمرور لملاحظة العمليات النافعة، فكان قتله رُزْءًا عظيما على الحكومة الرومانية، لأنه كان متشبثا بإحياء البلاد، وتنشيط العباد، كما قيل:

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا فرس يموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد شخص يموت بموته خلق كثير

ومما حملهم على قتله أيضا إنه قال لجنوده، فى المحفل العام: «سيأتى علىَّ يوم لا أحتاج فيه إلى عسكر منكم ولا جنود»، يريد بذلك إنه بالعدل تقل حاجته إليهم، كقولهم: لو استقام الناس لارتاح القاضى، فكان التفوه بهذا الكلام من قلة الحزم وعدم الاحتياط، حيث أفادهم إنه سيستغنى عنهم، ورب كلام فى القلوب كلام، فمن جانبه وجانبهم وقع الإفراط، وخير الأمور الأوساط، وكان مقتله فى سنة ٣٤٠ قبل الهجرة، وتولى بعده قاروس قيصر.

الفصل التاسع والثلاثون

فى الملك قاروس قيصر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٣٤٠، وبقى حكمه إلى أثناء سنة ٣٣٩ قبل الهجرة، فكانت مدة حكمه سبعة عشر شهرا.

لما مات بروبوس لم يكن فى أمراء الرومانيين من يساويه فى شهامته وشجاعته، وحسن تدبيره وسياسته، لأنه كان منفردا بمزية جمعه لهذه الأوصاف الحميدة، وإنه لا يخلف بمثله، وإنما رأوا أن قاروس رئيس الجند القيصرى هو شجاع فى الجملة، وصاحب بأس وقوة، ومولده فى مدينة أربونة بمملكة الغلية، وإن لم يكن ذا بيت عريق فى المجد والشرف إلا إنه لم يخل من المجد الذاتى والشرف المكتسب، فحضر بنفسه إلى رومة بعد انتخاب العساكر له، وطلب مسند الإمبراطورية حيث وجدت فيه الأهلية، فأجابه مجلس رومة إلى ذلك، وتولى إمبراطورا على هذه الممالك.

وكان له ولدان، أحدهما: يسمى قارينوس، والثانى: يسمى نومريانوس، فبمجرد توليته قلد ولديه منصب الأغسطوسية، يعنى أن كلا منهما يلقب أغسطس.

وفى سنة توليته عاد الفرس والصقالبة للإغارة على الأقاليم الرومانية، فسار

(١) هو القيصر كاروس، حكم من سنة ٢٨٢ حتى سنة ٢٨٣م.

بنفسه إلى بلاد آسيا فهزم الصقالبة والفرس، وأخذ بعض مدنهم، ثم حصل انقلاب عظيم عليه فأخذ غيلة وقتله جنده بعد أن حكم سبعة عشر شهرا، وذلك فى أثناء سنة ٣٣٩ قبل الهجرة، وأعقب ولديه، وهما قارينوس ونومريانوس فتقلدا الإمبراطورية الرومانية فى هذه السنة، وقتلا فى هذه السنة، فكان حظهما من الملك كحظ أبيهما من سوء البخت ونحس الطالع، كما سيأتى فيما بعد.

الفصل الأربعون
فى الملك قارينوس قيصر
ونومريانوس قيصر[1]

توليا الإمبراطورية سنة ٣٣٩ وقتلا فى عين هذه السنة .

وذلك أن نومريانوس كان معتدل المزاج ، لين العريكة ، سهل الأخلاق ، فصيح المنطق بليغ المقال ، حتى أن المجلس الرومانى شهد له بأنه خطيب عصره ، ومقوال دهره .

والخطابة عند اليونان والرومانيين أصل عظيم فى الدولة ، يعين على التحسين والتمكين ، وفى سائر الأزمان ، وإلى الآن فى الدول المتقدمة والمتأخرة تعد الخطبة الحسنة والمقالة المستحسنة منقبة ومفخرة ، وللعرب العرباء من الخطب جوامع الكلم ، فهم فصحاء كل زمان ، وسباق حلبة البيان ، وأفصحهم سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فله ، عليه الصلاة والسلام ، الخطب التى حكمت فصاحتها بالعى لقس[2] وبالفهامة لسحبان[3] ، ورجعت خاسئة عن مجاراتها سوابق

---

(١) هما القيصران : كارينوس ، ونومريان ، حكما من سنة ٢٨٣ حتى سنة ٢٨٤م .

(٢) قس بن ساعدة الأيادى (المتوفى حوالى سنة ٦٠٠م) من أبرز حكماء العرب وخطبائهم فى الجاهلية ، وحول حياته وأفكاره تروى أساطير كثيرة .

(٣) سحبان وائل (المتوفى سنة ٦٧٤م) يضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة ، وهو مخضرم ، أدرك الإسلام وأسلم ، ولكنه لم يلق الرسول عليه السلام .

الأذهان، فمنها قوله، عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، أن المرء بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الهرم، ومن الحياة قبل الموت، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار».

وكان داود، عليه السلام، من أخطب الخطباء، قال تعالى فى حقه: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾ (ص: ٢٠) فقيل: إن فصل الخطاب هو ذكر: «أما بعد»، فى الخطبة، وإنه أول من قالها، ولعله أول من قالها فى بنى إسرائيل، ليوافق قول العرب: إن أول من قال «أما بعد» قس بن ساعدة، حيث يقول:

لقد علم الحى اليمانون أننى ... إذا قلت «أما بعد» إنى خطيبها

وفى المثل: «أخطب من قس بن ساعدة»، وهو خطيب العرب قاطبة.

وفى الحديث أن شعيبا عليه السلام أخطب الأنبياء، وهل الخطابة إلا الإعراب عما فى النفس من المعانى الجليلة؟

لا يعجبنك من خطيب خطبة ... حتى يكون مع الكلام أصيلا

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومزايا حسن البيان بينة فى جميع الأزمان، فقد استولى به يوسف، عليه السلام، على مصر وملك زمام الجمهور، وأطلعه ملكها على سائر الأمور، فإن العزيز لما رأى فصاحته أعلى مكانته، وأعظم منزلته، وربما سودت الفصاحة غير مسود، فرفعته من الحضيض الأوهد[1]، وفى كل عصر لم تزل الفصاحة تشيد لأهلها ذكرا، وترفع لهم قدرا.

فقد خلد التاريخ منقبة فصاحة نومريانوس قيصر وبيانه، وجعل شهادة المجلس

---

(١) الأوهد، من الوهدة، وهى الأرض المنخفضة، والهوة فى الأرض.

الرومانى له بذلك ودليله وبرهانه، فلما تقلد هذا القيصر الممدوح السيرة، سار إلى بلاد فارس، إذ كانت دولة الفرس على بلاده مغيرة، وبصحبته آبروس، أبو زوجته، ففتك (به) آبروس فى أثناء الطريق.

وكان دقليانوس رئيس غلمان القيصر معه فى هذا السفر، فأخذ بثأره من قاتله آبروس بقتله، وتولى أغسطوسا، يعنى قيصرا، ولم يكن ضربه عنق آبروس محض انتقام لسيده، بل السبب الأصيل فى ذلك أن كاهنة من بلاد الغلية بشرته أنه يصير قيصرا إذا قتل خنزيرا ـ والواقع أن لفظ آبروس باللسان اللاطينى معناه خنزير، ونقل إلى العَلَمية من معناه الأصلى ـ فكان قتله لآبروس لتحقق ما بشرته به الكاهنة، فقد تولى القيصرية، لكن على بلاد الغلية فقط، ولم يقصد بذلك الاستيلاء على رومة بوصف الإمبراطورية العمومية.

وأما قارينوس، أخو نومريانوس المقتول وابن قاروس، فكانت أوصافه على خلاف أوصاف أخيه السالفة الذكر، إذ كان فاسد الأخلاق، منهمكا على الفواحش والقبائح، مخالطا لأهل السخرية والألعاب والأغانى، لا يصحب إلا من لا خلاق له من أمثاله، يتزيا بزى النساء، فيلبس اللآلىء النفيسة، والجواهر الكريمة، ولا ينام إلا على بساط الزهور والرياحين، وكان يطيب خاطر الأهالى والجنود بالولائم والضيافات، ويدعوهم إلى الألعاب العمومية فى الميادين والمنتزهات، ويلهيهم بجميع أنواع الأفراح والمسرات، فلهذا كانوا يصفحون عن معائبه، ويفصحون بالثناء على صلاته ورغائبه، ولكن لما علم دقليانوس أن قارينوس قرينه ليس أهلا للإمبراطورية الرومانية، وإنه مرتكب للمثالب الدنية، سار بجنده إليه ودنا منه وأضمر له السوء، فلما علم قارينوس بذلك صحا من سكر الغفلة، وأقلع عما كان عليه من الفعال المخلة، وأبرز ما لا مزيد عليه من الشجاعة، وحارب خصمه، ودافع عن مسنده، مع غاية البسالة والبراعة، فكانت الحرب بين الفريقين سجالا، فانتهى الحال أن ظهر هذا القيصر على دقليانوس، وهزمه وكسر جيشه وحطمه، ولكن وقعت البغضة بينه وبين جنوده، فقاموا عليه وقتلوه فى أثناء نصرته الموجبة لصعوده، وذلك فى سنة ٣٣٩ قبل الهجرة، وتولى بعده دقليانوس الذى عم ظلمه مصر وكان حكمه عليها محض مضرة.

الفصل الواحد والأربعون

فى الملك دقلطيانوس قيصر، ويسمى دقليانوس، ودقلة أيضا، وفى الملك مقسيميانوس هرقل أغسطس(١)

تولى دقلطيانوس الإمبراطورية الرومانية فى سنة ٣٣٩ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٣٢١، فكانت مدة حكمه ثمانية عشرة سنة. وكان مولده بمدينة دقليا دلماجيا، ببلاد النيمسا، من عائلة خاملة الذكر، عاطلة من حلية المجد والحسب، فدخل من زمن صباه فى الخدمة العسكرية، واشتهر بالبراعة فى الفنون الحربية، والإدارة الملكية، ولم يشتهر بالشجاعة والبسالة فى المشاهد والمواقع، ولا عرف فضله بالفتك بالأعداء ولا باقتحام الوقائع، فكانت قريحته فى التدبير كقريحة أغسطس أول قياصرة الروم، يميل بالطبع إلى حسن التنظيم والترتيب، وإحكام التدبير والسياسة، والتمسك بالحزم والتبصر فى عواقب الأمور، وكان يميل كل الميل إلى السلم والصلح، وتنسيب الأفعال، وتنسيق الأحوال، وبالجملة، فكان معدودا من أكابر مديرى الدولة الرومانية، وربما لم تكن تسمح بمثله هذه الدولة من مدة قرون سابقة.

وكان سنه حين تولى الإمبراطورية أربعين سنة، وهو السن المعهود فيه استكمال الرشد، وقد أحس باحتياجه إلى عضد يقوى ساعده، وظهير يقتسم معه حمل أعباء

---

(١) هما القيصران: دقلديانوس، ومكسيميان، حكم الأول من سنة ٢٨٤ حتى سنة ٣٠٥، واشترك الثانى معه فى الحكم من سنة ٢٨٦ حتى سنة ٣٠٥م.

المملكة الواسعة، وكان مقسيميانوس هرقل من أبناء وطنه، ومن أشجع الجند الرومانى، لكنه فظ غليظ الطبع، دنيء الأصل، كان أبوه من رعاة الماشية، وتربى الابن فى العسكرية حتى انتظم فى سلك الشجعان، فأدناه الإمبراطور، وقاسمه العسكرية، وساواه بنفسه فى نفوذ الكلمة وتنفيذ الأحكام، ولكن اقتسم القيصران الإمبراطورية الرومانية وبلادها قسمة مهيأة وتراض، فأبقى دقلطيانوس لنفسه الأقطار المشرقية، وخصص لشريكه تدبير الأقطار المغربية، وجعل مقر حكومة مقسيميانوس مدينة ميلان، بإيطاليا، وامتاز دقلطيانوس على شريكه بملاحظة عموم مصالح البلاد الرومانية مشرقية أو مغربية، وجعل دار اقامته فى مدينة أزمير، بإقليم برسه، فهجرت مدينة رومة، وانسلخ عنها كونها دار السلطنة الرومانية من عهد هذه المقاسمة التى وقعت فى سنة ٣٣٣ قبل الهجرة[١]، فكان هذان القيصران يشتركان فى تدبير المملكة معا، مع غاية الوفاق وتواطؤ الرأى، فكان دقلطيانوس رأس الدولة ومقسيميانوس عضدها.

ولما ذهب مقسيميانوس إلى الأقطار المغربية التى اختص بتدبيرها، كان الفلاحون ببلاد الغلية، وهى فرانسا وما جاورها، عاصين على الدولة الرومانية، مثيرين للفتن والشرور، فأسكن فتنتهم، وأدخلهم تحت الطاعة والانقياد، وكان قد ظهر ببلاد الإنكليز رئيس خارج يدعى قارسيوس، اجتمع عليه عصب الأشقياء من أهل الصيال[٢] وقطاع الطريق، وتصدى معهم للإيذاء، وقصد أن يتشبث بذلك ليكثر حزبه ويستقل بمملكة الإنكليز ويفصلها من حكم الرومانيين، فاستفحل أمر هذا الخارج، حتى أن مقسيميانوس حاربه بجنوده بدون طائل، فلما ظهر عجز مقسيميانوس عن إدخاله ومن معه من الإفرنج تحت الطاعة، اضطر إلى الاستعانة على هذا الشقى بشريكين آخرين يجعلهما قيصرين، فانتخب لذلك قسطنقيوس خيورس، من أهالى سواحل إيطاليا، من بيت مجد وشرف، وانتخب قيصرا ثانيا يسمى والبرس الراعى، ويقال له غاليرس أيضا، فألبسهما حلة القيصرية، فصارا

---

(١) أى سنة ٢٨٩م.

(٢) أى أهل الوثوب والسطو والقهر.

قيصرين منصبا وعنوانا، وقد صار عاقبة أمرهما أن ورثا بلاد قسطنقيوس ودقلطيانوس ـ كما يأتى بيان ذلك ـ وكان وقوع هذه المقاسمة والتشريك فى سنة ٣٣٠ قبل الهجرة[١]، فاجتمع على حكومة الدولة الرومانية أربعة ملوك، ملكان كبيران يلقب كل منهما بأغسطس، وهما مقسيميانوس ودقلطيانوس، وملكان دونهما فى الرتبة يلقب كل منهما قيصرا، وهما قسطنقيوس وغاليرس، وكانت تسمى هذه الحكومة الرومانية إذ ذاك بالدولة الرباعية، فكان هذا الترتيب المشتمل على قسمة المهايأة تمهيدا لانفصال رومة وقسطنطينية، وامتياز كل منهما فيما بعد بقيصر، حيث اقتدت هاتان المدينتان فيما بعد بهذا الترتيب، وإنما الفرق بين المشاركة السابقة واللاحقة أن الدولة الرومانية فى الأولى باقية على وحدتها، حافظة لكليتها الجسمية، لم يحصل فيها تمزيق، لأن القيصر فى الحقيقة إنما هو دقلطيانوس وحده، حيث بيده زمام المملكة والرياسة العمومية، وشركاؤه فى الواقع ونفس الأمر إنما هم أعوان تابعون له كالوزراء، وأما المشاركة اللاحقة فالمقاسمة فيها إفرازية، كل قيصر يملك بلاده، كما سيأتى بيانه.

وهذه الشركة الرباعية قد أفادت فوائد جمة، وتعضدت بها الدولة، حتى صارت لا يخشى عليها أدنى شىء، فإن قسطنقيوس قهر أمة الإفرنجة وهزمهم شر هزيمة، كما أن غاليوس دفع الفرس وغلبهم، ومع هذا فانتجت هذه الشركة فيما بعد ما أدى إلى اختلال الحال، وظهور ما لا خير فيه من الجدال، كما فى الشركة الثنائية السابقة، إذ من المعلوم إنه لا يصلح أسدان فى غاب، ولا سيفان صارمان فى قراب، ويسع الحصير الصغير مائة فقير ولا يسع ملكين إقليم واسع الرحاب! وأدل دليل على ذلك وأقوى شاهد ما حصل فى القرن السابق وما قبله بمصر بين الأوجقلية وبين الكوليمان[٢]، إذ لا زال الشقاق بينهم يحرك بالشركة من ضغن القلوب عنادا وعنتا، وحسبك ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

---

(١) أى سنة ٢٩٢م.

(٢) الأوجقلية، أو الأوشاقلية، وكذلك الكوليمان، طوائف من عسكر السلاطين والولاة وأتباعهم فى العصور الوسطى.

وفى أثناء انتصار هذين القيصرين كان دقلطيانوس مجتهدا فى تحسين الإدارة الملكية، وتهذيب الأحكام والقوانين السياسية، وتسوية الخواص والعوام فى المحكومية، وإدخال الجنود تحت القوانين والأحكام العسكرية، ونشر لوائح الضبط والربط، وقد اشتغل أيضا هذا القيصر بتحسين أحوال مدينة أزمير وأنطاكيا وحمص وقرطاجنة، وقد جدد هذا الإمبراطور فى الديوان الرومانى الرسوم والآداب المشرقية وزينة السلطنة والطنطنة على عادة سلاطين المشرق من الفرس وغيرهم، ولم تكن هذه الآداب معهودة فى دواوينهم.

ولما صارت المقاسمة الرباعية وتوزيع الأقاليم بين الملوك الأربعة وقعت مصر من ضمن بلاد المشرق، التى صارت لدقلطيانوس، وكان نائبا عليها شخص يقال له أخليوس، ويسمى آجله، وكان قد تغلب عليها لنفسه واستبد بحكمها، فبادر دقلطيانوس أن يعيدها كما كانت، ويدخلها فى الحكومة الرومانية، فحاصر مدينة الإسكندرية، وقطع خلجان النيل لتصريف مياهه التى تجرى فيها السفن، ليمنع عن هذه المدينة الميرة والذخيرة، فضيق على خصمه، واستولى على الإسكندرية بعد حصار ثمانية أشهر، وبعد أخذها عنوة استعمل هذا القيصر أنواع الظلم والجبر، وتجاوز الحدود فى ذلك، وارتكب ما لا يخطر على بال أحد من المآثم والمظالم، فقد حرق مدينة الإسكندرية، وسبى أهلها، وأغرى عليهم جنده، فعاثوا فى الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل، حتى حكى بعض أحبار النصارى أن هذا القيصر ركب ظهر فرسه، وأمر جنده أن لا يتركوا القتل ما لم تسل الدماء على الأرض وتعلوا حتى يصل الدم إلى ركبة فرسه! قال بعض المؤرخين: فكان من الألطاف الإلهية أن فرس هذا القيصر سقطت به على الأرض، فتلوثت ركبتاها بالدماء، فنفذ كلامه فى الجملة، فأبطلوا القتل! ولهذا صار حكم دقلطيانوس على الرومانيين تاريخا للمصريين تؤرخ به القبط الوقائع، ويسمونه تاريخ الشهداء ويوافق سنة ٣٣٩ قبل الهجرة وتسعة وثلاثين يوما، فكانت نصرة دقلطيانوس على آجلة كأنها فتوح لمصر جديد من طرف الرومانيين، ومفتاح الخير للمصريين، وذلك لأن هذا القيصر بعدما صار منه ما صار من الجور والظلم عاد إلى سلوك الاستقامة والإنصاف عقب تمكنه بالنصرة على العاصين، فعمل لمصر قوانين خاصة، وصالح أهل الصعيد، وترك

لهم من جنوب أسوان جهة الشلالات يستبدون بحكمه، ويرابطون فى الثغور والحدود ويحفظونها من هجوم الأعداء، ورتب لهم الجوامك[1] والعلوفات اللازمة فى نظير المحافظة.

وقد كان واليرس جبروتيا، جلفا من الأجلاف، جهورى الصوت، مزعجا فى حركاته وسكناته، يحسد دقلطيانوس على لقب أغسطس، ساعيا فى حيازة هذا اللقب لنفسه، مدمن التهديد والتخويف لدقلطيانوس، وهو الذى أغرى على تعذيب النصارى فى الشدة العاشرة، التى هى آخر الشدائد الفظيعة، فإنه عذبهم بسائر أنواع التعذيبات، وأوقع فيهم القتل، وكان يحملهم على الردة عن دين عيسى، عليه السلام، والرجوع لعبادة الأصنام، وقد أحرق القصر الملوكى مرتين، واتهم أهل الديوان الرومانى أنهم حرضوا الأهالى على قتاله، فهذا القيصر، يعنى والريوس، هو الذى تسبب فى سفك الدماء بسائر الأقاليم الرومانية، ولو أن الشدة على النصارى بالديار المصرية فى أيام دقلطيانوس كان ابتداؤها لنكبة خصوص النصارى إلا أنه انتهى بهم الأمر، حيث عم الخطر، إنهم اشتركوا فى المغضوبية والنكبات مع أرباب العقائد القديمة المصرية، فعمت النقمة للمتمسكين بالنصرانية أو بدين الصابئة بالديار المصرية، فتسبب عن عموم النقمة للطرفين تقارب النصارى والصابئة من بعضهم، وتودد بعضهم لبعض، وعداوتهم للحكومة الرومانية، واشمئزاز نفوسهم منها، ولهذا الداعى طالت مدة المغضوبية من الدولة على الطرفين.

ودليل تحزب الطرفين على الحكومة الرومانية أن أصحاب العقائد المصرية القديمة أنقذوا النصارى الذين ركنوا إليهم واحتموا بجنابهم، ولم يمكروا بهم، ومع ذلك فاختلاف العقائد، جاهلية ونصرانية، واختلاف مذاهب النصارى وتشعبهم إلى فرق متباينة، وكثرة المشاجرات والمناقشات فى الأديان، كل هذا نشأ عنه مفاسد عظيمة، لا سيما الاختلاف فى المذاهب النصرانية، وكثرة الجدال فيها، ومع ذلك فالعقوبات الواقعة على النصارى وتعذيبهم بالأمر القيصرى، مع الشدة والقساوة، لم تمنع انتشار دين النصرانية فى الأقطار الرومانية.

---

(١) المرتبات.

ولم يكن الدين العيسوى موجبا لضعفها وانحطاطها إلا تبعا، وإنما الذى أضعف، بالأصالة، هذه الدولة على التدريج إنما هو تقسيم المملكة تقسيما جديدا، بانتخاب دقلطيانوس لشركائه، لأنه ولو أفاد النصرة على الأعداء من جهة، فقد ترتب عنه من جهة أخرى طمع رؤساء الأقاليم فى جميع الجهات بالاستقلال والانفصال، وقد حدث عنه أيضا ما لا يطاق من الحروب الداخلية، ويضاف إلى ذلك ما هو كامن فى هذه المملكة من المصائب والنوائب الخصوصية، فكان صعود هؤلاء القياصرة على سرير الملك نوعا من أنواع المصائب على الحكومة المركزية، مضافا إلى مصائب أخرى خصوصية محلية، وبقى الأمر على هذه الحالة من أيام دقلطيانوس إلى أيام قسطنطين.

ولما كان دقلطيانوس، حين حقد غاليرس عليه، قد كبر سنه، ووهن عظمه، وكان لا يمكنه أن يقاوم ذلك القيصر ويصده عن مرامه، ولا أن يجيبه إلى التماساته الصعبة، ولا يستطيع مخالفته، خلع نفسه من المملكة طوعا واختيارا فى سنة ٣٢١ قبل الهجرة، وانزوى فى أرضه، واشتغل بالزراعة والفلاحة، واقتدى به فى ذلك مقسيميانوس، الشريك الآخر، فعزل نفسه، ولم يبق من القيصرية الرباعية إلا غاليرس وقسطنقيوس خيورس، فصفا الوقت لغاليرس، وتصرف فى الإمبراطورية كما شاء.

وتلخيص عبارة المقريزى: «أن دقلطيانوس، أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة، كان من غير بيت الملك، فلما ملك تجبر، وامتد ملكه إلى مدائن الأكاسرة ومدينة بابل، واتخذ تخت ملكه مدينة أنطاكية، واستخلف على مدينة رومة، وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر إلى أقصى المغرب، وخالف عليه أهل مصر والإسكندرية فبعث إليهم وقتل منهم خلقا كثيرا، وأوقع بالنصارى، فاستباح دماءهم، وغلق كنائسهم، ومنع من دين النصارى، وحمل الناس على عبادة الأصنام، وأسرف فى قتل النصارى، وهو آخر من عبد الأصنام من ملوك الروم، ويقال إن رجلا يقال له آجلة ثار بمصر، وخرج عن طاعة الروم، فسار إليه دقلطيانوس، وحصر الإسكندرية ثمانية أشهر، حتى أخذ آجلة وقتله، وعم أرض

مصر كلها بالسبى والقتل، وكانت أيامه شنيعة قتل فيها من أصناف الأمم وهدم من بيوت العبادات ما لا يدخل تحت حصر، وكانت واقعته بالنصارى هى الشدة العاشرة، وهى أشنع شدائدهم وأطولها، لأنها دامت عليهم مدة عشر سنين لا يفتر يوما واحدا، يحرق فيها كنائسهم، ويعذب رجالهم، ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل، يريد بذلك قطع أثر النصارى، وإبطال دين النصرانية من الأرض، فارتد خلائق كثيرة جدا. وممن قتل فى الإسكندرية شؤوبا بطرس، بطرك الإسكندرية، وقتل معه امرأته وابنتاه بالسيف لامتناعهم من السجود للأصنام. وقتل دقلطيانوس لنصارى مصر يؤرخ به قبط مصر إلى يومنا هذا، كما سبق، فبين تاريخ دقلطيانوس، يعنى أول يوم منه، وبين يوم الخميس أول يوم من سنة الهجرة النبوية، ثلثمائة وثلاثون سنة وتسعة وثلاثون يوما». انتهى كلام المقريزى.

وقد سبق إنه خلع نفسه عن الحكومة، وانصرف عنها، وأبقاها لغاليرس فى سنة ٣٢١، وحسبه من الفخر إنه دعاه مجلس رومة إلى العود للإمبراطورية والحكومة فتنصل من ذلك وتنزه، وأظهر الأنفة عنها والعزة، وأبان إنه لم يكن تركها وعينه فيها، وإنه هجرها حليما لاسفيها.

الفصل الثانى والأربعون
فى الملك غاليرس قيصر،
وقسطنقيوس خيورس قيصر[1]

استقل هذان القيصران بالإمبراطورية سنة ۳۲۱ قبل الهجرة، وبقى حكمهما إلى سنة ۳۱۱، فكانت مدة حكمهما نحو عشر سنين.

ولما تولى الإمبراطورية العمومية غاليرس اضطر إلى أن يشترك معه قسطنقيوس خيورس، الذى كان قيصرا على حكومة الغلية، شركة أغسطوسية، ثم انتخب أيضا قيصرين جديدين، أحدهما يسمى: سويرس، ويقال له أيضا: سوريالوس، وكان عسكريا، ولكن مجردا عن الفضل والشجاعة، والثانى: مقسيمينوس، وكان جلفا من أجلاف الهمج، معدودا من رعاة الغنم، وكان قد انفصل عن الغنم والمرعى عن قرب، وانتظم فى سلك العسكرية بدون فضل ولا مزية، فبهذا كانت أيضا القيصرية الرومانية رباعية الحكم، رئيسها غاليرس قيصر.

فبمجرد ما وصل هذا الإمبراطور إلى أقصى آماله من الرياسة الرومانية كتب تعداد الأهالى بالأسماء والصفات، لضرب المغارم عليهم، ومصادرتهم فى أموالهم، وتكدير صفاء أحوالهم، فكانت هذه البدعة على المملكة تعد من العجائب، وتحسب من أكبر المصائب، وقد مسح هذا القيصر جميع الأراضى والمزارع، وضرب عليها مغارم جسيمة، وقاس كروم العنب بالقدم، وضرب عليها

---

(۱)هما القيصران: جاليريوس، وقسطنطينوس كلوروس الأول، حكما من سنة ۳۰۵ حتى سنة ۳۱۱م.

المغـرم، وعـد الأشـجـار والمواشى، وغـيـر ذلك، وصـار كل رئيس عـائلة أو بيت مجبورا على كتابة عدد أولاده وعبيده وخدمه وحشمه، وتقييد ما يمتلكه من العقار والمتاع فى سجلات كتاب المالية، حتى إن هذا القيصر أمر بتقرير الأولاد والخدم والعبيد على ما يمتلكه آباؤهم وسادتهم عسى أن يخالف قولهم قولهم، ويظهر المخبأ، بل ربما أغراهم المغرون على عدم الموافقة والإخبار بالزيادة، لعلهم يصيبون منهم أزيد مما قرروه أولا بالإملاء، وقد عين لذلك كله «تسجيل خانات»، فكانوا يحضرون فيها المرضى والمعلولين وأرباب الأمراض المزمنة والعاهات المعضلة والعواجز، لقيدهم فى دفتر العوائد وتمويلهم، وكانت المغارم مضروبة على المولودين والأموات، فلم يكن أحد فى أيام هذا القيصر مستثنى من المغارم والمصادرات، وكان إذا مات أناس من المسجلين فى دفتر المغارم، أو نفق حيوان بالموت من الحيوانات المضروب عليها العوائد، وزع ما يخصه على الأحياء بدون فوات شىء من المطلوبات، فلم يخل إنسان ولا حيوان من ظلم هذا القيصر وعسفه، حتى شمل جوره الشحاذين والسائلين، والفقراء والمساكين، فكان إذا عجز أحد عن أداء المطاليب وأظهر الفقر والمسكنة وسأل الناس ما فى أيديهم أمر بجمع من يتصف بذلك وشحنهم فى السفن وتغريقهم فى البحر، ليجتنب الناس المسألة والتخلق بالمسكنة والفقر، حتى لا يتخلص أحد من المغارم ودفع ما ضرب عليه، ولكن اقتضت الحكمة الإلهية إنه لابد من الاقتصاص من الظالم للمظلوم.

* وعند الله تجتمع الخصوم*

وذلك أن قسطنقيوس خيورس، شريك غاليرس، الجائر، كان يحكم بلاده بالعدل والإحسان، ويرفق برعاياه ليعيشوا فى حجر الأمان والاطمئنان، فمات فى مدينة يورق، ببلاد الإنكليز، بعد أن عاش عيشة مرضية، فأسف لموته جميع الرعية، وورث منصبه ابنه قسطنطين، الملقب بالأكبر.

وقد تصادف فى هذا الزمن أنه ثارت فتنة عظيمة فى إيطاليا، قتل فيها سويرس أحد الشركاء، وتولى بدله الإمبراطورية مقنقوس بن مقسيميانوس، الذى كان شريكا لدقلطيانوس، فاستشاط واليرس من ذلك غيظا، واستغاث بدقلطيانوس

الذى كان سببا فى خلعه، وكان دقلطيانوس أقام فى مدينة سالونة، وانزوى فيها، واشتغل بالحرث والغرس، وعاش عيشة هنية، فلما كتب إليه واليرس يعرض عليه المشاركة فى الإمبراطورية أجابه بقوله: أريد أن تحضر عندى لترى الخس المورق المخضر الذى غرسته بمدينة سالونة، فلعلك لو سرحت النظر فى هذا الغرس النضير لا تخاطبنى أبدا فى شأن المملكة! فلما رأى منه الامتناع فى العود إلى الإمبراطورية انتخب شخصا غيره يسمى ليقنيوس، ولقبه بعنوان أغسطس، فكان هذا الانتخاب آخر أفعال غاليرس وغاية تدبيره، فمرض عقب ذلك مرضا شديدا حل به على حين غفلة، فاندمل جسمه وتقرح، وقاسى ما قاسى من حدة الألم الذى اشتد به وبرح، فمات حيث تناهى به الوجع، وما أغنى عنه ماله وما جمع، وتولى بعده مقسيمينوس الثانى، شريكه فى الإمبراطورية، واستولى على الرياسة العليا على الدولة الرومانية، وذلك فى سنة ٣١١ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

الفصل الثالث والأربعون
فى الملك مقسيمينوس قيصر الثانى، وقسطنطين قيصر الأكبر، ومقسنقوس قيصر وليقنيوس قيصر(١)

وكانت مدة حكم هؤلاء الشركاء فى الحكومة الرباعية من سنة ٣١١ إلى سنة ٢٩٩، نحو ثلاث عشرة سنة.

فقد اجتمع على قبض زمام الدولة الرومانية فى هذا العهد أربعة من الإمبراطرة(٢)، ولا شك فى ترقب الشقاق بينهم، وإنه يحصل ولابد، ومن عادة الشقاق أن يترتب عليه الحرب، فقد اتحد قسطنطين مع ليقنيوس، واتحد أيضا مقسنقوس مع مقسيمينوس، فحدث من هذا الاتحاد حزبان متخالفان متباينان بالكلية، فكان مقسنقوس حاكما على الإيطاليانية، وقد سلك معهم مسلك الظلم والجور، فاشتد عليهم الأمر، وفشا فيهم العسف والجبر، فاستغاثوا بقسطنطين ليخلصهم من ظلم قيصرهم.

---

(١) حكم هؤلاء القياصرة الأربعة - مكسيمينوس دازا، وقسطنطين الأول، وليسينيوس، ومكسنتيوس - من سنة ٣١١ حتى سنة ٣٢٤م.

(٢) أى الأباطرة.

وكان قسطنطين المذكور مشهورا بكمال الرأفة والشفقة وغاية الشجاعة، وبالمحاماة عن الملة النصرانية، ولكن لم يكن فى إمكانه أن يجهز من الجنود إلا أربعون ألف مقاتل، وكان عساكر خصمه تنيف عن مائة وستين ألف نفس، فلهذا تردد قسطنطين فى إغاثة الطليانية، وصار يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ثم صمم أخيرا على الإغاثة، لوجود مرجحين اقتضيا تصميمه على الحرب، وذلك إنه تصور له ولجميع جنده أنهم رأوا فى السماء، على إدارة كوكب الشمس، شكل صليب مكتوب عليه بالرومية: أنت تغلب عداك! ثم رأى فى المنام حبرا من أحبار النصارى يأمره بأن يتخذ صورة الصليب، شعار القيصرية، على سلاح جنوده وعلى أعلامه وبنوده! فمن هذا الوقت اعتمد قسطنطين على هاتين الحادثتين فى حرب خصمه، وجزم بالنصرة عليه، وجعل شعار الصليب على الأسلحة والبيارق والرايات فى القيصرة الرومانية، وكانت قبل ذلك شعار القياصرة عبارة عن صور صنمية، فابتدأ قسطنطين بأن اتخذ لنفسه بيرقا مطرزا بالقصب ومكللا بالجواهر على شكل صليبى، ورقم عليه اسم عيسى بن مريم، عليه السلام، بالحروف الرومية، وصور المسيح متوجا بتاج من الذهب، ثم أمر قسطنطين جنوده أن يرسم كل منهم صورة الصليب على كنانته وسلاحه فأجابوه جميعا إلى ذلك، وسار بهم حتى اجتازوا جبل ألبة، بإيطاليا، فتقاتلوا مع جيشين عظيمين من جيوش خصمهم، فهزموا الجيشين، ثم استمروا فى طريقهم حتى وصلوا جبلا يسمى جبل مليوس، تحت أسوار رومة، وكان مقسنقوس قد صف هناك جميع جنوده ليتقوى بهم على جنود خصمه قسطنطين، فانهزمت جيوشه فى أول صدمة ففروا هاربين، وكانت النصرة لجند قسطنطين، وفى صبيحة اليوم الثانى وجد مقسنقوس غريقا فى نهر رومة، وكان ذلك فى سنة ٣١٠ قبل الهجرة[1] المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

ثم بعد ذلك بسنة انتصر ليقنيوس، رفيق قسطنطين، على مقسيمينوس قيصر، وقبض عليه، وجبره على قتل نفسه، فبهذا ارتفع شأن قسطنطين من ذلك الوقت،

---

(١) أى سنة ٣١٢م.

واستفحل أمره، وقويت شوكته، وعظم قدره، فحقد عليه رفيقه ليقنيوس غيرة منه وحسد، فناواه، وقصد أن يصده عن مشروعاته، ويمنعه عن جولاته وتقدماته، فوقع الحرب بينهما، فانهزم ليقنيوس وقتل في المعركة، فبقى قسطنطين منفردا بالمملكة الرومانية بدون مشارك فيها ولا منازع، وكان ذلك سنة ٢٩٩ قبل الهجرة، ودخل رومة بموكب عظيم حسب العادة، عقب ما حصل له من الإقبال والسعادة، فجعل الصليب زينة موكبه، وعلامة طالع كوكبه، حيث انتصر به، وصمم على أن يدخل فى دينه ومذهبه، فصور صورة نفسه بشكل تمثال قابضا بيده على صليب، فعد أهل رومة ذلك من أعجب الأعاجيب، لما أن عادة قياصرة رومة أن أحدهم إذا دخلها فى موكب حربه أو صلحه قبض بيده على رمحه، ولم تبطل هذه العادة عندهم إلى أن أحدث قسطنطين عادة الصليب، مع كونه إلى ذلك العهد لم يكن قط قد تنصر رسما[1]، فكان هذا من الغريب، إذ بنى ذلك كله على تخيلات وأوهام، أو أضغاث أحلام، ولو قبض تمثاله على شكل الإنجيل لكان الأصوب، لأن عيسى، عليه الصلاة والسلام، رفعه الله إليه، ولم يقتل ولم يصلب.

ومما ينسب للفخر الرازى[2]، أو للعارف النابلسى[3]:

عجبا للمسيح بين النصارى	وإلى الله والدا نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	انهم بعد قتله صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقا	فسلوهم فأين كان أبوه
فإذا كان راضيا بقضاهم	فاشكروهم لأجل ما صنعوه
وإذا كان ساخطا لأذاهم	فاعبدوهم لأنهم غلبوه

(١) أى رسميا.

(٢) فخر الدين أبو عبد الله محمد (١١٤٩ ـ ١٢٠٩م) متكلم وفيلسوف ومفسر للقرآن، كان كثير الشغب على المعتزلة، وفى تفسيره للقرآن ـ (مفاتيح الغيب) ـ معارضة كثيرة لآرائهم.

(٣) عبد الغنى بن إسماعيل بن عبد الغنى النابلسى (١٦٤١ ـ ١٧٣١) شاعر، متصوف، وعالم من علماء الدين، ولد بدمشق، وطوف بالعالم العربى، ثم استقر بدمشق، وتوفى بها، وخلف آثارا عدة فى الشعر والتصوف والفقه.

ولا يخرجهم من الورطة أن الصلب وقع على الناسوت، لأنهم قالوا: الإله واحد مركب من ثلاثة أقانيم - والأقنوم كلمة يونانية معناها الأصل - أقنوم الوجود، ويعبرون عنه بالأب، وأقنوم العلم، ويعبرون عنه بالابن وبالكلمة، وأقنوم الحياة، ويعبرون عنه بروح القدس. ولهم فى ذلك تناقضات ومذاهب مختلفة، فمن قائل: حل ذلك فى عيسى فانقلب ناسوته لاهوتا، ومن قائل: عيسى هو الله، ومن قائل: عيسى ابن الله، ومن قائل: عيسى رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وقد قيل لهم: لم قلتم عيسى إله أو ابن الله؟ فقالوا: الدليل إنه كان يفعل ما لا يفعله إلا الإله، يحيى الموتى، ويبرىء الأكمة والأبرص، فقيل لهم: قد يتصف بهذه الصفات من ليس بإله، إذ يجوز ذلك فى حق الآدميين والحيوانات والجمادات، ولو عدم الدليل، لأنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المللول.

ثم قيل لهم: لم خصصتم تركيب الإله من الأقانيم الثلاثة، وهى الوجود الذى عبرتم عنه بالأب، والعلم الذى عبرتم عنه بالابن والكلمة، والحياة التى عبرتم عنها بروح القدس؟ فقالوا: إن الإبداع والإيجاد لا يتأتى إلا بها، فقيل لهم: بل هو يتوقف على صفات أخر كالقدرة والإرادة، فلم يجيبوا بجواب مفيد.

وفى هذا القدر كفاية فلا يحتاج إلى المزيد، فيجب علينا الجزم بأنه رسول الله، وإنه من أولى العزم، ومن أنكر نبوته ورسالته يكفر.

محمد إبراهيم موسى كليمه　　فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

فعيسى عليه السلام من الخمسة والعشرين نبيا الذين يجب على المكلف معرفتهم تفصيلا، كما فى قول بعضهم:

حتم على كل ذى التكليف معرفة　　بأنبياء على التفصيل قد علموا

فى تلك حجتنا منهم ثمانية　　من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا　　ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وأشار بقوله: «فى تلك حجتنا» إلى الآية الشريفة من سورة الأنعام، وهى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٨٣) فأولهم وأفضلهم نبينا، صلى الله عليه وسلم.

فإنى وان كنت ابن آدم صورة ... فلى فيه معنى شاهد بأبوتى

ولله در البوصيرى(١) (حيث قال):

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

وقوله:

وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وأمته خير أمة أخرجت للناس، وعلماؤها أكرم العلماء.

* * *

---

(٢) محمد بن سعيد الصنهاجى (١٢١١ـ١٢٩٦م) متصوف وشاعر مصرى، اشتهر بقصيدته: الهمزية والبردة، فى مدح الرسول عليه السلام.

الفصل الرابع والأربعون

فى انفراد الملك قسطنطين الأكبر بالإمبراطورية الرومانية[1]

انفرد هذا القيصر بالإمبراطورية الرومانية فى سنة ٢٩٩ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٢٨٥، فكانت مدة انفراده بالحكم نحو أربع عشرة سنة.

لما استبد قسطنطين الأكبر بالقيصرية الرومانية دخل مدينة رومة بموكب حافل مؤيدا منصورا، فلم يلق من أهل هذه المدينة بشاشة ولا طلاقة وجه ولا حسن إقبال عليه، إذ لم يفرحوا بقدومه ولا بمنصبه، بل صاروا يسخرون به ويقدحون فيه تصريحا وتلويحا، ويطعنون فى عرضه بدون أصل ولا فصل، والحامل لهم على ذلك ميله إلى حماية دين النصرانية، فغضب من وقوعهم فيه، وإدمانهم على عبادة الأوثان، فرغبت نفسه عن مدينتهم، وصمم على أن يبنى مدينة عظيمة غير رومة، ويجعلها دار ملكه ومقر حكومته، فطمح نظره إلى مدينة بيزنطيا، لحسن موقعها بين أوروبا وآسيا، ولكونها فى منتزه عظيم البقعة، مطلة على ثلاثة أبحر، فعما قريب رسمها وبنى أسوارها وهياكلها وقصورها وحماماتها وسقياتها وقصباتها، وأتمها على أحسن حال، فرغب الأهالى فى سكناها لتعدد المنافع والفوائد، وهرع إليها الناس من جميع الأقطار، واشتهرت باسم: القسطنطينية، وكان إتمامها سنة ٢٨٣ قبل الهجرة[2]، وتحول إليها تخت الدولة الرومانية.

---

(١) هو القيصر قسطنطين الأول، انفرد بالحكم من سنة ٣٢٤ حتى سنة ٢٣٧م.

(٢) أى سنة ٢٣٩م.

وفى أثناء ذلك أصلح قسطنطين حكومة رومة والحكومات الرومانية التابعة لها، واعتنى باصلاح حكومة الديار المصرية، فهذبها ولطف حالها على التدريج، ومن المعلوم إنه بتحويل دار إقامته بالمشرق ساعدته عوائد المشرق ومزاج قطره واعتدال طبيعته على تحسين الأخلاق الرومانية وتهذيبها، والتغيير والتبديل فيها بالإصلاح، لا سيما ديار مصر.

وكان قد تعين من طرف القيصر قائد لحكومة المشرق، يعنى رئيسا عاما، وكانت مصر داخلة تحت قيادته وحكمه، وأمره ونهيه بمقتضى الأصول الرسمية، ولكن لم تكن عساكر مصر تحت إمارته وتصرفه، بل كانت تحت تصرف قائد مخصوص تابع مباشرة عموم الدولة الرومانية، لا يطيع قائد الحكومة المشرقية، وذلك لأن مصر لما كانت مأخوذة من البطالسة عدها الرومانيون حدودا وثغورا لممالك رومة، وكان للحدود والثغور والرباطات أمير مخصوص للمحافظة من طرف رومة، وكان منوطا بتحصيل العوائد والأموال من خصوص الحدود والثغور ليتوزع بعضها على الخزينة الرومانية العمومية، يعنى بيت مال المملكة، وعلى الخزينة الخصوصية، يعنى خزينة القيصر، وكان لمصر أيضا نائب ملكى قائمقام القيصر، كالملك على مصر، جل أشغاله إجراء العمليات الهندسية فيما فيه إصلاح أحوال النيل للسقى والزراعة والأسفار، ونقل الغلال من مصر إلى القسطنطينية، وكان رؤساء الأقاليم المصرية وحكامها وعمالها لا ينقادون لأوامر هذا النائب غالبا، بل كانوا لمخالفته أقرب منهم للمساعدة على إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره ونواهيه، حتى صار حاكم الصعيد فى أدنى زمن فى مقدم النائب المذكور، وكان هذا مما يخل بانتظام الحكومة المصرية وبانقيادهم للرومانيين، فشرع الرومانيون، على تداول الأيام، فى تمكين دولتهم بمصر بتغيير أسماء الأقاليم المصرية وتقسيمها أقساما صغيرة وتكثير العمالات، لإضعاف قوة الحكام وليحكموها بالسهولة، فبكثرة العمالات[1] والعمال كثر الظلم فيما بعد على الرعايا، وانضم إلى ذلك كراهة المصريين جميعا

---

(١) فى الأصل: العمليات.. وهو خطأ قد التزمنا تصحيح أمثاله مما يرد كثيرا فى الأصل، دون أن نثقل النص بالإشارة إلى ذلك فى التعليقات دائما.

للحكومة الرومانية، مع ما يضاف إلى ذلك من اختلاف المذاهب العيسوية وتشعبها إلى شعب كثيرة متعادية، كم سيأتى ذكره فى محله.

وبالجملة، فمدة استقلال قسطنطين بالحكم كانت أربع عشرة سنة، وكان فى الغالب يسعى فى تتميم مشروع دقلطيانوس، بأن يجعل المملكة الرومانية دولة ملوكية، واحدة الحكم والحاكم، يستوى فى قوانينها وأحكامها جميع أهاليها بدون امتيازات خصوصية، بحيث لا يكون فيها حكومة أشراف ولا قضاة ولا ملتزمين، وإنما يكون حكامها أمراء من طرف القيصر يوليهم ويعزلهم، فلهذا قسم قسطنطين المملكة أقساما إدارية بين أولاده الثلاثة، وهم قسطنطين، وقسطنطوس، وقسطنطقوس، وابن عمه دلماقوس، وجعل القيصر لنفسه الرياسة العمومية على هؤلاء القياصرة الأربعة، الذين هم عبارة عن قائمقامات، كل منهم نائب فى ولايته عن القيصر، فبهذا الترتيب أصلح حال الحكومة الملكية.

وقد أصلح أيضا حال الجيوش الرومانية بالتراتيب اللازمة، والتنظيمات المستحسنة، فقسهم الجيوش إلى فرق، كالإيالات، وجعل كل فرقة ألفا وخمسمائة نفس، وجعل على الفرقة أميرا، فبهذا صار أمير كل فرقة على حدته، لا يخشى منه على القيصر، لانحصار إمارته، بخلاف الإمارة السابقة فى أيام غيره، فإن أمير الجيش كان قوى الشوكة، لكثرة جنده. وأيضا ترتيب الفرق العسكرية بهذه المثابة فيه مزية سهولة تعليم الفرقة، ولما كان أهالى البلاد الرومانية قد تناقص عددهم بالحروب الداخلية والخارجية، فكانت لا تفى بكفاية هذه الفرق العديدة وتكميل ما تناقص منها من الأهالى، واضطر القيصر أن يكمل الفرق المطلوبة من الأجانب والأغراب، وأن ينظمهم فى سلك العسكرية للاحتياج إلى ذلك، فعاد هذا على المملكة الرومانية بالضرر والمفسدة، لوجود الدخيل فى عساكرهم.

وفى آخر أيام حكومة قسطنطين اضطر هذا القيصر إلى قتال فارس، وطلب أن يتعمد ويتنصر، فغطس فى ماء المعمودية عند مدينة أزميد على يد أسقف هذه المدينة ومات هناك.

ومع حسن ترتيب قسطنطين ووفور عقله إلى هذا الحد كان لا يخلو من ارتكاب

بعض الأفعال الجبرية المذمومة، كإخراجه اليهود من القدس، وجبرهم على التنصر، وقتل من امتنع منهم، فأبى أكثرهم وقتل، بل من تنصر منهم لم يخل من النكبة، حيث جمع هذا القيصر من تنصر من اليهود وحشرهم فى الكنيسة يوم عيد الفصح وأمرهم بأكل لحم الخنزير الممنوع فى دين اليهودية، فأبى أكثرهم أن يذوقه، فقتل، فكان المقتول منهم خلائق كثيرون جدا فى هذه المحنة.

وليس هذا بعجيب فقد تعصب هذا القيصر دون غيره لدين النصرانية ونشره، وذب عنه ونصره، وآوى أهله، وتجاوز الحد فى الحمية الدينية، حتى إنه قبل تنصره كان أصدر أمره المشهور الصادر منه بمدينة ميلان سنة ٣٠٩ قبل الهجرة(١)، برخصة التدين بالدين النصرانى، وإباحة التمسك به، وبأن المتنصرين جميعا يكونون تحت حمايته، ومن هذا الوقت انتشر دين عيسى، عليه السلام، وصار دين الحكومة والحكام، ومعتقد أهل الحل والعقد وأرباب الأحكام، وكانوا جميعا قبل ذلك عبدة أوثان وأصنام، ولا زال الحال على ذلك إلى أن جمع فى سنة ٢٨٧ قبل الهجرة(٢) فى مدينة نيقة بإيالة بروسه المجمع الأول الذى تهذبت فيه علامة الأمانة(٣) النصرانية الباقية إلى الآن، التى هى مذهب الكنيسة القاثوليقية، ولم يكن من القياصرة أشد حمية منه على هذا الدين، لا سيما بعد الدخول فيه، فقد كان يعظم الأساقفة ويعاملهم معاملة الإخوان، ويجمعهم على خوانه، وقد أمر فى سائر أطراف وأكناف المملكة بصلاة يوم الأحد، وجعل هذا اليوم عيدا فى الأسبوع، وتعطيل جميع الأشغال فيه، وصار العمل على ذلك سنة متبعة عند سائر العيسوية فى سائر الأزمان، وقد أبطل المصارعة وعيد الزهرة وهدم هياكلها لما وجد فيها من وجود الأخلاق القبيحة، فصار عباد الأوثان يدخلون بكثرة فى دين النصرانية.

ورتب فى جميع المملكة مرابطين ومحافظين من الأمراء، وأقطعهم الأراضى فى نظير خدماتهم، وجعلها وراثة من بعدهم فى أعقابهم، ومنع جميع ما فيه فساد

---

(١) أى سنة ٣١٣م.

(٢) أى سنة ٢٣٥م.

(٣) أى: قانون الإيمان.

الأخلاق، وخفف العوائد والأموال بالتعديل، ولطف أمور المصادرات، والأسر والاسترقاق، وأبطل الربا، وكان له ميل قوى للعلوم والفنون، فلذلك كان يعين عليها، وقد عافى أهل العلوم والآداب من جميع العوائد والأثقال، وأباح لهم أن يكون لهم مزايا العسكرية للتشريف، وأن يسكنوا فى مساكن العسكرية ومنازلهم، وجعل هذه المزية لنسائهم وأولادهم. وقد مات هذا القيصر فى سنة ٢٨٥ قبل الهجرة، بعد أن حكم ثلاثين سنة، اشتراكا وانفرادا، وبموته تقاسم أولاده المملكة مساهمة.

الفصل الخامس والأربعون

فى الملوك الثلاثة وهم: قسطنطين الثانى، وقسطنطوس الأول، وقسطنقوس[1]

قد تقاسم فى سنة ٢٨٥ أولاد قسطنطين الأكبر الممالك الرومانية بينهم مساهمة ومحاصة، وصار كل منهم قيصرا على حصته، مستقلا بها، فأصاب قسطنطوس الأول الإيالات المغربية، وخص قسطنقوس الإيالات المشرقية، وأقيم قسطنطين الثانى رئيسا على الأقطار المشرقية والمغربية، فبهذا صار إمبراطورا عموميا وحاكما كليا على أخويه، وقتلوا بقية عائلة قسطنطين الأكبر لقطع عرق المطامع فى المملكة، ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا اثنان من أقاربه، وهما ولوس ويوليانوس، الملقب بالمرتد، فإن مرقس، أحد الأساقفة، تشفع فى إبقائهما وخلاصهما من المقتلة العمومية.

فتلقب كل من القياصرة الثلاثة بلقب أغسطس، فعما قليل وقع بين الأخوة الثلاثة كمال الشقاق والتفاقم، حيث لم يرض قسطنطين بنصيبه من المملكة، وهو الملاحظة العمومية، وتدبير الإيالات المشرقية والمغربية بوجه التفتيش، فصمم على

(١) هم القياصرة: قسطنطين الثانى، وقسطنطينوس الثانى - لا الأول، كما ذكر المؤلف - وقنستانز، ولقد تقاسموا الحكم من سنة ٣٣٧ حتى سنة ٣٤٠م، ثم اختص به قسطنطينوس وقنستانز من سنة ٣٤٠ حتى سنة ٣٥٠م، ثم انفرد به قسطنطينوس الثانى من سنة ٣٥٠ حتى سنة ٣٦١م.

قتال أخيه قسطنطوس، فجرد عليه وسار إليه بخيله ورجله، وقاتله، فهلك قسطنطين فى أثناء المقاتلة، وكان ذلك فى سنة ٢٨٢[١]، وتم التمكن لقسطنطوس.

ولكنه لم يحصل على الراحة، ولا فرح بعد قتل أخيه قسطنطين الثانى بهذه ولا استراحة، بل ظهر له فى إيالاته المغربية خصم ألد من أخيه يسمى مانيقوس كان أصله من الأسارى، من سبى جرمانيا، وتربى عند الرومانيين، وارتقى فى العسكرية، وتقلب منها فى الدرجات العلية، فاغتصب المنصب الملوكى بالبلاد المغربية، ودعا لنفسه بالقيصرية، وتبعه خلق كبير، فسار إليه قسطنطوس، فهلك قسطنطوس المذكور سنة ٢٧٢ قبل الهجرة[٢] فى المعركة، فلما أحس أخوه قسطنقوس بذلك صمم على أخذ ثأر أخيه وبلاده بقتل مانيقوس الغاصب للمملكة الرومانية، فسار إليه وقتله، وأخذ بثأر أخيه، وانفرد بالدولة الرومانية عقب هذه الواقعة العظيمة، ولكن أشرك فيها قريبه والوس، ولقبه قيصرا، وأحال عليه محافظة المشرق، وأبقى الإيالات المغربية وعموم السياسة والتدبير فى الدولة الرومانية بتمامها لنفسه، فلم يفلح والوس فى تدبير الحكومة، لأنه كان حديث نعمة، وكان فاسد الأخلاق شره النفس، وقل أن يفلح من اجتمعت فيه هذه الخصال، فقتله قسطنقوس فى سنة ٢٦٨ قبل الهجرة[٣].

وبهذا صارت الدولة الرومانية على خطر عظيم، يخشى عليها التلف والانحلال، بتحويل هذه الأحوال، وكانت أمة الإفرنجة تهجم عليها من جهة المغرب وأكاسرة الفرس تهددها من جهة المشرق، وكان الإمبراطور قسطنقوس وحده لا يستطيع الذب عنها، فكان الأمر مقتضيا لتنصيب قيصر آخر مع هذا الإمبراطور يشد به أزره، ويصلح به أمره، وكان قد بقى من أقارب قسطنطين الأول يوليانوس، أخو والوس، وكان فى مدرسة مدينة أزميد[٤] للتربية والتعليم، وكان

---

(١) أى سنة ٣٤٠م.

(٢) أى سنة ٢٥٠م.

(٣) أى سنة ٣٥٤م.

(٤) أزميد أو أزميت، مدينة تقع على خليج أزميت فى تركيا، وهى الآن عاصمة لولاية كوكابلى شمال غربى تركيا، وكان اسمها قديما استاكوس.

شابا متدينا بدين النصرانية، مشتغلا بالفلسفة والحكمة، وقد حصل فى تلك المدرسة الأزميدية ما يمتاز به أبناء الأكابر من العلوم والمعارف والآداب واللطائف، فجلبه الإمبراطور قسطنقوس من مدرسته، وجعله قائدا على جنده المعين لقتال الإفرنج، وناطه بقتال الإفرنج، فقاتلهم أشد المقاتلة، وظهر عليهم ظهورا عجيبا، وظفر بهم كمال الظفر، فحسده الإمبراطور على ذلك، وحقد عليه، وناوأه، وأراد أن يأخذ منه بعض فرق عسكرية ليضعف بذلك شوكته، وكان إذ ذاك سابور ذى الأكتاف زحف على ممالك الرومانيين بآسيا، وأخذ مدينة آمد، بالجزيرة، وكان قسطنقوس يمانع عن هذه البلاد ويحميها من فارس، فاغتنم هذه الفرصة بطلب العساكر من يوليانوس، فأبى العساكر الانفصال عن رئيسهم، وخالفوا على الإمبراطور، وأحدقوا بهذا الرئيس واعتنقوا به، وأعلنوا له بالأغسطوسية وبايعوه على ذلك، ولكن يوليانوس لم يجبهم إلى ذلك، وتمنع من قبول المنصب، وبكى وناح، وأظهر عدم الفرح والانشراح، فانتهى الحال بأن جبروه على الرضا والقبول، وحملوه على أن يسير بهم حالا إلى المشرق لقتال خصمه وإراقة دمه، فسار إليه، فلما التقى الصفان بالمشرق مات قسطنقوس فى مدينة المصيصة سنة ٢٦١ قبل الهجرة[١]، فتمت الإمبراطورية الرومانية ليوليانوس.

وقد كان هذا القيصر حين غزوه الإفرنجة فى بلاد الغلية، يعنى فرانسا وما جاورها، جعل مقر إقامته وكرسى قيصريته فى مدينة لوطيقة، التى هى الآن مدينة باريس، واشتغل مدة الغزو بتحسين هذه المدينة وإصلاحها وإدخال العمارية فيها والرفاهية، فهى من آثاره الباقية، وبموت قسطنقوس انفرد يوليانوس بالدولة الرومانية مشرقا ومغربا، فكانت باريس أحب البلاد إليه، وكانت مدة حكم أولاد قسطنطين بالمملكة إلى انفراد يوليانوس المرتد نحو أربع وعشرين سنة.

---

(١) أى سنة ٣٦١م.

الفصل السادس والأربعون

فى الملك يوليانوس قيصر، المرتد[1]

تولى الإمبراطورية الرومانية العمومية وانفرد بحكم جميع الرومان فى سنة ٢٦١ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٢٥٩، فكان مدة استبداده بالولاية العمومية سنتين.

قد استحسن العقلاء واستصوب النبلاء من عموم الرومانيين تولية هذا القيصر، لما كان يظهر لهم من رسوخه فى الفضل، وسلوكه مسلك العدل، إذ أبعد من الديوان القيصرى أرباب السخرية والهذيان، والمتملقين من الأخصاء والندمان، واستعوضهم بأرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، وأهل الفلسفة والحكمة والعرفان، فصار يأتى إليه أرباب المعارف والفضائل من كل فج عميق، ويدعوهم إلى حضور مائدته ولا يختار له من غيرهم حميم ولا صديق، ولا حبيب ولا رفيق، وكان قبل تقليده بالمملكة الرومانية مظهر التمسك بدين النصرانية، فلما ملك الزمام، واستبد بتدبير الأحكام، ارتد على رؤوس الأشهاد، ورفض دين النصرانية ولم يبال بالارتداد، بل عاد إلى عبادة الأصنام والأوثان، وصبا إليه وذب عنه من دون الأديان، فاستبان أن إظهاره فى بادية أمره التمسك بدين عيسى كان محض نفاق، وأحبولة يصيد بها قلوب المتمسكين بهذا الدين ليصعد على كرسى الحكومة بدون شق العصا وإظهار الشقاق، إذ كان دين النصرانية إذ ذاك هو الإيمان المطلوب، والإسلام(*) المرغوب.

---

(١) هو القيصر جوليان، حكم من سنة ٣٦١ حتى سنة ٣٦٣م.

(*) الإسلام: المقصود هنا هو الخضوع لله سبحانه وتعالى. (الشروق).

وشتان بين أهل الكتاب وبين الصابئة الذين لا كتاب لهم، فلا يميل إلى الصابئة والمجوس إلا المشركون فى جميع الأزمان، حتى فى صدور الإسلام، ودليل ذلك إنه فى عهده صلى الله عليه وسلم حين كانت الحروب واقعة بين الروم وفارس كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يميلون إلى أهل فارس لأنهم أهل أوثان، فلما بشر الله تعالى المسلمين بأن الروم سيغلبون فى بضع سنين سر المسلمون بذلك، ثم إن أبا بكر، رضى الله عنه، بادر إلى مشركى قريش فأخبرهم بما نزل عليهم فيه، فقال أبى بن خلف: خاطرنى[1] على ذلك، فخاطره على خمس قلائص، وقدر له مدة الثلاث سنين، ثم أتى النبى، صلى الله عليه وسلم، فسأله كم البضع فقال: «ما بين الثلاثة إلى العشرة»، فأخبره بما خاطر به أبى بن خلف، فقال: «ما حملك على تقريب المدة»؟ فقال: الثقة بالله ورسوله، فقال النبى، صلى الله عليه وسلم: «عد إليهم فزدهم فى الخطر، وازدد فى الأجل»، فزادهم قلوصين وازدادهم فى الأجل سنتين، فأظفر الله تعالى الروم بفارس قبل انقضاء الأجل الثانى، تصديقا لتقدير أبى بكر، رضى الله عنه، وكان أبى قد مات من جرح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبى، فقال النبى، صلى الله عليه وسلم: «تصدق به». وكانت المخاطرة بينهما قبل تحريم القمار.

وقد فرح المسلمون بظهور الروم على فارس، كما كره المشركون ذلك، وقد فرح عباد الأوثان برجوع يوليانوس قيصر إلى عبادة الأوثان ورفضه دين عيسى، عليه السلام، وانحاز إليه من لا خلاق له من الصابئة، وامتلأ ديوانه إذ ذاك من أرباب القيافة[2] والمنجمين، وأرباب العيافة والعرافين، ومن رؤساء دين الصابئين، فكان لا يسمع فى ديوانه إلا مدح الأصنام والأوثان، وزجر الطير[3] وخوارق العادات من كل زور وبهتان، حتى تقلد بنفسه الكهانة، وصار رئيس هذه الديانة، وكان

---

(١) أى راهنى، ومن معانى الخطر - بفتح الخاء والطاء - ما يراهن عليه.

(٢) الاهتداء إلى المؤثر بآثار أقدامه على الرمل، أو إلى النسب بواسطة الأعضاء. ولقد برع العرب فى ذلك قديما.

(٣) زجر الطير والعيافة هى التفاؤل والتشاؤم بها.

يفتخر بهذه الرياسة، ويعدها من باب الحزم والكياسة، فكان محاربا ومعاديا لدين النصرانية، لكن لا يتعرض لإبطال العقائد المسيحية، وإنما كان باحثا على إعلاء الملة الوثنية ورفعها على دين عيسى، عليه السلام، فبذل الهمة في تقوية عبادة الأصنام، وجعل مدار الديانة وإخلاص العبادة على الانقياد لها والاستسلام، ويأبى الله إلا ما أراد، فلم يبلغ القيصر مقصوده ولم يتمكن من الحصول على المراد، لأن التوحيد لا يكون إلا بالتمسك بدين قويم، يهدى إلى صراط مستقيم، جاء به الوحى بكتاب إلى نبى من الأنبياء، ورسول من الأصفياء، وقد أراد هذا القيصر أن يعضد فاسد إيمانه، ويمكن من القلوب حب أوثانه، فأمر أمراء دين الصنم أن يشددوا فى التمسك بدينهم على وجه محكم، وأن يجتمعوا بكليتهم وجزئيتهم على مكارم الأخلاق، ليجذبوا العامة ويكثروا الرفاق، فلم تنفع أوامره، ولا ساعدته زواجره، وكان يعظم بقوله لهم: أليس من العيب والعار على مثلكم أن نصارى القدس يتصدقون على فقرائكم بجزيل الصدقات، فضلا عن إحسانهم لفقرائهم بالعطايا والإنعامات؟ فأنتم أولى بهذه المكارم، لا سيما وأن سبب فقر فقرائكم إنما هو (من) أفعالكم السيئة. ومع هذا الوعظ فكان أمناء الصابئة لا يرتضون أن يسلكوا مسلك الأخلاق الحميدة، ولا يستطيعون أن يتمسكوا بالفضائل، وينتهوا عن الرذائل، وكان النصارى فى ذلك العهد بخلاف ذلك، سالكين أحسن المسالك.

ولما سار يوليانوس للانتقام من الفرس فى مقابلة إساءتهم للدولة الرومانية مدة طويلة، لمح فى طريقه فى مدينة قيصرية، من إقليم قبادوقيا، هيكلا لعبادة الأصنام خربا، ووجد فى أنطاكيا احتقار أهاليها لعبادة الأصنام، فاتهم النصارى بأنهم هم المخربون للهياكل والمتسببون فى تحقير دين الصابئة، فأمر بإيذائهم وإساءتهم، ثم بعد ذلك بزمن جازف بنفسه وتجاسر ودخل بلاد فارس وجال فيها وأوغل كل الإيغال، ولم يبال من شىء ولا خطرت له الهزيمة على بال، فانهزم وتولى مدبرا أمام سابور ذى الأكتاف مقاتلا فى أدباره لعدوه، مظهرا الشجاعة الخاصة والبسالة العسكرية، مما به عد من فحول الرجال وكبار الأبطال، لأنه منع عن نفسه وقوعه فى يد الفرس المقتفين أثره، فحاول إبعادهم عنه فى قتاله، مع رجوعه القهقرى، فجرح فى هذا الحرب فى واقعة عظيمة قهقرته، ومات قتيلا فى قتاله على حمية فى

سنة ٢٥٩ قبل الهجرة، ومع ذلك فكانت النصرة له، وإنما من زرع الإحن لقى المحن. وخلفه يويانوس، كما سيأتى، وكانت مدة يوليانوس فيها رحمة على من لم يكن تنصر من المصريين ممن بقى على دين آبائه وأجداده، فاستمر المصريون الذين لم يتنصروا على عبادة الأصنام بدون معارض ولا منازع.

ولما كان قد بشر نائب مصر القيصر يوليانوس المرتد، قبل غزوه للفرس، بأن المصريين قد بحثوا حثيثا على عجل حديث، على شكل العجل أبيس المعبود لهم، النافق فى السابق بالموت، وإنه ظهر لهم إنه معبودهم بعينه، نسبا وحلية، فرح بذلك فرحا شديدا، وهش وبش واستبشر، لأن المعهود فى هذا القيصر الرومانى إنه كان يحترم العجل المصرى المعبود للمصريين، وكان يحلف بحياته، حتى إنه حين كتب لنائبه «أوقديقس» فى شأن البطرق اساناسوس، صاحب كرسى بطرقة الإسكندرية، الذى كان انتفى منها ورجع إليها ما نصه: «وحق العجل أبيس، إن لم يخرج هذا البطرق من المدينة حالا لأجعلن على جندك مائة رطل من الذهب غرامة عليهم وعقابا لهم فى نظير عدم إخراجه»! فكن هذا القيصر متجاهرا بحماية دين المصريين القديم، وعبادة العجل الذميم، وكان عليه فى مصر بذلك الدهر مدار الدين القبطى القديم.

والدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

وكان فى عهده قد رجع دين النصرانية القهقرى، فلم يشم رائحة القوة إلا فى زمن طيودوسيس قيصر، كما سيأتى، وقد سبق أن موت يوليانوس قيصر كان فى سنة ٢٥٩ قبل الهجرة، فى قتال الفرس وتولى بعده يويانوس سنة ٢٥٩ قبل الهجرة.

الفصل السابع والأربعون

فى الملك يويانوس قيصر[1]

لما مات يوليانوس قيصر حصل فى الجنود الرومانية وغيرهم كرب شديد بموته، وكانت العساكر الرومانية المنصورة على الفرس فى منقطع من الأرض ليس عندهم شىء من الميرة، ولم يكن من العائلة الإمبراطورية القسطنقوسية وارث يتولى الإمبراطورية، ولا يمكن أن تلبث الحكومة الرومانية من غير قيصر، فاختاروا إمبراطورا للرومانيين يسمى سالسطوس، حاكم البلاد المشرقية، فامتنع من قبول هذا المنصب، فاختار الجند رئيس الحرس القيصرى المسمى الأمير يويانوس، ونصبوه قيصرا عليهم بالتواطؤ التام والاتفاق العام، ولم ينتطح فى توليته كبشان، وكان تقليده المملكة فى سنة ٢٥٩ قبل الهجرة، وبقى إلى سنة ٢٥٨، فلم يحكم إلا سنة واحدة.

وبتوليته المملكة عقد الصلح مع سابور ذى الأكتاف، ملك فارس، على شروط مخلة بناموس الدولة الرومانية ومزرية بمقامها، ثم أبطل جميع أوامر يوليانوس، سلفه، فى كل ما يتعلق بعبادة الأصنام، من حمايتها، وفيما يتعلق بإضرار دين النصرانية، ونهى اليهود عن أن يشهروا شعائر دينهم على رؤوس الأشهاد. ومع كونه انتصر للدين العيسوى، وأبطل عبادة الأصنام، لم يكن يستحق رياسة الدولة الرومانية، لقلة شهامته، فإنه فى أيامه قامت قبائل مغاربة فى بلاد برقة ونهبوا مدن

---

(١) هو القيصر جوفيان، حكم من سنة ٣٦٣ حتى سنة ٣٦٤م.

طرابلس الغرب، وكان من عماله على هذه الجهات أمير يسمى أوريقيوس، نائب أقاليم طرابلس الغرب، فلم يمكن لهذا النائب أن يمنع إغارة هذه القبائل على بلاده، ولاظهرت نتيجة من القيصر المذكور فى ردعهم، فبهذه الوسائل، وبعقده الصلح السالف الذكر، الذى هو على الرومانيين محض معرة، صار هذا القيصر مبغضا للجميع، فوجد ذات يوم من الأيام قتيلا على فراشه سنة ٢٥٨ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية.

قيل: إن السبب الحقيقى فى قتله هو عقد الصلح المخل بناموس الرومانيين مع سابور ذى الأكتاف، كسرى فارس، وكان الرومانيون فى ذلك الوقت لازالوا يحافظون على حفظ ناموسهم ولو تضعضعت أحوالهم.

ثم إننا قد أسلفنا أن سابور ذا الأكتاف هو غير سابور بن أردشير، وأن بينهما عدة سنوات فى الحكم. وبيان ذلك أن أردشير بن بابك بن ساسان أول الطبقة الساسانية، التى هى الطبقة الرابعة من ملوك الفرس، أعقب سابور بن أردشير، وأن سابور حكم إحدى وثلاثين سنة، ثم ملك بعده ابنه هرمز الأول ابن سابور سنة ٣٥١ قبل الهجرة[١]، وكانت مدة حكمه سنة واحدة وستة أشهر، وكان عظيم الخلق، شديد القوة، وكان يلقب هرمز البطل لشجاعته، وهو الذى بنى مدينة هرمز، من كور الأهواز، ثم ملك بعده ابنه بهرام الأول سنة ٣٥٠ قبل الهجرة[٢]، وكانت مدة حكمه ثلاث سنين وثلاثة أشهر، وكان له حروب مع ملوك الشرق، وسار على سيرة آبائه فى حسن السياسة والرفق بالرعية، ثم ملك بعده ابنه بهرام الثانى سنة ٣٤٩ قبل الهجرة[٣]، فحكم سبع عشرة سنة، فأقبل فى أول ملكه على اللهو واللعب والنزاهة والصيد، لا يفكر فى ملكه ولا رعيته، وأقطع الضياع لخواصه وخدمه وحشمه، فخربت البلاد، وقل ما فى بيوت الأموال، وكان تدبير الملك مفوضا إلى وزرائه، ثم استيقظ من غفلته حيث نصحه موبذان[٤] مملكته

---

(١) أى سنة ٢٧١م.
(٢) أى سنة ٢٧٢م.
(٣) أى سنة ٢٧٣م.
(٤) كاهن بيت النار عند المجوس.

بقوله: «**أيها الملك، إن الملك لا يتم إلا بالشريعة، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا** عز للملك إلا بالرجال، ولا قيام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب للبرية، نصبه الرب وجعله قيما، وهو الملك»! فلما سمع الملك ذلك أحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين، وأمرهم بالإجراء على رسومهم السالفة، فانتظم ملكه حتى كانت أيامه تدعى بالأعياد لما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل، ثم ملك بعده بهرام الثالث، ابن بهرام الثانى، ابن بهرام الأول سنة ٣٢٩ قبل الهجرة[١]، فحكم أربع سنين وأربعة أشهر، وسلك سبيل آبائه من العدل والسياسة، وهو الذى يقال له شهنشاه، ثم ملك بعده أخوه ترسى بن بهرام، ويقال له نرسيس، سنة ٣٢٥ قبل الهجزة[٢]، فحكم تسع سنين ثم ملك بعده ابنه هرمز الثانى، ابن ترسى سنة ٣١٢ قبل الهجرة[٣]، وحكم تسع سنين أيضا، ولما مات هرمز نحو سنة ٣١٢، فى أول حكم مقسيمينوس الثانى، قيصر الرومانيين، لم يكن له ولد، وكانت بعض نسائه حاملا، فعقد التاج فى هذه السنة على ما فى بطنها، فولدت ولدا سموه سابور الثانى، فلما اشتد ظهرت منه نجابة عظيمة من صباه، فكان أول ما ظهر منه أنه سمع ضجيج الناس بسبب الزحمة على الجسر الذى على دجلة بالمدائن، فقال: ما هذه الجلبة؟ فقيل: بسبب زحام المارين على الجسر، فأمر أن يعمل إلى جانب الجسر جسر آخر يكون أحد الجسرين للخارجين والآخر للداخلين، فعملوه، وزال الزحام، وكان سنه إذ ذاك دون السن المعتاد لتمييز مثل هذه الأمور المهمة، فتعجب الناس من نجابته!

وفى أيام صباه طمعت العرب فى بلاده، وأخربوها، فلما بلغ من العمر ست عشرة سنة انتخب من فرسان عسكره عدة كثيرة وسار بهم إلى العرب، وهم من ولد أناد بن نزار، وملكهم يومئذ الحرث الأعز الإيادى، وكانوا يصيفون بالجزيرة ويشتون بالعراق، وقتل من وجد منهم، ووصل إلى الحساء والقطيف، وشرع يقتل

---

(١) أى سنة ٢٩٣م.

(٢) أى سنة ٢٩٧م.

(٣) أى سنة ٣١٠م.

ولا يقبل فداء، ثم سار إلى اليمامة وسفك بها الدماء، ولا يمر بماء للعرب إلا غوره ولا ببئر إلا طمها، فعمهم القتل، فما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم. وصار هذا الملك ينزع أكتاف العرب، حتى نزع، فيما قيل، كتف عدد كثير جدا، فلذلك سمى سابور ذا الأكتاف، وصار لقبا عليه.

وقد أتى فى مسيره على بلاد البحرين، وفيها يومئذ بنو تميم، فأمعن فى قتلهم، وشيخها يومئذ عمرو بن تميم بن مرة معمرا كثيرا، وكان يعلق فى عمود البيت فى قفة قد اتخذت له. فلما سمعوا بمسير سابور إليهم رحلوا، وأرادوا حمله معهم، فأقسم عليهم أن يتركوه فى ديارهم، وقال: «أنا هالك اليوم أو غدا، ولعل الله ينجيكم من صولة هذا الملك»! فخلوا عنه وتركوه، فأصبحت خيل سابور فى الديار فلم يجدوا أحدا، فلما سمع عمرو صهيل الخيل وهمهمة الرجال أقبل يصيح بصوت ضعيف، فنظروا إلى قفة معلقة فى شجرة هو فيها، فأخذوه وجاؤا به إلى سابور، فلما وضع بين يديه نظر إلى دلائل الهرم ومرور الأيام عليه ظاهرة، فقال له سابور: من أنت أيها الشيخ الفانى؟ قال: أنا عمرو بن تميم، وقد بلغت من العمر ما ترى، وقد هرب الناس منك لإسرافك فى القتل، وأنا أسألك عن أمر إن أنت أذنت لى فيه، فقال له سابور: قل نسمع، فقال: ما الذى حملك على قتل رعيتك من رجال العرب؟ فقال: اقتلهم لما ارتكبوا فى بلادى وأهل مملكتى، فقال عمرو: فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم، فلما ملكت رجعوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك! قال سابور: واقتلهم أيضا لأنا نجد فى مخزون علمنا وبأخبار أوائلنا أن العرب ستدال علينا! قال عمرو: هذا أمر تظنه أم تتحققه؟ قال: بل أتحققه، ولابد أن يكون ذلك! قال عمرو: فإن كنت تعلم ذلك فلم تسىء إلى العرب، والله لئن تبق العرب وتحسن إليهم ليكافئوا قومك عند إدالة الدولة لهم بإحسانك إليهم، وإن أنت طالت بك المدة كافؤك عند مصير الأمر إليهم، فيبقون عليك! فقال سابور: الرأى ما قلت، ولقد صدقت ونصحت. فرفع السيف، وانكف عن قتلهم.

ويشبه أن تكون هذه الحكاية من كلام الحكويين والقصاص، وليس عليها أمارات التواريخ الواقعية، أو أنها واقعة تاريخية داخلها أوضاع الحكويين

للتمليح بالغرائب والتلميح للعجائب، وإلا فلا معنى لترك عزيز قوم فى قفة عرضة للنكبة!

وبالجملة، فسابور الذى دوخ العرب والروم، فقد حارب الرومانيين من زمن مقسيمينوس الثانى إلى زمن طيودوسيس الأكبر.

ومما يدل على انتظام مملكة فارس فى هذا العهد وقوتها وشوكتها وحسن تدبيرها إنها استمرت فى قبضة سابور الثانى (منذ) ولادته إلى وفاته فى مدة اثنتين وسبعين سنة التى هى مدة حكمه على الفرس، ولم يحصل فيها فتن ولا شرور، وكان موته فى نحو سنة ٢٤٣ قبل الهجرة[1]، وتولى بعده أردشير بن هرمز، وفى هذه المدة بعينها حصل ما حصل من الحوادث والتغييرات فى دولة الرومانيين، وقتل من ملوكهم العدد الكثير، مع استدامة الهرج فى مباديها واثنائها وأواخرها، كما يشهد لذلك وصية طيودوسيس قيصر لابنه أرقاديوس حين عهد إليه بمملكة القسطنطينية، حيث خاطبه بقوله: لو كنت أيها الولد نشأت فى بلاد فارس، وعهد إليك بمملكتها، لكان عنوانك الكسروى كافيا فى حفظ سرير الملك، ولكن نشأت بين ظهرانى الروم، وحالهم معلوم!

وسيأتى الكلام عليه فى ذكر الملك أرقاديوس قيصر، فى المقالة الرابعة، إن شاء الله تعالى.

فإن هذا القيصر يشير إلى أن الأمة الرومانية صعبة الانقياد لقياصرتها، وأن مادة الفتن لا تنحسم أبدا، أو أن الرومانيين، ولو كانوا فى قوة كافية بحيث يستظهرون على فارس، إلا أنهم كانوا يضطرون إلى الصلح معهم على شروط مخلة بالنواميس الرومانية، كما وقع ذلك فى زمن الملك يونيانوس قيصر الذى كان عقده للصلح بهذه المثابة سببا فى ذبحه على فراشه سنة ٢٥٨، كما سبق، واستعواضه بولنطنيانوس قيصر المشترك مع أخيه ولنسوس.

---

(١) فى الأصل ٣٤٢ وهو خطأ، ذلك أن حكم سابور الثانى امتد من عام ولادته سنة ٣٠٩ حتى وفاته سنة ٢٧٩م أى من سنة ٣١٢ حتى سنة ٢٤٣ قبل الهجرة.

الفصل الثامن والأربعون

فى الملك ولنطنيانوس قيصر الأول، والملك ولنسوس قيصر، أخيه(١)

كانت مدة ملكهما من سنة ٢٥٨ إلى سنة ٢٤٤ قبل الهجرة، فهى نحو أربع عشرة سنة.

لما قتل يونيانوس قيصر اجتمع أعيان الرومان فى مدينة نيقه(٢)، وقلدوا منصب الإمبراطورية للأمير ولنطنيانوس الأول، وقد كان مولده ببلاد المجار، وكان فظا غليظا شديدا، طويل القامة، عجيب الخلقة، وقد أشرك معه فى المملكة أخاه ولنسوس، فخصّه بقيصرية البلاد المشرقية وأبقى لنفسه الممالك الغربية، واتخذ مقر حكومته مدينة لوطيقة، التى هى الآن مدينة باريس، وقد بعث من هذه المدينة أمراءه وقواده لمحافظة حدود المملكة مخافة أن تغير عليها قبائل الإفرنجة والإنكليز والمغاربة، وكان من جملة أمرائه الأمير طيودوسيس، فاكتسب فى قتاله مع هؤلاء الأمم حميد الأوصاف وجميل الاعتبار، ونهاية المجد والفخار، فصدرت من ديوان باريس الأوامر القيصرية الأكيدة أن كل من اتهم بخيانة دولته ووالس(٣) مع الأعداء يعاقب أشد عقاب، فصار التشديد فى التفتيش على ذلك، وكثر التفحص

---

(١) هما القيصران: فالنتنيان الأول، وفالنس، حكما من سنة ٣٦٤ حتى سنة ٣٧٥م.

(٢) إحدى المدن القديمة بآسيا الصغرى، تأسست فى القرن الرابع قبل الميلاد.

(٣) أى نافق واتفق مع الأعداء سرا ضد وطنه.

والتجسس، وعمت البلوى البرىء والمتهم. وقد تجبر القيصر ولنطنيانوس فى عقاب من رمى بالخيانة بدون إثبات بما لا مزيد عليه من العقاب، مما لا يخطر على بال بشر، فمن ذلك إنه حبس دبين عظيمين مفترسين فى قفص وأجاعهما، حتى إذا أراد قتل أحد من المتهمين أطلقهما عليه لافتراسه وأشباعهما من لحم المتهمين! ويقال إنهما افترسا بهذه المثابة كثيرا من الناس، فكان غذاؤهما ذلك! فقد بلغ من لؤم الطبيعة الغاية، ومن التشفى والانتقام النهاية، فلقد صدق عليه نظير ما كتبه الهمدانى، فى ضمن رسالة يصف بها ملكا مثل هذا القيصر: «عظيم الشأن، يحسبه المتأمل إنسانا وهو شيطان! ليس بين رضاه والسخط عرجة، كما ليس بين غضبه والسيف فرجة، وليس من حقيقة سخطه مجاز، كما ليس بين الموت والحياة معه حجاز، يغضبه الجرم الخفى، ولا يرضيه العذر الجلى، وتكفيه الجناية وهى إرجاف، ثم لا تشفيه العقوبة وهى إجحاف، حتى إنه يرى الذنب، وهو أضيق من ظل الرمح، ويعمى عن العذر، وهو أبين من عمود الصبح، وهو ذو أذنين، يسمع بهذه القول وهو بهتان، ويحجب بهذه العذر وهو برهان، وذو يدين، يبسط إحداهما إلى السفك والسفح، ويقبض الأخرى عن الحلم والصفح، وذو عينين، يفتح إحداهما إلى الجرم، ويغمض الأخرى عن الحلم، فمزجه بين القد والقطع، وجده بين السيف والنطع، ومراده بين الظهور والكمون، وأمره بين الكاف والنون، لا يعرف من العقاب إلا ضرب الرقاب، ولا من التأديب غير إراقة الدماء، ولا من التأنيب إلا إزالة النعماء، ولا يحلم عن الهفوة كوزن الهبوة، ولا يغضى عن السقطة بجرم النقطة، ثم إن النقم بين لفظه وقلمه، والأرض تحت يده وقدمه، فلا يلقاه الولى إلا بغمه، ولا العدو إلا بذلة، فالأرواح بين حبسه وإطلاقه، كما أن الأجسام بين حله ووثاقه»!

وكان دأب هذا القيصر ولنطنيانوس فى سائر الأوقات الغضب، فأودى به إلى الهلاك وقاده إلى سبيل العطب، وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ (الأعراف: ٢٠١) إن الطائف من الشيطان هو الغضب، وفى التوراة: «يا ابن آدم، لا تغضب فأغضب

عليك، فالغضب يصدى القلب حتى لا يرى صاحبه شيئا حسنا فيفعله، ولا قبيحا فيجتنبه». فلهذا قيل: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام. قال عمر بن عبد العزيز: «ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الإيمان، من إذا غضب لم يخرجه غضبه إلى الباطل، وإذا رضى لم يخرجه رضاه عن الحق، وإذا قام جدال لا يأخذه ما ليس له، وإذا تمكن منه الغضب على أحد حبسه ثلاثة أيام حتى يسكن غضبه ثم يحضره، فإن وجب عليه العقوبات عاقبه وإلا أطلقه». وقد اشتدت بهذا القيصر حدة الغضب وثورته، فقد هاج ذات يوم غضبة فمات لوقته قتيل غضبه، وقال له لسان الحال:

فاشرب بكأس كنت تسقى بها أمرّ فى الحلق من العلقم

وخلفه بعد موته على حكومة الأقطار المغربية ابنه غرثيانوس وذلك فى سنة ٢٤٧ قبل الهجرة[١]، وسيأتى الكلام عليه فى الفصل الآتى.

وفى أثناء ما كان ولنطنيانوس متخلقا بالأخلاق السيئة فى أحكام بلاده، كان أخوه ولنسوس متخلقا بجميل الأخلاق من العدل والإنصاف وحسن الإدارة فى البلاد المشرقية المحالة على عهدته، حتى قيل إنه فى زمانه لم يكن تولى المشرق من القياصرة خير منه، فإنه خفف على رعاياه المكوس والعوائد والخراج وأنقصه قدر الربع شفقة منه على عباد الله.

ثم حدثت قبل موته حادثة عجيبة عرف منها الرومانيون أمة جديدة لم تكن معروفة لهم قبل ذلك، فاشتهرت بينهم وتخلد ذكرها فى صحائف التاريخ من عهد هذا القيصر، وذلك أن فى سنة موت ولنسوس ظهرت أمة تتارية تسمى أمة الهوينة، جاءت من آسيا كالجراد المنتشر، فطردت قبائل الغوطية من سواحل نهر طونة، وجبرتهم على أن يجتازوا هذا النهر ويأتوا إلى بلاد المشرق، فزحفوا على بلاد الرومانيين وأراضيهم، والتمسوا منهم أن يقطعوهم أراضى ليتعيشوا منها فلم يساعدهم الرومانيون على ذلك، فبهذا صار الغوطية أعداء للرومانيين يغيرون

(١) أى سنة ٣٧٥م.

عليهم ويقاتلونهم على بلادهم، وكان رئيس الغوطية إذ ذاك الملك أفريطيجون، وكان شجاعا مقداما، فقادهم إلى جهة أدرنة، وأوقع بالقيصر ولنسوس عند أسوار هذه المدينة، وانتصر عليه نصرة مؤزرة هلكت فيها الجنود الرومانية وجرح قيصرهم، فنقل الجنود قيصرهم إلى وكر وضعوه فيه، فأحرق الجنود الغوطية ذلك الوكر فهلك القيصر حريقا فى سنة ٢٤٤ قبل الهجرة[١]، ومن هذه السنة صارت الدولة الرومانية شركة رباعية بين الأربع قياصرة الآتى ذكرهم فى الفصل الآتى.

---

(١) أى سنة ٣٧٨م.

الفصل التاسع والأربعون
فى القياصرة الأربعة، وهم: الملك غرثيانوس قيصر، والملك ولنطنيانوس الثانى، والملك مقسيموس، والملك طيودوسيس الأكبر، ويقال له تاودسيوس[1]

كانت مدة توليتهم من سنة ٢٤٤ إلى سنة ٢٢٧ قبل الهجرة، فتكون مدة حكمهم فى الجملة سبع عشرة سنة.

لما تولى غرثيانوس إمبراطورا كان عمره سبع عشرة سنة، وكان أخوه ولنطنيانوس الثانى متطلبا لمشاركته فى القيصرية، فتنازل عن إيطاليا وبلاد السواحل الإيطليانية المثمرة، وقد استمر غرثيانوس على حرب الغوطية، فكانوا دائما ظاهرين عليه كما كانوا على سلفه، فلما أحس بضعفه عن مقاومتهم وحده انتخب معه طيودوسيس ابن الأمير طيودوسيس، ولقبه أغسطس المشرق، فتقلد الجهات المشرقية، فكان انتخاب طيودوسيس سنة ٢٤٣ قبل الهجرة[2] من حسنات الدهر على الرومانيين بعمومهم وعلى النصارى خاصة، فإن هذا الأغسطس كان كأبيه

(١) هؤلاء القياصرة الأربعة يذكرهم «جيبون» فى (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) - وهو مرجعنا فى تصحيح الأسماء والتواريخ - يذكرهم هكذا: تيودوسيوس الأول (الأكبر)، وهو الذى يسميه الطهطاوى طيودوسيس الأكبر، وجراشيان، وهو الذى يسميه الطهطاوى غرثيانوس، وفالنتنيان الثانى، وهو الذى يسميه الطهطاوى ولنطنيانوس الثانى، ولكن جيبون لا يذكر مقسيموس. ولقد حكموا من سنة ٣٧٨ حتى سنة ٣٩٥م.

(٢) أى سنة ٣٧٩م.

هماما باسلا، وذلك أن أباه كان يسمى طيودوسيس، وكان أمهر أمير من أمراء عصره، وله محافظات على بلاد أفريقية، وحروب نجح فيها، حيث أدخل عصاة أفريقية تحت الطاعة، فحسده اخصامه على ذلك، وقتل غيلة فى مدينة قرطاجة، وكان ولده طيودوسيس قد ولد فى بلاد الأندلس، وتربى فيها، وخدم تحت راية والده، وحارب معه، وحضر المشاهد العظيمة فى الحروب، فلما مات والده عاد هو إلى موطنه إلى أن طلبوه لتقليد القيصرية باشتراكه مع غريثانوس، وما حازه من البسالة والشجاعة فى الحروب، واقتحام الخطوب، وحبه لدين النصرانية، وغيرته عليه، أوجب تلقيبه بالأكبر، فقد كان له ثبات عظيم فى الحروب، وفيه كرم نفس وسماحة على وجه عجيب، فهو الذى هزم الغوطية فى هذا العهد، وأجلاهم من حدود المملكة، وعكس آمالهم وأفسد حالهم.

إذا انعكس الزمان على لبيب ... يحسن رأيه ما كان قبحا

يعانى كل أمر ليس يعنى ... ويفسد ما يراه الناس صلحا

حتى عجبوا من علو شأنه وجلالة برهانه، فمدوا إليه يد الضراعة، وتنازلوا عن صفة الإغارات، ورغبوا فى معاهدتهم للرومانيين، وعقدوا عقد المحبة والوصلة، لتكون يد الله مع الجماعة.

وكان فى هذا الزمن مقسيموس قائد جنود الرومانيين التى فى بلاد الإنكليز، فولاه الجند إمبراطورا بدلا عن غرثيانوس، بعد قتل هذا الأخير فى مدينة ليون بفرانسا فى سنة ٢٣٩ قبل الهجرة، فصار مقسيموس شريكا لطيودوسيس، وبعد ذلك بخمس سنين هزم طيودوسيس شريكه مقسيموس وقتله فى سنة ٢٣٤ قبل الهجرة.

لا تعاشر كل من أبصرته ... ربما استأمنت جهلا من يخون

ولكم غرك سمت ظاهر ... تحت من قلة العقل فنون

فلم يبق من القياصرة الشركاء لطيودوسيس إلا ولنطنيانوس الثانى وحده، مالكا لبلاد المغرب الرومانية، وأما طيودوسيس فكان متملكا على البلاد المشرقية، فقام

شخص يسمى أربوغاست الإفرنجى على ولنطنيانوس وقتله بخنجره، وولى بدله أوجينوس، كاتب سر الديوان القيصرى، إمبراطورا وذلك فى سنة ٢٣٢ قبل الهجرة[١]، فنوى طيودوسيس إمبراطور المشرق الانتقام من أوجينوس بقتله، فجمع جيوشه ليظفر بقرينه، وسار إليه وتقابل معه ببلاد النمسا، فأخذه أسيرا بعد انتصاره عليه نصرة مؤزرة، ولسان حاله يقول:

صيد الملوك أرانب وثعالب وإذا ركبت فصيدى الابطال

فصار بهذه النصرة الأخيرة منفردا بحكومة الممالك الرومانية وذلك فى سنة ٢٢٨ قبل الهجرة[٢].

وإذا العرين تصرعت آساده عوت الثعالب فيه آمنة الردى

وهو آخر قيصر تملك على الدولة الرومانية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بتمامها، كما قيل:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

وكان هذا القيصر يهوى العدل والإنصاف، ويتدين بدين النصرانية، فبهذا احترمه جميع القسيسين، وقد اتحد بالبابا سانت سيريقوس لقصد إبطال عبادة الأصنام بالكلية، ومنع التمسك بدين الصابئة فى جميع الأقطار الرومانية، وتواطأ هو والبابا على ذلك، والتمس من مجلس رومة أن يصدر أوامره بذلك فأبى المجلس نسخ هذه الديانة، فأبطل القيصر المجلس وألغاه، وعزل أعضاءه، وأصدر أمره بهدم هياكل الصابئة ومعابدهم، ونهى عن تقريب القربان للأصنام فى البيوت، وعن أن تقام فيها شعائر وثنية، وأن لا يعتمد فى البلاد الرومانية إلا دين المسيح عيسى بن مريم الإنجيلى، ونهى أيضا عن التفرق فى الدين وسلوك مذهب الاعتزال والخروج، ونصب مفتشين يبحثون عن ذلك، ومن وجدوه متصفا بالتشيع والهرطقة أخرجوه من رومة، وقبضوا على أمواله وأملاكه.

---

(١) أى سنة ٣٩٠م.

(٢) أى سنة ٣٩٤م.

ثم نهى البابا السالف الذكر جميع القسيسين عن أن يتزوجوا، وجعل شعارهم الرهبانية، وهذه الطريقة باقية إلى الآن شعارا فى سائر قسيسى الملة القاثوليقية على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم بدون استثناء ولا تعليق، وأصدر أيضا سنة ٢٤١ قبل الهجرة أوامر قيصرية بمحو قديم الديانة المصرية، وأن لا يباح فيها إلا التمسك بدين النصرانية، فأغلقت الهياكل المصرية والمعابد الأهلية، وبهذا انعدمت شعائر الجاهلية بالكلية، وكان للمصريين أربعون ألف صنم للعبادة، فحل محلها دين عيسى، عليه السلام، الآمر بالتوحيد والناهى عن الزيادة، ومع صدور أمر طيودوسيس بمحو دين الجاهلية فلم يترك المصريون ديانتهم الأصلية مرة واحدة فى سنة صدور هذا الأمر، بل صار العمل فى مصر على شعائر دين النصرانية بالصفة الرسمية، ولم يزل يوجد من أهل مصر، بعد صدور هذا الأمر، من بقى على العقائد الجاهلية، خصوصا فى صعيد مصر، ولم يمح دين الجاهلية إلا بتداول الأيام بعد اللتيا والتى(*)، فالأصل الأصيل أوامر هذا الملك النبيل، فبسلوك جادة العدل والإنصاف، واجتناب الجور والاعتساف، وبالدخول فى الديانة العيسوية كان هذا القيصر جديرا بحكم الرومانيين وقيصريته عليهم، لا سيما وإنه كان حائزا للصفات الفاضلة، والخصال الكاملة.

وقد حصل فى أثناء مملكته تلطيفات لإزالة الفتن المصرية، حتى حصل بمصر الراحة التامة والطمأنينة لأهلها من نصارى وصابئين، فمات هذا القيصر بعد انفراده بالملك سنة واحدة فى سنة ٢٢٧ قبل الهجرة، وقد قلنا إن انتهاء الدولة الرابعة والثلاثين إلى أمر هذا القيصر الصادر فى سنة ٢٤١ قبل الهجرة، فمن هذه السنة إلى موته الحاصل فى سنة ٢٢٧ قبل الهجرة، تكون المدة نحو أربع عشرة سنة، محسوبة من مدة الدولة الخامسة والثلاثين.

وأعقب ولدين، أحدهما يسمى: أرقاديوس[1]، والآخر يسمى: نوريوس[2]،

(*) اللَّتَيَّا والتى: يقال: وقع فلان فى اللَّتَيَّا والتى: أى فى الداهية الكبيرة والصغيرة. (الشروق).

(١) هو: أركاديوس، الذى حكم مع فالنتنيان من سنة ٣٨٣ حتى سنة ٣٩٢م.

(٢) هو: هونوريوس، الذى شارك فالنتنيان وأركاديوس فى الحكم من سنة ٣٩٢ حتى سنة ٣٩٥م.

فأورثهما حكومة الدنيا، أعنى الحكومة الرومانية بتمامها، ومن ذلك العهد لم يتول عليها ملك واحد، يعنى لم تصر فيها وحدة الحكومة، بل صارت إمبراطوريتين مستقلتين، إحداهما إمبراطورية المشرق، ومدينتها القسطنطينية، والثانية إمبراطورية المغرب، ومدينتها رومة كما كانت، وذلك فى سنة ٢٢٧ قبل الهجرة.

ولا يخفى على من مارس التاريخ وسير الوقائع كثرة التقلبات فى الدول المختلفة والأمم المتباينة بسبب انقسام الممالك وتمزيق الدول، فإن مملكة فارس بحفظ وحدتها كانت قوية الشوكة مصونة الناموس، فلما انقسمت إلى ملوك الطوائف تضعضعت أحوالها، وسهل أخذ أردشير لها، وكذلك لما تفرقت مملكة الإسكندر العظيمة، وتمزقت إلى ممالك صغيرة بعدد الطوائف اضمحلت جميعها، وانقرضت دولة اليونان بانقسامها، وكذلك مملكة الرومانيين كانت قوية عظيمة بوحدتها، فلما انقسمت إلى مشرقية ومغربية كان هذا الانقسام سببا لانحطاطها وانقراضها.

وإنما حصل الانقسام فى الممالك القديمة والحديثة بسبب مطامع أعيان المملكة وأمرائها، فكل أمير خطير فى دولة عظيمة تطمع نفسه لأخذ حصة من الدولة يتملك عليها، فتضعف الدولة بقدر ما نقص عنها، بدون أن يقوى الطامع بحصته، وقد قاست العقلاء وحدة المملكة بوحدة الجسم الحيوانى، الذى هو قوة متحركة تحتاج فى تحريكها إلى حفظ الموازنة المركزية، فإن خرج الجسم الحيوانى عن مركز الموازنة اختل نظامه، فالدولة أيضا متى خرجت عن مركز وحدتها بالانقسام تلفت، فلما فقد فى مجلس جمهورية رومة احترام ناموس مجلسها الجمهورى، وتجاسرت الجنود على انتخاب القياصرة، نتج عن هذا خروج الجمهورية الرومانية عن مركز الوحدة، فضعفت الدولة من عهد القياصرة، وبانقسام المملكة إلى مشرقية ومغربية آلت إلى الانحطاط ثم إلى الانقراض، وكان هذا الانقسام ختام دولة الرومانيين الحقيقية التى يطلق عليها هذا الاسم حقيقة وبالأصالة، فقد كان تقسيم طيودوسيس المملكة الرومانية بين ولديه ضروريا لازما لمنع الاختلاف والتشاجر، إلا أنه تسبب عنه زوال ملك الرومانيين بدون بطء ولبقاء الممالك وزوالها أسباب عادية، فسبحان منْ لا يزول ملكه ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن**

تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٦) فلعل الحكمة الإلهية اقتضت تمهيد الخلافة الإسلامية. وفى جميع المعاهد والمشاهد: مصائب قوم عند قوم فوائد.

ومن هذا العهد إلى ما سيأتى بعد من تاريخ القرون الوسطى فالدولة الرومانية التى هى مبدأ القرون الوسطى تسمى الدولة الطيودوسيسية، وأول قياصرتها فى المغرب هو لوريوس بن طيودوسيس، ولا حاجة لنا به لأنه ليس له يد على مملكة مصر وليست داخلة فى حكمه.

وأما أول ملوكها فى المشرق فهو أرقاديوس بن طيودوسيس، ومعلوم أن مصر بعد هذه المقاسمة صارت فى قبضة قياصرة المشرق، الذين يقال لهم قياصرة الروم، وتسمى الدولة الطيودوسيسية المشرقية، وهى بالنسبة لمصر تكون عبارة عن الدولة الخامسة والثلاثين، وستأتى فى المقالة الرابعة.

الفصل الخمسون

فى ذكر ملحوظات تتعلق بالدولة الرومانية، التى هى الرابعة والثلاثون ممن حكم مصر من الدول

لما صارت الديار المصرية فى قبضة الدولة الرومانية اجتهدت رومة فى جميع الوسائل التدبيرية التى فى طاقتها أن تبقى مملكة مصر تحت يدها وفى قبضتها، حيث هى أعظم[1] غنيمة اغتنمتها من الممالك، فاستحسنت لحفظها وصيانتها أن تبقى لها رخصة ديانتها، وأن تتركها على عوائدها الأصلية وعلى فنونها وصنائعها وطريقة كتابتها ولغتها، وأن لا تسلك معها مثل ما سلكه العجم من الحظر والمنع، بل أصلحت الدولة الرومانية ما كان إندرس من معالم الديانات وهياكل العبادات، وزادت هياكل ومعابد جديدة أهلية، وتممت ما كان من مشروعات الدولة البطليموسية، ولم تقتصر على العمائر المصرية، بل جددت عمائر أخر فى ديار النوبة من البلاد السودانية، التى هى من ملحقات الممالك المصرية، فبهذا كله قصدت تطييب خواطر المصريين، وتأليف قلوبهم وتمكين حكومتهم على وجه متين، واستمالة نفوس أهل النوبة وضمهم إليهم، وتوسيع دائرة الحكومة المصرية. ثم لأجل حسم دواعى الفتن والعصيان، وإظهار حكم مصر بالعدل والإحسان، لم تتعرض لمادة الأديان بجور ولا عدوان، فبهذه السياسة رسخت دولة الرومانيين بمصر رسوخ الأطواد، وتمكنوا بهذه التحيلات من كمال الاستيلاء على هذه البلاد.

---

(١) فى الأصل: من أعظم.

وكانت عساكر مصر وكبراؤها فى مبدأ الأمر محافظين لقلاعها وثغورها، وزمام المملكة بين أيدى جمهورها، فلما أمنت دولة رومة من أهالى المصريين غوائل العصيان بمسايرتهم على مذاهبهم القديمة، وطرائقهم المستديمة، ولم يبق للمصريين تعلل ولا احتجاج فى إثارة الفتن، أمرت الدولة الرومانية بأن لا يوضع فى المدن محافظون إلا من جنودهم، وأن لا يتولى أحكام مصر إلا صاحب راياتهم وبنودهم، وأن لا يكون فى مصر رئيس الحكومة إلا نائب رومانى يعينه مجلس رومة، وأن يكون هذا النائب القيصرى متصرفا فى حكم مصر تصرف القيصر، فاعلا مختارا مرخصا فى الملكية والعسكرية، ليكون مقامه عند المصريين، كمقام ملوكهم الأقدمين، صاحب وقار واعتبار، ليس فوقه فى الدرجة إلا مجلس رومة أو قيصر الرومانيين، وليس تابعا لحكمدار عموم المشرق، فكان مجلس رومة أو متولى الدولة له على متولى مصر كمال المناظرة وتمام الصولة، وكل من ارتكب من الولاة هفوة عومل من طرف رومة بالجفوة، فلم تكن مدة ولاية النواب فى تلك الأيام طويلة، وكان عزلهم ونفيهم وقتلهم يحصل من طرف رومة بأدنى وسيلة، وكان من أصول الدولة الرومانية أن لا يتولى على مصر أحد من أعضاء مجلس رومة، ولا من عائلات المجد الأولية، خشية أن يستبد بملك مصر، لغروره بمحاسنها، ويطمع فى الاستقلال بها، ويناوى رومة بالعصيان ويخاشنها.

فكانت مصر فى أيام حكومة رومة قليلة البهجة والعظم بالنسبة للسياسة الأجنبية، غير متمتعة بالثمرات الوطنية من كمال الحرية، بل كانت على حالة الاسترقاق والاستعباد، ونسيت مفاخرها القديمة، وصفات مجدها العميمة، ولم تذكر أنها كانت سيدة البلاد، ولم يبق لها من رمق الحياة الأهلية إلا بعض لمحات روحانية، فقد كان فى مدة الرومانيين لمدارس الإسكندرية شهرة جلية، لا سيما فى المذاهب الفلسفية، فكان لها فى ذلك العصر على رومة ومملكة اليونان سلطنة القوة العلمية، وسطوة المملكة الحكمية، وأما حالتها الجسمية فقد عم اختلالها، وتم إضمحلالها، وقام الدمار مقام العمار، فلا تجد فى أيام الرومانيين من مدينة طيوة والعرابة المدفونة ومنف وعين شمس إلا آثارا خربة، وأطلالا مكتئبة، ولم يبق من العمائر إلا الرسوم والأمائر من جميع المدن، حتى من مدينة الإسكندرية التى كانت

دار المملكة المصرية إذ ذاك، فإنها انخفض قدرها عن ذلك، فصارت كرسى إيالة رومانية، وبندر إقليم من الأقاليم المصرية، كما صارت جميع الديار المصرية فى ذلك العهد لا عناية لها إلا بمادة الفلاحة والزراعة، تجتهد فى إمداد مدينة رومة وغيرها بالميرة، وتعينها بالذخيرة، حتى كانت مخزن غلال لرومة تفى بحاجاتها من الحبوب، وتتكفل لها من ذلك بالمطلوب، ولم تفز مصر من حكومة الرومانيين بفائدة مهمة، ولا عادت عليها منها عائدة من الفوائد الجمة، إلا إرشادها فى أزمانها الأخيرة إلى دين عيسى بن مريم، وإنقاذها من دين الصابئين، وهدم معابد الوثن والصنم، وهذه مزية كبرى، وإن كان أهالى مصر لم يتوصلوا إلى ذلك المرام إلا بعد مقاساة الشدائد والآلام، من وقت أن دعا لهذا الدين بمصر القديس مار مرقس، تلميذ مار بطرس حوارى، ومن تبعه فيها، فإنه بكثرة الحمية الدينية، والأحزاب العصبية، قاسى المتنصرون ما لا مزيد عليه من النكال، ممن يريد البقاء على دين الصابئة ويرى فيه الهدى وفى غيره الضلال، وسيأتى بعض ما يتعلق بالديانة العيسوية فى آخر المقالة الرابعة، إن شاء الله تعالى.

الفصل الحادى والخمسون

فى جدول القياصرة الرومانية الذين حكموا مصر من أغسطوس قيصر إلى طيودوسيس قيصر

وهو عبارة عن إجمال ما ذكر مفرقا، ببيان أسمائهم، وابتداء حكمهم وانتهائه، المفهوم من ذكر مدة الحكم، ومن كون ابتداء كل قيصر نهاية سلفه، وكل ذلك على وجه التقريب حسب الإمكان، لا التحديد الحقيقى[1] :

(الإمبراطور)	ابتداء الحكم سنة (قبل الهجرة)	مدة الحكم سنة (قبل الهجرة)	ابتداء مدة الحكم بالتاريخ الميلادى
الملك أغسطس قيصر	٦٥١	٤٣	٢٧ ق.م
الملك طيبروس قيصر الأول، ويسمى طباريوس	٦٠٨	٢٣	١٤ م
الملك قاليغولا قيصر	٥٨٦	٤	٣٧ م
الملك قلودس الأول قيصر	٥٨١	١٣	٤١ م
الملك نيرون قيصر	٥٦٨	١٣	٥٤ م
الملك أسليقيوس غلبا قيصر، ويقال له غلبان	٥٥٤	١	٦٨ م

(١) أضفنا إلى هذا الجدول تحديد ابتداء مدة الحكم بالتاريخ الميلادى، لأن المؤلف كان يكتفى فقط بالتاريخ الهجرى.

(الإمبراطور)	ابتداء الحكم سنة (قبل الهجرة)	مدة الحكم سنة (قبل الهجرة)	ابتداء مدة الحكم بالتاريخ الميلادى
الملك أمليانوس قيصر	٣٦٨	أربعة أشهر	٢٥٤م
الملك والريانوس قيصر	٣٦٨	٥	٢٥٣م
الملك غليانوس قيصر	٣٦١	٧	٢٥٣م
الملك قلودس قيصر الثانى	٣٥٤	٢	٢٦٨م
الملك أورليانوس قيصر	٣٥٢	٤	٢٧٠م
الملك طاقيطوس قيصر	٣٤٧	ثمانية أشهر	٢٧٥م
الملك بروبوس قيصر	٣٤٧	٧	٢٧٦م
الملك فاروس قيصر	٣٤٠	١ وخمسة أشهر	٢٨٢م
الملك فارينوس قيصر، ونومريانوس قيصر	٣٣٩	عدة أشهر	٢٨٣م
الملك دقلطيانوس قيصر، ومقسيميانوس هرقل أغسطس	٣٣٩	١٨	٢٨٤م
الملك غاليرس قيصر، وقسطنقيوس خيورس قيصر	٣٢١	١٠	
الملك مقسيمينوس قيصر الثانى، وقسطنطين قيصر الأكبر، ومقسنقوس قيصر، وليقنيوس قيصر	٣١١	١٣	٣٠٥م
الملك قسطنطين الأكبر	٢٩٩	١٤	٣٢٣م
الملك قسطنطين الثانى، وقسطنطوس الأول، وقسطنقوس	٢٨٥	٢٤	٣٣٧م
الملك يوليانوس قيصر، المرتد	٢٦١	٢	٣٦١م
الملك يويانوس قيصر	٢٥٩	١	٣٦٣م
الملك ولنطيانوس قيصر الأول، والملك ولنسوس قيصر أخوه	٢٥٨	١٤	٣٦٤م
الملك غرثيانوس، والملك ولنطنيانوس الثانى، والملك مقسيموس، والملك طيودوسيس الأكبر	٢٤٤	١٧	٣٧٨م

فإذا جمعت هذه المدد تجدها نحو أربعمائة وإحدى عشرة سنة، تقريبا، وإن يكن فرق فمن عدم علم شهور التولية فى السنين، ومقدار مدة الأربعمائة وإحدى عشرة سنة هو حكم هذه الدولة على ديار مصر بوصف كون مصر إيالة رومانية تابعة لحكومة الرومانيين كسائر الإيالات الرومانية المشرقية، ليس لها علاقات خارجية، وإنما كانت فى أيامهم تحظى من الثمرات والمحصولات بما يتحصل من حسن إدارة ولاة أمورها وتدبيرهم الداخلى، فهى وإن فقدت فى هذه المدد الاستبداد بسلطنتها على نفسها سلطنة حسية، وهى فى قبضة الرومانيين، لم تزل إذ ذاك حافظة لسلطنتها المعنوية بالقوة العلمية والشوكة الروحانية فى تلك المدة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكان لها علو الدرجة والمرتبة المعنوية على رومة وعلى بلاد اليونان بقوة أنوار العلم الساطعة، وأضواء الفهم اللامعة فى تلك الأزمان، فما كانت[1] هذه إلا مزية للديار المصرية، وخاصية من خواصها الذاتية، لأنها على اختلاف الأزمان ودوران الحدثان متصفة بصفة القوة المعنوية، والظهور المعنوى على أعظم مدينة من مدن الدنيا، ولو كان لتلك المدينة الحكم الحسى على مصر، فهى وإن كانت فى الظاهر ليست فى درجة العظمة السلطانية لا تتنازل أبدا عن درجة السلطنة العقلية، بسر إلهى وضعه الله سبحانه وتعالى فيها، كما دلت على ترجيحها صحاح النصوص، ومدحها الله سبحانه وتعالى فيها، وهى التى تلبس من يتملكها حلل البهاء والفخار، والمجد والاعتبار، لا سيما من يحسن صيانة ناموسها عن الانكسار.

إذا ما كنت مرضى السجايا وعاش الناس منك على أمان
فعش فى الدهر ذا أمن ويمن ويوصلك الإله إلى الأمانى

فتخلع على متملكها الوجاهة، وتعلى قدره وتقوى جاهه، وينال كمال مطلوبه، ويتحصل على تمام مرغوبه، وتنشر علم مجدها عليه حتى يصير علم

---

(١) فى الأصل: كان.

الشـرف، وشرف المضـاف بقـدر شـرف المضـاف إليـه، وشـرف مـصـر مـعلوم، والكفـوء(*) المزاحم على موردها لتقـويم أودها غـيـر ملوم، والمورد العـذب كـثير الزحام، قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ (البقرة: ٦١) فقد تزاحم على مـوردها العـذب سائر الأمم، وامـتـزج أهلـهـا بغـيـرهـم امـتـزاج المدام بماء الديم، وتخلقت من بينهم أمة جامعة لأخلاق العرب والعجم، فمصر ولاية جامعة تعدل الخلافة، بقى لها من سناء أنوار الملك الساطعة ما لم يبق للكرخ[١] والرصافة[٢].

وبالجملة، فهى بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثه، ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عـمروا الدنيـا قديما وحديثا بعلومهم وحكمتهم، وهى، جاهلية وإسلاما، أقوى بلاد الدنيا تدينا.

وذلك أنها لما كانت فى قبضة الدولة الرومانية الحسية، وكانت السلطنة الرومانية المبالغة اتساعها، وكثرة أتباعها، تمزق ربعها، وتفرق جمعها، وانقسمت إلى سلطنتين تحت تسلط دولتين من قيـاصرة الرومانيين، إحداهما بقى سريرها بمدينة رومة حاكمة على الأقطار المغربية، والثانية بمدينة القسطنطينية، وكان ذلك فى نحو سنة ٢٥٩ قبل الهجرة[٣]، فكانت مصر داخلة فى دولة الروم المشرقية، تابعة لقيصر الروم بالقـسطنطينيـة، وكـان دين المسيح عليه السلام تمكن فى القـسطنطينيـة كل التمكن، وسرى منها إلى مصر، فباستقرار طيودوسيس قيصر على سرير المملكة المشرقية أصدر أمره فى تاريخ سنة ٢٤١، قبل الهـجرة[٤]، بمحو الديانة المصرية القديمة بالكلية، وإزالة دين الجاهلية، وجعل دين عيسى، عليه السلام، هو الدين العام، يتمسك به الخواص والعوام، وعلى مقتضى أمره القيصرى أغلقت الهياكل

(*) الكفوء: الكُفْءُ. (الشروق)

(١) اسم يطلق على عدة أماكن، منها أحد أحياء بغداد.

(٢) مدينة قديمة ببادية تدمر بسورية، هدمها الفرس، ثم أعاد العرب بناءها، ودفن فيها هشام بن عبد الملك، فسميت رصافة هشام، ثم هدمها الظاهر بيبرس.

(٣) أى سنة ٣٦٣م.

(٤) أى سنة ٣٨١م.

والمعابد، وما كان لدين الجاهلية من المعاهد والمشاهد، وانعدمت شعارات[١] الجاهلية المصرية، وقضى الأمر وانتشرت شعائر دين المسيح، عليه السلام، ومن ابتداء هذه المدة اشتهر أهل مصر باسم القبط، فطائفة الأقباط هم المتنصرون من ذرية الأمة المصرية، وبقى الدين العيسوى متسلطنا بمصر مدة سنى المائتين والتسعة والخمسين الآتية فى المقالة الرابعة.

---

(٥) فى الأصل: شعار.

المقالة الرابعة

فى ملوك الدولة الخامسة والثلاثين

(وهى دولة الروم العيسوية بمدينة القسطنطينية، ومبدؤها من سنة ٢٤١ قبل الهجرة، وانتهاؤها بفتوح مصر بالإسلام سنة ١٨ من الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ومدة حكم هذه الدولة نحو مائتين وتسعة وخمسين سنة.

وهى تشتمل على عدة أبواب)

الباب الأول

(فى ملوك هذه الدولة وفيه فصول)

الفصل الأول

فى الملك أرقاديوس قيصر[١]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية المشرقية فى سنة ٢٢٧، وبقى حكمه إلى سنة ٢١٤ قبل الهجرة، فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة، ويضاف إلى هذه المدة أربع عشرة سنة من مدة حكم أبيه فى القسطنطينية، من إصدار أمره باتباع الملة العيسوية فى حكومته لحسبان هذه المدة من أيام هذه الدولة التى نحن بصددها، ففى الحقيقة رأس هذه الدولة هو طيودوسيس الأكبر، الذى هو مؤسسها.

لم يكن أرقاديوس فى العقل كأبيه، بل كان ضعيف الرأى عديم التدبر..

ما ابن اللبون يصول صولة بازل فيه قصور عن طويل الباع[٢]

فلهذا كانت مملكة المشرق فى عهده ضعيفة كأنما ارتسم فيها مرآة طبعه، فإن هذا القيصر فوض سياسة المملكة لأحبابه، ولأمراء أجناده وقواده، وكانوا من الأجانب، فوقعت بينهم العداوة، وصار يهلك بعضهم بعضا، وكان زمام المملكة فى أيامه حلا وعقدا فى يد شخص يدعى روفين، ويلقب رئيس الدولة، وفى يد آخر يسمى أطرويس، حاجب الديوان القيصرى، وكان كمال النفوذ فى الدولة لزوجة القيصر، المسماة أودقسية الشهيرة، التى عذبت القديس خروصوصطومس-

(١) هو القيصر أركاديوس، حكم من سنة ٣٩٥ حتى سنة ٤٠٨م.

(٢) ابن اللبون، من الحيوان، ما أوفى سنتين ودخل فى الثالثة، أما البازل فهو ما ظهر نابه.

وسيأتى الكلام على ذلك ـ وكان القيصر طيودوسيس قد أوصى ابنه اوقاديوس، حين عهد إليه، بوصية صورتها:

«لو كنت أيها الولد، وبيضة البلد[1] من أبناء ملوك فارس، وعهد إليك مملكتها، وآلت إليك دولتها، لكان عنوانك الكسروى كافيا فى حفظ سرير الملك وصيانة تاج الدولة، ولكن منبتك بأرض الروم، وحال أهلها معلوم! فكن حازما، فالحزم ينفع أهله. وإن كنت ممن يجهل الأمر فاسأل، فإذا أردت أن تكون أهلا لأن تحكمهم وتسوسهم فابدأ بنفسك واحكمها، واحسن سياستها قبل ذلك، لتعلم كيف تغلبها، فالعاقل من غلب عقله على هواه.

والناس صنفان: سوقة، وملوك، فالسوقة ليس همهم إلا سعادة أنفسهم، وأما الملوك، مثلك، فهمهم سعادة الرعايا، وسعادة الرعايا سعادة الملك، فإذا تحكمت عليك الذنوب، وتغلبت عليك العيوب، فأنت عبد هوى، ولو تحليت بتاج القياصرة، فاحترس من تغلب الشهوات النفسانية، وخلها للرعاع من الرعية، فإن الشهوات الدنيوية تعترض للأمراء والملوك، وتكون نصب أعينهم، فتغلبهم، فإذا أردت أن تتخلق بأخلاق ملك الملوك وسلطان السلاطين فتخلق برحمته وحلمه، واتبع دائما طريق العدل والإحسان، ولا تلتفت فى فعل الخير لمدح أو قدح من إنسان. فإن العامة لا يتحاشون عادة من مدح الملوك أو القدح فيهم، وحالهم قائل:

وأن لسانى مبضع أى مبضع وفى كل عضو منهم عرق أكحل[2]

فكن باستكمال الفضائل ومكارم الأخلاق صورة للعدل والإحسان، وتخلق بأخلاق الملك الخلاق، فبهذا تتسلطن على قلوب الرعية سلطنة أقوى من سلطنة السيف والشوكة القوية، فقد جرت عادة الرومانيين أنهم لا ينقادون لأمير متكبر ولا لمليك متجبر، بل لأمير حليم عادل حكيم. فخل الرفاهية والطنطنة والزينة والسلطنة لملوك آسيا والبلاد المشرقية، وتحل بحلية عظماء القياصرة الرومانية، يعنى بالمعارف الصحيحة، ومكارم الأخلاق الرجيحة.

---

(١) أى: خاصة البلد وأعيانها.

(٢) الأكحل، هنا، عرق فى الذراع تجرى فيه عملية الفصد.

وأوصيك إذا حاربت ملكا من الملوك فأحكم قيادة العساكر، وأحسن فى الأمرة والسلوك لتطاع منهم وينفذ أمرك فيهم، واقتسم اقتحام الأخطار مع الجنود، فإنهم بك يقتدون، ويستسهلون المهالك وباقتحامها لا يبالون، ومما تتأكد به الوصية وتجب فيه النصيحة أن تواظب على قراءة تاريخ من سبقك من القياصرة، لتعرف ما أصابهم من النصرة والهزيمة، والوقائع الفاخرة وغير الفاخرة، وتقف على سبب العزة والهوان، وما تداول من العظم والانحطاط لدولة الرومان، لتفقه من ذلك ما ينبغى فعله، وتتفطن لما ينبغى اجتنابه». انتهى ملخص الوصية.

ومن المعلوم أن قياصرة الروم كانوا يشهدون للأكاسرة بعلو درجة التدبير وانتظام الملك، ويتساءلون عن الأسباب، وهذه الأبيات الآتية تشير إلى ذلك، وهى:

كاتب فى السابق كسرى وقيصر	**بما استقام ملكهم والظفر؟**
فقال: قد دام لنا الولاء	**بخمسة طاب بها الهناء**
إن استشرنا فذوى العقول	**وإن تولى فذوى الأصول**
وليس فى وعد ولا وعيد	**تخالف القول على التأييد**
وأن نعاقب فعلى قدر السبب	**من الذنوب لا على قدر الغضب**
ولا نقدم الشباب مطلقا	**على الشيوخ فى ولاء أطلقا**

ومع ذلك فقد ترك أوقاديوس، لسخافة عقله، العمل بهذه الوصية. والانقياد لهذه النصيحة، فكان مدة حياته مبغوضا عند سائر الرعايا، مذموما مفضوحا أقبح فضيحة..

وعاجز الرأى مضياع لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

وقد سلف أن الذى كان قابضا لزمام الدولة هو الوزير روفين، وكان الحل والعقد باستشارة الملكة أودقسية، وكان يخشاها الوزير روفين أكثر من القيصر، وكان يخطر له سلب المنصب القيصرى من زوجها، حتى كاد لا يمنعه من ذلك إلا وجودها، حتى إنه مهد التمهيدات اللازمة بسلب ذلك المنصب، وضرب نياشين

باسمه، نقش صورته عليها كأنه لابس التاج القيصرى، وأعد هذه النياشين لوقت استقلاله بعد خلع القيصر، فأراد أن يقابل النعمة بالكفران، ويضع الإساءة موضع الإحسان.

ألا رب من تحنو عليه ولو ترى طويته ساءتك تلك الضمائر

فلا تأمنا خلا ولا تغترر به إذا لم تطب منك لديك المخابر

وكان للقيصر طيودوسيس قائد عسكر يدعى اسطيليقون، قد أقامه فى حياته كفيلا على ولديه القيصرين بالمشرق والمغرب، فلما توليا القيصرية بعد أبيهما، كل بجهته، كان ذلك الكفيل مشغولا بقسمة الأموال والجنود بينهما، وكان يحقد على الوزير روفين، فتصادف أن طائفة الغوطة اجتازوا نهر طونة لحرب آرقاديوس، وقصدوا بلاد القسطنطينية، وساروا نحو مقصدهم، وظنوا أن لا يصدهم أحد، فأراد الأمير اسطيليقون أن يغتنم الفرصة للانتقام من روفين ومن الغوطة، فأظهر أنه يقود الجنود من إيطاليا ليوصلهم إلى القسطنطينية لسلامتها فسار حتى وصل إلى مدينة سلانيك، ثم هجم بحركة عجيبة على الغوطية وحصرهم حصرا شديدا حتى هزمهم، وقصده بذلك أيضا الفتك بالوزير روفين.

فأحس بذلك الوزير روفين، وكان يخشى من اسطيليقون أكثر من الغوطة، فأصدر أمرا من أرقاديوس بطلب وصول الجنود إلى القسطنطينية بدون حضور اسطيليقون معهم، فامتثل اسطيليقون أمر القيصر، وانفصل عن الجند، ورجع إلى إيطاليا، لعلمه بصداقة الجنود المبعوثين لقيصر المشرق، وأرسلهم مع قائدهم غيناس، فكان اسطيليقون يعهد أيضا أن هذا الرئيس وجنده يبغضون الوزير روفين حتى أن اسطيليقون أخذ عليهم موثقا بقتل الوزير روفين.

فكتموا ما عاهدوه عليه مع غاية الحزم ولم يبوحوا به لأحد مدة سفرهم من سلانيك إلى القسطنطينية، ولم يتفوهوا بكلمة يشم منها رائحة العداوة للوزير روفين، بل أظهروا له عند قدومهم إليه كمال التملق والنفاق، وعاملوه بغاية ما يليق من التبجيل والاحترام، فاغتر بظاهرهم، وأغدق عليهم بالأموال كمال الإغداق، وأمل إنه بإعانتهم يقتل زوجة الملك لينتخبوه قيصرا عليهم.

ولما كان أرقاديوس عديم الثبات والرسوخ، وجب عليهم أن يكتموا عنه حقيقة الحال، وأن لا يطلعوه على ما فى ضميرهم، وأن لا يخبروه بأن وزيره روفين مضمر له الخيانة، وربما كانوا إذا بادروا بسلوك طريق الصداقة وأخبروه بذلك حالا يترتب على إخبارهم غاية المضرة لهم، فتمثل قائد الجند الأمير غيناس بين يدى القيصر، والتمس منه أن يعرض الجند على قيصرهم، وأن يسير العسكر أمامه، فحضر القيصر فى الميدان مصحوبا بوزيره روفين، وسلم حسب العادة على البرقدارية الرومانية بالمعسكر القيصرى، فكان روفين يتأمل كل التأمل ويوجه نظره إلى العساكر والضباط، مع إظهار التعاظم والكبرياء كأنه معتمد على تحقيق رجائه بمساعدتهم له، وواثق بهم فى حركاته وسكناته، فلما وصل مع القيصر إلى كبد الصف، تقدم جناحا الجيش على وجه السرعة وأحاطا بالقيصر والوزير كمال الإحاطة، فأعطى غيناس الإشارة اللازمة للجند بما أضمره، فهجم أحد العساكر بغتة على الوزير روفين وطعنه بالسلاح فى صدره، فصرخ الوزير صرخة عظيمة وانكب طريحا على الأرض، وخرجت روحه تحت قدم القيصر.

إلا إنما الأحياء شرب وبينهم كؤوس المنايا لا تزال تدور

فمنهم سريع السكر فى الحال ينتشى ومنهم على الشرب الكثير قدير

فشاع قتله بين الأهالى، فقاموا جميعا وهاجوا وماجوا، وازدحموا للتفرج عليه، لكون قتله كان جل مرامهم، وفتكوا بأعوان هذا الوزير الذين كانوا أهانوا جميع الرعايا، فقتلوهم عن آخرهم، وقبضوا على جسم روفين فمزقوه كل ممزق، وطافوا به فى الأسواق والشوارع، وأقاموا رأسه على سنان الرمح، وقطعوا يده اليمنى ليمثلوا به ويتفرج عليها الوارد والمتردد، وجعلوا كفه ممدودة مبسوطة كأنه يطلب من الأهالى أن يسلموه المغارم والمطاليب، كما كان يفعل فى حال حياته، فقد جوزى أشد الجزاء على عسفه وظلمه وجوره فى حكمه.

وما ذم أهل الظلم شيئا قصدته ولكنه من يزحم اليم يغرق

ولم تنج زوجته ولا ابنته من القتل بهروبهما إلى دير بيت المقدس، وضبطت[1] أمواله إلى الخزينة القيصرية.

فبهذه الحادثة التى صار فيها الافتيات من الجنود على هذا القيصر ضعف احترام الرعية للقياصرة، وصار مقامهم وضيعا، وناموسهم قليل الاعتبار، وصارت قوة الجنود مهيبة، يخشى على الدولة سطوتها، ويترقب على ممر الأيام صولتها.

مولاى إن صروف الدهر قد حكمت   واعوزت أن يذل الرأس للذنب

كم من مقبل كف لو تمكن من   قطع لها كان ممن فاز بالإرب

فولى أرقاديوس بدل ذلك الوزير المقتول أطروبس، الطواشى الحاجب، وكان اسطيليقون، زعيم الدولتين، يرى أن له حق كفالة قيصر المشرق، ويدعيها مستندا على وصاية طيودوسيس قيصر، ولكن كان يخشى أن يوقع بتطلبها العداوة بين الدولتين والبغضة بين الأخوين، فترك أرقاديوس وشأنه مع وزرائه وأمرائه، ولم يقع منه تداخل فى السياسة والتدبير. وكانت كل دولة من الدولتين ليس لها على الأخرى أمر ولا نهى، فلم يكن بينهما جامعة قوية فى هذا الوقت، فاغتنم الآريق، ملك الغوطية، هذه الفرصة واصطلح مع أرقاديوس، وانتظم فى سلك الجنود الرومانية، وعد نفسه من الأتباع القيصرية المشرقية، فجعله القيصر رئيس عموم جنوده الرومانية بسواحل إيطاليا المشرقية، وكانت تابعة للقسطنطينية، ومع انضمام ملك الغوطية للدولة المشرقية ظاهرا كان فى الحقيقة عدوا للدولتين حاقدا عليهما، ماكرا مخادعا كعادة اللئام من بنى الأيام.

إلا إنما الأيام أبناء واحد   وهذى الليالى كلها أخوات

فلا تطلبا من عود يوم وليلة   خلاف الذى مرت به السنوات

فانتهى به الحال إلى أن استفحل أمره، وقوى جيشه وجأشه، وحارب قيصر رومة وهزمه شر هزيمة، وكاد يأخذ ملكه لولا أن صده عن ذلك الأمير اسطيليقون،

---

(١) أى صودرت.

فقد دفعه عن المملكة المغربية فى واقعة هزمه فيها، وأخذ زوجته أسيرة، وفر الملك الآريق هاربا ونجا بنفسه.

فمن هذا يعلم أن مدة حكم أرقاديوس كانت سببا لانحطاط القيصرية، وانخفاضها عن مرتبتها العلية، وأن هذه المدة كانت منشأ لفساد الأخلاق والعوائد، ولتجدد الظلم والجور، فقد كان أكثر عمال الدولة أرباب ظلم وعسف، وأرباب جبن ورخاوة، منهمكين على اللذات والشهوات، ودليل ذلك أن أطروبس، الطواشى وزير هذا القيصر، كان رئيس المجالس والمحاكم وأمير أمراء الجيوش عموما، فكان رئيس الدولة بتمامها، وكان مبغضا للغوطة الذين هم أعداء الرومانيين طبعا، وقد فرحوا بتقليد هذا الوزير منصب الرياسة الكبرى، فبه أمنوا غائلة جنود أخصامهم، لما أن هؤلاء الجنود تحت رياسة رئيس ليس أهلا لتأدية وظيفة الرياسة ولا كفؤا لمقاومة رؤسائهم، ولا يقوى على منافستهم.

وقد شنع خيار الناس وأهل الاستقامة جميعا من الجنود والأهالى على انتخاب القيصر له، لا سيما وقد تحقق لدى الجميع أن هذا الوزير يأخذ الرشوة ويضيع حقوق المملكة، بل قد يضيع المملكة نفسها بأن يبيع لأعدائها من البلاد ما يتمكن من بيعه لهم، وكان من خصاله أنه يصغى لوشى الوشاة ولأهل السعاية بالنميمة فى حق الأهالى، ويكثر من أخذ المغارم غنيمة لنفسه، وكان من دأبه أنه كان يسعى فى إتلاف من امتاز من أمراء العساكر فى أيام طيودوسيس بالصداقة والاستقامة، فكان يفتك بقدماء المستخدمين، إذ كان يخشى من شجاعتهم.

ولما كان هذا الوزير متجاوزا للحد فى الظلم والجور، وكان لا يجهل الآراء العامة، ويخشى القدح فى حقه من عموم الناس، كما هو مذهب كثير من الحكام، كان يحاذر فى غدره ويحترس كل الاحتراس خوف الملامة، فنشر لائحة وأعلن فيها أن كل من طعن في وزراء الملك أو فى أهل ديوانه فجزاؤه القتل، وأن من سعى بالشفاعة فى مذنب والتمس الصفح عن ذنبه فجزاؤه الجرسة بالفضيحة والعار! وقد ظن أن هذين الحكمين يكفان ألسنة الخلق من القيل والقال، فكان نشرهما فى اللائحة القيصرية سببا لإضرام نار الفتن والشرور فى الأقاليم الرومانية.

إذ مـا أراد الله إهـلاك نمـلة سمت بجناحيها إلى الجو تصعد

فلما قامت الفتنة واشتدت، وانضم رؤساؤها إلى زوجة القيصر، طلب الجمهور من القيصر أن لا تسكن هذه الفتنة، ولا يصطلحوا معه إلا بضرب عنق هذا الوزير، فتوقف الملك فى قتله، فقبلت زوجته أقدامه، وشكت إنه أساء الأدب فى حقها، وخاض فى عرضها، وإنه لا فائدة فى إبقائه، فصدر الأمر القيصرى بقتله، فكان الحكم بقتله عاقبة سوء فعله.

فبمجرد الحكم عليه بالقتل أظهر له الشماتة كل من كان يتملق له من الأهالى ومن أهل الديوان، ولا أحد إلا ويشبعه شتما وسبا، وطعنا وضربا، وأرادوا أنهم يمزقوه أربا، كما قيل:

مـا الـناس إلا مع الدنيـا وصـاحبـهـا وكلـمـا انقلبت يومـا به انقـلبـوا

يعظـمـون أخـا الـدنيـا فـإن وثبت عليـه يومـا بما لا يشـتـهـى وثبـوا

غيـره:

إياك تـخـدعك فى الأيـام بارقـة من ذى خـداع يرى بشـرا وألطافـا

فلو فـليت جـمـيـع الأرض قـاطبـة وسـرت فى الأرض أوسـاطا وأطرافـا

لم تلق فـيـهـا صـديقـا صـادقـا أبدا ولا أخـا يـبـذل الإنصـاف أنصـافـا

ولكن لسعده برهة من الزمان، ولطول أجله إلى مجىء الأوان، كانت نجاته من القتل والتمزيق على يد القديس خروصوصطومس، فقد حماه من الأهالى، وخطب فيهم خطبة بليغة يقول فيها: «إن الدنيا لا تدوم على حال واحد، وأن الطبيعة البشرية ليست معصومة من النقائض الدنيوية وسوء المقاصد».. إلى آخر ما قال من المواعظ فى هذا المعنى.

وسبب حماية هذا القديس له أنه سبق من الوزير المعروف فى حقه، حيث آواه إليه وحماه من أخصامه أيام وزارته، والمعروف لا يضيع عند الله والناس، يشهد به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧) وليس ذلك مقصورا على

الشكر، بل يشمل المكافأة، قال لقمان لابنه: «يا بنى، المعروف قيد لا يفكه إلا شكر أو مكافأة»! وقيل: المعروف رق، والمكافأة عتق! قال الشاعر:

كلما قلت: أعتق الشكر رقى صيرتنى لك المكارم عبدا

أبق عمر الزمان حتى أؤدى شكر إحسانك الذى لا يؤدى

وإطلاق الشكر باللسان للثناء على أهل الفضل والإحسان إنما يكون إذا قصرت اليد عن المكافأة، وإلا وجبت المكافأة بالنعمة. وكيف يكافىء من قلت بسطته، وعجزت قدرته؟

فلما لاحت للأسقف السالف الذكر فرصة تخفيف ظهره من حمل منة الوزير المنقوب اغتنمها، وتشبث بالسعى فى نجاته، فبخطبة هذا القديس سكن غضب الأهالى، واستقر الحال على نفى هذا الوزير فى جزيرة قبرص، وحقن دمه، ومع ذلك فلم يصن حاكم هذه الجزيرة دمه.

وقد استوزر القيصر بعده الوزراء من الأجانب والأغراب، وسلمهم قياد المملكة كالسابق، وقد أفضى الحال أن سلم زمام المملكة لزوجته، وكانت[1] تكره الأسقف خروصوصطومس وتعاديه، وقد تسبب عن هذه العداوة من حط مقامها ما لا مزيد عليه.

عليك بإخوان الصفاء فإنهم عماد إذا استنجدتهم وظهور

وأن قليلا ألف خل وصاحب وإن عدوا واحدا لكثير

فحقدت عليه ونفته، وكان معظما عند الأهالى، لكونه كان أسقفا، وكانت الأساقفة معظمة عندهم، فقامت الفتنة على ساق وقدم، واجتمعت الأهالى أحزابا، وأشهروا السلاح، وأحاطوا بقصر الملك، فرجف قلب الملكة من هذه

---

(١) فى الأصل: وكان.. ونحن قد التزمنا تصحيح الأخطاء التى لا تعبر عن قسمة من قسمات أسلوب الطهطاوى وعادات عصره اللغوية، أما تلك الأخطاء التى تعبر عن هذه المعالم فقد أبقينا عليها، عملا بقانون التحقيق للنصوص المستوجب تقديمها على الصورة التى أبدعها عليها المؤلف، وحتى تفيد الدارس لمعالم أسلوب عصرها.

الفتنة، وتمثلت بين يدى القيصر، وأشهدت على نفسها أنها أخطأت فى نفى الأسقف وأمرت بعودته[1] إلى القسطنطينية وجلوسه على كرسى الأسقفية، فعاد إلى كرسيه، فكان فى عودته راية الانتصار على الملكة، لعدم نفوذ أوامرها فى حقه، فزين الأهالى لقدومه سواحل القسطنطينية شرقا وغربا بقصد استقباله بالفرح والسرور، ثم لما دخل المدينة صعد على منبره وخطب خطبة يعظ فيها بالصلح، والسلم، ولكن تعاظمه الدنيوى أنساه ذل حرفته الروحانية، وأذهله عن حقوق خرقته الدينية، وواجبات رياسة ملته، ولم يعمل بمواعظ الإنجيل، حيث عرض بذم النساء على العموم وذكر معايبهم، وتعرض للخوض فى عرض الملكة على الخصوص، وقذفها، حيث جعلها محبوبة لبعض الناس اللئام، وأن عشاقها عبدوها عبادة الأصنام، ومع أن ذكر هذا لا يليق من مثل هذا القديس فقد احتمل الأهالى سماعه منه، وهو لا يليق أيضا.

وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند سماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه

لا سيما وأنه مخل بناموس الدولة القيصرية، فلهذا سمعوا مجمعا آخر وحكموا عليه بالنفى ثانيا بسبب ذلك، وساعد على نفيه طوائف الأريوسية التابعين لمذهب أريوس[2]، فكانوا من غرض الملكة، ولذلك لما ماتت الملكة، بعد نفى الأسقف، حزن لموتها أتباع أريوس حزنا شديدا، وفرح بذلك غيرهم من النصارى أتباع ذلك القديس، وبعد نفى هذا البطرق مضت سنوات كثرت[3] فيها المصائب العامة، من حرق، وزلازل، وهدم، وإفساد الزرع بالجراد، فاعتقدوا أن سببها هذه الواقعة.

وقد سبق إنه حصل فى أثناء مملكة طودوسيس تلطيفات للمحن والفتن المصرية، فلما تولى أرقاديوس أمر أن تغلق هياكل الأصنام المصرية، ويتبع فى مصر دين النصرانية دون غيره، فاستدعى أهل مصر أن يتولى على مصر من طرف الرومانيين

(١) فى الأصل: بعوده.

(٢) هو القس أريوس الإسكندرى (المتوفى سنة ٣٣٦م) كان ينكر ألوهية المسيح.

(٣) فى الأصل: كثر.

ملك يسومهم بما فيه المصلحة وحسم الفتن، فبعث إليها الإمبراطور قوانين مشتملة على التشديد وعلى زجر الأهالى وجبرهم على الإقامة بواجباتهم تحت نواب دونه، وأباح لهم مع ذلك إباحات دينية اقتضتها الحالة الراهنة، ورخص لهم أن يتخذوا كهانا لعبادة الشمس والبقر، وأقام على النصارى بمصر ثيوفيلس بطريقا عليهم بالإسكندرية، فكان هذا البطرق صاحب حمية دينية، قليل المعرفة والفضل، فأظهر العداوة لأرباب الديانة القديمة، وتعرض لرخصتهم فى دينهم، وتحصل على أمر من القيصر بكسر الأصنام وهدم الهياكل المصرية، فصدر أمر القيصر بذلك، وعاد الأمر كما كان، وجعل ثيوفيلس مأمورا بذلك، وتحت أمره متوليا مصر وأميرها، فبلغ الأسقف مقصوده، على قدر تعصبه وحميته، وبالغ فى هدم الهياكل، وتبعه أساقفة مدن مصر وقراها، ففعلوا بالهياكل كما فعل البطريق، فحصل بدين مصر القديم من الشدة والمذلة ما لا مزيد عليه، وصار المجد والعظمة فى مصر للبطريق وللأساقفة، وفوض الحكم لهم، وكانوا قبل ذلك من أيام قسطنطين مفوضين فى التعليم والتربية وتهذيب الأخلاق وتحسين العوائد، دون تنفيذ الأحكام وإجرائها، وكان القضاة مأمورين أن ينفذوا[1] ما تحكم به طائفة القسيسين، فتم لهم النفوذ فى الحكومة، وكمل لهم التداخل فى المصالح.

فباضمحلال عبادة الأصنام وانقراضها على التدريج صار يلمح الإنسان بطرف فى قرب زوال التمدن القديم، شرعا وسياسة، وهو تمدن أزمان الجاهلية، وقد عم ذلك جميع البلاد الرومانية، فالأمة القديمة الرومانية لازالت على التدريج آخذة فى محاق تمدنها وتبدل ديانة إيالاتها، وإنما أضر بها غاية الضرر كثرة الدخيل فى أهاليها، من زمر الأجانب المتبربرين، وتقلدهم للمناصب والمراتب الملكية والوظائف العسكرية، وامتزاج الأغراب بأهاليها. ثم استبان أن هناك أغرابا أخرى أقوى من الرومانيين وهم[2] الإفرنجة والغوطة، فقد انتشروا فى بلادهم من نهر الرين بالمغرب إلى حد نهر الفرات بالمشرق، وازدحموا بالهجوم على الرومانيين،

---

(١) فى الأصل: ينفذ.

(٢) فى الأصل: وهو.

فبعد عشر سنوات من إغارتهم اضمحل حال رومة، حتى عاقبت رومة ملوكها وقياصرها على تعديهم وظلمهم، وطردتهم، واستدعت دخول الأغراب فى بلادها إلاّ أن[1] الرومانيين اختاروا أن يكونوا مستعبدين ومنقادين للإفرنجة والغوطية، ورضوا بذلك وآثروه على أن يكونوا أحرارا تحت ملوكهم الجائرين، خصوصا لما شق عليهم ظلم القياصرة، بتعداد النفوس لمقاصد سيئة، كضرب المغارم الجسيمة على الرؤوس فى سائر البلاد والأمصار، وتكثير الجرائم والمكوس، وأخذ الأموال على سائر الأشياء، والتكليف بما لا يطاق من الآصار، وتجسيم الضرائب المنفرة للطباع، المفضية للضياع، لا سيما بتعرض القياصرة لمذلة عبادة الأصنام، وانحطاط قدر الأوثان، حتى صار عابد الصنم عرضة للقتل والنكال، فقد كسر فى ذلك العهد جندى صنم الشمس، وكانوا يعتقدون إنه إله الدنيا، وأخرج منه عدة من الفيران مع ما رسب فيه من فضلاتها التى هى أشد خبثا من بول الثعلبان، ولم يحصل من كسره على هذه الحال أدنى فتنة لضعف دين الصابئة فى وقته، ولو كان كسر تلك الصنمة قبل ذلك الزمن لقامت الفتن العظيمة، وقد أسود هيكل رومة العظيم المطلى بالذهب، وأغبر بالتراب، وصار مهجورا لا يدخله عابد، ولا يومىء إليه بالعبادة راكع ولا ساجد، وكذلك هجرت هياكل الأصنام الأجنبية، ولم تجد من يتقرب إليها بالقربان.

وبالجملة، فقد نسج العنكبوت على جميع هياكل الجاهلية برومة، أهلية وأجنبية، ودخلت فى رومة ملة جديدة تتبختر أمام هذه الهياكل المشرفة على الخراب، بقصد زيارة تربة النصارى الشهداء، وانتشر دين النصرانية، وانتصرت الملة المسيحية، وانجبر كسر كنيسة النصارى، وتأيد دين عيسى بن مريم، عليه السلام، بقدر ما قاساه من الشدة والمذلة، وصار الناس يدخلون فى دينه زمرا، وصاروا مستوين فى الحقوق الدينية حيث تمسكوا بهذا الدين وتركوا عبادة الأصنام، لا سيما فى أيام أرقاديوس، على ما فيها من العسف.

ومات أرقاديوس بعد ثلاث عشرة سنة من ولايته، وكانت ولايته فى حقه

---

(١) فى الأصل: الآن.

كالأسر والاستعباد، لأنه كان فى هذه المدة إما طوع يد زوجته أو وزرائه، ويقال: إن هذا القيصر أوصى قبل موته أن يكون يزدجرد بن بهرام، المعروف بالأثيم، كفيلا على ولده طيودوسيس الثانى، ولعله قصد بذلك مدخلية أهل فارس فى مصالح الروم والقسطنطينية. وأنكر بعض المؤرخين هذه الوصاية بالكلية، وقال: إنها لم تصدر من أرقاديوس، بدليل أن كسرى فارس المذكور لم يتطلب الكفالة، ولم يدخل نفسه فى مصلحة القسطنطينية، مع ما كان عليه من الفظاظة والغلظة ولؤم الأخلاق. وكان موت أرقاديوس المذكور فى سنة ٢١٤ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

الفصل الثانى

فى الملك طيودوسيس قيصر الثانى الملقب بالأصغر[1]

تولى هذا القيصر الإمبراطورية سنة ٢١٤ قبل الهجرة، وحكم إلى سنة ١٢٧ قبل الهجرة، فكانت مدة حكمه اثنتين وأربعين سنة.

لما آلت القيصرية إلى هذا الأمير كان عمره تسع سنين، ولما بلغ سن الرشد كان حاله كأبيه أرقاديوس فى عدم الثبات وضعف العقل وقلة الإدراك والتمييز، فلهذا كان مدة حياته مطواعا، مدة الكفالة وغيرها، لوزرائه أو لأخته الكبيرة المسماة بولشيرية، وكان الحكم فى الحقيقة للوزراء ولهذه الأميرة، فكانت أخته المذكورة تسعى دائما فى تهذيب أخلاقه وإصلاح شؤونه وتقويم أوده، لعله يحسن تدبير المملكة كجده طيودوسيس الأول، ثم حكمته أيضا زوجته المسماة أطنايس، ثم حكمه خروساف الطواشى المهردار[2] بديوانه.

وكان حق الكفالة بموجب القوانين الرومانية لعمه أرنوريوس، قيصر المغرب بمدينة رومة، ولكن لم يرض أعيان المملكة القسطنطينية بتقليد عمه بكفالته، وكان من الأغنياء الملتزمين أصحاب الجاه والبأس شخص يسمى أنطيمس، وكان مشهورا بالمعارف والاستقامة، وكان قد تقلد نيابة الإيالات المشرقية، فكان قائمقام القيصر بالمشرق، فولاه وجوه القسطنطينية كفالة الملك مدة قصوره فتقلدها، ولم تطل مدة

(١) هو القيصر ديودوسيوس الثانى، حكم سنة ٤٠٨ حتى سنة ٤٥٠ م.
(٢) المهردار لقب لمن وظيفته العناية بالخيل الخاصة بالسلطان.

كفالته للقيصر، حيث اختار الراحة لنفسه والاشتغال بأشغاله الخصوصية، وآثر ذلك على نيابة المملكة، فتنازل بطوعه واختياره عن النيابة لأخت القيصر المذكورة، حيث رغبت فى ذلك، فانمحت عنه النيابة لأخت القيصر المذكورة، حيث رغبت فى ذلك، فانمحت عنه النيابة المشرقية والكفالة القيصرية، واستولت بولشيرية على سرير الملك، ولم يكن عمرها إذ ذاك إلا ست عشرة سنة، فقامت بأعباء الملك كما يجب، مع غاية الشجاعة والحماسة واستقامة الحال، وقد لقبها المجلس بلقب أغسطوسة، فبالنيابة عن أخيها حكمت بالاتحاد مع وزرائها مملكة المشرق نحو أربعين سنة مع غاية الفخار، فكأنما ورثت هذه الأميرة فضائل جدها طيودوسيس الأكبر، ونالت من مكارم أخلاقه الحظ الأوفر، كما ورثت عنه الشجاعة والبسالة، وبلغت فى فضل التدبير كماله، وهذا يؤيد أن قولهم، فى معرض «أل» الجنسية: الرجل خير من المرأة، معناه: أن جنس الرجل خير من المرأة، بقطع النظر عن الأفراد، فإنه قد يوجد من أفراد النساء من هو أفضل من الرجال، كهذه القيصرة بالنسبة لأخيها، ويصحح أيضا قول من قال فى مثلها:

فلو كان الرجال كمثل هـــذى لفضلت النساء على الرجال

لا سيما وأنها كما يقال:

لها حكم لقمان وصورة يوسف ونقمـــة داود وعفة مـــريم

فكانت ذات عدل وإنصاف، بعيدة عن الجور والاعتساف، اسكنت الفتن، وأزالت المحن، وبها اطمأنت نفوس الرعايا، وانتظم حال الملك بين البرايا، ومالت إليها القلوب القاسية، لحسن صنيعها ومعروفها ورسوخها وشجاعتها الوافية، لاسيما وقد حسمت الفتن والزور، ففى أيامها انقطعت المنازعات وتناسقت الأمور، ولم يرجف هذه القيصرة من الحوادث الخارجية إلا إغارة طائفة الهونية من قبائل التتار، وهجومهم من بلاد المجار على ممالك القسطنطينية تحت رياسة ملكهم آطيلا الجبار، فصالحتهم هذه الاميرة بتقرير خراج من الدرهم والدينار، فبهذا دفعتهم عن الهجوم عن البلاد، وارتاح من إغارتهم جميع العباد.

وقد سعت هذه الملكة فى تقدم العلوم والفنون والأمور الصناعية، وكانت تحسن

اللغة اليونانية واللاطينية، وقد اشتغلت أيضا بتعليم أخيها العلوم والمعارف، والفنون واللطائف، واشتغلته بذلك لتحسن الحكم عليه زمنا طويلا، فجلبت إليه كبار العلماء ومشاهير الحكماء ممن لهم شهرة فى العلوم المتنوعة، الأصلية والمتفرعة.

وكان هذا القيصر، مع قلة فطنته، مهيبا سالكا سبيل الجد لا المزاح، حافظا لناموسه، قابلا للتعليم، وانما لم يكن مستجمعا لصفات الرجال الراسخين فى صفات الكمال، فلم يكن منطبعا على تنجيز ما قاله، ولا ثابتا فى كلامه. وكان ممدوحا بالعفة والقناعة والرفق والرأفة والحلم، ولم تكن هذه الصفات غريزية له ولا طبيعية، بل مكتسبة، بدليل عدم ملازمة الثبات لها، يعنى أنه لم يكن متمكنا من فضائلها، فكان مدة حياته أشبه بالطفل فى المهد، يحيط به النساء والطواشية من كل جانب، وكان شغله النقش والرسم والصيد والقنص، ولما كان خطه فى غاية الحسن واللطافة لقب بالخطاط، وكان فاتر الهمة فى المصالح العمومية، يميل إلى الكسل والدعة، حتى كانوا إذا أحضروا له الأوراق ليطلع عليها ويشملها بإمضائه أهمل قراءتها وإمضاءها.

ولما رأت أخته هذا الإهمال الكلى، وأرادت أن تشعره بدرجة تكاسله ومبالغته فى الإهمال، حررت له خطابا عن لسانه أظهرت أن فيه مصلحة للحكومة مضمونه: «إنى خلعت نفسى من المملكة». ثم قدمته إليه فأمضاه بدون تلاوته، ثم أيقظته أن يطلع عليه، ومزقته أمامه، ليقف على عيبه، ويحاذر فى أموره كلها.

وكان ابتداء مملكته دليلا على نصرة الروم ونجاحهم فى مشروعهم، فقد غلب فى بادية أمره الهونية لما دخلوا فى إيالة روم إيلى مع ملكهم المدعو هولدين، فحصر القيصر ملكهم وجنده، وطلب منهم الخروج من هذه الإيالة، فأقسم ملك الهونية أن لا يدع الفتوحات، وأن لا يزال يتغلب على الولايات، ولا ينتهى عن ذلك إلا إذا بلغت فتوحاته مغرب الشمس، فانتصر عليه القيصر وحنثه فى يمينه وطرده من روم إيلى وجبره على تعدية نهر طونة، وعوده إلى بلاده، وأهلك القيصر جنود الهونية فى هذه الواقعة.

فلما رأت أخت هذا القيصر أن أخاها قد نجح فى أموره، واستحق أن يتزوج،

بحثت له عن زوجة مشهورة بالفضل لا بالنسب، والعقل لا بالحسب، وكان فى مدينة آثينا فيلسوف يسمى ديونقوس، وله بنت من أجمل بنات اليونان تسمى أطنايس، ذات علم وفصاحة، وربة ظرافة وصباحة، متفلسفة كأبيها، ناطقة ممتازة بالخطابة والبرهان، وكان أبوها له من الذكور ولدان، فتبرع لهما بجميع أمواله ولم يورثها اعتمادا على أنها فى غنى بالجمال عن المال، ولكن بعد وفاته تطلبت حقوقها، وتظلمت للملكة الرومانية، وبثت شكواها للأميرة أخت القيصر.

فعجبت الأميرة من لطفها وحسنها، ووفور عقلها، ووجدتها أهلا لأن تكون زوجة للقيصر أخيها، فلما بلغ القيصر أمرها وعلم أنها تصير امرأته تولع برؤيتها، واشتاق إلى ذلك، فلبس تبديلا، وأتى متنكرا عند أخته، فبوقوع بصره عليها وخاطبها أخذت بمجامع قلبه، فعقد عليها، وأدخلوها المعمودية لتنصيرها، وسموها أودقسية، فلما علم اخواها بأنها صارت زوجة للملك خشيا صولتها فاختفيا، فبحثت عنهما، وأرسلت من كشف عن حالهما، فوجدا وتمثلا بين يديها، فلاقتهما بالبشاشة والطلاقة، وأعطتهما المناصب العالية فى الملكة، ومع أنها ارتفعت بالزوجية إلى درجة القيصرية، فلا زالت مواظبة على ما تعودت عليه من أشغالها أيام فراغها، مطالعة ودراسة، فنظمت ما فى التوراة وألفت تآليف جديدة.

ولما كانت قد دخلت فى دين النصرانية، وظهرت بهذا الدين الجديد، أرادت أن تظهر الشعار، فقصدت مزار بيت المقدس وقدست، وذهبت إلى أنطاكية، وخطبت بمجلس أنطاكية خطبة بليغة أثرت مواعظها ونصائحها فى القلوب والنفوس، حتى نافست كبار الأساقفة بمقالها، وأصبحت معها من القدس إلى القسطنطينية ما يتبرك به من آثار صلحاء القديسين والعباد والزهاد.

ومن المعلوم أن يندر اجتماع أختين أو قريبتين متحدتين متحابتين فى بيت واحد وعائلة واحدة، فمن باب أولى وجود ذلك فى القصر الملوكى والعائلة القيصرية، وذلك أن زوجة القيصر طمعت أن يكون لها النفوذ على زوجها وعلى المملكة بتمامها، وأن يكون بيدها الأمر والنهى والحل والعقد، وقد كان هذا النفوذ قبل الزواج فى يد أخت القيصر، فلم ترض التنازل عنه لزوجته، بل استمرت ماسكة

زمام الحكومة، ومن هذا حصل الفشل والاختلاف بين الأميرتين، وترتب على اختلافهما اختلاف الآراء والأحزاب، فانقسم الديوان الملوكى إلى حزبين[1] أحدهما متعصب لزوجة القيصر، والآخر منتصر لأخته، فتغلب حزب الأخت على حزب الزوجة، فانتصرت على الزوجة، وكان لها تمام النفوذ، ثم وقع الشك فى عفة زوج القيصر، واتهمت مع جماعة من أخصائها المتعصبين معها من الديوان بالعشق والميل لها، فصدر الأمر بنفيهم، فكان هذا بمنزلة غضب الملك عليها، وسوء ظنه فيها.

فاستأذنت بأن تخرج من القصر الملوكى، وتعتكف فى بيت المقدس، فرضى القيصر بذلك، فذهبت إلى القدس واعتكفت هناك، فلم يزل اخصامها يقتفون أثرها بالتجسس ويتهمونها كالسابق بما لا يليق مع اثنين من القسيسين، فعذبوهما بالقتل بخصوص هذا السبب.

فغضبت من هذه التهمة، وتسببت فى قتل قاتل هذين الحبرين، فقويت التهمة بذلك، بل بلغت مبلغ التحقيق والتأكيد.

فمكثت ست عشرة سنة معتكفة منزوية فى زوايا الإهمال والنسيان، وهى دائما تبرىء نفسها من ذلك وتشتكى بأنها متهمة ظلما وعدوانا، ثم صار إعلان الحرب بين فارس والقسطنطينية بسبب فتك الفرس بالنصارى، فمكث الحرب سنتين سجالا، ثم عقد الفريقان مهادنة ومتاركة مدة مائة سنة، وانقسمت بلاد الأرمن بين الرومانيين وفارس، وذلك فى عهد كسروية بهرام جور بن يزدجرد الأثيم.

وقد كان بهرام المذكور من أمره أن أباه سلمه للنعمان بن امرىء القيس، أحد ملوك اليمن من العرب، وهو صاحب الخورنق، ليربيه ويعلمه الفروسية، فلما مات أبوه تولى كسرى خسروية، من ولد أردشير، فلما بلغ ذلك بهرام جور انتصر بالنعمان، ووقع بين بهرام وخصمه مراسلات كثيرة، وآخر الأمر اصطلحا على أن يجعل التاج بين أسدين شبلين، فمن تناوله منهما فهو الملك، فوثب بهرام وقتل

---

(١) فى الأصل: غرضين.

الشبلين ولبس التاج واستقر على سرير الملك، وكان عاقلا عادلا صوالا على أعدائه، وكان يقول الشعر بالعربية، فمن شعره يوم ظفر بخاقان الترك:

أقول لـه لما فضضت جموعه ... كأنك لم تسمع بصولات بهرام

وإنى حامى ملك فارس كلها ... وما خير ملك لا يكون له حامى

وكان نقش خاتمه بالأفعال تعظم الأخطار.

وينسب إليه المؤرخون أفعالا عجيبة نظير ما ينسب لهرقولس اليونانى مما لا يكاد يصدقه العقل، فمن ذلك ما يقال: إنه دخل أرض الهند متنكرا فمكث حينا لا يعرف، حتى بلغه أن فيلا هائجا بموضع قد قطع الطريق وأهلك الناس، فسألهم أن يدلوه عليه، فرفع أمره إلى الملك، فأرسل معه من يدله، فلما انتهى إليه صعد إلى شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل، فلما رآه الفيل أقبل إليه، فجعل بهرام يرميه بالنبل ويثبت النشاب بين عينيه، ثم دنا فأخذ بخرطوم الفيل وجذبه جذبة خرّ منها ميتا، ثم اجتز رأسه وأتى به إلى الملك، فحياه الملك وأحسن إليه. ثم إن ملكا من أعداء ذلك الملك أقبل نحو بلاد الملك الذى بهرام عنده، فجزع ذلك الملك منه من كثرة جنوده الآتية نحوه، فقال بهرام له: لا يهولنك أمره، فركب بهرام وقال لأساورة[1] الهند، احرسوا ظهرى وانظروا إلى عملى، وكانوا قوما لا يعرفون الرمى، وأكثرهم رجَّالة، وحمل عليهم حملة هزمتهم، ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه نصفين، ويأتى للفيل فيضرب مشفره ويكبه على أم رأسه ويتناول عليه فيقتله، ويأخذ الفارس فيذبحه على قربوس[2] سرجه، ويتناول الرجلين فيضرب أحدهما بالآخر فيموتان معا، ويرمى فلا تقع له نشابة فى الأرض، فولوا منهزمين، وحمل أصحابه الذين كانوا معه يحرسون ظهره عليهم فأكثروا القتل فيهم، فأنكحه ملك الهند ابنته واقطعه من بلاده جانبا كبيرا، ثم انصرف بهرام إلى مملكته، ولم يزل تحمل إليه أموال تلك البلاد. والظاهر أن مثل هذا من اختراع الحكويين، كما قيل فى ذلك:

---

(١) الفرسان.

(٢) القربوس - بفتح القاف والراء - القسم المقوس والمرتفع من السراج، مما يكون أمام الراكب وخلفه.

لى صاحب فى نقله ما حكى   للكــذب عن آبائـه وارث

فكل ما ينقــــله مثــــــل ما   قال الحريرى: حكى الحرث

وإنما مقاسمة بلاد الأرمن بينه وبين الروم تدل على نخوته، ولم يعلم من وقائع هذه الحروب الغريبة إلا حادثة واحدة، وهى أن أقاسوس بطريق أحد مدينة ديار بكر فادى بجميع ما عنده من أوانى الذهب والفضة الموجودة فى كنائسه سبع آلاف من الفرس كان أسرهم الروم، فاشتراهم هذا البطرق بتلك الأموال من الرومانيين، وأطلقهم وبعثهم من عنده إلى ملكهم كسرى فارس، ليريه الفرق بين أصول دين المجوسية التى تميل إلى سفك الدماء وقواعد دين النصرانية المبنى على مكارم الأخلاق وحماية من دخل الحمى والعفو عن الجرم.

وهيهات أن ينفع الوعظ فى أمة فارس، وقل أن يحملهم كلام مثل هذا البطرق على رفض دين المجوسية، والتخلق بمكارم الأخلاق العيسوية، لا سيما وأن لهم مكارم أخلاق خاصة بهم، فإن سفك دماء أسراء الرومانيين قد لا يرونه من المثالب، ولا يعتقدون أنه يخرجهم عن مكارم الأخلاق، كما يحكى عن بهرام جور أنه صرع فى صيده حمار وحش، وقد انفرد عن أصحابه، فنزل عن فرسه يريد ذبحه، ومر براع فقال له: أمسك لى فرسى، وتشاغل بذبح الحمار، وحانت منه التفاتة فرأى الراعى يقلع جوهر عذار[1] فرسه، وكان العذار يا قوتا أحمر، فحول بهرام جور وجهه عنه، وقال فى نفسه: تأمل العيب عيب، وعقوبة من لا يستطيع الدفاع عن نفسه سفه، والعفو من أفعال الملوك، وسرعة العقوبة من أفعال العامة. فلما رجع إلى العسكر قال له الوزير: أيها الملك السعيد، إنى أرى جوهر عذار فرسك مقلعا! فتبسم، وقال: أخذه من لا يرده، ورآه من لا ينم عليه، فمن وجد منكم صاحبنا فلا يطالبه.

فهذه مكارم أخلاق علية، دلالتها على محاسن أخلاق ملوك الفرس جلية.

وقد سبق أنه كان من أعظم المصائب فى دولة طيودوسيس الثانى إغارة الهونية

---

(١) العذار: ما سال من اللجام على خد الفرس.

وملكهم آطيلا ، وأن هذا الملك قد أرعب أخت القيصر المذكور ، المقلدة الولاية ، والواقع أنه أرجف أهل الدنيا بأسرها بإغاراته الجبروتية ، كما فعل ذلك أبناء جنسه وهم : هلاكو ، وتيمورلنك ، ولهذا لقب آطيلا بعذاب الله! ولولا أنه حصل قبل توليته ملكا على طائفته اضطراب عظيم بين فرق الهونية وجدال شديد حصل فيه تمزيق بعضهم من بعض ، لعظمت قوة ملكهم جدا واستفحل أمره ولم ينج من تعذيبه شيء من الممالك ، ولكن اختلفت كلمة طوائف الهونية فى مبادىء أمرهم وشروعهم فى الإغارات على البلاد ، وقصد السوء للعباد ، فأدى الشقاق بينهم إلى أن بعضهم فارق الجماعة وانضم إلى طائفة الغوطية وصار من أحزابها ، وانحاز البعض الآخر إلى الدولة الرومية وتعصب لها ودخل فى خدمتها ، حتى أنه كان من ضمن جنود طيودوسيس الثانى ملك من ملوك الهونية منتظما فى سلك جيوشه ، وكان جمهور أمراء الهونية ولاة على بلاد الألمان ، يعنى النيمساوية ، حتى أن الألمان لما تحققوا وقوع الفشل بين أمراء الهونية اغتنموا فرصة النزاع بصرف همتهم فى الخروج عن طاعة هؤلاء التتار المتبربرين المغتصبيين لبلادهم ، وكان طيودوسيس الثانى ، قيصر الرومانيين ، هو الذى حمل الألمان سرا على القيام والخروج عن طاعتهم ، وكان قائد طائفة الهونية وحاكمها فى البلاد الألمانية أميرا يسمى روجيلاس ، وكان له الرياسة العظمى أيضا على جميع قبائل الهونية خارج ألمانيا ، وكان يهدد قيصر قسطنطينية ويتوعده بالإغارة عليه ، فلما ارتجف طيودوسيس منه وارتعدت مفاصله من سطوته وبأسه أرسل إليه سفراء من طرفه لتسكين غضبه عليه ، ومنع هجومه على بلاده ، فبوصول سفرائه إليه وجدوه قد مات ، وقد ورث رياسته الملوكية اثنان من بنى عمه ، وهما آطيلا ، وأبليدا ، فاستقبل هذان الأميران سفراء القيصر وهما على ظهر خيلهما كعادة ملوك هؤلاء القبائل التتارية الرحالة النزالة ، فإن الرئيس عندهم لا يعقد مجلس المصالحات ولا يبت أمر المهادنات إلا وهو على ظهر جواده ، فاشترط هذان الاميران على سفراء الرومانيين زيادة الجزية المقررة التى كانت تدفعها القسطنطينية قبل ذلك للهونية ، وأن يسلم لهما القيصر إحدى المينات الرومانية التى على نهر طونة لتكون خالصة حرة لا ولاء للرومانيين عليها ، وأن لا تعقد دولة القسطنطينية معاهدة أيا ما كانت مع أى عدو من أعداء

الهونية، فرضي القيصر بهذه الشروط حين عرضت عليه من طرف السفراء، مع أنها مؤذنة بالمذلة والعار، ومخلة بناموس دولة الرومانيين، فكانت هذه أول مرة رأى فيها الرومانيون آطيلا . .

وذلك أن سفراء القسطنطينية لما اجتمعوا به تأملوا أوصافه فوجدوه على صورة أهالى القلمون، الذين يقال لهم الكيماكية، عريض الرأس، أصفر اللون، أفطس الأنف، قصير القامة، مربع الهيكل، يكاد يقدح الشرار من عينيه كالوحش الكاسر . .

زبانيــة النيران تكره وجهــه   وحــين تراه تســتعيذ جهنم

وكان قد بلغهم قبل الاجتماع به أنه فظ غليظ جبار عنيد، متولع بالحروب بحسن سياسة العساكر ورياستهم، ولكنه فى ميدان الحرب دون ذلك، لا توازى شجاعته تدبيره، ومن المعلوم أن كل ملك من الملوك، ولو تنمرد وتجبر وكثرت خصاله الذميمة، فلا يخلو من محاسن ممدوحة، وفضائل ليس لمثله عنها مندوحة، فكان خير فضائل هذا الملك الهونى الوفاء بالعهد وصدق القول، فمتى نطق بشىء صدق فيه، وإن وعد وفى، وكانت عليه سيما الهيبة، فكأنه مخلوق ليحكم البلاد، ويقهر العباد، وكان يتشبث دائما بأن ينشر فى قبيلته الجهالة، ويستغفل قومه، ويشيع بينهم الأوهام الفاسدة، والعقائد الكاسدة، ليعتقدوا أنهم دونه فى درجة العقل وميزان المعرفة، وفى الحقيقة كانت درجته فى المعارف وفى الوقوف على أحوال زمانه أعلى طبقة من رعيته، حتى كادوا يعتقدون أنه ليس من البشر.

فمما يحكى أن بعض الرعاة وجد فى حافر بقرته جرحا مشقوقا، ولم يعرف سببه، فبحث عن الأسباب الموجبة لذلك فوجد أنه داس برجله على طرف سيف مغروز فى الأرض ظاهر حده على وجهها، فحفر الأرض وأخرج السيف منها وذهب إلى الملك آطيلا ليريه له، فأخذه الملك وأشاع فى رعيته أنه قد عثر بسيف المريخ القاهر، وأن هذا السلاح الأقدس شعار المريخ القاهر، الذى هو صنم الحرب عند القدماء من الجاهلية، وأنه منحه لهذا الملك من فضله إيذانا له بالنصرة على بلاد الدنيا، فلما سمع الهونية بتلك الكرامة المدبجة المختلقة صار سيف المريخ معظما

عندهم، يعبدونه كالمريخ القاهر، فكانوا يقربون له القربان، وإذا ذهبوا إلى الحرب نذروا لخدمته فى كل مائة من الأسارى تقع فى أيديهم أسيرا واحدا، فهذا مما يدل على دهاء هذا الملك.

ومن المقرر فى تاريخ الرومانيين أن رومة فى مبدأ أمرها تملك عليها ملكان أخوان، أحدهما يدعى روموليوس، والآخر روموس، وأن الأول منهما قتل الآخر حسدا، كواقعة هبيل وقابيل، فكذلك آطيلا قتل أخاه أبليدا حسدا، فقد أشبه رومولوس فى مجرد قتل أخيه ليستبد بالأحكام، وبعد أن قتل أخاه وانقادت له وحده جميع قبائل ملته الهونية وغيرها من بقية القبائل التتارية تغلب، بعد جملة سنين، على سائر القبائل الجرمانية، المعبر عنهم بالألمان، كما سبق واستولى أيضا على كافة الأمم الشمالية كالأسوج والنروج والدانيمارقة، وخشيته أمم الغلية والبرغونية الساكنة فى بلاد فرانسا، بل قد دخل بلاد فرانسا بجيش جرار وتوغل بها إلى مدينة أورليان، ولكن أخرجه من هذه البلاد ثلاثة رؤساء وهم إيطيوس قائد عساكر رومة، ومرووئية ملك فرانسا، وطيودوريق ملك الغوطية، فإنهم دفعوه عن البلاد وأوقعوا به وقعة عظيمة بقرب شالون، فى إقليم شمبانيا، وقد خسر فى هذه الوقعة ربع جنوده، ورجع القهقرى إلى إيطاليا. وبالجملة، فقد استولى على جميع الأمم التى يسميهم الرومانيون بالأمم المتبربرة، يعنى العجام الخشينة، فاتسعت دائرة ولايته من جهة نهرى الأتل وطونة وبحر الشمال ونهر الرين وجبال ألبه بإيطاليا، فكان هذا الملك مهيبا فى سائر الممالك، يعتقدون أنه صاحب خروج، وأن له معرفة بالسحر والشعبذة، وأنه متى توجه إلى مملكة لا يصده من التغلب عليها شىء، وكان إذا قدم على مملكة من الممالك شرقا أو غربا سجدت ملوكها بين يديه حتى تصل تيجانهم على الأرض، ويفتخرون بحضورهم فى مجلس مشوراته، ويعدون أنفسهم من وزرائه، وطالما كانت تشاهد صفوف الأمراء ورؤساء القبائل حول قصره يتباهون بمحافظة ذاته الملوكية، ويستعدون لخدمته فى أى مأمورية، وكانت قبائلهم وطوائفهم منظومة فى سلك جنوده، داخلة تحت أعلامه وبنوده، وكان جنده نحو ثمانمائة ألف مقاتل.

وقد بعث فرقة من جنده للإغارة على بلاد فارس، وامتدت إغارته في المشرق حتى وصلت إلى الشام، وكانت مجرد إغارات لا فتوحات.

ومن المعلوم أنه كان بينه وبين طيودوسيس قيصر عقد مصالحة، كما سبقت الإشارة إليه، وإنما دأب الملل التى جميع أهلها حربية بالطبع، كملة الهونية، لا تستطيع أن تبقى على الصلح أمدا طويلا، فلهذا ادعى الهونية بعد زمن أن عقد الصلح بينهم وبين القسطنطينية قد انتقض بعدم وفاء القسطنطينية بشروطه، وزعموا أن الروم قد سرقوا منهم فى إحدى مينات طونة الحرة خزينة أحد أمرائهم، وطلبوا من القيصر أن يرجع لهم هذه الأموال، وأن يسلم لهم أحد أساقفة النصارى ليصنعوا فيه كيف شاؤا، فامتنع ديوان القسطنطينية من الإجابة إلى شىء من ذلك، فأشهروا الحرب وأغاروا على بلاد الروم، ودخلوا مدن بلاد القسطنطينية، وفى طريقهم سلبوا ونهبوا وأسروا، وهدموا قلاعها وقصورها، وسبوا نساءها وأولادها، ودمروا المدن التى بين البحر الأسود وخليج البنادقة.

فجميع هذه النكبات لم تبعث همة طيودوسيس على التحرك من ديوانه، لخوفه وجبنه، لأنه كان يجبن عن أن يقود جنده بنفسه، فأناط مدافعة الهونية لأمرائه وقواده، وكانوا إذ ذاك لا يستطيعون جمع العساكر، ولا يحسنون تنظيم الجند، ولا ترتيب الصفوف للقتال، فانهزم جند نالرومانيين فى واقعة بقرب نهر طونه، وفى اخرى بسفح جبال البرقان، جهة ادرنة، وانهزموا هزيمة ثالثة بسواحل روم ايلى، وكانت هزيمة عظيمة على جنودهم، دمرتهم ولم تبق منهم باقية، وعاث[1] آطيلا فى أرض روم إيلى حتى وصل إلى رساتيق[2] القسطنطينية وضواحيها، فلم يحجزه عن الدخول إلا أسوار هذه المدينة، لأنه كان لا يحسن الحرب إلا فى السهول والخلا، وكان يجهل محاصرة المدن القلاع.

ولما كان حرب آطيلا يعد من العجائب، وكان دائما يعقبه التدمير العمومى بإهلاك البلاد والعباد، ولم تكن مصائبه كمصائب الحرب المعتادة التى تشمئز منه

---

(١) فى الأصل: وعثا.

(٢) الرستاق ـ بضم الراء ـ الزمام، وهو اصطلاح يطلق على مساحة كبيرة من الأرض تسمى باسم يميزها.

النفوس ولا تصل إلى هذه الدرجة، أرجف قلوب أمم أوروبا وآسيا غاية الرجفة، وأزعجهم غاية الإزعاج، لأن تتار الهونية كانوا إذا انتصروا على قبيلة من القبائل أسروا سائر اهلها، وأدخلوا من كان يصلح للخدمة العسكرية أياما كان فى جنودهم، وضربوا الرق على الشيوخ والنساء، وربما قتلوهم بدون أن يرقّوا لحالهم، وكانوا إذا كثر عدد الأسرى كثرة بالغة وزاحموا الهونية على الزاد والراحلة ذبحوا القدر الزائد، ومع ذلك فقد اتحد بجنود الهونية كثير من الروميين وامتزجوا بعساكرهم، فلم يطق الرومانيون التربية الهونية ولا التخلق بأخلاق هؤلاء المتبربرين، لأنهم كانوا كالأسود الكاسرة والوحوش الثائرة، حربيين بالطبع، فبهذا كانوا يحتقرون الفنون والمعارف، ولا يميلون إلى العمل بموجب أصول وقوانين، ونهاية ما عندهم أنهم تعلموا بعض فروع ضرورية لحفظ أنفسهم، كالطب، فكانوا يحترمون هذا العلم دون غيره، وكذلك اجتهد بعض دعاة النصارى فى تنصير أفراد قلائل منهم، فصار بعض منهم نصارى على مذهب أريوس، فانتشر هذا المذهب فيما بعد تدريجا عند الأمم الشمالية.

فبعد تلك الوقائع السابقة التى انهزم فيها طيودوسيس - الملقب بالقيصر المنصور، على عادة الرومانيين القديمة، كأسلافه، وإن لم يتحقق فيه هذا الوصف، بل كان وصفه بذلك محض لقب لا معنى له - لم يكن له جيش يستعد به لقتال عدوه، ويدافع به عن نفسه، وكان هذا القيصر أضعف من أن يحيى قلوب رعاياه، وينعش نفوسهم، ويقوى عزمهم، ويحرضهم على قتال الأعداء، ويجعلهم جميعهم جندا يحامى عن الوطن، فلما لم يستطع أن يفعل ذلك اعتكف فى قصره الملوكى كالراهب، ولم يخرج منه إلا للكنيسة، فكان عاجزا عن حرب آطيلا وقتاله، فاضطر إلى طلب الأمان، وعقد مع خصمه صلحا مؤسس الشروط على المذلة والعار، حيث ترك لدولة الهونية الأرض التى فى جنوب نهر طونه، من مدينة بلغراد إلى داخل ترحالة ببلاد روم إيلى، والتزم هذا القيصر أن يدفع كل سنة ألفين ومائة رطل ذهب فى كل سنة، وستة آلاف معجلة غير ذلك بوصف مصروف الحرب، وكان قد ذهب ما فى أيدى أهالى الرومانية قبل ذلك، وكان أيضا جباة الكمارك والعوائد والمكوس أرباب خيانة واختلاس، فبهذا كله تأخر دفع هذه المغارم عن مواعيدها وتعذر على القيصر دفعها.

وكذلك كان ما بقى من عساكر الرومانيين قد داخله الجبن والفتور، كما حل الخوف والرعب فى صدر أهل ديوان القيصر، مما أعقبهم الذل والعار، فانعكست أحوالهم، ولم يقم لهم قائم من ذلك الحين، وإنما انتصبت مدينة من مدن روم إيلى تسمى أسوموس كانت ذات نخوة وفتوة، فأظهرت الحماسة الرومانية، وتمسكت بالأصول القديمة المؤسسة على الهمم العلية، وأعلنت أنها لا ترضى لنفسها بالدخول تحت شروط هذا الصلح المشتمل على المسبة والمعرة، وأن الرضا به دونه خرط القتاد، وأبت أن تسلم نفسها للهونية إلا بالحرب والجهاد، فخرجت الأهالى خارج الأسوار، وطلبت النزال مع الهونية، إما للنصرة أو الانكسار، فاجتمع عليهم الجم الغفير من العساكر الفارين، ومن الأسرى الهاربين، فعظم جيش هذه المدينة وضخم غاية الضخامة، وأوقعت بالهونية فى واقعة هائلة ولا هول القيامة، فهزمتهم شر هزيمة وطردتهم عن أرضها، وآبت بأعظم نصرة وغنيمة.

فشكا آطيلا للقيصر من عدم وفاء هذه المدينة وغيرها بالشروط، وطلب منه إكراه أهلها على الانقياد للهونية، وتسليم المدينة على أصول ما هو فى العقد مربوط، فأمرهم القيصر بالوفاء، فلعلو هممهم وسمو شيمهم لم ينقادوا لأمر القيصر وأظهروا الجفاء، وعصوه كما عصوا الهونية، وأجابوا أن الصلح المبنى على الذل والعار والتحقير والصغار لا يعد من القوانين الواجبة الامتثال، وأن انقيادهم لمثل هذه الأوامر طوعا واختيارا من قبيل المحال، فصرف النظر عنهم[1] كل من ملك الهونية وطيودوسيس قيصر الرومانية، لما رأوا عندهم من الشجاعة وشرف النفس الأبية.

وكان من جملة شروط الصلح أن القيصر التزم لملك الهونية أن يسلم له كل من فر عنده من الألمان والغوطية والطوائف التتارية، وكل من هرب من جيش آطيلا ودخل فى جيش القيصر، فلم يستطع الروم الرومانيون أن ينجزوا هذا الشرط الصعب المرام، لأنه بترتب عليه هلاك ضباط هونية عظام، لا سيما أنهم اجتهدوا

(١) فى الأصل: عنهما.

فى حرب الروم وساعدوا كل المساعدة، وانتظموا فى جندهم، وامتازوا عندهم، وحازوا فى الميدان ما لا مزيد عليه من الفائدة، وأما آطيلا فكان جبارا عنيدا، وشيطانا مريدا، فتمادى فى طلب تنجيز هذا الشرط الصعب الإجراء، فبعث إليه القيصر سفارة لعله يلين قلبه، ومع ذلك فدس عليه القيصر سرا دسيسة حيث أغرى بعض وزرائه ليقتله ورشاهم وأفسدهم بالبرطيل - كما سيأتى بيان ذلك - فقابل مالك الهونية أهل السفارة بغاية الازدراء والتحقير، وأذلهم غاية الإذلال ووضع مقامهم الخطير، كما كان الروم فى أيام عزهم(١) يعاملون بمثل ذلك سفراء الملوك الأجنبية، فكما تدين تدان، وكما تهين تهان، وأبقى آطيلا السفراء عدة أيام خارجا عن مقر حكومته قبل أن يتمثلوا بين يديه، حتى أدركوا دلائل العكس والطرد وعدم القبول لديه.

فانظر كيف كان حال هؤلاء الأمراء الإيلجية(٢)، حيث جاءوا إلى هذا الملك من القسطنطينية، التى هى مدينة عظيمة متحفة مزينة بالقصور العالية المزخرفة، ودخلوا فى قرية آطيلا المتبربر المخشوشون، مع أنهم رسل من طرف قيصر عظيم الشأن، جليل البرهان، يتضرعون إلى جلف من الأجلاف، ويعهدون من الحقارة والاستخفاف، فصاروا قبل اجتماعهم به يمرون على كثير من الصفوف ما بين خفر وحراس، لابسين من الحلل البهية خير لباس، مما سلب من الروم واليونان، فى ميدان الحرب والرهان، فلا زالوا يشقون الصفوف بين الرماح والسيوف حتى وصلوا ديوان الملك فوجدوه لابسا ملابس الآحاد من التتار، بدون زينة ولا طراز افتخار، ولا شعار اعتبار، ولم يكن سريره الملوكى إلا كرسى العادة، وإنما هو صاحب السعادة، فسجدوا أمامه، وخضعوا له كما يقتضيه مقام المملكة والزعامة، وقلوبهم فى أثناء ذلك كله ممزقة، وأفكارهم في بحر الوساوس مستغرقة..

فعرضوا عليه قضاياهم المشتملة على مصلحة الأرسلية، وأوضحوا أسباب السفارة والمأمورية، وتكلموا فى شأن ذلك بألفاظ دالة على الكبرياء والفخار، على

---

(١) فى الأصل: غيرهم.

(٢) لعلها نسبة إلى مقاطعة روم إيلى، أو إلى بلدة فيليا، التى كان اسمها قديما: إيليا.

العادة الرومية القديمة أيام العز والاعتبار، مما لا يليق فى الحالة الراهنة، ولا يصلح ولا للمغالبة، حيث إنهم موسومون بوسم الانهزام، وموصوفون بالضعف وانحطاط المقام، وما علموا أن لسان حاله ينشدهم:

لم ألق مستكبرا إلاّ تحول لى — عند اللقاء له الكبر الذى فيه

ولا حلا لى من الدنيا وزهرتها — إلاّ مقابلتى للتيه بالتيه

فلم يجبهم آطيلا الجبار العنيد إلا بألفاظ التخويف والتهديد، حيث قال لهم، مغضبا: «أتظنون أنى إذا أردت النكاية، هل تبقى مدينة من مدنكم على وجه الدنيا باقية؟ وكيف تصادفها هذه العناية؟ فإذا أردتم لمدنكم التدمير فلا ينفع التدبير!» فألانوا له القول، وتلطفوا معه فى الخطاب، فانطبع ورق وراق، فتعشموا الخير من انطباعه، وطمعوا فى حسم مادة النزاع والشقاق، ثم دعاهم إلى وليمة بهية، حافلة جليلة الجمعية.

ومن الصدفة والاتفاق أنه كان فى ديوانه أيضا سفراء دولة رومة، فأجلس سفراء كل من الدولتين فى المجلس بعد أمراء الهونية، تحقيرا لرجال الجانبين، وصاروا مدة تعاطى الطعام يسقون الندماء على عادة ملوك البلاد الشمالية كثيرا من الشراب، بحضور أصناف اللاعبين وأرباب الهزل والمزاح وسائر أصناف الألعاب، وأحضروا أيضا أسراء البلاد المغربية أمام أهل المائدة للمصارعة، وجنود التتار تصنع صورة محاربة صناعية بارعة، والأغانى تتغنى بحروب طوائف الهونية وانتصار ملكهم آطيلا وتغلبه على سائر بلاد البرية، وكانت نساء الهونية حاضرة فى المائدة مع رجال الرومية، يتكلمن مع أهل المشرق بدون استحياء ولا احتفال، واختلطن معهم ولا اختلاط الرجال مع الرجال.

ثم اقتضى نظر ملك الهونية أن يبعث سفراء من عنده لملك القسطنطينية، كلهم متميزون بعلو المناصب والمراتب، ورئيسهم يسمى إيديقون، وكانت أخت القيصر وكفيلته بولشيرية قد انكسرت شوكتها وضعف نفوذها فى الديوان القيصرى، وصار الحل والعقد بيد الطواشى المسمى خروساف، فكان له النفوذ الكامل عند

القيصر، بل كاد القيصر أن يكون فى قبضة يمينه، فاتحد هذا الوزير مع بعض من أرباب الديوان ممن يعتمد عليهم، ومنهم ويجلوس له اليد فى المملكة، واتفقوا على أن يرشوا إيديقون، رئيس السفارة الهونية، ليثير فتنة على آطيلا ويقتله، وكان ذلك أيضا بمعلومية القيصر ورضاه بدفع هذه الرشوة، ومن العجيب أنه كان مستقيم الحال، يكره الباطل وأهله، ولما علم آطيلا بذلك كان أكرم نفسا من القيصر فى ذلك الوقت، حيث وقع فى يده المذنبون المتعصبون على قتله، ولم ينتقم منهم، بل أعادهم إلى القسطنطينية، كما سيأتى بيانه، وصفح عن خيانة الملك المشارك لهم فى الجناية، ليريه أنه أشرف نفسا، وأن فيه شمائل الملوك ومكارم أخلاقهم، وأن بداوة ملوك البدو أسلم من حضارة ملوك الحضر، فقد غدر ملك الروم المتمدن، وصفح ملك التتار المخشوشن.

إن كنت ترغب فى شأو الكرام فسر ... فى الناس بالفضل والدين الذى شرعوا

حافظ إذا غدروا واشجع إذا جبنوا ... واحلم إذا جهلوا وابذل إذا منعوا

وذلك أنه لما كان ويجلوس ترجمان السفارة فى هذه القضية، وكان رجع إلى القسطنطينية، ثم عاد إلى معسكر آطيلا ومعه ثلثمائة رطل من الذهب فدية قتل المتعصبين على قتل الملك، قبض عليه آطيلا، وسأله فى شأن ذلك وقرره، فاعترف بذنبه، فعفا عنه، وبعث سفراء غير السفراء الأول إلى القسطنطينية، منهم شخص يقال له أسلاو، وشخص آخر يقال له أغسطه، فلما تمثلا بين يدى القيصر شرع الأول يتكلم بهذه المقالة الرسمية، التى نصها: «إنى مأمر من طرف ملك الهونية أن أقول لكم: إن القيصر طيودوسيس والملك آطيلا كلاهما من سلالة ماجدة، ذات نسب رفيع، وحسب منيع، ولكن آطيلا أظهر مقام أجداده فى غزواته، وأبان عن مجدهم فى حروبه وإغاراته، وطيودوسيس لطيشه أبان أنه ليس أهلا لحيازة شرفه ونبله، وأنه لم يخلف آباءه الكرام، بل بخس بنفسه وأخل بناموسه وناموس أهالى مملكته بين الأنام، حيث رضى أن يدفع لملك الهونية جزية توجب الصغار والهوان، فبدفع هذه الجزية كان بمنزلة من أشهد على نفسه أنه صار عبد رق لملك الهونية الذى أسعده الزمان، ورفع الدهر عليه مقداره، وأبد مجده وفخاره، فكان من الواجب

على القيصر حينئذ أن يسلك فى حق ملك الهونية مسلك الرعية، فى التمسك بالصداقة وحق العبودية، ويظهر لسيده كمال الطاعة والاحترام، ولا يليق به أن يعصى ولى نعمته وفضله، ويتعصب على قتله، فإنه بذلك الفعل الذميم إنما سار سير عبد السوء الذليل اللئيم، الذى يعتاد الإباق، أو يظهر النفاق، فقد عصى سيده ومولاه، وقصده بالقتل وناواه». .

وكان القيصر عند سماع هذا الكلام المؤلم، جالسا على سرير جده طيودسيس الأكبر، المصوغ من ذهب، صامتا غير متكلم، ولم يكن قبل ذلك طرق بأذنيه غير المدح والملق من وزرائه، ولا سمع غير التملق والتعظيم من أمرائه، فلما أسمعه أسلاو هذه المقالة ثبت نفسه وقوى جأشه على أن يصغى لمعانيها مع غاية الخجل والوجل، بدون أن يظهر سآمة ولا ملالة على ما فيها من التوبيخ، كيف يدرك المعنى ويفهم من يتمسك من أذيال العجب والكبر بلزوم ما لا يلزم، فكان لسان حاله ينشده:

إنها غفلة لك الويل منها   ما رواها الرواة فى تاريخ

وكما قيل هب بأنك أعمى   كيف تخفى روائح البطيخ

ثم بعد استكفائه سماع العبارة، سلم وزيره خروساف الطواشى لأرباب السفارة، ولأجل تسكين غضب آطيلا انتخب له أيضا عدة من أمراء ديوانه القيصرى، منهم لونيوس خازندار المملكة، وأنطنيوس رئيس الجنود القيصرية، وكلاهما مستشار فى الديوان، ووظفهما بوظيفة السفارة، وسيرهما إلى ملك الهونية.

وكانت الدولة المشرقية الرومية لم يزل فيها رمق الفخار القديم، وحفظ المقام الفخيم، فانتخاب هؤلاء السفراء شرح صدر ملك الهونية، لما فيه من التبجيل والتعظيم، فسعى الملك إليهم، وسامح القيصر وعفا عنه، بل عفا أيضا عن كل من الطواشى والترجمان، ومن سعى فى قتله من أهل العدوان، وأنعم على القيصر بإعادته له عدة مدن من المدن المغصوبة، وفك عدة كثيرة من الأسرى المسلوبة، ونأى عما كان طلبه من الهاربين من جنده فى العسكر القيصرى، وجدد عقد

الصلح، وطلب جانبا عظيما من المال فدية عن قتل الطواشى السالف الذكر، ولكن المقدار الذى طلبه كان جسيما جدا، بحيث دفعه يجحف خزينة الدولة الرومية، وربما كان يكفى فى دفع جوامك[1] مقدار من العساكر يهجم بهم القيصر على ملك الهونية، ويكفيهم شر المصالحة المعرة، فبعد عقد هذه المصالحة بزمن يسير ركب القيصر جواده للرياضة والنزاهة، فكبا به الجواد فسقط على الأرض فانكسرت فقار ظهره، وفارق الدنيا وأراح العباد والبلاد، ومات وعمره ثلاث وخمسون سنة فى أثناء السنة السادسة والأربعين من حكمه، وكان ذلك فى سنة١٧٢ قبل الهجرة. وتولت بعده أخته بولشيريه.

* * *

وفى السنة الخامسة عشرة من ملك هذا القيصر كان إيقاظ أصحاب الكهف من رقدتهم، التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة الكهف، وأطنب فى حكايتها المفسرون بأقوال مختلفة، وحكاها أهل السير بحكايات غير مؤتلفة، وتلخيص القول فيها:

أن بعض القياصرة حصل منهم فى أيامهم غاية الطغيان، وعبادة الأصنام، والذبح للطواغيت، وكان فى الروم كثير من الناس على دين المسيح عيسى، عليه السلام، متمسكين بعبادة الله وتوحيده، فكان ممن طغى وبغى وكفر بالله وعبد الطاغوت ملك من ملوكهم وهو دقيوس قيصر، المسمى أيضا دقيانوس، فقد اجتهد فى عبادة الأصنام، وتقريب القربان للطواغيت، والأمر بذلك، وقتل من خالفه، وكان ينزل بلاد الروم ليكره الناس على ذلك، فنزل مدينة أفسوس، التى هى الآن آياصولوق، أو مدينة منبج، ببلاد أناطلى، بقصد إكراه أهلها على ذلك، فكبر ذلك على أهل الإيمان فهربوا منه فى كل وجه، فجعل الكفار من أهل المدينة يفحصون عن المستخفين فى أماكنهم ليخرجوهم منها إلى دقيانوس فيخيرهم بين القتل والذبح للطواغيت، فمن اختار عبادة الله قتله، ومن أطاعه فى ذلك تركه، فلما رأى ذلك الفتية الثمانية، وكانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم، حزنوا حزنا شديدا،

---

(١) رواتب ومخصصات.

واشتغلوا بالعبادة والتضرع إلى الله تعالى، وجعلوا يقولون: ﴿ **قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا** ﴾ (الكهف: ١٤) فبينما هم على ذلك فى مصلى لهم إذ دخل عليهم أعوان القيصر فوجدوهم سجدا يتضرعون إلى الله تعالى أن ينجيهم من فتنة دقيانوس، فرفعوا أمرهم إلى دقيانوس، فأمر بإحضارهم، وأعينهم تفيض من الدمع حزنا، فقال لهم: ما منعكم أن تجعلوا أنفسكم كغيركم من الذبح للآلهة؟ فاختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا كما يذبح الناس، وإما أن أقتلكم! فقال له كبيرهم مكسلمينا: أما الطواغيت فلا نعبدها أبدا، اصنع ما بدا لك! وقال بقية الفتية مثل ذلك، فجردهم من ملبوسهم ومن حليتهم التى كانت من الذهب والفضة، وقال: إنى أراكم شبابا فلا أحب أن نهلككم حتى أجعل لكم أجلا تراجعون فيه عقولكم، وأمر بخروجهم من عنده، وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم قريبة منها لبعض أموره، فلما علم الفتية بخروجه خافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم، فائتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه، فيتصدق منها، ثم يتزود بالباقى، ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة يقال له منحلوس، يعتكفون فيه لعبادة الله تعالى، حتى إذا جاء دقيانوس أتوه ليصنع بهم ما شاء، ففعلوا ذلك، وانطلقوا بنفقتهم، واتبعهم كلب كان لهم، حتى أتوا ذلك الكهف الذى فى الجبل، فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا العبادة، وجعلوا، نفقتهم إلى فتى منهم يقال له تمليخا، كان من أجملهم وأجلدهم، فكان على طعامهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا، ويذهب متنكرا يتجسس(١) لهم الخبر، فلبثوا كذلك ما لبثوا. .

فقدم دقيانوس الجبار المدينة، فأمر العظماء فذبحوا للطواغيت، وكان تمليخا بالمدينة فرجع إلى أصحابه وهو يبكى، فأخبرهم بأنهم بعد عودة دقيانوس ذكروا مع عظماء المدينة ليذبحوا للطواغيت، فحصل لهم الفزع من ذلك، ووقعوا سجدا يتضرعون إلى الله تعالى ويتعوذون به من الفتنة، وكان تمليخا قد جاءهم بيسير من الطعام، فقال لهم: ارفعوا رؤوسكم وكلوا من رزق الله، وتوكلوا عليه، ففعلوا،

---

(١) فى الأصل: يتجسر.

وكان ذلك عند غروب الشمس، ثم جلسوا يتحدثون، فبينما هم على ذلك الحال إذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف، وكلبه باسط ذراعيه بالوصيد، وهو باب الكهف، فأصابهم، وهم مؤمنون موقنون، ونفقتهم عند رؤوسهم، وكلبهم يغبطه بنو آدم! وكان الشاعر الحوير، الملقب عبد على، يلقب نفسه كلب على، فقال مشيرا لكلب أهل الكهف:

فتية الكهف نجا كلبهم　　　كيف لا ينجو غدا كلب على؟!

فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم، فقال لبعض أصحابه: قد ساءنى هؤلاء الفتية الذين ذهبوا، ولو جاءوا فى الأجل المسمى تائبين وعبدوا إلهى ما كنت لأجهل على أحد منهم، ثم أرسل إلى آبائهم وتوعدهم بالقتل، فأخبروه بأنهم انطلقوا إلى الكهف، فخلى سبيلهم، فألقى الله تعالى فى نفس هذا القيصر أن يأمر بسد الكهف عليهم ليموتوا جوعا، وأراد الله أن يجعلهم آية لمن بعدهم، وأن يبين للناس أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم.

ثم إن رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما، وكان اسم أحدهما مندروس، والآخر دوماس، فائتمرا أن يكتبا أسماء الفتية وأنسابهم وخبرهم فى لوح رصاص، ويجعلاه فى تابوت من نحاس، ثم يجعلا التابوت فى البنيان، وقالا: لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا الكتاب، ففعلا، ثم بنى عليهم مصلى.

فبقى دقيانوس ما بقى، ثم مات وقومه، ومضت عدة أجيال، وخلفه عدة من القياصرة إلى أن ملك على أهل تلك البلاد ملك صالح يقال له تاودوسيوسر قيصر، ويسمى أيضا طيودوسيس الثانى، وكان متمسكا بدين عيسى بن مريم، ولكن لم يزل فى ملكه بعض ممن يكذب بالبعث ويقول: لا حياة إلا الحياة الدنيا، وينكر بعث الأجساد دون الأرواح، فلما رأى ذلك هذا الملك الصالح دخل بيته وأغلقه عليه وصار يبكى ويتضرع إلى الله تعالى مما يرى فيه الناس من إنكار البعث، ويقول: أى ربى، قد ترى اختلاف هؤلاء، فابعث إليهم من يبين لهم حقيقة البعث، فاستجاب

الله دعاءه، فألقى الله عز وجل فى نفس رجل من أهل ذلك الجبل، الذى به أهل الكهف، أن يبنى فيه حظيرة لغنمه، فاستأجر عاملين، فجعلا ينزعان تلك الأحجار ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى فرغ ما على فم الكهف من السد، وفتح عليهم باب الكهف، وحجبهم الله عن الناس بالرعب، فلما نزعت الحجارة، وفتح عليهم باب الكهف أذن الله ذو القدرة والعظمة، ومحيى الموتى، أن يستيقظوا من رقدتهم، ويجلسوا بين ظهرانى الكهف، فجلسوا فرحين مستبشرة وجوههم، طيبة أنفسهم، فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى يستيقظون فيها على عادتهم إذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون فيها، ثم صلوا صلاتهم كعادتهم، لا يرى فى وجوههم ولا فى ألوانهم شىء يكرهونه، إنما هم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم دقيانوس الجبار فى طلبهم.

فلما فرغوا من صلاتهم قالوا لتمليخا، صاحب نفقتهم: ائتنا يا أخى بالذى قال الناس فى شأننا عشية أمس عند الجبار، ظنا منهم أنهم رقدوا كعادتهم، وإنما خيل لهم أنه طالت مدة نومهم على العادة، فقال بعضهم لبعض: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم. وكل ذلك فى أنفسهم يسير، ثم قال مكسلمينا لتمليخا: انطلق إلى المدينة لتسمع ما يقال فى شأننا بها هذا اليوم، وما الذى نذكر به عند دقيانوس؟ وتلطف ولا تشعر بنا أحدا، وابتع لنا طعاما وائتنا به، فإنه قد نالنا الجوع، وزدنا على الطعام الذى تجيئنا به عادة[1] فإنه كان قليلا، وقد أصبحنا جياعا. فأخذ تمليخا ورقا من نفقتهم التى كانت معهم مما ضرب بطابع دقيانوس فانطلق تمليخا خارجا من باب الكهف، فلما مر بالباب رأى الحجارة منزوعة عنه فعجب منها، ولم يبال بها فى مروره، حتى أتى باب المدينة متنكرا مخافة أن يراه أحد من أهلها فيعرفه فيذهب به إلى دقيانوس الجبار، ولم يشعر بالعبد الصالح الذى هو تاودوسيوس، ولا علم أن دقيانوس وأهله هلكوا من منذ أجيال.

فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع رأسه فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان، فجعل ينظر إليها متعجبا، فنظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا ممن يعرفه، فترك

---

(١) فى الأصل: العادة.

ذلك الباب وتحول إلى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك، فتخيل له أن المدينة ليست بالتى كان يعرفها، ورأى ناسا كثيرين محدثين لم يكن يعرفهم قبل ذلك، فجعل يمشى ويتعجب منهم ومن نفسه، ويخيل إليه أنه حيران ثم رجع إلى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب منه ومن نفسه ويقول: يا ليت شعرى! أما هذه عشية أمس، وقد كان المسلمون(*) يخفون هذه العلامة ويستخفون بها، فأما اليوم فإنها ظاهرة! لعلى حالم! ثم يرى أنه ليس بنائم، فأخذ كساءه وجعله على رأسه ثم دخل المدينة، فجعل يمشى بين ظهرانى سوقها فيسمع ناسا كثيرين يحلفون بالله ثم بعيسى بن مريم، فزاده ذلك عجبا، ورأى كأنه حيران، فقام مسندا ظهره إلى جدار من جدران المدينة، وقال فى نفسه: والله ما أدرى من هذا، أما عشية أمس فلم يكن على وجه الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل، وأما الغداة فأسمع كل إنسان يذكره ولا يخاف، ثم قال فى نفسه: لعل هذه المدينة ليست مدينتنا، ولا أعلم مدينة أقرب منها حتى تشتبه علىَّ بها، ثم قام كالحيران الهائم لا يدرى أين يتوجه، ثم لقى فتى من أهل المدينة، فقال: يا فتى، ما اسم هذه المدينة؟ فقال: أفسوس، فقال فى نفسه: لعل بى مسا أو أمرا أذهب عقلى، والله يحق لى أن أسرع الخروج منها قبل أن أخرج منها ويصيبنى سوء فأهلك!.

ثم إنه أفاق فقال: والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بى أحد لكان أكيس، فدنا من الذين يبيعون الطعام، فأخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلا منهم وقال له: يا عبد الله، بعنى بهذه الورق طعاما، فأخذها الرجل ونظر إلى نقش الورق وعجب منها، ثم طرحها إلى آخر فنظر إليها، وهكذا، فجعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل، وهم يعجبون منها، ثم جعلوا يتسارون ويقول بعضهم لبعض، سرا: إن هذا الرجل قد أصاب كنزا! فلما رآهم يتسارون من أجله ظن أنهم فطنوا به وعرفوه، وأنهم يريدون أن يحملوه إلى دقيانوس الجبار، فارتعدت مفاصله، ثم قال لهم: اقضونى حاجتى فقد أخذتم ورقتى، وإلا فأمسكوا طعامكم فلا حاجة لى فيه، فقالوا: من أنت يا فتى؟ وما شأنك؟ ولله قد وجدت كنزا من

(*) المسلمون: المقصود بهم فى هذا المقام الذين أخلصوا الدين لله وخضعوا له سبحانه وتعالى (الشروق).

كنوز الأولين، وتريد أن تخفيه منا، فانطلق معنا وشاركنا فيه، وإلا نأت بك إلى السلطان فنسلمك إليه! فلما سمع قولهم عجب فى نفسه، وقال: قد وقعت فى كل شئ أحذر منه! فجعل تلميخا لايدري ما يقول ولا يحير جوابا، فلما رأوه لايتكلم طوقوه بكسائه فى عنقه وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكبلا، فاجتمع عليه أهل المدينة، صغيرهم وكبيرهم، فجعلوا ينظرون إليه ويقولون: والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة، وما رأيناه فيها قط! وهو لا يتكلم، ولو قال: إنه من أهلها لم يصدق، مع علمه أن أهله من عظماء المدينة، وأنهم سيأتونه إذا سمعوا، وقد تيقن أنه عشية أمس كان يعرف كثيرا من أهلها، وإنه الآن لا يعرف من أهلها أحدا، فبينما هو كالحيران ينتظر من يأتيه من أهله فيخلصه من أيديهم، إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رؤساء المدينة.

وكان للمدينة رئيسان يدبران أمرها، وكانا رجلين صالحين، اسم أحدهما أرموس، واسم الآخر اصطفوس، فلما انطلق به إليهما ظن تمليخا إنه إنما انطلقوا به إلى دقيانوس الجبار، الذى هرب منه الفتية، فجعل يلتفت يمينا وشمالا والناس يسخرون به كما يسخرون من المجنون والحيران، وهو يبكى ويتضرع الى مولاه بالخلاص، ثم تمثل بين يدى أرموس واصطفوس، فلما رأى تمليخا إنه لم يذهب به إلى دقيانوس أفاق فى نفسه، فأخذ أرموس واصطفيوس الورق فنظرا إليها وعجبا منها، ثم قال له أحدهما: أين الكنز الذى وجدته يا فتى؟ هذا الورق يشهد عليك إنك قد وجدت كنزا! فقال تمليخا: ما وجدت كنزا، ولكن هذا ورق آبائى من نقش هذه المدينة، ووالله ما أدري ما شأنى، ولا ماذا أقول لكم! فقال له أحدهما: من أنت؟ فقال له تلميخا: أنا من أهل هذه المدينة، فقال له: من أبوك؟ ومن يعرفك بها؟ فأنبأهم باسم أبيه، فلم يجد أحدا يعرفه ولا أباه، فقال له أحدهما: أنت رجل مفتر، لا تخبر بالحق، فنكس تلميخا رأسه إلى الأرض، فمنهم من يقول: هو رجل مجنون، ومنهم من يقول: هو يحمق نفسه كى يتخلص منكم، فنظر إليه نظرا شديدا، وقال له: أتظن أنا نرسلك ونصدقك فى قولك إن هذا مال أبيك، ونقش هذا الورق قديم، وأنت غلام شاب، تظن أنك تسخر بنا ونحن ولاة المدينة، وخزائنها بأيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار! فلا بد أن تعذب

عذابا شديدا، وتوثق حتى تقر بالكنز الذى وجدته! فقال تمليخا: انبؤنى عن شئ أسألكم عنه، فإن فعلتم صدقتكم ما عندى، فقالوا: سل، لا نكتمك شيئا. قال: ما فعل الملك دقيانوس؟ فقالوا: لانعرف اليوم على وجه الارض ملكا بهذا الاسم، وإنما كان وهلك من دهر طويل! فقال لهم تمليخا: فوالله ما يصدقنى أحد من الناس بما أقول! لقد كنا فتية الملك دقيانوس، وأكرهنا على عبادة الأوثان أو الذبح للطواغيت، فهربنا منه عشية أمس فى الكهف، فنمنا، فلما انتبهنا خرجت لأشترى لأصحابى طعاما وأتجسس لهم الأخبار، فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم اصحابى.

فلما سمع أرموس واصطفوس قوله قالا: يا قوم لعل هذه آيه من آيات الله، عز وجل، جعلها الله لكم على يدى هذا الفتى، فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه، فانطلق معه أرموس واصطفوس، وانطلق معهما أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم.

وكان لما رأى أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن الوقت الذى كان يأتيهم فيه، ظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس، الذى هربوا منه، فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وصهيل الخيل مصعدة نحوهم، فظنوا أنهم رسل دقيانوس، بعثهم إليهم ليأتوا بهم. فقاموا حين سمعوا ذلك وقالوا: انطلقوا بنا إلى أخينا تمليخا، فإنه الآن بين يدى الجبار دقيانوس ينتظر حتى نأتيه مع الرسل، فبينما هم يقولون ذلك، وهم جالسون بين ظهرانى الكهف، إذ وفد عليهم أرموس وأصحابه، ووقفوا على باب الكهف، وقد سبقهم تمليخا ليطمئنوا، فدخل عليهم وهو يبكى، فلما رأوه يبكي بكوا معه، ثم سألوه عن شأنه، فأخبرهم بخبرهم، وقص عليهم المسألة، فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياما بإذن الله تعالى ذلك الزمان كله، وإنما أوقظوا ليكونوا آيه للناس وتصديقها للبعث، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

ثم دخل على إثر تمليخا أرموس، فرأى تابوتا من نحاس مختوما بختم من فضة، فقام بباب الكهف ودعا رجالا من عظماء أهل المدينة، وفتح التابوت عندهم، فوجدوا فيه لوحين من الرصاص مكتوبا فيهما أسماء الفتية، وأنهم هربوا

من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم، فدخلوا فى هذا الكهف، وأن دقيانوس لما أخبر بمكانهم أمر بسد الكهف عليهم بالحجارة، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر عليهم.

فلما قرأوه عجبوا، وحمدوا الله، عزوجل، الذى أراهم آية البعث فيهم، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه، ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا بين ظهرانيه، ووجوههم مشرقة، ولم تبل ثيابهم، فخر أرموس وأصحابه سجدا لله تعالى الذى أراهم آية من آياته، ثم أنبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس الجبار، فبعث أرموس وأصحابه بريدا إلى ملكهم تاودسيوس: «أن عجل بالحضور لعلك تنظر إلى آية من آيات الله تعالى، جعلها الله آية على ملكك، وجعلها آية للعالمين، ليكون ذلك تنويرا للبصائر فى التصديق بالبعث. فعجل للنظر إلى فتية بعثهم الله تعالى، وكان قد توفّاهم منذ دهر طويل».

فلما أتى الملك الخبر قام من الشدة التى كان عليها ورجع إليه عقله، وذهب عنه غمه، ورجع إلى الله تعالى، وحمده إذا تطول عليه[1]، ولم يطفئ النور الذى جعله لآبائه ولجده العبد الصالح قسطنطين، الذى نصر دين عيسى بن مريم عليه السلام.

فلما علم به أهل المدينة ركبوا إليه وصاروا معه حتى صعدوا نحو الكهف وأتوه، فلما رأى الفتية تاودوسيوس قدامهم، ثم اعتنقهم، وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله تعالى ويحمدونه، ثم قال الفتية لتاودوسيوس: «نستودعك الله، ونقرئك السلام، حفظك الله ومد ملكك، و نعيذك بالله من شر الجن والإنس». فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم، فناموا، وتوفى الله أرواحهم.

فواعجبا كيف يعصى الإلـــــــه أم كيف يجحده الجاحـــد

وفـــى كل شـــىء له آية تـــدل على أنه الواحـــد[2]

---

(١) تطول عليه أى: امتن عليه.

(٢) فى الأصل واحد.

فقام الملك وجعل ثيابه عليهم، وأمر أن يجعل لكل واحد تابوت من ذهب، فلما أمسى ونام أتوه فى المنام، وقالوا: إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة، ولكن خلقنا من التراب وإلى التراب نصير، فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله، فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه، وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يطلع عليهم، وأمر الملك أن يجعل على باب الكهف مسجد(*) يصلى فيه، وجعل لهم عيدا عظيما، وأمر أن يؤتى كل سنة.

وهذا حديث أصحاب الكهف من نومتهم الأولى فى أيام دقيانوس، وإيقاظهم فى أيام تاودوسيوس، التى هى مدة مائة وإحدى وسبعين سنة شمسية، ويضاف إليها زيادات هذه السنين على القمرية، وهو مقدار خمس سنين وثلثى سنة تبلغ مائه وستة وسبعين سنة إلا نحو ثلث سنة، وهى عدة السنين المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ **فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا** ﴾ (الكهف: ١١) فهذه المدة عند المؤرخين محصورة فى المسافة التى بين زمن حكم القيصرين المتقدمين وهما دقيانوس وتاودوسيوس، وأما قوله تعالى: ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا** ﴾ (الكهف: ٢٥) هو والله أعلم، كما ذهب إليه بعد المفسرين من قول أحد الحزبين المشار إليهما فى قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا** ﴾ (الكهف: ١٢) حيث اختلف الحزبان فى عدد السنين، رجما بالغيب، ويؤيده قوله تعالى ﴿ **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾ (الكهف: ٢٦)، فبهذا يكون الجمع بين نص الآية وكلام المؤرخين القائلين بأن هؤلاء الفتية ناموا وقاموا بين حكومة القيصرين المذكورين، وإلا لم تكن مطابقة بين الآية القرآنية والوقائع التاريخية المتواترة ما لم نذهب إلى قول بعض من قال إن حادثة أهل الكهف كانت قبل عيسى، عليه السلام، فيصح أن تكون مدتهم ثلاث مئة سنين وتسع سنين، ويكون قوله تعالى: ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا**

(*) المقصود بالمسجد هنا مصلى الجماعة. (الشروق).

تسعًا ﴾ ليس حكاية عن قول أحد الحزبين، كما ذهب إليه بعض آخر من المفسرين، بل عن قوله تعالى، أو حكاية عن أحد الحزبين النصيب فى قوله، والقول الأول أرجح لموافقته لما اعتمده التاريخ والمفسرون من كون واقعتهم كانت بعد ظهور عيسى عليه السلام، وأنها بين القيصرين المذكورين.

ثم إنه يفهم من كلام المفسرين لهذه الآيات أن الرجل الصالح تاودسيوس، الذى هو طيودوسيس الثانى، حكم ثمانين سنة، وقد أجمع المؤرخون على أن مدة حكمه لم تكن أكثر من اثنتين وأربعين سنة، فالظاهر أنه اشتبه على بعض أهل السير، الذين نقل عنهم المفسرون هذا القول أن تاودسيوس هو واحد، وهو الأكبر، وامتدت مدته إلى المدة التى مات فيها حفيده المسمى باسمه، ودخل فى هذه المدة أيضا مدة أرقاديوس ابن الأول وأبى الثانى، فجعلوا المدد الثلاث مدّة واحدة للاشتراك اللفظى فى الاسم، على أن المدد الثلاث لم تبلغ الثمانين سنة بل هى عبارة عن اثنتين وسبعين سنة، كما يعلم من مراجعة مدة حكم كل واحد منهم فى فصله، والآن فطيودوسيس الثانى تولى القيصرية فى سنة ٢١٤ قبل الهجرة، وحكم إلى سنة ١٧٢ قبل الهجرة[١]، واشتهر صيته بقومة أهل الكهف بزمانه، فكأن لسان الحال أنشده، بعد أن قواه معتقد البعث وشيده، قول القائل:

فعش مادمت فى الدنيا وادرك ... بها ما رمت من صيت وصوت

فخيط العيش موصول بقطع ... وحبل العمر معقود بموت

وتولت بعده القيصرة بولشيرية وزوجها مرقيانوس..

---

(١) أى سنة ٤٥٠ م.

الفصل الثالث

فى الملكة بولشيرية القيصر، وزوجها مرقيانوس قيصر[1]

تولت هذه الملكة القيصرية فى سنة ١٧٢ قبل الهجرة، ثم تزوجت بمرقيانوس وأشركته معها فى المملكة إلى سنة ١٦٩ قبل الهجرة، فكانت أحكام هذه الملكة منفردة ومتحدة مع مرقيانوس ثلاث سنين، ثم انفرد مرقيانوس بالملك سنة ١٦٩ قبل الهجرة وبقى حكمه إلى سنة١٦٥ قبل الهجرة، فكانت مده حكمه وحكم زوجته نحو سبع سنين.

من المعلوم أن دولة القسطنطينية كانت انحطت عن مقامها، وتنازلت عن قدرها فى أيام طيودسيوس، أخى هذه الملكة، وكانت الحال مقتضيا لرفع شأن الدولة الرومانية، وتقوية شوكتها بعد أيام هذه القيصرة، وهذا يستدعى الثبات والشجاعة، فاقتضى نظر وجوه القسطنطينية والجنود الرومية ومجلس الأحكام وكافة الرعية أن يضعوا على سرير الملك بولشيرية، أخت القيصر، فبايعوها على القيصرية، فكانت أول أنثى جلست على سرير الروميين، الذى كان لا يجلس عليه إلا فحول الرجال، ولى فى هذا المعنى مقتبسا:

عجز ملوك الروم عن مطلبهم ... نأى به عن العـــلى مسلكهم
دولتهـــم تقاعســـت رجالها ... إنى رأيت امـــرأة تملكهـــم

---

(١) هى القيصرة مارشيان(بولشيريا، ابنة تيودسيوس الأول)، حكمت منفردة من سنة ٤٥٠ حتى سنة ٤٥٣ م، وبعد أن تزوجت انفرد زوجها بالحكم من سنة ٤٥٣ حتى سنة ٤٥٧ م.

فشرعت هذه القيصرة فى مبدأ حكمها تنتقم من أعداء الدولة، أرباب الجسارة، وكان هذا الانتقام من عين العدل والإنصاف، حيث أجرت عقابهم على موجب الأصول والقوانين، فضربت عنق خروساف على باب الديوان القيصرى، بدون إقامة دعوى ولا تحقيق قضية، فكانت جسارتها إلى هذا الحد، وتبصرها بالأمور سببا لانطباع هيبتها فى قلوب الأهالى، لنفوذ كلمتها فى الحكومة، إذ توسم فيها جميع الناس أنها أهل لذلك.

ولكن لما كان حكم الأنثى عند الروم على خلاف الأصول والعوائد، وكانت تخشى هذه الملكة إنه ربما يترتب على حكمها فى الرجال اشمئزاز النفوس وتشويش الخواطر وإثارة الفتن والشرور، لم ترض تعرض نفسها للاستمرار على ذلك، فتزوجت بأحد أكابر المجلس وأكثرهم احتراما ووقارا، وهو مرقياوس، وكان عمره إذ ذاك ستين سنة، وألبسته الحلة القيصرية، وعاهدته على أن يحترم دائما ناموس نفوذها، وأن لا يضيع حقوقها الاشتراكية فى الإدارة والتدبير، وأن يتجاوز لها عن حقوق المباضعة التى تقتضيها الزوجية، لأنها كانت نذرت أن لا تمكن أحدا من أن يفتضها، وأن تترهب مدة عمرها! فعاهدها، على ذلك، ووعدها أن لا يمسها، ووفى بوعده، فهى أشبه ملكة ببلقيس سبأ، وأين بولشيرية من بلقيس؟ ولكن ، أين نساء ذلك الزمن المتوليات الملك من ملكات هذا الزمان المدبرات الممالك الواسعة، كملكة الإنكليز التى مملكتها من أجل ممالك الدنيا سياسة ورياسة، حتى إن بعض أهل السياسة من أهل هذا العصر يزعم أن الملكة أنثى، لكونها متسلطنة على قلوب الرجال حسا ومعنى، تكون مملكتها فى الغالب أعمر من ممالك الرجال التى يتسلطن على قلوبهم نساؤهم! ولكن رهبانية بولشيرية لم تجعلها فى القوة كملكات الدول الأخيرة، وإنما تجعلها أرقى رتبة من أمثال كلوبترة ملكة مصر.

وكان لها أختان، وهما مرينة، وأرقادية، فكانتا مثلها فى الرهبانية السابقة، فهؤلاء الأخوات الثلاث العذارى كتبن صورة هذا النذر على لوح مصفح بالجواهر وبعثن به إلى كنيسة أيا صوفية كأنه قربان للعذراء، وكن لا يحضرن بمجلس الرجال أبدا، ما عدا الحضور بمجلس القسيسين، وكان قصرهن أشبه بالدير، وديوانهن عبارة عن معبد المترهبات.

ثم لما تولى مرقيانوس أجرى الإدارة كما تشتهى بولشيرية من الثبات والعقل وحسن السلوك، وأصل هذا القيصر أنه كان ولد فى روم إيلى، وكان من عائلة فقيرة، ثم مكث تسع عشرة سنة مستخدما، ثم صار عسكريا تحت قواد الجيوش فامتاز فى حرب الرومانيين مع الفرس وفى حرب إفريقية، ففاق الأقران، وحاز الاعتبار، وكان متواضعا، فخلا من الأعداء، ولم يحقد عليه أحد، فلما تولى القيصرية رتب من القوانين ما انمحى به الظلم والطغيان، والجور والعدوان، فتطول[1] برفع التعدى طالما أضر الروم على طول الأزمان، وتواضع لرعاياه كما تكبر على عداه.

ولما طلب منه آطيلا، مع الكبرياء والعظمة، أن يرفع الخراج المقرر الذى كان يدفعه طيودسيوس أجابه بما نصه:

«قد انجلى الزمن الذى كانت تنتهك فيه حرمة المملكة الرومانية، وخلا الدهر الذى كان يخل بنواميس الدولة القيصرية، وأما فى عهدى هذا فلا أعطى شيئا إلا بالطوع والاختيار، بوصف الإمداد والإعانة والمساعدة على المحافظة والصيانة، مما يلزم للملوك المتعاهدين معى الخادمين لحكومتى بالصداقة، وليس عندى لغيرهم ممن يهددنى من الأعداء جواب إلا إرسالى عليهم جنودا من الصناديد، قلوبهم كالجلاميد، وأجسامهم من حديد».

ثم بعث السفراء إلى آطيلا ليشافهوه بمثل هذا الكلام، فاغتاظت[2] قبائل الهونية، وأقسموا على هلاك الدولة الرومانية، ومحو اسمها ورسمها من صحيفة الدنيا حتى لا تبقى منهم باقية، فكتب آطيلا لكل من قيصرى القسطنطينية ورومة ما نصه:

«قد أمرك آطيلا، مولاك وسيدك، بتجهيز قصرك لتتلقاه فيه، فهو حاضر عن قريب ليأمرك بما تقتضيه المصلحة».

«ولكن لما تيقن آطيلا أن قيصر القسطنطينية مستعد لقتاله، ومتعين لجلاده وجداله، خاف من بسالته وشجاعة رجاله، (و) بقى الصلح معه على ما هو عليه.

---

(١) أى امتن.

(٢) فى الأصل: فاغتاظ.

ويسهل وصل الحبل بعد انقطاعه ولكنه يبقى به عقد الربط

وصمم أن لا يغير على دولة المشرق إلاّ بعد الاستيلاء على مملكة المغرب فسار صوب المغرب، وتبعه كثير من ملوك الأمم المتبربرة وأمرائهم ورؤسائهم يقصد حرب رومة وجرمانيا، ووقف صفه وصف أخصامه للمصاف بعد حروب مستمرة فى ميدان شالون بفرانسا، وبعد الاستراحة بعض ساعات، وكان آطيلا عليه الهيبة الكاملة، فلا تستطيع أن تنظر إليه أعين الملوك المتعاهدين معه، فخرج من محله لتفتيش جنوده، وكان رؤساؤهم مختلفى الجنس، فخطبهم بقوله: "لاتخافوا شيئا، فإني رئيسكم وقائدكم، وصنم الحرب حاميكم وناصركم، وقد تعودت النصرة فيما مضى، فلا أحرم النصرة فيما بقى. . »

شدوا أياديكم وانضوا سلاحكمو وشمروا إنها أيام من غلبا

وأيضا قد كفل لكم النصر والتأييد جبن الروميين وفتور همتهم، فهزيمتهم لدينا محققة.

إن اختفى ما فى الزمان الآتى فقس على الماضى من الأوقات

فمن من الأعداء يصادمنا فى حومة الميدان، ويطاردنا فى حلبة الرهان، فإن كانت الخشية من طائفة الإفرنجة فبينهم الشقاق والاختلاف واقع، وكل فريق منهم للفريق الآخر منازع.

وتشتت الأعداء فى آرائهم سبب لجمع خواطر الأحباب

فأكثرهم عما قريب ينتظم فى سلك جنودنا، ويدخل تحت ظل أعلامنا وبنودنا، وإن خشيتم الغوطية والبرغونية، فإن شوكتهم ضعيفة لا قوية، فطالما هربوا خوفا من جيشنا عند الالتحام، وكثيرا ما كرهوا فى حروبنا الدخول معنا فى الميدان والاقتحام، وقال لسان حال جمعهم عند تولى الأدبار:

لئن كانت يدى فى الحرب شلا فرجلى فى الهزيمة غير عرجا

فإن قلتم: إنهم نزلوا هنا مصممين على النزال، فليس الأمر كذلك، بل نزولهم

لمحض الاستراحة من التعب، وليس لهم باطن الأمر قصد فى الحرب ولا أرب، فقد اضطربت فيهم نيران الفتن، وظهرت بينهم الإطلالات والمحن، ولم يبادروا بإطفاء ذلك، ولا عولوا على ما هنالك.

والشر كالنار يبدو حين تقدحه ... شراره فإذا بادرته خمدا

وإن توانيت عن إطفائه كسلا ... أورى فتايل تشوى القلب والكبدا

فلو تجمع أهل الأرض كلهم ... لما أفادوه فى إطفائه أبدا

فسيروا على أعدائكم ثقة بالنصر والظفر، واعتماد على التأييد ولا مفر، فليس فوق قوتكم قوة بشرية، ولا يقدر على غلبتكم إلا القدرة الإلهية، فلا يستطيع خصمكم الخلاص مما قدره المولى وقضاه، فهو الذى يهلك الجبان الذى يتولى مدبرا، أو يحب الدعة أو يكون فى الجيش متأخرا، أو يختار الصلح على القتال، ويؤثر السلم على النزال، فالرب ينجى الشجاع المقتحم لعقبات الحرب من المهالك، ويسلك به أحسن المسالك، وقد أنطقنى من أنطق كل شىء بكلمة واحدة وهى: أن أطعن العدو برمحى قبلكم، وأقتل الجبان شر قتلة إذا كان من قبلكم».

فعند فراغه من المقالة، التى هى من قبيل التشجيع لا محالة.

إن لم تحارب يا جبان فشجع

التحم الصفان، والتقى الجمعان، وهجم أخصام الهونية على الهونية من كل جانب، فأذاقوهم عذاب الهون، وصبوا عليهم صيب المصائب، ومزّقوهم كل ممزق، فما تجمع منهم تفرق، فصار آطيلا يزأر كالأسد الكاسر، ويأمر جنوده بالحمل على العدو المتكاثر، وتقول طائفته كلما أظهر الزعامة:

أسد علىَّ وفى الحروب نعامة

فلا يجيبوه عن زئيره إلا بالعصيان، ولم تكن خطابته إلا كالواعظ فى فلاة، كأن لم تصغ لها الأذنان..

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

أو لسوء حظه لم يساعده الزمان، على نتاج ما غرسه فى غير أوان.

وأعظم شىء فى الوجود تمنعا نتاج مرام من عقيم زمان

وهذه أول مرة حرم الطاعة من هؤلاء الجماعة، حيث ولوا مدبرين، والتجأوا إلى الاحتماء خلف عرباتهم كما هى عادتهم خائفين، وفكان عدد من قتل فى هذه الواقعة فى ميدان الحرب من الطرفين مائة وخمسين ألفا فأكثر، وعاد الهونية من حيث أتوا يقتلون ويأسرون ويقتلون الأسرى صغارا وكبارا ذكورا وإناثا، ويميلون فى السلب والقتل كل الميل، حتى لقد قتلوا من النساء مائة صبية تحت سنابك الخيل، وهذا كله جهة فرانسا وما جاورها من الأقاليم.

ولم تضعف هذه الهزيمة عزم آطيلا، بل قصد حرب إيطاليا واجتاز الألب، واستعمل آلات الحرب، كالمنجنيق، وكانت هذه أول مرة أغار فيها الهونية على إيطاليا بقصد هلاك الرومانيين، وكان قيصر رومة إذ ذاك ضعيف الشوكة والبأس، لفتور همة الرومانيين وخمولهم بعد الغزو وعقب لبسهم من البهجة أحسن لباس، فصاروا لا يستطيعون أن يقاتلوا الهونية بدون استعانة بجنود أجنبية، فاستغاثوا بجنود الغوطة، وجمكوها[1]، وكان عليها الملك الريق الغوطى وغيره، فبهذا الاتحاد قويت الجنود الرومية، فحصلت المهاجمة والمدافعة بغاية الهمة من الطرفين، ولا زال الحرب سجالا ثلاثة أشهر، لم يحصل منها للهونية أدنى ثمرة، حتى طلب عسكرهم من ملكهم رفع الحصار، وتخلية هذه الديار، إذ لم يكن نصيبهم منها غير الهزيمة، ولم تنفعهم همة ولا عزيمة، ولا اغتنموا أدنى غنيمة، فبينما هم مصممون على هذه النية، لليأس من بلوغ الأمنية، إذ منح ببال ملكهم مخيلة وهبية، ووسيلة إلهبية..

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقالة لهبى إذا الطير مرت

---

(١) أى أجروا عليها الرواتب والمخصصات المنتظمة.

حيث لمح طائرا أهليا يحوم على أبراج المدينة ويبعد عنها ثم يعود، كأن ذاته بها رهينة، فقال لجنوده: «إن طيران هذا الطير هو فأل السعادة والخير، يبشرنا بقرب النصرة والنجاح، ويعدنا باليمن كلما خرج من بيته صفق بالجناح، فكأنه قد ألهم أن هذه البلاد قريبة الدمار، ولا تمكث زمنا طويلا على العمار»، فصدق الجند مقاله، واعتقدوا بيمن الطائر وفاله، وقوى عزمهم وهجموا على مدينة أكيلة، وكان الملك محصورا بها، فأخذوها عنوة، ونهبوا وسلبوا وأسروا أهل المدينة وحرقوها، فسهل بذلك على آطيلا الأمر، فصار يتغلب على جميع مدن إيطاليا بالقوة والقهر، حتى وصل إلى مدينة ميلان، فألقت إليه مقاليدها، فوجد فيها لوحا منقوشا عليه صورة القيصر على سريره وأمامه ملوك التتار يسجدون له، فحرق هذه الصورة، ووضع بدلها صورته على كرسيه حين يستقبل تلقى تشريفات القيصرين حين دفعهم إليه الجزية المقررة التى أداؤها من العين[1] فرض عين.

ولم تكتف الهونية ومن صحبها من القبائل المتبربرة بالسلب والنهب والقتل، بل أهلكوا الحرث والنسل، وخربوا الديار، وقطعوا الأشجار، وأحرقوا القرى والأمصار، وكان ملكهم آطيلا بما فيه من العناد، يغريهم على العتو والفساد، ويقول: «لاينبت الزرع فى مكان وضع فيه جوادى قدمه!» فكان أهل إيطاليا يهاجرون من بلادهم فرقا من المتبربرين، وخشية على أنفسهم من الخشنيين، حتى أن أهل البنادقة هاجروا من إقليمهم إلى جزائر خليجهم، وقد قال فى حقهم بعض الغوطية: إن البندقيين كدجاج الماء، يبنون أوكارهم فى لجة البحر، ولذلك تأسست مدينة البندقية المسماة ونديق من مهاجرة أهلها من الأرض القارة إلى جزائر بحر البنادقة، وبنوا مساكنهم على سدود وقناطر، وعمروا البحر بالمدائن والعمائر، واجتمع عليهم من ألجأته الضرورة والحاجة إلى اللحاق بينهم، وتجددت فى بلادهم الجديدة الصناعة والزراعة، وتألفت حكومة بلادهم من جمهورية مركبة من عشرين جزيرة متحدة، وكل جزيرة محكومة بحاكم، ثم قويت تلك الجمهورية، وصارت غنية مثرية.

---

(١) أى من الذهب.

ثم بعد انتصار الهونية هذه النصرة المؤزرة، انتهى الحال أن بعث قيصر رومة إلى آطيلا سفراء يلتمس منه الصلح فأجابه إلى ذلك، فانعقد الصلح، وكان من شروطه أن يتزوج آطيلا ببنت من بنات قيصر رومة، تسمى الأميرة هونورية، وكان قد سبق له خطبتها من أبيها، ورده، فتزوجها فى هذه الدفعة، حيث أجيب بالقبول على الوجه الأتم، وما علم أن السم فى الدسم، فكانت سبب موته، لأنه أجرى لها مراسيم الفرح العظيم فى يوم وليلة، وأكثر فيه من الشراب، فلم يزل يشرب حتى سكر، ثم ذهب معها إلى محل فراشه، وكانت تبغضه وتنفر منه، ففى صباح ليلة البناء بها تعجب الجند لما وجدوا ملكهم لم يخرج حسب العادة، قد دخلوا خيمته فوجدوه مضرجا بدمائه، فقالت عشيرته إنه مات بداء السكتة، وقال الروميون إنه مات قتيلا.

وكان الظاهر من دولته، لو بقيت، أن تكون فى الرونق والعظم كدولة الإسكندر الأكبر، وإنما كانت مثلها فى الانقراض المترتب على مقاسمتها بين أولاده وامرأته، فبالفشل الذى وقع بين أولاد آطيلا وامرأته ضاع ملكه، وبموته أطمأنت دولة الروم بالمشرق والمغرب، بل كانت دولة المشرق قد أمنت من شره بمجرد ما صرف همته على حرب المغرب، ولم تخش صولته بعناية مرقيانوس القوى الجأش، الشديد البأس.

وبالجملة، فقد كانت دولة القسطنطينية، فى أيام مرقيانوس، فى غاية الأمن والراحة، كما كانت ملة عيسى، عليه السلام، منصورة مؤيدة فى أيامه، وقد سبق أن موته كان فى سنة ١٦٥ قبل الهجرة، بعد موت زوجته بولشيرية بثلاث سنوات، وهو آخر قياصرة عائلة المشرق الأولى، التى أولها أرقاديوس، وقد تولى بعده مرقيانوس ليون الأول الروم إيلى.

الفصل الرابع

فى الملك ليون قيصر الأكبر، ويسمى الأقدم[1]

تولى هذا القيصر المملكة سنة ١٦٥ ، وبقى حكمة إلى سنة ١٥١ ، فكانت مدة حكمة أربع عشرة سنة .

نشأ هذا القيصر ببلاد روم إيلى ، وتولى القيصرية بعد مرقيانوس ، بانتخاب البطريق الأمير إسبار الغوطى ، الذى كان فى خدمة الروميين ومن قوادهم ، وكان معدودا من أماجد الروم وأبطالهم ، وكان رئيس الأساقفة نافذ الكلمة ، فلما حكم هذا القيصر أعاد الصلح للروميين مع أمراء القوطة المشرقية المتبربرة ، إكراما لبطرقهم فى نظير معروفه .

واستوثق على دوام الصلح معهم بأخذ طيودوريق بن طيودومير أحد ملوكهم رهنا فى القسطنطينية ، وأدخلهم تحت الطاعة ، وكان عمر طيودوريق إذ ذلك ثمان سنوات ، ولم يفك أسره إلا فى زمن القيصر زينون ، الآتى ذكره قريبا ، وقد حارب القيصر ليون أيضا طائفة الوندال ، أصول الاندلسيين ، وفى هذا الحرب عهم ثبتت لديه خيانة الأمير إسبار البطريق فقتله مع جميع عائلته ، ولم يراع ما سبق له من الخدم الرومية ، ولم ينظر إلى ما صنعه معه من الجميل حيث قلده المملكة ونصره على أعدائه ، ومن أمثلة العرب : «العذر يصلح فى كثير من المواطن ، ولا عذر لغادر ولا خائن ! » . .

---

(١) هو القيصر ليو الأول ، حكم من سنة ٤٥٧ حتى ٤٧٤ م .

أخلق بمن رضى الخيانة شـيمة ... أن لا يـرى إلاّ صـريع حوادث

ما زالت الآراء تلحـق بؤسهـا ... أبـدا بغــادر ذمــة أو ناكث

وقد مات ليون الأول فى سنة ١٥١ قبل الهجرة، وخلفه ليون الثانى، بعد أن حكم أربع عشرة سنة.

الفصل الخامس

فى الملك ليون قيصر الثانى الملقب بالسلوقى[1]

وتولى المملكة فى سنة ١٥١، وحكم عشرة أشهر . .

هذا القيصر هو سبطليون الأكبر، السالف الذكر، وابن زينون السلوقى، نسبته إلى سلوقية ببلاد أناطولى، كان رئيس المحافظين بولاية من ولايات أناطولى كان أشركه جده لأمه معه فى القيصرية مدة حياته، ثم خلف جده بعده، وكان عمره إذ ذلك أربع سنين، فكفله أبوه زينون، وكان يحكم بالنيابة عنه، فلما مات ليون الثانى فى حياة أبيه انتقلت المملكة إلى أبيه بالوراثة عن ابنه، ضد المعتاد فى الممالك.

فقد يسمو بطيب الفرع طيب العنصر

وبعضهم يسقط من القياصرة ملك هذا الصغير، إذ ليس فى العير ولا فى النفير . .

قل لمن يدعى الفضيلة منهم   لست فى العير ولا فى النفير

فيجعل جميع مدة التولية لأبيه زينون، وصار قيصرا أصيلا .

(١)هو القيصر ليو الثانى، حكم فى سنة ٤٧٤ م.

الفصل السادس

فى الملك زينون قيصر[1]، والملك باسيلقوس قيصر

تولى القيصر زينون المملكة مرتين، فكانت الأولى من أواخر سنة ١٥١ قبل الهجرة، والمرة الثانية فى سنة ١٤٩[2]، وبقى إلى سنة ١٣١ قبل الهجرة، وأيام الفترة كانت لباسيلقوس، فكانت مدتهما عشرين سنة، منها سنتان لباسيلقوس وحده.

وقد كان هذا القيصر فى بادئة أمره رئيس المحافظين فى إقليم إسوريا فى بلاد أناطلى، وقد تشرف بمصاهرته ليون الأكبر، حيث تزوج بنته، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فلما مات ليون الأكبر، وانتقلت القيصرية بالوراثة إلى ليون ابنه وسبط ليون الأكبر ولى المملكة بالكفالة عن ابنه، ولما مات ابنه فى حياته بعد عشرة أشهر، وكان لليون الأكبر زوجة تأيمت عنه طردت زينون من سرير الملك بعد توليته، عقب فتنة عظيمة وقعت فى سنة ١٤٧ وكانت هذه السنة آخر الحكومة الأولى، فهرب من القسطنطينية وعاد إلى وطنه بأناطلى، ثم عاد بعد سنتين إلى القسطنطينية وتقلد القيصرية، وهذه هى التولية الثانية فى سنة ١٤٩ قبل الهجرة، وكانت هذه الولاية بعناية محافظى إقليم إيسوريا، وكان فى أثناء الفترة بين الحكومة الأولى والثانية قد قلد أرباب الفتنة القيصرية لباسيلقوس الخارجى، إذ كان زينون ليس أهلا لحماية

---

(١) هو القيصر زينو، امتد حكمه من سنة ٤٧٤ حتى سنة ٤٩١ م، تخللتها فترة حكم باسيلقوس.
(٢) فى الأصل: ١٤٥.

الدولة ولا لتدبيرها، وإنما كان ناصرا لدين النصرانية، فإن زينون قيصر هو الذى أثبت وحدة الأمانة النصرانية[1]، لإصداره أمرا يسمى جمع القاثوليقية واتحادهم، ومع ذلك فلم ينشأ عن هذا إلاّ الاختلاف فى الدين وكثرة الفتن والمحن، ثم إن هذا القيصر قد توصل إلى إسكاتها، وانتصر على أعدائه المرار العديدة نصرا مؤثلا، إلا أنه أعقب ذلك بارتكاب الظلم والجور ومجاوزة الحدود فى الطغيان، وكان قد أعان الغوطية على الظفر وعلى رجوعه قيصرا كما كان، فلم يقابلهم فى نظر صنع الجميل إلا بحربهم الحرب الوبيل، كما قهر أصحاب الفتن من أمرائه بالانتصار عليهم، فبعد أن تمت له الأمور بالنصرة انهمك على اللذات والشهوات والفسق والعصيان، زيادة على العسف والجور، فصار مبغوضا عند كافة الأهالى، وكان عاقبة أمره أنه دفن حيا حالة سكره، بموالسة زوجته، وذلك فى سنة ١٣١ قبل الهجرة، حتى صار ينطبق عليه ما قيل فى وصف بعض الظلمة المتعسفين من قول الواصف: «والله ما الذئب فى الغنم، بالقياس إليه، الا من المصلحين، ولا السوس فى الصوف، زمن الصيف، إلا من العادلين، ولا يزدجرد الأثيم فى أهل فارس، بالإضافة إليه، إلا من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا فرعون فى بنى إسرائيل، إذا قابلته به، إلا من الملائكة المقربين»!

وبالجملة، فهذا الشيطان المريد سلك على سرير الروم نظير ما سلكه فيما بعد على سرير الخلافة الوليد بن يزيد[2]، فقد كان فيما يحكى عنه ماجنا زنديقا، مستهزئا مستخفا، مستهينا بالخاصة والعامة مدمنا للخمر متلاهيا باللهو واللعب، مصرا على ارتكاب الفواحش، مشتغلا بخلاعته عن النظر فى أمور الخلافة و القيام بحقوقها وأحوال الرعية . .

مضى الخلفاء بالأمر الحميد	**وأصبحت المذمة للوليد**
تشاغل عن رعيته بلهو	**وخالف قول ذى الرأى السديد**

(١) المراد قانون الإيمان ووثيقته.

(٢) هو الخليفة الأموى الوليد بن يزيد بن عبد الملك(٧٠٧-٧٤٤ م) سقط عن عرشه بثورة قادها المعتزلة ضده ونصبوا فيها يزيد بن الوليد.

وبلغ من تهكم الوليد للشريعة أن قال فى شعره:

يا أيهـا السـائل عن ديننـا نحـن عـلى دين أبى شـاكر

نشـربها صـرفا وممزوجـة بالسـخن والبـارد والفـاتر

وبالجملة، فمن طال عدوانه زال سلطانه، فبقتل هذا القيصر خلفه أنسطاش الأول على القيصرية.

الفصل السابع

فى الملك أنسطاش قيصر الأول[1]

تولى المملكة فى سنة ١٣١ ، وبقى حكمه إلى سنة ١٠٤ قبل الهجرة، فكانت مدة حكمه سبعا وعشرين سنة.

نشأ هذا القيصر بمدينة من مدن سواحل إيطاليا المسماة إيليريا، وكان من عائلة خاملة، وقبل تقليده بالمنصب القيصرى كان من جملة ضباط القصر الملوكى المنوطين بمناظرة عدم رفع الصوت والغوغاء، وتسكيت العامة وإلزامهم الصمت بالقصر الملوكى، فلذلك كان يقلب بالمسكت، ثم تزوج بالقيصرة إريانة، ، أم القيصر زينون فسعت فى ترقية للمسند القيصرى، وأمرت المجلس الرومانى بانتخابه، وكان فى مبدأ ولايته محترما لديانته وعدله، ثم سلك مسلك الجور والظلم والشح والبخل فصار مبغوضا وكان قبل التولية حاقدا على بطرقية أنطاكية، وكان يريد الهجوم عليها فصد عن ذلك بالولاية، فلما تمكن من القيصرية وجار اجتهد فى الإيقاع بالقاثوليقية لمساعدة الهراطقة مخالفيهم، فعزل مقدنيوس بطرق القاثوليقية.

وكان إذ ذاك قد عصى على هذا القيصر أمير من الأمراء يسمى ويطاليانوس، متعللا بالانتصار للقاثوليقية، وجمع الجموع، وأوقع الفتن، وآثار المحن، وحضر

---

(١) هو القيصر أنسطاسيوس، حكم من سنة ٤٩١ حتى سنة ٥١٨ م.

بمعسكره أمام القسطنطينيين ونصب نفسه محاميا عن المذهب القاثوليقى الذى تعرض له أنسطاش بالتعذيب، وفى الحقيقة كان غرض ويطاليانوس من ذلك إنما هو تطلب المملكة.

مات هذا القيصر فى سنة ١٠٤ قبل الهجرة، وتولى بعده يوسطنيوس، وقد أعقب هذه الفتن فى أيامه محو بعض مكوس وعوائد قبيحة، وأنواع من الظلم فظيعة، كبيع المناصب والرتب لمشتريها، ولكن من باب: مكره أخاك لابطل.

الفصل الثامن

فى الملك يوسطنيون قيصر الأكبر، ويسمى جوسطنيوس الأول[1]

وتولى هذا القيصر فى سنة ١٠٤ ، وبقى إلى سنة ٩٥ قبل الهجرة، فكانت مدة حكمة تسع سنين .

تقلد هذا القيصر حكومة المشرق بعد أنسطاش الأول، وهو أول الدولة المشرقية المسماة الجوسطيانوسية، وأصل مولده فى بلاد روم إيلى، وكان فى مبدأ أمره راعيا للماشية ثم انتظم فى الجند وارتقى المناصب السامية فى خدامة ليون الأكبر، ثم صعد على السرير القيصرى بالتحيل والخداع بعد موت أنسطاش، وسلك فى حكمه سبيل العدل والإنصاف، واسكن الفتن الدينية مؤقتا، ثم وقعت فى أيامه فتنة عظيمة بين فرقتين من النصارى، إحداهما تسمى الملة الخضراء، والأخرى الملة الزرقاء، فالناس من قديم الزمان ما بين قيسى ويمانى[2]، وهلالى وزناتى[3]، وسعد وحرام[4]، فى جميع البلاد! حتى إن مصر فى القرن الحادى عشر كانت الحكومة فيها منقسمة إلى رايتين راية الفقارية كانت بيضاء، وراية القاسمية[5] كانت

---

(١) هو القيصر جوستين الأول، حكم من سنة ٥١٨ حتى سنة٥٢٧ م .

(٢) قبائل وعصبيات عربية تجددت نعرتها فى العصر الأموى .

(٣) تعصب يبديه السامعون لحكايات وأقاصيص الرواة عندما يحكون بطولات وصراعات أبو زيد الهلالى والزناتى خليفة الأسطورية، وفى الأصل : زغبى، بدلا من زناتى .

(٤) قبائل عربية .

(٥) الفقارية ةالقاسمية عصبيات مملوكية .

حمراء! ومثل هذا الانقسام أقوى دليل على الشقاق والخصام، وعدم الالتئام منشأ الآلام!.

ولما كان هذا القيصر خسيس العشيرة، وليس من أهل الحسب والنسب، كان مكثه على الملك يستدعى قتل أرباب الفتن والشرور، لحسمها وراحته من أخصامه، وكان رأس الفتنة وبطاليانوس، فقتله القيصر حسما للفتنة.

ثم إن طوائف اللاظ كانوا يدفعون الخراج لكسرى فارس، وكان لقيصر الروم حق الاسترعاء عليهم، فكانت تطلب الروم انقياد اللاظ لهم، فسعت الروم فى ذلك، ودخلت طائفة اللاظ فى حكم القسطنطينية، فكان هذا سببا لانتقاض الصلح بين فارس والروم، وتصادف موت القيصر يوسطنيوس عقب ذلك، ودخول المملكة الرومية فى قبضة ابن أخيه يوسطنيانوس، فحارب الفرس، كما سيأتى، وكان موت يوسطنيوس فى سنة ٩٥ قبل الهجرة، وكان هذا القيصر أشرك فى المملكة معه ابن أخيه فى حياته فتولاها بعده.

الفصل التاسع

فى الملك يوسطنيانوس قيصر الأول[1]

تولى هذا القيصر المملكة فى سنة ٩٥ ، وبقى إلى سنة٥٧ قبل الهجرة ، فمدة حكمه ثمان وثلاثين سنة .

ولد هذا القيصر فى مدينة طرسيس ، واشتهرت مدة حكمه بعدة أشياء منها :

المجادلات الدينية التى ترتب عليها تمييز الأحزاب الخضراء والزرقاء ، بالغزوات التى غزاها قائداه بليسيرس والطواشى نرسيس مع قوطية إيطاليا ووندالية إفريقة ، كما اشتهرت سطوته بالانتصار على كسرى فارس ، وكما اشتهرت سياسته بترتيب الأحكام السياسية وتهذيب القوانين الملكية ، وقد اشتغل أيضا بإصلاح الأمور الدينية وتنقيح العقائد المسيحية ، وكان متعصبا فى دينه صاحب غيرة وحمية ، فكانت حميته أقوى من معارفه .

وقد تزوج بزوجة بديعة الجمال ، قليلة العفة والصيانة ، غير محرصة على صفات الكمال ، تسمى طيودورة ، فكانت لها على قلبه كمال السلطنة والولاء ، لايكاد يخالفها لاستيلائها على فوائده . .

واذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

فكانت سببا لتلويث أيام حكمه ، وتدنيس عهد ولايته ، والقدح فى وصفه ورسمه .

---

(١) هو القيصر جسنيان الأول ، حكم من سنة٥٢٧ حتى سنة٥٦٥ م .

وقد تحارب مع كسرى قباذ ملك الفرس، وكان منشأ ذلك أن كسرى قباذ أغار على الرومانيين وهم يبنون حصنا فى طريق مدينة دارا، قريبا منها، فبادر بليسيرس، نائب المشرق من طرف هذا القيصر، ليصون هذا الحصن، ويمانع عنه، ويخلصه من يد الفرس، ويدفعهم عنه، فدار الحرب بين الفرقين، فانتصر أمير الروم نصرة عظيمة على الفرس كانت سببا فى رفعة شأنه وعلو صيته، فبمجرد هزيمة أهل فارس وجه الفرس جندهم صوب أرمينية، وكانت منقسمة بين الروم والفرس، وقريبة من الشام، فصار الروم يخشون على بلاد الشأم من أهل فارس، فحول بليسيرس جنده صوب أنطاكية لقتالهم هناك، وقد حاصروا هذه المدينة، ولم ينتصر أمير الروم فى هذه الواقعة ولا ظهر على خصمه، إلا أنه أنقذ بلاد الشأم وقاعدتها التى هى أنطاكية من تغلب الفرس عليها، ولكن لم يزالوا محاصرين لها.

ثم بعث القيصر قائده سيطاس، بدلا عن بليسيرس، فلم يستطع أن يرفع الحصار عن تلك المدينة فى أيام قباذ المذكور.

مع أن قباذ بن فيروز المذكور كان ضعيفا مهينا عند الفرس لعدم استقامته دينا ودنيا، فإنه لما مات أبوه فيروز، بعد أن حكم سبعا وعشرين سنة، وخلف ابنيه قباذ وبلاش، تنازعا فى الملك، فغلب بلاش على أخيه، وكان حسن السيرة، إلى أن هلك بعد أربع سنين، وكان قباذ قد سار إلى خاقان الترك يستمده على أخيه، فمطله فى ذلك هذه المدة، ثم وجه معه جيشا، فلما قدم المدائن بالجيش وجد أخاه قد هلك، فتملك قباذ على فارس.

وفى أيامه ظهر مزدق[1] الزندق، ومعنى مزدق جديد الملك، وإليه تنسب المزدقية، ادعى النبوة، وأمر الناس بالتساوى فى الأموال، وأن يشتركوا فى النساء، لأنهم أخوة لأب وأم، آدم وحواء، ومذهبه قريب القرامطة[2] فى أيام الخلفاء، ومن

(١) قتله شارون بن قباذ.

(٢) تيار فكرى يسارى، فى الفكر الاجتماعى الإسلامى، وتبنته حركة سرية شيعية ظهرت فى القرن العاشر الميلادى، وكان فكرها تعبيرا عن المعارضة التقدمية للمظالم الاجتماعية التى سادت المجتمع الإقطاعى العربى على عهد العباسيين.

مذهب سنسمون[1] الجديد بفرانسا، القائل بمثل ما قال مزدق، إلا أنه يزيد عليه التحريض على تقديم المنافع العمومية من زراعة وصناعة وتجارة للبراعة الوطنية، فكل زمان عرضة لخروج أرباب الضلالات من شياطين الإنس، على اختلاف الجنس.

ولم يتبع سنسمون جمهور كثير من الفرنساوية، ولم ينل فى هذه الخرجة السخيفة مد[2] مزدق ولا نصيفه[3].

فإن مزدق بمجرد ظهوره فى فارس دخل قباذ فى دينه، فشق ذلك على الناس وعظم عليهم، وأجمعوا على خلع قباذ، وانضم إلى مزدق جماعة، وقالوا: نحن نقسم الناس ونرد على الفقراء حقوقهم من الأغنياء، فكانوا يدخلون على الرجل فيقتلونه على أمواله ونسائه، فوثب رجل من الأشراف، يعرف بابن ساجور، فى جماعة من أصحاب على مزدق فقتله، ولم تبق ناحية إلا خرج منه خارج يدعو الناس إلى مذهب مزدق، فذهب إلى الحيرة دعاة مزدق، وكان عليها المنذر بن ماء السماء، فلم يوافق على الدخول فى دين مزدق، فطرده قباذ وولى مكانه الحرث بن عمرو بن حجر الكندى، حيث وافقه على دين مزدق، فعظم شأن الحرث بذلك، فملك ابنه حجر على بنى أسد وبنى خزيمة، وملك باقى بنيه على سائر العرب، وامرؤ القيس، الشاعر المشهور، هو ابن حجر بن الحرث هذا.

ثم إن كسرى أنوشروان لما ولى ملك فارس أعاد المنذر ابن ماء السماء وطرد الحرث، وقتل بنو أسد وربيعة حجرا، أبا امرئ القيس، وزالت دولة الكنديين، وبقى منهم امرؤ القيس الشاعر يحاول أخذ ثأر أبيه والملك، فخلعوا قباذ وولوا مكانه أخاه جاماسب بن فيروز، ولحق قباذ بالهيطلة، وهم أهل البلاد التى بين خراسان وبين الترك، وهى بلاذ طخارستان، فأنجدوه، وانتصر على أخيه جاماسب وحبسه، واستمر قباذ فى الملك، وحارب الرومانيين وحاصر أنطاكية، وبقيت

(١) سان سيمون، لويس دى روفروى(١٦٧٥-١٧٥٥ م) أحد أعلام الاشتراكية الخيالية فى أوربا.

(٢) المد - بضم الميم - مكيال يساوى نحوا من ثمانية عشر ليترا إفرانجيا.

(٣) النصيف هو النصف من الشىء.

فى حصاره جنوده إلى أن قتله العرب فى مدينة الرى، وتولى بعده ابنه كسرى أنوشروان العادل فى نحو حدود سنة ٩٠ قبل الهجرة[١] ، فبتوليته على فارس تغيرت أحوال ديوان فارس بالمدائن .

وذلك أنه لما جلس على سرير الملك كان صغيرا، فقال لأصحابه : إنى عاهدت الله إن صار الملك إلىّ أن أعيد آل المنذر إلى الحيرة ثانيا، وأن أقتل طائفة المزدقية الذين أفسدوا فى أموال الناس ونسائهم، وكان خليفة المزادقة قائما إلى جانب السرير، فقال : هل نقتل الناس جميعا؟ هذا فساد فى الأرض، والله قد ولاك لتصلح لا تفسد! فذكر أنوشروان لخليفة المزادقة معايبه الفاضحة، وأمر بقتله، فقتل بين يديه، وأخرج، وأحرقت جثته، وأمر بقتل توابعه، فقتل منهم خلق كثير، وأثبت ملة المجوسية القديمة، وكتب بذلك إلى أصحاب الولايات، وقوى جنده بالأسلحة والكراع[٢]، وعمر البلاد، وقسم أموال الزنادقة على الفقراء، ورد الأموال التى لها أصحاب إلى أصحابها، وأجرى الأرزاق للضعيفات اللاتى مات عنهن أزواجهن، وأمر أن يزوجن من مال كسرى، وكذلك فعل بالبنات اللاتى لم يوجد لهن أب، وأما البنون الذين لم يوجد لهم أب فأضافهم إلى مماليكه، ورد المنذر إلى الحيرة، وطرد الحرث بن حجر، جد أمرئ القيس عنها، وكان الحرث مزدقيا فتسبب عن ذلك قتل حجر وزوال دولة الكنديين .

* * *

وما جرى لامرئ القيس بعد قتل أبيه كان فى عهد قوسطنيانوس الأول المذكور، وبيان قصة امرئ القيس : أن أباه حجرا كان قد طرده لما هوى ابنة عمه فاطمة، الملقبة بعنيزة، وكان له معها يوم بدارة جلجل، فقال معلقته التى أولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فلما بلغ ذلك حجرا أباه دعا مولى يقال له ربيعة فقال له : اقتل امرأ القيس واتنى

(١) أى سنة ٥٣٢ م .

(٢) دواب الحرب والقتال .

بعينه، فذبح جؤزرا وأتى بعينه إلى أبيه، فندم حجر على ذلك، فقال ربيعة: أبيت اللعن، إنى لم أقتله، قال: فأتنى به، فانطلق فإذا هو فى رأس جبل، وهو يقول:

فــلا تتـركنى يا ربيــع لهــــذه وكـــنت ترانــى قبلهـــا بــك واثقـا

فرده إلى ابيه، ثم قال قصيدته المشهورة التى مطلعها:

ألاعم صباحا أيها الطـــلل البـالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وهل يعمـــن إلا ســعيد مخــلد قليــل الهمــوم ما يبيت بأوجـــال

وفيها يقول:

ولو أن ما أســعى لأدنى معيشــة كفــانى ولــم أطلب قليـلا من المـال

ولكنمــا أســـعى لمجـد مؤثــل وقــد يـدرك المجـد المـؤثل أمثـالى

وكان أبوه قد نهاه عن قول الشعر والتغزل بما يفضح، فلما بلغه ذلك طرده، وبقى مطرودا حتى قتلت بنو أسد أباه، فبلغه قتل أبيه وهو بجبل دمون، فى أرض اليمن، وحزن عليه، وحلف لا يشرب خمرا ولا يغسل رأسه حتى يدرك بثأره، ثم إنه استنجد ببكر وتغلب على بنى أسد فأنجدوه، ثم هربت بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم، فوضع السلاح فى كنانة، وهم بنو عمهم، حيث لجأ إليهم بنو أسد، ونادى امرؤ القيس: يا لثارات الملك! فقالت له عجوز: لسنا لك بثأر، فاطلب ثأرك! فاستمر على وضع السلاح فى كنانة ففاتوه، وقيل أدركهم وقد تقطعت خيله، وكثرت القتلى والجرحى، وحجز الليل بينهم، وهربت بنو أسد، فأبت بكر وتغلب أن يتبعهم، وقالوا: قد أصبت ثأرك فقال: ما أصبت من كاهل ولا أسد أحدا ـ وكاهل من كنانة، هذا معنى قوله فى قصيدة بائية:

ألا يا لهــف هنــد إثـر قــوم هـم كانوا الشـفاء فـلم يصـابوا

يعنى بحق هند، أى أختـه، أن تتلهف على عدم إدراك بنى أسـد وأخـذ الثـأر منهم، وقوله من قصيدة أخرى:

والله لا يذهب سعى باطلا   حتى أبيد مالكا وكاهلا

ومالك وكاهل حيان من بنى أسد، وبعده:

خيرة معد حسبا ونائلا   القاتلين الملك الحلا حلا

والحلاحل السيد الشريف، وبعده:

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا   نحن جلبنا القرح القوافلا

والقرح هى الخيل[1]، والقوافل الضامرة منها.

ومع تخاذل بكر وتغلب عنه فقد طلبه المنذر بن ماء السماء، فتفرقت جموع امرئ القيس خوفا من المنذر.

ولما رأى ضعف أمره وطلب القوم له ذهب يستنصر قبائل العرب قبيلة قبيلة فلم ينصروه، وقصد السموأل بن عاديا، اليهودى، فأكرمه، وأقام عنده مدة، ثم صار إلى يوسطانيوس قيصر الروم، وأودع أدراعه عند السموأل، وأنشد فى مسيره قصيدته المشهورة التى منها:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له: لا تبك عينك إنما   نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس فى عوده من عند قيصر، فى بلاد الروم، عند جبل يقال له عسيب، بقرب مدينة أنقرة بالروم، وأنشد عندما أيقن بالموت بجانب قبر أخبر بدفن امرأة غريبة فيه:

أجارتنا إن الخطوب تنوب   وإنى مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا   وكل غريب للغريب نسيب

قيل إن قيصر سمه فى حلة مسمومة بالذهب[2]، وهو بعيد، وأبعد منه أن السبب اطلاع القيصر على عشقه لابنته ونظمه قصيدته التى مطلعها:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى

(١) وسميت الخيل بالقرح - ومفردها قارح - لأن القارح هو من شق نابه وطلع.

(٢) فى الأصل: مسمومة الزبق.

وقد سبق أنه قالها بعد اجتماعه بأبيه، ولعل من قال أنه أنشدها عند قيصر بنى ذلك على قوله فيها: «ولو إنما أسعى». . البيتين السالفين، ولا دلالة فيهما على ذلك، لاحتمال أنه بعد زوال ملك أبيه عن الحيرة كان يتطلب الملك ويسعى فى الحصول عليه، ولامعنى لذهاب ابن ملك من ملوك العرب إلى قيصر الروم لتطلب الملك والتشبث من القيصر بما يخذل جاره!.

فجاء الحرث بن أبى شمر الغسانى فى بعض غارته إلى الأبلق، وهو حصن السموأل بن عاديا، ليأخذ مال امرئ القيس المودع فى هذا الحصن، فتحصن السموأل منه، وكان له ابن يافع خرج إلى قنص له، فلما رجع أخذه الحرث، ثم قال لسموأل: أتعرف هذا؟ قال: نعم، هذا ابنى، فقال: أفتسلم ما قبلك لامرئ القيس، أو أقتله؟ قال: شأنك به فلست أخفر ذمتى، ولا أسلم مال جارى! فضرب وسط الغلام فقطعه قطعتين، وانصرف عنه! فقال السموأل فى ذلك:

وفيت بأدرع الكندى إنى ... إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوصى عاديا يوما بأذن لا ... تهدم يا سموأل ما بنيت

بنى لى عاديا حصنا حصينا ... وبئر كلما شئت استقيت

* * *

وقد قلنا: إن كسرى أنو شروان أعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة، ونقول إنه ملك بعده ابنه عمرو ومضرط الحجارة، ومن ولد ولده المنذر بن النعمان بن المنذر ابن ماء السماء، الذى أخذ الحيرة منه خالد بن الوليد. وكانت المناذرة إلى النصر ابن ربيعة عمالا للأكاسرة على عرب العراق، مثل ما كانت ملوك غسان عمالا للقياصرة على عرب الشأم.

وأصل غسان من بنى الإزد من ولد كهلان بن سبأ، تفرقوا من اليمن لسيل العرم، ونزلوا على ماء بالشأم يقال له غسان، فسموا به، وأخرجوا عربا كانت قبلهم من الشأم يقال لهم الضجاعمة، وكان ابتداء ملك غسان قبل الإسلام بما يزيد على أربعمائة سنة فى نحو أيام الملك الإسكندر سويرس قيصر الثانى. وأول من

ملك منهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة، من ولد مزيقا، ودانت له قضاعة، وتنقل الملك فى أبنائه، وآخرهم جبلة بن الأيهم، الذى تنصر فى زمن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بعد إسلامه على يده، ولحق بقيصر الروم، ويقال هو جد الأرنؤود، الجيل المعروف بالروم، لأنه لما ارتد وهرب لحق بقيصر فتشعب أولاده، وهم الذين يسمونهم بالأرنؤود ببلاد الروم، وقيل بعض منهم ذهب إلى جبال قوقاسة، وهى جبال الجركس، حين فتح القسطنطينية بالإسلام.

* * *

ثم سار أنوشروان إلى الهياطلة مطالبا بدم فيروز، فقتل ملكهم وخلقا كثيرا من أصحابه، وتجاوز بلخ وما وراءها، وأرسل جيشا إلى اليمن فطردوا الحبشة عنها.

وفى مبدأ توليته التمس منه يوسطنياس الأول، قيصر القسطنطينية، رفع الحصار عن أنطاكية، وعقد الصلح بين فارس والروم، وكان كسرى مشغولا بأمور ملكه الداخلية، فرضى بالصلح، وعقد مع قيصر شروط المحبة الدائمة والسلم المستمر، وفى الحقيقة لم يكن هذا الصلح إلا مجرد مهادنة ومتاركة.

وقد هاب أنوشروان المذكور الملوك، وهادوه بالهدايا اسنية، وكان فيمن ورد عليه رسول ملك الروم قيصر بهدايا وتحف فنظر إلى إيوانه وحسن بنائه فرأى اعوجاجا فى ميزانه فسأل عن سبب ذلك، فقيل: إن عجوزا لها منزل فى جانب الاعوجاج، وأن الملك رغّبها فى الثمن فأبت، ولم يكرهها، وبقى الاعوجاج من ذلك على ما ترى! فقال الرومى: هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء!.

ونظير هذا وقع فى الإسلام فى جامع عمرو بن العاص، رضى الله عنه، إذ كان لعجوز بيت يصلح المسجد فأبت بيعه، رضى الله عنه، فأمره بعدم إكراهها على بيعه.

ولأربع وعشرين سنة خلت من ملكه ولد عبد الله بن عبد المطلب، أبو النبى، صلى الله عليه وسلم، فكانت ولادته فى عهد يوسطانيوس قيصر الروم، وكذلك ولد النبى، صلى الله عليه وسلم، فى السنة الثانية والأربعين من ملكه، وفى عهد

يوسطنيوس الثانى قيصر الروم، وكفى بعدل كسرى أنوشروان شهادة النبى، صلى الله عليه وسلم، فى حقه، حيث قال: «ولدت فى زمن الملك العادل كسرى أنوشروان»، فإنه كان ملكا عادلا عاقلا مهيبا محبا للرعية، وله أفعال حسنة وآثار جميلة، وكان يسمى كسرى الخير، وكان وزيره بزرجمهر الحكيم، وكانت مدة ملكه ثمانيا وأربعين سنة، وقيل دون ذلك. .

كيف نرجــو من الزمـان بقـاء   والمنـايا تحــول بين الأمـانى

لو نجا من يد الردى ذو فخـار   خـلد العـدل صاحب الإيـوان

* * *

وقد أعاد أنوشروان ملك سيف بن ذى يزن عليه، وقتل ملك الحبشة مسروق بن أبرهه الأشرم، صاحب الفيل، وكان سيف بن ذى يزن الحميرى سار إلى كسرى المذكور فجهز معه أحد مقدمى الفرس، فطرد الحبشة، وملك سيف بن ذى يزن ملك اجداده، ثم استمرت عمال كسرى على اليمن إلى أن كان آخرهم باذان الذى أسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم.

* * *

وأما يوستانيوس فإنه لما كان مهتما بحفظ حقوق دولة الروم، وصيانة ولايتها، والخوف عليها من التمزق، وكان قد عقد الصلح مع فارى وشرع فى الحروب مع الواندال فى إفريقية، يعنى قبائل الأندلسية، فكان ابتداء حروبه معهم فى نحو سنة ٨٩ قبل الهجرة[١]، ومكثت الحروب سنة واحدة، حيث صمم القيصر أن يعيد لدولة الروم بالقسطنطينية الأقاليم المسلوبة[٢] منها التى استولت عليها قبائل الواندال المذكورون، فوجه من أول الأمر جنده إلى إفريقية، وكانت تلك القبائل التى استحالت شجاعتها إلى الجبن والفتور، حيث دخلهم الميل إلى الزينة المشرقية، والتخلق بالترف، والارتخاء لتعودهم على ذلك بالبلاد المشرقية، ثم جالوا فى

(١) أى سنة ٥٣٣ م.

(٢) فى الأصل: المساوية.

الأقطار المغربية بعد ذلك، فكانوا قد فقدوا النخوة والشهامة، فكان يسهل على من اتصف بالشجاعه، مثل الروم، أن يتغلب على بلادهم فى أقرب وقت، فركب بليسيرس السفن الرومية وسار إلى قرطاجة لحرب الواندال، فقتلهم وانتصر عليهم، واستولى على المدينة، وأخذ ملك الواندال أسيرا، ثم طلبه ديوان القسطنطينية ليحضر هناك، فسار إليها ودخل المدينة بموكب النصرة الحافل، فكان ملك الواندال فى زفاف هذا الموكب تحفة من التحف الموكبية، يقاد بين الأسرى الواندالية فى وسط الغنائم المكتسبة، يتفرج عليه المتفرجون.

ثم سار الأمير بليسيرس إلى جزيرة سردانيا لينزعها من قبضة الواندال، فظهر عليهم هناك، واستولى على الجزيرة، وصيرها من ملحقات قرطاجة ومضافتها، وفصلها من ولاية الواندال، ولكن لم يمتثل أهل هذه الجزيرة المتأصلون للدخول فى زمرة الرومانيين، ولارضوا أن يكونوا رعية الروم، وأبوا أن يدخلوا فى دين النصرانية، حيث هم قبائل متبربرون وعشائر متوحشون، فأصروا على العصيان، ولم يمتزجوا مع الروم، وبقوا على جاهليتهم مدة من الزمان، فلم يتحدوا مع الروم صحيح الاتحاد، ولا تمسكوا بدين عيسى، عليه السلام، إلا فى أيام القيصر موريقوس، المتولى فى سنة ٤٠ قبل الهجرة[١] المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

ثم شرع القيصر يوسطانيوس، عقب الظهور على الواندال والفراغ من حربهم، فى حرب الغوطية سنة ٨٨ قبل الهجرة[٢] فأمر الأمير بليسيرس بفتح إيطاليا وأخذها من يد الغوطية، فاهتم هذا القائد بالاجتهاد فى هذا الحرب المهم، وبذل جهده فى ذلك، ولكن لم يتممه إلا القائد نرسيس، فهو الذى ظفر بهؤلاء الأعداء وظهر عليهم.

وكانت شوكة الغوطية فى الأصل الأصيل قوية فى إيطاليا، يخشى من سطوتهم

(١) أى سنة ٥٨٢ م.

(٢) أى سنة ٥٣٣ م.

وبأسهم، ولكن في أيام هذا الحرب كانت قد شرعت في الضعف والتناقص، وذلك لأن قوتهم الجسمية ومركز سطوتهم العظيمة كانت بمملكة إسبانيا، وكان لهم ملوك أرباب تدابير قوية واحتياطات سياسية، فتولى عليهم بإسبانيا ملك يدعى أطاناجلدوس، كان قليل الحزم، عديم التبصر، وكان للغوطيين ملك آخر على إيطاليا يسمى آجيلا، وكان خصما للملك إسبانيا، فأظهر ملك إسبانيا للملك إيطاليا الخصومة سنة ٧٠ قبل الهجرة[١]، ولم يكن كفؤا، لحربه فاستغاث أطانا جلدوس على خصمه ملك إيطاليا بالروم في تلك السنة، فوجه الروم بعد انتصارهم على إيطاليا البطريق لبريوس لنصرة إسبانيا، فأخذ هذا البطريق من غوطية إسبانيا مدينة بلنسية وقرطبة وسائر مدن إقليم الأندلس الشرقية، وأضيف لدولة القسطنطينية، ولا زال جزء من الأندلس في يد القسطنطينية إلى سنة ٢ بعد الهجرة[٢] المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

وفي سنة ٧٢ قبل الهجرة[٣]، كان قد نقض كسرى أنوشروان صلحه مع الروم بإغراء الأرمن والغوطية، فكان هذا سببا لحرب آخر غير السابق، فهجم الفرس على الشأم، وكانت مع الروم، فطردهم بليسيرس عنها، ولكن كانت بلاد اللاظ وما حولها من بلاد البحر الأسود تابعة لقياصرة القسطنطينية، فسلموا أنفسهم لكسرى، وخرجوا من تبعية الروم، فاغتنم هذه الفرصة كسرى أنوشروان في تجديد سفن حربية على ثغور البحر الأسود بواسطة مملكة بلاد اللاظ، التي هي على هذا البحر، لا سيما وأن طائفة اللاظ كانت تحسن الملاحة، فبواسطتهم كان يمكن لأكاسرة فارس أن يوسعوا دائرة سفنهم الحربية، وأن يسيروا في جهات البحر الأبيض ويجولوا فيه بواسطة العبور من خليج القسطنطينية وإليه.

فلما استشعرت طائفة اللاظ ومن جاورها من أهالي ساحل البحر الأسود أن دولة فارس تريد استخدامهم في السفن البحرية، وتبعثهم إلى البلاد الأجنبية،

---

(١) أي سنة ٥٥٢ م.

(٢) أي سنة ٦٢٤ م.

(٣) أي سنة ٥٥٠ م.

وأنهم بهذا يكونون خارج أوطانهم، ندموا على التحاقهم بمملكة فارس، واجتهدوا فى العود إلى الالتحاق بالروم، فالتحقوا بهم، وصاروا من أتباعهم ورعاياهم، وأعانوا دولة القسطنطينية على طرد الفرس من بلادهم فى سنة ٦٧ قبل الهجرة[١].

ثم استمر الحرب بين فارس والروم، وطال أمده، حتى انتهى بصلح سنة ستين قبل الهجرة[٢]، الذى حصل الاتفاق فيه بين الطرفين على ترجيع المملكتين إلى حدودهما القديمة، وإعادة ما حدث من الفتوحات الصادرة من كل منهما إلى أصله.

وكان فى سنة ٦٣ قبل الهجرة[٣] قد اتحد البلغار بالصقالبة الجنوبيين، واجتازوا نهر طونة فى فصل الشتاء، وكان منثلجا متجمدا، وأغاروا على ولاية روم إيلى التابعة للروم، وكان قائد هذه الجنود الصقلبية المتبربرة الأمير زابرخان، وكان فى ذلك العهد قد غضب قيصر الروم على قائده بيليسيرس وأخرجه من الخدمة، فكان معزولا منزويا فى زوايا الإهمال، وقد حصل للدولة الرومية غاية الحيرة فى دفع الصقالبة عن الإغارة، فلما علم الأمير بيليسيرس بأن المملكة فى خطب شديد استمال إليه الخفر الملوكى وكثيرا من الأهالى ممن حملهم على حمل السلاح، وحارب هؤلاء القبائل وغالبهم وطردهم صوب نهر طونة، فبهذا ظهرت دولة القسطنطينية عليهم بشهامة قائدها المعزول!.

وبالجملة، فأكثر فخر يوسطنيانوس قيصر إنما هو فى عمليات التنظيم والترتيب وتقنين القوانين وتنظيم اللوائح الإدارية والأحكام السياسية، فقد أحال على جمعية من أهل المعارف استنباط القضايا المتنوعة، والأحكام المتأصلة والمتفرعة، باستقصائها واستقرائها، واستخراجها من الكتب الرومانية وتنقيحها، فصار الحصول على ذلك فى أقرب وقت وزمان، واستبان من هذه المجاميع القانونية أن مدار مبناها وقوام فحواها على أن قيصر الروم حاكم مختار، متصرف فى تنفيذ أغراضه السياسية كما يشاء ويختار، فهذا جل منطوقها، وغالب مصدوقها.

---

(١) أى سنة ٥٥٥ م.

(٢) أى سنة ٥٦٢ م.

(٣) أى سنة ٥٥٩ م.

وكان موت يوسطنيانوس في سنة ٥٧ قبل الهجرة، وأما الأمير بيليسيرس، الذى كان مدار قطب رحا الحروب عليه، فإنه كان قد اتهم قبل موت القيصر بتهمة باطلة، فقد ادعى عليه أخصامه بأنه مثير الفتنة على القيصر، ومقوم للأهالى عليه، فسجنه القيصر وصادره بسلب أمواله، ولم يعش بعد هذه النكبة إلا سنين قلائل، وبعد موت هذا القائد ببعض شهور مات القيصر، كما سبق، بعد أن قضى زمن حكمه بغاية الفخار الملوكى والاعتبار السياسى، ولم يسلم من المثالب الخصوصية، ولا خلص من المصائب الدهرية، فقد وقع فى أيامه فتن عظيمة، ومحن جسيمة فى ميدان القسطنطينية المسمى آت ميدانى، آى ميدان الخيل، كما وقع فى مدته طاعون سنة ٧٥ قبل الهجرة[١] هلك فيه كثير من أهالى أوروبا، ووقعت فى مدته الزلازل، ومنه زلزلة سنة ٦٥ قبل الهجرة[٢]، هدمت فيها مدن عظيمة، فهذه الحوادث بانضمامها إلى مصائب الحروب، ونوائب الخطوب، كانت مانعة من استقامة مملكة روم بالقسطنطينية، ومع هذا فقد استفادت فى أيامه المملكة كمال البهجة والرونق بالنسبة للعوارض الذائبة.

وقد كان يبحث عن تحسين أحوال مصر، حتى أنه تعاهد مع الحبشة بقصد جلب التجارة إلى الإسكندرية، وإنما كلف نائبه أهل الإسكندرية فوق طاقتهم فى الجرائم والمغارم، وشدد عليهم كمال التشديد، وكان ينفى من لا يفى بدفع المغرم الثقيلة، وكان نرسيس أمير جنده قد تعدى على الإسكندرية وحرقها بسبب امتناع أهل الحرف والصنائع وأعيان الناس ورعاعهم من أن يقبلوا البطرق طيودوسيس رئيسا على كنيستهم، ومع ذلك فصار عزل هذا البطرق واستبداله بغيره، ثم لما مات يوسطنيانوس الأول فى سنة ٧٥ قبل الهجرة خلفه أخوه يوسطينوس الثانى.

---

(١) أى سنة ٥٤٧ م.

(٢) أى سنة ٥٥٧ م.

الفصل العاشر

فى الملك يوسطينوس الثانى قيصر الروم[1]

تولى المملكة فى سنة ٥٧ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٤٤، فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة.

كان لهذا القيصر فى مبدأ أمره من الأشغال الحسنة والعمليات الجيدة ما يرتضيه أرباب العقول الذكية، وكان مستقيم الحال والأطوار، عادلا، منصفا، أنسى باستقامته إعوجاج أسلافه، وفرح به الجميع، وعدوه منة من الله إلى عباده من خفى ألطافه، فعما قريب تبدلت أحواله، وتغيرت أطواره، فاشتغل باللذات والشهوات، وجار وظلم وترك تدبير الحكومة لزوجته صوفية، فتسبب عن قبضها على زمام الحكومة من المصائب ما أفسد حال المملكة الرومية، حتى نادى لسان حال الرعية يعتذر عن السلف لما شاهد من قبح سياسية الخلف:

ظننتك أولا حتى اذا ما — بلوت سواك عاد الذم حمدا

ولم أحمدك من خير ولكن — رأيت سواك شرا منك جدا

كمضطر تحامى أكل ميت — فلما اضطر عاد إليه شهدا

وذلك لأنه كما تقدم كان ركن الدولة الرومية أمير يقال له نرسيس، كان طواشيا نشأ ببلاد فارس، وارتقى المراتب العلية فى أيام يوسطنيانوس، كان مدبرا

(١) هو القيصر جوستين الثانى، حكم من سنة ٥٦٥ حتى سنة ٥٧٨ م.

للمملكة، ساعيا فى إدارة الصلح والحرب، وكان ملاحظا لحكومة الدولة، ومساعدا على نصرتها، تولى رياسة جيش حرب إيطاليا فلما تولى يوسطينوس الثانى قيصرا حقدت عليه القيصرة صوفية، وسعت به عند القيصر حتى غضب عليه وعزله، فبعزله سهل على أعداء الحكومة الهجوم عليها.

وبالقرب من هذا الزمن قدمت رسل خان التتار الهبارة على القسطنطينية لعقد معاهدة مع دولتها، فرفض يوسطينوس عقد المعاهدة مع خان هؤلاء التتار، ولم يرض بالشروط المعروضة عليه، وأظهر التعظيم والأبهة عليهم، وعقد مع خان التركمان معاهدة، حيث تحالف معه على مناصرته على كسرى فارس، وكانت إذ ذاك محالفة التركمان تؤذن بفتح باب التجارة والمعاملة والمخالطة فى وسط بلاد المشرقية مع الدولة الرومية، فلما انتصب الحرب بين يوسطينوس، قيصر الروم، وأنوشروان، كسرى فارس، لتنازعهما على بلاد أرمنية الفارسية، أغار أهل فارس على بلاد الروم، وتصادف موت كل من كسرى وقيصر فى هذه المدة، فانقطع الحرب مؤقتا، وتأخر لوقت آخر.

ولما مات كسرى أنوشروان تولى بعده ابنه هرمز بن أنوشروان، وسيأتى ذكره فى الفصل الآتى.

وإنما نقول هنا: إنه يوم ملك نطق بالحكم فى مقالة مطلعها: «الحلم عماد الملك، والعقل عماد الدين، والرفق ملاك الأمور، والفطنه ملاك الفكرة. . أيها الناس، إن الله خصنا بالملك زعمكم بالعبودية، وكرم مملكتنا فاعتقكم بها من عبوديتنا، وأعزنا وأعزكم بعزنا وأعزكم بعزنا، وقلدنا الحكومة فيكم وقلدكم الانقياد لأمرنا، وقد أصبحتم فرقتين، أحدهما أهل القوة، والأخرى أهل ضعة فلا يستأكلن منكم قوى ضعيفا، ولا يغش ضعيف قويا، ولا تتوطن نفس أحد من الغلبة إلى ضيم أحد من أهل الضعة فإن فى ذلك وهنا لملكنا، ولا يرومن أحد من أهل الضعة الأخذ بمأخذ الغلبة، فإن فى ذلك انتشار ما نحب نظامه، وزوال ما نحاول قوامه، وفوت ما بحال دركه، واعلموا أيها الناس أن حاجتكم إلينا فى نفس حاجتنا إليكم، وحاجتنا إليكم هى مسد لحاجتكم إلينا، وأن الثقيل[1] مما أنتم منزلو معنا من أموركم خفيف، والخفيف مما نحن مجشموكم ثقيل، لعجزكم عما نحن

مضطلعون، واضطلاعنا لما أنتم عنه عاجزون، وإنما تحمدون حسن ملكتنا إياكم وفضل سيرتنا فيكم إذا حسمتم أنفسكم عما نهيناكم عنه ولزمتم ما ألزمناكم به، ميلوا بين الأمور المتشابهات وأنزلوها منازلها، ولا تسموا النسك رياء، ولا الرياء مراقبة، ولا الشر شجاعة، ولا الظلم حزما، ولا الرحمة نقمة، ولا الصفح عفافا، ولا الأخذ بالفضل ذلا، ولا العماية غفلة، ولا العدو ضرورة، ولا الورع اجتهادا، ولا الخيانة غنما، ولا القصد تقتيرا، ولا البخل اقتصادا، ولا الزهو مروءة، ولا التوانى تؤدة، ولاالحياء مهانة، ولا السفه صرامة، ولا العجب كمالا، ولا ما لا يكون كائنا، ولا كائنا ما لا يكون، ولا المعاتبة مفاسدة.

أيها الناس، اجتنبوا المرذولات من هذه الأمور المتشابهات، وثابروا على ما تحظون به عندنا، فإن وقوفكم عند أمرنا منجاة لكم من سخطنا، وتنكبكم معصيتنا سلامة لكم من عقابنا. فأما العدل الذى نحن عليه مقتصرون، وبه نصلح وتصلحون، فأنتم فيه عندنا مستوون، وستعرفون ذلك إذا رفعنا أهل القوة عن أهل الضعة مرتبة لا يستوجبها الا المستحق منهم الحباء(*) والشرف لنجدة توجد عنده أو بلاء حسن يظهر منه، واعلموا أيها الناس أنا قارنون سوطنا وسيفنا ومستعملوهما بتثبيت وحسن روية فيمن غمص نعمتنا وخالف أمرنا وحاول ما نهيناه عنه، فإنا لا نكاد نصلح رعايانا ونضبط أمورنا إلا أن ننكل بمن خالف أمرنا وتعدى سيرتنا وسعى فى فساد سلطاننا، فلا يغمطن أحد فى رخصة منا، ولا ترجون هوادة عندنا، فإنا غير مداهنين فى حق الله الذى قلدنا، فوطنوا أنفسكم على الطاعة أو المجازاة». فانظر إلى هذا الملك الذى قلبه على رعيته.

وأما يوسطينوس الثانى، قيصر الروم، الذى قسا قلبه على رعاياه، فإنه قد أصيب قبل موته بالخبل فى عقله وكان قبل اختلاله تبنى طيبروس قسطنطين، رئيس الخفر القيصرى، فلما مات هذا القيصر فى سنة ٤٤ قبل الهجرة خلفه طيبروس، الذى كان تبناه، حيث حملته على ذلك زوجته صوفية وعلى الوصاية له بالقيصرية.

---

(١) فى الأصل: ما.

(*) الحباء: ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به. (الشروق).

الفصل الحادى عشر

فى الملك طيبروس قسطنطين[١]

تولى قيصر على القسطنطينية فى سنة ٤٤ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ٤٠، فكانت مدة حكمه أربع سنوات.

لما دعت صوفية زوجها يوسطينوس لتبنى طيبروس والوصاية له بالقيصرية بعده، لبى دعوتها، وتبناه، وعهد إليه بالمملكة، وكان الحامل لصوفية على ذلك قصد التزوج به بعد موت القيصر، فلما ولى طيبروس المملكة أعرض عن التزوج بها، وتمادى على إعراضه، فلما أيست من ذلك أثارت عليه الفتن والشرور، وحرضت الجنود على خلعه، ولم تظفر بمرامها، وأما القيصر فقد عاملها بما يليق بذاته الملوكية من سلوك سبيل الحلم معها والصفح عن جنايتها.

وكان هذا القيصر أهلا لمنصبه الذى عهد به إليه سلفه، فتمسك بدين النصرانية أشد التمسك، ولما رأى أن مصر تميل إلى مذهب اليعاقبة[٢] بذل جهده فى تثبيت هذا المذهب فيها، واجتهد فى أن يجعل ذلك المذهب عند جميع نصارى مصر عموميا، وأيد كنيسة اليعاقبة وجعلها راسخه القدم، كما هى عليه فى هذا العهد.

---

(١) هم القيصر تيبيروس الثانى، حكم من سنة ٥٧٨ م.

(٢) فرقة مسيحية، تنسب إلى القس يعقوب، وهم يختلفون مع الملكانية والنساطرة حول طبيعة المسيح، ويرون وحده اللاهوت والناسوت فى المسيح.

وقد سبق أن سلف هذا القيصر كان قد ناوى فارس على الحرب معهم، وأن الحرب تأخر بموته وبموت أنوشروان، فلما تولى طيبروس جدد حرب فارس مع هرمز بن أنوشروان.

وذلك أن هرمز بن أنوشروان كان عادلا عاقلا كأبيه، وكان يأخذ للوضيع من الشريف، وبالغ فى ذلك حتى بغضه خواصه، وكان اصطنع صندوقا ليلقى المتظلم قصته فيه، وكان يختم الصندوق بخاتمه لئلا تصل إليه أيدى بطانته ومرزبانيته[1]، ثم أمر باتخاذ سلسلة من الطريق نافذة إلى مكانه وجعل فيها أجراسا، وكان المتظلم يجئ فيحرك السلسلة فيعلم به ويتقدم بإحضاره وإزالة ظلامته.

ولعل الظلم كان قليلا فى أيامه، وأن نصب هذه السلسلة من مبالغة المؤرخين، وإلاّ لو كانت هذه السلسلة فى الدول الأخيرة لأ قلقت الملوك وأحرمتهم الراحة!

كان هذا القيصر[2] مهيبا، محسنا للسياسة، جوادا، مضى من ملكه عشر سنين ولم يتحرك أحد من ولاته ورعاياه بحركة افتتانية، لأن أباه كان مهد الملك وسخر الرعية، وإنما خرج عليه عدة أعداء من الخارج منهم طيبروس، وهو ملك الروم فى ثمانين ألف فارس، فانتصر جند طيبروس على جند فارس النصرات العديدة، ولكن لم يزل جند فارس يدمن الحرب والروم تسعى فى عمل الصلح مع الفرس كمال السعى بدون أن تتمكن من ذلك، ولا زال الحرب مستمرا إلى تولية موريقوس قيصر، كما سيأتى فى فصله.

وكذلك قد طرد طيبروس تتار الهبارة الإيغورية من بلاده وأبعدهم إلى بلاد المجار والأفلاق والبغدان، وكان يتمنى الروم أن تكون أيام دولة هذا القيصر ذات

---

(١) واحدها مرزبان، ويسمى ساترب، وهو حاكم الولاية فى الإمبراطورية الفارسية، وكانوا يمثلون العمود الفقرى للطبقة الإقطاعية يومئذ.

(٢) الإشارة إلى كسرى فارس.

البهجة والرونق[1] طويلة المدة لظهور سطوة الروم وتعاظم شوكتهم فاخترمته المنية في سنة (٤٠) قبل الهجرة، وفاتهم به بلوغ الأمنية، فكان لسان حاله ينشد:

رجعت إليه بعد تجـــريب غيره فكان كبره بعد طول من السقم

وكان من قواد جيوشه، الذين نصروه على الفرس، أمير يسمى موريقوس، كان قد كافأه الملك في نظير خدمته ومنفعته بأن زوجه بنته، وعهد إليه بالملك بعده.

(١) في الأصل: «ذات بهجة ورونق» بدون أداتي التعريف.

الفصل الثانى عشر

فى الملك موريقوس قيصر، ويسمى مورثيوس طيبروس[1]

تولى مملكة الروم بالقسطنطينية سنة ٤٠ قبل الهجرة، وبقى ملكه إلى سنة ٢٠، فكانت مدة حكمه عشرين سنة.

هذا القيصر هو الذى له الفخار العظيم بكونه أعاد إلى سلطنة فارس أبرويز خسرو بن هرمز، بعد أن كان فر منها عقب فتنة عظيمة ومحنة جسيمة يحتاج الحال إلى بيانها ويتوقف تاريخ بعض القياصرة المتأخرين على ذكرها:

وذلك أن هرمز لما خرج عليه قيصر الروم وملك الخزر وملك الترك، وكلهم أعداء له يخشى منهم على مملكة فارس، أحضر إليه قائدا له بمملكة الرى يقال له بهرام جوبين - ومعنى جوبين اليابس الصلب - وكان بهرام جوبين مبارزا شجاعا، طويلا أعجف كأنه العود اليابس، وأعده لقتال أعدائه، فمن جملة من تقاتل مع بهرام التركمان، وهزمهم، ونهب أموالهم، وطردهم، واستولى على بلاد جمة، وأرسل بذلك إلى هرمز.

ثم بعد ذلك خاف هرمز على ملكه من بهرام جوبين، وجرى بينهما قتال، فصار أكثر الجند فى جهة بهرام، وكان أبرويز بن هرمز مطرودا عن أبيه، مقيما بأذريبجان، فبلغه ضعف أمر أبيه، وخشى من استيلاء بهرام على الملك، فقصد

---

(١) هو قيصر موريس، حكم من سنة ٥٨٢ حتى سنة ٦٠٢ م.

أبرويز أباه وأمسكه وسمل عينيه ولبس التاج وجلس على سرير الملك، فكان من ابتداء ملك هرمز إلى استقرار ابنه أبرويز فى الملك نحو ثلاث عشرة سنة ونصف سنة، فقد صار ملك فارس إلى أبرويز بن هرمز فى السنة التاسعة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم، وطال ملكه إلى أن خلعه ابنه شيرويه من الملك فى السنة السادسة من الهجرة، كما سيأتى، وكان قد بعث إليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الكتاب مع دحية الكلبى يدعوه إلى دين الإسلام فمزقه أبرويز، فدعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم، أن يمزق الله ملكه كل ممزق، فأرسل أبرويز يأمر عامله باذان، ملك اليمن، بقتل النبى صلى الله عليه وسلم فعين باذان إلى المدينة الشريفة قاصدا لينظر فى قتل النبى، صلى الله عليه وسلم، حيلة، فأوحى الله إلى نبيه ما أضمر باذان وقاصده، فأحضر القاصد وأخبره النبى، صلى الله عليه وسلم، أن كسرى أبرويز قتله أولاده اليوم، فرد خائبا خاسرا، فلما صح ذلك أسلم باذان وحسن إسلامه - كما سيأتى بيان ذلك فى محله - وخالفه بهرام، وأظهر أنه ينتقم من أبرويز لما فعله بأبيه هرمز من سمل عينيه، وجرت بينهما حروب، آخر الحال تغلب بهرام على مملكة فارس ولبس التاج، وأما أبرويز فقد خشى من بهرام أن يقيم والده الأعمى قيصرا صورة ويتصرف فى الملك حقيقة ويستفحل أمره فاتفق مع خواصه على قتل أبيه هرمز، فخنقه، ولحق أبرويز بملك الروم موريقيس مستنجدا به على بهرام جوبين، فلما حضر أبرويز إلى موريقس لامه على ما فعله بأبيه أولا وثانيا، من سمل عينيه وقتله. ومن المعلوم أن أبرويز كان عدوا لموريقس قيصر، ولكن همة هذا القيصر كانت علية، وعزيمته قيصرية، تأنف عن أن يرده خائبا، أو أن سياسة الوقت كانت تستدعى تلك الإعانة، فأرسل القيصر لإعانته جيشا جرارا، وجعل قائده الأمير قومنديولس تحت أوامر خسرو أبرويز، فعاد أبرويز من عند القيصر مستقويا على بهرام، فمكث الحرب ثلاث سنين متتابعة، حصل فيها ثلاث وقائع عظيمة، غير الحروب الجزئية، وتم الأمر بانتصار خسرو أبرويز على بهرام، وهرب بهرام إلى خراسان عند ملكها المسمى شاويه شاه، وكان جد أبرويز لأمه، فدس على بهرام من يقتله بالسم، فهلك بهرام بخراسان، فعادة ملك الفرس لأبرويز، وفرق فى عسكر الروم أموالا جليلة ثم أعادهم إلى ملكهم موريقس بعد إقامة أربع

سنين، وكان القيصر قد اشترط على كسرى فى نظير مساعدته أن يعيد إليه ما كان استلبه بهرام من البلاد الرومية وعاهده على ذلك فى تاريخ سنة ٢١ قبل الهجرة[1].

* * *

وفى القرب من هذا الزمن، فى أيام كل من موريقس وأبرويز بن هرمز، كان زواج السيدة خديجة الكبرى به صلى الله عليه وسلم، وما كان من أمر تعبده بغار حراء، وأمر النبوة، كما سيأتى ذلك فى محله إن شاء الله تعالى.

* * *

وقد صرف هذا القيصر جهده فى إضعاف تتار الهبارة، وتشتيت شملهم وتدميرهم، فغلبهم قائد القيصر على سواحل نهر طونة فى خمس وقائع، ولكن أسر خان الهبارة من جنود الروم اثنى عشر ألف نفس، فطلب خان التتار من القيصر افتداء الأسرى المذكورين، وجعل على كل رأس دينارا، وكان موريقوس قيصر شديد البخل فلم يرض بذلك، فطلب منه نصف دينار فداء كل رأس فأبى أن يعطيه شيئا، فغضب خان التتار من شح هذا القيصر وحرصة فذبح أسراء الروم جميعا، فكثر الهرج فى المشرق، فصار يطلب الوالد ولده فلا يجده، والولد أباه، والزوجة زوجها، والأخ أخاه، فعلموا فقدهم عند التتار، وفهموا السبب، فصار هذا القيصر مبغوضا عند جميع رعاياه، والقصاص قريب، فقامت عليه الفتن، وكان من جملة رؤساء جنوده أمير قرمانى، خارج القسطنطينية فاغتنم فرصة توحش النفوس من القيصر، فاستجلب الجنود العصاة، إليه حتى بايعوه على القيصرية، فتملكها بعد بعض حروب ومدافعات، وأعانه على ذلك كراهة الأهالى للقيصر، فلما دخل المدينة قبض على القيصر موريقس، وضرب عنقه وعنق أولاده جميعا، وجلس على سرير الملك، وكان ذلك فى نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

---

(١) أى سنة ٥٩١ م.

فقد أدى حرص هذا القيصر إلى زوال الملك عنه، وإلى الإضرار ببلاده ورعاياه، فقد تسبب عن حرصه ولؤمه وسوء حاله غور[1] الطباع منه، وقيام الجنود عليه وقتله، وتولية غيره، فمن هذا يفهم أن الرعية الرومية فى أيامه كانت فى أسوأ الأحوال، ليس لها قدرة على المدافعة عن قيصرها والذب عنه، وليس فيها الشهامة اللازمة لذلك، بل ولا تريد تسكين الفتن، لغدر قيصرها بها، وشدة جوره. .

إذا ما الظلوم استحسن الظلم مذهبا ... ولج عتوا فى قبيح اكتسابه

فكله إلى صرف الزمان فإنه ... سيبدى له ما لم يكن فى حسابه

فكم قد رأينا ظالما متمردا ... يرى النجم فيها تحت ظل ركابه

فعما قليل وهو فى غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه

فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى ... ولا حسنات سطرت فى كتابه

وقابله الجبار منه بفعله ... وصب عليه الله سوط عذابه

فقد هدرت دم هذا القيصر رعيته، ولم تحمه من جنوده المثيرين للاختلال، مع أن الاختلالات دائما تعود على الرعية بالضرر وسوء العواقب، وقد تحقق ذلك بالنسبه للروم حيث أن فوقاس، قاتل سلفه، لم يكن خيرا منه، كما ستعلمه فى الفصل الآتى.

(١) غور الطباع، أى انخسافها وانحدارها.

الفصل الثالث عشر
فى الملك فوقاس قيصر(١)

تولى المملكة فى سنة ٢٠ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنه ١٢ قبلها، فكانت مدة حكمه ثمان سنوات.

أول شيء ابتدأ به هذا القيصر سلوك مسلك العدوان والظلم بقتل سلفه موريقوس وفتكه بأولاده معه، وكانوا ستة كلهم ذكور، والجزاء من جنس العمل، كما سيأتى، وقد انهمك هذا القيصر فى اللذات والشهوات، وكان كثير الطمع والحرص، جبانا، جبارا عنيدا، وشيطانا مريدا، فقد أصدر أمرا إلى مصر يستثنى جنس المصريين من التقليد بالمناصب الملكية، والرتب والوظائف والخدامات الميرية، فبسبب ذلك قامت فتنة عظيمة فى الإسكندرية، وكان أكثر أهل الفتنة يهود تلك المدينة المتأصلين بها، فأطفأ الفتنة الإمبراطور بالقهر والغلبة، وحكم على يهود الإسكندرية بأن يتنصروا فنصرهم وأدخلوهم المعمودية رغما عن أنوفهم.

وكان أبرويز خسرو بن هرموز قد رسخ على سرير ملك العجم، فطغى وبغى، واحتقر الأكابر، وظلم الرعية، وكان قد اصطلح مع موريقوس صلحا كافيا، إلا أنه لما علم بقتل فوقاس قيصر لصاحبه أظهر الأسف على صاحبه، وأنه يريد الانتقام له من قاتله، فجرد على فوقاس جنودا عظيمة، وتغلب من بلاد الفرس على أقاليم أرفة والجزيرة وأرمنية والشأم وقطعة من أناطلى، فنال الفرس من الروم، وغلبوهم

(١) هو القيصر فوكاس، حكم من سنة ٦٠١ حتى سنة ٦١٠م.

أشد الغلبة على بلادهم، فصار أبرويز أعدى عدو لفوقاس، ومع ضعف فوقاس عن مقاومة ملك فارس فقد سير جيشا عظيما لحرب فارس، وكان هذا الجيش يبغضون قيصرهم لسآمة نفوسهم منه، فاعتراهم الفتور قبل التحام الحرب، فمزقهم ملك فارس كل ممزق حتى ولوا الأدبار واعتمدوا على الفرار، وتقدم أبرويز بجيشه حتى صار قريبا من القسطنطينية.

وكان فوقاس من شدة انهماكه على الفسق قد فضح زوجة فوثيوس، أحد معتبرى الروم، فاغتنم هذا الأمير فرصة حصر فوقاس، وقيام الروم عليه المرات العديدة، بكتابته رسالة لهرقل، حاكم بلاد إفريقية من طرف الروم، أن يحضر لتخليص القسطنطينية، بخلع القيصر ولبس تاج القيصرية، وحثه على ذلك، فجهز هرقل عمارة سفن قرطاجية وحضر بها ابنه من إفريقية إلى القسطنطينية، ورسا على بوغازها، ولا زال فوثيوس ومن تبعه يثيرون الفتنة على فوقاس حتى اشتدت، فحكم جميع الأهالى بخلعه وتقليد هرقل، وكان هرقل قد حضر وتحيل على فتح البوغاز ودخوله القسطنطينية، وكان فوثيوس عند ذلك قد استولى على قصر القيصر، وحبسه وقبض عليه، وأتى به إلى هرقل فى سفينته التى كان بويع له فيها بالقيصرية، فأطال فوقاس لسانه على هرقل، فقام الأهالى على فوقاس وفعلوا به كما فعل بسلفه، وضربوا عنقه وعنق إخوته وأحبابه خوفا من إثارة فتنة أخرى من المتعصبين له، وأظهروا المبايعة لهرقل، وكان ذلك فى سنة ١٢ قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وهو الذى ظهر الإسلام على عهد ولايته، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع عشر
فى الملك هرقل قيصر[1]

تولى المملكة فى سنة ١٢ قبل الهجرة، وبقى حكمه إلى سنة ١٩ من الهجرة، فكانت مدة حكمه إحدى وثلاثين سنة .

قد حصل فى أيام هذا القيصر من العجائب والغرائب والحروب والخطوب ما يدهش العقول ويحير الألباب، فقد جمعت أيامه بين الوقائع المتضادة والحوادث المتباينة حسنا وقبحا، فإن دولة الروم انتصرت فى حروب عظيمة تارة، وانهزمت فى أخرى تارة أخرى، ففى مبدأ تولية هذا القيصر وفى وسطها وفى آخرها حصل الانهزام والخيبة والنصرة والظفر، متوالية مترادفة يتلو بعضها بعضا .

فإن خسرو الثانى، الذى هو أبرويز هرمز، كان قد فتح الحرب مع قيصر القسطنطينية، سلف هرقل، للانتقام منه فى نظير قتل موريقوس، صانع الجميل مع خسرو المذكور، فاستمر خسرو على الحروب مع هرقل، ولم يرض بعقد الصلح بين فارس والروم، وصمم على استدامة القتال والانتقام، وقد سبق أن خسرو أبرويز كان قد تغلب على بلاد الموصل، فبهذا سهل عليه فى عهد هرقل الإغارة على بلاد الشام ومصر، فهجم على الشام وحرق أنطاكية ودمشق ومدينة القدس، ووصل إلى طريق الحجاز، وقصد أن يمجس النصارى بهذه الولايات، وأن يخلعوا الزنار ويعبدوا النار، ثم أرسل قائده إلى ديار مصر وبلاد المغرب فنال من ذلك ما

(١) حكم هرقل من سنة ٦١٠ حتى سنة ٦٤١م.

نال من النصرة، وصالح مصر على أن تدفع له مقدارا معلوما كما كانت تدفع للروم، ثم رجع كارا للتغلب على بلاد أناطلى، واستولى على بلاد بروسة الواقعة على بوغاز القسطنطينية، وكان ذلك قبل الهجرة بثمان سنوات[1].

وكذلك استعان الفرس على الروم بقبائل التتار الهبارة، ويقال لهم الأوارة، وتعاهدوا معهم أن يغيروا على إقليم روم إيلى، فغاروا[*] عليه حتى وصلوا لأسوار القسطنطينية قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين[2]، فتمت الهزيمة على الروم فى بلادهم بآسيا وأوروبا، وحوصروا برا وبحرا، فلم يبق من مملكة هرقل إذ ذلك إلاّ مدينة القسطنطينية وبعض أقاليم على البحر، وأيس هرقل من النصرة حتى أراد أن يهاجر إلى تونس ببلاد المغرب، لكونها كانت من أملاك الروم، وينقل سريره إليها، ولولا أن صده عن هذه النية بطرق القسطنطينية لنجز ذلك.

* * *

وفى هذا الزمن نزل بمكة ﴿**الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾ (الروم: ١، ٢) إلى آخر السورة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قال فى آخر سورة العنكبوت: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (العنكبوت: ٤٦) وكان صلى الله عليه وسلم يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل، لإنكارهم الإله، وكان أهل الكتاب يوافقون النبى فى الإله، كما قال تعالى: ﴿**وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ**﴾ (العنكبوت: ٤٦) وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله، بل كثير منهم كانوا مؤمنين به، كما قال تعالى: ﴿ **فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ (العنكبوت: ٤٧) فلهذا أبغض المشركون أهل الكتاب، وتركوا مراجعتهم بعد أن كانوا يراجعونهم فى الأمور، فلما وقعت الكرة على النصارى، حين قتلهم الفرس المجوس، فرح المشركون بذلك، كما كرهه المسلمون، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وذكر فى أولها ما هو معجزة للنبى، صلى الله عليه وسلم،

---

(١) أى سنة ٦١٤م.

(*) أى: أغاروا. (الشروق).

(٢) أى سنة ٦١٩.

وهو الإخبار عن الغيب، فقوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾، يعنى أرض العرب، وقوله: ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾، يعنى أنه بعد أن وصل عددهم إلى بلادهم، وهم عاجزون عن المدافعة عنها لضعفهم، سيغلبون عدوهم، بأمر الله تعالى وقدرته فى بلاده المستقوى فيها، فقد وصل الروم إلى المدائن، وغلبوا الفرس، وبنوا هناك مدينة رومية، فالغلبة العظيمة بعد الضعف العظيم لا تكون إلا بإذن الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ فى بضع سنين ﴾ أبهم الوقت بالبضع، الذى هو ما بين الثلاثة والعشرة، مع أن المعجزة إنما تكون أتم بتعيين الوقت بالسنة والشهر واليوم والساعة، لأنها معلومة عند الله تعالى، وبينها لنبيه، صلى الله عليه وسلم، ولم يأذن له فى إظهارها، لأن الكفار كانوا معاندين، وما دامت هذه الأمور ستقع فى بلاد بعيدة تكون معلومة الوقوع لا محالة، بحيث لا يمكن إنكارها، لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه، فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه.

ولما نزلت الآية ذكر أبو بكر، رضى الله عنه، أن الروم ستغلب، وأنكره أبى بن خلف وغيره، وخاطروا[1] أبا بكر على خمس قلائص إلى ثلاث سنين، وكان ذلك قبل تحريم القمار، فقال عليه السلام لأبى بكر: البضع ما بين الثلاثة والعشرة، فزاده فى القلائص وماده فى الأجل، فزاده فى القلائص اثنين حتى صارت سبعا ومده فى الأجل حتى صار خمسا، وقيل أكثر من ذلك - راجع الفصل السادس والأربعين من المقالة الثالثة.

وهذا يدل على علم النبى، صلى الله عليه وسلم، بوقت الغلبة، وكان يوم غلبة الروم لفارس هو يوم غلبة المسلمين للمشركين ببدر، فحينئذ يحمل قوله تعالى: ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ على فرح المؤمنين بغلبتهم على المشركين فى غزوة بدر، إذا أريد باليوم معناه الحقيقى، ويجوز حمله على الوقت فيكون معناه أن المؤمنين يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة

---

(١) أى راهنوا.

الفرس على الروم، ويصح أن يحمل على الغلبتين وعلى نصر الله للفريقين المتحابين، ولا يرد عليه أن فى ذلك اليوم بعينه لم يصل إلى المؤمنين خبر كسر الفرس، فلا يكون فرحهم يومئذ، بل الفرح يحصل بعده، لأنا نقول: المراد باليوم الحين، أو اليوم الذى يبلغ فيه الخبر، أو أنه يحصل الفرح للمؤمنين فى اليوم وإن لم يعلم سبب الفرح، فقد فرح المؤمنون بنصر بدر. وفى الحقيقة فرحهم الله تعالى بنصر الروم، أى جعلهم فرحين يومه، وإن لم يبلغهم، لأن النفس كثيرا ما تنبسط بشىء سيقع تبشيرا لها بوقوعه. والله أعلم بمراده.

ولما عاق بطريق القسطنطينية هرقل عن الخروج من المملكة وعن الذهاب إلى إفريقية، جمع البطريق المذكور أموال الكنيسة وامتعتها الثمينة وساعد بها القيصر على حفظ ما بقى من دولة الروم من الزوال، فبهذا دفع الفرس ومعاهديهم عن المملكة الرومية، وكان قد استيقظ هرقل من نومته وصحا من سكرته، فقوى جيشه وجأشه، ونقل ميدان الحرب إلى خلف جبل طورس وانتصر جنده على فارس فى الموضع الذى انتصر فيه الإسكندر على دارا، فكانت هذه أول غزوة انتصر فيها الروم على فارس بعد الغلب، فى السنة الثانية من الهجرة، وسار جنده بحرا فى السنة الثانية أيضا منها حتى أرسى على طرابزان، وتعاهد مع الخزر، وأغار على خسرو أبرويز، حتى كاد أن يتغلب على حدود مملكة فارس، وبدد شمل التتار المعاهدين للفرس، وهزمهم بقرب القسطنطينية فى السنة الثالثة من الهجرة، وكان قد تقوى بأربعين ألفا من الخزر(*)، وغزا فارس، وأعاد جميع المدن والولايات التى كانت استلبتها منه الفرس، فسار جنده إلى المدائن بعد أن هزم الفرس عند الموصل.

وكان بعض المنجمين أنذر ملك الفرس بأن بعض ولده يغتاله، فحبس أولاده، وكان فى سجونه ستة وثلاثون ألفا مقيدين مكبلين، ثمن عتوه واستخفافه بالناس أمر بقتلهم، فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا ابنه شيرويه، ولم يقتلوا المقيدين،

(*) الخزر: قوم من الرعاة الرحّل، ينحدرون من أصول تركية، ظهروا فى القوقاز فى القرن الثانى الميلادى، خاضوا حروبا ضد العرب والفرس والأرمن بينما كانت تربطهم بأهل بيزنطة علاقات طيبة. (الشروق).

وجمعوهم إلى شيرويه، فجرى بين شيرويه وبين أبيه مراسلات وتفريع، وآخر الأمر قال شيرويه لأبيه: «لا تعجب إن أنا قتلتك، فإنى أقتدى بك»! فأرسل شيرويه بعض أولاد الأساورة(١) الذين قتلهم أبرويز، وأمرهم بقتله، فقتلوه فى السنة السادسة من الهجرة(٢).

ومعنى أبرويز بالعربية المظفر، وكان قد خلف أبرويز ثمانية عشر ولدا غير شيرويه، فقتلهم شيرويه وجلس على سرير الملك.

فبعد معاناة الحروب بين فارس والروم انتهى الحال، عقب قتل أبرويز، أن صار عقد الصلح مع شيرويه بن خسرو فى السنة السادسة من الهجرة، وكانت شروط الصلح مع الفرس قد اقترحها عليهم قيصر الروم كما شاء وأراد، وبهذا انتهت المنازعة بين فارس والروم فى هذا العهد.

وليست أم شيرويه بنت موريقس قيصر الروم، كما زعمه كثير من مؤرخى الفرس وغيرهم، وقالوا إن اسمها مارية، وأنه زَوَّجها لخسرو أبرويز حين استنجد به على أخصامه.

ولم ينتفع شيرويه بقتل أبيه، ولا لبث فى ملك فارس إلا ثمانية أشهر، فإنه لما قتل أباه راود شيرين زوجة أبيه عن نفسها، فامتنعت، فضيق عليها، ورماها بالزنا، وأراد قتلها إن لم تفعل، فقالت: أفعل على ثلاث شرائط، قال: وما هى؟ قالت: تسلم لى قتلة زوجى أقتلهم، وتصعد المنبر فتبرينى مما قذفتنى به، وتفتح لى ناوس(*) أبيك فإن له وديعة عندى عاهدنى إن تزوجت بعده رددتها إليه! فدفع لها قتلة زوجها فقتلتهم، وبرأها مما قال لها، وفتح ناوس أبيه، وبعث الخدم معها، فجاءت إلى أبرويز فعانقته ومصت فصا مسموما كان معها فماتت من وقتها! وأبطأت على الخدم، فصاحوا، فلم تتكلم فدخلوا وجدوها معانقة لأبرويز ميتة!

---

(١) الفرسان.

(٢) أى سنة ٦٢٨م.

(*) المقصود هنا صندوق تحفظ فيه الأشياء المهمة. (الشروق).

وكان شيرويه ردىء المزاج، كثير الأمراض، صغير الخلق، وكانت إخوته كأنهم عوالى الرماح، قد كملوا فى الخلق والخلق والأدب، ثم ندم على قتل إخوته، وجزع عليهم جزعا شديدا، وكان أبوه أبرويز وضع فى الخزائن برانى سم وكتب عليها: «نافع مجرب لتقوية الباه(*)»، فلما تملك شيرويه وصفا له الأمر دخل الخزينة فنظر إلى البرنية مكتوبا عليها ما ذكر، وكان مغرما بالنساء، فلما ذاق منها مات فى الحال.

والفرس تسميه الغشوم، وكانت مدة ملكه ثمانية أشهر، وعمره اثنتان وعشرون سنة، وتولى بعده ابنه أردشير.

وهذا مصداق قول الأقدمين من استعجل بشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه. ويقال إن محمدا المنتصر[1] العباسى لما قتل أباه المتوكل[2] ليتولى الخلافة تحدث الناس بأنه لا يطول عمره بعده، وشبهوه بشيرويه بن أبرويز حين قتل أباه ولم يتمتع بالملك بعده، فقيل إنه بعد أن جلس المنتصر على سرير الملك فرش له بساط لم ير مثله، وعليه كتابة عجيبة بالفارسية، فنظر إليها نظر استحسان، فاستحضر من يعرف الفارسية وأمره بقراءتها، فأحجم عن ترجمتها، فقال له المنتصر: قل وما عليك بأس، فقال: مكتوب على هذا البساط: أنا شيرويه بن كسرى، قتلت أبى فلم أتمتع بالملك بعده! فتطير المنتصر من ذلك، ونهض من مجلسه غضبان، فلم تتم له مدة شيرويه حتى مات، فإن صح هذا كان من الاتفاق الغريب، وإلا فلا يبعد أن يكون محض اختراع للعظة.

فلما اطمأن الروم من جهة إغارات الفرس وارتاح قيصرهم تفرغ بالكلية لتحقيق العقائد الدينية التى كانت فى زمنه محلا للنزاع، كما سيذكر ذلك فى الفصل الآتى.

ولم يكن فى أيامه فى صدر الإسلام دولة حسية ظاهرة حتى يقع بينه وبينها ما وقع بينه وبين العجم، وإنما كان مظهر الإسلام معنويا، ومقصورا على أناس قلائل

(*) الباه: النكاح والجماع. (الشروق).

(١) حكم من سنة ٨٦١ حتى سنة ٨٦٢م.

(٢) خليفة عباسى حكم من سنة ٨٤٧ حتى سنة ٨٦١م.

فى جزيرة العرب، وكانت العرب منهم من هو فى حوزة الروم، كعرب الشأم، قائم عليهم من طرفهم ملك، أو من طرف الفرس، كعرب البحرين ونحوهم، قائم عليهم من طرف كسرى ملك أيضا، وإن كان صلى الله عليه وسلم قد أرسل إلى كافة الخلق بشيرا ونذيرا فى عهد هرقل إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان بصدد الدين لا بصدد الملك والدولة، فكان كما يدعو كسرى وقيصر إلى الإسلام يدعو ملوك العرب وغيرهم من أتباع الأكاسرة والقياصرة، ويرسل إليهم من أصحابه بدون تمييز التابع والمتبوع فى الدعوة إلى الإسلام، فإنه بعث فى سنة سبع شجاع بن وهب الأسدى إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى، ملك البلقاء بالشام، ودحية الكلبى إلى هرقل، قيصر الروم، وعبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس، وسليط بن عميرة إلى هوذة، ملك اليمامة، وكان نصرانيا، والعلاء بن الحضرمى إلى ملك البحرين، المنذر بن ساوا. وربما كرر الرسالة وأردف الكتاب بكتاب آخر من رسول آخر.

فلما أرسل إلى كسرى أبرويز يدعوه إلى الإسلام مزق الكتاب، وأرسل إلى باذان، عامله باليمن، يأمره بقتل النبى، صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رجلين قد حلقا لحيتهما، فقالا للنبى، صلى الله عليه وسلم: إن باذان يشير عليك بالمسير إلى كسرى وإلا أهلك! فأخر صلى الله عليه وسلم القول معهما إلى الغد، ثم أصبح فدعا بهما، وقال: إن ربى أخبرنى أن كسرى أبرويز قتله ابنه شيرويه، وإن ملكى سيعلو على ملك كسرى وقيصر، فارجعا وامرا باذان أن يسلم، فرجعا وأخبراه، وجاءت كتاب شيرويه بقتل أبيه، فأسلم باذان وخلق كثير من فارس.

وأما النجاشى فقبل كتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأسلم على يد جعفر، رضى الله عنه.

وأما المقوقس، عظيم القبط بمصر، فلما دخل عليه حاطب بالإسكندرية وجده فى مكان يشرف على البحر، فأشار إليه بكتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين أصبعيه، فلما رآه أشار لمن حوله بأخذ الكتاب منه، فلما وصل إليه وجده

مختوما بخاتم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقبله ووضعه على عينيه، فلما فضه وقرأه، فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد، رسول الله، إلى المقوقس، عظيم القبط، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ٦٤) فلما فهم ما في كتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أخذه ووضعه في صندوق، وختم عليه بالرصاص، وتركه عنده، ثم أرسل إلى حاطب ذات ليلة، وخلا به، وليس عنده إلا ترجمانه، قال: ما منع نبيكم أن يدعو على فأسلب عن ملكي؟ فقال حاطب: ما منع عيسى بن مريم، عليه السلام، أن يدعو على من أبى عليه! فسكت عنه المقوقس ساعة، ثم قال له حاطب: إن كان قبلك رجل زعم إنه الرب الأعلى وانتقم الله تعالى منه فاعتبر أنت بغيرك ولا يعتبر بك غيرك، وما بشارة موسى بعيسى بن مريم عليهما السلام إلا كبشارة عيسى بمحمد، صلى الله عليه وسلم، ثم قال المقوقس: أفي عينيه عروق حمر، وبين كتفيه خاتم النبوة، ويركب الحمار؟ قال حاطب: هو بهذه الصفة، قال المقوقس: قد كنت أعلم أن نبيا قد بقي، وكنت أظن أن مخرجه من الشام، ومن هناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، وأنا أعلم أن صاحبك سيظهر على البلاد، وستنزل أصحابه بساحتنا هذه حتى يظهروا على البلاد، وأنا لا أظهر للقبط ذلك.

ثم دعا المقوقس كاتبا يكتب بالعربية فكتب.

«إلى محمد بن عبد الله، عليه السلام، أما بعد، فإني قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، وقد علمت أنك نبي مرسل، وإنك خاتم الأنبياء، وقد أكرمت رسولك غاية الإكرام، وقد بعثت إليك هذه الهدية».

وكانت جملتها جاريتان، إحداهما مارية، وبغلة اسمها دلدل، وحمار اسمه يعفور، وعسل بنها، التي دعا لها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالبركة!

وأما هوذة ملك اليمامة فقال لسليط بن عميرة، عند قدومه إليه: إن جعل محمد إليّ الأمر من بعده سرت إليه وأسلمت ونصرته، وإلا حاربته، فلما عاد بالجواب إلى النبى، صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: «لا، ولا كرامة، اللهم اكفنيه»، فمات هوذة.

وأما المنذر بن ساوا، ملك البحرين، فقد أسلم هو وعرب البحرين.

وأما الحرث بن أبى شمر الغسانى، ملك البلقاء، فإنه لما أخذ الكتاب من شجاع بن وهب الأسدى وقرأه، قال: ها أنا سائر إليه، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما بلغه ذلك: «باد ملكه». وفى كلام بعض أهل السير أن الحرث المذكور أسلم ولكن قال: أخاف أن أظهر إسلامى فيقتلنى قيصر.

وأما هرقل، قيصر الروم، فإن دحية الكلبى وجده إذ ذاك بالشام ببيت المقدس، فأكرمه هرقل، ووضع كتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على فخذه، وقصد أن يؤمن به فمنعه بطارقته، فخاف على نفسه، ورد دحية ردًا جميلا، فلم يكن منه لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ما كان من كسرى، ولم يزل إلى الآن ما صنعه من الجميل فى رد كتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ردا جميلا ذنبا لا يغفر عند قسس[1] النصارى، فإنهم يقولون: إن هرقل إما أن يكون لم يكترث برسالة محمد، صلى الله عليه وسلم، ولاظن اتساع دولته، فهو أحمق، حيث رأى ظهور أمره بعينى رأسه، وإغارته على بعض بلاد الشام، وإما أن يكون أهمل ذلك عمدا، فهو ملوم كل الملامة فى تركه القتال مع نبى يهدم دين النصرانية، مع إنه كان يسهل عليه أن يوقف فتوحاته، وأن يقتفى أثره ويقتله مع أصحابه المجاهدين معه! فهذا ذنب من هرقل لا تصفح عنه النصارى على تداول الأزمان، فهذا ما رآه القسس وشنعوا به على هرقل، ونسوا الحكمة الإلهية والإرادة الربانية.

---

(١) فى الأصل: قس.

سبحان من وضع الأمور بحكمة بعضا هدى والبعض ضل عن السنن

والبعض وافته المسرة والصفا والبعض كدر بالمساءة والحزن

فارغب إلى مولاك فيما عنده واترك جميع الناس يا من قد فطن

واسأله خاتمة السعادة إنه البر الرحيم وفضله يؤتيه من

ولا زال هرقل على عدم إظهار العداوة للنبى، صلى الله عليه وسلم.

* * *

وأما ما وقع فى زمنه صلى الله عليه وسلم من غزوة مؤتة وغزوة تبوك ودومة الجندل فكان موجبه أمراء قيصر على الشام.

وذلك إنه فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة[1]، كان بعث صلى الله عليه وسلم الحرث بن عمير الأسدى بكتاب إلى هرقل، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى، الذى هو من أمراء قيصر على الشام، فقتله حين رجوعه من عند هرقل المذكور، ولم يقتل لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، رسول غيره، فاشتد الأمر عليه صلى الله عليه وسلم، فجهز جمعا من أصحابه، نحو ثلاثة آلاف وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن قتل فالأمير جعفر بن أبى طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون برجل منهم وليجعلوه عليهم». وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع، وقال: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيرا، ولا بصيرا[2] فانيا، ولا تهدموا بناء»، فمضوا حتى نزلوا أرض الشام، فبلغهم أن هرقل، ملك الروم، فى مائة ألف من الروم، وانضم إليه من قبائل العرب المتنصرة بكر ولخم وجذام مائة

---

(١) أى سنة ٦٣٠م.

(٢) البصير هنا معناه: الأعمى، أو ضعيف البصر، فذلك أسلوب عربى مهذب فى التعبير عن الشىء بضده.

ألف، ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين، وكان المسلمون ثلاثة آلاف، كما سبق، وشجعهم عبد الله بن رواحة قائلا لهم: «أنتم خرجتم تطلبون الشهادة، فما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة ولا قوة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، إنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة»، فقال المسلمون: صدق والله ابن رواحة.

فمضوا للقتال، فلقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب، فانحاز المسلمون إلى مؤتة، وهى قرية من قرى البلقاء، فالتقى الجمعان عندها، فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة ومعه لواء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى قتل، رضى الله عنه، فأخذ اللواء جعفر، رضى الله عنه، وقاتل على فرس أشقر، ثم نزل عنه وعقره خوفا من أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين، ثم قاتل، رضى الله تعالى عنه، فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقطعت يساره، فاحتضن اللواء وقاتل حتى قتل، رضى الله عنه، فأخذه عبد الله بن رواحة، وتقدم به، وهو على فرسه، ثم نزل وقاتل حتى قتل فحينئذ اختلط المسلمون والمشركون، وأراد بعض المسلمين الانهزام، فجعل عقبة بن عامر يقول: يا قوم، يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا! فأخذ اللواء ثابت بن أرقم، وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم.

وكان فى هذه السنة، التى هى سنة ثمان من الهجرة، ممن قدم على النبى، صلى الله عليه وسلم، خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، وكان ممن أرسل فى هذه الغزوة خالد بن الوليد، رضى الله عنه، فاصطلح الناس على أن يكون أميرا عليهم، فأخذ اللواء وحمل على المشركين فهزمهم الله اسوأ الهزيمة، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا، وأظهر الله المسلمين.

وكانت مدة القتال سبعة أيام، واطلع الله تعالى رسوله، صلى الله عليه وسلم، على ذلك فأخبر أصحابه.

وفى الحقيقة، هذه الغزوة، التى هى(*) غزوة مؤتة، ليست من الغزوات، بل

(*) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

هي من السرايا، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فيها كما في غزوة تبوك وغيرها من الغزوات التي كان فيها. وغزوة تبوك أيضا لم يتعرض فيها صلى الله عليه وسلم لقتال الروم كما تعرض لهم في غزوة مؤتة، التي هي أول الغزوات بين المسلمين والروم، وتبوك أرض بين الشام والمدينة على البعد من المدينة بأربع عشرة مرحلة.

وسبب غزوة تبوك، التي كانت في رجب سنة تسع[(١)]، أن هرقل ومن اجتمع إليه من لخم وجذام وعاملة أظهروا أنهم يريدون غزو رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبلغه ذلك، وكان الحر شديدا، والجدب كثيرا، والناس في عسر، فلذلك لم يور[(*)] عنها، كعادته في سائر الغزوات، فجهز صلى الله عليه وسلم لها جيشا يدعى جيش العسرة، وبه سميت غزوة العسرة أيضا، وأمر المسلمين بالنفقة، وأنفق أبو بكر جميع ماله، وأنفق عثمان نفقة عظيمة نحو ألف دينار وثلثمائة بعير وطعاما، فقال صلى الله عليه وسلم: ما على عثمان ما صنع بعد هذا اليوم، وأنفق العباس، رضي الله عنه، سبعين ألف درهم، وتخلف عن النفير عبد الله بن أبي ابن سلول، المنافق، والثلاثة الذين تاب الله عليهم من الأنصار، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وجاء البكاؤون يستحملونه[(٢)]، فقال: (لا أجد ما أحملكم عليه) واستخلف صلى الله عليه وسلم عليا، رضي الله عنه، على المدينة، فقال المنافقون: إنما خلفه استثقالا له، فلحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «كذبوا، إنما خلفتك لما ورائي، فارجع، أما ترضى أن تكون منزلتك مني بمنزلة هرون من موسى، إلا إنه لا نبي بعدي؟» وكان مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثلاثون ألفا في عشرة آلاف فارس وأثنا عشر ألف بعير، وجدوا في الطريق شدة من العطش، ونهاهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن ورود ماء الحجر، وهي ديار ثمود، وأمرهم أن يهيقوا[(**)] ماءه، وأن يطعموا

---

(١) أي سنة ٦٣١م.

(*) وَرَّى الشيءَ: أخفاه. والمراد أنه صلى الله عليه وسلم لم يخف أمر هذه الغزوة على أصحابه. (الشروق)

(٢) أي يطلبون منه تدبير ظهور تحملهم إلى الغزو.

(**) لعل المراد (يهرقوا). (الشروق)

عجينة الإبل، وفى هذه الغزوة ضلت ناقته صلى الله عليه وسلم، فتكلم المنافقون، فنزل الوحى وأخبره أنها متعلقة بخطامها فى شجرة، فوجدت كذلك.

ووصل صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، فوجد هرقل بحمص، وأن الروم هابوا محاربته صلى الله عليه وسلم، وأتته رسل هرقل، فكساهم وردهم، وأقام بها عشرين ليلة، وقدم عليه يوحنا، صاحب أيلة، فصالحه على الجزية فبلغت ثلثمائة دينار، وصالح أهل أزرح على مائة دينار فى كل سنة، وأرسل سرية خالد بن الوليد إلى الأكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وكان نصرانيا من كندة، فأخذه خالد، وفتح دومة الجندل، وقتل أخاه، وأخذ قباء(*) ديباج كان عليه منسوجا بذهب، وقدم بالأكيدر على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فحقن دمه، وصالحه على الجزية، وكتب له ولأهل دومة الجندل كتابا، وقال صلى الله عليه وسلم، وقد رأى تعجب أصحابه من قباء أخى أكيدر: «والله لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن منه!» وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فى شعبان.

فمن هنا يفهم أيضا إنه صلى الله عليه وسلم لم يقع منه مقاتلة فى تبوك، ولا حصل فيها غنيمة، ولم يقاتل فيها الروم، ولا كان بينه وبين هرقل حرب، وإنما حرب الإسلام مع هرقل إنما كان ابتداؤها فى خلافة أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، وإنما الحرب وقع من خالد فى دومة الجندل.

ويقال إن أصل الأكيدر من بلدة له قرب عين التمر فى العراق يقال لها دومة، وكان يزور أخو الإله من بنى كلب بأطراف الشام، فبينما هو فى بعض الطريق ظهرت له مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها، وكانت مبنية بمكان يقال له الجندل، فأعاد الأكيدر بناءها، وغرس فيها الزيتون وغيره، وسماها دومة الجندل، تفرقة بينها وبين دومة العراق، ففتحها خالد بن الوليد سنة غزو تبوك المذكورة.

وكان فى الجاهلية لبنى كلب صنم فى دومة الجندل اسمه «ود»، وكانوا يومئذ ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام، ومن مشاهيرهم زهير بن حباب الكلبى، وهو القائل فى غزوتهم لبنى بكر وتغلب على ماء الحنى:

(*) القَبَاءُ: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق به. (الشروق).

أيـن أين الـفــــرار من عـــذار المـو ت وإذ تـتـــقـــون بـالأســـلاب

إذ أســـرنـا مــــهلـهـــلا وأخـــاه وابن عـمـرو فى الـقـيـد وابن شـهـاب

وســـبـــينا مـن تغلب كل بيـــضـــا ء رقـــود الضـــحى بـرود الرضـــاب

وزهير بن شريك الكلبى وهو القائل لزوجته أسماء :

ألا أصـبحت أسـمـاء فى الخـمر تعـذل وتزعـم أنى بـالســـفـــاه مـــوكل

فــقلت لهـــا: كـفى عــتـابك نـصطبح وإلا فــبـــينى فـــالتـــعـزب أمـــثل

فكم جرى عليها فى الوقائع من أيام، حتى وقعت بالفتوح فى نصيب الإسلام .

وإذا نظرت إلـى البـقـاع وجـدتـهـا تشقى كـمـا تشـقـى الرجـال وتسعـد

الفصلُ الخامِس عشرَ

فى ملحوظات تتعلق بمصر فى مدة الدولة الخامسة والثلاثين، التى هى دولة الروم العيسوية، وجدول ملوكها

فى أيام هذه الدولة خرجت مصر من دين الجاهلية إلى الملة العيسوية، واشتهر أهلها بالقبط، وكانت الديانة الرسمية بها اتباع دين النصرانية من ابتداء صدور أمر الملك طيودوسيس الأول، فبقيت بها الحكومة عيسوية إلى السنة الثامنة عشرة من الهجرة[1]، وهى مدة مائتين وتسعة وخمسين سنة، فكانت معدودة من إيالات الروم بالقسطنطينية.

ومع أن مصر فى ظرف هذه المدة السابقة على الفتح الإسلامى كانت متمسكة بدين النصرانية، فكانت لم تزل محافظة على لغتها القديمة الأولية تكلما، وإنما أهملت طريق الكتابة بالقلم المصرى القديم البربائى الجاهلى، واعتاضت عنه بالكتابة اليونانية بالصفة المستعملة فى مدينة الإسكندرية، فكانت ألفاظ لغتها قبطية قديمة وطريق كتابتها بالحروف اليونانية، ولا زالت إلى الآن اللغة القبطية مرسومة بالحروف اليونانية، وإنما يستعمل منها المسائل الدينية عند اليعاقبة، وإنما اعترى بعض الألفاظ تغيير يسير وبقى الباقى من اللغة على ما كانت عليه.

ومن المعلوم أن النصارى متفقون على أن المسيح قتلته اليهود، وصلبته ثلاث

---

(١) أى سنة ٦٤٠م.

ساعات أو ستا، وعاش بعد ذلك، ورآه شمعون الصفا، وأوحى إليه، ثم رفعه الله إليه، وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** ﴾ (النساء: ١٥٧، ١٥٨).

زعم اليهود أنهم قتلوا عيسى بن مريم، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وذلك أن اليهود لما علموا إنه حاضر فى ا لبيت الفلانى مع أصحابه أمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه، يقال له طيطايوس، أن يدخل على عيسى، عليه السلام، ويخرجه ليقتله، فلما دخل عليه أخرج الله عيسى، عليه السلام، من سقف البيت، ورفعه إليه، وألقى على ذلك الرجل شبه عيسى، فظنوه هو، فصلبوه، فكان حين رفعه الله إليه ألقى شبهه على غيره، بنص القرآن الشريف، وهو قولى تعالى: ﴿ **وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾.

والأخبار أيضا واردة بذلك، إلا أن الروايات اختلفت، فتارة يروى أن الله تعالى ألقى شبهه على بعض الأعداء الذين دلوا اليهود على مكانه، حتى قتلوه وصلبوه، وتارة يروى إنه عليه السلام رغب **بعض** خواص أصحابه فى أن يلقى شبهه عليه حتى يقتل مكانه.

وبالجملة، فكيفما كان ففى إلقاء شبهه على الغير إشكالات يرجع حلها إلى أن كل من أثبت القادر المختار سلم أنه تعالى قادر على أن يخلق إنسانا آخر على صورة زيد مثلا، لا سيما إذا كان ذلك معجزة لنبى، وقد نص القرآن على ذلك صريحا فيما أنزل على النبى بمكة، عليه الصلاة والسلام، وأخبرنا به، وقد ثبت بالمعجز القاطع صدق، عليه الصلاة والسلام، فى كل ما أخبر عنه، فكل إشكال فى شبه المصلوب لعيسى، عليه السلام، يمتنع كونه معارضا للنص القاطع ومصادما له، وكذلك الرفع إليه تعالى ثابت، ومعنى رفعه إليه تعالى رفعه من الأرض إلى السماء، التى هى محل العظمة، فلا يقتضى المكان ولا التجسيم بالنسبة إليه تعالى، فرفع عيسى، عليه السلام، كالمعراج برسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى

اليقظة بشخصه إلى السماء، ثم إلى ما شاء الله من العلا، فهو من قبيل الممكنات، والله تعالى قادر على الممكنات كلها، وقد وجده صلى الله عليه وسلم فى السماء الثانية فى عروجه إلى السماء، ففى حديث صحيح أخرجه القاضى عياض[1] فى (الشفاء)، والإمام مسلم[2] فى صحيحه، وغيرهما، بالسند المتصل عن أنس بن مالك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا: فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا». فعلم بما ذكر فى النص من كتاب الله تعالى برفع سيدنا عيسى، والنص من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه وجده فى السماء الثانية.

وذكر بعضهم أن رفعه كان من جهة طورزيتا[*]، وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، إنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «الأنبياء أخوة، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وإنى أولى الناس بعيسى، لأنه لم يكن بينى وبينه نبى، ويوشك أن ينزل فيكم ويحكم حكما عدلا، وإنه نازل إلى أمتى، وهو خليفتى عليكم، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع القامة[**]، وهو إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر كان رأسه يقطر، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، ويسكن الروحاء[3] حاجا ومعتمرا، يقاتل الناس على

---

(1) القاضى عياض (١٠٨٣ - ١١٤٩م) فقيه مغربى، من أبناء سبتة، عاصر ابن رشد وتتلمذ عليه، ومن آثاره - غير (الشفاء) - (مشارق الأنوار فى اقتفاء صحيح الآثار).

(2) أبو الحسن الحجاج القشيرى (٨١٧ - ٨٧٥م) أحد أئمة الحديث، ومسنده فى الحديث (صحيح مسلم) شهير، يأتى بعد صحيح البخارى فى الترتيب.

(*) طورزيتا: جبل يقع شرقى بيت المقدس، مشرف على المسجد الأقصى، شرقى وادى سلوان وهو وادى جهنم ويسمى أيضا «جبل بيت المقدس» وهو كثير الشجر والظل وفيه ينصب الصراط، ومنه صعد عيسى بن مريم عليه السلام حين رفعه الله إليه (الشروق).

(انظر: «بلدانية فلسطين العربية» للأب أ. س. مرجى الدومنكى مطبعة جان دارك - بيروت - لبنان ١٩٤٨).

(**) المقصود: الوسيط القامة. (الشروق).

(3) مكان على نحو أربعين ميلا من المدينة، وقيل على مسافة ستة وثلاثين، وقيل على مسافة ثلاثين ميلا. انظر (مراصد الاطلاع).

الإسلام حتى يهلك في زمانه أهل الأديان كلها غير الإسلام، وتكون السجدة واحدة لله تعالى، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ويقتل على يديه وعلى يد أصحابه، ويقع الأمن في الأرض حتى يرتع الأسد مع الإبل والنمر مع البقر والذئاب مع الغنم، وتلعب الصبيان بالحيات ولا تضرهم، ثم يلبث في الأرض أربعين سنة، ثم يتزوج امرأة من غسان، ويولد له أولاد، ثم يتوفى في المدينة، ويدفن إلى جانب قبر عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فطوبى لأبى بكر وعمر يحشران بين نبيين». وعن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «كيف تهلك أمة أنا في أولها، وعيسى في آخرها، والشهداء من أهل بيتى في وسطها»؟

ومذهب النصارى تجسد الكلمة في المسيح وهم على ثلاث فرق أصلية:

الفرقة الأولى الملكانية: وهم طائفة الروم، يصرحون بالتثليث، وأن المسيح ناسوت كلى قديم من قديم، وأن الكلمة أشرقت على الجسد إشراق النور على الجسم الشفاف، وأن القتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معا، لكن وقوعهما على الناسوت بالمباشرة وعلى اللاهوت بالإحساس والشعور لا بالمباشرة.

والفرقة الثانية النسطورية: أصحاب نسطور، وهم من النصارى بمنزلة المعتزلة، وهم يقولون بالإشراق والامتزاج، يعنى انطبعت الكلمة في الجسد انطباع النقش في الشمعة، وأن القتل والصلب وقع على مجرد الناسوت لا من جهة اللاهوت.

والفرقة الثالثة فرقة اليعاقبة: وهم أصحاب يعقوب البرذعانى، راهب القسطنطينية، وهم يقولون إن الكلمة انقلبت لحما ودما، يعنى مازجت جسد المسيح ممازجة اللبن بالماء، فصار المسيح الإله، يعنى جوهرا متولدا من جوهرين، وأن القتل والصلب وقعا على هذا الجوهر المتولد منهما.

واختلاف هؤلاء الفرق في التجسد قيل هو المراد من قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ** ﴾ وقيل إن الذين اختلفوا فيه هم اليهود، لما نقل أنهم حبسوا عيسى، عليه السلام، مع عشرة من الحواريين في بيت فدخل عليه رجل من اليهود ليخرجه ويقتله فألقى الله شبه عيسى عليه،

ورفع إلى السماء، فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على إنه عيسى، عليه السلام، ثم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ فهذا اختلافهم، فالذين اختلفوا فيه على هذا هم اليهود، وعلى الأول هم النصارى، والواقع أن النصارى افترقت إلى فرق كثيرة، حتى إن بعضهم يقول، كالإسلام: إنه عبد الله ورسوله.

فالجدال فى العقائد العيسوية، الواقع بين أساقفة القسطنطينية بعضهم مع بعض، وبينهم وبين أساقفة الإسكندرية، كان شديدا جدا، ترتب عليه افتراق الفرق وخروج الخوارج واعتزال المعتزلة، وصار يترتب عليه صرف الأموال الجسيمة من شيعة الأحزاب الدينية ومن الحكومة، وكان للأساقفة كمال النفوذ والاحترام فى الدولة الرومية، وكان القياصرة يساعدونهم كل المساعدة على أغراضهم[1]، ويتنازلون كل التنازل فى تعظيمهم، ويخضعون لهم من حيث كونهم أمناء الدين، ويتعصبون مع من يجدونه أعظم اعتبارا، فيميلون إلى حزبه ويسارعون فى تأييده ونصره فى سائر أطراف وأكناف المملكة، فكان يترتب على هذا تعطيل قوة الحكام والأمراء والجنود، وانحطاط نفوذهم بالنسبة لرؤساء الدين العيسوى، فبهذا حصلت الغيرة الدينية والحمية المذهبية بين الفرق، وكل مذهب من المذاهب انتصر له قيصر من القياصرة حقد عليه باقى المذاهب.

هذا ما كان فى القسطنطينية، وسرى ذلك منها إلى مصر، حيث اختلفت فيها المذاهب، وتشعبت المشاعب[*]، وتفرقت الفرق، وكان كل حزب له نفوذ على الحاكم السياسى، فكان الدم يجرى فى الإسكندرية عقب المجادلات بين النصارى المتفرقين بعضهم مع بعض أو مع اليهود، لما بينهم من البغضاء، حتى إنه بأدنى سبب قد اتفق أن أسقف النصارى افتات على نائب مصر، وجمع جموعا على رهبان دير البرية، كأنهم جنود إمدادية، وطرد بهم يهود الإسكندرية منها، وأراد نائب القيصر

---

(١) فى الأصل: إغرائهم.

(*) كان الأولى فى هذ المقام أن يقال: «. . . وتشعبت الشعب أو الشعاب» فهذا هو الجمع الصحيح لكلمة «شعبة» التى يقصدها المؤلف . .
أما «المشاعب» فمفردها «مشعب» وهو مثقب يستعمل فى إصلاح الآنية. (الشروق).

على مصر أن يمنع ذلك حتى فر هاربا منهم هو وأعوانه، بعد أن جرح منهم من جرح، فهرعت الأهالى بمساعدة أمير مصر، وقبض على رئيس الفتنة، وعوقب حتى مات تحت الضرب، فمدحه البطرق أمام الحاضرين، وتلا مقالة فى رثائه، ونظمه فى سلك الشهداء، لاعتقاده إنه مات ظلما!

ومما يدل على درجة نفوذ القسيسين فى تلك الأزمان، وقوة جاههم، أنه ظهرت بنت جميلة تسمى هوباطية، كان أبوها عالما بالرياضيات ومعلما يسمى طيوسيونس، وكانت تدرس كتب أغسطاليس(*) وأفلاطون فى مكتب الإسكندرية(**)، وكانت عفيفة صاحبة معارف حكمية، فاجتمع عليها أرباب الحمية الدينية والعصبة العيسوية، وهى راكبة عربتها فقتلوها(***)، وأحرقوا جثتها بالنار بالإسكندرية، وكان يقودهم لهذه الكبائر قسوس الإسكندرية وواعظ كنيستها، ومع قتلهم لهذه الحكيمة لم ينتقم منهم أحد، ولا عوملوا بموجب الأحكام والقوانين، ولا عاقبهم القيصر فى نظير هذه الفعلة الذميمة، وإنما صدر الأمر القيصرى بالتحريج على القسيسين بأنهم لا يتداخلون فى أمور المملكة، وأن لا يزيد عدد أتباع الدين عن نحو خمسمائة نفس من التلاميذ ويكون تعيينهم باطلاع نائب مصر، وإنما فعل القيصر ذلك تسكينا للفتنة، وتطييبا لخاطر الرعية.

وبعد ذلك أيضا بمدة رجع الحال كما كان، ولكن بوجه آخر، وذلك إنه كثر بالديار المصرية أتباع دين اليعقوبية، على الوجه الموجود عليه الآن، وصار لبطارقته نفوذ زيادة على نفوذ مذهب الملكانية، فقد شوهد أن إنسانا على مذهب اليعاقبة سلب بنت (أحد)[1] أعيان رؤساء المجلس الرومى واحتمى ببطرك الإسكندرية المسمى طيودوسيس فحماه على رؤس الأشهاد، ولم تعاقبه الحكومة، فلما بلغت القضية مرقيانوس قيصر اقتصر على عزل الأسقف المذكور.

وفى أثناء هذه الاختلافات الدينية، المترتبة على الاختلافات المذهبية، داس

(*) لعل المقصود «أرسطوطاليس». (الشروق).

(**) المراد: مكتبة الإسكندرية التى أنشأها بطليموس الأول ونمت وازدهرت فى عهدى بطليموس الثانى، وبطليموس الثالث. (الشروق).

(***) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

(١) غير موجودة بالأصل، والسياق يقتضيها.

العرب بلاد الشام، وقصد المغاربة ديار مصر، فدفعهم نائب القيصر بجنود مصر عنها، ولكن صاروا يتوعدونها بالهجوم، ويهددونها بالقدوم.

ولما كانت حكومة القياصرة مبنية على الخفة والطيش، وكانت لا تدوم على حالة واحدة، وكانت المجادلات الدينية تتولد دائما فى الإسكندرية وتتجدد بسبب ذلك بين أهل الروم واليعاقبة، وكانت[1] العداوة متمكنة بين الملكانية واليعاقبة، عظم الهول فى مصر فى القرن الذى قبل الهجرة، وكان قياصرة الروم يبذلون جهدهم بلا طائل فى جعل دين المملكة الرومية واحدا فى البلاد المشرقية، وكثيرا ما صدرت الأوامر القيصرية بتوحيد العقيدة العيسوية والسير على مذهب واحد، لا تختل أوامر القيصرية فى ذلك، وربما كانت هذه الأوامر سببا فى تأكيد البغضاء والشحناء بين رؤساء الفرق، مقوية لحميتهم، زائدة لنادهم، فكان لا أحد من أهل البلاد الرومية يعترف للقيصر بصحة دخوله فى مادة الدين، وإنه ليس من خصائصه بوجه من الوجوه، حتى إن فرقة اليعاقبة بكنيسة الإسكندرية تشعبت إلى عشرة مذاهب مختلفة، كان يسميهم الملكانيون قسوس الهراطقة، كما أن اليعاقبة يسمون أيضا الملكانية هراطقة، يعنى خوارج، وكان هؤلاء القسس العشرة فى كنيسة الإسكندرية فى زمن حكم زينون قيصر، حتى إنه زاد فى أيامه المال المقرر على مصر حتى بلغ خمسمائة رطل ذهب، وكان قبله خمسين رطلا، فكان نحس مصر فيما يخص الفتن الدينية، وزيادة العوائد فى المالية، فلما خلف أنسطاش زينون نظم دفتر العوائد تنظيما بحيث كثر الإيراد المصرى العائد على الديوان القيصرى، فكان ثقيلا على الأهالى، فحصلت الحوادث العجيبة والمصائب الغريبة فى آن واحد على مصر، مع ما يضم إلى ذلك من إغارة المغاربة على بعض أقاليم مصر، ولا زال هذا الحال يتزايد ويشتد، فكثرت الفتن، وظهر العصيان، وتواترت قيامات الأهالى فى الأزقة والحارات، وكثر إشعال النيران الحسية والمعنوية فى كثير من الجهات، وعدم الأمن فى القرى والأرياف بقطع الطرقات، ونتج عن ذلك ما يترتب على حصول الفتن الداخلية من البلايا، وليس ذلك كله للاختلاف فى مسألة دينية أوّلتها كل فرقة على مقتضى اعتقادها وفهمها، وكل هذا إنما سرى لمصر من فتح دولة القسطنطينية،

---

(١) فى الأصل: وكان.

حيث كثر فيها الاختلال والارتباك[1] وفشا فيها الانهماك على المعاصى من الأعيان الأكابر، والعربدة من الجنود والأصاغر، مما فاق الحد، حتى إن المجادلة الدينية والمباحثات من العلوم الإلهية، بدون فائدة ولا ثمرة، صارت من وظائف المتقلدين للقيصرة، فأضاع القياصرة ما كان حقه أن يصرف فى حسن التدبير، وحصل منهم فى سياسة ملكهم التقصير.

فالديار المصرية اقتدت بهم فى ذلك، وسلكت مثلهم فى مفاوز المسالك، وليس لها باعث آخر لإيثار الفتن والمشاجرات، غير ما أوجبته مصيبة الديانات، ولم يكن أهلها إذ ذاك كأهل هذه الأزمان والأوقات.

وعسى أن يكون ذلك الانحطاط المترتب على الاختلاف سهل لدين الإسلام السبيل، وكان أسبقيته علامة على احتياج مصر لفتوحها بالإسلام وتغير أحوال ذلك الجيل بجيل جليل، لتبلغ درجة من الترقى والتمدن على وجه صحيح، وتتخلص مما كانت عليه من التمسك بما انتسخ من دين المسيح، فلما منحها الله سبحانه وتعالى من نعمه طيب الهوا، ورزقها بخصوبة الأرض التى لا تجود فى السوى[2]، كذلك أنعم عليها بفتوحها بالإسلام الذى لا غلو فيه ولا شطط، وأمته خير أمة أخرجت للناس، حيث هى الوسط، فكما شقى قبط مصر بقياصرة الجدال فى الدين، فقد سعدت مصر بخلافة خلفاء مصر الراشدين.

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواما بأقوام

وآخر ملوك اليونان على مصر هرقل قيصر، ونائبه على مصر هو المقوقس، الذى حاربه عمرو بن العاص، وعليه انتصر.

يا أيها السائل عما مضى عن علم هذا الزمن الذاهب

إن كنت تبغى العلم أو أهله أو شاهدا يخبر عن غائب

فاختبر الأرض بأسمائها واعتبر الصاحب بالصاحب

---

(١) فى الأصل: الارتكاب.

(٢) أى لا تجود فى الغير.

ولنذكر جدول ملوك الدولة الخامسة والثلاثين، التى رأس ملوكها طيودوسيس الأكبر، من تاريخ صدور أمره، وآخرهم هرقل، الذى بقى ملكه على مصر لفتوح الإسلام:

(أسماء الملوك)	(ابتداء سنوات الحكم، بالتاريخ الميلادى[1]	ابتداء الحكم سنة قبل الهجرة	مدة الحكم سنة قبل الهجرة
صدور أمر الملك طيودوسيس الأكبر بالتمسك بدين المسيح رسما وعموما	٣٧١م	٢٤١	١٤
الملك أرقاديوس	٣٩٥م	٢٢٧	١٣
الملك طيودس قيصر الثانى	٤٠٨م	٢١٤	٤٢
الملكة بولشيرية القيصر، وزوجها مرقيانوس قيصر	٤٥٠م	١٧٢	٧
الملك ليون قيصر	٤٥٧م	١٦٥	١٤
الملك ليون قيصر الثانى الملقب بالسلوقى	٤٧٤م	١٥١	عشرة أشهر
الملك زينون قيصر، والملك ياسيلقوس قيصر	٤٧٤م	١٥١	٢٠
الملك أنسطاش قيصر الأول	٤٩١م	١٣١	٢٧
الملك يوسطنيوس قيصر الأكبر، ويسمى جوسطنيوس الأول	٥١٨م	١٠٤	٩
الملك يوسطنيانوس قيصر الأول	٥٢٧م	٩٥	٣٨
الملك يوسطنيوس الثانى	٥٦٥م	٥٧	١٣
الملك طيبروس قسطنطين	٥٧٨م	٤٤	٤
الملك موريقوس، ويسمى موريقس، ويسمى مورسوس طيبروس	٥٨٢م	٤٠	٢٠
الملك فوقاس قيصر	٦٠١م	٢٠	٨
الملك هرقل قيصر	٦١٠م	١٢	٣١

(١) مقابلة التاريخ الهجرى بالميلادى، وتضمينه فى الجدول، إضافة من عندنا، إذ كان المؤلف لا يذكر سوى التاريخ الهجرى فى تحديده للتواريخ.

فجملة حكمهم مائتان وتسعة وخمسون سنة، كما سلف ذلك، فإذا جمعتها تجدها كذلك، وربما يختلف الحساب اختلافا يسيرا بالنظر للفروق اليسيرة التى تحصل من عدم علم شهور التولية.

ثم إنه ينبغى أن نذكر عقيب هذا الجدول جدول عموم الدول التى حكمت مصر من ابتداء الملك ميناوس، الذى هو مصرايم، إلى آخر ملك من ملوك الروم جاء عليه الفتح الإسلامى، وهو هرقل، الذى كان عامله على مصر الملك المقوقس، وها هو الجدول:

«جدول الدول المصرية من ابتداء ملوكيتها إلى الفتوح بالإسلام»

الدول المصرية على رأى مانيطون، كما فى فهرسته التاريخية

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبتها المحلية	قاعدة ملك الدولة	الإقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ التملك مضافا لما قبل الهجرة[1]	(ملحوظات تاريخية)
				سنة	سنة	
١	طينيسية	طينيس	إقليم جرجا	٢٥٣	٥٦٢٦ ق.هـ ٥٠٠٤ ق.م	محل طينيس الآن العرابة المدفونة. فى عهدها أسس ميناوس مدينة منف
٢	شرحه	شرحه	شرحه	٣٠٢	٥٣٧٣ ق.هـ ٤٨٥١ ق.م	فى عهدها ملوكية النساء كانت جائزة.
٣	منفية	منف	إقليم الجيزة	٢١٤	٥٠٧١ ق.هـ ٤٤٤٩ ق.م	محل منف ميت رهينة. وفى عهدها بنيت أهرام سقارة ودهشور
٤	منفية	شرحه	شرحه	٢٨٤	٤٨٥٧ ق.هـ ٤٢٣٥ ق.م	فى عهدها بناء أهرام الجيزة الكبيرة.
٥	منفية	شرحه	شرحه	٢٤٨	٤٥٧٣ ق.هـ ٣٩٥١ ق.م	

(١) ضمنا هذه الخانة من خانات الجدول تاريخ التملك حسب التاريخ الميلادى، وميزناه عن الهجرى بإضافة (ق . هـ) للهجرى و(ق . م) أو (م) للميلادى، لأن المؤلف كان يذكر الهجرى فقط.

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبتها المحلية	قاعدة ملك الدولة	الإقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ التملك مضافا لما قبل الهجرة	(ملحوظات تاريخية)
				سنة	سنة	
٦	فيلية	فيلة	إقليم إسنا	٢٠٣	٤٣٢٥ ق.هـ ٣٨٠٣ ق.م	فيلة هى جزيرة أصوان
٧	منفية	منف	إقليم الجيزة	٠٧٠	٤١٢٢ ق.هـ ٣٥٠٠ ق.م	
٨	منفية	شرحه	شرحه	٢٤٢	٤١٢٢ ق.هـ ٣٥٠٠ ق.م	
٩	إهناسية	إهناس المدينة	بنى سويف	١٠٩	٣٩٨٠ ق.هـ ٣٣٥٨ ق.م	
١٠	إهناسية	شرحه	شرحه	١٨٥	٣٨٧١ ق.هـ ٣٢٤٩ ق.م	هؤلاء الدول العشرة هى الطبقة العليا
١١	طيوية	مدينة طيوة، الآن قرية آبو	إقليم قنا	٢١٣	٣٦٨٦ ق.هـ ٣٠٦٤ ق.م	أول الدولة رمسيس الثالث. وفى هذا العهد كان بناء السراديب التى تحت الأرض بالفيوم
١٢	طيوية	شرحه	شرحه			
١٣	طيوية	شرحه	شرحه	٤٥٣	٣١٧٣ ق.هـ ٢٥٥١ ق.م	

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبتها المحلية	قاعدة ملك الدولة	الإقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ التملك مضافا لما قبل الهجرة	(ملحوظات تاريخية)
				سنة	سنة	
١٤	سخاوية	سخا	إقليم المنوفية	١٨٤	٣٠٢٠ ق.هـ ٢٣٩٨ ق.م	
١٥	ملوك رعاة	مدينتهم صان	إقليم الشرقية	٥١١	٢٨٣٥ ق.هـ ٢٢١٣ ق.م	يقال لدولة الرعاة دولة العمالقة، وهم عرب الحجاز والشام، وفى أيامهم كان فى طيوة بالصعيد ملوك مصريون منهم أو سومنديناس صاحب الكتبخانة المسماة دواء الأرواح، وإلى الآن أشاهد فى مدينة طيوة آثار ـ قصوره، واسمه عند المصريين سمقوس، والدولة السابعة عشرة آخر دول الطبقة الوسطى.
١٦	ملوك رعاة	،،	إقليم الشرقية			
١٧	ملوك رعاة	مدينتهم تنيس	شرقية			
١٨	طيوية	طيوة	إقليم قنا	٢٤١	٢٣٢٥ ق.هـ	فى عهد هذه الدولة أسس طوميسيس الأول مدينة آبو، وخرج العمالقة من مصر، وحفرت بحيرة قارون. وهى ابتداء الطبقة الأخيرة.
١٩	طيوية	شرحه	شرحه	١٧٤	٢٠٨٤ ق.هـ ١٤٦٢ ق.م	رأس هذه الدولة رمسيس الرابع الملقب ميمون.

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبتها المحلية	قاعدة ملك الدولة	الإقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ التملك مضافا لما قبل الهجرة	(ملحوظات تاريخية)
				سنة	سنة	
٢٠	طيوية	شرحه	شرحه	١٧٨	١٩١٠ ق.هـ ١٢٨٨ ق.م	بهذه الدولة انتهاء الملوك الرمسيسية
٢١	تنيسية	تنيس، وهى صان	إقليم الشرقية	١٣٠	١٧٣٢ ق.هـ ١١١٠ ق.م	فى عهد هذه الدولة ملك داود، وسليمان، عليهما السلام
٢٢	بسطية	تل بسطة	إقليم الشرقية	١٧٠	١٦٠٢ ق.هـ ٠٩٨٠ ق.م	رأس هذه الدولة الملك شيشاق.
٢٣	تنيسية	تنيس	شرحه	٠٨٩	١٤٣٢ ق.هـ ٠٨١٠ ق.م	فى آخر هذه الدولة أرخ اليونان وقائعهم بالتاريخ الأولمبيقى، نسبة إلى الألعاب - الأولمبيقية البرجاسية التى تنعقد كالمعرض فى عهدنا مرة كل أربع سنين، فالقرن الذى هو مائة سنة يشتمل على ستة وعشرين مجمعًا، وأول مجمع أولمبيقى كان سنة ١٣٩٨.
٢٤	صاوية	صا الحجر	إقليم الغربية	٠٠٦	١٣٤٣ ق.هـ ٠٧٢١ ق.م	رأس هذه الدولة بوخوريس الأسود، وفى عهدها كان تأسيس مدينة رومة.

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبتها المحلية	قاعدة ملك الدولة	الإقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ التملك مضافا لما قبل الهجرة	(ملحوظات تاريخية)
				سنة	سنة	
٢٥	سودانية	سودان	نوبة وحبشة	٥٠	١٣٣٧ ق.هـ ٧١٥ ق.م	
٢٦	صاوية	صا الحجر	إقليم الغربية	١٣٨	١٢٨٧ ق.هـ ٠٦٦٥ ق.م	رأس هذه الدولة إيسا سيقوس الأول. ومن ملوكها أنيخاوس الثانى، الذى جمع البحر الأبيض بالبحر الأحمر بخليج، وفى عهدها كان ظهور بختنصر ملك الموصل.
٢٧	فارسية	فارس	إيالة مصرية فارسية	١٢١	١١٤٩ ق.هـ ٠٥٢٧ ق.م	فتح قنبياش مصر وتكبر وتجبر وسمى نفسه بختنصر الثانى، وهذا معنى قول المؤرخين: إن بختنصر استولى على مصر.
٢٨	صاوية	صا الحجر	إقليم الغربية	٠٠٧	١٠٢٨ ق.هـ ٤٠٦ ق.م	
٢٩	أشمونية	أشمون الرمان	إقليم الدقهلية	٢١	١٠٢١ ق.هـ ٠٣٩٩ ق.م	
٣٠	سمنودية	سمنود	إقليم الغربية	٠٣٨	١٠٠٠ ق.هـ ٠٣٧٨ ق.م	

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبتها المحلية	قاعدة ملك الدولة	الإقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ التملك مضافا لما قبل الهجرة	(ملحوظات تاريخية)
				سنة	سنة	
٣١	فارسية	فارس	إيالة مصرية فارسية	٠٠٨	٠٩٦٣ ق.هـ ٠٣٤١ ق.م	فتوح العجم لمصر ثانى مرة، ولم تعد دولة الملة المصرية للمتأصلين بها، وهو انتهاء الطبقة الأخيرة، وفهرسة مانيطون.
٣٢	مقدونية	مقدونيا	إيالة مصرية يونانية	٠٢٧	٠٩٥٤ ق.هـ ٠٣٣٢ ق.م	فتوح الإسكندر الأكبر لمصر، وعمالة ـ بطليموس سوطير.. إلخ وتأسيس الإسكندرية.
٣٣	دولة البطالسة	بطليموس	قاعدة المملكة الإسكندرية	٢٧٥	٠٩٢٧ ق.هـ ٠٣٠٥ ق.م	هذه الدولة البطليموسية هى دولة اليونانية، إلا أنها استقلالية بحكومة مصر ومضافاتها.
٣٤	الدولة الرومانية	رومة	إيالة مصرية رومانية قاعدتها الإسكندرية	٤١١	٠٦٥٢ ق.هـ ٠٠٣٠ ق.م	انتهاء هذه الدولة من تاريخ أمر طيودوسيس قيصر سنة ٢٤١.
٣٥	رومية عيسوية	روم قسطنطينية	حكومة مصر رومية	٢٥٩	٠٢٤١ ق.هـ ٠٣٨١ م	انتهاء هذه الدولة بفتوح مصر بالإسلام سنة ثمانية عشر من الهجرة المحمدية، على ـ صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

ثم إنه من عهد التاريخ القديم، الذى تكونت فيه الممالك القديمة، والدول العظيمة، كدول مصر، ودول اليونان، ودول الفرس الأولى، كانت أمة العرب عريقة القدم، قائمة الملك على ساق وقدم، وإن لم تكن لها دولة تضبطها، ولا روابط سياسية تربطها، إلا أنها كانت على سنن قويم، وطريق مستقيم، حريتها فطرية، ونسائم فطنتها عطرية، دأبها حب الحاكمية لا المحكومية، والميل إلى الغالبية لا المغلوبية، فلهذا لم يكونوا فى الأحقاب الخالية والأعصر البالية تحت استرعاء دولة من الدول، وإذا غالبهم جنس قوى بالكثرة لا يكاد يتمكن من إدخالهم تحت الطاعة، ولا أن يدخلهم فى زمرة من فى قبضته من الجماعة، ولا يستطيع أن يغير أخلاقهم ولا طباعهم، ولا يمكنه تبديل صفاتهم المميزة لهم عن معتادها، فإن كانت لهم طاعة اقتضتها صروف الحدثان، فهى طاعة صورية يتنصلون منها حسب الإمكان، وكان لهم من الحرية والعزة أعلى مزية.

فلهذا بقيت أخلاقهم على تداول الدهور واحدة، واستمرت عوائدهم مستوية نحو أربعة آلاف سنة، لا ناقصة ولا زائدة، يميلون بالطبع لشن الغارة على البلاد، والاستيلاء على العباد، وإذا خرجوا إلى النجعة قل أن يعزموا على الرجعة، فأمة العرب دائما قوية على الإغارة على ما جاورها من الممالك، شديدة التغلب على ما جاوزها من المسالك، فقد أغار ملوكها على مصر فى قديم الزمان، وتواريخ مصر بذلك أقوى دليل وبرهان، وكانوا يدعون أيام دولتهم بمصر بالملوك الرعاة وبالملوك العمالقة.

ولما دخلها يوسف، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، كان عزيزا عند فرعون الذى كان من نسل هؤلاء العرب الرعاة، وكانت أيام فرعون بعزازته أحسن الأيام، وقد تسلطن ملوك العرب أيضا على الشام والعراق كالغسانية والكنديين وخلافهم، وكان ذلك قبل الهجرة باثنتين وعشرين سنة ومائتين وألف، فاتسعت بذلك دولتهم، وتمكنت خارج حدود جزيرتهم صولتهم، وربما أثبت التاريخ أن دولة حمير ملكت العالم بأسره من عرب وعجم، وإن لهم آثارا ببلاد التتار فى

مدينة بلخ وهمذان وخلافها، وأن ذا القرنين كان حميريا واستولى على جميع الأمم.

وبالجملة، فلا شك أن العرب بعد أن حكمت فى الزمان القديم خارج حدودها، وأغارت على فراعنة مصر وانتصرت عليهم بأعلامها وبنودها، كما حاربت بعد ذلك ملوك الموصل وهزمتهم غير مرة، رجعت إلى حدودها الأصلية وبقيت فيها على أصول نخوة الحرية والشهامة مستمرة.

ولما تغلب كيروش، ملك الفرس، على مصر والشام، وخلفه على تلك البلاد ابنه قبيشاش، الذى كان فى الإغارات كالأسد الضرغام، وطمع، لقربه من بلاد العرب، فى أن يسترعيهم كما استرعى من بجوارهم، لم يستطع أن ينشب العرب بأظفاره، وخاب أمله حيث استمروا على الحرية، ولم يذوقوا منه طعم ذل الرعية.

وكذلك لما تغلب الإسكندر الأكبر على بلاد المشرق لم ترض العرب أن تنتظم تحت لوائه، ولا دخلت تحت حكمه وولائه، ولما حكم الرومانيون جميع بلاد الدنيا، ولا خلا من أسرهم إلا قليل من العباد، بقيت جزيرة العرب فى دولتهم مستبدة بأمرها، مستقلة بنفسها، يحكمها شيوخها وأمراؤها وملوكها وكبراؤها، ولم تنقد للدولة الرومانية طرفة عين، ولا دخلت تحت استعبادها، والحر الزين لا يحتمل القيد الشين!

نعم كان للرومانيين بعض ولاء صورى على طرف من الحجاز، ولم يكن فى الحقيقة إلا من باب المجاز، حتى إن عثمان بن حويرث لما تنصر وقصد أن يجعل الكعبة المشرفة ضمن هياكل الروم، واجتهد فى ذلك خاب سعيه الملوم، ومنعته كل المنع قريش، وعرف أن رأيه ليس من جميل الحلم بل من قبيل الطيش.

فأصبحوا قد أعاد الله دولتهم — إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

ولن يزال أمام منهم ملك — إليه يشخص فوق المنبر البصر

إن عاقبوا فالمنايا من عقوبتهم — وإن عفوا فذوو الأحلام إن قدروا

وقد انتهى الحال بأن أتاح الله لهم خير دولة، ومنحهم بمنه وإحسانه أعلى صولة. قال الإمام الشافعى، رضى الله تعالى عنه: «أمة العرب أولى الأمم، لأنهم المخاطبون أولا، ولأن الشريعة عربية والدين عربى»! وهو مأخوذ مما رواه ابن عباس، رضى الله عنهما: «أحبوا العرب لثلاث، لأنى عربى، والقرآن عربى، وكلام أهل الجنة فى الجنة عربى»! وعنه أيضا: «أحبوا قريشا، فإنه من أحبهم أحبه الله تعالى». فالعرب هم الذين قاموا فى نصرة الدين، وباعوا أنفسهم لله تعالى، وأظهروا الإسلام، وأزاحوا ظلمة الشرك.

ولنذكر فى الباب الثانى مناقبهم الحسنة، التى لم تزل على صفحات الدهر حسنة.

الباب الثانى

(فى ما كان عليه العرب قبل الإسلام إلى أن ظهر بين ظهرانيهم
بدر التمام ومصباح الظلام عليه أفضل الصلاة والسلام.
وفيه فصول.)

الفصل الأول

(فى صفة العرب المميزة لهم عن غيرهم)

إعلم أن العرب ترجع كلها إلى قحطان وعدنان، فيقال لسائر قحطان: اليمن، ويقال لسائر بنى عدنان: المضرية والنزارية، وهى قيس، ويقال قيسى، ويمانى، كما يقال سعد وحرام، وكل من قحطان وعدنان كما هم متحدون فى النسب متحدون فى الطبائع والعوائد على اختلاف طبقاتهم الست التى هى الشعوب والقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ والفصائل، فالشعب أكبر من القبيلة، كربيعة ومضر والأوس والخزرج، والقبيلة ككنانة، والعمارة كقريش، والبطن كقصى، والفخذ كهاشم، والفصيلة كبنى العباس.

وأول صفة من صفات العرب المحمدة، وهى الشهامة فى الحرص على ما يوجب الذكر الجميل من العظائم والثناء الجميل من المكارم، وهذه الصفة كعلو الهمة والحمية والنجدة من أركان الشجاعة التى هى صفة جامعة لذلك، فكانوا يحبون المحامد والفخر وبعد الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجميل، كانتصارهم على الأعداء وكسب الغنائم، فكانت النصرة عندهم تقوم مقام الحقوق المدنية فيما يترتب عليها من المزايا البلدية أو هى عين حقوق الحرب والصلح عند الأمم المتمدنة، وإنما يتولاها صاحب الحق بنفسه أو بقبيلته، لأن أفراد العرب جميعهم كملوك يسوسون نفسهم بنفسهم، وكانوا ينتقمون من العدو ويأخذ الثأر، فكانت المقاصة عندهم يستوى فيها سائر العشائر والقبائل، فلا قبيلة إلا وتأخذ

ثأرها من القبيلة الأخرى ولا عشيرة إلاّ وتستوفى ثأرها وتنفى عارها، فكانت المحمدة على الخير والشر باعثة لهم على كسب المحامد أو كسب المثالب المأذونة التى يعدونها من المحامد الحقيقية. كما يحكى أن بعض العرب وقف على قبر عامر بن الطفيل بن سالك بن جعفر العامرى فقال يرثيه: «أنعم ظلاما أبا على، فلقد كنت تشن الغارة، وتحمى الجارة، سريعا إلى المولى بوعدك، بطيئا عنه بوعيدك، وكنت لا تضل حتى يضل النجم، ولا تهاب حتى يهاب السيف، ولا تعطش حتى يعطش البعير، وكنت خير ما تكون حتى لا تظن نفس بنفس خيرا». انتهى.

فقد مدحه بأحسن ما يوصف به عربى، فكان بقاء ذكر الإنسان بعد الموت بمنزلة الحياة. قال بعضهم:

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم ... بأفعالنا إن الثناء هو الخلد

وقال آخر:

فإن يك أفنته الليالى فأوشكت ... فإن له ذكرا سيفنى اللياليا

ومن صفاتهم، النجدة التى هى عدم الجزع عند المخاوف، فكانوا منها على مكانة عالية، فكانت أحلامهم تحمل أجسامهم ما لا يطاق، وسواء فى ذلك الشخص والقبيلة، كما قيل فى الأول:

أكر على الكتيبة لا أبالى ... أفيها كان حتفى أم سواها

ولى نفس تتوق إلى المعالى ... ستتلف أو أبلغها مناها

(غيره):

كنت المقدم غير لابس جنة ... بالسيف تضرب معلما أبطالها

وعلمت أن النفس تلقى حتفها ... ما كان خالقها إليك قضى لها

(غيره):

فإن يك قيدى كان نذرا نذرته ... فما بى من أحساب قومى من شغل

أنا الضامن الراعى عليهم وإنما يدافع عن أحسـابهم أنـا أو مثـلى

وقيل فى الثانى :

وكفى تستقل بحمل سيفى وبى ممـن يهضمنى امتنـاع

وحولى من بنى قحطان شيب وشبان إلى الهيجا سـراع

إذا فزعوا فأمرهمو جميع وأن لاقـوا فأيديهم شعاع

وقـوله :

لا يبعد أن قومى الذين هم سـم العداة وآفـة الجـزر

النـازلين بكل معتـرك والطيبـين معاقـد الأزر

فكان إذا خطر بقبيلة منهم ذات يوم فكرة اقتحام خطر من الأخطار لقضاء وطر من الأوطار اتحد أفراد القبيلة وصاروا على قلب رجل واحد، وهموا بتنجيز ما أضمروه، وقل أن يفوتهم نجازه، كما قيل :

كانوا على الأعداء نار محرق ولقومهم حرما من الأحرام

وكان طريق وصولهم إلى مقصودهم بشيئين متوفرين عندهم : وهما اتحاد القبيلة فى اللغة، واتحادها فى الدين، إذ كان لكل قبيلة لغة خاصة بها، وعبادة كذلك، فلو كانت القبائل العربية فى تلك الأزمان الأولية يجمعها لسان واحد يحصل به التفاهم، مع التماسك بدين واحد، لما ساواها غيرها من الأمم فى السطوة والبأس، ولا خلص من الدخول فى دولتهم أمة من الأمم ولا أحد من الناس وسيأتى الكلام على لسان العرب وأديانها.

ومن صفات العرب الحمية على العرض وشرفه وحفظ ناموسه، وهذه الصفة بعينها هى التى بعثتهم جميعا، على اختلاف قبائلهم، على علو الهمة وكمال الشجاعة وكرم النفس، وإنما تغالى بعضهم فى شرف العرض حتى أداهم الغلو فيه إلى صفات ذميمة، كدفن البنات بالحياة، الذى هى أفظع ما يكون فى حد ذاته، إلاّ أن المعنى الباعث عليه عندهم كانوا يرونه حميدا لدفع العار، وهذا ما يسمى بالوأد-

يقال وأد المؤودة يئدها دفنها حية - وكانت العرب فى الجاهلية تفعل هذا بالبنات، فقيل إن هذا لتجنب العار، وقيل لخشية الإملاق الذى يترتب عليه عدم وجود الكفء للزواج فيخشى عليهن التفريط فى العرض أو الميل لغير الكفء للعجز عن التكسب من البنات وقدرة البنين عليه.

فكان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد بقاء حياتها ألبسها جبة من صوف أو شعر لترعى له الإبل والغنم فى البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا بلغت قامتها ستة أشبار فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أقاربها، وقد حفر لها بئرا فى الصحراء، فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظرى فيها، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوى البئر بالأرض! وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت[1] على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتا رمتها فى الحفرة، وإذا ولدت ابنا أمسكته. ولا مانع من حصول الوأد بالطريقتين، بل وبطرائق أخرى، والحامل على ذلك إما خشية الإملاق أو خشية العار، فقد كان قيس بن عاصم المنقرى يئد بناته مع كثرة ماله.

وكان صعصعة بن ناجية المجاشعى، جد الفرزدق، يشترى البنات ويخلصهن من القتل، كما قال الفرزدق مفتخرا:

ومنا الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم توأد

يروى أن صعصعة لما أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: يا رسول الله، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية، أفينفعنى ذلك اليوم، قال: وما عملك؟ فأخبره بخبر طويل فيه أن حضر ولادة امرأة من العرب بنتا فأراد أبوها أن يئدها، قال: فقلت له: أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادها؟! قال: قلت: إنما أشترى حياتها ولا أشترى رقها، فاشتريتها منه بناقتين عشراوين وجمل، وقد صارت لى سُنَّة فى العرب على أن أشترى ما يشدونه[2] بذلك، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون

---

(١) أى جاءها المخاض. وفى الأصل: تمغضت، وهو تحريف.

(٢) أى يظهرونه ويعلنونه.

ومائتا مؤدة وقد أنقذتها. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا ينفعك ذلك، لأنك لم تبتغ بذلك وجه الله، وأن تعمل فى إسلامك عملا صالحا تثب عليه.

وفاخر الفرزدق رجلا عند بعض خلفاء بنى أمية فقال: أنا ابن محيى الموتى! فأنكر ذلك عليه من قوله، فقال: إن الله عز وجل يقول: ﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ (المائدة: ٣٢) وجدى منع وأد البنات واشتراهن بماله، فذلك الإحياء، فقال الخليفة: إنك مع شعرك لفقيه! مع أن الفرزدق وإن أحسن فى المعنى فقد أساء فى العبارة، فلا ينبغى سماع مثل ذلك لأنه تلاعب بالدين.

ونظير ذلك أن رجلا أراد التوصل إلى المأمون فقال: «أيها الناس إعلموا أن عندى ما ليس عند الله تعالى، ولى ما ليس لله تعالى، ومعى ما لم يخلق الله تعالى، وإنى أحب الفتنة، وأكره الحق، وأقول: إن اليهود قالت حقا، وإن النصارى قالت حقا، ومعى زرع ينبت بغير بذر، وسراج يضىء بغير نار، وأنا أحمد النبى، وأنا ربكم أرفعكم وأضعكم»! فقاموا إليه وكادوا يقتلونه، قائلين: لا كفر فوق هذا! فرفعوه إلى المأمون، فسأله فعرفه إنما قال ذلك ليتوصل إليه، وأخذ يتأول، فقال: «أما قولى لى ما ليس لله تعالى، فإن لى صاحبة وولدا، وليس لله صاحبة ولا ولد، وأما عندى ما ليس عند الله تعالى، فعندى الظلم والجور، ومعى ما لم يخلق الله تعالى القرآن، والفتنة المال والولد، والحق الموت، والزرع بغير بذر: الشعر، والسرج بغير نار: العينان، والحق الذى قاله اليهود والنصارى ما حكاه الله تعالى عنهم ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾ (البقرة: ١١٣)، وأنا أحمد النبى، يعنى أحمد نبينا محمدا، صلى الله عليه وسلم وأشكره، وأنا ربكم: صاحب لكم، أرفع ذكركم وأضعه». انتهى.

وهذا الإطلاق مستهجن قبيح لا يجوز ذكره، فمدح الفرزدق بالأفقهية زيادة عن الشعر فى التعبير عن فداء الموؤدة بمحيى الموتى استحسان قبيح، لا سيما من مثل الخليفة الأموى.

والظاهر أن الوأد لم يكن مع ذلك كثيرا، وإن كان واقعا، فإن العرب كغيرها من الأمم تحرص على النسل، حيث هو أمر طبيعى، فالوأد عرضى فقط، ونادر لا حكم

له، فقد عهد عندهم زواج الفقيرة لأبناء الملوك، وزواج امرىء القيس فى بحثه عند أحياء العرب من ذات عقل يؤيد ذلك، وقصة زواجه أنه كان آلى على نفسه أن لا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن له أربعة عشر، فبينما هو يسير فى جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمه، فأعجبته، وقال لها: يا جارية، ما ثمانية وأربعة واثنان؟ فقالت: أما ثمانية فأطباء الكلبة، وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما اثنان فثديا المرأة، فخطبها من أبيها، فأجابه إلى ما طلب.

وقصة بنات المحلق الكلابى مما يؤيد ما قلناه ـ كما سيأتى فى الكلام على سوق عكاظ قريبا ـ.

ومن صفات العرب أيضا كرم النفس ومكارم الأخلاق، وكان يحملهم على الانتصار لمن استنصر بهم وإجارة من استجار، كما يحملهم على صدق العهد ووفاء الوعد، يستوى فى ذلك منهم الوثنى والكتابى حتى بقى فيهم إلى الإسلام بالأولى والأحرى، وهذا كله يجمعه الاتصاف بالمحامد والمكارم، فالمحمدة اسم جامع للصفات الحميدة، ومن تأمل قصيدة الشنفرى[1] التى مطلعها:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم   فإنى إلى قوم سواكم لأميل

يقول منها:

وكل أبى باسل غير أننى   إذا عرضت أولى الطرائد أبسل

عرف همة العرب ومن وزن معلقة عمرو بن كلثوم[2] المشهورة ولامية السموأل[3] بميزان العقل عرف أيضا أحوالهم إذ كلهم على هذه المثابة وهى:

---

(١) عمرو بن مالك الأزدى (المتوفى سنة ٥٢٥ م) من شعراء الصعاليك فى الجاهلية، تنسب إليه القصيدة الشهيرة المعروفة بلامية العرب، التى هنا مطلعها.

(٢) عمرو بن كلثوم التغلبى (المتوفى حوالى سنة ٥٨٤ م) شاعر جاهلى، من سادات العرب، وأحد الشعراء أصحاب المعلقات الشهيرة.

(٣) ابن غريض بن عادياء (المتوفى حوالى سنة ٥٦٠ م) شاعر جاهلى، يهودى، اشتهر بالوفاء عندما ضحى بولده عوضا عن خيانة امرئ القيس فيما أودعه لديه، أمانة، من سلاح ومال.

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

تعيرنا إنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول

وما ضرنا إنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

وإنا أناس لا نرى القتل سبه إذا ما رأته عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل

ونحن كماء المزن ما فى نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول بما قال الكرام فعول

وما خمدت نار لنا دون طارق ولا ذمنا فى النازلين نزيل

وأيامنا مشهودة فى عدونا لها غرر مشهورة وحجول

وأسيافنا فى كل شرق ومغرب بها من قراع الدارعين فلول

معودة أن لا تسل نصالها فتغمد حتى يستباح قتيل

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

فإنا بنى الريان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

وقال عباس بن عبد المطلب يذكر فخار قريش :

إن القبائل من قريش كلها ليرون أنا هام أهل الأبطح

وترى لنا فضلا على ساداتها فضل المنار على الطريق الأوضح

وسيأتى لذلك بقية عند ذكر الشعر والشعراء فى الجاهلية .

وقد بقيت هذه النخوة الفخارية فى العرب إلى الإسلام ، بل وإلى الأزمان الأخيرة عند نسل العرب الملتزمين ، فمن ذلك ما ينسب لبعض عظماء أولاد عائد «بالدوير» بصعيد مصر ، وهو قوله :

إذا ما ركبنا ظهور الجياد فمن ذا لفرساننا يقهر

ومهما أمرنا لكل البلاد فكل مطيع لما نأمر

ونحن الملوك وأهل السداد ونحن لأصدافهم جوهر

ومن يبتغينا ينال المراد ويرجع طلقا ويستبشر

فخل سوانا وصف الفؤاد ترى من عطانا الذى يبهر

وفن «الموال» قام عند عرب الصعيد مقام الشعر عند سلفهم ، فلهم فيه الملكة الجيدة ، مع لحنه الذى يحلو به ، ومع ذلك فأين هذا كله من ذاك . .

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

الفصل الثانى

فى لسان العرب، وكون ملكة الشعر والخطابة فيهم بالجبلة والطبيعة

لما كانت العرب مطيعة لطبائعها التولدية وغرائزها الفطرية، وكانت الملكة الأصلية الجبلية فيهم على حد سوى، اتحدت ألسنتهم وأفكارهم وحماستهم وبلاغة مقالهم، وإنما اختلفت فيهم لغات الأحياء والقبائل ومخاطبات البطون والعشائر، يعنى اتحد اللسان الذى به الفهم والتفهم واختلف متعلقه وأحوال التلفظ به فى التأدية وأسماء المسميات وكيفيات الحركات والسكنات، ومع ذلك فاللسان واحد وعلى قاعدة واحدة تكاد أن تكون عمومية لا يعتريها تغيير وإلا لكان لحنا وغلطا، ولا يجوز أن يتوهم فى العرب البدوى أن يغلط فى نطقه ويلحن فيه، وإن تعمد ذلك لا يطاوعه لسانه، فالعرب معصومون من لحن اللسان وإطلاق الألفاظ على معانيها، وإنما يجوز أن يغلطوا فى المعانى، أى لا يطابق كلامهم الواقع، فقد رد على من قال: فى مدح مسيلمة الكذاب:

وأنت غيث الورى لازلت رحمانا

أنه لا يطلق إلا على الله تعالى، وإنما قالوا ذلك لتعنتهم فى كفرهم فإن التعنت فى الكفر لا يخرج العربى عن طبعه لأنه معصوم من اللحن وأن المخصوص بالله تعالى الذى لا يطلق على غيره إنما هو المعرف بالألف واللام.

ولما كـانت لغـات العـرب لا بد من تداولهـا فى المحـاورات والمخـاطبـات والمحاضرات، وكان أهل نجد والحجاز مثلا لا يفهمون لغة اليمن وحمير، بل ربما كانت قبائل إقليم واحد لا تكاد تتكلم بلغة واحدة، أى لا تستعمل كلمات واحدة فى تأدية المعنى، وكانوا جميعا مولعين بقول الشعر ونشره بينهم بدون يأس ممن أبطأ فى قوله ثم نطق به كالنابغة الذى نبغ فيه مرة واحدة، ولقب بذلك، اجتمع الشعراء وأجمعوا رأيهم على تحسين اللسان العام الذى يكون به التفاهم عند جميعهم، وأنجزوا بذلك، فكانوا فى أواخر أمرهم إذا نظموا قصائدهم حاولوا أن تكون ألفاظها مألوفة للجميع متعارفة، بحيث تفهم معانيها المقصودة منها لجميع أحياء العرب وقبائلهم، فكان شاعر العشيرة إذا أراد أن ينثر أو ينظم وتواردت على لسانه عبارات متعددة تؤدى معنى واحدا أو ألفاظ مترادفة على معنى واحد آثر تأدية ذلك باللفظ المألوف لجميع العشائر، فتكون من ذلك لسان عربى مشترك بين لسان العرب على اختلاف أحيائهم.

ولا شك أنهم كـانوا محتاجين إلى ذلك، لأن العرب لم تكن أصحاب كتب يرجعون إليها، وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض بتلقى كل طبقة عما فوقها ما تواتر من الأخبار والآثار، فيتناقلون تواريخ أحسابهم ويحفظونها محافظة على صفاء أنسابهم، ولا يهملون معرفة مآثر قدمائهم وأسلافهم، ووقائعهم وحوادث حروبهم وخطوبهم، وعلاقاتهم مع من جاورهم، وكل هذا بطريق الروايات خلفا عن سلف.

فلم تكن العرب لتنسى سياستها المنزلية ولا فرطت فى ذكر روابطها وعلائقها الخارجية والداخلية، لا سلما ولا حربا، بعضهم مع بعض أو مع الأكاسرة والقياصرة والحبش وغير ذلك، فقد تضمن الخبر عن ذلك كله أشعارهم وقوافيهم وقصائدهم ومعلقاتهم، فكان شعراؤهم يقصون تلك الحوادث والنوازل فى قصائدهم بفصيح الألفاظ وبليغ المعانى، مما ينبىء عن ثمرات أفكارهم ونتائج قرائحهم، وينقل من جيل إلى جيل لكثرة حفظهم، حتى صار لا يشك فى

فصاحتهم الأعاجم، ويدل على ذلك كلام أكثم بن صيفى[1] بين يدى كسرى، إذ قام بين يديه فقال: «إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها، والصدق منجاة والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء، وآفة الرأى الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور منقبة الصبر، وحسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، وإصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى، ومن فسدت بطانته كان كالغاص بالماء، وشر البلاد بلاد لا أمير لها، وشر الملوك من خافه البريء، وشر[2] الأعوان من لم يراع الصحبة، وأحق الجنود من حسنت سيرته، ويكفيك من الزاد ما بلغك المحل، وحسبك من شر سماعه، والصمت حلم وقليل فاعله، البلاغة فى الإيجاز، من شدد نفر ومن تراخى ألف». فتعجب كسرى من حكم أكثم وأمثاله، ثم قال له: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا موضعك أخذ كلامك فى غير موضعه! فقال أكثم: «الصدق ينبى عنك لا الوعيد!» قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفاهم! قال أكثم: «رب قول أنفذ من صول»! وقال كسرى لحاجب بن زرارة حين ذهب إليه ليرهن قوسه عنده، وقد تكلم بين يديه: ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها! قال حاجب: بل زئير الأسد بصولتها! قال كسرى: وذاك!

ولما تكلم خطباء العرب بين يدى كسرى يشكون ملكهم العامل من طرفه عليهم، وأبلغوا فى الكلام والخطابة، مع الجرأة وبدون مبالاة كعادتهم، قال: قد فهمت ما نطق به خطباؤكم وتفنن فيه متكلموكم، ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يثقف أولادكم، ولم يحكم أموركم، وإنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطقون

---

(١) أكثم بن صيفى بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية التميمي (المتوفى سنة ٦٣٠ م) أحد حكماء العرب فى الجاهلية، أدرك ظهور الإسلام، فقصد المدينة فى مائة من قومه كى يسلم فمات فى الطريق، فأنزل الله فيه: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله).

(٢) فى الأصل: خيـــر.

عنده منطق الرعية الخاضعة الناخعة[1]، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طبائعكم لم أجزلكم كثيرا مما تكلمتم به، وإنى لأكره أن أجبه وفودى وأخشن صدورهم، والذى أحبه إصلاح منذركم وتألف سوادكم والاعتذار إلى الله فيما بينى وبينكم، وقد قبلت ما كان من منطقكم من صواب، وصفحت عما فيه من خلل، فانصرفوا إلى ملككم، وأحسنوا مؤازرته، والزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم وأحسنوا أدبهم، فإن فى ذلك إصلاح العامة، وأجدر بطول السلامة. ثم أمر لكل واحد منهم بخمسين دينارا وحلة، وصرفهم. فلم يلمهم كسرى إلا بعدم حسن الخطاب مع الملوك، ولذلك أمرهم بتهذيب خطابهم، وفى الحقيقة انتهاء أمر العرب أن لسانهم قد دل على تهذيب أخلاقهم وعوائدهم.

وقد دلت أشعارهم على وقائعهم التاريخية، وأيام حروبهم، وعلى ما كان عندهم من الأخلاق والعوائد دلالة كافية فى الوضوح، وبممارسة قرض الشعر على هذا الوجه المنسجم تنقحت اللغة العربية، وتخلصت من شوائب الركة واللكنة، واستعمال الألفاظ الحوشية والغريبة، وأثمر قرض الشعر بهذا الوجه المقبول فوائد جمة، منها أنه كان يدعو إلى المروءة وعلو الهمة، ويحمل على الشجاعة والإقدام على عظائم الأمور من كل ما يجب على الإنسان أن يتعرض له بدفع يصل إليه من المكاره أو بما يصل إلى من احتمى به وصار محسوبا عليه، فإن الخطابة تبعث همة السامع أو المتكلم على الإقدام إلى ما تطلبه النفس، فلذلك كان لشعراء العرب فى ذلك العهد نفوذ تام ورسوخ أقدام واعتماد عليهم ووثوق بهم، فكان كلامهم حجة به يستشهد وعليه يعتمد..

السادة الشعراء فضل ثابت ولهم مقام شامخ ومكان

وهم سلاطين الكلام أما ترى كل امرئ منهم له ديوان

فقد كانوا، دون غيرهم، هم المؤرخين والنسابين والناقلين للحوادث فى جزيرة

---

(١) المطبعة المقرة: أو الذليلة المقهورة.

العرب بتمامها، لاشتمال قصائدهم على الوقائع والمآثر والنوازل والمفاخر، وتحول الأحوال من مكان إلى مكان، وتنقل الحوادث من زمان إلى زمان ، فكانوا بدون شك ولا شبهة أمراء الكلام وأهل الحل والإبرام.

ولما كانوا هم المحسنين والمقبحين، والمادحين والقادحين، والمغرين والمحذرين، كانوا يرفعون القبائل ويخفضونها كما يشاءون مدحا وهجوا، تلويحا وتصريحا، تعريضا وكناية . .

وللشعراء ألسنة حداد   على العوراء ما برحت دليلة

ولكن السعيد من اتقاها   وداراها مدارة جميلة

ولذا كان يخشى بأسهم ويحترم جنابهم، وكثيرا ما كانت تجتمع العرب تحت خيامهم وقبابهم يتناشدون الأشعار ويتغنون بها بالأنغام والإيقاعات، فتطرب المسامع وتحلو على لسان منشدها وناظمها كما تلذ بها أذن السامع.

فكأنما البدوى من العرب مخلوق من أصل الفطرة لقرض الشعر وابتكار المعانى البديعة والتفنن فى أنحاء الكلام، فتارة تكون قصيدة فى فن واحد، وتارة تتضمن فنونا متعددة، كالافتخار بعلو الهمة وشدة البأس، وهذا مايسمى بالحماسة، وكالتمدح بالمناقب النفيسة، وهو المسمى بالفخر، وكذكر الحسن والجمال، وهو الفن المسمى بالنسيب، وكذكر ما يستفاد منه الفوائد الحسنة ويتبع ويتمثل به، وهو فن الحكم والآداب والأخلاق، وكذكر التأسف على فقد حبيب وبث محاسنه، وهو فن الرثاء، وكذكر الوقيعة فى الأعراض والأنساب ورمى الإنسان بالمعايب والمثالب، وهو فن الهجو، كاحتجاج المرء لنفسه ودفع اللوم عنها، وهو فن الاعتذار، وكذكر التخويف والتهديد، وهو فن الوعيد وغير ذلك من أنحاء الشعر، كالعتاب، والزهد، وذكر عجائب الكائنات وتوصيفها، وذكر الطلول والمنازل، ووصف الظباء والغزلان، وغير ذلك من الأساليب التى لا نهاية للتفنن فيها، فقد يجمع الشاعربين عدة منها فى قصيدته، ولكن المقصود

بالأصل هو فن واحد، وقصيدة كعب بن زهير فى مدحه صلى الله عليه وسلم التى مطلعها:

بانت سـعاد فقـلبى اليـوم متبـول

جامعة للفنون الشعرية المذكورة. وقد أنشأ العرب جمعيات احتفالية فى أسواق دورية ذات ميادين شعرية كسوق عكاظ وغيره وسوق وجنة وسوق ذى المجاز، ولكن سـوق عكاظ هـو المتميـز بينها بالسباق فى الشعر وغيره، وهوموضوع الفصل الآتى..

الفصل الثالث

فى ذكر سوق عكاظ فى الجاهلية

عكاظ قرية بصحراء، بين نخلة والطائف، على ثلاث مراحل من مكة المشرفة، وكان فيها سوق أسبوعية يوم الأحد، وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة، ويستمر موسمه عشرين يوما تجتمع فيها قبائل العرب، فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون، وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فيها ويتحابون، وكانت فرسان العرب إذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا يتقنعون حتى لا يعرفوا، وإن كانت هذه السوق تؤذن بالتعامل والأخذ والعطاء إلا أنه كان فى الحقيقة جل الغرض منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لإبداء نتائج أفكارهم وإظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم، ومثل عكاظ فى ذلك سوق ذى المجاز، خلف جبل عرفات ، وأسواق أخر.

وكانت هذه الأسواق ساذجة بسيطة مجردة عن الزينة والزخرفة، لكنها مهيبة محترمة، يزدحم فيها الشعراء من جميع جهات بلاد العرب، ويقوم الشاعر ويبرز فى حومة الميدان، وأرباب المجلس ثابتون فى مكانهم، فينشد الأشعار من قرضه وهم يصغون إلى سماعها منه، ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها ويحفظونها عن ظهر قلب.

وأول ما يبرز الشاعر فى الميدان يظهر بمظهر الشجاعة وبشدة الحماس ويتماشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والإعجاب ليتحقق من حماس بنات فكره مع تجرده

عن أبهة المنصب وزهو الزينة، وليس عليه من الملابس ما يدل على شعار مرتبة عالية ولا دثار شرف ولا مجد بين قومه، ومع ذلك فما كأنه إلا هلال الشك أو شمس الضحى انبعثت منها الأشعة فلا تكاد تنفك تشخص إليه أبصار الحاضرين وتحدق به الأعين وتتأمل فى مشيته حتى يصعد إلى محل مرتفع بمنزلة المنبر:

بعكاظ يعشى الناظرين إذا هم لمحوا شعاعه

فينشد بصوت جهورى قصيدته بتمامها، بدون أن يقطعها عليها أحد، فتارة تكون مرتجلة بالبديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهيأها لينشدها فى المجمع، ولكن الغالب على فحول شعراء العرب أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لا يقتدر غيرهم على الإتيان به فى حول كامل، ومنهم من كان بخلاف ذلك، كما يروى عن زهير بن أبى سلمى أنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ويهذبها بنفسه فى أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه فى أربعة أشهر ثلاثة، فلا يشهرها حتى يأتى عليها حول كامل، ولذلك تسمى قصائده بالحوليات، وهذا لا يقدح فى فضله، حتى قيل إنه أشعر الجميع، وكان إذا فرغ الشاعر من الإنشاد أمعن الحاضرون النظر فى بنات أفكاره، ونقدوها بصيرف عقولهم، وظهرت فى وجوهم سيماء الاستحسان لما عناه فى شأن حاله وأمره وكيفية تجلده وصبره، أو تبين من حالهم أنهم لم يستحسنوا نظامه ولا استصوبوا كلامه، وكان الشاعر يجاس جاسة خطيب للاستراحة ويعود إلى تمام إنشاده بحماس أقوى من المرة الأولى، ونشاط كأنه قد أذكى من عقله مصباحه، فيقص عليهم بقية أشعاره بهمة علية، وحماسة شوقية، فيكتب فى المحفل العام ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ويعلق على الكعبة المشرفة ليخلد اسمه ويبقى على مدى الأيام رسمه ولا يزال فى الخلف بقايا مآثر السلف، ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة إلى عهدنا هذا، وقد اعتنى علماء الإسلام بشرحها لما اشتملت عليه من الفصاحة والبلاغة والصناعة الشعرية.

وكان يجتمع بسوق عكاظ سادات العرب وملوكهم وقبائلهم ورؤساء القبائل وعرفاؤها، كما قال طريف العنبرى من أبيات يخاطب قبيلة بكر بن وائل:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة   بعثوا إلى عريفهم يتوسم

فتوسموني إنني أنا ذلكم   شاكي سلاحي في الحوادث معلم

تحتي الأغر وفوق جلدي نثرة   زغف ترد السيف وهو مثلم

حولي أسيد والهجيم ومازن   وإذا حللت فحول بيتي خضم

وكان طريف من الشجعان، وكان إذا أتى سوق عكاظ لا يتقنع كما يتقنع غيره من الفرسان، وكان قبل ذلك قد قتل شراحيل الشيبانى فقال حصيصة بن شراحيل: أرونى طريفا، فأروه إياه، فجعل كلما مر به طريف فى سوق عكاظ تأمله حتى فطن له طريف، وكان ذلك فى الشهر الحرام، تأمن القبائل من بعضها، فقال طريف لحصيصة بن شراحيل: مالك تنظر إلى مرة بعد أخرى؟! فقال: أتوسمك لأعرفك، فلله على نذر إن لقيتك فى حرب لأ قتلنك أو لتقتلنى! فأنشد طريف قصيدة منها تلك الأبيات، والمعنى: إن لى على كل قبيلة جناية، فمتى وردوا عكاظ طلبنى القيم بأمرهم ليتعرفنى، فها أنا فليتوسمونى فإنى شاكى السلاح ولى فى الوقائع شعار ظاهر وتحتى فرسى الأغر ولابس درعى اللين الذى يرد السيف كليلا، وحولى عشيرتى، وإذا نزلت فحول بيتى قبيلتى العنبرية المسماة خضم.

وقد كان لمدح فحول الشعراء وقدحهم تأثير فى النفوس يترتب عليه ما يترتب فى خارج العيان من الخفض والرفع والإعزاز والإذلال، كما سبقت الاشارة إليه. وكان الأعشى الأكبر[1] يأتى عكاظ فى كل سنة، فمر على بنى كلاب، وكان المحلق الكلابى رجلا فقير الحال خامل الذكر، وله بنات لم يخطبهن أحد من الأزواج رغبة عن أبيهن لفقره، فقالت له امرأته: ما يمنعك يا ابن كلاب من التعرض لهذا الشاعروالتعرف به وإكرامه فما رأيت أحدا آواه إليه وجذبه إلا وأكسبه خيرا! فقال: ويحك! ما عندى إلا ناقتى، فقالت: الله يخلفها عليك، فتلقاه قبل

---

(١) ميمون بن قيس بن جندل(المتوفى سنة ٦٢٩ م) يعرف بأعشى قيس، و: أبو بصير، و: أعشى الكبير. وهو من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات. ويسمى كذلك " صناجة العرب».

أن يسبق إليه أحد من الناس، وكان الأعشى بصيرا[1]، وله ابن يقوده، فأخذ المحلق بخطام ناقة الأعشى، فقال الأعشى: من هذا الذى غلبنا على خطامنا؟ فقيل: المحلق، فقال: شريف كريم، ثم سلمه ابنه إليه، فأنزله، ونحر له المحلق ناقته، ثم أحاطت به بناته يخدمنه، فقال: ماهذه الجوارى حولى؟ قال: بنات أخيك، وهن ثمان نصيبهن قليل، فقال الأعشى: هل لك حاجة؟ قال المحلق: تشيد بذكرى فلعلى أشهر فتخطب بناتي! فنهض الأعشى من عنده، ولم يقل فيه شيئا، فلما وافى سوق عكاظ إذ هو بمكان قد اجتمع الناس عليه، فأنشد الأعشى قصيدته القافية التى منها:

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار بالبقاع تحرق

تشب لمقرونين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق

فاشتهرت هذه الأبيات فى العرب، وما أتت على المحلق سنة حتى زوج البنات!.

وكانت تضرب للنابغة قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ، وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها، وأول من أنشد الأعشى، ثم أنشدته الخنساء، فكان للنابغة الذبيانى التقدم على جميع شعراء عصره، وهو من فحول الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء. قال ربعى بن خراش: قال لنا عمر، رضى الله عنه: يا معشر غطفان، من الذى يقول:

أتيتك عاريا خلقا ثيابى ... على خوف تظن بى الظنون؟

قلنا: النابغة، قال: ذلك أشعر شعرائكم، وقال عمر بن المنتشر المرادى: وفدنا على عبد الملك بن مروان، فدخلنا عليه، فقام رجل فاعتذر إليه من أمر وحلف عليه، فقال له عبد الملك: أما كنت حريا أن تفعل ولا تعتذر؟ ثم أقبل على أهل الشام فقال: أيكم يروى من اعتذار النابغة إلى النعمان:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

---

(١) أى ضعيف البصر، ولقد كف بصره فى أواخر حياته.

فلم يجد فيهم من يرويه، فأقبل عليّ فقال: أترويه؟ قلت: نعم، فأنشدته القصيدة كلها، فقال: هذا أشعر العرب. وسيأتى ذكره فى الكلام على المعلقات.
وكانت العرب إذا أتت فى الموسم يضعون سلاحهم عنه أهل السدانة من قريش قبل الدخول فى السوق، ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل، وكما كانت هذه السوق مجمع الفصاحة والفروسية كانت مجمع مكارم الأخلاق أيضا، حتى كان بعض أشراف الشعراء كعامر بن الطفيل العامرى النجدى ينادى مناديه فى هذه السوق: هل من راحل فنحمله، أو جائع فنطعمه، أو خائف فنؤمنه؟ ومن شعره:

فإنى وإن كنت فارس عامر ... وسيدها المشهور فى كل موكب

فما سودتنى عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكننى أحمى حماها واتقى ... أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وكانت أيضا هذه السوق فى أيام هذا الموسم كديوان ملوك العرب، فكان بعض الملوك يأخذه ماله من الإتاوة على القبائل كل سنة بالموسم، فكان زهير بن جذيمة العبسى مثلا يأخذ الأتاوة من هوازن فى هذه السوق، ويسومهم الخسف ويهددهم ويخوفهم بالحرب. وكانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال جميعه أو عشرين يوما منه، ثم تنتقل من تلك السوق بعد انفضاضها إلى سوق مجنة وتقيم فيها عشرين يوما من ذى القعدة، ثم تنتقل من سوق ذى المجاز فتقيم فيها إلى أيام الحج.

ويروى عن حليمة السعدية مرضعة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنها نزلت به سوق عكاظ فرآه كاهن من الكهان فقال: يا أهل سوق عكاظ، اقتلوا هذا الغلام فإن له ملك! فراغت به حليمة عن الطريق فأنجاه الله تعالى ويروى أن حليمة انطلقت برسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسوق عكاظ إلى عراف من هذيل يريه الناس صبيانهم، فلما نظر إليه صاح: يا معشر هذيل، يا معشر العرب، فاجتمع إليه الناس من أهل الموسم، فقال اقتلوا هذا الصبى! فانسلت حليمة به، فجعل الناس يقولون: أى صبى؟ فيقول: هذا الصبى! فلا يرون شيئا، فيقال له:

ما هو؟ فيقول: رأيت غلاما، والآلهة، ليقتلن أهل دينكم، وليكسرن آلهتكم، وليظهرن أمره عليكم! فطلب، فلم يوجد.

ولا تستغرب كهانه العرب ولا فراستهم وفهمهم الحقائق من المخايل، فإن وصية أبي طالب لقريش لما حضرته الوفاة تدل على شدة تفرسه فيه صلى الله عليه وسلم، وصورتها، كما قال بعضهم: إنه لما حضرت الوفاة أبا طالب، عم النبي، صلى الله عليه وسلم، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم، وقال: يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، وفيكم السيد المطاع، وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه، ولا شرفا إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم ألد، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية، فإن فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش ونبأة للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن فى صلة الرحم منسأة للأجل وزيادة العلم، واتركوا البغى والعقوق فبهما هلكت القرون قبلكم، وأجيبوا السائل واعطوا الداعى فإن فيهما شرف الحياة والممات، وعليكم بالصدق فى الحديث، وأدوا الأمانة فإن فيهما محبة للخاص ومكرمة فى العام، وإنى أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين فى قريش، والصديق فى العرب، هو الجامع لكل ما أوصيتكم به وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن! وإيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدهم أذنابا، ودورها خرابا، وضعفاؤها أربابا، وأعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأنفرهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعظمت له قيادها دونكم. يا معشر قريش! كونوا له ولاة ولحزبه حماة، والله لايسلك أحدكم سبيله إلاّ رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد، ولو كان لنفسى مدة أو لأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز(*) ولدفعت عنه الدواهى» ثم توفى. انتهى. فانظر موافقة الفراسة الهاشمية للكهانة بمجمع عكاظ.

(*) الهزاهز: من السيوف: الصافى المعدن. (الشروق).

وكان سوق عكاظ الذى هو مجمع المفاخرة قد يتسبب عنه المقاتلة والحرب، كما وقع ذلك فى الفجار الأول والفجار الثانى، فسبب حرب الفجار الأول أن بدر ابن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه فى سوق عكاظ ويفتخر على الناس، فبسط يوما رجله وقال: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف، فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها، فا قتتلوا! وسبب الفجار الثانى أن امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة، فسألها أن تكشف وجهها، فأبت، فجلس خلفها وهى لاتشعر وعقد ذيلها بشوكة، فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس، وقيل لها: قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره! فنادت: يا آل عامر، فثاروا بالسلاح، ونادى الشاب: يا بنى كنانة، فحصل الحرب بسبب ذلك! ومن هذا يفهم أن النساء فى الجاهلية كن يأبين كشف وجوهن، اللهم إلا أن يكون هذا الحجاب خاصا بالجمعيات الحافلة، لاسيما فى سوق عكاظ، حيث الفوارس كانوا يتقنعون فيها.

وثم فجار ثالث وسببه أنه كان لرجال من بنى عامر دَيْنٌ على رجل من بنى كنانة، فمطله، فجرت بينهما مخاصمة شديدة، فتحمل عبد الله بن جدعان ذلك الدَيْن من ماله وكان ذلك سببا لانقضاء هذا الحرب.

وقد كان عبد الله بن جدعان فى ابتداء أمره صعلوكا، وكا ن مع ذلك شريرا فتاكا، لا يزال يجنى الجنايات فيعقل[1] عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته وطرده أبوه وحلف لا يأويه أبدا، فخرج هائما فى شعاب مكة يتمنى الموت، فرأى شقا فى جبل فدخل فوجد على ما يقال ثعبانا عظيما له عينان تتقدان كالسراج، فتأخر عنه أولا، ثم غلب على نفسه ومسكه بيده فإذا هو من ذهب وعيناه ياقوتتان، ثم دخل المحل الذى كان هذا الثعبان على بابه فوجد فى ذلك المحل أموالا كثيرة من الذهب والفضة، وجواهر كثيرة من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، فأخذ منه ما أخذ ثم علم

(١) من «العاقلة» بمعنى الدية، أى يتحمل عنه دفع الديات.

ذلك الشق بعلامة وصار ينقل من ذلك شيئا فشيئا، فكان هذا سبب غناه، فبعث إلى أبيه بالمال الذى دفعه فى جناياته ووصل عشيرته كلهم، فسادهم! . .

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

وكان يطعم الناس، يأمر بالمعروف، فكان يذبح فى داره كل يوم جزورا وينادى مناديه : من أراد الشحم واللحم فعليه بابن جدعان، وكان يطبخ عنده الفالوذج فيطعمه قريشا، وهوعزيز فى مكة! .

وثم فجار رابع وهو فجار البراض[1]، وهوالذى شهده النبى صلى الله عليه وسلم، وسببه أن عورة الزحال[2] ، وكان من قيس هوازن أجار العير من النعمان بن المنذر، وكان يقال لمثل هذه القافلة اللطيمة، وكانت تحمل الطيب والبرلهذا الملك فى سوق عكاظ ويشترى له بثمن ذلك أدم من أدم الطائف، ويرسل تلك العير فى جوار رجل من أشراف العرب، فلما جهز النعمان العير كان عنده جماعة من العرب فيهم البراض، وهو من بنى كنانة، وعروة الزحال، وهو من هوازن، فقال البراض : أنا أجيرها على بنى كنانة، يعنى قومه، فقال لهم النعمان : ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة، فقال له عروة الزحال : أنا أجيرها لك، فقال له البراض : أتجيرها على كنانة؟ فقال : نعم، وعلى أهل الشيح والقيصوم، ونال من البراض! فخرج عروة الزحال مسافرا، وخرج البراض خلفه يطلب غفلته ليثب عليه ويقتله، فشرب عروة الزحال الخمر وغنته القينات وسكر ونام، فجاءه البراض وأيقظه، فقال له الزحال : ناشدتك الله لا تقتلنى فإنها كانت منى زلة وهفوة، فلم يلتفت إليه، وقتله فأتى آت كنانة وهم بعكاظ مع هوازن فقال لكنانة : إن البراض قد قتل عروة الزحال وهو فى الشهر الحرام، فانطلقوا وهوازن لا تشعر ثم بلغهم الخبر فأتبعوهم فأدركوهم قبيل دخولهم الحرم، عاونت قريش كنانة، وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض تلك الأيام، أخرجه أعمامه معهم وكان عمره أربع عشرة سنة وكان إذا حضر صلى الله عليه وسلم غلبت كنانة وإذا لم يحضر

---

(١) بتشديد الراء . (الطهطاوى) .

(٢) بتشديد الحاء المهملة . (الطهطاوى) .

انهزمت! ويقال إنه صلى الله عليه وسلم طعن أبا براء، ملاعب الأسنة، ولعله طعنه بالنبل، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقتل فى حرب الفجار إلا بالنبل، فقد روى عن ابن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حضرته مع عمومتى، ورميت فيه بأسهم، وما أحب إنى لم أكن فعلت». وأبو براء المذكور كان رئيس بنى قيس هوازن وحامل رايتهم فى هذا الحرب.

وفى اليوم الثالث من تلك الأيام، وهو أشهدها، قيد أمية وحرب ابنا أمية بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب أنفسهم كى لا يفروا، فسموا الغبايش، أى الأسود، ثم تواعدوا لليوم للعام المقبل بعكاظ، فلما كان العام المقبل جاءوا للوعد، وكان أمر قريش وكنانة إلى عبد الله بن جدعان، وقيل إلى الحرب بن أمية والد أبى سفيان، لأنه كان رئيس قريش يومئذ، وكان عتب ابن أخيه ربيعه بن عبد شمس يتيما فى حجره فضن به حرب وأشفق من خروجه معه، فخرج عتبة فلم يشعر به إلا وهو على بعير بين الصفين ينادى يا معشر مضر علام تفانون! فقالت له هوازن: ماتدعو إليه قال: الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتعفوا عن دمائها، وكان لقريش وكنانة الظفر على هوازن، وغالبا يقتلونهم قتلا ذريعا وينتصرون عليهم، فى غير الغالب خلاف ذلك، فقد أصيب أبو طالب بسهم فى رجله فى حرب الفجار فعرج منه ولذلك يقول:

قالت عرجت، نعم، عرجت فما الذى — أنكرت من حسبى وحسن فعالى

فقالوا لما عرض عليهم الصلح: وكيف ذلك؟ قال: ندفع لكم رهنا منا إلى أن نوفى لكم ذلك، قالوا: ومن لنا بهذا؟ قال: أنا قالوا: ومن أنت: قال: أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فرضيت به هوازن وكنانة وقريش، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلا، فيهم حكيم بن حازم، وهو ابن أخ خديجة بنت خويلد زوج النبى، صلى الله عليه وسلم، فلما رأت هوازن فى أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم، وانقضت حرب الفجار وكان النبى، صلى الله عليه وسلم، حين شهد هذا الحرب من العمر أربع عشرة سنة.

فمن هذا كله يعلم أن سوق عكاظ كان مجمعا لمفاخر العرب حربا وسلما،

حماسة وسماحة، وأنه كان يحمل نفوس العرب الأبية على كسب المجد والشرف، وممن اشتهر بالخطب فيه قيس بن ساعدة القائل:

لقد علم الحى اليمانون أننى إذا قلت: أما بعد، أنى خطيبها

وسيأتى فى (الفصل الثانى) من(الباب الثالث) الكلام على خطبته فى سوق عكاظ وحثه على اتباع دين النبى، صلى الله عليه وسلم، وأنه ممن آمن به صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ولم يره، وقال بعض أياد مفتخرا بالحذاقة والفصاحة:

وإنى فتى صبر على الأين والظما إذا اعتصروا للوح ماء فظاظها[1]

إذا ضرجوها ساعة بدمائها وحل عن الكوماء عقد شظاظها[2]

فإنى ضحاك إلى كل صاحب وانطلق من قيس غداة عكاظها[3]

وقال آخر يمدح خطيبا من خطباء صعيد مصر:

يا سيد العلماء والأدباء والنجباء والخطباء والحفاظ

شنفت أسماع الأنام بخطبة كست المعانى رونق الألفاظ

أبكت عيون السامعين فصولها فزكت عن الخطباء والوعاظ

وعجبت منها كيف حازت رقة مع أنها فى غايه الإغلاظ

ستقول مصر إذا رأتك لغيرها ما الدهر إلا قسمة وأحاظى

ويقول قوم إذ رأوك خطيبهم أنسيتنا قسا بسوق عكاظ

---

(١) واللوح - بضم اللام المشددة - الإبل السريعة العطش، وألفاظ الكرش، يريد أن يصبر على التعب والظمأ إذا اعتصروا ماء الكرش للشرب. (الطهطاوى).

(٢) والشظاظ الجواليق التى تحمل على الإبل، يريد أنه عند ذبح الإبل ونزول أحمالها عنها وفكها يكون متطفلا إلى الأصحاب. (الطهطاوى).

(٣) وأخطب من قيس إذا خطب فى سوق عكاظ. (الطهطاوى).

فقد كان محفل عكاظ معدن المفاخر التليدة والطارقة، ولم يكن وحده فى جزيرة العرب، بل كانت أسواق اليمن أيضا للمفاخر الظاهرية، والمنافع العمومية، والزينة والزخرفة، فكانت بضاعتها هى النافقة، والعلم يمان والحكمة يمانية، كما فى الآثار الصادقة.

تخاذل أرباب الفضائل إذ رأوا بضاعتهم موكوسة القدر فى الثمن

فقالوا عرضناها فلم تلف طالبا ولا نظروا من مثلها نظرا حسن

ولم يبق إلا رفضها وإطراحها فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن

الفصل الرابع

فى حــلف الفضــــول

كان للعرب عقود وعهود يحلفون فيها حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا، وكانت هذه المحالفات بين القبائل لحفظ نواميسهم وليعضد بعضهم بعضا، والمتحالفون يسمون عند العرب بالأحلاف. فمن ذلك أن بنى عبد مناف لما أرادت أخذ ما فى أيدى بنى عبد الدار من الحجابة والسقاية وأبت عبد الدار ذلك عقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا فأخرجت عبد مناف جفنة مملوأة طيبا فوضعتها لأحلافهم، وهم «أسد» و«زهرة» و«تيم»، عند الكعبة فغمسوا أيديهم فيها، وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤهم وحلفوا حلفا آخر مؤكدا، وكانت أحلافهم قبائل «عبد الدار» و«جمع» و«سهم» و«مخزون» و«عدى»، وكانت مثل هذه المحالفات للتناصر بينهم فقط لا للمصلحة العمومية.

ففى منصرف قريش من حرب الفجار فى شوال، بعض انفضاض سوق عكاظ، تأسس حلف الفضول، وهو أشرف حلف فى العرب، وأحق بالفخار مما عداه، وكان هذا الحلف لشرف موضوعه ونبل الغرض المقصود منه يكاد أن يكون أساسا لسياسة وطنية، وتمهيدا للمواد التمدنية، وأول من دعا إلى هذا الحلف فى شهر ذى القعدة بعد الفجار الرابع الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شقيق أبيه، فاجتمع إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى فى دار عبد الله بن جدعان التيمى، المتقدم ذكره فى (الفصل الثالث)، وكان بنو تيم فى

حياته كأهل بيت واحد بقوتهم، وكان عبد الله بن جدعان ذا شرف وسن، وتحالفوا على أن يردوا الفضول إلى أهلها، أي على أن يردوا الحقوق التى أخذت ظلما إلى أربابها، ولا يعز ظالم على مظلوم، أى لا يغلب ظالم على مظلوم، ـ وكان معهم فى ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد شهد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف، وقال صلى الله عليه وسلم: «ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم وإنى أغدر به». أى لا أحب الغدر بهذا الحلف وإن أعطيت حمر الإبل فى ذلك، وفى رواية: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعى به فى الإسلام لأجبت». فقوله: «ما أحب أن لى به حمر النعم»، الباء فيه للبدلية، أى بفواته، وقوله: «ولو دعى به فى الإسلام لأجبت»، أى لو قال قائل، من المظلومين: يا آل حلف الفضول، لأجبت، لأن نصر المظلوم حق، والإسلام إنما جاء بإقامة الحق، والإجابة إلى هذا الحلف مستثناة من رفع ما كان من دعوة الجاهلية: يا آل فلان، لحرب أو لغيره، فالدعوة بيا آل فلان، كانت فى الجاهلية ورفعت، وكان يفتخر بسرعة الإجابة إليها، كما قال:

فخير نحر عند الناس منكم   إذا الداعى المثوب قال: يا لا

وسببه أن قريشا كانت تتظالم فى الحرم، وكان قبل ذلك قد تحالف قوم من «جرهم» أن لا يروا ظلما ببطن مكة إلا غيروه، وكان قد باد أهل ذلك الحلف، وتنوسى أمره، وصار يقع الظلم فى الحرم بدون مدافع، فاتفق أن رجلا من «زبيد» قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان من أهل الشرف والقدر بمكة، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدى بالأحلاف «عبد الدار» و «مخزوم» و«جمح» و«سهم» و«عدى بن كعب» فأبوا أن يعينوا على العاص، وانتهروا الزبيدى، فلما رأى الزبيدى الشر رقى على جبل ابى قبيس عند طلوع الشمس، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة، فقال بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته   ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته   يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام[1] لمن تمت مكارمه ولا حرام لوثب الفاجر الغدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وعبد الله بن جدعان واجتمع إليهما من تقدم من الناس، قيل: كان منهم العباس وأبو سفيان، وتعاهدوا وتعاقدوا ليكونون يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه، شريفا أو وضيعا، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه، وصاروا دائما يأخذون من الظالم للمظلوم حقه على وفق حلف الفضول الذى كان أشرف حلف فى الجاهلية، كما سبق.

فمن ذلك أن رجلا من «خثعم» قدم مكة معتمرا أو حاجا ومعه بنت له من أوضأ نساء العالمين فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج، فقيل للخثعمى: عليك بحلف الفضول، فوقف عند الكعبة ونادى يا لحلف الفضول! فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب، وقد جردوا أسيافهم، يقولون: جاءك الغوث، فمالك؟ فقال: إن نبيها ظلمنى فى بنتى فانتزعها منى قسرا، فساروا إليه حتى وقفوا على باب داره، فخرج إليهم، فقالوا له: اخرج الجارية، ويحك! فقد علمت من نحن، وما تعاهدنا عليه، فقال:

أفعل، ولكن متعونى بها الليلة! فقالوا: لا والله، ولا شخب لقحة[*]! فأخرجها إليهم.

وقد بقى أثر ذلك فى الإسلام، فربما كان يطلب المظلوم أخذ حقه من ظالمه بطلب جمعية تتعصب للحق، فقد ذكر بعض أهل السير أنه كان بين الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان منازعة فى مال متعلق بالحسين فقال الحسين للوليد: احلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم لأدعون لحلف الفضول، أى لحلف كحلف الفضول، وهو نصرة المظلوم على ظالمه، ووافقه على

(١) والمراد بالحرام: الاحترام. (الطهطاوى).

(*) الشخب: الدفعة من اللبن عند الحلب تخرج من الضرع مسموعا صوتها.
واللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
والمراد من «شخب لقحة»: لن تنال منها شيئا ولا حتى مجرد سماع صوتها. (الشروق).

ذلك جماعة منهم عبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهما ، لأنه كان إذ ذاك فى المدينة ، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضى .

فمن هذا تفهم أن العرب بمكة كان لها مجامع فضائل كسوق عكاظ ، ومساعى مكارم أخلاق وشمائل كتأسيس حلف الفضول ، الذى شهده أكرم رسول ، وشهد له بأنه وافق أخلاقه الكريمة ، وأنه أحب إليه من حمر النعم نفاسة وقيمة ، ومن تأمله حق التأمل وجده أساس ما يسمى عند الملل المتمدنة بالحقوق المدنية والحقوق الدولية ، كما يدل على أن العرب كانت فطرتهم سليمة ، وأن طباعهم تنفر من الخصال الذميمة ، وقصائدهم بذلك ناطقة ، وهى عنوان ثواقب أفكارهم الصادقة .

الفصل الخامس

فى ذكر المعلقات السبع، وتواريخ أربابها، والإلمام بمطالعها

قد اشتهر أن المعلقات سبع ، إحداها معلقة امرىء القيس بن حجر الكندى ، وكان موته قبل الهجرة بنحو اثنتين وثمانين سنة ، ومطلعها :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد اشتهرت هذه المعلقة حتى صار يضرب بها المثل فى الأمر الواضح ، فيقال : أشهر من قفانبك ، وقد تقدم ترجمة هذا الشاعر فى (الفصل التاسع) من (الباب الأول) من (المقالة الرابعة) مع غاية البيان .

ثم معلقة طرفة بن العبد البكرى ، وكانت وفاته قبل الهجرة بثمان وخمسين سنة ، ومطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد　　تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقوفا بها صحبى على مطيهم　　يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ثم معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى ، وكانت وفاته فى السنة الأولى من الهجرة ، ومطلعها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا　　ولا تبقى خمور الأندرينا

مشعشعة كأن الحص فيها　　إذا ما الماء خالطها سخينا

ومنهـــا :

ورثنـا المجـــد قـــد علمت مـــعـــد نـطاعـن دونـه حــــتى يبـــــينا

بشـــبـــان يرون القـــتـل مـــجـــدا وشــيب فى الحـــروب مـــجـــربينا

ورثنا مـــجـــد علـقـــمـة بن ســيف أباح لـنـا حـــصـــون المجـــددينا

عـلى آثـارنـا بيض حـــصـــان نحـــاذر أن تـقـــسم أو تـهـــونا

كــــانا والـســيــوف مـــسللات ولدنـا الـنـاس طرا أجـــمـــعـــينا

إذا مـا الملك ســام الـناس خـســفـا أبينا أن نـقـــر الخـــسف فـــينا

مـــلأنا البـــر حـــتى ضـــاق عـنا ومـــاء الـبـــحـــر نملؤه ســـفـــينا

لنـا الدنيـــا ومن أضـــحى عليـــهـــا ونبطش حين نبطش قـــــادرينا

إذا بـلـغ الـفـطام لـنـا رضــــيـــع تخـــر له الجـــبـــابر ســـاجـــدينا

وهى بديعة الافتخار الحماسى . وقد افتخر عبد المطلب حيث قال :

لنـا نفـــوس لنيـل المجــد عاشـــقة ولو تسـلمت أسـلناها عـلى الأسـل

لا ينـــزل المجـــــد إلا فى منازلنــــا كالنـــوم ليس له مـــأوى ســـوى المقل

وهكذا يكون افتخار الهاشمى .

ثم معلقة الحرث بن حلزة اليشكرى ، وكان مولده قبل الهجرة باثنتين وثلاثين سنة ، ومطلعها :

آذنتنــــا ببينهــــا أســــماء رب ثـــاو يمــل منــه الثـــواء

ومنهـــا :

لا يقيم العـزيز بالبلد الســهل ولا ينفــــع الذليـــل النجـاء

ليس ينجـى الذى بوائـل منا رأس طـــود وجـــرة رجـــلاء

ثم معلقة لبيد بن ربيعة العامرى، وكان مولده قبل الهجرة بأربعين سنة، ومطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها　　بمنى تأبد غولها فرجامها

ثم قال:

أو لم تكن تدرى نوار بأننى　　وصال عقد حبائل جذامها

تراك أمكنة إذا لم أرضها　　أو يعتلق بعض النفوس حمامها

ثم معلقة زهير بن أبى سلمى المزنى، وكان موته قبل البعثة بسنة، ويقال إنه رأى قبل موته بسنة فى نومه كأنه رفع إلى السماء حتى كاد أن يمسها بيده ثم انقطعت الحبال، فدعا بنيه فقال: يابنى، رأيت كذا وكذا، وأنه سيكون بعدى أمر يعلو من اتبعه ويفلح، فخذوا بحظكم منه. ثم لم يعش إلا يسيرا حتى هلك، فلم يحل الحول حتى بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم أسلم بجير بن زهير وحسن إسلامه فلامه أخوه كعب بن زهير على إسلامه بقوله:

ألا بلغا عنى بجيرا رسالة　　فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

سقاك بها المأمون كأسا روية　　فانهلك المأمون منها وعلكا

الأبيات...

فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هجو كعب له هدر دمه، فكتب إليه أخوه بجير يعلمه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قتل كعب بن الأشرف، وكان يشبب بأم الفضل بن العباس وأم حكيم بنت عبد المطلب، فلما بلغه كتاب أخيه ضاقت به الأرض ولم يدر فيم النجاة، فأتى أبا بكر فاستجاره، فقال: أكره أن أجير على رسول الله عليه وسلم، وقد هدر دمك، فأتى عمر فقال مثل ذلك، فأتى عليا، رضى الله عنه، فقال: أدلك على أمر تنجو به؟ قال: وما هو قال: تصلى مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإذا انصرف فقم خلفه وقل: مد يدك يا رسول الله أبايعك، فإنه سيناولك يده من خلفه، فخذ يده فاستجره، فإنى أرجو أن

يرحمك، ففعل، فلما ناوله رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يده، استجاره، وأنشد قصيدته التى مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

إلى آخرها، فأجازه عليها ببردته الشريفة. ويحكى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان جالسا فى أصحابه يتذاكرون الشعراء والشعر، فيقول بعضهم: فلان أشعر، ويقول آخر: بل فلان أشعر، فقيل: ابن عباس بالباب، فقال عمر، رضى الله عنه: قد أتى من يحدث من أشعر الناس، فلما سلم وجلس قال له عمر: يابن عباس، من أشعر الناس؟ قال: زهير يا أمير المؤمنين، قال عمر: ولم ذلك؟ قال ابن عباس: لقوله يمدح هرما وقومه بنى مرة:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا

جن إذا فزعوا أنس إذا أمنوا ... مرزءون بهاليل إذا جهدوا

محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله عنهم ما به حسدوا

قال عمر: صدقت يا ابن عباس. ومطلع قصيدة زهير:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم

ودار لها بالرقمتين كأنها ... مراجع وشم فى نواشر معصم

إلى أن قال فى الحكم:

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكن حمده ذما عليه ويندم

إلى أن قال:

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه فى التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ثم معلقة عنترة بن عمرو بن معاوية بن شداد العبسى، وكان موته قبل الهجرة بسبع سنين، ومطلعها:

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

منها:

فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل   مر مذاقته كطعم العلقم

فإذا شربت فإننى مستهلك   مالى، وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى   وكما علمت خمائلى وتكرمى

فهذه المعلقات السبع مختلفة المقاصد والأغراض، فإن معلقات امرىء القيس وطرفة وعنترة ولبيد مختلفة التخيلات العقلية فى حكايات الوقائع الخصوصية والعمومية، كما هى مختلفة التشبيهات المتنوعة والكنايات والتجوزات المخترعة، فلهذا نحا نحوها شعراء الأعصر المتأخرة، لا سيما شعر عنترة العبسى فانه ناطق بالأغراض المقصودة منه، وأحسن تخيلا للمعانى من شعر غيره من شعراء ما قبل الإسلام، وأما معلقة زهير فهى عبارة عن مصالحة عبس وذبيان، وأما معلقة عمرو فهى عبارة عن افتخار قبيلته التغلبية بعمومها، وسبب إنشاء قصيدة عمرو هذه إنه جاء أناس من بنى تغلب إلى بكر بن وائل يستغيثون بهم فى سنة أصابتهم، فطردهم بكر لحقد كان بينه وبينهم، فرجعوا إلى الفلاة، فمات منهم سبعون رجلا عطشا، فاجتمعت بنو تغلب لحرب بكر، وخافوا أن تعود الحرب بينهم كما كانت، فدعا بعضهم بعضا إلى الصلح فتحاكموا إلى الملك عمرو بن هند فأصلح بينهم، فأنشد عمرو بن كلثوم سيد تغلب فى مجلسه قصيدته ارتجالا، يذكر فيها أيام بنى تغلب ويفتخر لهم، وأنشد الحرث بن حلزة قصيدته أيضا، فعلقتا بالكعبة دهرا، وكانتا مشتملتين على مفاخر العرب.

قيل: إن الشعر كان جملا بازلا[1] عظيما فنحر فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه،

---

(١) أى ظهر نابه.

وعمرو بن كلثوم سنامه، وزهير كاهله، والأعشى والنابغة فخذيه، وطرفة ولبيد كركتيه - أي رقبته - فلم يبق إلا الذراعان والبطن فتوزعت على غيرهم من الشعراء.

وقد علق على الكعبة غير تلك المعلقات السبع معلقات أخرى كمعلقة الأعشى التى أولها:

ودع هـريرة إن الركـب مرتحـل ... وهـل تطيـق وداعـا أيها الرجل

ومنهـا:

قـالت هـريرة لمـا جـئت زائرهـا ... ويلى عليك وويلى منـك يا رجـل

قـالوا الطـراد فقلنا تلك عادتنـا ... أو تنـزلون فـإنـا معشـر نـزل

ومن قـصـائد العـرب قـصـيدة الشنفـرى، وهى التى تسمى بلاميـة العـرب، ومطلعهـا:

أقيمـوا بنى أمى صـدور مطيكـم ... فإنى إلى قـوم سـواكم لأميـل

ومنهـا:

وكل أبـى باسـل غيـر أننـى ... إذا عرضـت أولى الطـرائد أبسـل

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن ... بأعجبهـم إذ أجشع القـوم أعجـل

وحماسها غريب، ومفاده عدم حمل الضيم، حيث العرب لا تطيقه، كما قال الشـاعر:

وما ظهـرى لباغى الضيـم بالظهـر الذلـول

وقد نظم بعض الأدباء أسماء أصحاب المعلقات السبع:

لقد علقـوا بالبيت شـرف قدره ... قصـائد سـبعا بالبلاغـة تشـهر

فطرفة، عمرو، حارث بن حلزة ... لبيـد، زهـير، وامـرؤ القيس، عنتـر

وكـانت القـصـائد المعلقـات تكتب بحـروف الذهب زركـشة على المنسـوجـات الحريرية وتعلق على الكعبة المشرفة، وهذا يفيد أن الكتابة فى الجاهلية كانت مألوفة للعرب ومعلومة عندهم، كما يأتى بيان ذلك فى الفصل الآتى:

الفصل السادس

فى زمن ظهور الكتابة عند العرب

صناعة الكتابة عظيمة النفع عند جميع الأمم، وهى روح العبادات والمعاملات، وتذكار الماضى ونظام المستقبل الآت، ورسول المعنى القائم بالجنان ووجود الأذهان، وهى نقوش حروف المعجم المتفقة غالبا فى سائر اللغات، وأولها عند جميع الأمم الألف، إلا عند الحبشة فإن حرف الألف عندهم هو الحرف الثالث عشر من حروف الهجاء.

وهل الكتابة من حيث كونها رسوما وأشكالا حرفية تدل على الكلمات المسموعة، ومن حيث أوليتها بهذا الاعتبار هى من الأوضاع الإلهية أو من الأوضاع البشرية؟ خلاف، وعلى الثانى، من أوضاع أى ملة هى؟ فقال بعضهم: هى من أوضاع السريانيين، وقال آخرون هى من أوضاع قدماء المصريين، واستظهر بعضهم الأول، وإنها انتقلت من السريانيين إلى غيرهم بقلمهم الخاص بهم، كاليونان، ومن اليونان أخذ الرومانيون حروفهم، وهذا بالنسبة لغير العرب، وأما هم فكانوا يعرفون الكتابة من عهد إسماعيل عليه السلام، ثم إن اللغة العربية والسريانية والعبرانية متقاربة فى الألفاظ، أسماء ومسميات، وفى مخارج الحروف وكتابتها، فكتابات هذه الأمم الثلاث ترسم من اليمين إلى اليسار، بخلاف اليونان والروم فإنهم، بعكس ذلك، يكتبون من اليسار إلى اليمين، ويكتب أهل الصين من أعلى إلى أسفل.

وفى (الأوائل) للسيوطى: «أنه يروى أن آدم أول من كتب الكتاب العربى والسريانى، وأن الكتابات كلها من وضعه، وأنه دفنها قبل موته بثلثمائة سنة، وأنه بعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه، بإلهام إلهى، ونقلوا صورته، واتخذوه أصل كتابهم». انتهى.

وأما الكتابة العربية المرسومة بالحروف الهجائية التى أولها الألف وآخرها الياء فلا شك فى أنها أيضا قديمة، فقد كان العرب يعرفون الكتابة العربية من عهد إسماعيل عليه السلام، وأما قول بعضهم: أول من كتب بالعربى من ولد إسماعيل نزار بن معد بن عدنان، فلعله أول من أجاد الخط أو تعلم خطا عربيا على قاعدة أحسن مما قبلها، تلقنها من جهة بلغت فى الحضارة أكثر من بلاد قومه، فقد كان الخط العربى بالغا مبلغا من الجودة فى دولة التبابعة، وهو المسمى بالخط الحميرى، فكانت جودته بقدر ما عندهم من الحضارة، وانتقل الخط الحميرى من اليمن إلى الأنبار والحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر المجددين لملك العرب بأرض العراق، ومن الحيرة انتقل الخط إلى أهل الطائف وقريش، والذى تعلمه من أهل الأنبار هو حرب بن أمية ابن أخت أبى سفيان، فتعلمه جماعة من أهل مكة، فلذلك كثر من يكتب من قريش خطا جيدا على وجه آخر أرقى مما كان عندهم، إذ يبعد جهل قريش بالخط جملة، فكيف وقد قيل: إن من العرب العاربة، وهى البائدة، قبيلة عبد ضخم بن إرم كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك، وهم أول من كتب بالخط العربى، فإذا كان أول اختراع الخط العربى بالطائف من قوم بادوا وجاءت بعدهم عرب مستعربة يبعد أن يكون الخط مجهولا عندهم إلى زمن نزار مع القول بأن الكتابة العربية كانت معروفة للعرب من عهد إسماعيل عليه السلام، وأبعد منه قول بعضهم: إن أول من تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية أو حرب بن أمية، والقول بأن إياد بالعراق كانت أيضا تجهل الكتابة بالعربية، وتأويل قول شاعرهم:

قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعا والخط والقلم

بقبولهم، لذلك، فيه إخراج المدح عن موضوعه، وقد كان لحمير كتابة تسمى المسند، حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم، ومن حمير تعلمت

مضر الكتابة العربية الحميرية الجيدة، فكانت الكتابة العربية مع ما كانت عليه فى الجهات المختلفة من جزيرة العرب بدوية غير مستحكمة الجودة، فكان الخط العربى لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإجادة، فكان حسنه بقدر بداوة البلاد وحضارتها وقربها من الصنائع وبعدها عنها.

وقد رسم الصحابة رضى الله تعالى عنهم المصحف بخطوطهم، واقتفى التابعون من السلف رسمهم، تبركا بهم، وليس الخط كمالا فى حقهم حتى يقال إن خطوط المصاحف العثمانية لم تكن على هيئة جودة الخط فى الأزمان الأخيرة، على أنهم أيضا كانت خطوطهم لها جودة فى ذاتها بالنسبة لأزمانها، ومستحسنة عندهم بموافقة ذوق تلك الأزمان والمألوف للأبصار، كما أن قصائد العرب، كالمعلقات وغيرها، بالنسبة لوجودها فى ذلك الزمن، وملاءمتها لمألوف طباع هؤلاء العرب ولأسماعهم، بل وفى حد ذاتها، تعد طبقة عالية فى الفصاحة، وبالنسبة لذوق المولدين، ولما ألفوه من الأشعار المشتملة على الرقة والانسجام، تعد شكلا آخر غير مشنف للأسماع، وهذا سببه تعود الأسماع فى هذه الأزمنة على أقوال فصيحة بليغة مألوفة لذوق الوقت، فلو فرض أن شعراء عكاظ خرجوا من قبورهم كيقظة أهل الكهف من رقدتهم، وعرض عليهم قصائد المولدين لمجتها أسماعهم وكرهتها نفوسهم، وكذلك أهل الخط فى الأزمان القديمة، فالعادة هى المحسنة والمقبحة، الدليل على كمال الخط فى المصحف العثمانى، وأنه على قاعدة مستوفية وقانون أصولى، أن مصاحف القرآن الشريف وفت بأداء لفظ القرآن كما أنزل، وأنه قد يعد من المحاسن المحافظة على بعض رسومها.

وإنما بتداول الأزمان دعت الحاجة إلى التسهيل وكمال الضبط لملاءمة الطباع التى لا تكتفى بالخط القديم بدون نقط مثلا كما كان، فكان أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر[1]، فاحتاج الحال استحكام الخط الذى يتداول فى الدول العربية، بحيث

---

(١) يحيى بن يعمر الوشقى العدوانى (المتوفى سنة ٧٤٦م) من علماء التابعين، كان عالما بالفقه والحديث واللغات، عمل فى القضاء وديوان الرسائل فى خراسان ومرو.

إنه لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة، وقد تدونت الدواوين للأموال والرسائل، فاحتاجت الدول إلى الكتابة، استعملوا الخط فيه وتداولوه، فترقت الإجادة الذوقية فيه، وبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان، والخط الكوفى معلوم الرسم بهذا العهد، ومع ذلك فكان الخط إذ ذاك دون الغاية بالنسبة للذوق المتجدد بعد ذلك العهد.

ثم انتشر العرب فى الأقطار والممالك، وافتتحوا إفريقية والأندلس، واختط بنو العباس بغداد، وترقت الخطوط فيها إلى الغاية، يعنى أن ذوق ذلك الوقت رأى أن ما قبله من الكتابة أدنى درجة من وقته، لتقدمه فى العمران، ووجوده بدار الإسلام ومركز الدولة العربية، وكان الخط البغدادى معروف الرسم، وتبعه الإفريقى الذى يقرب من أوضاع الخط المشرقى، وتحيز ملك الأندلس بالأمويين، فتميز صنف خطهم الأندلسى المعلوم، ثم تقدمت الحضارة والتمدن فى الدول الإسلامية فى كل قطر، وعظم المُلْك واتسعت دوائر العلوم، وانتسخت الكتب، وتنافس الكتاب فى كتابتها، وملئت بها القصور السلطانية والخزائن الملوكية، وتنافست الأقطار فى ذلك، ولا زالت الخطوط آخذة فى التحسين على أساليب جديدة، وكان ابن مقلة[1] هو أول من نقل الخط الكوفى إلى العربى، وخطه يضرب مثلا فى الحسن لأنه أحسن خطوط الدنيا، كما قيل:

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ... ودت جوارحه لو حولت مقلا

فالبدر يصفر لاستحسانه حسدا ... والنور يحمر من نواره خجلا

وقيل إنه كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم فوضعوه فى كنيسة قسطنطينية، وكانوا يبرزونه فى الأعياد ويجعلونه من جملة تزايينهم فى أخص بيوت العبادات، ويعجب الناس من حسنه، ثم جاء بعد ابن مقلة ابن هلال[2] وهو أبو على الحسن

---

(١) محمد بن على (٨٦٦-٩٤٠) أديب بغدادى، تولى أعمال الخراج ثم الوزارة.

(٢) وكنيته أبو الحسن (توفى سنة ١٠٣٢م) خطاط بغدادى مشهور، نسخ القرآن بيده أكثر من ستين مرة، ولا زالت خطوطه محفوظة حتى الآن.

بن هلال المعروف بابن البواب، فزاد فى تعريب الخط، ثم جاء ياقوت[1] المستعصمى، وختم فن الخط وأكمله وأدرج فى بيت جميع قوانينه، فقال:

أصـــول وتركيب كرأس ونســـبة　　　صعـــود وتشـــمير نـــزول وإرمـال

فحسن الخط كان عظيم الجودة على أكمل نهاياتها فى عهد الدولة العباسية، ثم لما تضعضعت خلافة بغداد وانتقلت الخلافة إلى مصر والقاهرة انتقل الخط والكتابة والعلم إليها، وسرى منها إلى مضافاتها من البلاد التابعة لدولتها، وإلى ما جاور هذه البلاد، فلا زال الخط فى جميع هذه الأماكن آخذا فى الجودة إلى هذا العهد، وصار للحروف قوانين فى وضعها وأشكالها متعارفة بين الخطاطين.

وفى الحقيقة لا يقال فيه إن جودة الخط الآن أحكم من السابق إلا بالنسبة لذوق الوقت، فالخط المستعمل الآن فى المحاضرات والإنشاءات بقدر درجة الإنشاءات والمحاورات ومألوف الدواوين فى ذلك.

وبالجملة فلسان العرب الأول قد تغير، واحتاج إلى الإصلاح بالنحو، وكذلك الخط العربى قد تغير، واحتاج إلى الإصلاح بقوانين جديدة، بخلاف اللغة العربية فإنها باقية على حالها وفى موضوعاتها لم تتغير إلى هذا العهد، فلم تزل محفوظة دائرة على ألسنة العلوم، ومعرفتها ضرورية، لا سيما لأهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهى لغة العرب، والناقلون للشريعة هم الصحابة والتابعون، وهم عرب، وشرح مشكلات الشريعة من لغاتهم، فالمحافظة على اللغة العربية من أوجب الواجبات، وطريق المحافظة عليها هى الكتابة، وهى فضيلة من الفضائل. ومما يدل على فضلها قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (العلق: ٣). أى علمه الكتابة التى تعرف بها الأمور الغائبة، فجعل القلم كناية عنها، أو المراد علم الإنسان الخط بالقلم، وعلى كل

---

(١) ياقوت بن عبد الله المستعصمى الرومى (المتوفى سنة ١٢٩٩م) من موالى الخليفة العباسى المستعصم بالله، شاعر وأديب وخطاط، ومن آثاره (رسالة فى علم الخط).

حال فقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على فضيلة الكتابة، فإن للخط فضلا وشرفا ومنفعة لا تجهل، به تقيد العلوم وتثبت، وتزرع فى الصدور فتنبت، فقد أقسم الله به فى كتابه المكنون، قال تعالى ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١) وقال عليه الصلاة والسلام: «قيدوا العلم بالكتابة». وحسب صاحب الخط مدحا ما قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: من خط وخاط وفرس وعام فذاكم الغلام! قال الشاعر يمدح كاتبا حسن الخط:

إن هز أقلامه يوما ليعملها ... أنساك كل كمى هز عامله

وإن أقر على رق أنامله ... أقر بالرق كتاب الأنام له

فالقلم لا يتلجلج ولكن يسمع الشرق والغرب، ولذلك قيل هو أحد اللسانين، بل القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم. وفضيلة أميته صلى الله عليه وسلم خصوصية له فلا تقدح فى فضيلة الكتابة فى حد ذاتها، ووجودها فى أتباعه، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ (الأعراف: ١٥٧) ومعنى الأمى، كما قاله المفسرون، الذى هو على صفة أمة العرب، قال عليه الصلاة والسلام «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب».

خطوا فأقلامهم خطية حظيت ... فهم على الخيل أميون كتاب

إن أحسنوا كلما أو إن وفوا ذمما ... وقد صفوا شيما فالقوم أعراب

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون، والنبى عليه الصلاة والسلام كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أميا. قال أهل التحقيق وكونه أميا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير

زيادة ولا نقصان ولا تغيير، فكان ذلك من المعجزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴾ (الأعلى: ٦).

والثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهما فى أنه ربما طالع كتب الأولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات، وهذا هو المراد من قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

الثالث: أن تعلم الخط شيء سهل، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعى، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم فى الفهم، والله سبحانه وتعالى أعطى نبيه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر، ومع تلك القوة العظيمة فى العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذى يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلا وفهما، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين، وذلك من الأمور الخارقة للعادة، وجاريا مجرى المعجزات، مع ما يضاف إلى ذلك بالنسبة إلى مقامه الشريف وتنزهه عن الكتابة التى هى، وإن كانت فضيلة فى حد ذاتها، كما تقدم، إلا أنها معدودة من الصنائع العلمية، وهو صلى الله عليه وسلم منقطع إلى ربه غير محتاج إلى هذه الصناعة.

ثم إن اللغة العربية ذات تصرف فى الكلام، وقد جاء القرآن موافقا لها فى تصرفها، وهى تنقسم قسمين: أحدهما: الظاهر الذى لا يخفى على سامعيه، ولا يحتمل غير ظاهره، والثانى: المشتمل على الكنايات والإشارات والتجوزات، وكان هذا القسم الثانى هو المستحلى عند العرب، وقد نزل القرآن بالقسمين ليتحقق عجز العرب عن الإتيان بمثله، فكأنه تعالى قال لهم: عارضوه بأى القسمين شئتم. ولو نزل كله واضحا لقالوا هل نزل بالقسم المستحلى عندنا؟ ومتى وقع فى الكلام إشارة أو كناية أو تعريض أو تشبيه كان أحلى وأحسن، قال امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى　　　بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فشبه ناظر العين بالسهم، فحلا عند السامع، فنزل القرآن على عادة العرب فى كلامهم، قال تعالى: ﴿ **فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ** ﴾ (البقرة: ١٦)، ومن عادتهم الكناية، وفى القرآن: ﴿ **لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا** ﴾ (البقرة: ٢٣٥) أى نكاحا، وقد يكنون عن الشيء ويسترون ضميره بدون أن يجرى له ذكر يعود عليه الضمير، نحو: ﴿ **حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ (ص: ٣٢) أى الشمس، نحو ﴿ **فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ** ﴾ (الواقعة: ٨٣) ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ** ﴾ (الشعراء: ٢٢٥) ونحو: ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ** ﴾ (الدخان: ٢٩)، ومن عادتهم الحذف نحو ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾ (يوسف: ٨٢)، ومن عادتهم الزيادة نحو ﴿ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ** ﴾ (الأنفال: ١٢) وهكذا من التصرفات.

فاللسان العربى يحتاج إليه فى فهم الكتاب والسنة وكتب الشريعة المطهرة وفهم مداركها واستنباطاتها على موجب قواعد ذلك اللسان، وأركانه أربعة: اللغة، والنحو، والبيان، والأدب، ومعرفتها من أوجب الواجبات.

ولا شك أن وحدة اللسان ووحدة الشريعة المطهرة يقضيان بوجوب التفاهم بين أهليهما فى سائر الممالك الإسلامية، فاللسان العربى هو الجامع لجمعيات الممالك المتفرقة والدول الإسلامية أن يعرف متميزوها اللغة العربية وأركانها الأربعة لاسيما آدابها ودواوينها وأشعارها، ويزاولونها كل المزاولة لإحياء هذه اللغة التى طمست معالمها ودرست رسومها وقل راغبوها وندر خاطبوها إلاّ من أمم أوروبا فى مدارسهم الباحثة عن المعارف المشرقية القديمة، (كديوان الحماسة) وخلافه..

يبكى عليه غريب ليس يعرفه ... وذو قرابته فى الحى مسرور

فقد اختصوا الآن باستخراج جوهر لسان العرب من معادنه، واستنبطوا منها الفرائد المهمة والفوائد الجمة، واستكشفوا منها مجهول التواريخ والجغرافيا والعلوم والفنون والأخلاق والآداب والأمثال والحكم، مما انتظم به ملكهم، فلا يليق بنا هجر هذه الوسائل المثرية، ولا يكفى نشر كتبها بمجرد الطبع والتمثيل،

كالجارى الآن بمصر فى هذا العصر، كما لا يكفى أيضا التوسع فى دائرة العلوم العربية الإثنى عشر وقراءة مطولاتها، والاقتصار على معرفة الشواهد، كما هو موجود فى المدارس الإسلامية الكبيرة، بدون تدريس دواوين العرب ودواوين من حذا حذوهم من المولدين، بل لا بد من التشويق والترغيب وأخذ كافة طلبة الجامع الأزهر الأنور منها كغيرها من المعارف بأوفى حظ وأوفر نصيب، والكامل يقبل الكمال، ولا اكتراث بإيهام من لا يعرف قدرها فيستصعب أمرها ويستصوب هجرها وينتصب لخفض شأنها ونقض مرفوع أركانها، ويزعم أن الاشتغال بها ضياع زمان، وأن المجتهد فى تحصيلها لا يدرك منها طول عمره ما يرجح الميزان، وما درى أنها لو تداولت، وألفتها الطباع، وكشف عن جميل محياها القناع، لتجاذبتها العقول الذكية، وطمحت إليها الأطماع، وامتد إليها من أولى النهى الباع والذراع، وصارت لغة عامة للخاصة والعامة، فقد دلت التواريخ الصحيحة على أن أكثر المتقدمين من العلماء فى سن العشرين كملت لهم فيها القريحة، وإنما من جهل شيئا عاداه، واقتصر على المألوف لعقله القاصر وما تعداه.

نعم إن اللغة المتداولة فى بلدة من البلاد، المسماة باللغة الدارجة، التى يقع بها التفاهم فى المعاملات السائرة، لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها، وأصول على حسب الإمكان تربطها، ليتعارفها أهل الإقليم، حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم، وتصنف فيها كتب المنافع العمومية والمصالح البلدية، وأما الزينة الحقيقية للدول الإسلامية التى تجرد جيدها من حلاها فهى معرفة لسان العرب الصحيح، والحصول على ملكة التكلم بكلامه الفصيح، والبحث عن أمهات دواوينه القديمة، وتقويم أود اللسان برصد مراصده القويمة، فإن القصائد العكاظية وغيرها من كلام العرب قد بلغت بها الدول العربية غاية القصد ونهاية الأرب، فلا غرو أن عادت المياه إلى مجاريها وأعطى القوس باريها. .

ليالينا بذى الأثلاث عودى ليورق فى ربا الأثلاث عودى

فإن نسيم ذاك الشيخ أذكى　　　إليَّ من انتشاق شميم عود

فإن حديثكم فى القلب أحلى　　　وأطيب نغمة من صوت عود

فعسى أن يكون العود أحمد، والساعى فى الخير يشكر ويحمد، فقد أفادت هذه الآداب فى الجاهلية فوائد جزيلة كانت سببا فى تمهيد الإسلام، كما يعلم من الفصل الآتى ما ترتب عليها من القصد والمرام، فلعلها يترقب على معرفتها الآن إنعاش الإسلام، ويزيد بسطة فى العلم والجسم ويقوى بين أمم الأنام.

الفصل السابع

فيما نتج من شعر العرب وقصائدهم

لما عدمت العرب سعة دائرة الكتابة فى الجاهلية، وكانت فى الغالب أمة أمية، جعل لها الشعر العوض، فأدركت به حيث أقامته مقامها، فدونت به كلامها، وعرفت به أيامها، ولذلك يروى: الشعر ديوان العرب، أى سجل أحوالها، وقيد أفعالها. فقد ظهر مما أسلفناه أن قصائد العرب هى التى دلت على أيامهم ووقائعهم، ودرجة شرفهم ومجدهم، وعلو شهامتهم، وأنهم لم تتغير أحوالهم ولا طباعهم فى الأزمان المختلفة، ولم يتنازلوا عما كانوا عليه فى دهر من الدهور من النجدة والأريحية والحماس وكسب الفخار بما فيهم من العزة والنخوة والأنفة والفتوة، فهم وإن أحرصوا على أخذ الثأر ونفى العار، وسفك الدماء والإيثار بالفخار، فكثيرا ما نجدهم يتشبثون مع ذلك بالكرم والجود، ويميلون بالطبع إلى كسب الاعتبار المحمود، ويتنافسون فى المفاخرات والمنافرات، وما هذا إلاّ عن إحساسهم من أنفسهم بأنهم أهل للمجد والشرف، وأنهم يستحقون أن يرقوا فى مراتب المفاخر إلى أعلى الغرف، كما يشهد لذلك المنافرة[1] الواقعة بين بنى عامر، قبل الهجرة بعامين.

وسببها أن قبيلة بنى عامر انحصرت رياستها فى اثنين من وجوه القبيلة، وهما

---

(١) والمنافرة: المحاكمة، يقال: نافرت فلانا إلى فلان فنفرنى عليه، أى نصرنى. وأصلها أن العرب كانوا يساءلون: أيهم أعز نفرا. (الطهطاوى).

علقمة بن عبدة التميمى النجدى، وعامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامرى النجدى، وكل منهما فصيح همام، وبطل مقدام، وكلاهما تطلب الرياسة لما فيه من الأهلية والاستحقاق، فتنافرا وتحاكما عند شيخ مجرب وقور من قبيلة أخرى، وتراضيا على قبولهما ما يحكم به فى فصل الخصام، فاستحلفهما هذا الشيخ المتنافر إليه على أنه إن حكم بينهما ينقادان لحكمه بدون أن يكون لأحدهما بعد ذلك دعوى على الآخر، فحلفا على ذلك، فحكم بأن هذه الخصومة لا يفصلها بحكمه القطعى إلا بعد حول كامل يختبر فيه سلوكهما، ليكون له زمن يعرف فيه درجة فضيلة كل منهما ومزيته على الآخر، ففى مدة هذا الحول تشبث كل من هذين القرينين ببذل ما فى وسعه من الشهامة والفضيلة ليتميز عن قرينه، فبعد انقضاء السنة ظهر لهذا الشيخ المحكم أن كلا من هذين الرئيسين لا أرجحية له على صاحبه فى الخصال التى يستحق بها رياسة القبيلة، فلما وجدهما متساويين فى صفات المجد والشهامة، لا أرجحية لأحدهما على الآخر، حكم لهما بالرياسة اشتراكا فيها، فاجتمعا على ذلك واتحدا كمال الاتحاد قلبا وقالبا للقيام بشؤون القبيلة وحفظ حقوقها، وكان صدور الحكم بذلك فى مجلس حافل جامع لكثير من القبائل، فعجبوا من قضاء هذا الشيخ الذى أمهل الخصمين فى إقامة دعواهما حولا كاملا، وأخذ العرب من تحكيمه بالموعظة الحسنة، لا سيما وقد تسبب عن حكمه زوال البغضاء والمشاحنة، وترتب عن طريقة حكمه التوادد والتحابب واجتماع القلوب والتواطؤ على صلاح القبيلة، فمثل هذا المحكم أهل لأن يبعث العرب، بطريقة سلوكه، على الاتصاف بصفات الحزم والاحتياط، المنتجة للمجد والشرف والسخاء والكرم، وكل ما يبلغ الإنسان السيادة.

وقد كانت المنافرة متواترة بين بنى هاشم وبنى عبد شمس، ويقال إن هاشما وعبد شمس ولدا توأمين، فخرج عبد شمس فى الولادة قبل هاشم وقد لصقت أصبع أحدهما بجبهة الآخر، فلما نزعت دمى مكانها، فقيل: سيكون بينهما أو بين ولديهما دم فكان كذلك! ويقال إنهما كانا يوم ولدا فى بطن واحد ملتصقى الجباه ففرق بين جباههما بالسيف، فقال بعض العرب: أنه لا يزال السيف بينهما وبين أولادهما إلى الأبد!.

ووقعت منافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصى وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وسببها أن هاشما كانت إليه الرفادة، التى سنَّها جده قصى ابن كلاب بن مرة، مع السقاية، لأن أخاه عبد شمس كان يسافر، وكانت إقامته بمكة قليلة، وكان رجلا مقلا، وكان له ولد كبير، وهو أمية بن عبد شمس، فاصطلحت قريش على أن ولى هاشم السقاية والرفادة لأنه كان رجلا موسرا، فكان إذا حضر موسم الحج قام فى قريش خطيبا، فقال: «يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنكم يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، وهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصكم الله بذلك، وأكرمكم به، وحفظه منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فاكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثا غبرا من كل بلد على ضوامر كالقداح[1]، فأقروهم وأغنوهم وأعينوهم».

فكانت قريش ترافد على ذلك، حتى كان أهل البيت ليرسلون بالشىء اليسير على قدرهم فيضمه هاشم إلى ما أخرج من ماله وما جمع مما يأتيه به الناس، فإن عجز كمله، وكان هاشم يُخْرِج فى كل سنة مالا كثيرا، وكان قوم من قريش يترافدون لأنهم كانوا أهل يسار، فربما كان أرسل كل إنسان منهم بمائة مثقال.

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم[2] فتجعل فى موضع زمزم قبل أن تحفر زمزم ثم يستقى فيها من الآبار التى بمكة، فيشرب الحاج وكان يطعمهم، وأول ما يطعمهم قبل التروية بيوم، ويطعمهم بمنى وبعرفة وبجمع، فكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن، والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء حتى يتفرق الناس ببلادهم، وكان يسمى عمرا، وإنما قيل له هاشم لهشمه الثريد، وهو أول من أطعم الثريد بمكة..

عمرو العلا هشـم الثريد لقومه ورجـال مكة مسـنتون عجـاف

وكان أمية بن عبد شمس ذا مال، فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من إطعام

(١) أى كالعيدان المقطوعة على مقدار النبل. (الطهطاوى). والقداح ـ بكسر القاف وفتح الدال ـ مفردها قدح ـ بكسر القاف وسكون الدال ـ، وهو السهم قبل أن ينصل ويراش.
(٢) الأدم: باطن الجلد، وظاهره.

الطعام لقريش، فعجز عن ذلك، فشمت به ناس من قريش وعابوه لتقصيره، فغضب ونافر هاشما على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى، وكان منزله عسفان، وخرج مع أمية أبو همهمة حبيب بن عامر بن عميرة بن وديعة بن الحرث بن قهر بن مالك الفهرى، فقال الكاهن المنافر إليه: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلمه المسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر»! فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أمية إلى الشأم فأقام به عشر سنين.

فشتان بين حكم الحكم الأول فى المنافرة الأولى، حيث ترتبت عليه المودة، وبين حكم الثانى، حيث ترتب عليه ما ترتب من العداوة، فكانت هذه أول عداوة وقعت فى بنى هاشم وبنى أمية، وتمادت العداوة بين البيتين حتى أقام سيد بنى هاشم محمد، صلى الله عليه وسلم، بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بمكة يدعو قريشا إلى توحيد الله ترك ما كانت تعبد من دونه، فانتدب جماعة بنى أمية لعداوته - كما سيأتى - فاطلاع قريش على روايات مفاخرهم وحسبهم ونسبهم وعزتهم جعلهم يحرصون على أن لا يتركوا شيئا من العزة والعظم لغيرهم.

ثم إن الشريعة المحمدية جاءت فيما بعد وحققت العزة الصحيحة، وحصرتها فى المواهب الحميدة والفضائل المفيدة، وكانت العرب قبل ذلك تزعم أن الرجل الشريف الماجد هو الذى يكون كثير المال عظيم الجاه، فيعز بين قومه، وينافر من دونه، فبالتقدم فى تحسين اللغة العربية، والبعد عن الحالة الجاهلية، وظهور الشريعة المحمدية، علموا علم اليقين أن العز الحقيقى إنما هو فى صلاح الدين، ليس مقصورا على عز الدنيا، بل الأولى به عز الدين، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولذلك لما نزل القرآن على سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، تعجبوا فى بادية الأمر واعترضوا نزوله عليه بما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ (الزخرف: ٣١) فكلاهم(*) يتضمن

(*) الصواب: فكلاهما. (الشروق).

قياسا منطقيا، وهو أن منصب رسالة الله تعالى منصب شريف، والمنصب الشريف لا يليق إلاّ برجل شريف، والشريف من كان كثير المال والجاه، ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به. فالقياس فى حد ذاته صادق، إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة بتفسير الشريف، فكانت شبهة، حيث اشتبه عليهم منصب الدين والنبوة بمنصب الدنيا. والمراد بإحدى القريتين مكة والطائف، والذى بمكة هو الوليد بن المغيرة، والذى بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفى، فأبطل الله سبحانه وتعالى شبهتهم من وجهين:

الوجه الأول: قوله (أهم يقسمون رحمة ربك)؟ أى إحسانه، يعنى كما أحسنا بمناصب الدنيا، لا لسبب سابق، فكذلك أحسنا بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق أيضا، وحيث قد أحسنا فى الأول بمحض قدرتنا، ولم نمكن أحدا أن يغيره، فكذلك إحساننا بالدين والنبوة لا يستطيع أحد أن يغيره، فقد فاوتنا بين الإحسانين، ولا يمكن المعارضين أن يقسموا إحساننا الذى اقتضته حكمتنا.

الوجه الثانى: ما يفهم من قوله تعالى (ورحمة ربك خير مما يجمعون) يعنى أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع من أنواع فضله ورحمته فى الدين فهذه الرحمة خير من الأموال التى يجمعها، لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض، وفضل الله ورحمته يبقى أبد الآباد، فلا فضل للغنى على الفقير، وليس الغنى شرفا حقيقيا.

وبالجملة فكانت عزة نفوس العرب تبعثهم على التخلق بأخلاق المجد والشرف والسخاء والكرم، مما به يبلغ الإنسان السيادة والسعادة، فلا عجب مما يحكى من الخصال الحميدة ومحامد الأخلاق الصادرة من حاتم الطائى، وزيد الخيل، ومعن ابن زائد، وأضرابهم ممن كان يضرب بهم الأمثال فى الجود والشجاعة قبل الإسلام بزمن يسير، مثل كعب بن مامة الأيادى، وهرم بن سنان النميرى، قال بعضهم فى ممدوح:

لو أدرك العصر من كعب ومن هرم وحاتم جود كفيه لما ذكروا

وأجواد العرب في الإسلام عبدالله بن عباس، وأخوه عبيد الله، الذى لفرط جوده يسمى معلم المجد، وهو أول من وضع الموائد على الطرق، ولا غرابة فى ذلك فمكارم العباس أخجلت فى ذلك العهد كثيرا من الناس . .

لو قيل للعباس عم محمد	قل: لا، وأنت مخلد، ما قالها
إن المكارم لم تزل معقولة	حتى فككت براحتيك عقالها
وإذا الكرام تسايروا فى بلدة	كانوا كواكبها وكنت هلالها
ما أن أعد من المكارم خصلة	إلا وجدتك عمها أو خالها

ومن الأجواد أيضا فى الإسلام عمر بن الخطاب، والحسن بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، ومن أجود الصحابة : العشرة، رضى الله عنهم .

وقد ترتب على إنشاد الشعر وإنشائه قبل البعثة تصوير الأفكار، والاستعداد لقبول محاسن الأمصار، وتقلب الأحوال إلى أحسن حال، بحيث تمدن العرب تمدنا خاصا بهم بمجامع الفصاحة والبلاغة ومجالس الآداب والمفاخرات، وصاروا جميعا مستعدين لقبول التمدن الحقيقى، ومتهيئين للتخلق بالأخلاق الحميدة، والرضا بالتغيرات الجديدة، وقبول التحسينات المفيدة، والرجوع عن دين الجاهلية، واتباع الشريعة المحمدية، فكان هذا عبارة عن مقدمات استجدت لمقاصد رسالة تحدث .

الباب الثالث

(فى مـقــدمـات حكمـيـة لـدولة العـرب
الإســـلامية.

وفيه فصول.)

الفصل الأول

فى تقدم قريش، نوع التقدم، فى تلك الأزمان

قد أسلفنا أن لسان العرب قد بلغ درجة كمال، وكان مظهر استخلاصه واستصفائه فى مكة ونواحيها، حتى صار اللسان العذب الفصيح البليغ هو لسان قريش، وصارت لهم الرتبة المعنوية، لكونهم آل الله وجيرانه، وسكان بيت الله.

فى ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم:

نحن آل الله فى ذمته — لم نزل فيها على عهد قدم

إن للبيت لربا مانعا — من يرد فيها بإثم يخترم

لم تزل لله فينا حرمة — يدفع الله بها عنا النقم

فهم منسبون دائما لله. قال بعضهم يمدح أولى الأمانة، وهى مفتاح الكعبة:

إذا اشتعب الناس البيوت فأنتم — أولو الله والبيت العتيق المحرم

فمن حيث كونهم سكان الحرم لا زالوا آمنين فى امتيازهم وتنقلاتهم شتاء وصيفا فى رحلتى الشتاء والصيف، والناس يتخطفون من حولهم، فإذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله، فلايتعرض لهم أحد. وكان هاشم يؤلف إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الأربعة الأخوة ولا يتعرض لهم أحد، وكأن كل أخ منهم - أخذ حبلا من ملك ناحية سفره أمانا له، كالإجازة، فكان هذا

أشبه شئ بالروابط والعلاقات بين أمراء مكة المشرفة وبين كبار ملوك الدنيا، فهذا أمارة دولة قرشية، مع ما يضاف إلى ذلك مما حصل من قصى بن كلاب فى زمانه حيث جمع قبائل قريش، وكانت متفرقة فى البوادى، فأسكنها الحرم، وكانت تدعى قبل التجميع النضر بن كنانة، فكانت قبائل قريش متفرقة فى بنى كنانة، فجمعهم قصى بن كلاب إلى البيت فسموا قريشا، من التقريش، وهو التجميع، قال الشاعر يرثى أحد الأمراء القرشيين:

عدوا فى نواحى نعشه وكأنما ... قريش قريش يوم مات مجمع

وقال بعضهم: إنما سميت قريش قريشا لدابة فى البحر هى أعظم دواب البحر خطرا لاتظفر بشئ من دواب البحر إلا أكلته، فسميت قريش قريشا لأنها أعظم العرب فعالا، قال الشاعر:

وقريش هى التى تسكن البحر بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا تترك منه لدى الحنادس ريشا

هكذا فى البلاد حى قريش ... يأكلون البلاد أكلا كشيشا

ولهم آخر الزمان نبى ... يكثر القتل فيهم والخموشا

تملا الأرض خيله ورجال ... يحشرون المطى حشرا كميشا

وأول دار بنيت بمكة دار الندوة، وتسمى دار المنتدى، بناها قصى لتكون مجلس القوم نهارا، يجتمعون فيها للمشاورة فى الأمور المهمة، فلم يكن لهم أمر مهم إلايجتمعوا فيها، وهوالذى بنى المسجد الحرام بجبل المزدلفة، وكان يسرج عليه أيام الحج، فسماه الله مشعرا وأمر بالوقوف عنده، وتنتهى قبائل قريش إلى فهر بن مالك، قال الشاعر:

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر

وكان قصى يشعر[1] من دخل مكة من غير أهلها، وكان أول سبب حرب قصى مع خزاعة أن مفتاح الكعبة كان بيد أبى غبشان الخزاعى، وكان يلى أمر البيت

---

(١) أى يأخذ منه ضريبة العشر.

وسدانة الكعبة قبل قريش، واسمه سليم بن عمرو، فاجتمع مع قصى فى شرب بالطائف فأسكره قصى ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر وقعود، وجاء به قومه فقال: هذا مفتاح بيت أبيكم إسماعيل قد رده الله عليكم من غير غدر ولا ظلم، ودفع المفاتيح لابنه عبد الدار وصيره بها إلى مكة، وأقبلت خزاعة على أبى غبشان تذمه، فأنكر البيع، وقال: إنما رهنته إياه، وندم ندامة الكسعى(*)، فقال الناس: أخسر من صفقة أبى غبشان، فذهبت مثلا فى الحمق والندم وخسارة الصفقة، ووقعت الحرب بين قصى وبين أبى غبشان الخزاعى على ذلك، فظهر عليه قصى، وفى ذلك يقول الشاعر:

أبو غبشان أظلم من قصى — وأظلم من بنى فهر خزاعة

فلا تلحوا قريشا فى شراه — ولوموا شيخكم إذ كان باعه

فاجتمع لقريش فى ذلك الوقت الرياسه على قومهم، وأطاعتهم العرب، واجتمع لهم ما لم يجتمع لغيرهم من مناصب الشرف فى ذلك الوقت، وهى الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة، فالحجابة هى سدانة البيت الشريف، أى تولية مفتاح بيت الله، والسقاية إسقاء الحجيج كلهم الماء العذب، وكان نادرا بمكة يجلب إليها من الخارج لسقاية الحاج بل وينتبذ لهم التمر والزبيب للشراب أيضا، وأما الرفادة فهى إطعام الطعام لسائر الحجاج، فكانت تمد لهم الأسمطة فى أيام الحج، وأما الندوة فهى المشورة، فكان يجتمع فيها من قريش ومن غيرهم من العرب من أهل الرياسة من بلغ فى العمر أربعين سنة، ولا يعقد عقد نكاح الرجل من قريش إلا فيها.

وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الأعداء، فيجتمعون تحت هذه الراية، ويقاتلون عندها، والقيادة أمارة الجيش ورياسة الحرب، فكانت هذه هى مناصب الشرف فى الجاهلية، وانتهت إلى عشرة أبطن من قريش، وبقيت لهم فى الإسلام كذلك.

(*) الكُسَعىُّ: هو رجل من بنى كُسَع، يضرب به المثل فى شدة الندم فيقال: (أندم من الكسعى).
وللوقوف على قصة المثل بتمامها انظر: مجمع الأمثال للميدانى تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد- الجزء الثانى صفحة ٣٤٨-٣٤٩- مطبعة السنة المحمدية- ١٩٥٥م. (الشروق).

والعشرة الأبطن هم هاشم، وأمية، ونوفل، وعبد الدار، وأسد، وتيم، ومخزوم، وعدى، وجمح، وسهم، فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب، يسقى الحجيج وبقى له ذلك فى الإسلام.

ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب، كانت عنده العقاب، راية قريش، وكانت إذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب، فإن اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه.

ومن بنى نوفل الحرث بن عامر، وكانت إليه الرفادة، وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج.

ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة، كان إليه اللواء والسدانة أى خدمة الكعبة مع الحجابة، ويقال والندوة أيضا فى بنى عبد الدار.

ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الأسود، وكانت إليه المشورة، وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه فإن وافقه ولاهم عليه وإلا تخيروا وكانوا له أعوانا، واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف.

ومن بنى تيم أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق وهى الديات والمغارم، وكان إذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا حماله من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه.

ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد، كانت إليه القبة والأعنة، فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب.

ومن بنى عدى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وكانت إليه السفارة فى الجاهلية، وذلك لأنهم كانوا إذا وقعت بينهم حرب بعثوه سفيرا، وإن نفرهم حى لمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به.

ومن بنى جمح صفوان بن أمية، وكانت إليه الأيسار وهى الأزلام، فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تيسيره على يديه.

ومن بنى سهم الحرث بن قيس، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم.

فهذه الوظائف عند العرب فى دولتهم المعنوية تشبة وظائف الدولة الملكية الحقيقية.

وكان لهم آداب منها العمارة وهى أن لا يتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته، وكان العباس ينهاهم عن ذلك، وكان لبنى هاشم سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر، فأما حلوان النفر فلكون العرب لم تكن ترضى فى الجاهلية أن يتملك عليها ملك، فإذا حدث لها حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت علية القارعة أحضروه صغيرا كان أو كبيرا وأمروه بالنفر للحرب، فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بنى هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجن فصار رئيس الحرب. ويروى أن المأمون قال لأبى الطاهر القرشى الذى كان على البحرين: من أى قريش أنت؟ قال من بنى سامة بن لؤى، فقال المأمون:

ما سمعنا لسامة بن لؤى نسبا فى بطوننا العشره

لو علمنا به على بعده منا ديارا كنا به برره

أراد بذلك أنه ليس من البطون الذين تقلدوا الشرف والمكارم قديما.

وهذا بالنسبة لقريش ظاهر، وأما باقى العرب كعرب اليمن فكانت فيهم الدولة الملوكية، وكانت العلاقة بينهم وبين قريش قد ظهرت أماراتها، فكان لقريش عليهم قوة معنوية، إذ كان لهم درج تزلق عنها أقدام الرجال، وأفعال تخضع لها رقاب الأموال، وغابات تقصر عنها الجياد المُسوَّمة، وألسن تكل عنها الشفار الماضية، ولو اختلفت العرب ما تزينت إلاّ بهم، ولو كانت الدنيا لهم لضاقت بسعة أخلاقهم، وهذه الفضائل الخاصة بهم غير الفضائل العمومية الداخلية فى عموم فضائل العرب، الشاملة لقريش ولغيرهم، التى أشار إليها صلى الله عليه وسلم بقوله: «إذا سألتم الحوائج فاسألوا العرب، فإنها تعطى لثلاث خصال:

كرم أحسابها، واستحياء بعضها من بعض، والمواساة لله». ثم قال: «من أبغض العرب أبغضه الله».

واختصت قريش أيضا أنها لم تزل على تطاول الأيام تعترى إلى أنساب مضبوطة، وتتميز بأحساب عن الخلل محوطة، قد قام بتصحيح اتصالاتها فى كل زمان علامون من الأمة، ونهض بتنقيح حالاتها فى كل أوان فهامون من الأئمة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الأئمة من قريش» . فمن كانت أوصافهم بهذه المثابة فقد آن لهم أوان المظهر فى النجابة، لا سيما وأنه سبقت لجميع العرب السعادة فى الأزل بنزول القرآن بلغتها، واشتقاق العربية من ألفاظها، والاستشهاد على فهم الكتب السنة من أشعارها، وإسناد الحكمة والآداب إليها، وإنه لم يكن من الشعراء بعد شعرائها أحد إلا كان مضطرا إلى الاقتباس من محاسن ألفاظها، والعرب مكتفون عن سؤلهم بمعرفتهم، وكثيرا من ألفاظهم ما وافق القرآن الشريف، وجاء القرآن على تصرفات اللغة العربية التى بلغت درجة الكمال فى الفصاحة، فلم يبق لها فى الحصول على مقصودها - وهو كمال تمدنها وإنقاذ مهجتها مما يورث السقامة والوخامة - إلا وحدة الدين الصحيح، وهجر دين الجاهلية، ورفض عبادة الأصنام المختلفة بين القبائل، والتصديق بنسخ دين أهل الكتاب، والتمسك بدين الإسلام، ودعوة جميع الخلق إلى عبادة إله واحد حق، والركون إلى شريعة واحدة صحيحة، بها يتمكنون مما جبلوا عليه من الميل إلى تملك البلاد وتسخير العباد حسا ومعنى، ليصح لهم إصلاح المعاد والمعاش، ليشرفوا بمزية السبق إلى الإسلام وفتح سائر بلاد الدنيا بالدين المحمدى والجهاد فى الله حق جهاده، فكان تقدمها ووجود الأهلية فيها لذلك يعد من الإرهاصات للبعثة المحمدية .

الفصل الثانى

فى كون العرب أولى بهذه المزية من غيرهم من سائر الأمم، وكون قومه المخصوصين، الذين هم قريش، هم أحق الأمم بدولته الإسلامية، حيث أرسل صلى الله عليه وسلم بلسانهم، مع عموم

رسالته للجميع

قال تعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ** ﴾ (إبراهيم: ٤) المراد بقومه أهل بلده، أى حيه الذى هو قريش، فهم قومه، وهم غير أهل دعوته، إذ دعوته عامة لجميع الناس، ففرق بين قومه وأمته، سواء كانوا أمة دعوة أو إجابة، فلا يقال: إن القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب مافيه من الفصاحه إلا العرب، ولا يكون حجة إلا عليهم، كما لا يصح أن يقال: إن المراد بذلك اللسان لسان العرب، وأنه ليس له قوم سوى العرب، وأنه مبعوث إليهم خاصة، كما تمسك به بعض من لم يجعل نبوته عامة، مع أن دلائل عموم الدعوة قائمة فى الرد عليهم كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (الأعراف: ١٥٨) ردا على طائفه من اليهود يقال لهم العيسوية، وهم أتباع عيسى الأصفهانى، حيث قالوا إن محمدا رسول صادق مبعوث إلى العرب، وغير مبعوث إلى بنى إسرائيل، لأن قوله ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ** ﴾ خطاب يتناول كل الناس، وقوله: (**إنى رسول الله إليكم جميعا**) يقتضى كونه مبعوثا إلى جميع الناس.

ولنا دليل عقلى على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم، يعضد الآية، وهو أن ما يعلم بالتواتر من دينه أنه كان يقول إنه مبعوث إلى كل العالمين، فأما أن يقال: إنه كان رسولا حقا، أو ما كان ذلك، فإن كان رسولا حقا امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقا فى كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر الآية أنه كان يقول: إنه مبعوث إلى جميع الخلق، وجب كونه صادقا فى هذا القول، وذلك يبطل قولة من يقول: إنه كان مبعوثا إلى العرب فقط، وأما قول القائل: إنه ما كان رسولا حقا فهذا يقتضى القدح فى كونه رسولا إلى العرب وإلى غيرهم، فثبت أن القول بأنه رسول إلى بعض الخلق دون بعض الكلام باطل متناقض، إذا ثبت هذا فنقول: قوله (يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) على عمومه، فهو مرسل إلى كل من وصل إليه خبر وجوده وخبر معجزاته وشرائعه حتى يمكنه عند ذلك متابعته، بل هو عام الرسالة إلى الثقلين: الإنس والجن، بل وإلى الملائكه، تشرفا لا تكليفا، وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى، أرسلت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، ونصرت على عدوى بالرعب، يرعب منى مسيرة شهر، وأطعمت الغنيمة دون من قبلى، وقيل لى: سل تعطيه، فاختبأتها شفاعه لأمتى».

وأما رسالة آدم لبنيه، ورساله نوح لمن خرج معه من السفينة فعموميتهما خصوصية، يعنى لفرقة محصورة، ففرق بينها وبين الرسالة العامة، كرسالته صلى الله عليه وسلم، فليس المفهوم واحدا، فلم يرسل من غير العرب ولا من العرب نبى عام الرسالة عموما حقيقيا غيره صلى الله عليه وسلم، فمن أرسل من العرب للعرب كهود وصالح وإسماعيل وشعيب فقد أرسل إلى قومه.

فإن هودا أرسل إلى عاد الأولى، فكذبوه، ولم يؤمن منهم إلا القليل، ومن معجزاته أن قومه سألوه أن يجعل الله تعالى أصواف شياههم وأوبار إبلهم أبريسما[1] فدعا الله تعالى فصارت أبريسما، وكان مكان مرعى قومه حجارة لم يثبت فيه شئ، فدعا الله تعالى فأجابه فصارت الحجار ترابا، وكانت مساكنهم بين

(١) أى حريرا.

عمان وحضرموت والأحقاف من أرض اليمن، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها، وكانوا كالحصى عددا، فلما بعث إليهم هودا أمرهم أن يوحدوا الله تعالى، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا وكذبوه وتمادوا فى الغى والضلال وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت: ١٥) فلما فعلوا ذلك ولم يقبلوا نصيحة هود عليه السلام أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى هلك مواشيهم وأصابهم الضر الشديد والقحط الجهيد، وكان الناس إذا أصابهم كرب بعثوا وفودهم إلى البيت الحرام فيدعون الله تعالى فيستجاب لهم، فاجتمع رأى ملكهم وأصحابه على أن يتوجه سبعة نفر من أصحابه إلى الحرم فيستسقون لقومهم، فلما قدموا مكة وبالغوا فى الدعاء بدت لهم ثلاث سحابات بيضاء وسوداء وحمراء، ونودوا : أن اختاروا أيتهن شئتم، فقالوا: اخترنا السوداء، فإنها أكثر غيثا، فنودوا: اخترتم رمادا أرمدا، لا يبقى منكم والدا ولا ولد إلا ترككم همدا، فتفرقت السحابتان البيضاء والحمراء ومضت السحابة السوداء نحو اليمن فوافت من ساعتها، فتباشروا، وكان أول من نظر إلى ما فى تلك السحابة من العذاب امرأة منهم تسمى مهدا، فرأت وسط السحابة كلهيب النار فصفقت بيديها، وهى أول من ابتدعت التصفيق عند المصائب، ونادت بأعلى صوتها: ويلكم! عليكم بهود، عليه السلام، لقد أتاكم العذاب، ألا ترون إلى ما فى هذه السحابةقالوا: ما نرى شيئا، فما ترين؟ قالت:

إنى أرى وسط السحاب نارا ... تنشر من ضرامها الشرار

يسوقها قوم على خيول ... تهتف بالأصوات والصهيل

وهى عذاب يا لعاد فاعلموا ... فوحدوا الله لكيما تسلموا

ثم استجيروا بالنبى هود ... نبى رب واحد معبود

فقد أتاكم عن قريب داهية ... فليس تبقى منكم من باقية

فلما اراد الله إهلاكهم أرسل عليهم الريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (الذاريات: ٤٢).

وأما صالح، عليه السلام فقد أرسل إلى قبيلة ثمود، على رأس الأربعين سنة، وكانت منازل ثمود بالحجر بين الحجاز والشام، بينها وبين وادى القرى ثمانية عشر ميلا، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتا، فنحتوا فيها وجوفوها، وكانوا فى سعة من معايشهم، وبيوتهم إلى وقتنا هذا منحوتة فى الجبال، ورممهم باقية، وآثارهم بادية، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا، وهذا يدل على أن أجسامهم كانت كأجسامنا، فخالفوا أمر الله تعالى، وعبدوا غيره، وعثوا فى الأرض، وتجبروا، فبعث الله إليهم صالحا نبيا، وهو من أفضلهم حسبا ونسبا، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه، ولم يقبلوا ما دعاهم إليه، فقال العظماء منهم: يا صالح: إن أحببت أن نصدقك ونؤمن بإلهك فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة أضخم ما تكون من النوق ومعها ثقبها، أى فصيلها، فدعا صالح ربه فاستجاب الله دعاءه، فقال لهم: من أين تريدونها؟ فأشاروا إلى الصخرة وقالوا: من هذه الصخرة، فأشار إليها صالح وقال: اخرجى بإذن الله تعالى، فبينما هم إذا نظروا إلى الصخرة وهى تزجى كما تزجى الناقة وتمخض كما تمخض المرأة فى نفسها وتحركت فانصدعت عن ناقة كما سألوه، ثم نهضت فجعلت تمشى نحوهم، حتى إذا دنت بركت فوضعت ثقبا مثلها فى العظم والجسم، ثم نهضت نحو المرعى وأتبعها ثقبها، فلما رأوا ذلك بهتوا متعجبين وآمنوا بالله تعالى يومهم وليلتهم، فلما أصبحوا رجعوا إلى أسوأ مما كانوا عليه من الكفر والطغيان، فقال لهم صالح عليه السلام أما أن نكصتم على أعقابكم فأيكم أن تمسوا هذه الناقة بسوء أو تمنعوها حظها بالمرعى والشرب فيحل بكم العذاب ﴿ **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ** ﴾ (الأعراف: ٧٣) من الكلأ، ولها من الماء يوم تشربه كله، ولكم يوم آخر، لأن مياههم كانت قليلة، فكانت تشرب ماء الوادى فى يوم ويحلبونها فى يوم فيشربون لبنها عوض ما شربت، فأجابوه إلى ذلك، فمكثت الناقة ترد الماء فتستوعبه جميعا لعظمها حتى لا تدع منه شيئا فتصدر وضرعاها يشخبان لبنا فيستقبلونها بالمحالب فيحلبون منها بقدر ما كانت تشرب من الماء فى الكثرة، ثم تصدر من غير الفج الذى وردت فيه لأنها لم تقدر على أن تصدر من حيث وردت للضيق، فلما طال عليهم ذلك ملوها فعقروها، فانطلق الفصيل موليا وصعد جبلا شامخا جدا يقال له ضو، فذهبوا إليه

ليأخذوه من الجبل، فجاءه صالح عليه السلام، فلما رآه الفصيل بكى ثم رغا ثلاثا فانفجرت الصخرة فدخلها، فوعدهم الله تعالى بالعذاب فقال: ﴿ **تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ** ﴾ (هود: ٦٥) لكل رغوة يوم فأصابهم فى اليوم الأول، وكان نهار خميس، صفرة، فأصبحوا مصفرين، وفى اليوم الثانى أصبحوا ووجوهم محمرة كأنها خضبت بالدماء، وأصبحوا فى اليوم الثالث ووجوههم مسودة كأنها طليت بالقار، وصبحهم العذاب يوم الأحد فأتتهم صيحة من السماء ارتجت لها الدنيا فتقطعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك، ولحق صالح من آمن به من قومه بمكة، وكان آمن بصالح من قوم ثمود أربعة آلاف نفس، وأقام صالح فى قومه عشرين سنة، وتوفى بمكة ودفن بالحجر، وقيل إنه لما خرج مع من آمن به نزل بموضع بمدينة الرملة من بلاد فلسطين فدفن بها.

وأما شعيب، عليه السلام، الذى يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، فقد بعثه الله تعالى إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة، والأيكه هى الشجرة الملتفة، وكان إبراهيم عليه السلام جده الأعلى لأبيه، ولوط عليه السلام جده لأمه، وكان لسانه عربيا، ومن معجزاته إنه كان فى أرض مدين رمل عظيم يقاسون منه عناء شديداً فأشار إليه فانتقل منه الرمل إلى مكان آخر، وكان فى أرضه حجارةفانقلبت بدعائه نحاسا فصار قومه أغنياء بذلك النحاس، وكان قومه، عليه السلام، كفارا، وكانت أرضهم مدين - وهى ما بين أرض مصرو الشام - وكان أغلب أهلها تجارا عليهم ممر الناس من مصر إلى الشام، فقال لهم شعيب ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ** ﴾ (هود: ٨٤) وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق ويبيعون بالكيل أو الميزان الناقص، وكانوا عشارين يقطعون الطريق، فلما طال تماديهم فى الغى والكفر وأيس شعيب من صلاحهم دعا عليهم فقال ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ (الأعراف: ٨٩) فأجاب الله تعالى دعاءه، فأهلكهم بالرجفة، وهى الزلزلة، وكانو قد اجتمعوا تحت سحابة بعثها الله تعالى إليهم فأظلتهم ووجدوا لها بردا وريحا طيبة فألهبها الله تعالى عليهم نارا، ورجفت بهم الأرض فاحترقوا وصاروا رمادا، وذلك قوله تعالى

﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ (الشعراء: ١٨٩) وقال أبو عبد الله البجلى أبجد وهوز وحطى وكلمن وقرشت أسماء ملوكهم، وكان ملكهم يوم الظلة، فى زمان شعيب، كلمن فقالت أخته وهى تبكى:

كلمـــــن قـــد هـــد ركنى   هلكــــــه وســـط المحلـــه

ســيد القـوم أتـاه الحتــف نــار وســـط ظـــلـه

جعــــلت نـــارا عليـــهم   دارهــــم كالمضمحــــلـــة

وقد رثاهم المنتصر بن المنذر بقوله:

ملوك بنى حطى وسعفص ذى الندى   وهــوز أرباب المقــام مع الحجــر

همو ملكوا أرض الحجـــاز بأوجـــه   كمثل شعاع الشمس أو صورة البدر

وهم قطنـــوا البيت الحـــرام وزينـوا   قصــورا وشـادوا للمكارم والفخـر

ويذكر لهم حروب عجيبة وأخبار وسير غريبة، ويفهم من كون غالبهم تجارا ولهم مكاييل وموازين، وأنهم كانوا عشارين يقطعون الطريق، وأنهم كما فى قصة يوسف كانوا يسافرون إلى مصر للتجارة، وأن لهم ملوكا تسمى بالكلمات الأبجدية، وأنهم كانوا متمدنين وأن الكتابة كانت موجودة عندهم، وإلا فما معنى جمع حروف الهجاء وجعلها أسماء لمن ليس يعرفها؟ وحيث إنه يفهم من رثائهم السابق أنهم ملكوا أرض الحجاز فهذا يؤيد ما سبق فى (الفصل السادس) من (الباب الثانى) من أن الخط قديم عند العرب.

وأما إسماعيل عليه السلام فهم أكبر أولاد إبراهيم عليه السلام، وأبو العرب، وأبو نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم وهو أول من تكلم بالعربية المستعربة، وأول من ركب الخيل، وكانت وحوشا لا تركب، وقد أعطاه الله القوس العربى فكان لا يرمى شيئا إلا أصابه، والعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان وبعض اليمن، وقد بعثه الله تعالى نبيا إلى العماليق وإلى قبائل اليمن.

وروى أن إبراهيم عليه السلام استمر دهرا طويلا لا يولد له ولد، فوهبت له سارة هاجر، وقالت إنى حرمت من الولد فلعل الله أن يرزقك منها ولدا تقر به

عينك، فأحبها إبراهيم عليه السلام لجمالها وعقلها ودينها، فلما حملت بإسماعيل وولدته تحول نور نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من جبين إبراهيم إلى جبين إسماعيل، عليه السلام، يلوح كالشمس المشرقة، فأخذت سارة الغيرة، وقالت لإبراهيم، عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى جعل صداقى عليك رضاى وطاعتى، وأنا آمرك أن تحمل هذه الجارية وابنها إلى بلد لا ماء فيه ولازرع فتسكنهما فيه! قال: أفعل ذلك، فأمر الله تعالى إبراهيم بالمسير إلى مكة، فساروا، وأنزلهما هناك، والبيت يومئذ ربوة حمراء مشرفة على ما سواها، فلم ينزل إبراهيم عن مطيته، فنادته هاجر: يا نبى الله، إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله تعالى، واستودعكما إياه! فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا! فرجع إبراهيم عليه السلام إلى الشأم، فعمدت هاجر ففعلت عريشا، وكان معها شنة فيها ماء فنفد الماء وعطشا عطشا شديدا، فتضرعت إلى الله تعالى فنزل جبريل فى صورة آدمى فركض برجله موضع بئر زمزم فنبع الماء من موضع رجله فشرب إسماعيل، وأخبرهاجبريل أنها عين يشرب منها ضيفان الله تعالى، وأن هذا الغلام وأباه سيبنيان بيتا هذا موضعه، فلبثا خمسة أيام يشربان من ذلك الماء فيجزيهما عن الطعام والشراب، وفى اليوم السادس أقبل غلامان من العماليق فأبصرا الماء وأخبرا قومهما بذلك فأقبل عظماؤهم إلى إسماعيل وأمه هاجر فسألوها فأخبرتهم بخبرها، فقالوا: لولا أن هذا الغلام كريم على الله تعالى ما نبع له ماء من هذا المكان، واستأذنوا منها أن ينتقلوا بأهليهم فيقيموا معها، وأن هذا الغلام متى أراد أخرجهم(*) من هذا المحل خرجوا منه، واشترطوا له عليهم المواساة[1] فى أموالهم ورياسته عليهم ةعند إدراكه، فانتقلوا جميعا، وابتنوا المنازل والبيوت، ونشأ إسماعيل عليه السلام مع أولادهم، وكانت لغتهم العربية الصحيحة، وهى لغة أولاد بنى معد، التى نزل بها القرآن، ثم لما بلغ الأربعين بعث إلى العماليق وجرهم وقبائل اليمن، وكانوا يعبدون الأوثان، فآمن بعضهم.

---

(١) المواساة: أن يصبح الناس أسوة فى المال، أى حالهم فيه واحدة. انظر (لسان العرب) ج٨ص ٣٧. طبعة القاهرة.

(*) المراد: إخراجهم. (الشروق).

وذهب كثير من العلماء إلى أن إسماعيل، صلى الله عليه وسلم، هو الذبيح، وأن ذلك كان في شعب مكة، وأنه فدى بكبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفا، وأن الإسلام جاء ورأس الكبش معلق بقرنيه في ميزاب الكعبة إلى أن حرقها الحجاج، وعلى ذلك قال بعضهم:

إن الذبيح، هديت، إسماعيل نطق الكتاب بذاك والتنزيل

شرف به خص الإله نبينا وأبانه التفسير والتأويل

وولد لإسماعيل من دعلة بنت مضاض اثنا عشر ذكرا وبنت، وعاش إسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة، ومات بمكة ودفن ما بين الميزاب والحجر إلى جنب قبر أمه هاجر، ولما حفر ابن الزبير أساس الكعبة وجد سفطاس مرمر أخضر فسأل العلماء بالأخبار فقالوا: هذا قبر إسماعيل وأمه.

وأما بناؤه البيت مع أبيه فأمره معلوم، وتأذين إبراهيم بالحج إليه مفهوم، وأن حلوله بالبيت الحرام أول تمهيد لجمعية العرب.

وأما حنظلة بن صفوان فإنه كان من ولد إسماعيل، وكان نبيا في الفترة، وأرسل إلى أصحاب الرس، وكانوا قبيلتين من ولد إسماعيل فقتلوه.

وأما خالد بن سنان العبسي، فهو نبي عربي من ولد إسماعيل، عليه السلام، وكان في زمن الفترة بين المسيح وبين نبينا عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما: ظهرت نار في مكة والمدينة في الفترة فقسمتها العرب، فكانت طائفة منهم تعبدها مضاهاة للمجوس، فقام خالد هذا فأخذ عصاه واقتحم النار يضربها فضربها بعصاه حتى أطفأها الله عز وجل، فقال لأهله: إني ميت، فإذا مت وجاء الحول فارصدوا قبري، فإذا رأيتم عنزا عند قبري فارموها فاقتلوها وانبشوا قبري واستخرجوني فإني أحدثكم بما هو كائن، فمات فرصدوه الحول ورأوا العنزة فقتلوها، وأرادوا نبش قبره فمنعهم بنوه، وقالوا: لا يسمى بالنبي المنبوش!

ويروى أن ابنة خالد هذا أتت النبى، صلى الله عليه وسلم، بعد ما هاجر، فسلمت عليه، وقالت: أنا ابنة خالد بن سنان، ففرح بها، ثم قال لأصحابه، رضى الله عنهم: «أتعلمون ما سبيل أبى هذه»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إن أباها كان نبيا، هلك بين مكة والمدينة، ضيّعه قومه»! فقص النبى صلى الله عليه وسلم قصته، وقال: «لو نبشوه لأخبرهم بشأنى وشأن هذه الأمة ومايكون فيها».

ويقال إنه نبى البرزخ، بعث لمن مات طفلا. ومما ينقل عنه حين إطفائه النار قوله: بدا بدا، كل هدى، الله مؤدى، لأدخلنها وهى تتلظى ولأخرجن منها وثيابى تندى.

فإرسال هؤلاء الرسل للعرب قبله صلى الله عليه وسلم تمهيد لرسالته.

ومن التمهيدات أيضا أن آمن به فى الفترة عدة أشخاص من أرباب الاعتبار، وإن لم يحصل الاتفاق على إيمانهم، فمنهم أسعد أبو كرب الحميرى، كان آمن بالنبى، صلى الله عليه وسلم، قبل أن يبعث بسنين، وأنشأ يقول:

شهدت على أحمد أنه ... رسول الإله وبارى النسم

فلو مد عمرى إلى عمره ... لكنت وزيرا له وابن عم

وهو أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود، وأول من حلاها فى الجاهلية عبد المطلب بن هاشم جد النبى، صلى الله عليه وسلم، وفى الإسلام الوليدبن عبد الملك، وقيل أبوه، وقيل ابن الزبير، وحلاها من العباسيين الأمين والمتوكل والمعتضد، وحلتها أم المقتدر العباسى، والملك المجاهد صاحب اليمن، وممن حلاها من بنى عثمان السلطان أحمد ابن السلطان محمد ابن السلطان مرادخان، وكان أراد أن يجعل حجارة الكعبة الشريفة ملبسة واحدا بالذهب وواحدا بالفضة فمنعه المولى محمد بن سعيد الدين المفتى، وقال: هذا يزيل حرمة البيت، ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعله قطعه من الياقوت، فكف عن ذلك، وجعل ثلاث مناطق من الفضة المحلاة بالذهب أيضا داخل الكعبة الشريفة صونا لها من الهدم.

وممن آمن به صلى الله عليه وسلم فى الفترة قس بن ساعدة الأيادى، وكان

حكيم العرب، صحيح النسب، مقرا بالبعث والحساب، فصيحا إذا خطب، عمر عمرا طويلا، وكان مقرا لله تعالى بالوحدانية، تضرب بحكمته الأمثال، وتكشف به الأهوال، وكان يسيح على منهاج المسيح، يتقفر القفار، ولا تكنه دار، ولما قدم الجارود بن عبد الله على النبى، صلى الله عليه وسلم، سأله عنه، فقال: هلك، فقال: «يرحمه الله، فهل فيكم يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظ لنا منه شيئا»؟ فوثب أبو بكر، رضى الله عنه، قائما فقال: أنا يا رسول الله، كأنى انظر إليه بسوق عكاظ، على جمل له أحمر، وهو يقول: «أيها الناس، اجتمعوا، واسمعوا وعوا، وإذا وعيتم شيئا فانتفعوا. إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، جمع واشتات، وآيات بعد آيات. إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا، نجوم تمور، وبحار تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، اقسم بالله قسما، لا حانثا ولا آثما، إن لله دينا أحب من دينكم الذى أنتم عليه، ونبيا قد أظلكم أوانه، وأدرككم إبانه، فطوبى لمن أدركه فآمن به وهداه، وويل لمن خالفه وعصاه»، ثم قال: «ما لى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون! أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا؟ يا معشر بنى آدم، أين الآباء والأجداد؟ وأين المرضى والعواد؟ طحنهم الثرى بكلكله، ومزقهم بتطاوله، كلا بل هو الله الواحد المعبود، ليس بوالد ولا مولود! . .

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردًا ... للقوم ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها ... تمضى الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضى إلى ولا من الباقين غابر

أيقنت أنى لا محا ... لة حيث صار القوم صائر»

فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «رحم الله قسا، إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده». ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وكان يرغب فى دين الإسلام ويعرض عن عبادة الأصنام، وعابها،

فأولع به عمر بن الخطاب وسلك عليه سفهاء مكة فآذوه فسكن كهفا بجبل حراء، وكان يدخل مكة سرا، وسار إلى الشأم يبحث عن الدين فسمته بعض ملوك غسان بدمشق فمات.

ومنهم أمية بن أبى الصلت الثقفى، وكان شاعرا عاقلا، وكان يتجر إلى الشام، فتلقاه بعض أناس من أهل الكتاب فقرأ عليهم، وعلم أن نبيا سيبعث من العرب، وكان يقول أشعارا يصف فيها السموات والأرض، وذكر الأنبياء والبعث والجنة والنار، ويعظِّم الله تعالى ويوحده ويمجده، وهو أول من كتب: باسمك اللهم.

ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وهو ابن عم خديجة الكبرى، زوج النبى، صلى الله عليه وسلم، وكان قد قرأ الكتب المنزلة، ورغب عن عباده الأصنام، وبشر خديجة بالنبى، عليه الصلاة والسلام، وأنه نبى هذه الأمة، وأنه سيؤذى ويُكَذَّب، واجتمع بالنبى، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن أخى، اثبت على ما أنت عليه، فوالذى نفس ورقة بيده إنك لنبى هذه الأمة ولتؤذين، ولتكذبن، ولتخرجن، ولتقاتلن، ولئن أدركت يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا.

ومنهم بحيرا الراهب، وكان على دين المسيح عيسى بن مريم، ولما خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مع عمه أبى طالب إلى الشام فى تجارة، وهو ابن اثنتى عشرة سنة، ومعهما أبو بكر وبلال، رضى الله عنهما، فمروا ببحيرا الراهب، وهو فى صومعته، فعرف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بصفته ودلائله، وكان الغمام يظله حيثما جلس، فأنزلهم بحيرا وأكرمهم واصطنع لهم طعاما ونزل من صومعته حتى نظر إلى خاتم النبوة بين كتفى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووضع يده على موضعه، وآمن بالنبى، صلى الله عليه وسلم، وأعلم أبا بكر وبلالا بقضيته وما يكون من أمره، وحذرهما عليه من أهل الكتاب وسألهما أن يرجعا به فرجعا برسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى مكة، وأعلنا قريشا بما أظهر الله تعالى من دلائل نبوته وعلامات رسالته، صلى الله عليه وسلم.

(إعجاز القرآن)

ومن هذا كله يعلم أن قومه الذين أرسل بلسانه لكافة الناس بشيرا ونذيرا هم حيه، يعنى قريشا، حتى إن الحكمة الإلهيه اقتضت أن منهم من آمن به قبل بعثته، إذ أن الدلائل كانت فيهم قائمة، ولو أدركوا البعثة لكانوا أول من صدق به، لا سيما وأنهم علماء قريش وفصحاؤها، فكانوا أقرب إلى إدراك أعظم معجزاته وهو القرآن البالغ حد الإعجاز الذى أعجز فصحاء العرب عن الإتيان بأقصر سورة منه، فهو أكبر معجزاته صلى الله عليه وسلم، فقد دعا به بلغاء قريش، وهم ما هم، وما أدراك ما هم! قالة البلاغة ولسن الفصاحة، لهم من آفاق ذلك ثراها والنجوم الطوالح، ودعا غيرهم مذ بعثه الله قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل إلى يومنا هذا وإلى يوم البعث والنشور على أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات، وتنازل معهم إلى الإتيان بسورة من مثله، وفى السور ما هو ثلاث آيات، وتحدى به الإنس والجن فلم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، ونكصوا على أعقابهم خائبين، وذهب كل نبى بمعجزاته ولم يبق لها أثر ظاهر، خلا الروايات عنها والأخبار، وأبقى لنا صلى الله عليه وسلم معجزا خالدا بين ظهرانينا إلى يوم القيامة، بعد ذهابه لا تنكسف شموسه، ولا تزوى زهراته.

فوجه الإعجاز فى سوره الكوثر، التى هى أقصر سورة منه، أنها مشتملة على ثلاث آيات الآية الأولى وهى قوله تعالى﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ فيها ثمان فوائد:

الفائدة الأولى: أنه يدل على عطية كبيرة مستندة إلى معط كبير، ومتى كان كذلك كانت النعمة عظيمة، وأراد بالكوثر أولاده إلى يوم القيامة من أمته، جاء فى قراءة عبد الله (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم وأزواجه أمهاتهم) وأيضا ما أعطاه الله فى الدارين من مزايا الإثرة والتقديم والثواب لم يعرف كنهه إلا الله تعالى، ومن جملة الكوثر ما اختصه به من النهر الذى طينه المسك ورضراضه الدرر وعلى حافاته من أوانى الذهب والفضة ما لا تعاده النجوم.

الثانية : أنه بنى الفعل على المبتدأ فدل على الخصوصية ، لأن تقديم المحدث عنه آكد لإثبات الخبر .

الثالثة : أن جمع ضمير المتكلم وهو يشعر بعظم الربوبية .

الرابعة : أنه صدَّر الجملة بحرف التوكيد الجارى مجرى القسم .

الخامسة : أنه أورد الفعل بلفظ المضى دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة ، دلالة على أن المتوقع من سبب الكريم فى حكم الواقع .

السادسة : جاء بالكوثر محذوف الموصوف ، لأن المثبت ليس فيه ما فى المحذوف من فرط الإبهام والشياع ، والتناول على طريق الاتساع .

السابعة : اختار الصيغة المؤذنة بالكثرة ثم جاء بها مصروفة عن صيغتها .

الثامنة : أتى بهذه الصيغة مصدرة باللام المعرفة لتكون لما يكون بها شاملة ، وفى إعطاء معنى الكثرة كاملة ، ولما لم يكن للمعهود وجب أن يكون للحقيقة ، وليس بعض أفرادها أولى من بعض ، فتكون كاملة ، وقد دخل فى الجواب عن كونه غير معقب ابنا ، لأن بقاء الابن بعده لا يخلو عن أمرين ، إما أن يجعل نبيا كما يومىء لذلك : « لو عاش إبراهيم لكان نبيا » ، وذلك محال لكونه خاتم الأنبياء ، أو لا يجعل نبيا وذلك يوهم بأنه خلف سوء ، فصين عن تلك الوصمة بما أعطى من الخير الكثير ، وهو حصول الغرض المتعلق بهم ، مع انتفاء الوصمة اللازمة لو كانوا ولم يكونوا أنبياء ، ومع ذلك فإن أولاد فاطمة وذريتهم يسمون أبناءه وينتسبون إليه نسبة حقيقية نافعة فى الدنيا والآخرة ، كما ذكر ذلك بعض الصوفية عند بيان معنى أول البيتين اللذين أنشدهما سيد الكونين صلى الله عليه وسلم للسيد الشريف الطباطبى مناما حين سلط عليه الأمير القرقماش الشعبانى وأخرجه من خلوته وهما :

يا بنى الزهراء والنور الذى ... ظـن موسى أنه نـار قبس

لا أوالى الدهر من عاداكم ... إنه آخـر سـطر فى عبس

* وذلك أن بعضهم سأل بعض الصوفية عن وجه نسبتهم إلى الزهراء ، وإلى

النور الذى هو عبارة عنه صلى الله عليه وسلم، وعن وجه ترك نسبتهم فى ذلك البيت إلى أبيهم على بن أبى طالب، رضى الله عنه، كما هو قاعدة الشرع الأطهر، وما هذا النور الذى هو غير النار التى ظنها موسى عليه السلام كذلك، فنودى منها: إنى أنا ربك فأجاب: «بأن ما قاله صلى الله عليه وسلم فى هذا البيت المنامى هو عين الشرع، إذ قصد العلماء بأن بنى الزهراء وذريتهم يسمون أبناءه، وينسبون إليه نسبة حقيقية نافعة فى الدنيا والآخرة، كما تقدم، وأن من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن كل بنى أب ينسبون إليه إلا أولاد على، وأثبت الحنفية الشرف لأولاد البنت، لأن أصل الشرف كان كذلك من فاطمة، رضى الله تعالى عنها، وفى الحديث: «أن الله تعالى جعل ذرية كل نبى فى صلبه، وأن الله تعالى جعل ذريتى فى صلب على بن أبى طالب» رضى الله عنه، وروى نحوه من طرق، وفى غيره: «لكل بنى أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم، فهم عترتى، خلقوا من طينتى، ويل للمكذبين». وصح عن عمر، رضى الله عنه: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببى ونسبى»، وفى رواية زيادة: «الصهر والحسب» و«كل بنى أنثى فعصبتهم لأبيهم ما عدا ولد فاطمة فإنى أنا أبوهم وعصبتهم»، إلى غير ذلك من الأحاديث، فهذا وجه نسبتهم إليه وإلى الزهراء، وترك نسبتهم إلى على، رضى الله عنهم أجمعين، ولا شك فى الشرع، أن كل شىء ينسب إلى أصله الحقيقى، وهو صلى الله عليه وسلم الشارع والمشرع، ومنه كان كافة الناس لا ينسبونهم إلا إليه صلى الله عليه وسلم لا إلى على، فيقولون: أولاد الرسول، ولا يقولون أولاد على إلا نادرا، حتى كأنه لم يكن لهم فى أبوتهم أصلا!

فإن قلت: لا شك أن النسب بالجزئية الأبوية، فلماذا كانت هذه الخصوصية على خلاف الحكمة العقلية؟

قلت: بل ذاك موافق، لأنه لا مانع فى قدرة الله أن يأخذ بعض جزئية النبى بطريق النكاح المعنوى فيضعه فى علي ويضعه علي فى فاطمة ويخلق منه ما أراد كرامة لسيد العباد صلى الله عليه وسلم، ولقد وضع كثير من الأولياء أسرارا فى

البعض يحملها على غيره حيا وميتا ، وإذا ولدت مريم عليها السلام بلا أب أصلا فلأن تلد بالأب المعنوى ، بواسطة على ، فاطمة ، رضى الله عنهما ، أولى ، وقد كان بعض المحبين إذا قصد حبيبه خرج منه الدم ، وإذا كان بعض أفراد الأولياء يربى بالنظر فالأجدر أن يولد بهذا المعنى لسيد البشر ، فشأنه صلى الله عليه وسلم من وراء أطوار الفطر .

وأما النور فهو النور الخاص الذى هو أول باد من تجلى شمس ذات الاختصاص المشار إليه بقوله سبحانه ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (النور : ٣٥) والمصرح به حديث : «أنا من نور الله ، والمؤمنون من نورى» . وما فى حديث جابر : أن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، فهذا هو النور الذاتى ، ومنه النور الصفاتى ، ولا شك أن النور أثر النار ، فلما رؤى ظن أنه هى ، لأنها السبب الظاهر ، فنودى من جانب السبب الحقيقى الباطن (إنى أنا ربك) فلا يقف بك عزمك عندما يشهده حزمك فيعقد بك جزمك ، وكذلك ناداه الحبيب الأكرم صلى الله عليه وسلم بطريق الإشارة الفائق على العبارة : بأنى ذلك النور يا موسى ، لأنه مجلى ذات المتجلى ، فكيف تجعلنى نارا وهى مجلى صفة المتجلى ، وكيف تقف مع الأسباب على ما ظهر من الأبواب ولم تخرق الحجاب حتى تشهد ما تحت النقاب ، فما ثم إلا هو ثم عبده ، بل هو حبه ومحبه ، فأين النار من هذه الأنوار ، وأين المزار من ذلك المزار ، فحط الأوزار وشمر الإزار ، كى ما تفرق النور من النار ، وتميز سر الأسرار ، وتشهد المولى الستار ، فى جميع الأغيار وسائر الأطوار ، فكن جامعا فى فرقك ، وفارقا فى جمعك ، ليكمل جمعك فى فراقك وجمعك ، وقد صدر وعجز بعضهم هذين البيتين فقال :

يابنى الزهراء والنور الذى	**كل نجم فى العلا منه اقتبس**
نوركم فى الطور لما أن بدا	**ظن موسى أنه نار قبس**
لا أوالى الدهر من عاداكم	**أو عليه فيكم الأمر التبس**
لست أخشى الله فيه أن أقل	**إنه آخر سطر فى عبس**

وبما تقدم مع آية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) يقطع بأنه لا يقاس به صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء، ولا أولادهم على أولاده، لأن هذا أمر خصه الله به، وبذريته بسببه، فلا أحد يلحق به، وفى الحديث: «نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد».

وأما ما ورد من أحاديث مقتضية لوقوع نقص كحديث: «إن أهل بيتى هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بى، وليسوا كذلك، إن أوليائى منكم المتقون من كانوا حيث كانوا». ونحو ذلك مما ورد فى هذا المعنى، فقد ورد أيضا أكثر منها وأعظم فى إشداد ذلك وأزيد من ذلك، وإنما ورد ذلك لأصل الإنذار والإرشاد وعدم الاغترار، كيف والقطع بالاتصال محال فى الانفصال». انتهى.

والآية الثانية وهى قوله جل وعز (فصل لربك وانحر) فيها ثمانى فوائد:

الأولى: فاء التعقيب ههنا مستفادة من معنى التسبب لمعنيين: أحدهما: جعل الإنعام الكثير سببا للقيام بشكر المنعم وعبادته، وثانيهما: جعله سببا لترك المبالاة بقول العدو، فإن سبب نزول هذه السورة أن العاص بن وائل قال: إن محمدا صنبور رأى كالسعف النابت فى ساق النخلة الذى لا يثمر شيئا! فشق ذلك على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه السورة.

الثانية: قصده باللامين التعريض بدين العاص وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله، وتثبيت قدم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على الصراط المستقيم، وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم.

الثالثة: أشار بهاتين العبادتين إلى نوعى العبادات، أعنى بهما الأعمال البدنية التى الصلاة إمامها، والمالية التى نحر البدن سنامها.

الرابعة: التنبيه على ما لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الاختصاص بالصلاة، حيث جعلت لعينه قرة، وبنحر البدن التى كانت همته فيه قوية، روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب.

الخامسة: حذف اللام الأخرى لدلالته عليها بالأولى.

السادسة: مراعاته حق التسجيع الذى هو من جملة صنعة البديع إذا ساقه قائله مساقا مطبوعا ولم يكن متكلفا ولا مصنوعا.

السابعة: إنه قال (لربك) وفيه حسنان: وروده على طريق الالتفات، التى هى أم من الأمهات، وصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر، وفيه إظهارلكبرياء شأنه وإبانة لعزة سلطانه، ومنه أخذ الخلفاء قولهم: يأمرك أمير المؤمنين بكذا، وعن عمر، رضى الله عنه، أنه حين خطب الأزدية إلى أهلها فقال: خطب إليكم سيد شباب قريش مروان بن الحكم وسيد أهل المشرق جرير بجيلة ويخطب إليكم أمير المؤمنين، عنى نفسه.

الثامنة: علم بهذا أن من حق العبادة أن يخص العباد بها ربهم ومالكهم، وعرض بخطأ من عبد مربوبا وترك عبادة ربه.

الآية الثالثة وهى قوله ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ فيها خمس فوائد:

الأولى: علل الأمر بالإقبال على شأنه وترك الاحتفال بشانئه على سبيل الاستئناف، الذى هو جنس حسن الموقع، وقد كثرت فى التنزيل مواقعه.

الثانية: ويتجه أن يجعلها جملة للاعتراض مرسلة إرسال الحكمة لخاتمة الأغراض كقوله تعالى ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ (القصص: ٢٦) وعنى بالشانىء العاص بن وائل.

الثالثة: أنه ذكره بصفته لا باسمه، ليتناول كل من كان فى مثل حاله فى كيده لدين الحق.

الرابعة: صدر الجملة بحرف التوكيد وفيه أنه لم يتوجه بقيله إلى الصدق، ولم يقصد به الإفصاح عن الحق، ولم ينطق إلا عن الشنآن الذى هو قرين البغى والحسد، وعن البغضاء التى هى نتيجة الغيظ والحرج، ولذلك وسمه بما ينبىء عن المقت الأشد.

الخامسة: جعل الخبر معرفة ليتم البتر للعدو الشانىء حتى كأنه الجمهور الذى يقال له الصنبور. ثم هذه السورة مع علو مطلعها وتمام مقطعها واتصافها بما هو طراز الأمن كله من مجيئها مشحونة بالنكت الجلائل مكتنى بالمحاسن غير القلائل، فهى خالية من تصنع من يتناول التنكيت، وتعمل من يتعاطى التبكيت.

(المحكم والمتشابه)

ومن وجوه إعجاز القرآن اشتماله على المحكم والمتشابه، وهذا لا يخلو عن حكمة، وقد حصر بعضهم الحكمة فى ذلك فى خمس فوائد:

الأولى: أن المتشابه مع المحكم أدعى لسائر أهل المذاهب إلى النظر فى القرآن، لأنهم إذا ظنوا وجوه ما ينصرون به أقاويلهم كان نظرهم فيه أقوى فيكون ذلك داعية للمحق إلى انشراح الصدور وللمبطل إلى أن يتأمل كثيرا، فيزول عن باطله، وإن كان جميعه محكما لم يكن يحصل هذا الوجه.

الثانية: وهى أن كون القرآن مشتملا على المحكم والمتشابه يقتضى أن الناظر فيه والمتدبر له إذا ظفر بما ظاهره التشبيه وبما يدل على التوحيد أن ينظر فى أدلة العقول ليميز بين المحكم والمتشابه.

الثالثة: أن عند النظر فى ذلك ربما ذاكر العلماء وتعرف منهم ما أشكل عليه، وما دعا إلى ذلك أولى مما يقتضى العدول عنه، لأن مذاكرتهم تكشف عن الحق.

الرابعة: أن كونه كذلك أبعد عن طريقة التقليد إلى طريقة النظر، لأنه إذا وجد القرآن مختلفا لم يكن بأن يقلد المحكم أولى من المتشابه فيخرج إلى الرجوع إلى الدلالة، ولو كان الجميع محكما لكان أقرب إلى الاتكال على ظاهره.

الخامسة: إنه سبحانه علم أن الصلاح أن يزداد نظرهم وتأملهم، ويتعبوا فى معرفة الحق خواطرهم.

لاتناقض ولا تكرار فى القرآن

وربما ظهر لأرباب العقول القاصرة فى الآيات القرآنية أن بعضها يناقض بعضا، لأخذه بالظواهر، والتناقض الحقيقى بين الكلامين إنما يكون إذا تضمن أحدهما نفى ما أثبته الآخر أو بالعكس، وليس فى كتاب الله تعالى ما هذه حاله، وكم ادعى مدع ذلك فى القرآن وبين العلماء فساد قوله، كقول بعضهم: إن فى قوله تعالى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ (الشورى: ١١) تناقضا، لأن دخول الكاف عليه يقتضى إثبات المثل، والنفى يقتضى ضده، ورد ذلك التناقض بأن العرب إذا أرادت أن تؤكد المثل فى الإثبات والنفى أدخلوا فيه الكاف، فيقولون: ليس كمثل زيد جواد ولا شجاع، فيكون أبلغ من حذف الكاف، والقرآن جار على أسلوبهم، ومن ذلك ما أورده بعضهم فى معرض التناقض بين قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ من وَلِيٍّ من بَعْدِهِ** ﴾ (الشورى: ٤٤) وقوله تعالى: ﴿ **فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ** ﴾ (النحل: ٦٣) فقال: إن إحدى الآيتين تقضى أن لا ولى للكفار، والثانية تقضى أن لهم وليا، وأجيب عن ذلك بأن قوله (فما له من ولى. . .) المراد به فى الآخرة عند إضلال الله لهم بالعقوبة، وأراد بقوله(فهو وليهم اليوم) فى الدنيا، وتقييده بذكر اليوم يدل على ذلك، وأيضا إن كان المراد فى وقت واحد فلا تناقض، لأن المراد: فما لهم من ولىّ ينفع ويضر، وكون الشيطان لهم وليا لا يقتضى أن ينفع ويضر، ومن ذلك ما ذكرناه عند ذكر «طيودوسيس» قيصر الثانى، فى الكلام على أهل الكهف، من التناقض بين قوله تعالى: ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا** ﴾ (الكهف: ٢٥) وبين التاريخ حيث إن من«دقيانوس» إلى «طيودسيس» ليس إلا مائة وإحدى وسبعين سنة ، وأجبنا عنه بأنه من قول أحد الحزبين، ثم رأيت فى (كتاب ألف با) لا بن حجاج أنه نقل عن ابن عباس ما يدل على ذلك، حيث قدر قالوا ولبثوا إشارة إلى أنه حكاية عن أحد الحزبين، يعنى بدلالة سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويؤيده كما سبق (قل الله أعلم بما لبثوا) كما

تقدم مبسوطا فى محله. ويقاس على هذا ما أشبهه، فلا مطعن فى القرآن بالتناقض بوجه ما كما يعتقده من ينظر إلى ظواهر الآيات.

كما لا مطعن فيها أيضا من جهة التكرار والتطويل، وذلك لأن عادة الفصحاء جارية بأنهم يكررون القصة الواحدة فى مواضع مختلفة لأغراض مختلفة تتجدد فى المواضع، وذلك من الفضائل لا من المعايب، وإنما يعاب التكرار إذا ذكر فى الموضع الواحد.

ومن المعلوم أن الله تعالى أنزل القرآن على رسوله فى ثلاث وعشرين سنة، حالا بعد حال، وقد علم من حاله أنه كان يضيق صدره لما يناله من الكفار، فكان تعالى يسليه بما ينزله عليه من قصص من تقدم من الأنبياء، ويعيد ذكره بحسب ما يعلمه من الصلاح، ولهذا قال سبحانه: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ (هود: ١٢٠).

ومن المعلوم أيضا أن ظهور الفصاحة ومزيتها فى القصة الواحدة إذا أعيدت أبلغ منها فى القصص المتغايرة، فهذه هى الفائدة فيما تكرر فى كتاب الله من قصة موسى وفرعون وسائر الأنبياء.

وأما ما تكرر فى (سورة الرحمن) من قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فليس بتكرار، لأنه سبحانه ذكر نعمة بعد نعمة، وعقب كل نعمة بهذا القول، وإنما عنى بالتثنية الإنس والجن، ومعلوم أن الغرض من ذكره عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى، وإن كان اللفظ واحدا، ولا يرد أنه قد ذكر تعالى فى (سورة الرحمن) ما ليس من النعم وعقبه بهذا القول، حيث قال ﴿**هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**﴾ (الرحمن: ٤٣) ثم قال ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ** ﴾ (الرحمن: ٣٥) لأنه إنما ذكره على طريق الزجر عن المعاص والترغيب فى الطاعات، وهذا من الآلاء والنعم.

وأما ما ذكره تعالى فى إعادة قوله ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩) فإنه ذكر ذلك عند قصص

مختلفة، فلم يعد تكرارا، لأنه أراد بما ذكره أولا ويل يومئذ للمكذبين بهذه القصة، ثم لما أعاد قصة أخرى ذكر مثله على هذا الحد، ولما اختلفت الفائدة خرج عن أن يكون تكرارا.

وأما سورة الكافرين فليس فيها تكرار، لأن المراد به ﴿ **لا أَعْبُدُ** ﴾ فى الحال ما تعبدون من الأصنام، ﴿ **وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ** ﴾ فى الحال ﴿ **مَا أَعْبُدُ** ﴾ وهو الله وحده، ﴿ **وَلا أَنَا عَابِدٌ** ﴾ فى الاستقبال ﴿ **مَّا عَبَدتُّمْ** ﴾ ولا ﴿ **وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ** ﴾ فى الاستقبال ﴿ **مَا أَعْبُدُ** ﴾ وهو الله وحده، حيث علم الله أنهم لا يؤمنون، ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ** ﴾ الشرك (**ولى دينى**) الإسلام، وهذا قبل أن يؤمر بالحرب، وإنما أنزل تعالى ذلك لأن قوما من الكفار قالوا لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: أعبد ما نعبده نحن اليوم سنة حتى نعبد ما تعبده أنت اليوم سنة، وهكذا فى كل سنة، حتى نشترك فى العبادة على هذا السبيل، فأنزل الله هذه السورة جوابا. فبالتفسير بهذا المعنى يعلم أنه لا تكرار، وليس المعتبر مجرد تكرار اللفظ، لأنا نعلم أن الحروف والكلمات متكررة فى كل كلام، فربما كان المشتبه فى اللفظ غير مكرر فى المعنى، وربما كان المتباين فى اللفظ متكررا فى المعنى.

وإنما بسطنا الكلام فى وجه الإعجاز والمتشابه والمحكم وفيما ظاهره التناقض أو التكرار لما وجدناه فى كلام الأوروباوية عند ذكر القرآن بتعداد هذه الأشياء وعدها من المعايب، وشدة تعنتهم فى ذلك، كما يعتقده الملحدون أيضا، لا سيما وأنه لا يدرك محاسن القرآن إلا ذوق العرب السليم، والحصول على ملكة البلاغة الذوقية التى فى قوة الجبلة الثانية وهى بهذه المثابة لا تكون للأعجمى الذى اكتسب فى أعجميته ملكة راسخة تدفع هذه الملكة العربية ولا تكاد تجامعها.

ملكة البلاغة العربية

وبيان ذلك أن ملكة اللغة العربية هى حصول ملكة البلاغة وهى مطابقة اللفظ للمعنى من جميع وجوهه، بخواص تقع للتركيب فى إفادة ذلك المعنى، فالمتكلم البليغ للسان العرب يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب، وعن حال

مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده، فإذا تمكن من الامتزاج بكلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على هذا الوجه، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو غير منحى البلاغة العربية ويمج ما عدا ذلك، حيث رسخت ملكته فى ذلك حتى ظهرت كأنها سليقة، فهى بهذا المعنى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت، ولا تحصل هذه الملكة إلا بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع واللفظ بتراكيبه النظمية، فلا تكتسب بالقوانين الصناعية التى تفيد علما لا ملكة بالفعل، فلو رام صاحب هذه الملكة أن يحيد عن الأساليب العربية لما وافقه لسانه على ذلك، وإذا عرض عليه الكلام الحائد عن الأسلوب العربى وعن البلاغة مجه سمعه لعلمه أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وربما عجز عن الاحتجاج لذلك، حيث إنه بالنسبة إليه أمر وجدانى.

وتقريب ذلك، لو فرضنا أن صبيا من العرب نشأ وتربى فى جيلهم، فإنه يتعلم لغتهم، ويحكم شأن الأعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها، وهذا ليس من العلم القانونى فى شىء، وإنما هو محصول هذه الملكة فى لسانه ونطقه، وكذلك تحصل هذه الملكة ويصير كواحد ممن نشأ فى جيلهم وربى بين أجيالهم، والقوانين بمعزل عن هذا الذوق، فالذوق بهذا المعنى لا يكتسبه الأعاجم الداخلون فى اللسان العربى الطارئون عليه المضطرون إلى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والبربر وغيرهم، لقصور حظهم فى هذه الملكة، فإن قصاراهم أن يعرفوها من القوانين المسطرة فى الكتب، فليست هى الملكة الذوقية المكتسبة بالممارسة والتكرار لكلام العرب.

وأما كون سيبويه[١] والفارسى[٢] والزمخشرى[٣] وأمثالهم من فرسان الكلام

---

(١) عمر بن عثمان (المتوفى سنة ٧٩٦م) أشهر النحاة، وإمام نحاة البصرة، وكتابه فى النحو هو الأصل فى قواعد هذا العلم.

(٢) أبو على الفارسى، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (٨٤٣-٩٨٧م) أحد أعلام علماء العربية، ترك آثارًا كثيرة فى هذا الميدان.

(٣) محمود بن عمر (١٠٧٥-١١٤٤م) من أئمة اللغة والكلام والتفسير. له فى التفسير: (الكشف عن حقائق التنزيل) وفى اللغة آثار كثيرة، منها (أساس البلاغة) و(المفصل). والزمخشرى معتزليا.

كانوا أعجاما، مع حصول هذه الملكة لهم، فإنهم إنما كانوا عجما فى نسبهم فقط، وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها، فهم وإن كانوا عجما فى النسب فليسو بأعجام فى اللغة والكلام، لأنهم أدركوا الملة الإسلامية فى عنفوانها، واللغة فى شبابها، وأما غيرهم ممن لم يدرك ذلك فلا يتحصل على هذه الملكة العربية التى انمحت آثارها بالبعد عن الحالة العربية الأصلية التى بعد عهدها، وممارسة القوانين لا تفيده هذه الملكة، فلا يكون فيها الاقتدار الذوقى لإدراك وجوه الإعجاز، فيأخذ بظواهر الآيات، فربما اشتبهت عليه نكات البلاغة بالمعايب كما يقع لكثير من الأغراب البعيدين عن مدارك العربية فى الحيد عن الصواب وسلوك مسلك الإلحاد، وإلا فنظم الآيات القرآنية منزه عن كل وصمة، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه.

وبالجملة فأساليب القرآن عربية، ولا يقدح فى عربيتها وجود مفردات معربة، أو موافقة لمفردات اللغات الأعجمية، فقد ورد عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه قال لنافع بن الأزرق الحرورى، وقد سأله عن القرآن: «يا نافع، القرآن كلام الله، عز وجل، خاطب به العرب على لسان أفصحها، فمن زعم أن فى القرآن غير العربية فقد افترى، قال الله تعالى ﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾ (يوسف: ٢، طه ١١٣، الزمر: ٢٨، فصلت ٣، الشورى، ٧، الزخرف: ٣)، وقال ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ** ﴾ (الشعراء: ١٩٥). انتهى

ومن المعلوم أن فى القرآن كلمات أعجمية، فإما أن تحمل على كونها موافقة للعربية فتكون من توافق اللغات، أو أنها عربت و صارت عربية، أو أن المقصود بكون القرآن عربيا أنه على أسلوب العربية فلا ينافى وجود ألفاظ أعجمية، كموسى وعيسى، فدخول المفردات العربية فى نظم القرآن لايمنع من كونه عربيا، إذ التحدى بالآيات، فقد علمنا من ذلك أن لسان القرآن هو لسان محمد، صلى الله عليه وسلم، وأن قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ (إبراهيم: ٤) المراد من قومه فى الآية: هذا الحى من العرب، وأن العرب ليسوا من

قومه، وكذلك أنزل التوراة على موسى عليه السلام على لسان قومه بنى إسرائيل، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام، لا يشاكل لفظه لفظ التوراة، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٢ : ١٩٩) فقوله تعالى(بلسان عربى مبين) يحتمل أن الباء فيه متعلقة بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان، وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل، وقد تقدم ذكرهم، وإنهم مرسلون للعرب، ويحتمل إنها متعلقة بنزل فيكون المعنى نزل به على قلبك باللسان العربى لتنذر به، لأنه لو نزل باللسان الأعجمى لقالوا له: ما نصنع بما لا نفهم، فيتعذر الإنذار به، فتنزيله بالعربية التى هى لسانه صلى الله عليه وسلم ولسان قومه تنزيل له على قلبه، لأنه يفهمه هو وقومه، ولو كان أعجميا لكان نزلا على سمعه صلى الله عليه وسلم دون قلبه، لأنه يسمع أجراس حروف لا يفهم معانيها.

فالعرب جل فضيلتهم أنهم المخاطبون أولا، لكون الشريعة بلسانهم، ولهذا وفق الله سبحانه وتعالى الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، أنهم كانوا يخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، ويقاتلون صفوفا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فكانوا فى السر والإجهار رهبانا بالليل وأسودا فى النهار، وهذا كان ببلاد العرب سرا من أسرار التوطئة والتمهيد لقبول الإصلاح والتجديد، وهو من إرهاصات النبوة المتقدمة عليها، والإرهاصات المذكورة تنقسم إلى قسمين: الإرهاصات الداخلية والإرهاصات الخارجية، كما سيأتى بيانهما فى الفصلين الآتيين..

الفصل الثالث

فى الإرهاصات الداخلية

من المعلوم أن اختلاف البطون والعشائر وتنافر القبائل والشعوب فى المفاخرات أخذ فى المحو والزوال، واستعيض عنه التواطؤ واتفاق الكلمة لما تبين للعرب الوقوع فى الذل والخذلان من هجوم الأجانب بقصد التغلب على العرب وإذلال أعزتهم والسطوة على حريتهم، وذلك لأن جزيرة العرب كان يسطو عليها من جهة الشمال دولة الروم، ومن جهة الشرق أهل فارس، ومن جهة الجنوب الحبشة، فاستشعر العرب قبل الإسلام بأنهم لا ملجأ لهم من هذه الأقوام إلا اجتماعهم واتحادهم وانتظامهم فى سلك الجنسية الواحدة، حيث أفادتهم إغارة الأجانب عليهم عبرة وموعظة، ورأوا أن حماية وطنهم العمومى مما ينبغى أن يهتم به جميعهم، ويشتركوا فى الذب عن حريته واستقلال وحدته الوجودية، فدبروا تدبيرا أضعفوا به أعداءهم بإغراء بعض الدول الأجنبية على بعض، وإيقاع الشحناء بينهم، ولما أغار، فى أيام عبد المطلب، إبرهة الأشرم صاحب الفيل ملك الحبشة على مكة المشرفة ترتب على ذلك مزية وطنية لقريش عادت عليها بالمنفعة العمومية، وذلك أنه ما كان النبى صلى الله عليه وسلم حملا فى بطن أمه حضر إبرهة الأشرم ملك الحبشة يريد هدم الكعبة، وكان قد بنى كنيسة بصنعاء اليمن لما كان مستوليا عليها، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج رجل من بنى كنانة فقعد فيها ليلا وقضى حاجته بها، فأغضبه ذلك، وحلف ليهدمن الكعبة، فخرج ومعه جيش عظيم، ومعه فيله محمود، وكان قويا عظيما، واثنا عشر فيلا غيره، فلما بلغ

المغمس كمعظم ومحدث، وهوموضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة، مات دليله أبو رغال هناك، فرجمت العرب قبره، والناس يرجمونه إلى الآن: ثم إن إبرهة بعث خيلا له إلى مكة فأخذت مائتى بعير لعبد المطلب، فهمَّ أهل الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقه لهم فتركوه، وبعث إبرهة إلى أهل مكة يقول لهم: «إنى لم آت لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تتعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم». فقال عبد المطلب لسفيره: «والله لانريد حربه، ومالنا به من حاجة، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم. فهو يحميه ممن يريد هدمه»، ثم خرج عبد المطلب إلى إبرهة، وكان عبد المطلب جسيما، ما رآه أحد إلا أحبه، وكان مجاب الدعوة، فقيل لإبرهة: هذا سيد قريش الذى يطعم الناس فى السهل ويطعم الوحش والطير فى رؤوس الجبال، فلما رآه أجله وأجلسه معه على سريره، ثم قال لترجمانه: قل له: سل حاجتك، فقال: حاجتى أن يرد الملك على مائتى بعير أصابها إلى! فلما قال ذلك قال له إبرهة: قل له: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتنى! تكلمنى فى مائتى بعير وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه فلم تكلمنى فيه؟ فقال عبد المطلب: إنى رب الإبل، وإن للبيت ربا يحميه منك! قال إبرهة: ما كان ليحتمى منى! فقال عبد المطلب: أنت وذاك! فرد إبرهة على عبد المطلب إبله، ثم انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله تعالى ثم قال:

لاهـــم أن المـــرء يمنـــع حـــله فامنـــع حـــلالك

وانصـــر على آل الصـــليب وعـــابديه اليـــــوم آلك

لا يغـــلبن صـــليبهم ومحـــالهم أبدا محـالك

ثم أرسل حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش إلى الجبال ينظرون ما إبرهة فاعل بمكة إذا دخلها.

فحينئذ جاءت قدرة الواحد الأحد القادر المقتدر، فأصبح إبرهة متهيأ لدخول

مكة وهدم البيت، وقدم فيله محمودا أمام جيشه، فلما وجه الفيل إلى مكة كان ما قصة تعالى فى (سورة الفيل) من إرسال الطير الأبابيل، ترميهم بحَجارة من سجيل، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل، وأصيب إبرهة حتى تساقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع قلبه عن صدره، وانفلت وزيره وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر ميتا بين يديه.

ومن هذا الوقت صارت مكة المشرفة مستقلة بحكم نفسها، وعز ملكها وسلطانها، وافتخرت لذلك لأنها أم القرى، وكان إذ ذلك عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم رأس قريش وأكبر حكامها، وهو أحد من حرم الخمر فى الجاهلية، فجعل مكة مركزا عاما يجمع أشتات القبائل المتفاصلة وينظمهم فى سلك واحد، لتقوى شوكة العرب بالوحدة الجنسية، وتتجهز أهل جزيرة العرب لإدراك فضيلة الوطنية العمومية.

ولما كان سيف بن ذى يزن قد ظفر بالحبشة، وظهر عليهم باليمن، وأجلاهم عنها، وذلك بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بسنين، أتاه وفود العرب وشعراؤها، ويذكرون ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه، فسار عبد المطلب إلى صنعاء اليمن ومعه وفد قريش، فكان من أشرافهم أمية بن عبد شمس، وعبد الله بن جدعان، وخويلد بن أسد بن عبد العزى، ووهب بن عبد مناف ابن زهرة، وغيرهم من وجوه قريش، ورئيسهم عبد المطلب، وكان المقصد الظاهرى لوفد قريش هو التهنئة لملك اليمن على نصرته على عدوّه والأخذ بثأر قومه، بالنيابة عن قريش، والمقصد الأعظم من هذه الزيارة والغرض الحقيقى الحامل عليها هو عقد التوادد والتحابب وربط العلاقات بين الحجاز واليمن، فقدموا عليه وهو فى رأس قصر غمدان بصنعاء فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه، فإذا هو عليه بردان مؤزرا بأحدهما مرتديا بالآخر، وسيفه بين يديه، وهو متضمخ بالمسك والعنبر، وعن يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك والمقاول، فدنا عبد المطلب منه فاستأذنه فى الكلام، فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك! فقال: «أيها الملك،

إن الله عز وجل قد أحلك محلا رفيعا، صعبا منيعا، شامخا باذخا، وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعزت جرثومته، قد ثبت أصله، وبسق فرعه، فى أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب الذى تأوى إليه، وعمودها الذى عليه العماد، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد، سلفك لنا خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلن يجهل من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه.

ونحن ـ أيها الملك ـ أهل حرم الله، وسدنة بيته، أشخصنا إليك ابتهاجنا بكشف الكرب الذى فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد الرزيئة».

قال ابن ذى يزن: وأيهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم، فأدناه، وقرب مجلسه، ثم أقبل عليه وعلى القوم، وقال: «مرحبا وأهلا، وناقة ورحلا، ومستناخا سهلا، وملكا سجلا، يعطى عطاء جزلا، قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، وأنتم أهل الليل وأهل النهار، لكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا رحلتم».

ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهرا لا يصلون إليه ولا يؤذن لهم فى الانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب ليلا فأدناه وقرب مجلسه وبشره برسالة محمد، صلى الله عليه وسلم، وخلافة بنى العباس، وأوصاه بالمحافظة عليه صلى الله عليه وسلم من أعدائه، وأن يطوى ما ذكره له وما بشر به فى حق محمد عمن معه من الوفد، وقال: لست آمن من أنه تدخلهم النفاسة من أن تكون له الرياسة فيبغون به الغوائل وينصبون له الحبائل، وأبناؤهم فاعلون، ثم قال: فلولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورحلى حتى أصير «يثرب» دار ملكى، فإنى لأجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن فى «يثرب» استحكام أمره، وأهل نصره، وموضع قبره، ولولا أنى أقيه الآفات، وأحذو عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه أمره، وأوطأت أسنان العرب كعبه، ولكنى صارف ذلك إليك بغير تقصير بمن معك.

ثم أنه أمر لكل رجل من القوم بمائة من الإبل وعشرة أعبد وعشر إماء وعشرة

أرطال ذهب وعشرة أرطال فضة وكرش مملوءة عنبرا وحلتين من حلل اليمن، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال إذا جاء الحول فاتنى بأمره وما يكون من خبره، فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول عليه الحول، فكان عبد المطلب كثيرا ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطنى أحد منكم لجزيل عطاء الملك وإن كثر، فإنه إلى نفاد، ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه، فإذا قيل: وما ذاك يا عبد المطلب؟ قال: ستعلمون نبأه ولو بعد حين! فهذه كلها إرهاصات داخلية وتأسيسات لدولة عربية.

الفصل الرابع

فى الإرهاصات الخارجية والتأسيسات الأجنبية المعينة فى العادة على تنجيز ما جرت به الإرادة الإلهية

ولو أن الدولة الإسلامية كان جميع مباديها خوارق عادات، ومواد تأسيسها حقائق معجزات وكرامات، إلا أنه جرت عادة الله فى خلقه إذا أراد شيئا سهل أسبابه، والأسباب المذكورة قد تكون عادية وإنما مبانيها خوارق للعادة، فالدولة الإسلامية ظهرت عقب حوادث عجيبة سهلت تنفيذها، فمن التمهيدات للبعثة النبوية والإرهاصات التجهيزية: ضعف الدول المجاورة للعرب، فإنه فى أثناء خطور الاجتماع من العرب، وأن يكونوا على قلب رجل واحد، وتصورهم الانتظام فى سلك الوحدة الوطنية، ظهرت أمارات قوية يتوسم منها استقلال جمعية القبائل العربية وانتظام أحياء العرب فى سلك هيئة اجتماعية تمدنية تتكون منها دولة قوية، وهذه الدلائل هى الحروب العظيمة التى وقعت إذ ذاك بين الروم وفارس، كما سلف ذكره عند ذكر قياصرة القسطنطينية، فإن المنازعات بين الدولتين طالت ولم تنته إلا بعد البعثة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

وذلك أن كسرى تغلب على بلاد الموصل والشام وفلسطين ومصر، وسلب هذه الأقاليم من أيدى الروم، ولم تمكث فى أيدى الفرس حيث بادر هرقل قيصر الروم بنزعها من أيديهم، وساعدته المقادير على ذلك، ومع هذا فكانت الحروب المستمرة

قد أتعبت كلتا الدولتين، وأضعفت قواهما، ومزقت مدنها كل ممزق، لا سيما دولة الروم، وكانت همة الأهالى قد كلت من ضرب المكوس والعوائد والجمارك بضرائب ثقيلة لا تطاق، كما سئمت من كثرة جور كل من الدولتين على الرعايا وعسفهم الفاحش وتكاليفهم بالأموال العظيمة التى أنفدتها هذه الحروب المتكررة بلا ثمرة ولا فائدة تعود على الأهالى، فاشتد الكرب عليهم من ذلك وضاقوا ذرعا.

وكذلك أفضت الحروب بكلتا الدولتين إلى الوهن وفقد الشوكة، حتى لم تكن دولة منهما تقدر على مقاومة العرب، مع ما يضاف إلى ذلك من شدة وهن دولة الروم بالاختلاف فى الدين وتشعب الملة العيسوية إلى الفرق المختلفة فى العقيدة، المتعادية أشد العداوة، بحيث إن دين عيسى عليه السلام قد اختلف عن أصله، واتسع هذا الاختلاف فى أطراف وأكناف الروم المتنصرة، وفى الجهات التابعة لهم فى الدين، لا سيما فى مصر، فكانت جميع البلاد محتاجة للإصلاح، وتقويم إعوجاجها، وتعديل مزاجها، فكأن ظهور الدين المحمدى إذ ذاك قد صادف محلا ووجد فرصة ينتهزها، فكانوا مستعدين نوع استعداد لقبول شريعة خير الأنام، والدخول فى دين الإسلام بالهداية أو بالسيف، وصار من أسلم من العرب هو جند الله الغالب فى المشارق والمغارب.

ومن المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لما كان أصلا للكائنات، أظهر الله منه العرش والفرش وما بينهما، فسار فى مراتب العوالم الروحانية والجسمانية إلى أن ظهر وجوده الشريف العنصرى، وبظهوره تم المطلوب، فلذلك كان آخر الأنبياء، وخاتم المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وسيأتى فى (المقالة الخامسة) بيان نشأته الروحانية، ونشأته العنصرية الجسمانية، فهو صلى الله عليه وسلم مرسل رحمة للعالمين، فعند مبعثه كذلك كان من الصدفة أن هرقل قيصر الروم وكسرى برويز ملك الفرس قد حصل بينهما مشارطة صلحية تقتضى أن كلا منهما يحفظ حدود مملكته الأصلية، ولم تكن هذه المشارطة فى الحقيقة إلا عبارة عن متاركة ومهادنة بين

الدولتين، فبينما كسرى جالس فى إيوانه يتلقى سفراء الدول الأجنبية وهو فرح مسرور بزينته وزخارفه وجلالة قدره وعظمة سلطانه، يكاد أن تعبده رعاياه لهيبته وكبريائه، إذ أخبر أنه وفد عليه قاصد من النبى العربى، صلى الله عليه وسلم، بكتاب، فأمر بإحضار الرسول، وكان الكتاب على يد عبد الله بن حذافة، وقيل مع غيره، وصورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. إسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

فأخذ كسرى منه الكتاب، ولم يقف إلا على قراءة صدره، ومزقه قبل أن يعلم ما فيه. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند ذكر هرقل ملك الروم، وإنه لما مزقه وأخبر بذلك صلى الله عليه وسلم قال: «مزق الله ملكه»، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم.

على أن انصداع الإيوان وقت ولادته صلى الله عليه وسلم من دلائل انصداع ملك فارس، ولا غرابة فى تمزيق كسرى لكتاب النبى، صلى الله عليه وسلم، لشدة كبريائه وعظمته، مع مناهزة ذلك لغلبة هرقل ملك الروم عليه، لأنه كان يرى فى نفسه أنه ملك الملوك وسلطان السلاطين، فعجب من كون أحد أشراف العرب قدَّم فى الكتاب اسمه على اسمه، ففهم كسرى منه قصد العلو والشرف عليه، فغضب لذلك، ومزق الرسالة الشريفة، فكان كالساعى لحتفه بظلفه.

فلما تقدم الإسلام بسرعة الفتوح، واتسعت دائرته، تعجبت دولة فارس من ذلك غاية العجب، إلا أنه لم يخطر ببالهم أنه آن آوان وقوعهم فى الأخطار والمهالك، ودوران رحى الشدائد عليهم، وزوال دولة مملكتهم التى هى أعظم الممالك، ولا ظنوا أن الإسلام يفتح عندهم جميع الأبواب والمسالك، ولا أن دولة العرب تصل إلى هنالك.

وأما هرقل، ملك الروم، الذى دفع الوافد عليه بالتى هى أحسن، ولم يسلك

السبيل الأخشن فلم يتمزق ملكه إلا باستيلاء الإسلام، وكان كل ذلك ببركته صلى الله عليه وسلم وعلى أيدى صحابته الكرام.

فقد استبان من هذا أن وقائع الأحوال السالفة على البعثة كانت لحكمة إلهية، ومعونة إرهاصية، لما تقتضيه رسالة النبى عليه الصلاة والسلام من الغزو والجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

وسيأتى فى (المقالة الخامسة) ذكر ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم من ظهوره وبعثته وأحواله وشؤونه وسيرته الشريفة، وما كان من أصحابه رضى الله تعالى عنهم من جهادهم فى سبيل الله وفتحهم الأمصار التى من جملتها مصر كنانة الله فى أرضه، التى كان فتحها فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، على يد عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنه، وما يتعلق بالديار المصرية إلى عهدنا هذا.

* * *

قد تم (الجزء الأول) من (توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل) ويليه (الجزء الثانى) وأوله (المقالة الخامسة) فى ظهوره صلى الله عليه وسلم، فبمنة تعالى وعونه وحسن توفيقه، وعناية ولى النعم الأكرم يصير إتمام (الجزء الثانى) على أكمل حال وأجمل منوال، ويعد أيضا من المحاسن العصرية، التى تجددت فى أيام خديو المملكة الجليلة المصرية، أبقاه مولاه، بجاه محمد ومن والاه، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وصحبه أجمعين.